

جامع التواريخ

فؤاد عبدالمعطى الصياد

جامع التواريخ

تأليف

رشيد الدين فضل ا الهمذانى

تاريخ غازان خان

دراسة وترجمة

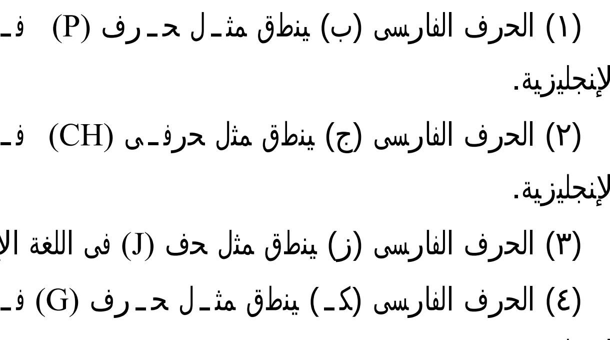
د. فؤاد عبد المعطى الصياد

أستاذ بكلية الآداب

جامعة عين شمس

المقدمة والدراسة

كيفية نطق الحروف الفارسية
المستعملة فى هذا الكتاب



(١) الحرف الفارسى (پ) ينطق مثـل حـرف (P) فـى اللغـة الإنجليزية.

(٢) الحرف الفارسى (چ) ينطق مثل حرفـى (CH) فـى اللغـة الإنجليزية.

(٣) الحرف الفارسى (ژ) ينطق مثل حف (J) فى اللغة الإنجليزية.

(٤) الحرف الفارسى (گـ) ينطق مثـل حـرف (G) فـى اللغـة الإنجليزية.

فى مثل كلمات: Big - Gun - Garden

أو مثل الجيم المصرية فى اللهجة الدارجة.


مُقَدِّمَة

مُقَدِّمَة

هذه ترجمة كاملة قمت بها لتاريخ غازان خان الذى يكـون قسـما مهمـا من كتاب جامع التواريخ، تأليف مؤرخ المغول الكبير "رشـيد الدين فضل ا الهمذانى". ولا شك أن الترجمة ضرورة إنسانية وفكرية وحضارية لا غنى عنها لكل أمة حية تنشد الكمال الإنسانى أو الاقتراب منه فى الأقل. كما أن ترجمة الآثار الفكرية من أجدى أنواع الترجمـة وأهمها لأنها تفسح المجال واسعا أمـام أبنـاء مختلـف أمـم الأرض للاطلاع على ميراث بعضها والإفادة منه وربما التأثر به أيضا[1].

ولن يتسنى للشعوب – وفى طليعتها العرب – أن تنال نصيبها من التراث الإنسانى بشقيه العلمى والثقافى إلا عن طريق الترجمة؛ فهـى الجسر الوحيد الذى نعبر عليه إلى حياة علمية راقية[2].

وخير ما نذكره فى هذا المقام هو ما سبق أن قاله أستاذنا المرحوم الدكتور إبراهيم أمين الشواربى: "لو استطاع كل متخصص فى علم من العلوم أو فن من الفنون أن ينقل إلى العربية كتابا واحدا مـن أمهـات

---

(١) سياست نامه أو سير الملوك، تأليف نظام الملك الطوسى، ترجمة الدكتور يوسف حسين بكار، الطبعة الثانية، ص٥ الدوحة – دولة قطر، ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م.

(٢) مجلة القافلة: مقالة الدكتور زهير عبد الوهاب بعنوان: حاجتنا إلـى الترجمـة، العدد الثالث، المجلد الرابع والأربعون، ص١٠، عدد ربيع الأول ١٤١٦هـ – يولية – أغسطس ١٩٩٥م، المملكة العربية السعودية.

الكتب المتعلقة بموضوع تخصصه، لكان للعربية من مجموع هذه الترجمات ثروة طائلة كفيلة بأن تجدد الفكر العربى واللغة العربية تجديدا كاملاً، ينتهى بنا إلى نهضة كاملة شاملة كالتى حدثت فى أوروبا عندما نقلت إلى لغاتها الكتب العربية والشرقية فى سالف الوقت والزمان، ولاستكملنا بهذه الثروة العريضة ما نقصنا فى الفترة التى وقفنا فيه موقف الفتور والتكاسل والتخاف والتواكل"(١).

كان رشيد الدين مؤرخًا كبيرا وكاتبا موسوعيا أحاط علمه بكثير من أنواع المعارف والثقافات. ولكن شهرته كمؤرخ كانت تأتى فى المقدمة دائما. وعندما حاول المستشرقون دراسة متعمقة كان أول ما استرعى نظرهم كتابه جامع التواريخ. وكانوا على صواب فيما ذهبوا إليه، لأن كتابه التاريخى هو الذى أذاع صيته ورفع قدره وسجل اسمه بين النابغين الأفذاذ من أبناء الشرق الإسلامى.

ومن المتفق عليه أيضا أن القيمة الحقيقية لهذا الكتاب إنما تتجلى فى المجلد الأول المتضمن تاريخ المغول؛ فعندما تحدث رشيد الدين عن هؤلاء القوم ذكر أصلهم ونشأتهم وقبائلهم وعاداتهم وتقاليدهم وفتوحاتهم على نحو دقيق ومفصل لم نشهده فى أى مصدر آخر.

---

(١) تاريخ الأدب فى إيران من الفردوسى إلى السعدى، تأليف المستشرق الكبير إدوارد جرانفيل براون، نقله إلى العربية الدكتور إبراهيم أمين الشواربى، ص ت، القاهرة ١٣٧٣هـ - ١٩٥٤م.

ولا شك أن الباحث يهمه عندما يتناول التاريخ المبكر للإمبراطورية المغولية أن يستطيع التمييز بين الحقـائق التاريخيـة المقبولـة وبـين الأساطير. ثم إن المعلومات عن المغول الأول لتبدو جوهرية للطالـب الذى يريد أن يتناول بإحكام علاقتهم الخارجية فيبـرز تـأثيرهم فـى الجنس البشرى خارج حدودهم. كذلك تبرز أهمية الكتاب فيما نقـرؤه عن المغول فى الأحداث التى كان يعايشها المؤرخ؛ فقد عاصر دولـة المغول فى أبهى فتراتها، وشاهد حصار بغداد وفتحها على يد هولاكو خان، والتحق بخدمة أعظم سلاطين الإيلخانيين وبلغ أسمى المراتب فى عهد غازان وأولجايتو وفترة من حكم أبى سعيد بهادر خـان، ولعـب دورا هامـا فى سياسة دولة المغول وإدارتها. فإذا جاء هـذا المـؤرخ وأرخ لهذه الفترة، فإنه يؤرخ لأحداث كان يعاصرها ويشهدها بعينـى رأسه، ويصفها وصف المثقف الخبير بشئون الحياة. كـذلك اسـتطاع الاطلاع على الوثائق المكتوبة والإفادة منها. وهذه ميـزة كبيـرة لـم تتوافر لغيره ممن كتبوا عن تاريخ المغول من السابقين أو المعاصرين له.

لكل هذه الميزات لقى المجلـد الأول مـن هـذا الكتـاب اهتمـام المستشرقين والباحثين فخصوه بعنايتهم، وعكفوا على تحقيقه ونشـره وترجمته إلى مختلف اللغات الأوربية وجاءت هذه الترجمات مصحوبة

بالشروح والتعليقات. وكان فى مقدمة ما عنوا به القسم المشتمل علـى تاريخ الإيلخانيين "سلاطين المغول فى إيران"، فهو عظيم الأهمية:

أولاً: وبالذات لعرض الأحداث التى وقعت فـى القـرنين السـابع والثامن الهجريين "الثالث عشر والرابع عشـر الميلاديـين"، وشـملت إيران وجورجيا وأرمينية ووسط آسيا وغربها.

ثانيا: للحديث عن الإصلاحات المختلفة التى قام بها غازان خان.

ولم تكن اللغة العربية بمعزل عن الاستفادة من هذا الأثـر الخالـد أيضا؛ فقد شاركتُ المرحومين الأستاذين محمد صادق نشأت والدكتور محمد موسى هنداوى فى ترجمة النص المتعلق بتاريخ هولاكو خـان، ونشر فى القاهرة عام ١٩٦٠م تحت عنوان: جامع التـواريخ: رشـيد الدين فضل ا الهمذانى: تاريخ المغول، المجلد الثانى - الجزء الأول - الإيلخانيون: تاريخ هولاكو.

وهذا القسم سبق أن حقق نصـه الفارسـى المستشـرق الفرنسـى كاترمير مع ترجمة فرنسية للمتن الفارسى، ونشر الأصل والترجمة فى باريس عام ١٨٣٦م. وقد صحب المتن كثير من الحواشى والتعليقـات المستفيضة التى تدل على اطلاع واسع وعلم غزير. وصـدرت هـذه الطبعة بمقدمة باللغة الفرنسية ذات قيمة علمية كبيرة عن حياة رشـيد الدين وآثاره. هذا وقد قام المرحوم الدكتور محمد القصـاص بترجمـة

هذه المقدمة إلى اللغة العربية، تصدرت الترجمة العربية لتاريخ هولاكو خان على النحو الذى ذكرناه سابقًا.

كذلك شاركتُ الأستاذ محمد صادق نشـأت فـى ترجمـة الـنص المتضمن تاريخ أبناء هولاكو خان من آبا قاخان إلى كيخـا توخـان. وهذا النص سبق أن نشره بالفارسية المستشرق "كارل يان" فى بـراغ عام ١٩٤١م. وقد صدرت الترجمة العربية أيضا فـى القـاهرة عـام ١٩٦٠م.

ثم قمت بمفردى بترجمة قسم آخر من هذا الكتاب بعنوان: "جـامع التواريخ" تأليف "رشيد الدين فضل ا الهمذانى": "تاريخ خلفاء جنكيـز خان من أوكتاى قا آن إلى تيمور قا آن، بيروت ١٩٨٣م. وذلك عـن الطبعة التى نشرها بالفارسية المستشرق الفرنسى بلوشيه " Blochet " فى ليدن سنة ١٣٢٩هـ – ١٩١١م ضمن سلسلة جب التذكارية. وقـد تم صدور هذه الأجزاء الثلاثة بإشراف أستاذنا المرحوم الدكتور يحيى الخشاب ومراجعته.

وعلى هذا يتبقى من تاريخ الإيلخانيين قسم هام جدا، وهـو الـذى يتناول تاريخ غازان خان. ولعل هذا القسم هو أهم أقسام جامع التواريخ لأنه يتضمن الإصلاحات العديدة التى قام بها غازان وتناولتْ كل شئون الحياة من إدارية واقتصادية وقضائية وعمرانيـة. وقـد قـدر لهـذه

الإصلاحات البقاء الطويل بعد ذلك فى الممالك الإسلامية. ولا شك أن هذه الجوانب تجذب أنظار الذين يؤرخون للحضارة الإسـلامية. كمـا تحظى باهتمام الباحثين والدارسين .

وقد لوحظ أن المؤرخ رشيد الدين ذكر تاريخ "بايدو" ضمن تـاريخ غازان خان لأن "بايدو" فى الحقيقة تولى الحكم لفترة قصـيرة جـدا لا تزيد على ستة أشهر، من جمادى الأولى إلى ذى القعدة سنة ٦٩٤هـ ـ – أبريل إلى أكتوبر سنة ١٢٩٤م، فرأى رشيد الدين أن يكتب تـاريخ هذا الإيلخان كجزء لا ينفصل عن تاريخ غازان الذى حـارب بايـدو وانتصر عليه، وتولى الحكم بعده فى سنة ٦٩٤هـ – ١٢٩٤م، وذلـك على النحو الذى يطالعه القارئ فى الترجمة.

هذا قليل من كثير مما حواه النص الفارسى لتاريخ غازان. ويرجع الفضل الكبير فى تحقـ ـ ـ ـيق هذا القسم أيضا إلى الأسـتاذ العـالم المستشرق كارل يان " Karl Jhan " الذى قام بنشره بعنوان: "كتـاب تأريخ مبارك غازانى: داستان غازان خان " تأليف رشيد الدين فضـل ا بن عماد الدولة أبى الخير بسعى واهتمام وتصحيح أقل العباد كارل يان، هرتفورد، إنجلترا سنة ١٣٥٨هجرى مطابق ١٩٤٠مسيحى. وقد صدر المحقق هذه الطبعة بمقدمة كتبها باللغة الألمانية.

وفى عصرنا الحاضر نال كتاب جامع التواريخ حظًا وافرا من عناية الأفراد والحكومات، وحدثت تطورات واتجاهات مختلفة، وكلها تؤكد ضرورة دراسته كأثر من آثار الشرق التاريخية.

ونظرا للأهمية القصوى للمجلد المتعلق بتاريخ الإيلخانيين، استقر الرأى على أن يبدأ العلماء الروس بنشره اعتمادا على أوثق المخطوطات الخاصة بكتاب جامع التواريخ والمحفوظة بمكتبات العالم. ثم عهد إلى الأستاذ "عبد الكريم على أوغلى على زاده" بتحقيقه ونشره، وصدر ضمن منشورات مجمع علوم جمهورية روسيا السوفيتية الاشتراكية بآذربيجان – معهد التاريخ، باكو ١٩٥٧م.

ولما كان هذا المجلد يضم قسما كبيرا يشتمل على تاريخ غازان خان، وكان لا يزال فى نصه الفارسى، عقدتُ العزم على ترجمته أيضا إلى اللغة العربية؛ إذ رأيته أصح وأدق بالقياس إلى غيره من الطبعات.

بقى أن نقرر أن رشيد الدين قد أنهى المجلد الأول من كتابه بتأريخه لغازان خان، وأنه لم يستكمل تاريخ الإيلخانيين؛ إذ لا يزال هناك اثنان من كبار الإيلخانيين حكما إيران بعد غازان وهما السلطان أولجايتو محمد خدابنده (٧٠٣ – ٧١٦هـ/ ١٣٠٣ – ١٣١٦م) وابنه السلطان أبو سعيد بهادر خان (٧١٦ – ٧٣٦هـ / ١٣١٦ – ١٣٣٥م).

وقد أعقب هذين الاثنين حفنة من الأمراء الضعاف المتنازعين الذين تم على أيديهم انقراض هذه الدولة وانتهاء حكمها لإيران[١].

وفى العصر التيمورى ظهر مؤرخ آخر اسمه "حافظ آبرو"[٢] كتب تكملة بالفارسية لكتاب جامع التواريخ، أطلق عليه اسـم "ذيـل جـامع التواريخ رشيدى". وقد ألف هذا الكتاب تلبية لطلب "شاهرخ بن تيمـور لنكـ"، ويتناول شرح الوقائع والأحـداث ابتـداء مـن سـنة ٧٠٣ – ٧٨١هـ / ١٣٠٣– ١٣٧٩م. وقد قام بتحقيق هـذا الكتـاب الـدكتور "خانبا بابيانى"، ونشره فى طهران عام ١٣٥٠ هـ.ش. وأرجو أن تتاح لى الفرصة كى أقوم بترجمة هذا الكتاب أيضا إلى لغتنا العربية.

---

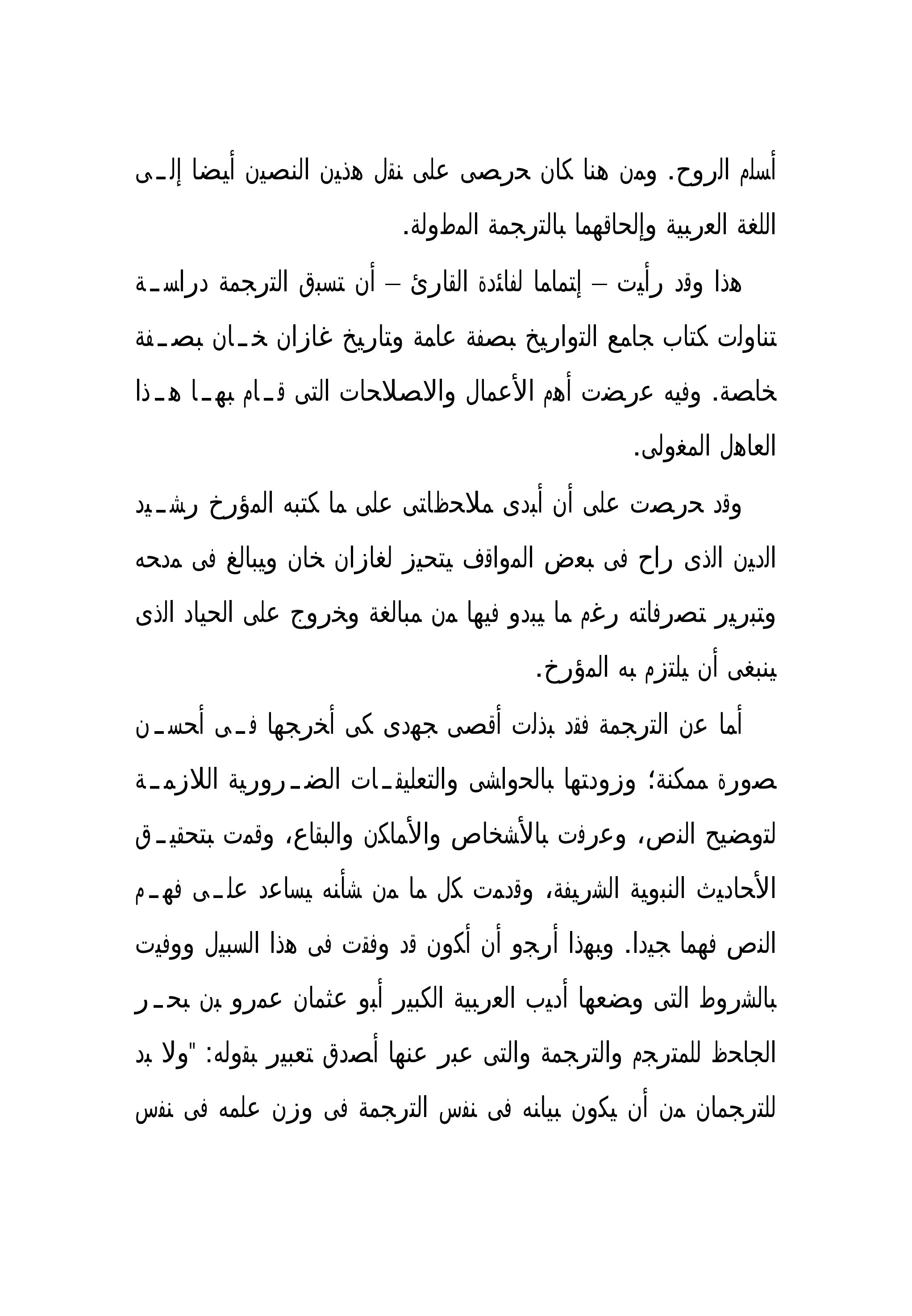
(١) انظر كتاب الشرق الإسلامى فى عهد الإيلخانيين (أسرة هولاكو خـان) تـأليف الدكتور فؤاد عبد المعطى الصياد ص٤٨٩ وما بعدها، منشورات مركز الوثائق والدراسات الإنسانية بجامعة قطر الدوحة (١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م).

(٢) للحصول على معلومات مفصلة عن هذا المؤرخ ومؤلفاته انظر: "ذيـل جـامع التواريخ رشيدى"، شامل وقايع (٧٠٣ – ٧٨١) هجرى قمرى، تأليف حافظ آبرو باهتمام دكتر خانبا بابيانى، جاب دوم، ص٦ وما بعدها تهران ١٣٥٠ هـ؛ از سعدى تاجامى: تاريخ أدبى إيران ازنيمة قرن هفتم تا آخر قرن نهـم هجـرى: عصر استيلاى مغول وتاتار، تأليف إدوارد برون انكليسى، ترجمة وحواشى بقلم على أصغر حكمت، ص٤٧٣-٤٧٦، تهران ١٣٢٧ هـ.ش / ١٩٤٨م Storey: Persian Literature, Section II, Fasciculus, I, PP.٨٦ – ٨٩, Landon, I, ١٩٣٦. دائرة المعارف الإسلامية، الترجمة العربية، المجلد السابع، ص ٢٥٩ – ٢٦٠.

أما فى ترجمتى الحالية لتاريخ غازان خان، فقـد حرصـت أشـد الحرص على الالتزام بكل ما جاء فى النص الأصلى مع ذكر صفحات نسخة الأصل لسهولة المتابعة. وأكثر من هذا عندما لاحظت أن المحقق قد ألحق بالكتاب مجموعة من النصوص المختارة الإضافية، عثر عليها فى مخطوطة أخرى من كتاب جامع التواريخ، عكفت على قراءتهـا، واخترت منها نصين قمت بترجمتهما أيضا لأنهما يفيدان القارئ فائـدة محققة.

أما النص الأول فيتعلق بلجوء "نوروز" إلى "قايدو خان" حاكم مـا وراء النهر من المغول الجغطائيين طالبا نجدته ومسـاعدته لمحاربـة غازان، وذلك بعد أن خرج نوروز عن طاعته وعصا أمـره. وكـان غازان – فى ذلك الوقت – يشغل وظيفة الحاكم على إقليم خراسان من قبل أبيه أرغون خان (٦٨٣ – ٦٩٠هـ / ١٢٨٤ – ١٢٩١م). وممـا هو جدير بالذكر أن هذا النص لم يرد فى النسخة التى قمت بترجمتها. وكل ما ذكر فى هذا الشأن لا يعدو أن يكون مجرد إشارات مختصـرة جدا.

وأما النص الثانى فيتعلق باعتناق غازان الدين الإسـلامى وتـرك عبادة الأوثان. وهذا النص يحتوى على معلومات أكثر مما ذكـر فـى النسخة الأصلية، ويهم القارئ أن يطلع على كل التفصـيلات المتعلقـة بهذا الحدث الكبير الذى كان له أبلغ الأثر فى حياة غازان خان إلى أن



أسلم الروح. ومن هنا كان حرصى على نقل هذين النصين أيضا إلى اللغة العربية وإلحاقهما بالترجمة المطولة.

هذا وقد رأيت – إتماما لفائدة القارئ – أن تسبق الترجمة دراسة تناولت كتاب جامع التواريخ بصفة عامة وتاريخ غازان خان بصفة خاصة. وفيه عرضت أهم الأعمال والاصلاحات التى قام بها هذا العاهل المغولى.

وقد حرصت على أن أبدى ملاحظاتى على ما كتبه المؤرخ رشيد الدين الذى راح فى بعض المواقف يتحيز لغازان خان ويبالغ فى مدحه وتبرير تصرفاته رغم ما يبدو فيها من مبالغة وخروج على الحياد الذى ينبغى أن يلتزم به المؤرخ.

أما عن الترجمة فقد بذلت أقصى جهدى كى أخرجها فى أحسن صورة ممكنة؛ وزودتها بالحواشى والتعليقات الضرورية اللازمة لتوضيح النص، وعرفت بالأشخاص والأماكن والبقاع، وقمت بتحقيق الأحاديث النبوية الشريفة، وقدمت كل ما من شأنه يساعد على فهم النص فهما جيدا. وبهذا أرجو أن أكون قد وفقت فى هذا السبيل ووفيت بالشروط التى وضعها أديب العربية الكبير أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ للمترجم والترجمة والتى عبر عنها أصدق تعبير بقوله: "ولا بد للترجمان من أن يكون بيانه فى نفس الترجمة فى وزن علمه فى نفس

المعرفة، وينبغى أن يكون أعلم الناس باللغة المنقولة والمنقول إليها، حتى يكون فيهما سواء وغاية"[1].

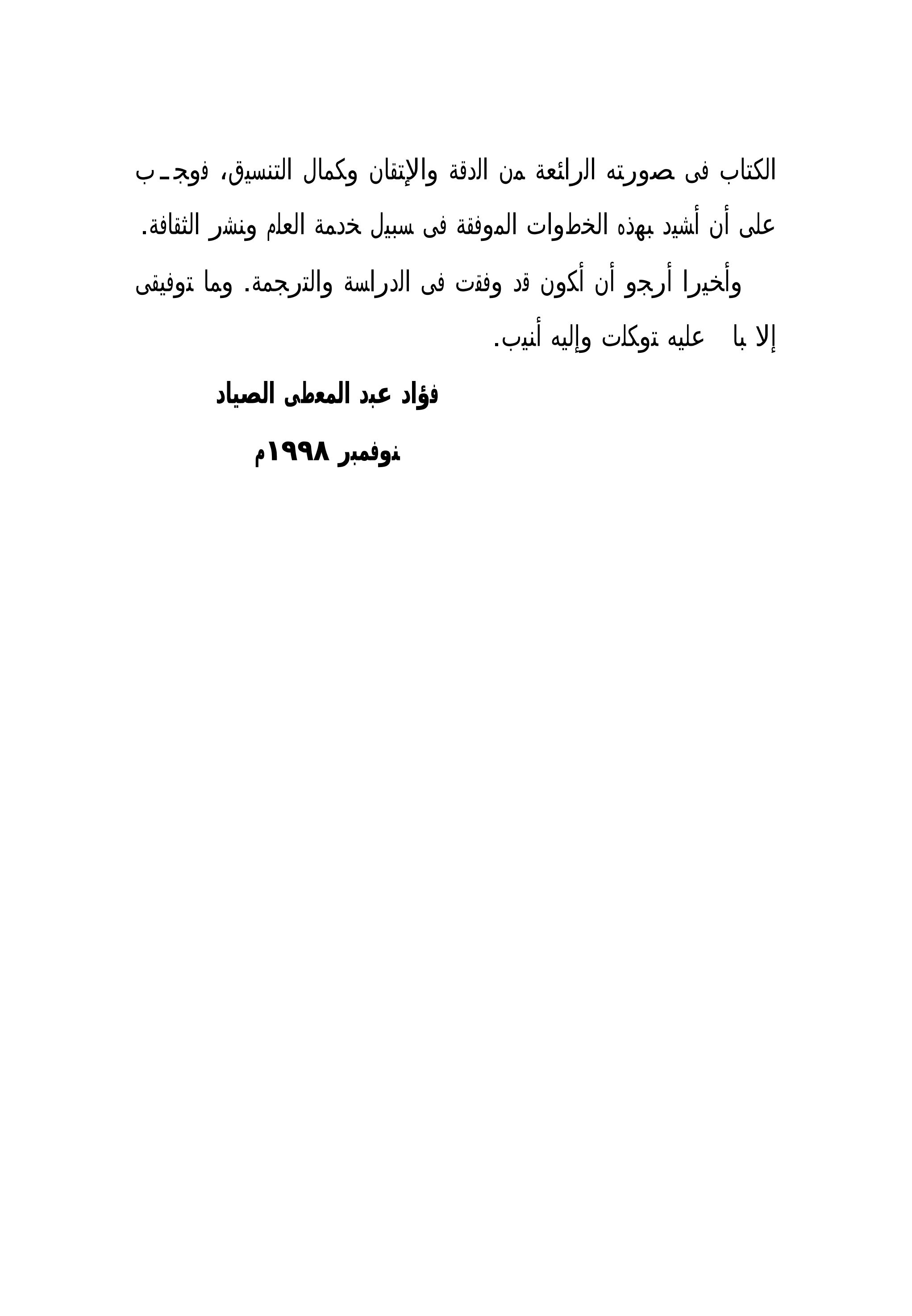
وبعد، فقد آن الأوان كى نبحث ونفتش وننقب عن تراثنا العربى والإسلامى إما عن طريق التأليف أو عن طريق الترجمة؛ خصوصا فى مرحلتنا الحاضرة التى نحن أحوج ما نكون فيها إلى العمل الجدى الدؤوب المثمر؛ كى نوفر للبحث العلمى أصوله الضرورية ثم نضع هذا كله فى متناول الباحثين والدارسين.

وقبل أن أختم هذه المقدمة أتوجه بخالص الشكر وفائق التقدير إلى الزميلين الفاضلين: الأستاذ الدكتور محمد السعيد جمال الدين رئيس قسم لغات الأمم الإسلامية بكلية الآداب بجامعة عين شمس والدكتور صبرى عبد اللطيف سليم المدرس بكلية الدراسات العربية بالفيوم على ما قدماه لى من مساعدة قيمة؛ فجزاهما ا عن العلم وأهله خير ما يجزى به العاملين المخلصين.

كذلك أجد لزاما على وفرضا مقدسا فى عنقى أن أنوه بالجهود التى بذلها القائمون على شئون الدار الثقافية للنشر، حتى أمكن إخراج هذا

---

(١) كتاب الحيوان، بتحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، ج١ ص٧٦، الطبعة الثالثة، بيروت ١٣٨٨هـ - ١٩٦٩م.



الكتاب فى صورته الرائعة من الدقة والإتقان وكمال التنسيق، فوجـب على أن أشيد بهذه الخطوات الموفقة فى سبيل خدمة العلم ونشر الثقافة.

وأخيرا أرجو أن أكون قد وفقت فى الدراسة والترجمة. وما توفيقى إلا با عليه توكلت وإليه أنيب.

فؤاد عبد المعطى الصياد

نوفمبر ١٩٩٨م

الدراسة

أولاً : رشيد الدين وكتابه جامع التواريخ

هو رشيد الدين فضل ا بن عماد الدولة أبى الخير ابن موفق الدولة الهمذانى[1]. كان جده موفق الدولة يعيش مع الخواجة نصير الدين الطوسى فى قلاع الإسماعيلية بقهستان ثم التحق بخدمة هولاكو خان على أثر استيلائه على تلك القلاع[2].

ولد رشيد الدين فى همذان سنة ٦٤٥هـ/١٢٤٧م، وأمضى فترة شبابه هناك فى تحصيل العلوم المختلفة وبخاصة الطب. وعن طريق مهنة الطب عمل طبيبا فى بلاط آبا قاخان (٦٦٣-٦٨٠هـ/١٢٦٤-١٢٨١م) ثم صار يترقى شيئًا فشيئًا إلى أن عين وزيرا فى عهد السلطان غازان خان (٦٩٤-٧٠٣هـ/١٢٩٤-١٣٠٣م)، واستمر يتقلد أعباء هذا المنصب فى عهد السلطان أولجاتيو (٧٠٣-٧١٦هـ/١٣٠٣-١٣١٦م) وابنه السلطان أبى سعيد بهادر خان (٧١٦-٧٣٦هـ/١٣١٦-١٣٣٥م).

---

(١) انظر المزيد من التفصيلات فى كتاب مؤرخ المغول الكبير رشيد الدين فضل ا الهمذانى، الطبعة الأولى تأليف الدكتور فؤاد عبد المعطى الصياد، القاهرة ١٣٨٦هـ – ١٩٦٧م؛ آئين كشور دارى در عهد وزارت رشيد الدين فضل ا همدانى، تأليف دكتر هاشم رجب زاده، تهران ٢٥٣٥ شاهنشاهى.

(٢) انظر كتاب المغول فى التاريخ، تأليف الدكتور فؤاد عبد المعطى الصياد، ص٢٣٣ وما بعدها، القاهرة ١٩٧٥م.

كان رشيد الدين من أصل يهودى[٣]. ثم أسلم وخلص إسلامه. وكان يسير فى حياته الرسمية سير المسلم الصحيح الإيمان الكامل العقيـدة. وهناك علماء لا سبيل إلى الشك فى حسن نيتهم وكفاءتهم شهدوا بصحة عقيدته فى كتاباته وفى حياته، وأن أعماله كلها كانت خيرا وبركة على الإسلام والمسلمين.

استمر رشيد الدين يعيش معززا مكرما. لكنه فى أوائل عهد أبـى سعيد وقع فريسة للدسائس والمؤامرات التى كان يحيكها له زميله فـى الوزارة "على شاه الجيلانى" وانتهى الأمر بقتله – بغير حـق – بـأمر أبى سعيد بالقرب من تبريز فى جمـادى الأولـى عـام ٧١٨هـ ـ /

---

(١) انظر فؤاد عبد المعطى الصياد: مؤرخ المغول الكبير رشيد الـدين فضـل ا الهمذانى، ص٩٤ وما بعدها؛ مجموعة خطابه هاى تحقيقى در باره رشيد الدين فضل ا همدانى: مقالة الأستاذ عباس زرياب خويى بعنوان: سه نكته در بـارة رشيد الدين فضل ا "، ص ١٢٣-١٣٥، طهران ١٣٥٠هـ.ش؛ جامع التواريخ رشيد الدين فضل ا همدانى، به تصحيح وتحشية محمد روشـن – مصـطفى موسوى، جلد أول، ص٧٣ وما بعدها من المقدمـة، تهـران ١٣٧٣هـ ـ.ش؛ Walter J. Fischel: Jews in Economic and Political life of Mediaeval Islam, Royal Asiatic Socity Monographs, Vol. XXII, PP. ١١٨-١٢٥, London ١٩٣٧, Encyclopaedia Judaica, Vol ١٣. P. Rec. Second Printing, p. ١٥٦٦, Jeruslem, ١٩٧٣. دكتر شيرين بيانى (اسلامى ندوشن): دين ودولـت در إيـران عهـد مغـول، حكومت إيلخانى: نبرد ميان دو فرهنكـ، جلد دوم، ص٤٩٠-٤٩٣، جاب أول، تهران ١٣٧١هـ.ش

١٣١٨م، وهو فى الثالثة والسبعين من عمره. وبذلك أنهوا حياة أحد عظماء الحكماء والأطباء والكُتاب والمؤرخين والوزراء[١]. وعلى أثر مقتله نهبت جميع أمواله وممتلكاته، وخربت محلة "الربع الرشيدى" التى أقامها شرقى تبريز، وأتلفت المكتبة التى كان يضمها هذا الربع، وكانت تحوى ستين ألف مجلد[٢].

كان رشيد الدين رجلاً واسع الأفق غزير الثقافة، يعرف كثيرا من اللغات والثقافات العبرية والفارسية والعربية والتركية والمغولية. وعندما تولى غازان خان عرش المغول، وعرف فى مؤرخنا النبوغ والذكاء ولمس فيه الإخلاص والوفاء، لم يكتف بتقليده منصب الوزارة فحسب، بل كلفه بعمل أدبى كبير هو تأليف كتاب جامع فى تاريخ المغول. ولكى تكتمل عناصر النجاح لهذا المشروع، وضع غازان خان تحت تصرف رشيد الدين خير المصادر وأندرها فى الإمبراطورية المغولية كالوثائق والسجلات التى كان على رأسها "التون دبتر" (الكتاب الذهبى) الذى يشتمل على التاريخ الرسمى للمغول. كذلك استطاع رشيد الدين أن يحصل على الكثير من الروايات الشفوية التى كان يدور معظمها على لسان غازان نفسه والأمير "بولاد جينك سيانك" سفير

(١) على أكبر دهخدا: لغت نامه، شمارة مسلسل ١٢٨، شمارة حرف ر (بخش أول)، ص٤٦٩، تهران، فروردين ١٣٤٦هـ.ش.

(٢) أدبيات إيران در زمان سلجوقيان ومغولان، تأليف بروفسور "يان ريبكا"، ترجمة دكتر يعقوب آزند، ص١٤٧، جاب أول، تهران ١٣٦٤ هـ.ش.

الخاقان فى بلاط غازان خان. وكان كلا الرجلين قد اشـتهر بمعارفـه الواسعة وإحاطته التامة بتاريخ المغول[1]. وهكذا تهيأت الفرصة لرشيد الدين لأن يكتب كتابا مدعما بخير الوثائق، كتابا يمكن اعتباره فريدا فى نوعه فى تاريخ المغول منذ أقدم الأزمنة حتى عصر التأليف.

اهتم رشيد الدين بهذا التكليف غاية الاهتمام، ووضع نصب عينيـه أن ينجز مهمته على الوجه الأكمل. ورغم أنه لم يكن متفرغًا تماما لهذا العمل الشاق استطاع أن يقطع شوطًا بعيدا فى تأليف هذا الكتاب الـذى أطلق عليه اسم "تاريخ غازانى". وبينما كان رشيد الدين علـى وشـك الفراغ من مهمته، مات فجأة السـلطان غـازان خـان فـى شـوال ٧٠٣هـ/١٣٠٣م، فتولى أخوه أولجاتيو عرش المغول، وأبقى رشـيد الدين فى منصبه، وكلفه بأن ينجز تاريخ المغول، وأن يستمر فى إهدائه إلى غازان اعترافًا بالجميل نحو ذكرى هذا الراحل الذى بفضله كـان التفكير فى تأليف هذا الكتاب. وفى الوقت نفسه، كلف السلطان أولجاتيو وزيره رشيد الدين بمهمة جديدة هى أن يكتب مجلدا ثانيا يشتمل علـى تاريخ لجميع الشعوب التى اتصل بها المغول أثناء فتوحاتهم.

وفى هذه المرة أيضا استجاب رشيد الدين لطلب السـلطان، وأرخ للدول التى قامت قبل الإسلام وبعده فى الشرق والغرب، ورجـع فـى استقاء مادته العلمية إلى مصادر متخصصة. كما اسـتطاع بمسـاعدة

---

(١) انظر الترجمة العربية.

العلماء الذين كانوا يقطنون تبريز والسلطانية فى ذلك الوقت – وكـان منهم الصينيون وأهل التبت والأويغوريون والهنود والفرنج – أن يفرغ من تأليف كتابه فى سنة ٧١٠هـ/١٣١٠م، وأطلق على العمل بأكملـه اسم "جامع التواريخ"؛ فكان أقيم كتب التاريخ العامة. كمـا أن أهميتـه كبيرة فى الكتابة التاريخية بأسرها. كذلك كـان أول تـاريخ عـالمى معروف بالمعنى الصحيح، وأول مجموع منظم للتطور التاريخى لكـل الأوطان التى تحتل قارة أوراسيا (أوربا وآسيا) من المحيط الهادى إلى المحيط الأطلسى. يقول المستشرق الروسى بارتولد: "اتخـذ مصـنف رشيد الدين صورة موسوعة تاريخية ضخمة لم يوجد لها مثيـل عنـد شعب من شعوب القرون الوسيطة سواء أكان ذلك بآسيا أم بأوروبـا. وإن مجرد الاضطلاع بتنفيذ مشروع ضخم كهذا يستند علـى مجهـود علماء من مختلف الشعوب ليقف مثلاً حيا للنتائج الإيجابية التى تمخض عنها الغزو المغولى حين ربط بين شعوب باعدت بينها الشقة واختلاف الثقافات، وحين تهيأت الظروف الملائمة لظهور ثمار ذلك. وكان رشيد الدين على ثقة من أن الأجيال القادمة ستفيد كثيرا من مصنفاته"[١].

---

(١) انظر بارتولد: تركستان من الفتح العربى إلى الغزو المغولى، نقله عن الروسية صلاح الدين عثمان هاشم، الطبعة الأولـى، ص١٢٠، الكويـت ١٤٠١هـ – ١٩٨١م.

أقسام كتاب جامع التواريخ

يقع هذا الكتاب فى مجلدين:

المجلد الأول: يشتمل على بابين:

الباب الأول: يحتوى على مقدمة وأربعة فصول فى تاريخ القبائل التركية والمغولية وأصولها مع تفاصيل مسهبة عن فروع الأتراك والمغول وأنسابهم وأساطيرهم.

الباب الثانى: تاريخ جنكيز خان وأجداده وأبنائه وأحفاده إلى غازان خان.

المجلد الثانى: يشتمل أيضا على بابين:

الباب الأول: يحتوى على تاريخ أولجاتيو، وهو مفقود من جميع نسخ هذا الكتاب.

الباب الثانى: ويشمل التاريخ العام للعالم، ويقع فى مقدمة وقسمين:

القسم الأول: فى ذكر ملوك الفرس، وذلك منذ عصر كيومرث أول ملوك الفرس الأسطوريين حتى آخر عهد يزدجرد الثالث آخر ملوك الفرس الساسانيين.

وهذا القسم يقع فى أربع طبقات:

أ – طبقة البيشداديين.

ب- طبقة الكيانيين.

ج- طبقة الإشكانيين.

د – طبقة الساسانيين.

القسم الثانى: وينقسم بدوره إلى الأقسام الثلاثة الآتية:

١ – فى ذكر تاريخ النبى ﷺ وتاريخ الخلفـاء الراشـدين والأمـويين والعباسيين حتى آخر عهد المستعصم.

٢ – تاريخ الدويلات التى نشأت فى إيران على أثر ضـعف الخلافـة العباسية. وهـذه الـدويلات هـى: الغزنويـة – السـلجوقية – الخوارزمية – السلغورية (أتابكة فارس) – الإسماعيلية.

٣ – تاريخ الدول الأخرى مثل تاريخ "أوغوار" جد الأتراك – تـاريخ الخطا والصين – تاريخ بنى إسرائيل – تاريخ الإفرنج والقياصرة – تاريخ الهند. وهذا القسم ينتهى بمقالـة طويلـة عـن الديانـة البوذية[١] ومؤسسها ساكيمونى.

وكان من المفروض أن يكتب رشيد الدين مجلدا ثالثًا فى جغرافيـة أقاليم العالم. وقد أشار السلطان أولجاتيو على وزيره بتأليفه أيضـا؛ إلا أنه لم يعثر عليه فى جميع نسخ كتاب جامع التواريخ. ويبدو أن المؤلف لم يكتبه أو أنه كتبه، ولكنه فقد.

---

(١) انحسرت البوذية بدرجة كبيرة من الهند موطنها الأصلى، وانتشـرت انتشـارا واسعا فى اليابان وكوريا والهند الصينية ونيبال والتبت. (انظر موجز تاريخ العلم والحضارة فى الصين، تأليف جوزيف نيندهام، ترجمة محمد غريب جودة، ص ٤٢٦، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٥م).

أهمية كتاب جامع التواريخ:

يعد رشيد الدين بحق أكبر المؤرخين الفرس فى الدولة الإيلخانية وكان ينظر إلى كتابه على أنه أحسن وأكمل كتب التاريخ العام فى الأدب الفارسى، وخير ممثل للاتجاه إلى التأليف فى التاريخ العالمى الذى ساد العصر المغولى؛ إذ كثرت فيه الموسوعات، وتعدد المكثرون من درس الموضوعات التاريخية المختلفة حتى ليصح أن يطلق عليه بحق عصر الموسوعات.

ونحن فى الحقيقة إذا رحنا نكتب بالتفصيل عن أهمية كتاب جامع التواريخ والوقوف على قيمته الحقيقية، فسوف تتشعب الآراء وتطول الصفحات. ولهذا فضلنا أن نقتصر على أبرز ما يميز هذا الكتاب بالنسبة إلى غيره من الكتب.

أولاً: تبدو عبقرية المؤرخ رشيد الدين حقًا فيما كتبه عن تاريخ المغول؛ فقد كشف عن تاريخ هذه الجماعة، وأزال ما كان يكتنفه من إبهام وغموض. ولا شك أن الفصول التى تتناول الحديث عن الأتراك والقبائل المغولية وعن جنكيز خان وأجداده، وانضواء منغوليا تحت لوائه والعبارات المنسوبة إليه، وغير ذلك من ضروب البطولة والصراع لمما يعطى قصة رائعة عن الحياة البدوية التى لم تشوه بضروب المحسنات والتى تثير الرغبة الشديدة، وتلقى الأهمية الكبيرة لدى القراء الأتراك[1].

---

(١) بارتولد: مجلة العالم الإسلامى ص٩٩ Mir Islama.

يقول الأستاذ أحمد زكى وليدى : "اختص رشـيد الـدين المغـول والترك لأول مرة فى التاريخ بنسبتهم إلى مدنية أصيلة تجمعهم، وأفسح لهم مجالاً خاصا بهم"[1].

وإذن فهذا الجزء الخاص بتاريخ المغول ممتاز ورائع؛ حقـق فيـه مؤلفه كل ما وعد به. ونستطيع أن نشهد بأنه الكتاب الوحيد الذى نعثر فيه على أصدق المعلومات عن حياة جنكيـز خـان وخلفائـه وعـن عهدهم[2].

ثانيا: كان رشيد الدين من مؤرخى البلاط، والمشهور عن هـؤلاء أنهم كان يهمهم قبل كل شىء إرضاء السلاطين والأمراء ومجـاراتهم بما يريدونه، وكتابة ما يوافق أغراضهم وميولهم؛ فكان لا بد أن يظهر فى تأريخهم التحيز والتملق وإخفاء الحقائق. فهل كان رشيد الدين على شاكلة هؤلاء، وهل استطاع ككاتب مسلم أن يتجرد من التعصب عندما كان يتصدى لكتابة تاريخ الأمم الوثنية واليهودية والمسـيحية، والـذى كان يتعارض تعارضا تاما مع نصوص القرآن ومبادئ الإسلام؟.

للإجابة عن هذا السؤال نقول: على الرغم من أن رشيد الدين كـان مؤرخًا للبلاط، فإنه التزم الحياد النزيه بقدر المستطاع؛ فهـو معجـب بالمغول، يشيد بأعمالهم، ولكن دون مبالغة ولم يمنعـه قـط اتصـاله

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية، عـالم الإسـلام باللغـة التركيـة، ج٩٨، ص٧١٠، استانبول ١٩٦٣م.

(٢) جامع التواريخ، المجلد الثانى، الجزء الأول، تاريخ هولاكو، مقدمـة كـاترمير، ص١٠٠، القاهرة ١٩٦٠.

بالمغول من أن يقول فيهم كلمة الحق؛ فكان يحكى قسـوتهم الفظيعـة وإسرافهم فى القتل. يقول فى هذا الشأن: "لا يخفى علـى مـن تتبـع التواريخ الصحيحة وسلك الطريق المعقول أنه لم تكن البلاد مطلقًا أكثر خرابا مما كانت عليه خلال هذه السنوات، خصوصا فى المواضع التى وصلت إليها جيوش المغول؛ إذ إنه منذ ابتداء ظهور آدم حتـى قيـام جنكيز خان وذريته، لم يتيسر لأى ملك مثل هذه المملكة الفسيحة التـى سخروها وجعلوها تحت تصرفهم، ولم يقتل أحد فى العالم من الخلـق مثلما قتل هؤلاء المغول[1].

أما كيف أرخ رشيد الدين للأمم غير الإسلامية فهذا أيضا مما يدعو إلى الإعجاب والتقدير، فرغم أنه برهن على تمسكه بالإسلام، إلا أنـه كان يتجنب الطنطنة والتعصب وظل واثقًا من نفسه طول الوقـت؛ إذ كان يعتقد أنه من الضرورى أن تعرض تقاليد كل قوم حسب الصورة التى يحفظ بها الناس هذه التقاليد. يقول فى هذا الصدد: "على المـؤرخ أن يكتب تاريخ كل قوم كما يبدو فى زعمهم، وليس عليه أن يزيد فيـه أو ينتقص منه، فإذا كان حقًا أو كان باطلاً، فلينقل كما هو فى اعتقـاد كل طائفة؛ وذلك يلقى عبء مسئولية الزيادة والنقصان والحق والباطل فى ذلك التاريخ على أصحابه لا على المؤرخ. وإننى أعود وأكرر هذا المعنى هنا أيضا حتى لا أؤاخذ على ما يبـدو غيـر معقـول وغيـر مستساغ، وحتى لا يمتد إلى لسان الطعن فأعذر فى هذا المعنى إن شاء ا الواحد العزيز"[2]. وعلى ضوء هذا الاعتراف الصريح يمكننـا أن

---

(١) انظر الترجمة.

(٢) جامع التواريخ: مخطوط المكتبة الأهلية بطهران، ص٤٣٦.

نقرر أن رشيد الدين لم يكن يعرف النقد التاريخى؛ ونعنى به النظر فى التاريخ بعين النقد وبيان ما قد يعتوره من المغالط والأوهام[1]. يقـول بارتولد "حاول رشيد الدين تسجيل الروايات التاريخية كما سمعها مـن رواتها بدون تغيير؛ فليس كتابه من هذه الوجهة تاريخًا علميا بـالمعنى المفهوم اليوم، إلا أنه يشغل فى آداب العالم مكانة ممتازة من حيث اتساع دائرته. ولم نر اجتماع علماء جميع الأمم المتحضرة فى العالم القـديم وجمعهم للروايات التاريخية المتصلة بالتاريخ العام فى كتاب واحـد لا قبل ذلك الزمان ولا بعده.

وقد كان علماء أوربا حتى القرن التاسع عشر يريدون أن يفهمـوا من التاريخ العام تاريخ أوربا الغربية فقط. ومن رواية أحد مسـاعدى رشيد الدين من كتاب المسلمين يتبين أنه منذ ابتـداء القـرن الثـامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) كان ينظر إلى تاريخ العرب والفـرس كأنه "أحد الأنهر التى تصب فى بحر تاريخ العالم العام"[2].

ثالثًا: أتيح لرشيد الدين فرصة الاطلاع علـى الوثـائق المكتوبـة واستخدامها على نطاق واسع فى استقاء المادة العلمية لتأليف كتابه. أما سلفه عطا ملك الجـوينى[3] فعلـى الـرغم ممـا كـان يتمتـع بـه

---

(١) انظر جرجى زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية، ج٣، ص١٤٨، القاهرة ١٩٣١م.

(٢) تاريخ الحضارة الإسلامية، ترجمة حمزة طاهر، الطبعـة الثالثـة، ص١٢٩ – ١٣٠، نشر دار المعارف بمصر، القاهرة ١٩٥٨م.

(٣) انظر المزيد من التفصيلات عن هذا المؤرخ فى المقدمة المطولة التـى كتبهـا العلامة محمد بن عبد الوهاب القزوينى، محقق كتاب تـاريخ جهانكشـاى، ج١، ليدن ١٣٢٩هـ ـ – ١٩١١م؛ عطـا ملـك الجـوينى وكتابـه جهـان كشـا

كتابه"جهانكشاى"(٤) من شهرة كبيرة فى التأريخ للمغول، كانت تنقصـه هذه الميزة؛ إذ كان اعتماده على الرواية الشفوية. كـذلك عنـدما أرخ رشيد الدين لشعوب العالم المختلفة، كان يستقى معلوماته مـن أوثـق المصادر، ومن أفواه العلماء الثقات والمتخصصين فى تاريخ كل أمـة. ومعنى هذا أن رشيد الدين اعتمد الرواية الشفوية أيضا مصـدرا مـن مصادر التعرف على التطورات السياسية والتاريخية. ولو لم يكن رشيد الدين ثقة فى كل ما كتب لما أشاد به معاصروه ومن جاءوا بعده، ولما قلده كثير من المؤرخين بعد مماته.

رابعا: - ترد بالكتاب إشارات جغرافية هامة عن منـاطق كثيـرة كانت مجهولة لدينا؛ لأننا إذا لاحظنا أن الأقاليم التى اسـتطاع رشـيد الدين أن يجمع عنها المعلومات الإيجابية الصحيحة هى الأقاليم التى لم تكن معروفة لنا قط، وهى الرقعة الممتدة مـن بحـر قـزوين حتـى الأطراف الشرقية، وتحتل وسط آسيا جميعه، وتـذهب حتـى حـدود الصين. وفى هذا العهد، كانـت تلـك الأقـاليم تكـون جـزءا مـن الإمبراطورية المغولية. وقد وصفها رشيد الدين أدق وصف وأصـدقه، وأضاف إلى ملاحظاته الشخصية القيمة ما استطاع أن يجمعـه عـن مواقع المدن وطبيعة الجو وحاصـلات الأرض والعـادات والتقاليـد

تأليف الدكتور السباعى محمد السباعى، ص٧ وما بعدها، القاهرة ١٤١٢هـ - ١٩٩١م؛ علاء الدين عطا ملك الجوينى حاكم العراق بعـد انقضـاء الخلافـة العباسية، تأليف الدكتور محمد السعيد جمال الدين، ص٥ وما بعـدها، القـاهرة ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.

(٤) أى فاتح العالم والمراد به جنكيز خان.

الخاصة. يقول كراتشكوفسكى: "فـى العصـر المغـولى بلـغ الأدب الجغرافى باللغة الفارسية أوجه، ويتبين لنا من خلال فحـص مصـنف رشيد الدين المشهور "جامع التواريخ" الذى وإن كان فى جوهره أثـرا تاريخيا صرفًا، إلا أنه يمكن اعتباره بنفس القدر مصنفًا فى الجغرافيـة التاريخية أيضا"[(1)].

خامسا: - وفق رشيد الدين فى إعطائنا معلومات مفيدة فى بعـض الأقسام التى يحتويها المجلد الثانى المتعلق بالتاريخ العام قد لا نجـدها فى غيره من المصادر؛ فقد أفاض فى الحديث عن طائفة الإسماعيلية، وذكر خلاصة وافيه لكتاب "سركذشت سيدنا"[(2)] الـذى يشـتمل علـى معلومات قيمة عن تاريخ الحسن بن الصباح مؤسس هـذه الجماعـة. فكانت هذه الخلاصة إلى جانب الخلاصة التى كتبها عطا ملك الجوينى فى الجزء الثالث من كتابه تـاريخ جهانكشـاى فـى غايـة الأهميـة والقيمة[(3)]. ولا غرو أن يكون القسم الذى كتبه رشيد الدين عـن هـذه الطائفة أحسن ما كتب عن الإسماعيلية[(4)].

---

(١) تاريخ الأدب الجغرافى العربى: القسم الأول، نقلة إلى اللغة العربية صلاح الدين عثمان هاشم، ص٣٧٥، القاهرة ١٩٦٣م.

(٢) أى "سيرة سيدنا" والمراد بسيدنا هنا الحسن بن الصباح مؤسس فرقـة الشـيعة الإسماعيلية فى إيران.

(٣) انظر تاريخ جهانكشاى، ج١ ص كط من مقدمة المحقق محمد بن عبد الوهـاب القزوينى، ليدن ١٣٢٩هـ – ١٩١١م.

(٤) انظر جامع التواريخ: قسمت اسماعيليان وفاطميان ونزاريان وداعيان ورفيقان، تأليف خواجه رشيد الدين فضل الله همدانى بكوشش محمد تقـى دانـش بـزوه ومحمد مدرسى (زنجانى)، ص١٢ من مقدمة المحققين.

كذلك أمكننا أن نعرف من هذا المجلد معلومات مفيـدة يهمنـا أن نحيط بها؛ فهناك مثلاً إشارات عن إقليم التبت واعتناق أهلـه البوذيـة وارتفاع شأن هذا الإقليم عند المغول؛ لأن البوذية كانت تنتشـر منـه، وتجذبهم إليها[1]. ويقرر رشيد الدين أن كهان التبت كانوا أعظم كهـان البوذية مكانة خصوصا فى عهد قوبيلاى[2]. كذلك يذكر هذا المـؤرخ معلومات مفصلة عن فن طباعة الكتب الذى كان معروفًا فى إيران كما كان معروفًا فى الصين منذ زمن بعيد.

وإذا انتقلنا إلى القسم الذى كتبه رشيد الدين عن الفرنج، فإننا سوف نجده أيضا يشتمل على معلومات مفيدة ومثيرة للدهشة فى ذلك الوقت. يذكر أربرى Arberry أن الجوانب العديدة لثقافة رشيد الـدين كانـت مذهلة محيرة بالنسبة إلى دارس كان يعيش فى العصور الوسطى؛ فهذا المؤرخ كان يعرف قصة الكفاح بين البابا والإمبراطور، وأن أسـكتلندا تدفع الضرائب لإنجلترا، وأنه لا توجد ثعابين فى أيرلندا[3]. وأما كارل يان فيصرح قائلاً: "بالرغم من أن تاريخ الفرنج يتمتع بثراء كبير فـى التفاصيل الممتعة التى ذكرها رشيد الدين، يمكننا أن نقول بوجه عـام من وجهة النظر التاريخية: إن ما كتبه لا يكاد يأتى بمعلومات جديدة أو

---

(١) انظر دائرة المعارف الإسلامية، المجلد الرابع، ص٥٣٠.

(٢) انظر جامع التواريخ، جلد دوم: در تاريخ باد شاهان مغول از اوكتـاى قـاآن تاتيمور قاآن، تحقيق بلوشيه، ص٥٤٥ الترجمة العربية لهذا القسم، ص٢٩٨.

(٣) Classical Persian Literature, P.١٥٦ on Rashid al Din, London, ١٩٥٨.

غير معروفة تفيد البحث فى تاريخ أوربا فى القرون الوسـطى. ومـع ذلك فإن هذا الكتاب فى نظر المحققين، يصف بدقة الأفكـار الخاصـة بالعالم كما كان يتصورها المسلمون المتحضرون فى القـرن الرابـع عشر الميلادى (الثامن الهجرى)، وهى صورة تدل بوضوح تام علـى أن وجهة نظر المسلمين فى ذلك العصر فى الجغرافيا والتاريخ كانـت تتمتع باتساع وانفتاح يفوق بكثير وجهة نظر الأوربيين(١).

كذلك عندما تحدث رشيد الدين عن تاريخ الهند بسط الحـديث فـى جغرافية هذه البلاد، وشرح مختلف العادات والتقاليد والأديـان التـى كانت تسود هناك(٢).

وعلى هذا النحو يكون رشيد الدين قد نهج فى تأليف كتابـه نهجـا خاصا؛ إذ لم يتبع النهج الذى سار عليه بعض المؤرخين مـن العـرب والفرس الذين كانوا يعرفون أن التاريخ العـام هـو التـأريخ للأمـم الإسلامية فقط، بل إنه كان يرى بحق أن التاريخ العام يجب أن يشـمل

---

(١) تاريخ افرنج يافصلى از جامع التواريخ، تأليف خواجه رشيد الـدين فضـل ا وزير همدانى، با مقدمه وحواشى وفهارس بكوشش محمد – دبير سـياقى، ص يازده (١١)، مدخل "كارل يان"، تهـران ١٣٣٩هـ ـ.ش – ١٩٦٠م مجموعـة خطابه هاى تحقيقى در بارة رشيد الدين فضل ا همدانى: مقالة كتبها "كـارل يان" باللغة الإنجليزية بعنوان Rashid al Din's Knowledge of Europe, PP. ٩ – ٢٥, Tehran, ١٩٧١.

(٢) انظر نفس المصدر السابق، مقالة كتبها بالإنجليزية K.A.Nizami, بعنوان: Rashid-al-Din Fadl Allah and India, PP. ٣٦-٥٣.

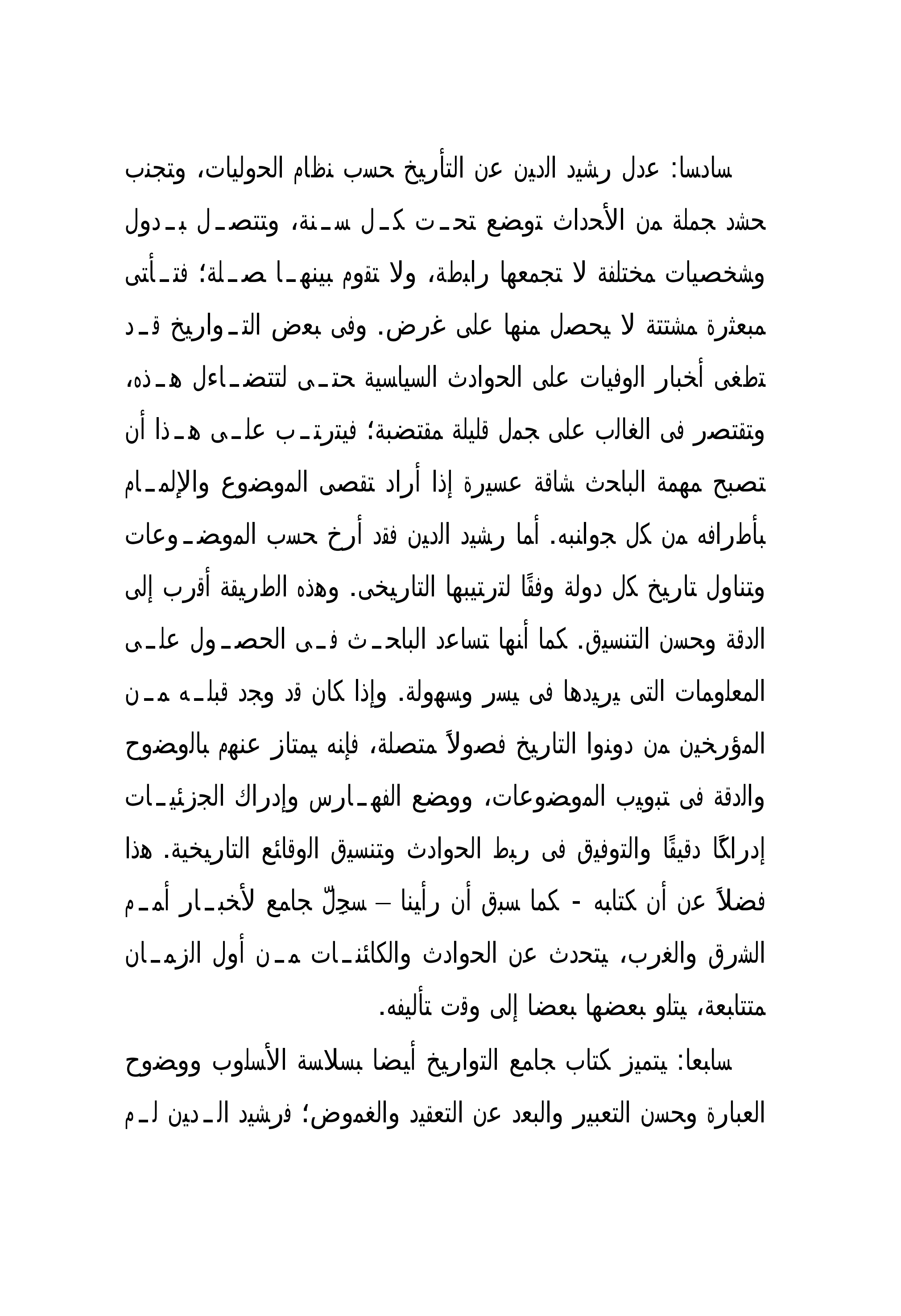
وقائع الحياة لجميع أمم العالم المعروفة فى العصر المغولى، فيكـون مشتملاً على تاريخ الشعوب ابتداء من الفرنج فى المغرب حتى الصين فى الشرق[1].وإذن فرشيد الدين مؤرخ لا مثيل له فى تعـدد مصـادره واتساع أفقه، ولن نلتقى بمؤلف مثله لا فـى هـذا العصـر، ولا فـى العصور التالية يعالج تاريخ العرب والفرس باعتبـاره "جـدولاً مـن الجداول العديدة التى تصب فى بحر التاريخ العالمى"، ويعمل جاهدا فى تبويب مادته من وجهة النظر هذه[2]. وعلى هذا يمكننا أن نـدرك دون مشقة مقدار الخدمات الجليلة التى أداها رشيد الدين للباحثين حين قـدم لهم هذا السفر الضخم المشتمل على التاريخ الصـحيح لجميـع الـبلاد المعروفة فى العالم حتى ذلك الحين. فهذا المؤلف يجمـع بـين سـعة المعارف التى لا حد لها وحاسة النقد المستنيرة ويستعيض عن الأخبار الأسطورية التى كانت ثمرة الجهل والسذاجة بأخبار صـادقة. ولـذلك يجب أن يحرص على قراءته بشغف كل أولئك الـذين يرغبـون فـى تحصيل المعارف الحقة، ويفضلون ذهب الحقيقة على بريق الغرائـب والأخطاء[3].

---

(١) تاريخ إيران از دوران باستان تاپايان سـدة هيجـدهم مـيلادى، تـأليف ن.و بيكولوسكايا وآخرين ترجمة كريم كشاورز، ص٣٠٥ تهران ١٣٥٤هـ زش.

(٢) تاريخ الأدب الجغرافى العربى، تأليف كراتشكوفسكى، نقله إلى اللغـة العربيـة صلاح الدين عثمان هاشم، القسم الأول، ص٣٩٦، القاهرة ١٩٦٣م.

(٣) جامع التواريخ، المجلد الثانى، الجزء الأول: تاريخ هولاكو، مقدمـة كـاترمير، ص٩٦، القاهرة ١٩٦٠م.



سادسا: عدل رشيد الدين عن التأريخ حسب نظام الحوليات، وتجنب حشد جملة من الأحداث توضع تحـت كـل سـنة، وتتصـل بـدول وشخصيات مختلفة لا تجمعها رابطة، ولا تقوم بينهـا صـلة؛ فتـأتى مبعثرة مشتتة لا يحصل منها على غرض. وفى بعض التـواريخ قـد تطغى أخبار الوفيات على الحوادث السياسية حتـى لتتضـاءل هـذه، وتقتصر فى الغالب على جمل قليلة مقتضبة؛ فيترتـب علـى هـذا أن تصبح مهمة الباحث شاقة عسيرة إذا أراد تقصى الموضوع والإلمـام بأطرافه من كل جوانبه. أما رشيد الدين فقد أرخ حسب الموضـوعات وتناول تاريخ كل دولة وفقًا لترتيبها التاريخى. وهذه الطريقة أقرب إلى الدقة وحسن التنسيق. كما أنها تساعد الباحـث فـى الحصـول علـى المعلومات التى يريدها فى يسر وسهولة. وإذا كان قد وجد قبلـه مـن المؤرخين من دونوا التاريخ فصولاً متصلة، فإنه يمتاز عنهم بالوضوح والدقة فى تبويب الموضوعات، ووضع الفهـارس وإدراك الجزئيـات إدراكًا دقيقًا والتوفيق فى ربط الحوادث وتنسيق الوقائع التاريخية. هذا فضلاً عن أن كتابه - كما سبق أن رأينا – سجِلّ جامع لأخبـار أمـم الشرق والغرب، يتحدث عن الحوادث والكائنـات مـن أول الزمـان متتابعة، يتلو بعضها بعضا إلى وقت تأليفه.

سابعا: يتميز كتاب جامع التواريخ أيضا بسلاسة الأسلوب ووضوح العبارة وحسن التعبير والبعد عن التعقيد والغموض؛ فرشيد الـدين لـم

يحاول أن يقحم فى كتابه أساليب البيان والصنائع البديعية، تلك الآفـة التى ابتلى بها التاريخ، فأخرجته فى كثير من الأحيان عـن الغـرض الذى وضع من أجله. مثلما فعل معاصره وصديقه "وصاف الحضره"؛ فعلى الرغم من أهمية كتابه "تاريخ الوصاف" فـى التـأريخ للعصـر المغولى فى الفترة ما بين فتح بغداد وأواسط عهد السلطان أبى سـعيد أى حتى سنة ٧٢٨هـ / ١٣٢٧م، نـراه قـد أفـرط فـى اسـتعمال الصناعات اللفظية وحشد كتابه بأبيات الشعر وآيات القرآن واقتباسـات من عبارات البلغاء والأدباء فقلل ذلك كثيرا من قيمته والانتفاع بـه[(١)]. أما من يقرأ كتاب رشيد الدين، فإنه يستطيع أن يحصل على مراده فى يسر وسهولة، ولا يشعر بسأم أو ملل. هذا ويلاحظ بصـفة عامـة أن أسلوب جامع التواريخ يجرى على نسق واحد فى أغلب أجزائه. أمـا عندما ينقل مؤلفه أو يقتبس من كتـب المـؤرخين الإسـلاميين فـإن الإسلوب يتأثر قليلاً، ويأتى مشابها لما هذه فى المصادر، ولكـن هـذا كان يحدث فى نطاق ضيق ومحدود، ويبقى بعد ذلك طـابع أسـلوب رشيد الدين هو الطابع الغالب. يقول المستشرق ريبكا: "كتـاب جـامع التواريخ الذى كتب بأسلوب سهل سلس له أهمية عالميـة. والـمجلد

---

(١) لتلافى هذا النقص قام الأستاذ عبد الحميد آيتى فى طهران بعمل يشكر عليـه إذ صفّى تاريخ الوصاف من كل أنواع هذا الحشو، واقتصر على الرواية التاريخية فقط، وذلك فى دقة بالغة؛ فأسدى بذلك للعلم خدمة جليلة، ونشر هذا الكتاب تحت اسم: تحرير تاريخ وصاف، طهران ١٣٤٦ هـ.ش.

الأول المشتمل على تاريخ المغـول الـذى يفصـل جزئيـات أكثـر واطلاعات أوفى وأجمع، يعادل فى قيمته سائر الكتب المشابهة لا سيما الكتب الصينية والمغولية[1].

بقى أن نقول فى صراحة إذا كان كتاب جامع التواريخ قد سلم مـن التكلف والتعقيد فإنه قد طغى عليه سيل جارف من الألفـاظ المغوليـة والتركية تتعلق بالإدارة ونظم الحكم وعادات المغول وتقاليدهم، شـأنه شأن غيره من الكتب التاريخية التى ألفت فى تلك الفترة. وفى الحقيقـة بدأت تلك الألفاظ تتسرب إلى اللغة الفارسـية منـذ عهـد السـلاجقة والأتراك الغز والقراخطائيين وآل أفراسياب. ولكن هذا التـأثير كـان محدودا فى عهود هذه الدول بالقياس إلى ما صار عليـه الحـال فـى العصر المغولى[2]. ولا شك أن هذه الألفاظ المغولية والتركية الكثيـرة تحتاج من المترجم مزيدا من اليقظة والدقة حتى يصـل إلـى تحديـد معناها الدقيق باللغة العربية. وفى سبيل تحقيق ذلك، عليه أن يطلع على المزيد من الكتب والمعاجم المتخصصة.

ثامنًا: لم تقتصر قيمة كتاب جامع التواريخ على الناحية التاريخيـة والجغرافية فحسب، بل صارت له قيمة فنية كبيرة؛ إذ أن ازدهار فـن

---

(١) أدبيات إيران در زمان سلجوقيان ومغولان، ترجمة دكتر يعقوب آژنـد، جـاب أول، ص١٤٨ تهران ١٣٦٤هـ.ش.

(٢) عباس إقبال: تاريخ مفصل إيران، جلد أول، از حملة جنكيز تاتشـكيل دولـت تيمورى، ص٥١٥، طهران ١٣١٢هـ.ش.

التصوير يرجع إلى حد كبير إلى هذا المؤرخ بل إن أكثر صور المدرسة المغولية توجد ممثلة فى مخطوطات كتابه جامع التواريخ. وتبدو أهمية هذا الكتاب من الناحية الفنية على وجه الخصوص إذا ما لاحظنا أن أكثر مؤرخى العرب والفرس قبل رشيد الدين كانوا يعولون فى تعريف أبطال التاريخ على الأوصاف المجردة من إطراء أو إعجاب، ويندر أن يشيروا إلى وصف المظاهر الطبيعية أو الصناعية أو الأبنية أو غيرها من المرئيات ولا كانوا يصورون المواقع ولا الرجال لكراهية الإسلام للتصوير؛ فترتب على ذلك نقص هام فى التصوير العربى لخلو كتبه من الخرائط أو الرسوم أو الصور المنقولة من الطبيعة[1].

أما إيران فكانت فى طليعة الأمم الإسلامية التى لم يؤثر فيها تحريم التصوير تأثيرا كبيرا على الرغم من أن الفقهاء فى هذا البلد، كانوا يكرهون التصوير والمصورين. ويرجع تركز التصوير الإسلامى فى إيران إلى أن الإيرانيين شعب ميال إلى الفن بفطرته، وإلى أن أكثر الإيرانيين كانوا من ذوى المحيط العقلى الواسع والأفكار الحرة والتسامح الدينى؛ إذ كانوا يرون أن تحريم التصوير فى فجر الإسلام إنما كان يقصد به محاربة عبادة الأوثان. أضف إلى ذلك أن الإيرانيين ورثوا عن أسلافهم أساليب فنية فى النقش والتصوير. والواقع أن كتاب

(١) انظر جرجى زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية، ج٣، ص١٥١، القاهرة ١٩٣١م.

جامع التواريخ يعد من أقدم المخطوطات التى تشتمل على صور دينية. هذا إلى جانب مناظر القتال والمعارك، والمناظر التـى تمثـل حكـام المغول بين أفراد أسراتهم وحاشيتهم[1].

وأكبر دليل على اهتمام رشيد الدين بالفنون بصفة عامة والتصوير بصفة خاصة أنه أنشأ بالقرب من تبريز ضاحية جديدة أسماها "الربـع الرشيدى"[2] أقام بها المنازل والحوانيت ومصـانع الـورق والفنـادق والمستشفيات، ومكتبة ضمت ٦٠ ألف مجلد من الكتب العلمية والفنيـة

---

(١) انظر فنون الإسلام، تأليف الدكتور زكى محمد حسن، الطبعة الأولى، ص١٦٤ –١٦٥،١٦٧، القاهرة ١٩٤٨ التصوير وأعلام المصورين فى الإسـلام، مقالـة لنفس المؤلف، ص٩، هدية المقتطف السنوية بعنوان نواح مجيدة مـن الثقافـة الإسلامية، القاهرة ١٩٣٨م.

(٢) للحصول على مزيد من التفصيلات عن الربع الرشيدى انظر مكاتبات رشيدى، حررها خواجه رشيد الدين فضل ا طبيب، بسعى واهتمام وتصـحيح محمـد شفيع، ص ٥٢-٥٦، ٢٣٥-٢٣٧، ٣١٧-٣٢١، لاهـور ١٣٦٤هـ - ١٩٤٥م؛ نزهة القلوب، تأليف حمد ا مستوفى قزوينى، با مقابله وحواشـى وتعليقـات وفهارس بكوشش محمد – دبير سياقى، ص٨٧، تهران ١٣٣٦هـ. ش؛ الكتاب التذكارى (يادنامه) لتخليد ذكرى "دينشاه إيرانى": مقالة محمود عرفان بعنـوان: "بزركترين بنياد خير در إيران"، ص ١٨-٣٠، بمباى ١٩٤٨م مجموعة خطابه هاى تحقيقى در بارة رشيد الدين فضل ا همدانى، مقالة مجيد رهنما بعنـوان: "رشيد الدين وربع رشيدى"، ص ١١٢-١٢٢، طهران ١٣٥٠هـ.ش؛ عبد العلى كارنكـ: آثار باستانى آذر بايجان ، جلد أول: آثار وأبنية تـاريخى شهرسـتان تبريز، ص١٦٢ وما بعدها تهران ١٣٥١ هـ.ش.

باللغات المختلفة. واستقدم رشيد الدين إلى ضاحيته الجديدة رجال الفن وأرباب الصناعات من مختلف الجنسيات. وأقيمت أيضا فى "أحياء أهل العلم" مساكن احتشد بها عدد يتراوح بين ستة آلاف أو سبعة آلاف نسمة من الأساتذة والطلاب. وكانت فنون الكتابة بصفة خاصة أحب الفنون إلى رشيد الدين. وعهد إلى مهرة الخطاطين والمصورين بنسخ عدد من المؤلفات المختلفة وتصويرها. وفى مقدمتها جميع مؤلفاته[1]. هذا ويذكر صاحب تاريخ الوصاف أن رشيد الدين أنفق أكثر من ٦٠٠٠٠ دينار فى النسخ والتحرير والزخرفة والتصوير والتجليد[2]. ولم تقف جهود المؤرخ عند هذا الحد، بل إنه راح يوقف على الربع الرشيدى الأوقاف الكثيرة من أملاكه وثرواته الطائلة للصرف على المؤسسات التى يضمها هذا الربع وعلى نزلائه من مختلف الطوائف والطبقات، وسجل كل هذا بنفسه بغاية الدقة والتفصيل فى سجل وقفية الربع الرشيدى"وقفنامه ربع رشيدى"، وذلك وفقًا لأحكام الشريعة الإسلامية. ولحسن الحظ سلمت هذه الوثيقة من الضياع، وأمكن تصوير نسخة منها نشرت فى طهران بإشراف عالمين فاضلين هما مجتبى مينوى وايرج افشار سنة ١٣٥٠هـ.ش – ١٩٧٢م.

---

(١) انظر كتاب الفنون الإسلامية، تأليف م.س ديماند، ترجمة أحمد محمد عيسى، مراجعة وتقديم الدكتور أحمد فكرى الطبعة الثالثة، ص٤٧، القاهرة ١٩٨٢م.

(٢) انظر كتاب تاريخ الوصاف، تأليف أديب شرف الدين عبد ا بن فضل ا الشيرازى، الملقب بوصاف الحضرة، ص٥٣٩، طبع بمباى.

وفى الحقيقة لم يكن رشيد الدين مؤرخًا فحسب، بل كان كذلك عالما أديبا له مؤلفات عديدة امتدت إلى كثير من أنواع المعارف الإنسـانية؛ فقد ألف فى الطب وفى علم الأحيـاء والاقتصـاد الزراعـى والـدين والأدب، وترك فى كل ذلك آثارا قيمة إلى جانب مؤلفه التاريخى، مما ينهض دليلاً قويا على عظمة هذا الرجل وعمـق تفكيـره[1]. تقـول "دوروتيا كرافولسكى": "لم يكتب رشيد الدين فى التاريخ فقط، بل ترك أعمالاً ذات طابع كلامى وفلسفى. وهو يظهر فى هذه الأعمـال سـنيا متشددا"[2].

وإلى جانب هذا التفوق العلمى البارز - الذى كان يزينه خلق طيب كريم - عرف عن رشيد الدين براعة التخطيط وحسن الإدارة وتقديره للعلم والعلماء. ونحن لا نتجاوز الحقيقة إذا قلنا إن رشيد الـدين كـان

---

(١) للحصول على معلومات مفصلة عن مؤلفات رشيد الدين الأخرى انظر: جـامع التواريخ، تاريخ المغول المجلد الثانى، الجـزء الأول – الإيلخـانيون: تـاريخ هولاكو، مقدمة كاترمير، ص١٤٣ – ١٦٥ترجمة الدكتور محمـد القصـاص، القاهرة ١٩٦٠م؛ مؤرخ المغول الكبير رشيد الدين فضل ا الهمذانى، ص٣٧٣ وما بعدها؛ وقفنامه ربع رشيدى، أثر رشيد الدين فضل ا بن أبى الخيـر بـن عالى الهمدانى، مشتهر به رشيد الطبيب؛ زير نظر مجتبـى مينـوى – ايـرج افشار، ص ٢١-٢٢، تهران ١٣٥٠هـ.ش.

(٢) مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار: دولة المماليك الأولـى لابـن فضـل ا العمرى: دراسة وتحقيق دوروتيا كرافولسكى، التمهيد ص٣٣، الترجمة العربية.

آخر نجم لمع فى سماء دولة الإيلخانيين؛ فقد صارت الأمور بعد رحيله بخطى سريعة نحو الاختلال والتدهور ثم الانهيار.

بهذا نكون قد انتهينا من الحديث عن رشيد الـدين وكتابـه جـامع التواريخ، وننتقل - فى الصفحات التالية – إلى الحديث عن رشيد الدين وتاريخ غازان خان.

ثانيا : رشيد الدين وتاريخ غازان

كان عصر المغول أحفل العصور بالمؤلفات التاريخية. ومن المسلم به أن جامع التواريخ هو أفضل وأجمع هذه المصادر. وقد أورد رشيد الدين معلومات قيمة بعيدة عن الغـرض والهـوى والتعصـب بقـدر المستطاع، واتبع غاية الدقة فى وصف المسائل السياسية والاجتماعية. فهذا المؤرخ الذى كان يعمل فى خدمة المغول لا يسـتطيع أن يخفـى وحشية جنكيز خان وقسوته. وكان لا يتردد فى الكشف عن الجوانـب المظلمة والمجحفة بحق الأقوام المغلوبة على أمرها. وإذا كـان يثنـى على جنكيز خان وأعقابه؛ فإنه يبدو من الواضح أن هذا لم يخرج عـن مراعاة موقفه الدقيق الذى يقتضيه أحيانًا أن يغمض عينه عن الحقيقـة المؤلمة وفقط يبدو أن مدحه وثناءه على غازان كان نابعا من صـميم قلبه وحقيقة شعوره نحو هذا العاهل المغولى[1].

---

(١) انظر مجموعة خطابه هاى تحقيقى در بارة رشيد الدين فضل ا همدانى: مقالة بعنوان: بررسى أوضاع اجتماعى إيران از خلال جامع التواريخ بقلم د. شيرين بيانى، ص٦٠، طهران ١٣٥٠هـ.ش.

وإذا كانت عبقرية رشيد الدين كمؤرخ قد تجلت فى تأريخه لجنكيز خان، فإنها لتتجلى أيضا بصورة أتم وأشمل فى تاريخه لغازان خـان. يبدو ذلك واضحا فى إحاطته الكاملة بجميع أطراف حياة هذا الرجـل منذ ولادته حتى وفاته، وتتبع ما تم فى عهده من إصلاحات؛ فـالأقوال التى وردت فى هذا الشأن لم تذكر فى أى مصدر آخر على نحـو مـا نراه فى مؤلف رشيد الدين من الإفاضة والتفصيل.

وفى الحقيقة حينما أراد رشيد الدين أن يؤرخ لغازان خان، نحـس أنه قد أخذ على عاتقه تمجيد هذا السلطان؛ ورأى من واجبـه الأول أن يبرز تلك الشخصية فى صورة كاملة من شتى جوانبها، فكان فيما كتبه عنه موفقًا غزير المادة. ولقد مهـد له منصبه الرسمى - الـذى كـان يشغله – أن يكون على علم تام بكل التفصيلات والتنظيمات المعمـول بها فى حكومة المغول. وعندما ذكر قصة إصلاحات غازان خان، كان على مقربة منها، وواقفًا على دقائقها وتفاصيلها وشاهد عيان لكل ما تم من إنجازات، ومشيرا بالرأى السديد والتفكير والعقل الراجح كى تؤتى هذه الإصلاحات ثمارها اليانعة وتحقق هدفها المنشود. وهكـذا كتـب رشيد الدين قصة الإصلاحات هذه بدرجة تفوق المادة الغزيـرة التـى كتبها فى الأجزاء الأخرى من كتابه، وبصـورة حيـة صـادقة قلمـا نصادفها فى العصور الوسطى بين المؤرخين فى آسيا وأوربا[1].

---

(١) بارتولد: مجلة العالم الإسلامى Mir Islama، ص٥٨.

ونحن فى الحقيقة لا نستطيع أن نأخذ على رشيد الدين ما كتبه عن غازان بتلك الصورة التى قد لا تخلو أحيانًا من المبالغة، وذلك لسبب بسيط هو أن مؤرخين من "المعاصرين أواللاحقين" قد أجمعوا على تمجيد غازان خان والإشادة بما قام به من إصلاحات وذلك من قبيل الوصاف والبناكتى وحمد الله المستوفى القزوينى ومحمد ابن على الشبانكارى ومحمد بن هندوشاه النخجوانى وميرخواند وخواندمير فهؤلاء قد أثنوا على غازان خان ثناء عاطرا وأشادوا بما قام به من إصلاحات. أما المستشرق الفرنسى جروسيه[1] " Grousset " فقد راح يتهم رشيد الدين بالتحيز لغازان إلى أقصى حد؛ إذ زعم أن هذا المؤرخ كان مجبورا على إخفاء عيوب هذا الإيلخان، وعلى العكس راح يطرى محاسنه بمبالغة تامة. ونحن لا نوافق جروسيه على هذا التعميم.

أول ما نلاحظه على تاريخ غازان خان هو أن مؤلفه رشيد الدين كان يستشهد بالعديد من آيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة وأبيات الشعر العربى والأقوال المأثورة لتأييد وجهة نظره. وكان يضع كل ذلك فى موضعه المناسب. ولا غرو فقد كان رشيد الدين يجيد اللغة العربية، ويؤلف بها، ويعد من الممتازين من أصحاب اللسانين الفارسى

---

(١) إمبراطورى صحرا نوردان، ترجمة عبد الحسين ميكده، جاب سوم، ص٦١٨، تهران ١٣٦٨هـ.ش.

والعربى. وإذن فليس بصحيح ما ذكره الأستاذ عباس العزاوى[1] من أن عربية رشيد الدين كانت ركيكة ضعيفة. ولما كان غازان خان يعرف جيدا تفوق رشيد الدين فى اللغة العربية، كان يصحبه فى حملاته على الشام ليحرر المنشورات بهذه اللغة، يحث فيها المدافعين عن المدن والقلاع على المبادرة بالتسليم حقنًا للدماء؛ فكان هذا يحدث أثره الفعال ويحقق غازان غرضه المنشود دون قتال[2].

أما عن الموضوعات الرئيسية التى اشتمل عليها تاريخ غازان خان، فإنه يمكن حصرها فى الأقسام الثلاثة الآتية:

القسم الأول- يختص بحياة غازان خان منذ ولادته ونشأته وتربيته تحت إشراف جده آباقا خان، وإعداده للمهمة الخطيرة التى تنتظره. وقد عهد به إلى أحد كبار العلماء من الخطا يشرف على تربيته ويعلمه الخط المغولى الأويغورى والعلوم والآداب. وفى مدة خمس سنوات، استطاع أن يتقن تلك المعارف. وبعد أن حصل هذه العلوم، شرع فى تعلم الفروسية والرماية، وشغف بالصيد والقنص والرمى والتنقل والارتحال.

(١) التعريف بالمؤرخين (١) فى عهد المغول والتركمان (٦٠١هـ - ١٢٠٤م) : (٩٤١هـ - ١٥٣٤م)، ص١٤٦، بغداد ١٣٧٦هـ - ١٩٥٧م.

(٢) انظر الترجمة العربية.

وقد شب غازان على البوذية قبل اعتناقه الإسلام، وشيد لهـا عـدة معابد فى خراسان. وكان يسر كثيرا بمصاحبة الكهنة الذين ينتمون إلى هذا الدين والذين كانوا قد وفدوا إلى إيران فى جماعـات كبيـرة منـذ فرض المغول سلطانهم على هذه البلاد[١].

ولما اعتلى أرغون والد غازان عرش إيران، اختار ابنه ليكون نائبا عنه فى حكم إقليم خراسان، وعهد إلى "نوروز" بـأن يكـون ملازمـا لغازان ومساعدا له فى إدارة هذا الثغر الهام. ولكن بعـد مـدة خـرج نوروز على طاعة غازان، وجهر بالتمرد والعصيان. فما كـان مـن غازان إلا أن حاربه بشجاعة واستبسال. ولما وجد نوروز أنه لا يقوى على مقاومته، أعلن الخضوع، وقدم فروض الطاعة، فعفا عنه غـازان وضمه إلى صفه، وصار واحدا من أخلص أتباعه إلى أن حقـد عليـه غازان بعد اعتلائه العرش وعمل على التخلص منه.

كذلك مما يسترعى النظر فى هذا القسم أن رشيد الدين قـد أبـرز شجاعة غازان عندما وصل رسل كيخاتو خـان (٦٩٠ – ٦٩٤هـ ـ / ١٢٩١ – ١٢٩٤م) ومعه عدة أحمـال مـن أوراق النقـد "الجـاو"[٢] والأدوات الخاصة به من الورق الأبيض والأختام وغير ذلك بقصـد

---

(١) الدعوة إلى الإسلام، تأليف سير توماس. و. أرنولد، ترجمه إلى العربية الدكتور حسن إبراهيم حسن وآخرون، ص٢٦٣، الطبعة الثانية، القاهرة ١٩٥٧م.

(٢) انظر المزيد من التفصيلات عن هذه العملة الورقية فى كتاب الشرق الإسلامى، ص٢١١ وما بعدها.

ترويج هذه العملة فى خراسان. وكان غازان فى ذلـك الوقـت تابعـا ونائبا عن عمه كيخا توخان فى إدارة هذا الإقليم، وهو نفس المنصـب الذى كان يشغله فى عهد أبيه أرغون، فقال غازان: إنه لا بقاء للآلات الحديدية والأسلحة فى مازندران وما جاورها من مناطق بسبب جوهـا الشديد الرطوبة، فكيف يمكن أن يبقى الورق دون أن يتلف؟! .. ثم أمر بإحراقه تماما، وامتنع عن تنفيذ قرار السلطان كيخاتو[1]. كذلك تضمن هذا القسم نزاع غازان مع بايدو وقيام الحرب بينهما.

ولعل أهم ما اشتمل عليه هذا القسم أيضا هو أن رشيد الـدين زود القارئ بتفصيلات وافية عن الحدث العظيم الذى غير مجـرى حيـاة غازان ومن جاء بعده من حكام المغول فى إيران، ألا وهـو اعتناقـه الإسلام بناء على مشورة نوروز واتخاذه هذا الدين - لأول مرة - دينًا رسميا لدولة المغول فى إيران.

والواقع أنه قبل غازان خان، كان فـى الإدارة الإيلخانيـة بـإيران تياران يتنازعان حول الصورة التى ينبغى أن تكـون عليهـا الدولـة الناهضة. أما التيار الأول فيريد إنشاء دولة مركزية قوية المسيطر فيها الإيلخان وكبار موظفيه وضباطه. وأما التيار الآخر فإنه كان لا يـزال متعلقًا بقيم الأرستقراطية البدوية المغولية إبان حركـة جنكيـز خـان الكبرى. ولا شك أن الموظفين الإيرانيين الكبار فى الدولة كـانوا مـن

---

(١) انظر الترجمة.

أنصار التيار الأول لما فيه من تدعيم لمكانتهم ومـن محافظـة علـى ثقافتهم المدنية ومدنهم ومجتمعهم. وقد فاز هذا التيار بالفعل بوصـول غازان إلى العرش. ومع تحول غازان خان إلـى الإسـلام، سـقطت الفواصل القائمة بين الحاكم وشعبه[1].

وهكذا لم يكن هناك بد من أن ينهض الإسلام من تحـت أنقـاض عظمته الأولى وأطلال مجده التالد، كما استطاع بواسـطة دعاتـه أن يجذب أولئك الفاتحين المتبربرين ويحملهم على اعتناقه. ويرجع الفضل فى ذلك إلى نشاط الدعاة من المسلمين الذين كانوا يلاقون من الصعاب أشدها لمناهضة منافسين قويين كانا يحاولان إحراز قصب السبق فـى ذلك المضمار. وليس هناك فى تاريخ العالم نظير ذلك المشهد الغريب، وتلك المعركة الحامية التى قامت بين البوذية والمسيحية والإسلام، وكل ديانة تنافس الأخرى لتكسب قلوب أولئك الفاتحين القساة الذين داسـوا بأقدامهم رقاب أهل تلك الديانات العظيمة ذات الدعاة والمبشـرين فـى جميع الأقطار والأقاليم[2].

---

(١) انظر كتاب العرب وإيران: دراسـات فـى التـاريخ والأدب مـن المنظـور الإيديولوجى تأليف دوروتيا كرافولسكى، ترجمه عن الألمانية الدكتور رضـوان السيد، ص١٨٨ – ١٨٩، الطبعة الأولى، بيروت ١٤١٣هـ – ١٩٩٣م.

(٢) الدعوة إلى الإسلام، الترجمة العربية، ص٢٥٠.

ونتيجة لاعتناق غازان الإسلام، كان لا بد من تغيير سلوك المغول وقواعدهم ومقرراتهم؛ إذ لم يعد هناك مفر من العـدول عـن العمـل بقواعد الياسا التى وضعها جنكيز خان[1]، وتـرك عـادات المغـول وتقاليدهم القديمة. وكان هذا مما دفع غازان إلى وضع ياسـا جديـدة عرفت بالياسا الغازانية[2]. وليس هناك شك فى أن هذه الياسـا التـى وضحها وشرحها بالتفصيل المؤرخ رشيد الدين هـى أرقـى وأنسـب للحياة الجديدة، وما ذلك إلا لأنها واقعة تحت تأثير الحضارة الإسلامية ووجود وزير مثل رشيد الدين فضل ا [3].

ولكن ثارت شكوك وشبهات حول إسلام غازان خان فـى عصـره وبعد عصره؛ غير أنه لم ينهض دليل قوى فى سيرة هذا الإيلخان يؤيد هذه المزاعم بل على العكس رأيناه قد أخذ على عاتقه المحافظة علـى شعائر هذا الدين فى حماسة وغيرة طوال عهده[4]؛ حتى أنه وهو على

---

(١) انظر تفصيلات عن هذه الياسا فى كتاب المغول فى التاريخ، تأليف الدكتور فؤاد عبد المعطى الصياد، ص٣٣٨ وما بعدها، القاهرة ١٩٧٥م.

(٢) خلاصة تاريخ سياسى واجتماعى وفرهنكى إيران تاپايان عهد صفوى، مجموعة مقالات دكتر ذبيح ا صفا (٢)، ص١٨٨، تهران٢٥٣٦ شاهنشاهى.

(٣) مجموعة خطابه هاى تحقيقى دربارة رشيد الدين فضـل ا همـدانى: مقالـة بعنوان: انعكاس أوضاع اجتماعى در آثار رشيد الدين فضل ا بقلـم د. غـلا محسين يوسفى، ص٤٢٢، طهران ١٣٥٠هـ.ش.

(٤) الشرق الإسلامى، ص٢٥٣ وما بعدها.

فراش المرض قبيل وفاته، لم ينس أن يوصى الحاضـرين بالتمسـك بأهداب الدين الحنيف والمحافظة على الإصلاحات التى قام بها، والتى كانت من وحى اعتناقه الإسلام، ونتيجة مباشرة له. كما حـثهم علـى الالتفاف حول أخيه وولى عهده "أولجاتيو". وأخيرا نصحهم بضـرورة الاتحاد والتآزر ونبذ الخلاف(١).

ورشيد الدين وزير غازان ومؤرخ عصره يؤيد بالبرهـان صـحة عقيدة غازان ورسوخ إيمانه فيقول: "وكان ظن أكثر النـاس أن سـبب إسلامه، يرجع إلى ترغيب بعض الأمراء والمشايخ وحثهم لـه علـى ذلك. ولكن بعد التفحص، علم أن ذلك الظن خطأ؛ لأنه أثناء الخلوة بى أنا العبد الضعيف مؤلف هذا الكتاب قرر أن هناك عدة ذنوب لا يعفـو ا عنها أكبرها أن يسجد شخص لصنم؛ إذ إنه من المؤكد والمقطـوع به أن ا لن يغفر ذلك الذنب وأن المساكين من الناس المبتلين بالجهل هم الذين يسجدون للأصنام، وأنا أيضا كنت مثلهم. ولكن الحق تعـالى وهبنى النور والعلم، فنجوت وتطهرت من ذلك الإثم بهدايـة حضـرة الحق تعالى. وتوضيح هذا الكلام أنه ليس هناك شىء قط يحمل الإنسان إلى الجحيم سوى الجهل؛ بل إن الجهل نفسه هو جحيم لا يمكن الخروج

---

(١) تاريخ وصاف، ص٤٥٧-٤٥٨، طبع بمباى؛ عبد ا القاشانى: تاريخ أولجـاتيو ص١٣-١٤، طبع طهران ١٣٤٨هـ.ش.

منه. فكيف يستسيغ العقل السجود أمام جماد؟! إن هذا الإقدام دليل على الجهل المحض"[1].

وفى موضع آخر من كتاب تاريخ غازان خان يؤكد رشيد الدين هذا المعنى وبعيدا عن اللبس والإبهام يقول: "إن غازان كان صادق الشعور فى اعتناقه الإسلام، ويكرر وينفى أن يكون سبب اعتناقه هـذا الـدين تأثير بعض الأمراء والمشايخ، بل كان بهـدى مـن ا ؛ إذ إنـه مـن المجرب أن المسلمين إذا أجبروا أقل الناس شأنا على أن يكون ملكًا أو حاكما عليهم، فإنه حسب ميله هو نفسه يـدين بعقيـدتهم. فـإذا وجـد الفرصة سانحة فى تلك الولاية أو فى ولاية أخرى فإنـه يرجـع إلـى عقيدته الأولى. وإذن فأية حاجة تضطر مثل هذا السلطان الرفيع القدر، الباطش القوى إلى الالتفات إلى كلام شخص من الأشخاص فـى مثـل هذا الأمر الخطير، فيتحول عن مذهبه أو يختار دينًا آخر مكرهـا؛ لا سيما وأن آباءه قد استولوا على ممالك العالم فى زمن كفرهم؟!

وبناء على هذه المقدمات علم أن أجره يكون فى هذا الأمـر مثـل أجر إبراهيم الخليل - صلوات ا عليه – فقـد أدرك منـذ البدايـة – بفضل نور الهداية الربانية – ضلال عبادة الأوثـان، فحطـم صـنمه وعرف ا بإيمانه الوجدانى. كذلك كان إسلام السـلطان علـى هـذا المنوال. ورغم عظمة الملك وجبروته، فإنه عندما تحول عـن عبـادة الأصنام واعتنق دين الإسلام، حطم كل الأصنام التى كانت بلاد إيران

---

(١) انظر الترجمة.

وخرب تخريبا تاما كل بيوت الأوثان وجملة المعابد غير الشرعية، وأدخل فى الإسلام جميع عابدى الأصنام والكفار الذين كانوا يزيدون على عدد الرمال؛ بحيث إنه لم يضطر إلى قتل أى مخلوق. ولا بد أن هذا يكون له زيادة فى الأجر[1].

والمنصفون من الباحثين الأوربيين دافعوا عن عقيدة هذا السلطان وأثبتوا أن إسلامه كان عن صدق وإخلاص لا عن تظاهر ونفاق[2].

كذلك تحدث رشيد الدين فى هذا القسم عن الدسائس والمؤامرات التى كانت تحاك ضد غازان وضد كبار معاونيه من القواد والساسة، وبيان ما اتصف به من حزم وشدة لمجابهة هذه المشاكل والتغلب عليها. وكان يقول فى هذا الصدد: إن قتل شخص من الأشخاص أمر صعب على جدا، ولكن إذا لم تراع السياسة والحزم فى المحافظة على القضايا الكلية والجزئية فإنه لا يمكن تدبير الملك[1].

القسم الثانى: يتضمن التاريخ السياسى للفترة التى حكم فيها غازان خان، كما يتضمن شرحا للحروب التى خاضها، والفتوحات التى تيسرت له. ولعل أهم ما اشتمل عليه هذا القسم أيضا يتمثل فى نكبة "نوروز" نائب غازان خان، وأكبر شخصية فى عهده. فمن المعروف أنه منذ أن تصالح نوروز مع غازان ، وتعهد له بألا يخالفه؛ بر بوعده.

---

(١) انظر نفس المصدر.

(٢) انظر الشرق الإسلامى، ص ٢٥٦ وما بعدها.

(٣) انظر الترجمة.

وكان له فضل كبير فى حثه على اعتناق الإسلام. كما شجعه على ضرورة مقاومة بايدو وانتزاع العرش منه. والحق أن "نوروز" بذل جهودا كبيرة فى هذا السبيل حتى تم لغازان النصر على خصمه بايدو، واعتلى عرش المغول فى إيران فى نهاية سنة ٦٩٤هـ / ١٢٩٥م.

ولو كان نوروز يفكر فى خيانة غازان وطعنه من الخاف والتخلى عنه مرة أخرى لانتهز فرصة إقامته الجبرية عند بايدو، وانضم إلى صفه بعد أن بذلت معه محاولات عديدة من وسائل التهديد والإغراء؛ وما ذلك إلا لأن "نوروز" فى نظر بايدو وأتباعه هو الساعد الأيمن والعقلية المفكرة التى ترسم لغازان الخطط وتوجهه التوجيه الصحيح، وأن استقرار البلاد منوط بالاتحاد بين نوروز وبايدو[٢]. ولكن هذه المحاولات كلها باءت بالفشل، ولم تفلح فى إقناع نوروز بالتخلى عن موقفه المؤيد لغازان. وأخيرا لجأوا إلى أخيه "لكزى" الذى كان من جملة أمراء بايدو فى ذلك الوقت لعله يفلح فى إقناع أخيه بالتخلى عن غازان والانضمام إلى صفوفهم، ولكنه فشل فى مهمته. وكان رد نوروز القاطع فى هذا الشأن يتلخص فى هذه الكلمات الصريحة: "يا أخى!... إننى منذ ثلاثة أشهر فى موضع "شبورغان"[٣] قد حلفتُ بعد

---

(١) انظر كتاب الشرق الإسلامى، ص٢٣٦.

(٢) تكتب أيضا شبورقان، وتخففها العامة فتقول شبرقان: مدينة طيبة من الجوزجان قرب بلخ، وبينهما وبين أنبار مرحلة من جانب الجنوب وكانت عامرة آهلة أيام الغزو المغولى، يقصدها التجار ويبيعون فيها الأمتعة الكثيرة. (معجم البلدان،

العصيان والطغيان أيمانًا مغلظة، وقطعت العهود لغازان بألا أخالفه بعد هذا ما دمت حيا، ولا أسلك معه سبيل العناد، وأن أكون صديقًا لصديقه وعدوا لعدوه. فبأى وجه أنقض العهد وأنكث الميثاق. أتريد أن أكـون ملوما ومذموما فى الدنيا ومسئولاً ومعاقبا فى الآخرة؟! .... كمـا أن رابطة المحبة والمودة فى ولائى وخدمتى لغازان هـى بدرجـة مـن الاستمرار والدوام والاستحكام؛ بحيث لا تنفصم إلـى نهايـة العمـر وانقضاء الحياة؛ لأنه اليوم الخاقان بالاستحقاق والملك على الإطـلاق، وإنى أرى من واجبى أن ألتزم بطاعته فى كل أمر، فليس لنوروز أمير أو ملك سواه، وليس لى شأن بالآخرين"

ولما وجد لكزى أنه لن يستطيع أن يؤثر على أخيه، قال لـه: "يـا أخى!.... أنت ما دمت مصرا على هذه العقيدة، ومتمسكًا بهذا الـرأى؛ فلن تأمن على نفسك من هؤلاء الرهط". فرد عليه نوروز فـى ثبـات وإيمان قائلاً: "رضينا بقضاء ا وقدره. فأى شىء صوره الزمان ولم يمحه، ومن الذى عاش ولم يمت. وإذا قدر ا أجلى على هـذا النحـو فمن الذى يمكنه رد ذلك أو دفعه؟! .... وإذا لم يقدره سبحانه، فلسـت أخشى مائة ألف عدو قاهر"[1].

ج٣، ص٣٢٣، دار صادر، بيـروت ١٣٧٦هـ ـ = ١٩٥٧م؛ بلـدان الخلافـة الشرقية، ص ٤٦٨).

(١) انظر رشيد الدين: تأريخ مبارك غازانى (داستان غازان خان)، تحقيـق كـارل يان، ص٧٣-٧٤.

ولكن بعد هذه الجهود الجبارة التى بذلها نوروز فى خدمة غـازان، بدأت عناصر الشر تتجمع وتدبر المؤامرات ضده، فأوحوا إلى غازان أنه كان يتصل سرا بسلطان مصر، وأنه أطمعه فى انتزاع الملك مـن المغول فى إيران. ولحبك هذه المؤامرة زورت عدة رسائل على لسان نوروز تؤيد هذا الاتهام؛ فصدر قرار الإيلخان باستئصال شأفة جميـع أفراد أسرة نوروز وأتباعه، ونفذ هذا على الفور(٢). كذلك كلف غازان قائده "قتلغ شاه" بمحاربة نوروز والقضاء عليه، ولكنه لاذ بالفرار بعـد أن انفض جنوده من حوله، وسار هائما على وجهه إلى أن لجـأ إلـى حماية "فخر الدين كرت" ملك هراة الذى توسم فيه نـوروز خيـرا إذ كانت تربطه به صلة قرابة من جهة. كما كان يطوقه بمننه وأفضـاله الكثيرة من جهة أخرى. ولكن الملك فخر الدين تنكر لكل هذا، واعتقل نوروز وأرسله مكبلاً بالقيود إلى القائد المغولى قتلغ شاه(٣).

ويتحدث رشيد الدين عن هذه الواقعة فيقـول: "سـأل قتلـغ شـاه "نوروز" لم فعلت هذا؟! .. أجاب: إن غازان يستطيع محاكمتى لا أنت. وكلما سئل بعد ذلك، لم يجب على الأسئلة الموجهة إليه. وسبب ذلك أنه لم يرتكب ذنبا قط، وأنه لا إثم عليه". ثم أمر قتلغ شاه بقتلـه واحتـز

---

(٢) حمد ا المستوفى القزوينى: تاريخ كزيده، باهتمام دكتر عبد الحسـين نـوائى، ص٦٠٤، تهران ١٣٣٦-١٣٣٩هـ.ش.

(٣) انظركتاب الشرق الإسلامى، ص٢٨٣.

رأسه وأرسله إلى غازان. وكان هذا فـى ٢٢ مـن ذى القعـدة سـنة ٦٩٦هـ[1].

إذن فرشيد الدين هنا يعترف اعترافًا صريحا ببراءة نـوروز مـن التهمة الموجهة إليه. ولكنه يعود ويتناقض مع نفسه، ويذكر فى أكثـر من موضع من تاريخ غازان أن نوروز عمد إلى الخيانة عدة مـرات، وكان السبب فى تخريب خراسان، وأنه يعمل على تبديد الأموال. وليس هذا بصحيح لأن "نوروز" استمر على إخلاصه لغازان كمـا سـبق أن ذكرنا. ولم يبد على تصرفاته ما يؤاخذ عليه.

وعلى هذا يكون رشيد الدين قد وقف إلى جانب غازان يؤيده ويبرر أفعاله بغير حق لأنه فى مركز القوة والسلطة ولا ينبغى أن يقف إلـى جانبه شخص آخر يمكن أن ينافسه. يقول بروكلمان:[2] "اصطنع غازان فى فرض سلطانه على ذوى قرباه وعلى أمراء المغول أبلـغ القسـوة وأثقل العنف، وحتى الأمير نوروز الذى كان له الفضل فـى ارتقـاء العرش لم يلبث أن ذهب ضحية هذه السياسة".

والواقع أن تمتع غازان خان بالسلطة المطلقة التى لا تقف عند حد تكون أحيانًا مصدرا فى إنـزال النكبـات والمصـائب علـى رؤوس

---

(١) انظر الترجمة.

(٢) تاريخ الشعوب الإسلامية، نقله إلى العربية الدكتور نبيه أمـين فـارس ومنيـر البعلبكى،ج٢، ص٢٧٤، الطبعة الأولى، بيروت ١٩٤٩م.

مرءوسيه خصوصا أولئك الذين يقتربـون منـه. يقـول دوسـون (D’ohsson)[٢]: "لا توجد صفحة من كتاب جامع التواريخ فى الجزء الذى يتناول الحوادث التى وقعت فى عهد غازان لـم يتحـدث فيهـا المؤلف عن قتل هذه الشخصية أو تلك من الشخصيات البارزة".

ورغم كل هذا نرى رشيد الدين يدافع عن غازان ويجرده من كـل عيب؛ فيصادفنا مثلاً قوله: "وإذا حاف المطلعون على بواطن الأمـور بالأيمان المغلظة أن سلطان الإسلام – خلد ملكه – لم يقتل أحدا مطلقًـا إلا ذلك الشخص السيئ الخلق، ويلزم القضاء عليه، وأن وجود الأشرار هو عين الضرر للعالمين – فإن أيمانهم صحيحة لا تستلزم الكفارة"[٣]. فهذا القول لا يخلو أيضا من مبالغة، ويخالف الحقيقة. ولنا أن نتساءل: إذا كان الشخص المعادى لغازان يستحق العقاب فما ذنب إخوته وأفراد أسرته وأنصاره وأتباعه إذا كانوا أبرياء؟.... للأسف كان يقضى عليهم أيضا. وهذا ما كان يحدث فى عهد غازان وغير غازان مـن ملـوك المغول السابقين. فنحن لا ننسى مثلاً نكبة الجوينيين فى عهـد والـده أرغون خان [١]ومأساة الجوبانيين فى عهد أبى سعيد[٢]. ففى شـريعة

---

(٢) Histoire des Mongols, IV, P.٢٠٠

(٣) انظر الترجمة العربية.

(١) الشرق الإسلامى، ص ١٥٣ – ١٦٠.

(٢) نفس المرجع، ص٤٤٨ وما بعدها.

المغول أنه ما دام الشخص - كائنًا من كان - قد نكب، ينبغى أن ينكب كذلك كل من يتصل به من قريب أو بعيد. وهذا لا شـك ظلـم فـادح وتصرف جائر بعيد عن الحق والعدل، ولا يمكن تبريره مهما حـاول رشيد الدين. وإذن فالأمر الذى لا شك فيه أن غازان خان على الـرغم من أنه يعد أكفأ سلاطين المغول فى إيران، وأنه رزق القدرة الكافيـة على إدارة شئون الحكم، كان قاسيا ومتشددا إلى أقصى حد، ولا يقـيم وزنًا لأى شخص مهما كانت منزلته، وحتى أقاربه وذووه لم ينجوا من بطشه وفتكه. روى أنه خلال شهر واحد قتل خمسة من أمراء الأسـرة الحاكمة وسبعة وثلاثين من أمراء المغول الآخـرين[٣]. وكمـا يقـول هورث "Howorth"[٤]: "برهن غازان بذلك على أنه ليس أقل من أبيه (أرغون) جرأة على سفك الدماء".

وفى موضع آخر جاءت كلمة الحق على لسان رشيد الدين؛ وذلـك عندما أبرز - من غير قصد – النزعـة الديكتاتوريـة السـافرة فـى شخصية غازان خان، إذ يقول عنه: "لم يكن يدع سبيلاً لأى أميـر أو وزير كى يعترض ويتحدث عن شأن من الشئون، ولم يكن يقيم وزنًا أو اعتبارا لأى واحد يعرض فكرا أو رأيا، بل يظل الجميـع منتظـرين

---

(٣) انظر كتاب فتوحات مغول، تأليف ج ج. ساندرز، ترجمة "أبو القاسـم حالـت"، ص١٣٤، تهران ١٣٦٣هـ.ش.

(٤) History of the Mongols, Vol,٣,PP.٤٠٤-٤٠٥.

ومترقبين إشاراته لتنفيذ ما يأمر به إلى حد أنه لم يترك مجالاً لمخاوق كى يسأله حتى عن يوم الرحيل". ويبالغ رشـيد الـدين مبـررا هـذا التصرف، فيقول: "وفى الحقيقة لم يشق ذلك على أى شـخص مـنهم لأنهم جميعا شاهدوا أن نفسه هى الأكمل ورأيه هو الأصوب من كـل الوجوه. وكذلك حركاته وسكناته مرتبه إلى أقصى حد، فـلا جـرم أن رأوا أنفسهم لا شىء بالقياس إلى كفاءته"[5].

كذلك من الموضوعات اللافتة للنظر والجديرة بالتأمل فى هذا القسم الثانى، الحملات التى شنها غازان على القوات المصرية والسورية فى بلاد الشام، والتى انتهت بهزيمته على يـد المصـريين والسـوريين، وتخليص الإقليم السورى نهائيا من سيطرة المغول.

قام غازان خان بثلاث حملات على الشام؛ ففى المرة الأولى وجـد هذا السلطان الفرصة سانحة لمحاربة المماليك بحجة الدفاع عن الإسلام والمسلمين فى هذا الإقليم فتقدم الجيش المصرى يقوده السلطان الناصر محمد بن قلاوون، والتقى الجيشان عند "مرج المروج" شرقى حمـص حيث دارت معركة عنيفة فى ١٧ من ربيـع الأول سـنة ٦٩٩هـ ـ / ١٢٩٩م أسفرت عن انتصار المغول.

وعندما أرخ رشيد الدين لهذه الحملة لاحظنا أنه راح يكيل المـدح للسلطان غازان وصار يطرى شجاعته وبطولته؛ فيذكر أنه وقف فـى القلب كأنه جبل شامخ. وكان المصريون معتمدين إلى أقصى حد على

---

(٥) انظر الترجمة.

عددهم وعدتهم، غير أنهم لم يكونوا يدركون أنهم وضعوا أقدامهم على أذناب الحيات، وأيديهم على الأشواك. ولما فتح العرب الكمين على المغول كانت القوات المغولية تقف لهم بالمرصاد، فداهمتهم وشتتت شملهم، وسمع سلطان الإسلام صوتًا من الوادى الأيمن يقول: لا تخف نجوت من القوم الظالمين[1]، فكان لتلك البشرى أثر قوى فى نفسه المباركة، وصار يزمجر كالأسد الهصور، ويخترق صفوف الأعداء، ويجندل أبطالهم بطعن السنان. ثم صاح على جنوده فنزلوا وأمطروا الأعداء بوابل من السهام، وشنوا عليهم هجوما كاسحا. وفى النهاية هزم المصريون. ثم يسترسل رشيد الدين فى مدحه وثنائه على غازان وإبراز تفوقه على أعدائه[2].

بعد ذلك ينتقل رشيد الدين إلى الحديث عن الحملة الثانية سنة ٧٠٠هـ / ١٣٠٠م فيتفق مع غيره من المؤرخين على عدم حدوث التحام بين المغول والمصريين نظرا لسوء الأحوال الجوية، وهطول الأمطار الغزيرة وكثرة الوحل واشتداد البرودة، بحيث إن قائدين من قواد المغول لم يستطع أحدهما أن يتصل بالآخر وهلك كثير من دوابهما بسبب الوحل والبرد. فما كان من غازان إلا أن أرسل قائدا ثالثًا على رأس عشرة آلاف جندى حتى ينقلوا المحاصرين بدوابهم. وعندما وصلوا إلى هناك، استطاعوا أن ينقذوا أنفسهم بمشقة كبيرة.

---

(١) قرآن كريم، سورة القصص، آية ٢٥ .

(٢) انظر الترجمة العربية.

ولما رأى غازان هذه الصعوبات قرر العودة مـن حيـث آتـى دون قتال[٣].

أما عن الحملة الثالثة التى قام بها غازان على الشـام، والتحمـت قواته بقوات الناصر محمد ابن قلاوون فى الثانى من رمضـان عـام ٧٠٢هـ / ١٣٠٢م عند "مرج الصفر" فقد أسفرت عن انتصار القوات المصرية والسورية انتصارا ساحقًا على قوات المغول. وبصعوبة بالغة نجا من الهلاك القائدان المغوليان قتلغ شاه وجوبان، وقليل من الجنود. وبانتصار المصريين فى هذه المعركة تكون قد فشلت ثالث محـاولات المغول فى إخضاع سورية، وتمكن المماليك من قهر أخطر وأشد عدو واجهته مصر منذ ظهور الإسلام[١].

وهنا نلاحظ أنه عندما تحدث رشيد الدين عن هذه الحملة، اختصر الحديث وتخلى عن صفة الحياد التى تحتم علـى المـؤرخ أن يـذكر الحقائق مجردة عن كل غرض أو هوى فى حالتى النصر والهزيمـة. ولا شك أن رشيد الدين سلك هذا السلوك محافظة على شعور غـازان الذى يود أن يراه منتصرا دائما.

---

(٣) انظر نفس المصدر.

(١) تاريخ سورية ولبنان، تأليف الدكتور فيليب حتى، ج٢، ترجمة الـدكتور كمـال اليازجى، الطبعة الثانية، ص٢٧٢ بيروت ١٩٧٢.

وبعد انتهاء المعركة، أسرع القائد المغولى "قتلغ شاه" فـى العـودة حيث قابل غازان خان فى "كشاف"[٢]. ومن المحتمل أن يكون هو أول من أبلغ السلطان نبأ كارثة الهزيمة. وعـن رد الفعـل عنـد غـازان وسماعه هذه الأخبار المزعجة، وكيفية استقباله قتلغ شاه، لم يقل رشيد الدين كلمة واحدة[٣]. كذلك نلاحظ أن هذا المؤرخ لم يحدثنا بشىء يذكر عما تم فى المجلس الذى عقده غازان فى مدينة الإسلام "أوجـان" فـى السادس من صفر سنة ٧٠٣هـ / ١٣٠٣م للتحقيق فى الأخطاء التـى ارتكبها قواد الجيش المغولى، وكانت سببا فى الهزيمة المنكـرة التـى لحقت بهم. وكل ما قاله فى هـذا الصـدد هـو أن المحققـين كـانوا يستجوبون المتهمين على ضوء الملاحظات التى أبـداها غـازان، وأن قواعد الياسا الكبرى قد طبقت فى كل الشئون الحربية[٤]. وإذن فالمغول بعد إسلامهم لم يتخلوا عن التمسك بأحكام الياسا كلما وجدوا فى ذلـك مصلحة لهم هذا على حين أننا إذا نظرنا إلى مؤرخ آخر هـو أديـب شرف الدين عبد ا بن فضل ا الشيرازى الملقب بوصاف الحضرة، والذى كانت تربطه برشيد الدين علاقة ود وصداقة[5] فإننا نراه يسـلك

(٢) كشاف: بالضم: موضع من زاب الموصـل (يـاقوت: معجـم البلـدان، ج٤، ص٤٦١).

(٣) The Cambridge History of Iran, V.٥. Dynastic and Political of the Il-Khans, by Boyle. P.٣٩٤, Cambridge, ١٩٦٨.

(٤) انظر الترجمة العربية.

(5) انظر مؤرخ المغول الكبير رشيد الدين فضل ا الهمذانى، ص ٢٣٣.

مسلكًا آخر مخالفًا لرشيد الدين؛ إذ يعطينا تفصيلات وافية عن معركـة "مرج الصفر" فى كتابه "تجزية الأمصار وتزجية الأعصـار"، والـذى اشتهر باسم "تاريخ وصاف"(١). ومنه نعلم أن عدد قتلى المغـول بلـغ عشرة آلاف جندى والأسرى عشرين ألفًا(٢).

كذلك يزودنا الوصاف بمعلومات عما تم فى المجلس الـذى عقـده غازان لمحاكمة المسئولين عن الهزيمة. وكان فى مقدمتهم قتلـغ شـاه وجوبان. وقد تبادل هذان الاثنان الاتهام فى حضرة غازان. وبدأ جوبان بالحديث فادعى أن قتلغ شاه لم يقم بحمايته كما ينبغى، ولم تطأ قدمـه أرض المعركة لمساعدة الجنود الذين كانوا معرضين للدمار. فرد عليه قتلغ شاه مدافعا عن نفسه؛ فزعم أن الوقت لم يكن مناسبا للهجوم، وأن جوبان قد خالف الأمر. ولهذا كان كارها لتصرفه. وبناء على هذا رأى من المصلحة تجنب خوض المعركة إلى جانـب جوبـان فـى ذلـك

---

(١) يعد هذا الكتاب واحدا من أهم المصادر فى تاريخ المغول فى إيران، وروايته فى وصف الحوادث تختلف عما جاء فى كتاب معاصره رشيد الدين؛ مما يدل علـى أن كلاً المؤلفين قد اعتمد على مصادر مستقلة عن تلك التى اعتمد عليها الآخر. هذا فضلاً عـن أنـه يحتـوى علـى أخبـار لا توجـد فـى رشـيد الـدين. وقد أخذ عنه المتأخرون مثل ميرخواند؛ غير أن أسلوبه ردىء جدا. وقـد أتـم الوصاف كتاب الجوينى. وبالإضافة إلى هذا يتحدث عن الأطراف مثل فـارس وكرمان وشبانكاره. ولا شك أن مصادر التاريخ المحلى كذلك قد أخـذت عـن تاريخ الوصاف.

Spuler: Die Mongolen in Iran, P.٩, Leipzig, ١٩٣٩.

(٢) انظر التفصيلات فى كتاب تاريخ وصاف، ص ٤٠٩ – ٤١٣، طبع بمباى.

الوقت[٣]. فلما سمع غازان هذا، أمر بتوقيع العقوبة علـى المقصـرين ومنعهم من دخول المعسكر عدة أيام. ولم يستثن من العقوبـة جوبـان نفسه، إذ ضرب بالهراوة ثلاث ضربات[٤].

شىء آخر يثير الإعجاب ويحمد للوصاف باعتباره مؤرخًا، هو أنه على الرغم من اشتغاله بخدمة المغول وتمتعه بإنعامهم وقربهم، كان لا يستطيع أن يخفى شعوره الذى ظهر بوضوح فى أسلوبه حينما تحـدث عن ملوك الأطراف البعيدة عن إيران. فقد كان كغيره مـن النـاس لا يزال ينقم على المغول ويرى فيهم قوما طغاة جبارين سفاكين للـدماء، نكبت بهم الأمم الإسلامية، فكان يتوق إلى أن يرى هذه الأمم تـنهض من كبوتها وتسترد مجدها وتستطيع أن تستذل هؤلاء القوم وتغلبهم على أمرهم. وقد ظهر هذا الشعور بوضوح عندما راح الوصـاف يشـرح

---

(٣) يقول بيبرس المنصورى: وأخبرونا بأنهم لما ضاق بهم الأمر، وأحـاط علـيهم العسكر حوطة الحصر، جاء جوبان أحد مقدميهم. إلى قطلو شاه، وقال له: أريد أن تعطينى عسكرا أهجم به على المسلمين، فما وافقه على ذلك فعاتبه وقال له: أنت الذى عزرتنا وسقتنا إلى ها هنا، وخالفت ما رسم لك به قازان فإنه لم يأمرك بالتقدم إلى هذا المكان، بل أوصاك أن تقيم بحمص ولا تتعداها ولا تتقـدم إلـى مكان سواها، وضرب فرسه وولى عنه، وجمع أصحابه، وحملوا علـى حميـةٍ، ونزلوا من الجبل طالبين طريق الرحبة. (مختار الأخبار: تاريخ الدولة الأيوبيـة ودولة المماليك البحرية حتى سنة ٧٠٢هـ ، ص ١٢٦، حققه دكتور عبد الحميد صالح حمدان، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٤١٣هـ – ١٩٩٣م.

(٤) تاريخ وصاف، ص٤١٤، طبع بمباى.

أحوال ملوك مصر من الأيوبيين والمماليك، ويصف الحـروب التـى اشتبك فيها المماليك مع المغول، تلك الحروب التىأسفرت عن نصـر محقق للمماليك واندحار تام للمغول[1]. تقول دوروتيا كرافولسكى: "لكن الوعى بالتناقض الذى لا يبدو واضحا فى عمل رشيد الدين التـاريخى يظهر فى عمل مؤرخ فارسى آخر هو شرف الدين عبد ا بن فضـل ا الشيرازى (عاش بين ٦٦٣ و ٧٣٠هـ تقريبا / ١٢٦٤ - ١٣٣٠م) الملقب بوصاف الحضرة، والذى كان يحظى بدعم رشيد الدين وتأييده. فقد تجرأ وصاف الحضرة، فأشاد بإسلام المماليك ودولتهم وانتصاراتهم على المغول أعداء الإسلام آملاً أن يأتى اليـوم الـذى يسـتطيع فيـه المسلمون التحرر من وحشية المغول وحكمهم غير الإسلامى"[2].

كذلك الحال عندما تحدث المؤرخون العرب[3] عن الحروب التـى دارت رحاها بين غازان من جهة وبين الناصر محمد بن قلاوون مـن

---

(١) تاريخ وصاف، ص ٨٣ – ٨٤، طبع بمباى؛ مؤرخ المغول رشيد الدين فضل ا الهمذانى، ص٢٣٤.

(٢) مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار: دولة المماليك لابن فضـل ا العمـرى: دراسة وتحقيق كرافولسكى، الطبعة الأولى، ص ٣٣ – ٣٤ من التمهيد المطول، الترجمة العربية، بيروت ١٤٠٧هـ – ١٩٨٦م.

(٣) من هؤلاء المؤرخين على سبيل المثال لا الحصر، أبو الفدا المؤيد عماد الـدين: المختصر فى أخبار البشر، المجلد الثانى الجزء الثالـث، ص ٤٢ – ٤٤، ٤٨ – ٤٩، نشـر مكتبـة المثنـى، القـاهرة بـدون تـاريخ؛ ص ٣١٦ – ٣١٨ ٣٥١ – ٣٥٩، المملكة العربية السعودية، بدون تاريخ؛ نفس المؤلـف: التحفـة

جهة أخرى، نلاحظ أن مؤلفيها حرصوا على أن يزودونـا بمعلومـات صحيحة، ولم يحاولوا إخفاء الحقائق وراحوا يكشفون عن الثغرات التى وجدت فى صفوف المصريين والسوريين وكانت سببا فى هزيمتهم أمام قوات المغول فى موقعة مرج المروج. وهكذا جاءت رواياتهم صـادقة وبعيدة عن الغرض والهوى. وكان مـن الطبيعـى أن تتحـدث هـذه المصادر عن معركة النصر الحاسمة فى موقعة مرج الصفر، وتشـيد بكفاءة الجنود المصريين والسوريين.

المملوكية فى الدولة التركية: تاريخ دولة المماليك البحرية فى الفترة من ٦٤٨ – ٧١١هجرية، تحقيق دكتور عبد المجيد صالح حمدان، ص ١٥٦ – ١٦١ ، ١٦٣ وما بعدها، الطبعة الأولى، الدار المصـرية اللبنانيـة، القـاهرة ١٤٠٧هـ ـ – ١٩٨٧م؛ نفس المؤلف: مختار الأخبار: تاريخ الدولة الأيوبية ودولـة المماليـك البحرية حتى سنة ٧٠٢هـ، تحقيق دكتور عبد الحميد صالح حمدان، ص ١١١ – ١١٤، ١٢٣ - ١٢٧، الطبعة الأولى، الـدار المصـرية اللبنانيـة، القـاهرة ١٤١٣هـ – ١٩٩٣م؛ أبو بكر عبد ا بن أيبك الدوادارى: كنـز الدرر وجامع الغرر، الجزء التاسع، وهو الدر الفاخر فى سيرة الملك الناصر، تحقيق هـانس روبرت رويمر، ص ١٥ – ٢٠، ٤٥ – ٤٧، ٥٨ – ٨٨ = = القاهرة ١٣٧٩هـ – ١٩٦٠م؛ تقى الدين أحمد بن على المقريزى: السلوك لمعرفـة دول الملـوك، تحقيق الدكتور محمد مصـطفى زيـادة ج١، ق٣، ص ٨٨٧ – ٨٩٥، ٩٣٣ – ٩٣٨، الطبعة الثانية، القاهرة ١٩٧٠م؛ محمد بن أحمد إيـاس الحنفـى: بـدائع الزهور فى وقائع الدهور، الجزء الأول – القسم الأول، تحقيق الـدكتور محمـد مصطفى، ص ٤٠٣ – ٤٠٥، ٤١٢ – ٤١٦، الطبعة الثانية، الهيئـة المصـرية العامة للكتاب، القاهرة ١٤٠٢هـ – ١٩٨٢م.

والواقع أن الجهاد الذى أدى إلى هذا النصر المؤزر على المغـول ليمثل جانبا مهما من تاريخنا القومى الذى نفخر ونعتز به على الدوام. وهناك حقيقة يجب أن نقررها، وهى أن المواجهة الطويلة نسبيا بـين المغول والمماليك، كانت حدثًا تاريخيا ترك آثاره الواضحة فى أذهـان الناس ونمى لديهم إحساسا عميقًا بالقومية العربية والإسلامية، وشعورا فياضا بالفخر والزهو بالانتصارات الرائعة التى أحرزها المصـريون والسوريون فى مصر والشام اعتمادا على كفاح الشـعوب فـى هـذه المنطقة وخارجها. كما أبرز فعالية الأبطال ودورهم اللامع المشرق فى التاريخ[1].

هذا وقد شك بعض المؤرخين فى إسلام غازان مستندين إلـى أنـه كان فى حروب مستمرة مع المماليك الذين كانوا يعدون فى ذلك الوقت حماة الدين الإسلامى، والذين كانوا يحملـون لـواء الزعامـة للـبلاد الإسلامية. هذا من جهة ومن جهة أخرى كان غازان يرحب بتعـاون المسيحيين معه ضد هؤلاء المماليك. وعلى هذا لم يتردد فى التحـالف مع المسيحيين الأوربيين فى سبيل القضاء على عدوهما المشـترك[2].

---

(١) انظر مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار- دولة المماليك الأولى لابن فضل ا العمرى (٧٠٠ – ٧٤٩هـ / ١٣٠١ – ١٣٤٩م): دراسة وتحقيق كرافولسـكى، الطبعة الأولى، ص ١٢ – ١٣ من التمهيد المطول، ترجمة الـدكتور رضـوان السيد، بيروت ١٤٠٧هـ – ١٩٨٦م.

(٢) انظر دكتر حبيب لوى: تاريخ يهـود إيـران، جلـد سـوم، ص١٠٦، تهـران ١٣٣٩هـ.ش ١٩٦٠مستيفن رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة الدكتور السيد الباز العرينى، ج٣، ص٧٣٦ – ٧٣٧، بيروت ١٩٦٩.

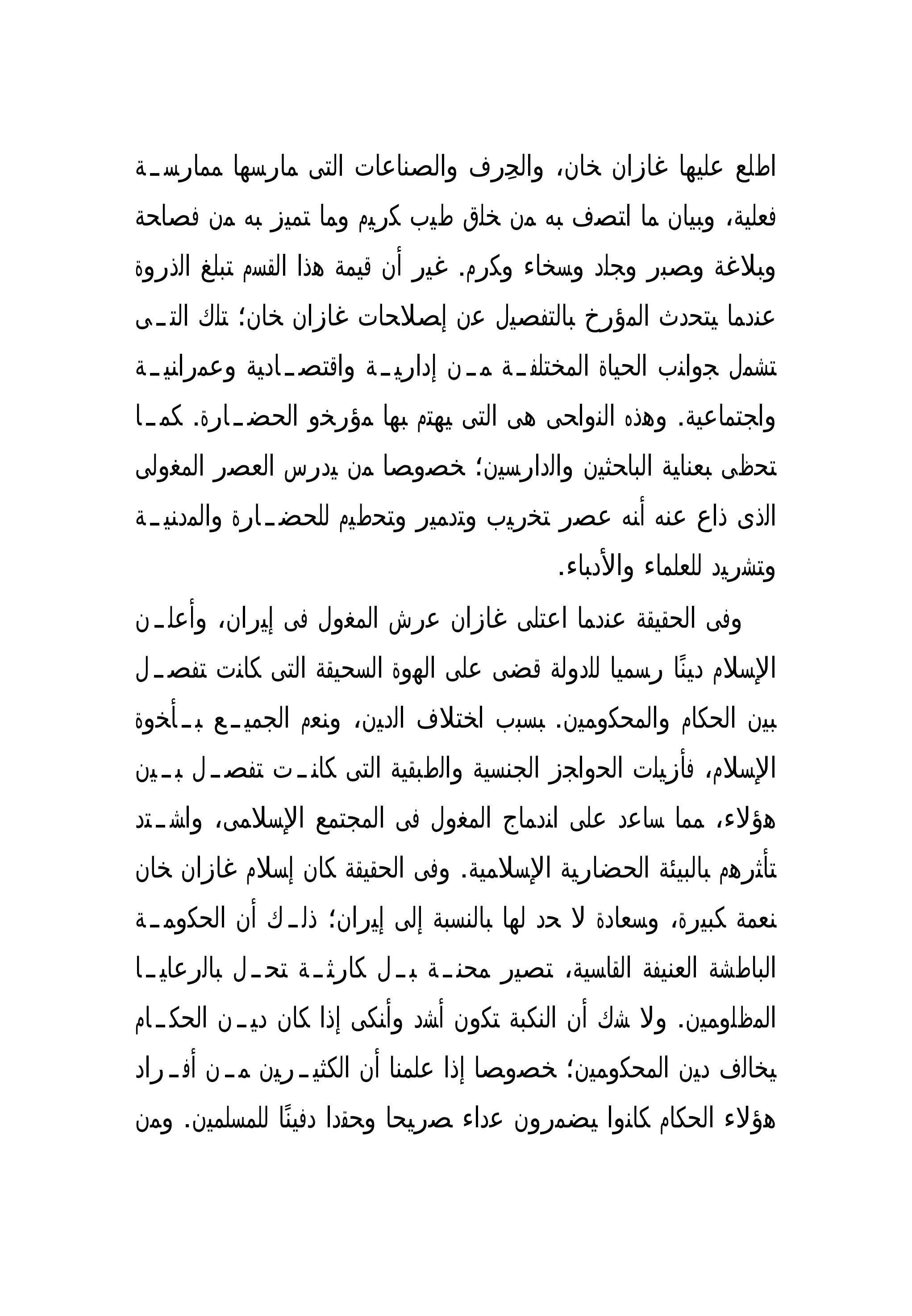
ولكن خاب ظن هؤلاء وهؤلاء بانتصار المماليك انتصارا حاسما فـى موقعة مرج الصفر على النحو الذى ذكرناه سابقًا.

وردنا على هذا الادعاء نقول إن غازان كان مسلما مخلصـا فـى إسلامه ما فى ذلك من شك. وإذا كان قد حارب المماليك المسلمين فما ذلك إلا استجابة للطبيعة البشرية التى جبلت على حب العظمة والظهور والميل إلى السيطرة والتوسع والرغبة فى الغزو والفتح. كـذلك أقـدم غازان على اتخاذ هذه الخطوة تحقيقًا لسياسة جرى عليها أسلافه مـن قبل لمدة طويلة دون أن يحققوا أهدافهم إذ لحقت بهم الهزائم المتكررة، ويريد هو أن ينتقم لهم. وها نحن فى العصـر الحـديث مـثلاً نجـد الأوربيين رغم اتحادهم فى الدين قد اضطرتهم المنافسـات السياسـية والعوامل الاقتصادية إلى شن الحروب بعضهم ضد الـبعض، فجـروا العالم إلى حربين عالميتين، عانى العالم من ويلاتهما مدة طويلـة. وإذا كان غازان قد اتحد مع المسيحيين ضد المسلمين، فما ذلك إلا لأنه وجد نفسه فى حاجة إلى مساعدتهم. وأن التحالف معهم إنما هو وسيلة أملتها عليه السياسة فحسب، وليس للدين دخل فيها لا مـن قريـب ولا مـن بعيد[1].

القسم الثالث: فيه يتحدث رشيد الدين بالتفصيل عن أربعين حكاية: الحكايات الست الأولى منها تتضمن مختلف المعارف والثقافات التـى

---

(١) انظر المجتمع العربى، تأليف مجموعة من أساتذة كليـة الآداب بجامعـة عـين شمس، الطبعة الأولى، ص ١٧٦ – ١٧٧، القاهرة ١٩٦٦م.



اطلع عليها غازان خان، والحِرف والصناعات التى مارسها ممارسـة فعلية، وبيان ما اتصف به من خلق طيب كريم وما تميز به من فصاحة وبلاغة وصبر وجلد وسخاء وكرم. غير أن قيمة هذا القسم تبلغ الذروة عندما يتحدث المؤرخ بالتفصيل عن إصلاحات غازان خان؛ تلك التـى تشمل جوانب الحياة المختلفـة مـن إداريـة واقتصـادية وعمرانيـة واجتماعية. وهذه النواحى هى التى يهتم بها مؤرخو الحضـارة. كمـا تحظى بعناية الباحثين والدارسين؛ خصوصا من يدرس العصر المغولى الذى ذاع عنه أنه عصر تخريب وتدمير وتحطيم للحضـارة والمدنيـة وتشريد للعلماء والأدباء.

وفى الحقيقة عندما اعتلى غازان عرش المغول فى إيران، وأعلـن الإسلام دينًا رسميا للدولة قضى على الهوة السحيقة التى كانت تفصـل بين الحكام والمحكومين. بسبب اختلاف الدين، ونعم الجميـع بـأخوة الإسلام، فأزيلت الحواجز الجنسية والطبقية التى كانـت تفصـل بـين هؤلاء، مما ساعد على اندماج المغول فى المجتمع الإسلامى، واشـتد تأثرهم بالبيئة الحضارية الإسلامية. وفى الحقيقة كان إسلام غازان خان نعمة كبيرة، وسعادة لا حد لها بالنسبة إلى إيران؛ ذلـك أن الحكومـة الباطشة العنيفة القاسية، تصير محنـة بـل كارثـة تحـل بالرعايـا المظلومين. ولا شك أن النكبة تكون أشد وأنكى إذا كان ديـن الحكـام يخالف دين المحكومين؛ خصوصا إذا علمنا أن الكثيـرين مـن أفـراد هؤلاء الحكام كانوا يضمرون عداء صريحا وحقدا دفينًا للمسلمين. ومن

هنا عدت حكومة المغول فى إيران - قبل غازان خان- أقسى وأعنف الحكومات، غير أن كل هذا قد تغير تغيرا كاملاً بفضل إسلام غـازان خان[1]. كذلك فى عهد هذا الحاكم المغولى تحدد موقـف الدولـة مـن الأقليات غير المسلمة التى كانت تحظى منهم بـالكثير مـن العطـف والرعاية على حساب المسلمين؛ فقد انتهت هذه السياسـة إلـى غيـر رجعة، وفرضت على هذه الطوائف الجزية بصورة منتظمة، وحـددت مكانتهم فى المجتمع الإسلامى كأهل ذمـة لا يرقـون إلـى مسـتوى المسلمين[2].

ومما هو جدير بالذكر أيضا هو أن حكم غازان قد هيأ للمغول فترة هدوء كفوا فيها أيديهم – إلى حد ملموس – عن القتل والغارة، وعادوا إلى الحالة الطبيعية فزاد تأثرهم بحضارة المغلوبين، وجدوا فى إصلاح ما أحدثه آباؤهم وأجدادهم من تخريب وتدمير وصاروا أكثر اسـتعدادا للمساهمة بنصيبهم فى إنهاض الحضارة الإسلامية من كبوتهـا. وفـى الحقيقة لم يكتف غازان بصبغ حياته الخاصة بالصبغة الإسلامية، بـل تعدى ذلك إلى رفع المظالم عن طبقات الشـعب الكادحـة، ومحاربـة

---

(١) انظر براون: تاريخ أدبى إيران أز نيمة قرن هفتم تا آخر قرن نهم هجـرى (از سعدى تاجامى) ترجمة على أصغر حكمت، ص٤٧، تهـران ١٣٢٧هـ ـ.ش / ١٩٤٨م.

(٢) الدكتور محمد صالح القزاز: الحياة السياسية فى العراق فـى عهـد السـيطرة المغولية، ص٢٩٤ – ٢٩٥، النجف ١٣٩٠هـ – ١٩٧٠م.

ضروب الفساد فى مختلف شئون الحياة، وذلك كله طبقًا لما تنص عليه الشريعة الإسلامية[٣].

لقد كان هدف غازان هو استقرار الأمور السياسية الداخلية ووضع علاج حاسم للجراح الدامية التى كانت قد وجدت قبله فى الجسد العليل بل المستهلك لبلاد إيران. وفى الحقيقة كانت تسود البلاد كلها حالة من الفوضى والفساد؛ فكان لا بد من القيام بسلسلة من الإصلاحات الواسعة التى تهدف إلى الترفيه عن الرعية والعمل على استئصال الـداء مـن جذوره. ولقد رأى بثاقب فكره أن يستعين بالكُتّاب وأرباب القلم ورجال السياسة المحنكين من الإيرانيين؛ وذلك مـن أجـل تنفيـذ برنامجـه الإصلاحى الشامل، فنصب رشيد الدين الذى كان طبيبا ومن أبرز أهل القلم، ومن كبار العلماء والمثقفين، نصبه وزيرا لكـل الممالـك التـى يحكمها غازان؛ فعمل هذا الوزير مع من شاركه فى منصب الـوزارة على إيجاد حكومة قوية ثابتة ومقتدرة فى ظل السيطرة الكاملة والنفوذ المطلق للسلطان غازان وذلك بهدف تقوية أساس دولـة الإيلخـانيين، فكان رشيد الدين بذلك، العامل الرئيسى فى تنفيذ كل الإصلاحات التى تمت فى هذا العهد.

---

(٣) انظر الدكتور مصطفى طه بدر: مغول إيران بين المسيحية والإسـلام، ص٣٧، القاهرة بدون تاريخ.

وهكذا بفضل مساعدة رشيد الدين وجهوده ورأيه الصائب أنجـزت جميع الاصلاحات التى كان يتوق غازان إلى تحقيقها فى مختلف شئون دولته[1]. ونتيجة لهذه الجهود المثمرة أصلح الجهاز الإدارى الذى كان يشمل الدواوين المختلفة. كما أدخلت تعديلات جوهرية علـى جهـاز القضاء، وأصبح يسير تماما وفق أحكام الشـريعة الإسـلامية. كـذلك أحدث غازان نظما جديدة فى الجيش. ولم تقف جهوده عند هذا الحـد، بل إنه سعى سعيا جديا فى تثبيت حقوق الملاك والمزارعين، وعمـل على اتساع رقعة الأراضى المزروعة، وذلك بشق الترع والقنوات، مما أدى إلى ازدهار الزراعة[2] وإصلاح الحالة الاقتصـادية فـى الـبلاد وتحسين أوضاع الناس. ومن الإنصاف أن نذكر أن غازان خان أعـاد كذلك النظام والأمن والأمان إلى مختلف المناطق التى تعرضت لكثيـر من القلاقل والهزات العنيفة. كما أنه بذل جهودا جبـارة فـى سـبيل

---

(١) آئين كشور دارى در عهد وزارت رشيد الدين فضل ا همدانى، تأليف دكتـر هاشم رجب زاده، ص ٧ – ٨، تهران ٢٥٣٥ شاهنشاهى.

(٢) عن الإصلاح الزراعى انظر الترجمة العربية للحكـايتين السادسـة والثلاثـين والسابعة والثلاثين وللحصول على مزيد من التفصيلات انظر كتاب كشـاورزى ومناسبات أرضى در إيران عهد مغول، تأليف إيليا باولو يـج بطروشفسـكى، ترجمة كريم كشاورز، جلد أول، جاب دوم، ص١٥٢ وما بعدها، تهران ٢٥٣٥ شاهنشاهى.

أوضاع الطبقات الفقيرة، والقضاء على المظالم التى تعرضوا لها فـى عهد أسلافه من حكام المغول.

وهكذا رأينا غازان خان بمجرد أن اعتلى العرش، أخذ يسعى سعيا جديا فى أن يجبر النقص الذى حدث فى كل أجهـزة الدولـة نتيجـة لأخطاء السالفين؛ وذلك بما كان يبذله من طاقة جبارة وعزيمة قويـة، وبمساعدة وزرائه الأكفاء، وفى مقدمتهم رشيد الدين. وفى الحقيقة سعى غازان بإخلاص فى تغيير معالم الحياة المختلفة المليئة بـالعيوب إلـى معالم أخرى مشرقة تعيد الأمن والاستقرار للناس، وتؤمنهم على حياتهم وأرواحهم وأعراضهم وممتلكاتهم. ومن البديهى أن غازان ظل طـوال فترة حكمه يتمتع بعزيمة قوية لا تفتر. ولم يتخل عن عزمه على تحقيق مآربه. وعندما يرى العقبات تقف فى طريقه، وتحول دون الوصـول إلى أهدافه، كان لا يتردد فى اللجوء إلى الشدة التى تبلغ حـد القسـوة يستدل على ذلك بأحداث القتل التى لا أول لها ولا آخر؛ وذلـك علـى العكس من عمه كيخاتو خان (٦٩٠ - ٦٩٤هـ / ١٢٩١ - ١٢٩٤م) الذى كان تنقصه الشجاعة والجرأة؛ إذ كان فى أغلب الأحيان يمتنع عن تنفيذ أوامر القتل والإعدام. وفى عهد غازان بأكمله بذلت جهود كبيـرة مرهقة، وشنت حملات متعددة. ورغم الجهود المضـنية التـى بـذلها غازان فى سبيل الإصلاح، لم تتح له الفرصة كى تخرج أفكاره كلهـا

إلى حيز التنفيذ؛ فسرعان ما لبست فترة حكمه القصيرة ثوبـا حزينًـا ووضع موته المبكر حدا فاصلاً لهذه الجهود الجبارة التـى قـام بهـا والمساعى المتواصلة التى بذلها فى سبيل إصلاح دولته. فالحزن عليه، وقبل هذا على مصير بلاده الذى كان فى أمس الحاجة إلى حاكم قـوى مثله[1].

وإن الروايات التى ذكرها رشيد الدين فى كتابه، وشملت الأحـداث المعاصرة له لتدل بوضوح تام على أن هذا المؤرخ لم يكـن متفرجـا غريبا عن هذه الحوادث، أو على أنه المؤرخ الذى يؤرخ فقط، ولكـن تدل أيضا على أنه هو الذى يلعب دورا هاما فى هذه الأحداث ويشـير على غازان بالرأى السديد، ويساعده على تنفيذ مشروعاته وإصلاحاته، مما يثبت أنه الرجل الذى يهتم بكل التفصيلات التـى تتعلـق بشـئون الدولة. ولا شك أن هذه الإصلاحات هى بمثابة مرآة تبدو عليها حيـاة الناس ووقائع عصرهم، وتعتبر أسنادا تاريخية قيمة جديرة بالدراسـة والبحث. ولقد تنبه الباحثون إلى أهمية دراسة النواحى الحضارية فـى حياة الشعوب لأنها النتاج الحقيقى الواقعى لمسيرة التـاريخ البشـرى. ونحن إذا عرفنا أن المصادر التاريخية غالبا ما تهتم بالجوانب السياسية

---

(١) شبولر : تاريخ مغول در إيران: سياست، حكومت وفرهنكـ ـ دورة إيلخانـان، ترجمة دكتر محمود آفتاب، ص ٩٧ – ٩٨، تهران ١٣٥١ هـ.ش.

والحربية فى حياة الشعوب، فإنه ينبغى أن نقدر تمام التقدير مـا كتبـه رشيد الدين عن غازان خان الذى استطاع فى سنوات قليلـة أن يعيـد الحياة والازدهار إلى ربوع البلاد التى كان يحكمها.

والواقع أن حديث رشيد الدين عن الإصلاحات التى تمت فى عهـد غازان والتى سجلها بقلمه أروع تسجيل فى كتابه جامع التـواريخ، لا نصادف مثله - على هذا النحو من التفصيل والوضوح – فى كتابة أى مؤرخ آخر. وفى الحقيقة عندما أراد هذا المؤرخ الرسـمى أن يكتـب شيئًا عن السلطان الذى كان يحكم فى ذلك الوقت اعتبـر رفـع شـأنه واجبه الأول. وهو فى الحقيقة جدير بأن ينال هذه الدرجة الرفيعة عند مؤرخه رشيد الدين.

ما نلاحظه على هذا القسم الثالث هو أن رشيد الدين عندما تحـدث فى الحكاية الأولى منه، والتى كتبها بعنوان: "فى فنون كمالات سلطان الإسلام وعلومه ومعرفته الصناعات المختلفة، ووقوفه على أسـرارها" نراه قد تناول الصفات التى اتصف بها غازان، والصناعات التى عرفها ومارسها؛ فذكر أن هذا العاهل كان يحب صـحبة الأدبـاء والحكمـاء والفضلاء والعقلاء الممتازين ويجالسهم ويطرح الأسـئلة علـيهم ولا يترك مجالاً لأى محتال أو مزور يتحدث فى حضرته بكلام فيه خـداع ورياء. وكان على اطلاع تام على الأديان والملل والنحل، وواقفًا على

معتقدات كل طائفة بحيث إنه عندما كان يتباحث مع أئمة تلك المذاهب، يعجزون عن الإجابة عن واحد من عشرة أسئلة يوجهها إليهم. وأما عن اللغات المختلفة؛ فكانت المغولية لغتـه الأم. وكـان يلـم بالعربيـة والفارسية والهندية والكشميرية والتبتية والخطائية والفرنجيـة وسـائر اللغات[1].

وكان يعرف أيضا تاريخ السلاطين المتقدمين والمتأخرين، ويقـف على آدابهم وعاداتهم ونظمهم. وأما عن الحرف المختلفة فإنه لا توجد حرفة قط لم يمارسها بيده؛ وذلك من قبيل الصياغة والحدادة والنجـارة والنقش وصب المعادن والخراطة. كذلك مارس صنعة الكيمياء ووقف على طريقتها فى مدة وجيزة، وأحاط أيضا علما بالصـناعات الدقيقـة الظريفة. وقد اطلع على علم الطب وعرف الأدوية ووقف على أكثـر خواصها، واكتشف الأعشاب الطبية، وعرف فوائدها. كذلك امتد نشاطه إلى المعادن وكيفية استخراجها وصهرها، وصار يحيط بما يحويه منها كل موضع من الجبال والصحارى التى يراها. وأما التعاويذ فإنه يعرف منها ما يقرأ لكل آفة. وأخيرا وليس آخرا فإنه كان يحيط أيضا بأسرار

---

(١) يقول ابن حجر العسقلانى: "كان غازان يتكلم بالفارسية مع خواصه، ويفهم أكثر ما يقال باللسان العربى". (الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنـة، ج٣ ص٢١٣ نشر دار الجيل، بيروت ١٣٥٠هـ).

علم النجوم والهيئة. وبهذا يكون غازان قد حصل نصيبا من كل علـم يتصور. وقد صرح فى النهاية بأن خلاصة العلوم علم الإلهيات. وإلى الآن ما زال غازان يشغل نفسه دائما بالتعليم والتعلم.

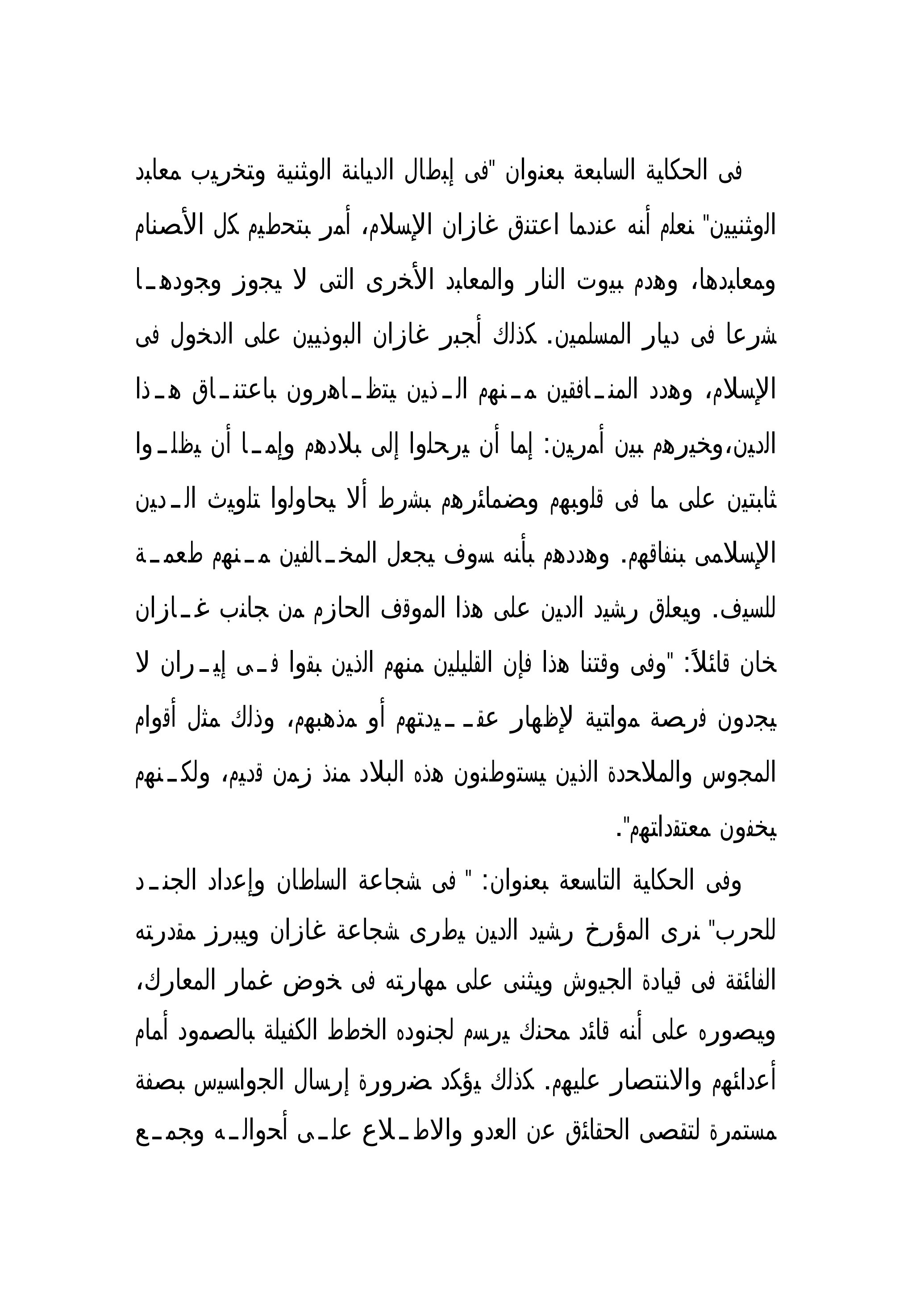
وإننا لنتساءل حقًا: هل يمكن لفرد واحد مهما أوتـى مـن ذكـاء وعبقرية أن يحيط علما بكل هذه المعارف والثقافات والصناعات؟! ولم لا يكون رشيد الدين قد قال هذا على سبيل التملق والتزلف والمبالغة؟!

فى الحقيقة نرى رشيد الدين نفسه يشعر بهـذا الحـرج، فيسـرع بالدفاع عن وجهة نظره دفاعا منطقيـا مستشـهدا بالمعاصـرين لـه والقريبين من مسرح الأحداث فيقول: "وأهل هذا العهد واقفون علـى تلك الحقائق، وهم شهود على أن الحال يجرى على هذا المنوال، وذلك حتى لا يطعن القراء فى كلامى قائلين: لقد حدثت مبالغة فيما كتبت"[١].

بعد ذلك ننتقل إلى الحديث عن أهم الإصـلاحات التـى قـام بهـا غازان، والتى كانت صادرة من وحى إسلامه وصـفاء نيتـه. وكـان مهتديا فيها بتعاليم الإسلام السمحة ومبادئه القويمة؛ فدفعه هذا إلى القيام بهذه الإصلاحات التى رفعت منزلته إلـى مقـام كبـار المصـلحين والمشرعين، على أن نبين بوضوح إلى أى حد وفق رشيد الـدين فـى عرض هذه الموضوعات بعيدا عن المبالغة والنفاق والرياء؟!

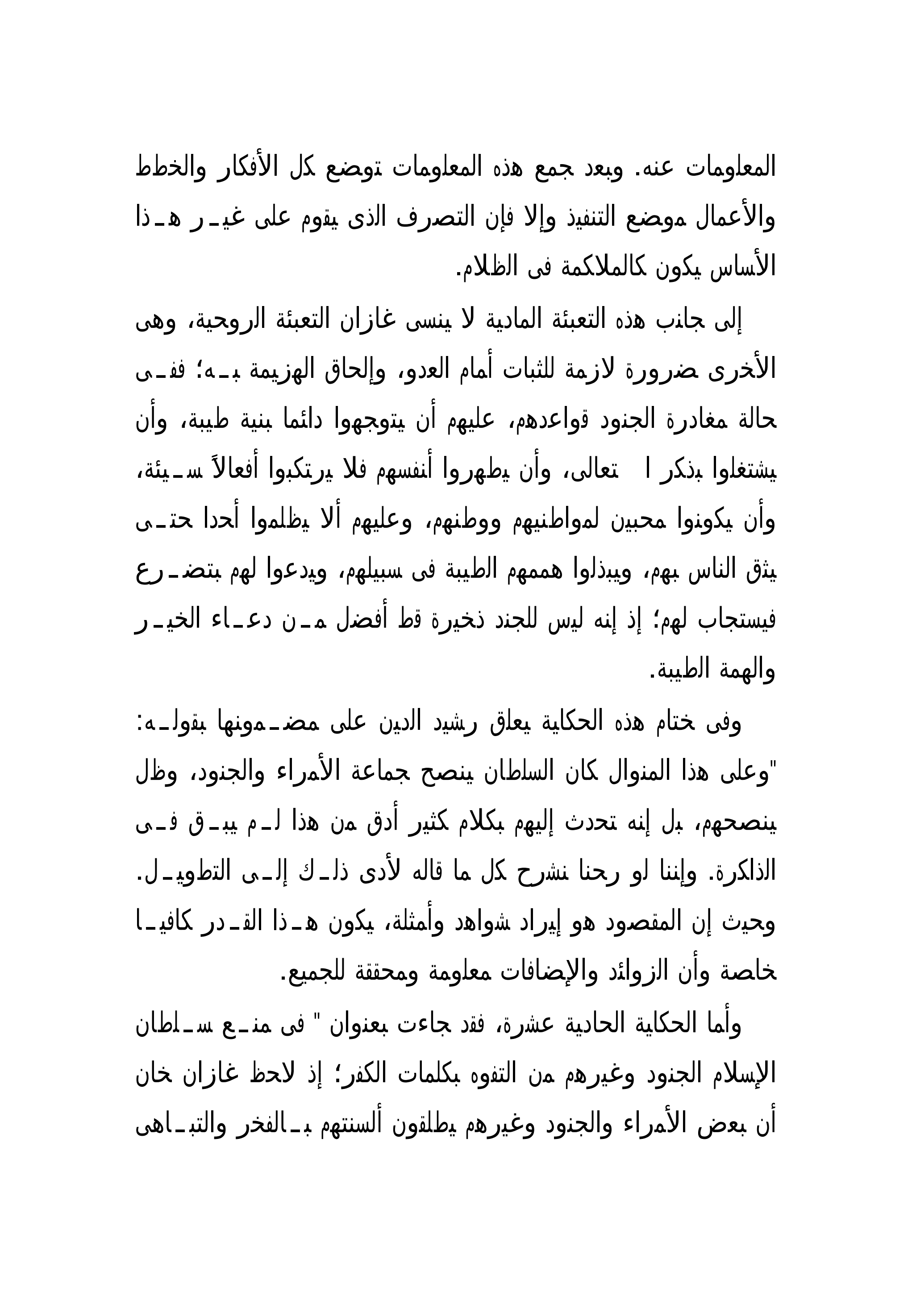
---

(١) انظر الترجمة.



فى الحكاية السابعة بعنوان "فى إبطال الديانة الوثنية وتخريب معابد الوثنيين" نعلم أنه عندما اعتنق غازان الإسلام، أمر بتحطيم كل الأصنام ومعابدها، وهدم بيوت النار والمعابد الأخرى التى لا يجوز وجودهـا شرعا فى ديار المسلمين. كذلك أجبر غازان البوذيين على الدخول فى الإسلام، وهدد المنـافقين مـنهم الـذين يتظـاهرون باعتنـاق هـذا الدين،وخيرهم بين أمرين: إما أن يرحلوا إلى بلادهم وإمـا أن يظلـوا ثابتين على ما فى قلوبهم وضمائرهم بشرط ألا يحاولوا تلويث الـدين الإسلامى بنفاقهم. وهددهم بأنه سوف يجعل المخـالفين مـنهم طعمـة للسيف. ويعلق رشيد الدين على هذا الموقف الحازم من جانب غـازان خان قائلاً: "وفى وقتنا هذا فإن القليلين منهم الذين بقوا فـى إيـران لا يجدون فرصة مواتية لإظهار عقـيدتهم أو مذهبهم، وذلك مثل أقوام المجوس والملاحدة الذين يستوطنون هذه البلاد منذ زمن قديم، ولكـنهم يخفون معتقداتهم".

وفى الحكاية التاسعة بعنوان: " فى شجاعة السلطان وإعداد الجنـد للحرب" نرى المؤرخ رشيد الدين يطرى شجاعة غازان ويبرز مقدرته الفائقة فى قيادة الجيوش ويثنى على مهارته فى خوض غمار المعارك، ويصوره على أنه قائد محنك يرسم لجنوده الخطط الكفيلة بالصمود أمام أعدائهم والانتصار عليهم. كذلك يؤكد ضرورة إرسال الجواسيس بصفة مستمرة لتقصى الحقائق عن العدو والاطـلاع علـى أحوالـه وجمـع



المعلومات عنه. وبعد جمع هذه المعلومات توضع كل الأفكار والخطط والأعمال موضع التنفيذ وإلا فإن التصرف الذى يقوم على غيـر هـذا الأساس يكون كالملاكمة فى الظلام.

إلى جانب هذه التعبئة المادية لا ينسى غازان التعبئة الروحية، وهى الأخرى ضرورة لازمة للثبات أمام العدو، وإلحاق الهزيمة بـه؛ ففـى حالة مغادرة الجنود قواعدهم، عليهم أن يتوجهوا دائما بنية طيبة، وأن يشتغلوا بذكر ا تعالى، وأن يطهروا أنفسهم فلا يرتكبوا أفعالاً سـيئة، وأن يكونوا محبين لمواطنيهم ووطنهم، وعليهم ألا يظلموا أحدا حتـى يثق الناس بهم، ويبذلوا هممهم الطيبة فى سبيلهم، ويدعوا لهم بتضـرع فيستجاب لهم؛ إذ إنه ليس للجند ذخيرة قط أفضل مـن دعـاء الخيـر والهمة الطيبة.

وفى ختام هذه الحكاية يعلق رشيد الدين على مضـمونها بقولـه: "وعلى هذا المنوال كان السلطان ينصح جماعة الأمراء والجنود، وظل ينصحهم، بل إنه تحدث إليهم بكلام كثير أدق من هذا لـم يبـق فـى الذاكرة. وإننا لو رحنا نشرح كل ما قاله لأدى ذلـك إلـى التطويـل. وحيث إن المقصود هو إيراد شواهد وأمثلة، يكون هـذا القـدر كافيـا خاصة وأن الزوائد والإضافات معلومة ومحققة للجميع.

وأما الحكاية الحادية عشرة، فقد جاءت بعنوان " فى منـع سـلطان الإسلام الجنود وغيرهم من التفوه بكلمات الكفر؛ إذ لاحظ غازان خان أن بعض الأمراء والجنود وغيرهم يطلقون ألسنتهم بـالفخر والتبـاهى

بآرائهم الصائبة كما دأبوا على التلفظ بألفاظ قد تؤدى إلى الكفر. وكان يلاحظ على الجند بصفة خاصة أنهم إذا ما تم لهم النصر على العـدو ووفقوا فى حياتهم، نسبوا كل هذا إلى أنفسهم، وأطروا شجاعتهم. أمـا إذا هزموا فى إحدى المعارك أو أنهم لم يوفقوا فى عمل من الأعمـال، قالوا: "إن هذا قضاء ا وقدره، وإلا فقد سعينا وبذلنا الجهود الجبارة".

وللحيلولة دون الوقوع فى هذا الخطأ أصدر غازان مرسوما نـص فيه على أن من يتفوه بهذا الكلام يكون مذنبا، وعليه أن يثق أن الحسنة من فضل ا وأن السيئة إنما هى نتيجة الأفعال المستهجنة التى يقـدم عليها الإنسان. وغازان فى إجرائه هذا إنما يسترشد بما جاء فى القرآن الكريم: ﴿ما أصابك من حسنة فمن ا ، وما أصابك من سيئة فمن نفسك وأرسلناك للناس رسولاً وكفى با شهيدا﴾[1].

الحكاية الثالثة عشرة: "فى أبواب البر التى أنشأها سلطان الإسـلام فى تبريز وهمدان والبلاد الأخرى، والأوقاف التـى وقفهـا، وتنظـيم المنشآت".

هذه الحكاية تتضمن أعمالاً بارزة قام بها غازان. وهى أيضا مـن وحى الإسلام ومتفقة مع تعاليمه السامية؛ لأنها تحث على فعل الخيـر، وتدعو إلى العطف على الطبقات الفقيرة التى هى فى أمس الحاجة إلى المساعدة والأخذ بيدها حتى تنهض من كبوتها، وتسـتطيع أن تسـاير

---

(١) سورة النساء، آية ٧٩.

ركب الحياة فى المجتمع بطريقة سليمة كريمة بعيدا عـن الانحـراف والسلوك المشين.

هذه الجهود تتمثل فى الأوقاف[٢] الكثيرة التى وقفها غـازان علـى المؤسسات الخيرية المقامة فى الولايات المختلفة للقيام بأعمـال البـر والإحسان. ويتضح ذلك فـى الإنفـاق علـى المسـاجد والمـدارس والمؤسسات الخيرية والمستشفيات ودور الكتب والقضاء والحمامـات والجرايات والأيتام والأرامـل والمسـنين وذوى العاهـات، وإغاثـة المحرومين والمستحقين. وكذلك فى سبيل الإشراف على تربية الأطفال اللقطاء الذين يلقى بهم فى عرض الطريق فهـؤلاء يجـدون العنايـة والرعاية، ويعهد بهم إلى المرضعات اللائى يوفر لهن كل ما يحـتجن إليه حتى يبلغ الأطفال سن الرشد والتمييز. وهذه العناية تشمل أيضـا الإنفاق على دفن الموتى من الغرباء الذين يموتون فـى تبريـز، ولـم يكونوا يملكون مالاً يفى بإجراءات دفنهم. وفى صراحة وتواضـع راح غازان يقول: " ومع أنه ليست لنا مرتبة الصالحين، لكن تشـبها بهـم عمدنا إلى إنشاء أبواب البر كى تكون مثوى لآخرتنا. وبذلك تصير لنا

---

(٢) انظر مقالة بعنوان "الوقف صورة مشرقة فـى التـاريخ الإنسـانى للحضـارة الإسلامية" كتبها إبراهيم نويرى فى مجلة القافلة الصادرة فى شوال ١٤١٨هـ – يناير – فبراير ١٩٩٨م، العدد العاشر – المجلد السادس والأربعـون، ص ٢ – ٣، الدمام، المملكة العربية السعودية.

خيرات وصدقات جارية، وببركات تلك الخيرات، تأخذ بيدنا رحمة ا تعالى، ويدخر لنا ثواب دائم. وإنه من المفضل إلـى أقصـى حـد أن نسرع فى إنجاز هذه المؤسسات فى الوقت الذى منحنا الحـق تعـالى القدرة، وهيأ لنا الفرصة حتى تتم هذه الأعمال بيمن التوفيق"[1].

ومما يذكر أيضا بالخير والثناء على غازان هو أنه لم يقتصر على تقديم مساعداته للإنسان، بل امتدت رعايته إلى الحيوان؛ فقد أمر بـأن تنثر الحبوب فوق أسطح المنازل فى أشهر الشتاء الستة البـاردة فـى إيران عندما تشتد البرودة وينزل الثلج، فتلتقط الطيور هـذه الحبـوب آمنة مطمئنة، ولا يحاول أحد قط اصطيادها. وكل من يقصدها بسـوء تحل عليه لعنة الحق تعالى وسخطه، وعلى المتولى وسكان تلك البقاع أن يمنعوا المعتدين ويردعوهم وإلا يكونوا آثمين.

كذلك شمل غازان بعطفه الفئات المغلوبة على أمرها من الغلمـان والجوارى والأطفال الذين يكلفون بنقل الماء، وتنكسر أوانيهم والكيزان التى يحملونها أثناء نقل الماء إلى المنازل، ويخشون عقاب سـاداتهم، فإن المتولى يعوضهم عنها أوانى جديدة، وذلك بعد أن يتحرى الحقيقة.

ونتيجة لإيمان غازان العميق واعتماده على ا وطلب المعونة منه، أنه فى كل ولاية حل بها، وراوده أمل، وعن له مراد ومسـت حاجـة

---

(١) انظر الترجمة.

مستترة لجأ إلى حضرة الحق تعالى، وأفضى إليه بسره، والتزم نـذرا وأدى صدقة.

وهكذا ملأ الإيمان قلب غازان، فكان يسِر دائما إلى الحـق تعـالى بحاجاته، وهو متأكد - دون أدنى شك – مـن أنهـا مقضـية لـدى الحضرة الإلهية بفضل الخيرات والصدقات والنذور، ولا يضيع أجـر ذلك أبدا.

وفى النهاية يعلق رشيد الدين على أعمال الخير والبر التى قام بهـا غازان ورصد لها المبالغ الطائلة، ووقف عليها الأوقاف الكثيرة، فيقول على سبيل المبالغة "ولا شك أن أى مخلوق لم ير فى أى عصر ومـن أى سلطان مثل هذه الخيرات الكثيرة والمبرات والإنعامات والصدقات الجارية". وأخيرا يدعو رشيد الدين لغازان قائلاً: "فليمنح الحق – جـل وعلا – هذا السلطان العادل الكريم مزيدا مـن التوفيـق علـى هـذه الخيرات، وليوصل بركاتها ومثوباتها إلى أيامه المباركة"(٢).

بعد ذلك يتحدث رشيد الدين عن إصلاح القضاء على يد غـازان، وذلك فى الحكاية الرابعة عشرة بعنوان: "فى القضـاء علـى الوثـائق المزورة والدعاوى الباطلة ودفع خيانـة مـن لا أمانـة لهـم وغيـر المتدينين". وكذلك فى الحكاية الخامسة عشـرة: "فـى منـع تحريـر

---

(٢) انظر نفس المصدر.

القَبالات[1] غير المشروعة وإبطال الحجج القديمة". وفى هذا المجـال أيضا اتبعت الشريعة الإسلامية فى نصوصها التشريعية والقانونية بدلاً من تعاليم الياسا المغولية القديمة[2].

فى هاتين الحكايتين تحدث رشيد الدين بالتفصيل فى صفحات عديدة من كتابه، وبين فى وضوح تام كيف عرف غازان أن حالـة القضـاء المتدهورة تحتاج إلى علاج سريع لهذا الجهـاز الحيـوى المخـتص بتحقيق العدالة بين الناس، وإنصاف المظلومين والمتضـررين مـنهم. وذكر هذا المؤلف أن الفساد كان قد استشرى فى هـذا الجهـاز الـذى ينبغى أن يكون بعيدا عن الانحرافـات والشـبهات؛ فشـرح الحيـل والألاعيب التى كان يلجأ إليها المزورون وذوو الأغراض الدنيئة فـى سبيل تحقيق مآربهم وأهدافهم بعيدين عن قواعد الشرع والقانون حتـى أوصلوا مهنة القضاء إلى الحضيض نتيجة التمويـه والتزويـر فـى الأوراق الرسمية والمستندات ولم يكن هناك وازع مـن ضـمير، ولا يوجد حسيب ولا رقيب. كذلك كشف رشيد الدين عـن تـدخل أمـراء

---

(١) القَبالة: وثيقة يلتزم بها الإنسان أداء عمـل أو ديـن أو غيـر ذلـك (المعجـم الوسيط،ج٢،ص٧١٢).

(٢) برتولد شبولر: العالم الإسلامى فى العصر المغولى، نقله إلى العربية خالد أسعد عيسى، راجعه وقدم له الدكتور سهيل زكار، ص٧٥، الطبعة الأولـى، دمشـق ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.

المغول وكبار الشخصيات منهم فى شئون القضاء، وذلك بشتى وسائل الضغط والإغراء، وإفساد الذمم والضمائر لإصدار أحكام لغير المستحقين فى نظير مبالغ يأخذونها على سبيل الرشوة، ويشاركهم فى ذلك القضاة، وظهرت فى البلاد دعاوى كثيرة باطلة لا تعد ولا تحصى.

واجه غازان خان كل هذه المشكلات بحزم وعزم، ووضع العلاج الناجع لها متخذًا من الشريعة الإسلامية هاديا ومرشدا. وكان ينزل أشد أنواع العقاب بالمقصرين والمخطئين حتى استقامت الأمور، وعادت إلى القضاء هيبته وكرامته. وهنا نلاحظ أن رشيد الدين فى حديثه عن الإصلاحات التى قام بها غازان فى هذا الميدان يشير فى أكثر من موضع إلى جهود السلاجقة التى بذلوها فى سبيل إصلاح القضاء، ويبين أن غازان يقتدى بهم خصوصا بما تم فى هذا المجال فى عهد ملكشاه ووزيره الكبير نظام الملك الطوسى، فغازان مقتنع تماما بأن ما صنعوه هو عين الصواب؛ ولذلك رأى أن يسير على منوالهم.

ولما كان رشيد الدين هو المستشار المخلص الأمين لغازان، والذى يساهم بعقله وتفكيره فيما يقوم به العاهل المغولى من إصلاحات، نلاحظ أن هذا المؤرخ كان معجبا بالسلاجقة مشيدا بجهودهم البارزة فى شتى المجالات، لا سيما فى مجال القضاء؛ إذ كان يرى فيهم المثل

الأعلى فى تحقيق العدالة بين الناس، وإصدار الأحكام وفقًا لتعليمـات الشريعة الإسلامية. وعلى هذا راح رشيد الـدين يـذكر صـراحة أن غازان اقتدى بالسلاجقة فى عدم النظر فى القضايا التى مضى عليهـا أكثر من ثلاثين سنة. كما اقتدى بهم فيما يتعلق بالأوقـاف وضـرورة مراعاة شروط الواقفين وعدم إتاحة الفرصة للتلاعب والتزوير، وتوقيع العقوبة على المخالفين. والدليل على إعجاب رشيد الدين بالسلاجقة أنه عندما أرخ لهم فى المجلد الثانى من كتابه جامع التواريخ المشتمل على التاريخ العام، راح يمدحهم ويذكرهم بالخير. يقول: "لم يكن من هؤلاء السلاطين أعظم، وعلى الرعية أشفق، ولرعاية الخَلْق أجدر من ملـوك السلاجقة – رحم ا الماضين منهم – ﴿وا يؤتى ملكه من يشاء﴾[1]. وقال جل ذكره: ﴿وربك يخلق ما يشاء ويختار مـا كـان لهـم مـن الخيرة﴾[2]. وما ذلك إلا أنه قد ظهرت فى عهدهم خيـرات ومبـرات كثيرة من إحياء معالم الدين، وتشييد قواعد الإسلام وإن مآثرهم التـى أقاموها من بناء وإنشاء المسـاجد والمـدارس والأربطـة والقنـاطر والأسبلة والأوقاف والخيرات، وما أنفقوه من أمـوال علـى العلمـاء والصالحين والقضاة والسادات والزهاد والعباد والأخيار والأبرار، لـم

---

(١) قرآن كريم: سورة البقرة، آية ٢٤٧.

(٢) قرآن كريم: سورة القصص، آية ٦٨.

يوجد مثلها فى أى عصر، ولا تزال آثارها باقية إلى الآن فى الممالـك الإسلامية.

تلك آثارنا تدل علينـ ـ ـا فانظروا بعدنا إلى الآثار[٣].

كذلك رأى غازان ضرورة تحرى الدقة فى اختيار القضـاة نظـرا لعظم المسئولية التى يتحملونها، وحتى يضمن القيـام بـواجبهم علـى الوجه الأكمل. وبذلك تتحقق العدالة على أيديهم أثناء نظر القضايا التى تعرض عليهم. وفى نظير ذلك قرر منح القضاة امتيازات خاصة مـن قبيل إعفائهم من الضرائب، وإعطائهم مرتبات مجزية حتى لا يمـدوا أيديهم إلى غيرهم فيقبلون الرشا والهدايا. وكان يحافظ علـى كرامـة القضاة وتوفير الحماية الكافية لهم فى قاعة الجلسة. وفى سبيل تحقيـق ذلك، كان يعهد إلى الشحنة بتوقيع العقوبة علـى مـن يرفـع صـوته للتشويش على القاضى أثناء انعقاد الجلسة أو محاولة التأثير عليه. كما ألزم القضاة بتنفيذ أحكام الشرع بكل دقة، وعليهم أن يمعنوا النظر فى المحاضر المزورة والصكوك والسجلات المموهة، ومحاولـة تقصـى حقائق الأمور والأحوال حتى يصلوا إلى غورها.

---

(٣) رشيد الدين فضل ا : جامع التواريخ، جلد٢ – جزء ٥: ذكر تاريخ آل سلجوق، بسعى واهتمام أحمد آتش، ص ٣ – ٤، أنقرة ١٩٦٠م.

وبالإضافة إلى ما سبق، ألزم غازان القضاة بضرورة مراعاة الدقة المتناهية وشدة الاحتياط فى الاستماع إلى شهادة الشهود التى يترتـب عليها صدور الحكم فى القضايا المختلفة؛ فقد رأى غـازان – بثاقـب فكره – أن القضاة يبدون تساهلاً فى هذا الشأن ولا يجتهدون فى تحرى الحقيقة، ودون أن يتطرق اطمئنان إلى نفوسهم أو يغلب الظن ويطغـى الشك فى صحة الشهادة وسلامتها؛ فيترتب على هذا الإهمـال ضـياع حقوق الأبرياء من المتقاضين. ومن المعروف أن شهادة الـزور فـى الدين الإسلامى تعد من أكبر الكبائر؛ فقد ورد فى الحديث الشريف عن أنس: "أكبر الكبائر الشرك با وقتل النفس وعقوق الوالـدين وشـهادة الزور". وعلى هذا يقف القضاة عاجزين أمام شـاهدين، ولا يخشـون مغبة هذا الإهمال. ومن المعروف أن ثبوت الحق شـرعا، ولـو أنـه متوقف على شهادة شاهدين؛ إلا أن الشهادة مقيدة بشرط توافر العدالة. والعدالة أمر عظيم لا تتوافر إلا فى أفراد البشر وعلى سبيل الندرة؛ إذ إن هوى النفس يستولى على أكثر الخلق. إذن يجب على القاضـى أن يفكر دائما فى أن شهادة زيد أو عمرو لا تخلو من هـوى الـنفس أو انحياز إلى إحدى الجهات أو مراعاة شخص من الأشخاص، ولا يجوز أن ينخدع هذا القاضى لمجرد أن الشاهد يبـدو فـى سـمت الرجـال الصالحين، ويزين ظاهره بزخرف القول.

وما دام الأمر على هذا النحو، كان على القاضى أن يستعين بسلامة التفكير ولطائف الحيل وصفاء الذهن؛ فيسأل كلاً من الشـاهدين علـى انفراد كى يتبين التناقض فى أقوالهما ويستمر فى سؤال كل منها عـدة مرات حتى تتضح الحقيقة، فإما الصحة التى يمكـن الاعتمـاد عليهـا وإصدار الحكم بموجبها، وإما الشبهة التى توجب التوقف عن إصـدار الحكم؛ فيكون ذلك سببا فى النجاة من ورطة الحكم بالباطـل. ونتيجـة لهذه الإصلاحات البناءة صارت الأمور الشرعية والقضايا الدينية تبرم وفقًا لأوامر ا تعالى ورسوله عليه السلام. وبذلك اسـتقرت حقـوق الخلق فى مواضعها الصحيحة.

وأخيرا يبين رشيد الدين على لسان غازان الهدف الذى يهدف إليـه من وراء إصلاحه القضاء فيقول: "إنه لا يخفى على الجميع أن غايتنـا من تنفيذ هذه الأوامر ليست إلا رعاية جانب الحـق – جـل وعـلا – وتقوية الشرع الإسلامى – لا زال معظما – وبسـط العـدل وراحـة الرعية. كما أن من التنبيه هو أن يقتفى القضاة آثار الحق والعدل. وإن غرضنا من تكرار التحذير والتخويف هو جبر لحال الإنسـان ولـيس تحطيمه، ورفع قدر القضاة لا الحط من شأنهم، وتكريمهم لا إهـانتهم. وإذن فالأولى أن يستمع القضاة لهذه التعليمات طائعين وأن ينتفعوا بما جاء فيها وأن يتأكدوا من أن كل من يعمل بها ويرجح جانـب الحـق

ويصون منصب الشرع الشريف من شَين[1] التلبيس، ويتخذ الاحتياط التام فى الفصل فى القضايا سوف يكون مشمولاً بعطفنا إلى جانب الأجر الجزيل الجميل[2].

وفى الحكاية السابعة عشرة بعنوان: "فى المحافظة على الرعايا ورعايتهم ودفع الظلم عنهم" نلاحظ أن غازان خان سعى سعيا جديا فى سبيل أن يعيش الناس دائما فى راحة تامة. وقد صرح بأن الفائدة من حاصل عمر المرء فى الدنيا إنما تكون فى تحقيق الصالح للناس. وعلى هذا ألزم نفسه أن يجد ويجتهد إلى أقصى حد فى هذا المجال لتدارك العيوب. ومن الإنصاف أن نذكر أن هذا العاهل قد نجح نجاحا باهرا فى إعادة الأمن والنظام إلى ربوع هذه البلاد التى تعرضت للقلاقل والهزات. كما أنه بذل جهودا جبارة فى سبيل تحسين أوضاع الطبقات الفقيرة والأخذ بيد العناصر المغلوبة على أمرها والقضاء على المظالم التى تعرضوا لها فى عهد أسلافه من حكام المغول، ويريد ألا تتكرر هذه المآسى فى عهده. ولهذا يتوجه بكلام صريح وواضح إلى أفراد الهيئة الحاكمة من أسرته، ويطلعهم على سياستهم التى تقوم على

---

(١) الشين: العيب والقبح وخلاف الزين. يقال شَانَه – شينًا: شوهه وعابه (المعجم الوسيط، ج١ ص٥٠٤).

(٢) انظر الترجمة.

التعالى والغطرسة اعتمادا على أنهم هم السـادة المسـيطرون، وأمـا غيرهم فهم العبيد المطيعون.

يقول لهؤلاء مهددا ومحذرا: "أنا لا أحابى التازيك (السـكان مـن الإيرانيين) وإذا كانت هناك مصلحة لأن أغير على الجميع، فليس هناك من هو أقدر منى على القيام بهذه المهمة. ولكن إذا توقعتم منى بعد ذلك زادا أو طعاما، أو التمستم هذا أو ذاك، فسوف أغلظ لكم فـى القـول، وآخذكم بالشدة والعنف. وينبغى أن تفكروا جيدا فى أنكم لو أثقلتم على الرعية، وأكلتم لحوم أبقارهم، واستوليتم على بذورهم وغلالهـم فمـا عساكم تفعلون بعد ذلك؟!.... كما أنكم إذا ضربتم نسـاءهم وأطفـالهم وآذيتموهم؛ فإن عليكم أن تفكروا: كيف أن نساءنا وأبناءنا أعزاء علينا، وأن حال فلذات أكبادهم تكون هى نفس حال أطفالنا، وهم أيضا آدميون مثلنا تماما. وقد فوّض الحق تعالى أمرهم إلينا، وسـوف نُسـأل عمـا يصيبهم من خير أو شر. فكيف نجيب؟ ونحن عنـدما نـؤذيهم نكـون جميعا شبعى ولن يعود علينا ضرر نتيجة وجودهم. فما الداعى إذن إلى إيذائهم وإلحاق الضرر بهم وأية عظمة وشهامة تحصل لنا مـن وراء ذلك؟!..... وماذا نجنى غير الشؤم الذى سوف يحيق بنا نتيجة سـوء عملنا، ولن ننجح فى أى عمل نقوم به. يجب أن يظهر فرق واضح بين المطيع والعاصى من الرعية. والفرق بين الحـالتين هـو أن الرعايـا المطيعين فى أمان من الحاكم والعصاة غير آمنين. وإذن فكيف يجـوز

ألا نؤمن المطيعين فيكونون منا فى عـذاب ونصـب؟!.... لا بـد أن تستجاب دعوتهم بلعنتنا والدعاء بالسوء علينا. وعلى هذا ينبغى التفكير فى هذه الأمور. وأنا دائما أسدى إليكم هـذه النصـائح وأنـتم عنهـا غافلون".

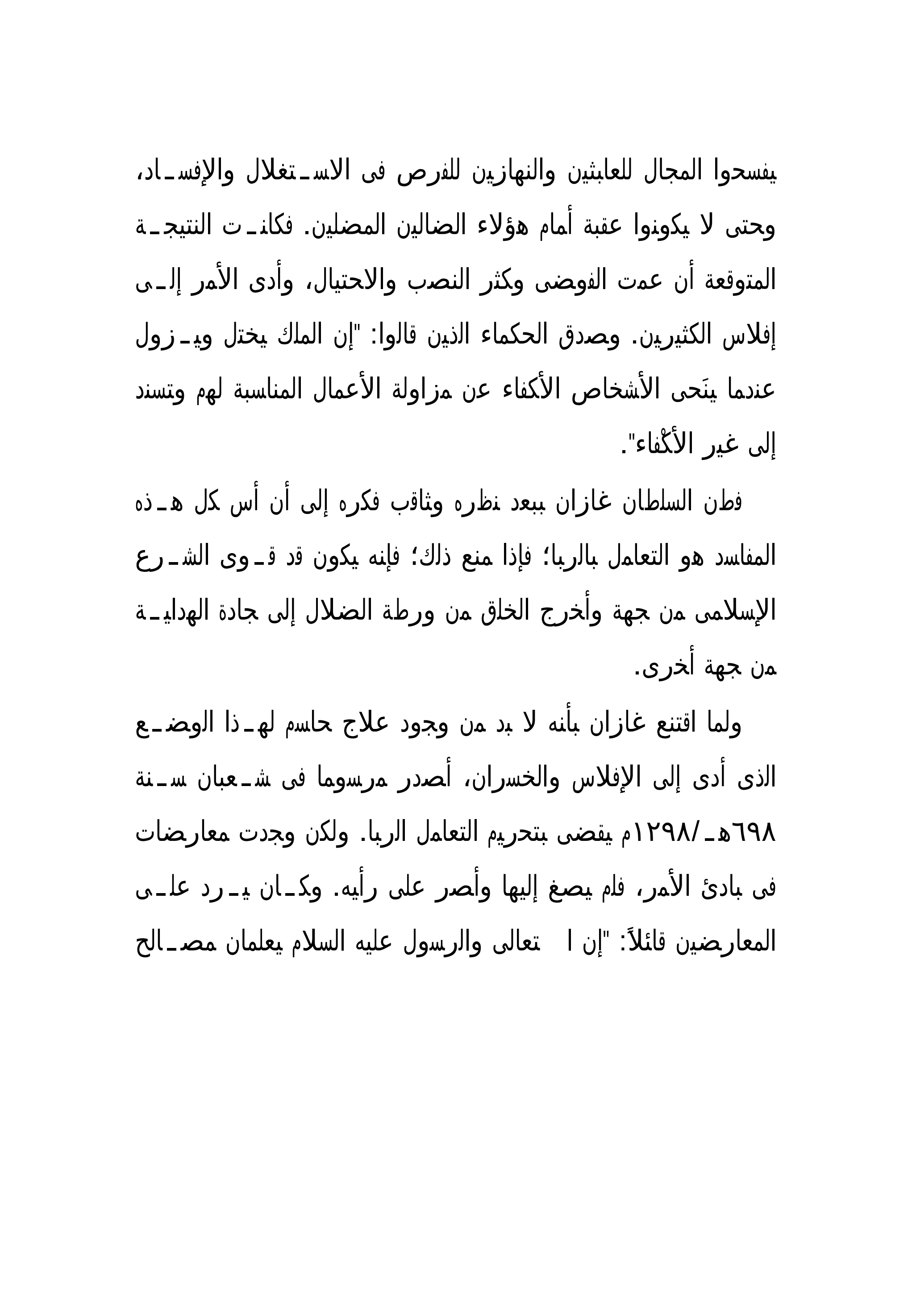
وهكذا نتيجة لأمثال هذه النصائح بقى واحد من ألـف مـن تلـك المتاعب التى كانت تلحق بالرعايا قبـل هـذا؛ فـلا غـرو أن ازداد جمهورهم فى مختلف الممالك توجها بالدعاء للدولة. فليكن هذا الـدعاء مقرونًا بالاستجابة بحق الحق وعزته[1].

ولا شك أن ما جاء على لسان غازان من نصائح غالية لأبناء قومه وتحذيرهم من مغبة سوء معاملتهم الرعايا لمما ينادى به الإسلام الـذى يدعو إلى المساواة ويحث على فعل الخير دائما.

وفى الحكاية السادسة والعشرين بعنوان: "فى منع إقـراض المـال بالربا والقضاء على التعامل بالربح الفاحش" تحدث رشيد الـدين عـن الأضرار التى لحقت بالمجتمع نتيجة التعامل بالربا، وكشف عما جرته هذه العادة المذمومة من متاعب ومشكلات على مختلف الطبقات، ومـا سببته من إفساد الذمم وتخريب الضمائر، الأمر الذى أدى إلى تنحيـة الكبار المخلصين من مناصبهم وإجبارهم على تـرك أعمـالهم حتـى

---

(١) انظر الترجمة.



يفسحوا المجال للعابثين والنهازين للفرص فى الاستغلال والإفساد، وحتى لا يكونوا عقبة أمام هؤلاء الضالين المضلين. فكانت النتيجة المتوقعة أن عمت الفوضى وكثر النصب والاحتيال، وأدى الأمر إلى إفلاس الكثيرين. وصدق الحكماء الذين قالوا: "إن الملك يختل ويزول عندما ينَحى الأشخاص الأكفاء عن مزاولة الأعمال المناسبة لهم وتسند إلى غير الأكْفاء".

فطن السلطان غازان ببعد نظره وثاقب فكره إلى أن أس كل هذه المفاسد هو التعامل بالربا؛ فإذا منع ذلك؛ فإنه يكون قد قوى الشرع الإسلامى من جهة وأخرج الخلق من ورطة الضلال إلى جادة الهداية من جهة أخرى.

ولما اقتنع غازان بأنه لا بد من وجود علاج حاسم لهذا الوضع الذى أدى إلى الإفلاس والخسران، أصدر مرسوما فى شعبان سنة ٦٩٨هـ/١٢٩٨م يقضى بتحريم التعامل الربا. ولكن وجدت معارضات فى بادئ الأمر، فلم يصغ إليها وأصر على رأيه. وكان يرد على المعارضين قائلاً: "إن ا تعالى والرسول عليه السلام يعلمان مصالح

العالم أفضل منا. وهذا ما أمر به الله[1] ورسوله ولن أسمع قط كلاما يخالف ذلك".

ونتيجة لهذا الموقف الحازم والإصرار على الرأى الصحيح، زالت كل الأضرار التى كانت تحدث، واستقامت المعاملات، وعم الإنصاف كافة الطبقات. ثم يحتاط رشيد الدين للأمر حتى لا يتهم بالمبالغة فيصرح قائلاً: "ولا شك أن أهل هذا الزمان يدركون قيمة هذه الأمور؛ إذ إنهم شاهدوا هذه المفاسد. أما الذين يعيشون بعد هذا ولم يروا حقيقة ما حدث فأنى لهم أن يدركوا فائدة هذا القانون؟!"

وأخيرا يدعو رشيد الدين لغازان بقوله: "فليوفق الحق تعالى هذا السلطان كى يقضى دائما على هذه الرسوم المذمومة، وحتى يجعل قواعد الشرع الشريف ممهدة وراسخة".

وفى الحكاية السابعة والعشرين بعنوان: "فى منع المغالاة فى صداق الزواج" يبين رشيد الدين كيف عالج غازان خان موضوعا اجتماعيا مهما يتعلق بالعلاقة بين الرجل وزوجته. ومعنى هذا أنه كان للأسرة

---

(١) إشارة إلى قوله تعالى فى القرآن الكريم: ﴿الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس؛ ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرم الربا فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾. (سورة البقرة، آية ٢٧٥).

أيضا نصيب كبير من عنايته فهو يرى بحق أن الحكمة الإلهية فى تشريع الزواج أن يكون هناك تناسل وتوالد بين الآدميين للحفاظ على النوع البشرى واستمرار الحياة. وعلى هذا لم يدخر غازان وسعا فى اتخاذ الوسيلة الكفيلة بالمحافظة على الأسرة، والعمل على ترابط أفرادها.

ومن هذا المنطلق حرص غازان على أن تقوم العلاقات الإنسانية بين الرجل وزوجته على أسس سليمة من التفاهم والمحبة. فإذا تعرضت هذه العلاقات لخطر الخلاف والنزاع، وتعذر التوفيق بين الطرفين، فإنه من الأفضل أن يفترق الزوجان. ولكن غازان رأى بحق أنه فى هذه الحالة قد يقف الصداق المغالى فيه عقبة كأداء تحول دون الفراق فتتحول الحياة الزوجية إلى جحيم لا يطاق.

والواقع أنه إذا روعيت بين الزوجين طرق المحبة والوفاق فإنه لا يستطيع أحد أن يفصلهما الواحد عن الآخر. وإذن لا يكون للزوجة نفع من المغالاة فى الصداق ولا يتصور أن يقع ضرر على الزوج من هذا الإجراء. أما إذا لم يحدث بين الجانبين اتفاق واتحاد، فإنه عندما يكون الصداق كبيرا، لا يستطيع الزوج أن يطلق زوجته لأن ذلك يتطلب المزيد من المال؛ وهذا من شأنه يؤدى إلى استمرار الخصام والنزاع بين الزوجين، ويجر فى النهاية إلى زيادة الكراهية والحنق والغضب،

فيقضى كل منهما حياته فى ضجر ومحنة. أما إذا كان الصداق قليلاً، فإنه بالنطق بلفظ الطلاق تنتهى المرافعة بالمفارقة، ويتخاص كل من الزوجين من شر النزاع والجدال، ويبحث كل منهما عن زوج آخر يناسبه[1]. والله تعالى يقول: ﴿وإن يتفرقا يغن الله كلاً من سعته. وكان الله واسعا عليما﴾[2].

تنبه غازان إلى تلك المغالاة فى الصداق، ورأى أنها لا تتفق مع أحكام الشريعة الإسلامية التى تقول على لسان النبى صلى الله عليه وسلم: "خير النكاح أيسره وخير النكاح أقله كلفة"[1]. وما دام الرسول صلى الله عليه وسلم قد استحسن المهر القليل فى الزواج، ينبغى أن يخفض الناس الصداق إلى أقصى حد؛ بحيث إنه لا تجب عليه الزكاة.

بناء على هذا أصدر غازان أمره بتقليل الصداق، فجعل حده الأقصى تسعة عشر دينارا ونصف، وكلف القضاة بألا يصدقوا على عقود الزواج إذا زاد على هذا المبلغ. ولا شك أن مسألة تحديد الصداق هى من شئون الحياة الموكول معظمها إلى اجتهاد المفكرين والمصلحين. ومتى رأى الحاكم تحديد ذلك بقدر معلوم يتلاءم مع

---

(١) خواندمير: حبيب السير، م٣، ج١، ص١٦٨.

(٢) قرآن كريم، سورة النساء، آية ١٣٠.

(١) الشيخ عبد الله بن زيد آل محمود: قضية تحديد الصداق، ص١٠، دولة قطر، الدوحة ١٣٩٦هـ.

مصلحة جميع الناس، فإنه جائز قطعا، وليس فى الشرع ما يمنعـه إذ هو من المصالح التى تتفق مع مقاصد الشارع كما جاء فـى الحـديث الشريف: "يسروا ولا تعسروا"(٢).

وفى الحكاية التاسعة والعشرين بعنوان: "فى منع الناس من احتساء الشراب" يتحدث رشيد الدين عن تحريم غازان خان على الناس احتساء الخمر فى الطرقات والأسواق بسبب ما كـان يحـدث مـن عربـدة ومشاجرة بين السكارى، وإلحاق الأذى والضـرر بالنـاس، غيـر أن غازان لم يمنع شرب الخمر منعا تاما؛ لأنه على حد قوله: إذا فعل ذلك فلن ينفذه أحد. وللمحافظة على حرمة المساكن أصدر أمرا بألا يـدخل أى مخلوق منازل الناس للبحث عن السكارى حتى لا يسـلك العسـس سلوكًا يتجاوز حد الاعتدال، وحتى لا تحل المتاعب والمشقات بالخلق. وعلى سبيل الاحتياط قرر أن تعرض عليه الموضوعات المهمة التـى تتعلق بشئون الدولة فى حالة صحوه ويقظته. وقد اتبع هـذه القاعـدة داخل إيران وخارجها فنحن نعلم أنه بعد أن انتصر غازان على قـوات الناصر محمـد بـن قـلاوون فـى موقعـة مـرج المـروج سـنة ٦٩٩هـ/١٢٩٩م واحتلاله مدينة دمشق، خرج إليه ابن تيمية فى "مرج راهط" ليشكو له ما جرى من التتار بعد أمانه، فلم يمكنه الاجتماع بـه

(٢) نفس المرجع، ص١٩.

لشغله بالسكر، فاجتمع بالوزيرين سعد الدين ورشيد الدين فقالا: "لا بـد من المال". فانصرف[3].

ورغم هذا نرى رشيد الدين يدافع عن غازان. وفى مبالغة واضحة راح ينفى عنه نقيصة غيابه عن وعيه أثناء تناوله الشراب؛ بحيث إنـه لا يستطيع أى مخلوق أن يموه عليه على سـبيل التحايـل والتلبـيس والمغالطة[1].

والواقع أن شرب الخمر حرام ومنهى عنه فى الإسلام سواء أكـان هذا فى الأسواق أم فى غيرها. قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنـوا إنمـا الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فـاجتنبوه لعلكم تفلحون. إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فـى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكـر ا وعـن الصـلاة فهـل أنـتم منتهون﴾[2].

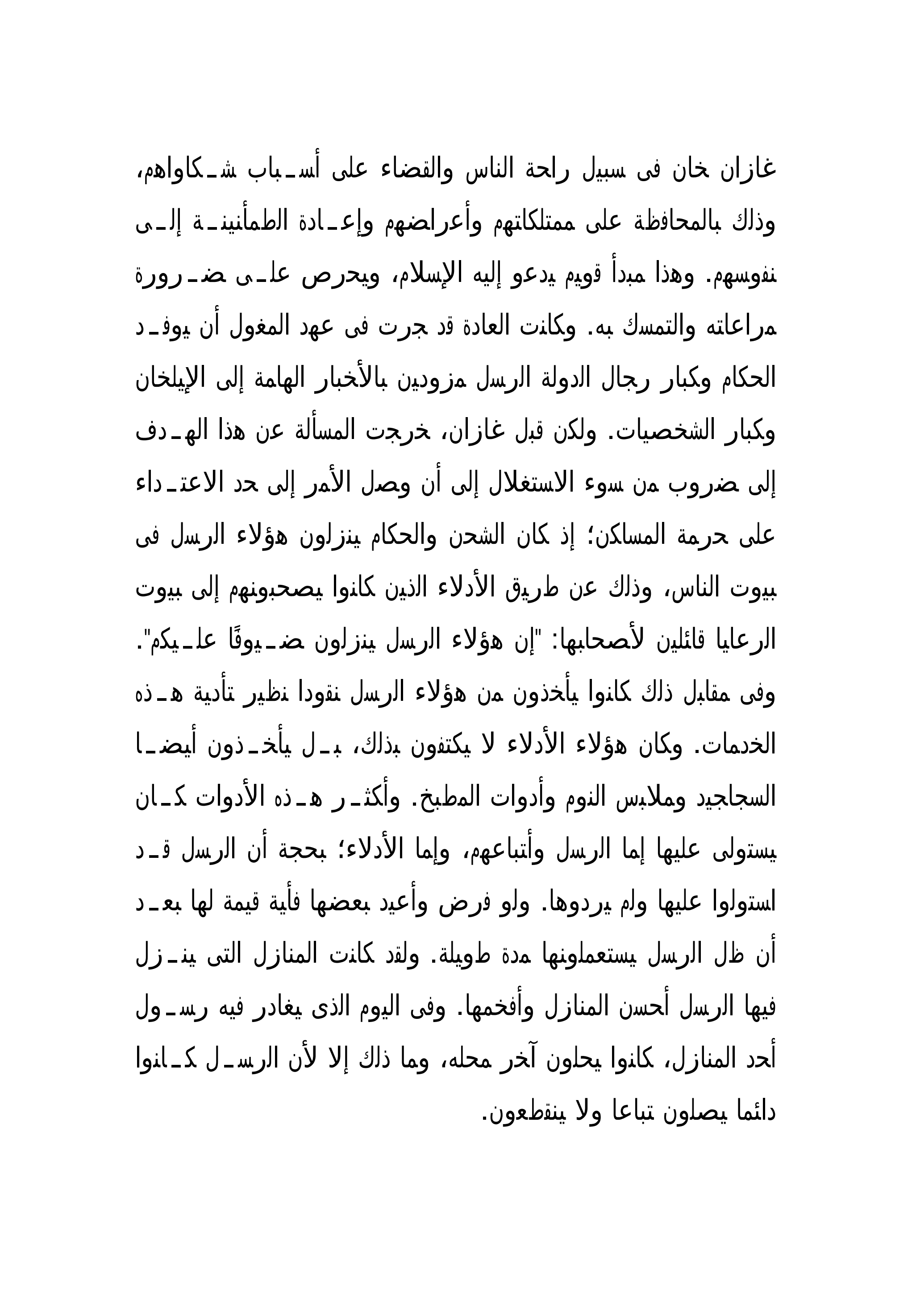
وفى الحكاية الثامنة والثلاثين بعنوان: "صدور الفرمان بإقامـة دور خاصة للرسل فى البلاد ومنع الشحن والحكام من النزول فـى منـازل الناس" يتحدث رشيد الدين عن جانب آخر من الجهود التى كان يبـذلها

---

(3) السلوك: ج1 ق3، ص892، الطبعة الثانية، تحقيق الـدكتور محمـد مصـطفى زياده، القاهرة 1970م.

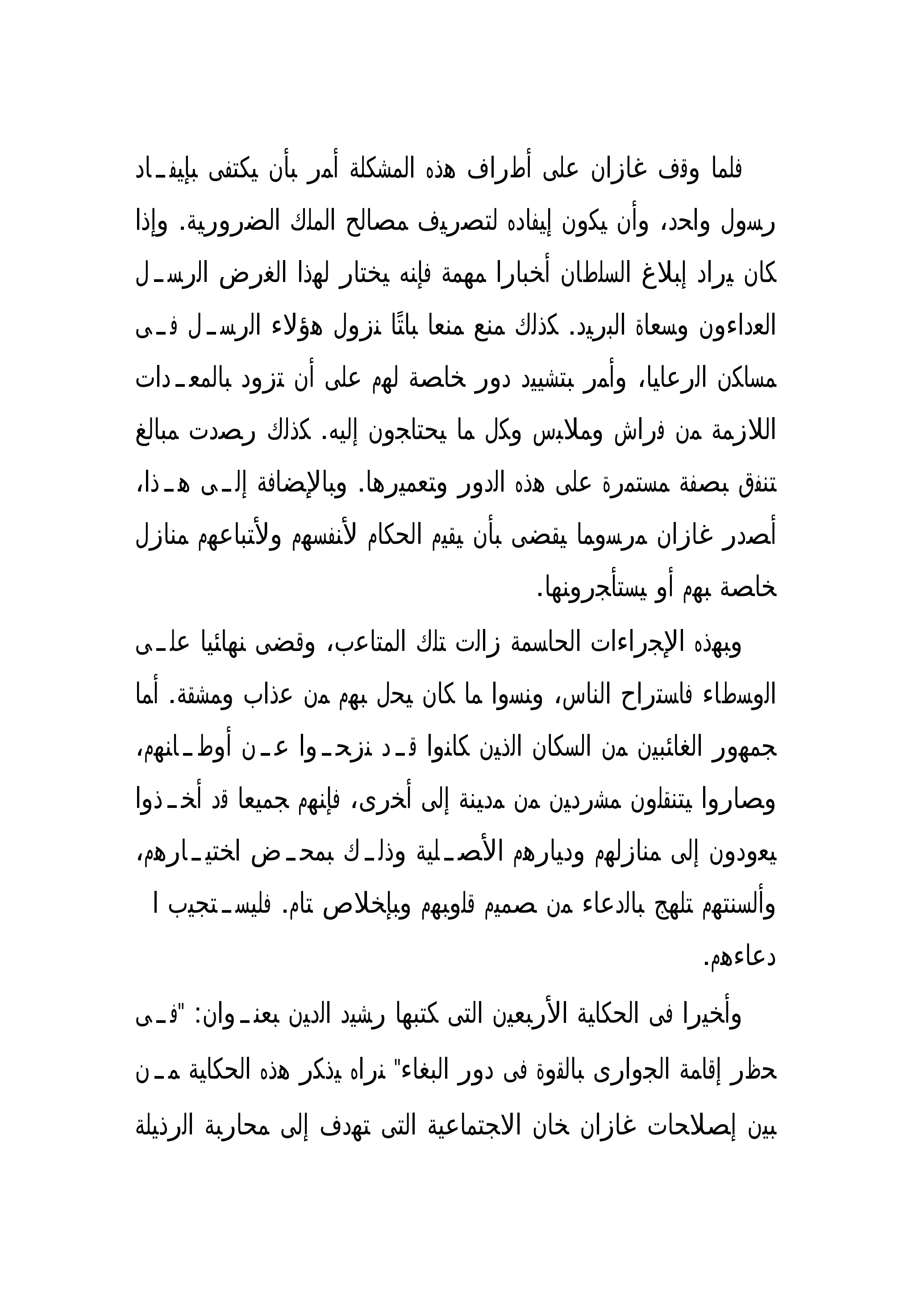
(1) انظر الترجمة العربية.

(2) قرآن كريم: سورة المائدة، آية 90،91.



غازان خان فى سبيل راحة الناس والقضاء على أسـباب شـكاواهم، وذلك بالمحافظة على ممتلكاتهم وأعراضهم وإعـادة الطمأنينـة إلـى نفوسهم. وهذا مبدأ قويم يدعو إليه الإسلام، ويحرص علـى ضـرورة مراعاته والتمسك به. وكانت العادة قد جرت فى عهد المغول أن يوفـد الحكام وكبار رجال الدولة الرسل مزودين بالأخبار الهامة إلى الإيلخان وكبار الشخصيات. ولكن قبل غازان، خرجت المسألة عن هذا الهـدف إلى ضروب من سوء الاستغلال إلى أن وصل الأمر إلى حد الاعتـداء على حرمة المساكن؛ إذ كان الشحن والحكام ينزلون هؤلاء الرسل فى بيوت الناس، وذلك عن طريق الأدلاء الذين كانوا يصحبونهم إلى بيوت الرعايا قائلين لأصحابها: "إن هؤلاء الرسل ينزلون ضـيوفًا علـيكم". وفى مقابل ذلك كانوا يأخذون من هؤلاء الرسل نقودا نظير تأدية هـذه الخدمات. وكان هؤلاء الأدلاء لا يكتفون بذلك، بـل يأخـذون أيضـا السجاجيد وملابس النوم وأدوات المطبخ. وأكثـر هـذه الأدوات كـان يستولى عليها إما الرسل وأتباعهم، وإما الأدلاء؛ بحجة أن الرسل قـد استولوا عليها ولم يردوها. ولو فرض وأعيد بعضها فأية قيمة لها بعـد أن ظل الرسل يستعملونها مدة طويلة. ولقد كانت المنازل التى ينـزل فيها الرسل أحسن المنازل وأفخمها. وفى اليوم الذى يغادر فيه رسـول أحد المنازل، كانوا يحلون آخر محله، وما ذلك إلا لأن الرسـل كـانوا دائما يصلون تباعا ولا ينقطعون.

وقصارى القول أنه عندما ينزل رسول فى إحدى المحلات، كـان السكان هناك يقعون فى عذاب ومشقة؛ إذ إن غلمـان هـؤلاء الرسـل وخدمهم يدخلون منازل الجيران عن طريق أسطحها، ويستولون علـى الأشياء التى تصادفهم من مأكولات ومشروبات وأصناف علف الدواب. ومهما كان الملاك يصرخون وينوحون كان صياحهم صرخة فى واد، لا يمكن أن تصل إلى أىّ من الأمراء والوزراء. وأدهى وأمر من كـل هذا أن هؤلاء الرسل كانوا يدخلون بيوت الناس ويرتكبون أعمالاً شائنة مخلة بالآداب، كما تروى قصة هذا الشيخ الهرم الذى قدم ذات يوم إلى الديوان، وصار يخاطب الأمراء والوزراء فى صراحة تامـة قـائلاً: "إننى رجل هرم ولى زوجة شابة وأولادى مسافرون، وقد تـرك كـل منهم زوجة شابة حسناء. كما أن لى بنات. وها هم الرسل قد احتلـوا منزلى، وجميعهم من الشباب القوى النشيط ويتصفون بجمال الوجـه. وقد مضى عليهم زمن يقيمون عندى فيشاهدنهم أولئـك النسـوة ولـن يستطعن أن يقنعن بى وبأولادى المسافرين، وأنا عاجز عن مراقبة كل ما يحدث ليلاً ونهارا. ثم يضيف الرجل فى حسرة وألم مبينًـا أنـه إذا كانت الأمور تجرى على هذا النمط من الاختلاط المعيب، فإنـه لعـدة سنوات أخرى لن يوجد طفل شرعى فى هذه المدينة وسيكونون جميعا أبناء أتراك مخاطين.



فلما وقف غازان على أطراف هذه المشكلة أمر بأن يكتفى بإيفـاد رسول واحد، وأن يكون إيفاده لتصريف مصالح الملك الضرورية. وإذا كان يراد إبلاغ السلطان أخبارا مهمة فإنه يختار لهذا الغرض الرسـل العداءون وسعاة البريد. كذلك منع منعا باتًا نزول هؤلاء الرسـل فـى مساكن الرعايا، وأمر بتشييد دور خاصة لهم على أن تزود بالمعـدات اللازمة من فراش وملابس وكل ما يحتاجون إليه. كذلك رصدت مبالغ تنفق بصفة مستمرة على هذه الدور وتعميرها. وبالإضافة إلـى هـذا، أصدر غازان مرسوما يقضى بأن يقيم الحكام لأنفسهم ولأتباعهم منازل خاصة بهم أو يستأجرونها.

وبهذه الإجراءات الحاسمة زالت تلك المتاعب، وقضى نهائيا علـى الوسطاء فاستراح الناس، ونسوا ما كان يحل بهم من عذاب ومشقة. أما جمهور الغائبين من السكان الذين كانوا قـد نزحـوا عـن أوطـانهم، وصاروا يتنقلون مشردين من مدينة إلى أخرى، فإنهم جميعا قد أخـذوا يعودون إلى منازلهم وديارهم الأصـلية وذلـك بمحـض اختيـارهم، وألسنتهم تلهج بالدعاء من صميم قلوبهم وبإخلاص تام. فليسـتجيب ا دعاءهم.

وأخيرا فى الحكاية الأربعين التى كتبها رشيد الدين بعنـوان: "فـى حظر إقامة الجوارى بالقوة فى دور البغاء" نراه يذكر هذه الحكاية مـن بين إصلاحات غازان خان الاجتماعية التى تهدف إلى محاربة الرذيلة

بشتى الطرق وكافة الوسائل. وكانت العادة قد جرت قبل تـولى هـذا العاهل أن تجبر العاهرات على السكنى فى المـدن الكبيـرة بجـوار المساجد والخوانق وبيوت الناس. وكان التجار والمسـتغلون يجلبـون الجوارى من أطراف البلاد، ويفضلون بيعهن لأصحاب بيوت الدعارة أكثر من غيرهم؛ لأن هؤلاء الناس الذين لا خلاق لهم كـانوا يـدفعون أثمانًا خيالية، خصوصا للجوارى الجميلات؛ مما يحقق لهؤلاء التجـار الكسب والإثراء سريعا وبأبسط الطرق وأيسر السبل.

ولقد رأى غازان بحق أن فتح هذه المواخير وإجبار العاهرات على السكنى فيها لممارسة الرذيلة، أمر محظور ومذموم، ومخالف لأحكـام الشريعة[1]. ولهذا ينبغى المبادرة بعلاج الموضوع، والعمل على غلـق هذه البيوت. ولكنه رأى أن هذه العادة كانت متبعة منذ قديم الأيام؛ مما يتعذر معه مكافحة البغاء دفعة واحدة. فلا بد إذن من الحـذر والتـأنى والصبر مؤقتًا على هذا المكروه. وإذن فالسبيل إلى تحقيق هذا الهـدف هو التدرج فى علاج الوباء.

---

(١) يقول الله تعالى فى هذا الشأن: ﴿ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصنًا لتبتغوا عرض الحياة الدنيا ومن يكرههن فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم ﴾ (قرآن كريم، سورة النور، آية ٣٣).

وبناء على هذا صدر مرسوم غازان خان الذى يقضى بـأن كـل جارية لا ترغب فى ممارسة الرذيلة فى بيوت الدعارة، لا تباع إلـى جماعة المشرفين عليها. وأما من يقمن فى تلك البيوت، فإن كـل مـن تريد أن تغادرها لتعيش عيشة شريفة، لا تمنع من ذلك، ويحدد لها ثمن تشترى به، وتتزوج من الزوج الذى يقع عليه اختيارها(٢).

هذا قليل من كثير مما حواه تاريخ غازان خان، صاغه بقلمه وزيره ومؤرخه رشيد الدين فضل ا . وقد لاحظنا أن هذا المؤرخ كلما شعر بأن كلامه قد يحمل على سبيل التهويل والمبالغة، والإغراق فى المدح والثناء على غازان خان، يسارع إلى الاستشهاد بالمعاصرين فهـؤلاء قبل غيرهم شهود على ما أحدثه غازان خان من إصلاحات مختلفة وهم وحدهم يستطيعون أن يحكموا بصحة ما كتبه عنه هذا المؤرخ.

ولكن رشيد الدين يحتاط للأمر ولا يكتفى بالروايات الشفوية، بـل يشير أيضا إلى الوثائق والسجلات المكتوبة التى هى خير دليل علـى صدق ما يقول. وعلى هذا رأيناه فى الحكاية السادسـة التـى كتبهـا بعنوان: "فى بذل سلطان الإسلام وعطائه وجوده وسخائه على الوجـه المستحسن القائم على أساس المعرفة"(١) يتحدث بالتفصيل عما قام بـه

---

(٢) انظر الترجمة.

(١) انظر الترجمة.

غازان من مجهودات فى سبيل إصلاح شئون المال والاقتصاد، وتوخيه العدالة فى فرض الضرائب وتحصيلها[2]. وفى نهاية الحديث عن هـذه الإصلاحات يصرح رشيد الدين بقوله: "لا بد أن الناس يحملون كلامى هذا على سبيل المبالغة ويقولون: من الذى رأى الملوك السابقين، ومن وقف على أوضاع خزائنهم حتى يستطيع القيام بهذه المقارنـة؟! لكـن الشاهد على هذه الأمور هى سجلات الدخل والخرج لخزائن السابقين، وكلها محفوظة فى دار المحفوظات، ولا يزال قسم منها موجودا حتـى الآن.

فأى شهادة فى هذه الدنيا أكثر عدلاً وصدقًا من السجلات والـدفاتر التى لم ترها عين، ولم تخطر على بال أحد؟! ولكـن عنـد مطالعتهـا يتضح صدق هذا المقال أو كذبه"[3].

والأمر الذى لا شك فيه أن ما قام به غازان خان من إصـلاحات، كان نتيجة اعتناقه الإسلام عن إخلاص وإيمان؛ فلقد أخذ على نفسه أن يعمل بتعاليم هذا الدين ما استطاع إلى ذلك سبيلا. وهـا نحـن نـراه يوضح الهدف الأول من وراء هذه الإصلاحات حين يقول: "هو تأكيد

---

(٢) جاءت النقوش المكتشفة فى آنى وأنقرة والراقية إلى عهد خلفاء غازان مصـدقه لما قاله رشيد الدين عن هذه الاصلاحات (انظر بروكلمـان: تـاريخ الشـعوب الإسلامية، ج٢، نقله إلى العربية الدكتور نبيه أمين فـارس ومنيـر البعلبكـى، الطبعة الأولى، ص٢٧٤، بيروت ١٩٤٨م).

(٣) انظر الترجمة.

تلك الأحكام، حتى يتحقق الرفقاء من شدة عنايتنا واهتمامنـا باسـتقامة أمور الدين، فتزول من النفوس نقيصة التساهل والتهاون فـى شـئون الشرع، وتحل محلها فضيلة الصلابة والثبات"[٤].

ولقد صدق المستشرق الإنجليزى براون حين قال: "على الرغم من أن غازان لم يكن أول سلطان مغولى يعتنق الدين الإسلامى، فإنه فـى الحقيقة كان أول شخص يعيد إلى هذا الدين الحنيف عظمته وجلاله"[٥].

هذا الخلق المتين وهذه الأعمال المجيـدة والإصـلاحات المفيـدة التىشملت جميع نواحى الحياة لا يمكن أن تصدر إلا من رجـل قلبـه عامر بالإيمان، يقظ الضمير، بعيد النظر يخشى ربه، ويعمل بأوامره، وينفذ تعاليمه. ومن هنا كان لنا أن نقرر أن هذه الإصـلاحات قامـت على أسس إسلامية خالصة[١].

وبناء على هذا لا نوافق على رأى المستشـرق الألمـانى شـبولر (Spuler) الذى يزعم أن نظم غازان فى كثير من النواحى تسير على النمط المتبع فى الغرب؛ فالحاجات متشـابهة والأسـاليب متشـابهة، وأجهزة الديوان فى عهد غازان تستند إلى أساليب شرقية قديمة مأخوذة

---

(٤) نفس المصدر.

(٥) تاريخ أدبى إيران ازنيمة قرن هفتم تا آخر قرن هشتم هجرى: عصر اسـتيلاى مغول وتاتار، ترجمة وحواشى بقلم علـى أصـغر حكمـت، ص٢٠، تهـران ١٣٢٧هـ.ش = ١٩٤٨م.

(١) الشرق الإسلامى، ص٣٤٠.

من إدارة إمبراطورية روما الشرقية[2]؛ إذ إنه من الجلى الواضـح أن هذه النظم سواء فى الديوان أو فى المصالح الأخرى تستند كلهـا إلـى أحكام الشريعة الإسلامية.

وفى الحقيقة بعد أن اعتنق غازان الدين الإسلامى صار واحدا مـن المؤمنين الذين خلصت نيتهم وصفت سريرتهم، واتجهوا بكل مـا فـى طاقتهم إلى رعاية آداب هذا الدين وإقامة شعائره على أحسـن وجـه. يقص علينا ابن الفوطى ضمن أحداث سنة ٦٩٦هـ/١٢٩٦م أن غازان توجه إلى بغداد، ودخل المدرسة المستنصرية من الدار المجاورة، وكان يسكن بها نظام الدين محمود شيخ المشايخ. وكان المدرسون والفقهاء قد جلسوا على عادتهم، والربعات الشريفة فى أيديهم. فلما عاينوه قـاموا وخدموه؛ فأمر رشيد الدين أن يقول لهم: أنتم مشغولون بقراءة كتـاب ا – عز وجل – كيف جاز لكم تركه، والاشتغال بغيره؟!.... فقـال أحد المدرسين: السلطان ظل ا فى أرضه، وطاعته وتعظيمه والانقياد له واجب فى الشرع. فدخل خزانة الكتب ولمحها، ثم عاد إلـى الـدار المذكورة، فبات بها"[3].

---

(٢) تاريخ مغول در إيران، ترجمة دكتر محمود ميـر آفتـاب، ص٢٩٢، تهـران ١٣٥١هـ.ش.

(٣) الحوادث الجامعة والتجارب النافعة فى المائة السابعة، ص٤٩٢ – ٤٩٣، تحقيق مصطفى جواد، بغداد ١٣٥١هـ.

ورغم أن المستشرق الفرنسى "جروسيه" يرى أن حكم غازان يحدد اللحظة التى تحول فيها هؤلاء البدو البدائيون شيئًا فشيئًا إلـى الحيـاة المستقرة فى إيران، إلا أنه راح يدعى أن هذا الاستقرار – لسوء الحظ – لم يتم دون أن يكون له مضار؛ لأن هؤلاء المغول عنـدما خرجـوا عن تسامحهم العام إلى اعتناق دين خاص هو الإسلام، وإلـى اعتنـاق مذهب خاص فيه لم يلبثوا أن فقدوا جنسيتهم، وأن فقدوا معها مميزاتهم، وأن تركوا أنفسهم للوسط الذى هضمهم وشربهم وأخفاهم. ولكن لم يكن الوقت قد اتسع ولا الوسيلة قد تهيأت لظهور هذه النتائج الضـارة فـى أيام غازان الحازم"[1].

ونحن لا نوافق على هذا الرأى؛ لأنه إذا كان "جروسيه" يتحدث عن التسامح العام للمغول؛ فإننا نرد عليه بأننا نرى أغلب المغـول قومـا متعصبين ضد الإسلام والمسلمين فجغتاى بن جنكيز خان مثلاً كان أشد أبناء العاهل المغولى قسوة وأكثرهم بطشًا. وكان يشرف علـى تنفيـذ أحكام والده وقوانينه كما نصت عليها الياسا. وقد لاقى المسلمون منـه الأمرين؛ إذ كان ينزل بهم أشد العقاب على أقل هفوة، وكثيرا ما يكون

(١) Grousset: L’Empire des Steppes, P. ٤٥٧

الترجمة الفارسية لهذا الكتاب، جاب سوم، ص٦٢٥، تهران ١٣٦٨هـ.ش.

العقاب الرهيب هو الإعدام[2]؛ فمثلاً من يذبح الحيوان علـى الطريقـة الإسلامية كان جغتاى يأمر بقتله على الفور، لأنه خالف طريقتهم التى أقرتها الياسا[3].

والحقيقة أن ما حدث للمغول فى إيران مـن الضـعف والتفسـخ والانحلال ثم الفناء حدث أيضا فى جهات أخرى مثل الصين وروسـيا وغيرهما من الجهات التى كانت تخضع للمغول. والسبب الرئيسى فى ذلك هو تفرق أمراء المغول بعد أن كانوا وحدة متماسكة. وسرعان ما دب النزاع والقتال بينهم؛ فكانت النتيجة الحتمية لكل هذا هو السـقوط والانهيار. وبذلك أثبتت الحضارات أنها أقوى مـن سـلطة المغـول الهمجية[4].

وهناك أسباب أخرى كان لها أثرها المباشر فى ضـعف المغـول وانهيارهم، فنحن لا ننسى الصراع الرهيب الذى نشـب بـين أفـراد الأسرة حول ولاية العرش والحرب الطاحنة التى دارت بينهم فى سبيل

---

(٢) انظر الجوزجانى: طبقات ناصرى، جلد دوم، تحقيق عبد الحى حبيبـى، ص ١٥٤ – ١٥٧، كابل ١٣٤٣هـ.ش.

(٣) انظر المقريزى: الخطط، المجلد الثالث، الجزء الأول، ص ١٤٦ – ١٤٧.

(٤) هارولد لام: جنكيز خان وجحافل المغول، ترجمة مترى أمين، مراجعة وتقـديم الدكتور زكى نجيب محمود، ص ١٥٥ – ١٥٦، القاهرة ١٩٦٢م.

الوصول إلى كرسى السلطنة؛ تلك الحروب التى طالما حـذرهم منهـا جدهم الأعلى جنكيز خان؛ فقد كان ينصحهم دائما بالاتحاد والتآزر.

يروى أنه عندما كان على فراش الموت، جمع أولاده وقـال لهـم: "اعلموا يا أولادى الجياد أنه قد قرب سفرى إلى دار الآخرة ودنا أجلى. وأنا بقوة الإله والتأييد السماوى استخلصت مملكة عريضـة فسـيحة، حيث يسلك من وسطها إلى طرف منها مسيرة سنة من أجلكم أنتم يـا أولادى وهيأتها لكم. فوصيتى إليكم أنكم تشتغلون بعدى بدفع الأعـداء ورفع شأن الأصدقاء، وتكونون جميعا على رأى واحد حتى تعيشوا فى نعمة وعز ودلال، وتتمتعوا بالسلطة والجاه"[(١)].

هذا ويذكر الدكتور زكى محمد حسن سببا آخـر لانهيـار دولـة الإيلخانيين هو أن خلفاء هولاكو لم يفطنوا فى بداية الأمر إلى ما فـى نمو النظام الإقطاعى فى إيران من خطر على دولتهم؛ فتطرق إلـيهم الانحلال، وانقسمت إيران بعد سقوط هذه الأسرة إلى دويلات محليـة ظلت قائمة حتى قضى عليها تيمور لنكـ فى نهايـة القـرن الثـامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) حين استقر له الأمر فى بلاد ما وراء النهر، وبدأ سلسلة فتوحات أخضع فيها إيران وجـزءا مـن جنـوبى

---

(١) رشيد الدين فضل ا : جامع التواريخ، ج١، نشر وتحقيق دكتر بهمن كريمـى، ص ٣٨٥ تهران ١٣٣٨هـ.ش.

الروسيا والهند، وهزم بايزيد سلطان الأتراك العثمانيين عند أنقرة سنة ٨٠٤هـ / ١٤٠٢م(٢).

ونظرا لغزارة المادة العلمية التى كتبها رشيد الدين عـن غـازان بوجه عام وما قام به من إصلاحات فى مختلف ميادين الحيـاة بوجـه خاص، صار ما كتبه منبعا ومرجعا مهما لمعاصريه ومن جاء بعده من المؤرخين. ونحن نخص من هـؤلاء بالـذكر محمـد بـن هندوشـاه النخجوانى فى كتابه "دستور الكاتب فى تعيين المراتب"(٣) وخوانـدمير فى كتابه "حبيب السير"(٤).

---

(٢) الفنون الإيرانية فى العصر الإسلامى، ص٢٨، الناشـر دار الرائـد العربـى، بيروت ١٤٠١هـ – ١٩٨١م نفس المؤلف: التصوير فى الإسلام عند الفـرس، ص١١، الناشر دار الرائد العربى، بيروت ١٤٠١هـ – ١٩٨١م.

(٣) مؤلف هذا الكتاب هو شمس الدين محمد بن هندوشـاه النخجـوانى المعـروف بشمس المنشئ. ألفه سنة ٧٦٠هـ وقدمه إلى السلطان أويس الجلائرى (٧٥٧ – ٧٧٦هـ). وأهم ما اشتمل عليه الكتاب يتمثل فـى مجموعـة مـن الإسـنادات والوثائق والعرائض المرفوعة من الأهالى إلى السلطان والأمراء علـى شـكل رسائل تتعلق بالشئون الاقتصادية المختلفة من زراعة وتجارة وتقسيم للأراضى وزراعتها. وكذلك الأوقاف والإقطاعات الخاصة بالأسـرة الحاكمـة والأهـالى والكتاب على هذا النحو يشتمل على موضوعات مهمـة تتصـل بصفةخاصـة بالتاريخ الاجتماعى والاقتصادى والسياسى لبلدان الشرقالأدنىوالأوسط. كما أنه مفيد أيضا لتاريخ آذربيجان. قام بتحقيق هذا الكتاب عبد الكريم على اوغلى زاده، ونشر فى موسكو عام١٩٦٤.

(٤) انظر مؤرخ المغول الكبير، ص٣٣٤ وما بعدها.

أما الأول فقد تأثر بما كتبه رشيد الدين عـن إصـلاحات غـازان بصفة خاصة، فنراه فى أكثر من موضع من كتابه ينقل عبارات رشيد الدين بنصها أو بتغيير طفيف. فعلى سبيل المثال عندما تحدث غـازان إلى الأمراء المغول ينصحهم بأن يعـاملوا رعايـاهم معاملـة حسـنة ويحذرهم من الإساءة إليهم، وينذرهم بإنزال أشد أنواع العقوبات إذا لم يكفوا عن إيذائهم نرى النخجوانى يعقب على ما ذكره قـائلاً: "يقـول الوزير العادل الشهيد الخواجه رشيد الدين فضل ا – طـاب ثـراه – الذى دون أخبار السلطان السعيد المغفور: "إنه بواسطة اسـتماع هـذه النصائح، صار يحدث واحد من ألف من المتاعب التى كانت تحدث قبل هذا من المتغلبين والمعتدين بالنسبة إلى الرعايا الضعفاء. وقد اشـتغل جمهور الرعايا فى الممالك بالـدعاء للسـلطان السـعيد – نـور ا مرقده"[1]. كذلك نراه فى صفحة ٢٠٣ تحت عنوان: "النوع السـادس: فى منع المكارين وأمثالهم من إيذاء الرعايا" يتأثر بما ورد فى كتـاب رشيد الدين إلى حد كبير؛ فالعنوان هو نفسه العنوان الذى كتبه رشـيد الدين تقريبا فى "الحكاية التاسعة والثلاثـين": "فـى منـع المكـارين والجمالين والسعاة من إيذاء الناس"[2]. والعبارات مصوغة فى أسـلوب

(١) دستور الكاتب فى تعيين المراتب، ص١٩٩ وما بعدها.

(٢) انظر الترجمة العربية.

يختلف قليلاً عما ورد فى كتاب رشيد الدين. وكذلك فعل النخجوانى فى حديثه عن الإصلاحات الاقتصادية التى تمت فى عهد غازان خان"[٣].

وأما "خواندمير" مؤلف كتاب حبيب السير، فقد راح هو الآخر ينقل عن رشيد الدين. وكان يصرح بهذا فى أكثر من موضع؛ فهو مثلاً عندما تحدث عن أخلاق غازان خان وإصلاحاته تحت عنوان: "ذكر شمة از محاسن أوصاف ومحامد آثار غازانى، وبيان قوانين بسنديده آن"[٤]، نراه يمدح هذا العاهل ويثنى عليه، ويكشف عن نواحى العظمة فى شخصيته، ويذكر عنه أنه لم يقصر فى تأسيس بناء الدولة وتمهيد مراسم العدل والاهتمام بشئون الرعية. وقد اختصر خواندمير الحكايات الأربعين التى ذكرها رشيد الدين فى عشرين حكاية لتكون دليل صدق وشاهد عدل على إثبات ما يدعيه، واعترف بأنه نقل هذه الحكايات من كتاب جامع التواريخ[٥].

وهكذا فإن من يدرس تاريخ المغول يرتاح حقًا عندما يتحول فجأة من قراءة ما اقترفه هؤلاء القوم من فظائع تقشعر لهولها الأبدان، وما سفكوه من دماء بغير حساب إلى أسمى العواطف الإنسانية وأنبل المشاعر الرقيقة التى أعلنت عن نفسها فى سلوك غازان وأعماله

---

(٣) دستور الكاتب، ص ٣١٦ – ٣١٧.

(٤) حبيب السير، م٣، ج٣، ص٩١ وما بعدها.

(٥) خواندمير: حبيب السير، م٣، ج٣، ص٩١.

المجيدة. وإن المرء قد تعتريه الدهشـة وتتملكـه الحيـرة، لأن هـذه الإنجازات كلها قد تمت على يد غازان الذى كان جده الأعلى هولاكـو غازيا جبارا سفاكًا للدماء ونحن لا يمكن أن ننسى أنه محطم الخلافـة العباسية وقاتل الآلاف المؤلفة من الأنفس البريئة. ولكن مـا تلبـث أن تزول الدهشة وتنتفى الحيرة عندما يعلم أن هذا التحـول الكبيـر إنمـا يرجع أولاً وقبل أى اعتبار إلى الإسلام الذى اعتنقه غازان عن اقتناع وإخلاص، وآمن به إيمانًا راسخًا صادقًا، ونفّذ تعاليمه فكانت النتيجـة هذه الإصلاحات العظيمة التى قامت على أسس إسلامية قويمة[1].

وإذن فغازان رغم قصر مدة حكمه يعد– دون شك – واحـدا مـن أكبر السلاطين فى الشرق، وذلك بواسطة القواعد والقوانين التى خلّفها والإصلاحات التى قام بها. ونحن لا نعدو الحقيقة إذ اعتبرنـاه أيضـا واحدا من السلاطين المشهورين فى إيران من حيـث السياسـة التـى انتهجها ومن حيث التنظيم والإدارة، فهو من هذه الوجهة يعـد أكبـر سلاطين الإيلخانيين على الإطلاق.

ولكن يجب أن نضع فى الاعتبار أن ما ناله غـازان مـن فخـر وعظمة وسمعة طيبة إنما كان بمعونة وزيره العبقرى الفذ رشيد الدين فضل ا الهمذانى الذى كان من جهة يدير الممالك الواسـعة لغـازان

---

(١) الشرق الإسلامى فى عهد الإيلخانيين (أسرة هولاكو خان) ص ٣٤٠.

بكفاءة وتدبير. وكان من جهة أخرى الساعد الأيمن لغازان فى الترفيه عن الرعية وإصلاح الشئون الاقتصادية وتشييد الأبنية والآثار الخيرية.

ونحن لا ننسى جانبا هاما آخر هو أن رشيد الدين خلّد - على صفحات الدهر - فى كتابه الذائع الصيت "جامع التواريخ" محامد غازان وأعماله المجيدة ووقائع أيامه بقلمه السلس الجذاب. وبالإضافة إلى هذا ينبغى ألا نغفل ذكر النخبة الممتازة من العلماء والأدباء والفضلاء الذين اجتمعوا حول رشيد الدين فى تبريز نتيجة شغفه بالعلوم والآداب وتشجيعه الأدباء والعلماء والفضلاء الذين بذل كل واحد منهم جهدا مشكورا فى هذا السبيل؛ بحيث إنه يمكننا أن نقول: "إن عصر غازان وأولجاتيو وأبى سعيد يعد من أكثر العصور إشراقًا فى تاريخ إيران"[1].

والآن أكتفى بهذا القدر من الدراسة، وأترك المجال للقارئ كى يعكف على قراءة الترجمة بأكملها، ويستخلص منها ما يشاء. وأنا على ثقة تامة من أنه سوف يظفر بمتعة عقلية كبيرة، ويجد فى تاريخ غازان المزيد من العظات والعبر، ويتأكد أنه إذا توافر للإنسان العزم الصادق واليقين الراسخ، فسوف يتخطى العقبات ويحقق الأهداف.

---

(١) عباس إقبال: تاريخ مفصل إيران، جلد أول: از حملة جنكيز تاتشكيل دولت تيمورى، ص ٢٨١ – ٢٨٢، طهران ١٣١٢هـ.ش.

لقد أعجبتنى كلمة الكاتب الصحفى الكبير الأستاذ "رجـاء النقـاش" التى يقول فيها عن التاريخ: "عندما نقرأ التاريخ نشعر بالمتعة؛ فالتاريخ هو ملخص الحياة، وفيه مواقف وشخصيات وصراعات ومغـامرات، وفيه أيضا ألوان متعددة من حسن الحظ وسوء الحظ. والذين يعشـقون قراءة التاريخ لا يتوقفون – وهم يقرأون – عن المقارنة بين ما جـرى فى الماضى وما يجرى فى العصور الحاضرة، بل كثيرا مـا يقـارن قارئ التاريخ بين أحواله الشخصية وبين ما يقرؤه من شخصيات قديمة وأحوال ماضية. وهذا هو ما يضاعف متعة التاريخ فى نظـر قرائـه وعشاقه، فهم يستمتعون مرتين: مرة بمعرفة ما حدث وما جرى فـى عصور سابقة، ومرة أخرى بالتفكير والتأمل والمقارنة بين ما حدث فى الماضى وما يحمله الحاضر من أحداث. والتاريخ آخر الأمر هو فـن، ولكنه أكثر من كل الفنون قدرة على التأثير فى النفوس؛ لأننـا ونحـن نقرؤه نعرف أنه حقيقى وصادق وبعيد عن الخيال"[1].

---

(١) صحيفة الأهرام، ص٢٤ بتاريخ ٢٢ يوليو ١٩٩٦.

الترجمة العربية

لتاريخ غازان خان

[ص ٢٤٦] تاريخ

غازان خان بن أرغون خان بن آبا قاخان بن هولاكو خان ابن تولوى خان بن جنكيز خان

وهو يشتمل على ثلاثة أقسام:

القسم الأول:

فى تقرير نسبه العريق، وذكر أحواله منذ مولده المبارك حتى عهد جلوس أرغون خان على عرش السلطنة وذكـر زوجاتـه (خواتينـه) وأولاده، وشجرة نسبهم الشريف.

القسم الثانى:

فى مقدمة جلوسه الميمون، وصورة العرش والخواتين "والأمـراء الأنجال"[١] والأمراء وجلوسه على عرش السلطنة، وتـاريخ حكمـه، والحروب التى قام بها، والفتوحات التى تيسرت له.

[ص ٢٤٧]

القسم الثالث:

فى سيره الحميدة، وسجاياه المحمودة، وآثار عدله وإحسانه وخيراته ومبراته وفنون آدابه ومستحب عاداته، والكلمات التى قالها فى كل سنة على وجه التحقيق وسبيل التدقيق والأحكام المحكمة والقوانين المبرمـة المشتملة على رعاية مصالح كافة الخلق، والتى نفذها فى كل شأن من

---

(١) ترجمة لكلمة شاهزاد كان للتمييز بينها وبين كلمة "أمير" من غير أبناء الملوك.

شئون الحياة، ونوادر الحكايات والأحوال التى لم تذكر فـى القسـمين السابقين. وهى نوعان:

أحدهما: ما كان مبوبا. وهو عبارة عن أربعين حكاية.

وثانيهما: ما يسجله القلم بصورة متفرقة حسب القضايا والحـوادث المختلفة.

القسم الأول

في تقرير نسبه العريق، وذكر أحواله منذ مولده المبارك حتى عهد جلوس أرغون خان على عرش السلطنة، وذكر خواتينه وأولاده، وشجرة نسبهم الشريف.

غازان خان هو الابن الأكبر لأرغون خان الذى تزوج، وهو في الثانية عشرة من عمره – من والدة غازان المسماة "قولتاق" ابنة "بيتكجى" الصغرى من قبيلة "دوربان". وكان أرغون قد خطبها من "كرك تيمور" الذى كان أخا "لأرقتو" و"مولاى". وكان الأمير "تبسين" قد تزوج من أختها الكبرى المسماة "أشلون".

كانت "قولتاق" فى غاية الكمال والجمال. وكان أرغون يحبها حبا شديدا لدرجة أنه أراد أن يستقبلها، ولكن منعه من ذلك الأميران "سرتاق" و"جوجغان". ولشدة تعلقه بها صعد برج القصر، وجلس فوق سطحه، وصار يشاهدها من بعيد.

وصفوة القول أنه بعد إتمام مراسم الزفاف والزواج، تكونت مواد العنصر الشريف لغازان، واستقر صدف مشيمة ذلك القمر الملكى في در البحر الخاقانى. وبعد تسعة أشهر وفى أسعد ساعة **[ص ٢٤٨]** من فجر ليلة الجمعة التاسع والعشرين من ربيع الأول سنة ٦٧٠هـ / ١٢٧١م الموافق (بير بيكو مينج آى) عام الخروف جاء من كنه العدم إلى حيز الوجود، طالع غازان المبارك القدم فى "آبسكون"[١] من

---

(١) آبسكون: جزيرة صغيرة منعزلة على بحر قزوين. اشتهرت فى التاريخ بأنها آخر مكان لجأ إليه السلطان علاء الدين محمد خوارزمشاه فارًا من جحافل المغول، ومات فيها ذليلاً فى سنة ٦١٧هـ / ١٢٢٠م. (انظر: كى لسترنج: بلدان الخلافة

نواحى مازندران، وذلك وقت طالع السعد ببرج العقرب، وسهم السعادة وسهم الغيب، فأضاء عين الدنيا بجماله.

ووقت ولادته رصد الكواكب جماعةُ المنجمين المهرة الذين كـانوا حاضرين واستخرجوا – فى احتياط تام – طـالع المولـود، فوجـدوه مسعودا للغاية. فقال كل منهم (شعر فارسى فى الأصل ترجمته):

لقـد نظرت إلى طالعـك فـرأيت

إقطاعك سيكون مائة ألف نفس

ثم عهدوا به إلى مرضعة حسنة الخلق تـدعى "مغـالجين"، وهـى زوجة رجل خطائى اسمه "ايشنك"، وكانت قد جـاءت مـع "قولتـاق خاتون"، وعرف عنها أنها امرأة عفيفة، محمودة السيرة، تليق بتربيـة أبناء الملوك. وكان ابنها "هندو" على قيد الحياة.

وصفوة القول أن مرضعته الرحيمة، صارت تربيـه فـى حِجـر الشفقة. وكذلك انطلق لسانه فى عهد المهد بالألفاظ المليحة والكلمـات الفصيحة طبقًا لما يقول الشاعر:

(شعر عربى فى الأصل)

فى المهد ينطق عن سعـادة جده   أثر النجابة ساطـع البرهـان

بحيث إنه حير الجميع.

الشرقية. نقله إلى العربية، بشير فرنسيس وكوركيس عواد، ص٤١٩ – ٤٢٠ بغداد ١٣٧٣هـ / ١٩٥٤م؛ الدكتور فؤاد عبد المعطى الصياد: المغول فى التاريخ، ص ١٢٢ – ١٢٣ القاهرة ١٩٧٥م).

ولما كانت عادة المغول ألا يسمحوا لبعولة مرضعات أبناء الملـوك أن يقربوا نساءهم ولأن "ايشنك" الخطائى جامع زوجته فى ذلك الوقت، فحملت منه - أصيب الأمير غازان بإسهال نتيجة تغير لبن مرضعته. ولهذا السبب استردوا الأمير منها، وأركبوه جوادا وهو فى الثالثة مـن عمره، وسلموه لأم حسن الذى كان أميرا على طائفة "توقجيـان" مـن قبيلة "سولدوس"، واسم والده "حسن آشتو" واسم والدته "آشتاى". وكـان لآشتو ولد آخر يدعى "تولاى" يعمل ساقيا وطاهيا.

وعندما بلغ الأمير غازان الثالثة من عمره، أرسل أرغون الأميـر "قتلغ شاه" من مشتى مازندران إلى حضرة آبا قاخان لإنجـاز بعـض المهام، فحظى بالمثول بين يدى الحضرة فى "موغان"[1]، فاستفسر آبـا قاخان عن أحوال الأمير غازان. فرد "قتلغ شاه" بأنه فى الثالثـة مـن عمره ويركب الجواد. فأظهر آبا قاخان ميلاً شديدا إلى رؤيته.

وعند عودة "قتلغ شاه" قال له آبا قاخان: لقد بلغتُ من الكبر عتيـا وتطوف بخاطرى -من وقت لآخر – فكرة الرحيل إلى الآخـرة. وإذا

---

(١) موغان: تكتب أيضًا موقان: مدينة بخراسان من أعمال طوس. ولها سوق وسور حصين. وبها تجار أثرياء وضياع وفعلة. ولها حصن منيع. ويوجد بها قبر على بن موسى الرضا. وبجبل موقان معادن الفضة والنحاس والحديد. وفيها كذلك كثير من أحجار الفيروز. وكانت موقان دار الإمارة بخراسان إلى أيام الطاهرية ثم انتقلت منها إلى نيسابور. (انظر كتاب الروض المعطار فى خبر الأقطار، تأليف محمد بن عبد المنعم الحميرى حققه الدكتور إحسان عباس، الطبعة الثانية، ص٥٦٦، بيروت ١٩٨٠م).

كان ولدى أرغون يحب ابنه غازان حبا جما، ولا يريد مفارقتـه لأنـه وحيده فإنى أتوق إلى أن يرسله إلى حتى يلهو بالبواشق[1] والصقور.

فلما بلّغ قتلغ شاه تلك الرسالة لأرغون، قال: ليس لى غيـر هـذا الابن، فكيف أستطيع أن أرسله إلى والـدى؟!.... غيـر أن الامتثـال لأوامر الأب واجب على. وإذن فالمصلحة تقتضى أن أتوجه بنفسى إلى حضرة والدى، واصطحب ولدى معى.

وفى أول شهور فصل ربيع من عام ٦٧٣هـ ـ / ١٢٧٤م، غـادر أرغون مازندران قاصدا زيارة حضرة والدة **[ص٢٥٠]**، واصـطحب معه ابنه، ومثل بين يديه فى "قونقور أولانكـ"[2].

وعندما سمع آبا قاخان خبر قدومها، بادر باستقبالهما، وذلك لفـرط شغفه بلقاء الأمير النجل غازان. وما أن رآه حتى رفعه عـن صـهوة الجواد وأجلسه على مقدم سرجه، وابتهج برؤيته.

وحيث إن آبا قاخان كان يشاهد على غازان أبهة الملـك وشـمائل السلطنة صرح قائلاً: "إن هذا الولد جدير بأن يبقى معـى، وأن أقـوم

---

(١) المفرد "بَاشَق" وهو نوع من جنس البازى، من فصيلة العقاب النَّسرية وهو من الجوارح يشبه الصقر ويتميز بجسم طويل ومنقار قصير بادى التقوس (مجمع اللغة العربية: المعجم الوسيط، ج١، ص٥٨).

(٢) "قنقر أولانكـ" الاسم المغولى للمدينة التى شرع فى إنشائها السلطان أرغون خان، وأتمها السلطان أولجاتيو وأطلق عليها اسم "السلطانية" وذلك فى سنة ٧٠٤هـ / ١٣٠٥م، وجعلها عاصمة الدولة الإيلخانية. (انظر كى لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية، ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد، ص ٢٥٧ بغداد ١٣٧٣هـ ـ ١٩٥٤م).

بنفسى بتربيته". ومع أنه كان يحب ابنه أرغون حبا شديدا، فإن حبه له قد ازداد، ورسخ فى قلبه أكثر من ذى قبل، وذلك بسبب تعلقه بغازان.

وفى تلك الفترة من الإقامة، وتيمنًا بوصول ذلك النجل، صار آبـا قاخان مشغولاً بأسباب المتع واللهو والمرح. وكان يبـذل الإنعامـات والهدايا للجميع. وعند عودة أرغون قال آبا قاخان: "ليبق الابن غازان عندى هنا حتى أقوم بنفسى بتربيته". ولما لم يكـن لبولغـان خـاتون الزوجة الكبرى لآبا قاخان ولد ذكر، قال أرغون: إذا صدر الأمر، فإنى أقدمه إليها على سبيل العبودية والخدمة. فأعجب بـذلك آبـا قاخـان. وكانت بولغان خاتون قد توجهت إلى ناحية "سغورلوق"، فتبعها أرغون مسيرة منزل واحد وأدى لها التحية والولاء، وسلّم لها غازان، ثم عـاد إلى خراسان. فسرت بولغان خاتون سرورا شديدا، وقالـت: إن هـذه كرامة، وهدية لى من ا ، وهو مثل ولدى من صلبى.

ولقد ترك أرغون لابنه غازان عشرة من الخدم، هم: حسن وكوكـا وما جار وأدرم وبوقا وقردغميش وقلجاى والتون وبوقا وآقاجى وهـم من قبيلة اونكقوت. **[ص٢٥١]** ثم صرح آبا قاخان قائلاً: ليبق غـازان فى هذا المخيم، وينسب إليه، ثم يئول إليه من بعدى، ويقوم مقامى.

ومجمل القول أن الأمير غازان كان يقيم فى مقر "بولوغان خاتون"، وملازما لحضرة آبا قاخان. ولأن غازان كان طفلاً، كان آبـا قاخـان يحبه أكثر من ابنه الصغير "كيخاتو"؛ بحيث إنه كان يؤاخذ كيخـاتو إذا ما ضايق غازان أثناء اللعب.

وعندما كان آبا قاخان يمل ازدحام الناس وضجيجهم، وفى الوقـت الذى يطلب فيه زوجته "تودى خاتون" التى شغف بحبها، كان ينزلهـا على بعد ما يقرب من نصف فرسخ من المعسـكرات. ولـم يكـن أى مخلوق من الإخوة والأبناء يبقى هناك. ولكنه لفرط حبه لغازان، كـان ينزله بجوارها، وكان يصحبه فى سكره وصحوه وأوقات صيده وظعنه وإقامته وفى أى وقت يشاء. ولم يكن يطيق صبرا عـن بعـده لحظـة واحدة. وكان يصرح دائما بأنه تتجلى فى رأس هذا الصبى السـعادة، ويبدو عليه الإقبال التام.

ولأن غازان كان عاقلاً إلى أقصى حد، صار فى أول سِن الطفولة يجمع الأطفال والأتراب، ويعلمهم القواعد والقوانين، وأساليب الصراع والنزال. كذلك عين أحد أقاربه من بين كبار أفـراد الأسـرة، ومـن الأصدقاء المقربين؛ بحيث إنه لو تجاوز شخص حده، فإنه كان يؤاخذه طبقًا لقواعد الياسا[1]، ويعاقبه بالزجر والتعنيف. ولم ينصـرف إلـى اللعب واللهو شأن الأطفال الآخرين، بل كان من عادته فى اللعـب أن يأمر بأن تحاك له من اللباد والثياب "دمى" على هيئة الآدميين والخيـل ثم يدججها بالسلاح، ويجعلها تواجه بعضها بعضا كجيشين متحـاربين الواحد منها فى مواجهة الآخر،**[ص٢٥٢]** ثـم يشـير ببـدء الحـرب والطعن.

---

(١) للحصول على معلومات مفصلة عن الياسا التى وضعها جنكيز خان انظر كتاب المغول فى التاريخ للمترجم ص٣٣٨ وما بعدها، القاهرة ١٩٧٥م.

وعندما بلغ غازان الخامسة من عمره، عهد به جده آبا قاخان إلـى "ياروق بخشى" الخطائى حتى يشرف على تربيتـه، ويعلمـه الخـط المغولى والأويغورى والعلوم والآداب. وفى مدة خمس سنوات، أتقـن تلك الفنون. وبعد أن حصل هذه المعارف، شرع فى تعلـم الفروسـية والرماية.

(شعر فارسى فى الأصل ترجمته)

بينما كانت لا تزال رائحـة اللـبن تفوح من فيه

جاءته الرغبة فى الطعن بالسيف والرمى بالسهام

وكان دائما يطارد الحيوانات، ويجرى الخيل بطريقة أدهشت البشر.

وفى سنة ٦٧٨هـ / ١٢٧٩م عندما توجه آبا قاخان إلى خراسـان لمقاومة جنود القراونة الذين كانوا قد خربوا فارس، اصـطحب معـه "بولوغان خاتون" وغازان، فقدم أرغون لاستقبال أبيه. وفى سـمنان[١] لحق بالحضرة، وجدد الأب والابن اللقاء. ولما غادر الجميع سـمنان، مارسوا الصيد عند الجبل الواقع بين سمنان ودامغان[٢].

---

(١) سمنان: تقع بين دامغان والرى على طريق خراسان. جوها معتدل، وتستمد ماءها من النهر. وهى مدينة حسنة ومتوسطة بها أسواق وصناعات، وتنتج الرمان والفستق، والتين بها غاية الجودة (انظر حمد الله المستوفى القزوينى: نزهة القلوب بكوشش محمد دبير سياقى، ص٢٠٠ الروض المعطار، ص٣٢١؛ بلدان الخلافة الشرقية، الترجمة العربية، ص٤٠٧).

(٢) دامغان: تقع بين الرى ونيسابور، وهى أقرب إلى نيسابور. وقد أطلق عليها العرب أيضًا اسم قومس. يميل جوها إلى الحرارة، وهى قليلة الماء. ومن فواكهها الكمثرى الجيدة (انظر نزهة القلوب، ص٢٠٠ الروض المعطار، ص٢٣١؛ بلدان الخلافة الشرقية، ص٤٠٥).

وفى ذلك الوقت بلغ الأمير غازان الثامنة من عمره. وهناك شـغل بالصيد[3]. ولما كان هذا أول صيد له، مكث ثلاثة أيام فى دامغان مـن أجل طلاء يده بالشحم[4]. وقد أقيمت الولائم وحفلات اللهو ثـم غمـس "بوقا" صاحب السلاح "قورجى" - الذى كان "مركانا" بمعنى أنه يجيـد الصيد – يد الأمير غازان فى شحم الصيد.

وعندما كان آبا قاخان يغادر دامغان، أمر بأن تسافر بولغان خاتون ومعها غازان عن طريق مازندران؛ ولأن الوقت كان أول الربيـع لـم يكن العلف قد توافر بعد. وسلك هو طريق بسطام. ثم اتخذت بولوغان خاتون ومعها غازان طريق "شهرك نو"، ولحقا بحضرة آبا قاخان فـى "مرغزار رادكان". ثم رحل آبا قاخان إلى كيتو جام وهراة، وسير ابنه أرغون إلى ناحية غور وغرجه لصد القراونة.**[ص٢٥٣]** وعندئذ قـال غازان لجده آبا قاخان: لو أذنتم لى فإنى على استعداد للسير كى أكون فى خدمة والدى. فاستحسن آبا قاخان منه ذلك، وأمر لـه بـزق مـن الشراب الخاص حتى يلحق بأبيه أرغون. ثم اصطحبه إلى موضع "باغ حين" مما يلى طوس حيث قام بتوديعه ثم قفل راجعا.

---

(٣) كـان لـلأولاد الصـغار فـرص يظهـرون فيهـا مهـاراتهم فـى الصـيد، ويبـدون عـدم اكتراثهم بما قد ينجم عن ذلك من أخطـار. وفـى الحق كـان الصـيد يدرب الصـغار علـى مطـاردة الأعداء الآدميين ووضـعهم فـى مركـز حـرج. (انظـر جنكيـز خـان وجحافـل المغـول، تـأليف هارولـد لام، ترجمــة متــرى أمــين، ص٥٥، القــاهرة ١٩٦٢م).

(٤) جرى العرف عند المغول أن يوضـع شـحم الصـيد الـذى يصـيده الصـبى لأول مـرة علـى إصـبعه الأوسـط وكـذلك يفعلـون مـع مـن يقـدم أول رأس لقتيـل تحـت العلـم فـى المعركة.

بعد ذلك أوفد آبا قاخان "سالجوق خاتون" إلى ناحية دماوند وأعـاد معها غازان أيضا. ثم استدعى "مايجو بخشى" والد الأميـر "تارمـدار" ووالدته "توكال تى"، وقال لهما: "إننى أثق بكما ثقة مطلقة وأودعكمـا غازان كابن لكما، وسوف يكون معكما "ياروق بخشى" أيضا. وعلـيكم أن تذهبوا مع "سالجوق" إلى مصيف "دماوند" حتى يتوافر لغازان الحظ السعيد. وهكذا أمضوا الصيف هناك.

ولما عاد آبا قاخان وقت الخريف، لحق بحضـرته غـازان فـى ورامين الرى. وكان آبا قاخان لفرط حبه الشديد لحفيده، يلبس قلنسـوة عتيقة فى بعض الأحيان، ثم يأتى متنكرا إلى مخدع غازان، ويداعبـه وهو مستلق فى ثياب النوم. وكان يعريه، ويأمر "آشتا ايكـاجى" بـألا يضع وسادة تحت رأسه. وكذلك لم يسمح بأن يضعوا وسادة على سرج فرس غازان جريا على عادة أبناء الملوك، بل يجلسوه على سرج بـلا غطاء حتى يصير متقشفًا.

وكانت توغتاى خاتون تكرر قولها: "ليت السلطان يهبنـى غـازان كولد لى أتبناه، إذ إنه ليس لى ولد. ولكن لما كان آبـا قاخـان يحـب زوجته بولغان خاتون حبا جما، ويريد أن يجعل مقرها خاصا بغازان، كان يجيبها بقوله: "إن والده أرغون قد وهبه لبولغان خاتون كابن لهـا **[ص٢٥٤]**، فكيف يمكن استرداده منها؟!... وكان دائما يصـرح بـأن آيات السعادة والإقبال تبدو على جبين هذا الغلام. وكان يضرب لـذلك مثلاً مغوليا يقول: "كالضرس بين الكرشمة: يعنى الكرشمة اللينة التـى ينبت منها ضرس، وكان يدعوه بهذا الاسم "كرشمة" مداعبا.

وفى سنة ٦٨٠هـ / ١٢٨١م عندما عاد آبا قاخان من بغداد، وتوفى فى همذان، كان غازان فى العاشرة من عمره، فبكى على جده بكاء حارا، فكانت الخواتين والأمراء جميعا يرقون لنواحه وعويله. ولما عاد أرغون خان من خراسان، ولحق بالمعسكرات فى مراغه رجع بعد جلوس أحمد على العرش. وكان غازان لا يزال مقيما عند بولوغان خاتون كما كان مقررا من قبل.

وفى سنة ٦٨١هـ / ١٢٨٢م عندما كانت بولغان خاتون تمضى الشتاء فى بغداد، كان معها الأميران كيخاتو وغازان. وكان أحمد فى أران[1]. أما أرغون فقد قدم من خراسان إلى بغداد، ومكث هناك خلال فصل الشتاء. وفى وقت الربيع توجهت بولوغان خاتون إلى خراسان، فتزوج منها أرغون خان، وأدخلها فى حبالته[2]. ولكن ظل غازان فى معسكرها جريا على القرار والقاعدة.

وعندما توجه أحمد إلى ناحية خراسان، أراد أرغون أن يعود من حيث أتى، وذلك على النحو المذكور فى تاريخ أرغون. ثم أوفد أرغون ابنه غازان إلى أحمد ثانية، فأدركه بناحية سمنان. وقد لاحظ عليه أحمد أمارات الملك، وشمله بعطفه، وأطرى شجاعته كثيرا. ثم أذن له بالانصراف من بسطام. وعندما قدم أرغون إلى أحمد - الذى كان معه ايلدار - صار أحمد يقول كلاما سفيها فى مواجهة أرغون. فرد عليه

---

(١) أرّان: ولاية واسعة وبلاد كثيرة منها جنزه "كنجه". وبين آذربيجان وأرّان نهر يقال له الرس. وأرّان أيضًا قلعة مشهورة من نواحى قزوين (معجم البلدان، ج١، ص١٣٦).

(٢) جريًا على عادة المغول التى تبيح للأبناء الزواج من زوجات آبائهم. ويستثنى من ذلك أمهاتهم.

غازان، وأبدى فصاحة وبلاغة، فبقى الجميع حيارى مدهوشين لحسـن جوابه وسؤاله.

وبعد أن نصر الحق تعالى أرغون وتعقب أحمد فـى آذربيجـان، سارت بولوغان[٣] خاتون أيضا متوجهة إلى تلك النواحى. أما غـازان فقد تركوه فى خراسان ليحل محل أبيه، وتركوا له أكثـر المخيمـات. وكان برفقته الوزراء الكبار، وأيضا "أيسن بوقا" الذى كان أميرا لـذلك المعسكر **[ص ٢٥٥]**، كذلك بقيت الخزائن كلها هناك لغازان.

ولما توفيت بولوغان خاتون، تزوج أرغون – بعد مدة – من سيدة تحمل نفس الاسم "بولوغان خاتون" وهى موجودة الآن، وقـد أسـكنها محل الأخرى. وعندما شاهدتْ خزائن بولوغـان خـاتون المتوفـاة، اختارت منها لنفسها قليلاً من الثياب وأدوات الذهب والفضة. وقالـت عن الباقى: بموجب فرمان آبا قاخان تكون الخزانة والموطن والمخـيم ملكًا لغازان فينبغى أن تختم هذه الأشياء ويحافظ عليها. وقد أجمع الذين شاهدوا هذه الخزانة على أن مثلها لم يتح لأى شخص آخر مطلقًـا؛ إذ كان يوجد بها الكثير من الجواهر واللآلئ الثمينـة بحيـث لا يمكـن وصفها. ويرجع السبب فى ذلك إلى أن آبا قاخان - لفرط حبه الشـديد لبولوغان خاتون، كان كلما ذهب إلى الخزانة، يأخذ منها جوهرة ثمينة، ويعطيها إياها فى الخفاء. ولكن بعد أن توفيت بولوغان خـاتون، مـد الخزنة أيدى الخيانة إلى محتويات هذه الخزانة. فعلم بـذلك غـازان،

---

(٣) يكتب هذا الاسم: بولغان أو بولوغان أو بلغان.

وكان دائما يؤاخذهم على خيانتهم. وحتى لا تحدث هذه السرقات كانت تلك الخزانة تختم بالختم.

ولما توفى أرغون خان، تزوج كيخاتو من بولغان خاتون رغم إرادتها ولم يدع غازان يذهب إليها، كما سبق أن ذكر فى تاريخه(١). ثم أعادها كيخاتو من تبريز فتأثرت تأثرا شديدا لتلك الحالة. وكانت تصبر دائما على هذا الوضع. وقد استمر الأمر على هذا المنوال حتى مقتل كيخاتو وانتصار غازان على بايدو، وصار سلطانًا، فتزوج من بولوغان خاتون. وفى أواخر ذى القعدة سنة ٦٩٤هـ / ١٢٩٤م وصل الحق إلى مستحقه.

وفى الوقت الذى قدم فيه أرغون خان إلى خراسان، وجلس على العرش وترك غازان هناك نائبا عنه، لم يتح لهما اللقاء بعد ذلك. وسوف نذكر أحواله فى خراسان خلال تلك المدة فى قسمين إن شاء ا تعالى.

ذكر زوجات غازان وأبنائه

[ص٢٥٦] تزوج غازان فى البداية من "ييدى قورتقه"، وهى ابنة منكو تيمور كوركان من قبيلة سولدوس. وكانت والدتها طوقلغشاه بنت مباركشاه بن قراهولاكو بن ييسوتوى بن مواتوكان بن جغتاى. وبعد ذلك تزوج من بولوغان خاتون الخراسانية بنت الأمير تسوكا. وكانت

---

(١) انظر جامع التواريخ، المجلد الثانى – الجزء الثانى: تاريخ أبناء هولاكو من آبا قاخان إلى كيخاتو خان. نقله إلى العربية محمد صادق نشأت وفؤاد عبد المعطى الصياد، ص١٧٠، القاهرة ١٩٦٠م.

والدتها بنت أرغون آقا. ثم تزوج من آشيل خاتون بنت توقتيمور أمير التومان (عشرة آلاف جندى) ابن نوقاى يارغوجى. ومن بعدها تـزوج من كوكاجى خاتون التى جىء بها من منغوليا، وهى من بين قريبـات بولوغان خاتون الكبرى، والتى أنزلها فى مخيم توقوز خاتون وتوقيتى خاتون. ومن بعدها تزوج من بولوغان خاتون بنت اوتمان بـن أخـى أبتاى نويان. وقد أنجب منها ولدا اسمه "آلجو". توفى فى صغره. كذلك كانت لها بنت اسمها "اولجاى قتلغ" زوجتها من ابن أخيها .. وبعـدها تزوج من "دندى خاتون" ثم من "كرمون خاتون" وهى بنت قتلق تيمور بن آبتاى نويان. وقد أحلها محل كوكاجى خاتون.

ما ذكرناه هو قصة زوجات غازان، وقد تم شرحها. أمـا جـدول شعبه الشريفة لأبنائه فهو على هذا النمط الذى نثبته.

القسم الثانى

من تاريخ غازان

فى مقدمة جلوسه المبارك، وصورة العرش والأمراء الأنجال والأمراء عند جلوسه على عرش السلطنة، وتاريخ عهد حكمه والحروب التى قام بها، والفتوح التى تيسرت له

مقدمة جلوسه المبارك ابتداء من ذلك العهد
الذى اختاره فيه أرغون نائبا عنه فى خراسان
إلى أن تغلب على بايدو

وذلك القسم عبارة عن عدة حكايات:

حكاية حاله فى خراسان فى عهد والده:

لما نجا أرغون خان – بعون ا تعالى – من يد أحمد، وتعقبه إلى ديار آذربيجان، وجلس على عرش الملك، ترك الأمير غازان نائبا عنه فى خراسان، ومنحه تلك البلاد مع جيوش كثيرة، وعهد إليه بتلك المنطقة التى تعد من أعظم الثغور. وظل يقيم هناك طبقًا لأوامر والده. وكان يرعى مصالح تلك البلاد، ويرتب شئونها. وكانت الرسل تتردد دائما من أجل إبرام مختلف المهمات. وظل الأمير نوروز يلازمه. وكان غازان يبذل الجهود والمساعى فى تصريف شئون الجند والإمارة.

وفى شهر ذى الحجة سنة ٦٨٧هـ / ١٢٨٨م ، عندما عاد غازان خان من مشتى مرو وكان نوروز فى خدمته، توجس هذا خيفة بسبب قتل صديقه بوقا وأتباعه[1].**[ص٢٥٨]** فما كان منه إلا أن استأذن غازان قائلاً: "تصل أنباء عن المتمردين، فأريد أن أعود إلى دياری، وأشاهد الآلاف من أتباعى. وإذا دعت الحاجة، فسوف أزحف بالجيش. فلما حصل على الإذن عاد إلى دياره. ثم ترك زوجته الأميرة طوغان

---

(١) الأمير بوقا كان شخصية كبيرة فى عهد أرغون والد غازان. وكان قد عهد إليه بالإمارة والوزارة وذلك مكافأة له على دوره البارز فى القضاء على السلطان أحمد تكودار وتولية أرغون عرش المغول فى إيران. ثم نقم عليه "أرغون" بسبب طغيانه واستبداده، فقضى عليه وعلى جميع أتباعه. ولما كانت تربطه بنوروز صلة صداقة، خاف نوروز على نفسه وثار على غازان وحاربه. (انظر كتاب الشرق الإسلامى فى عهد الإيلخانيين "أسرة هولاكو خان، تأليف الدكتور فؤاد عبد المعطى الصياد، ص١٦٠ وما بعدها منشورات مركز الوثائق والدراسات الإنسانية بجامعة قطر، الدوحة ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م).

مع والدته "سرميش" وإخوته "يراتاى غازان" و"حاجى" و"نارين حاجى" وأبناء أخيه فى ملازمة الحضرة.

بعد ذلك أرسل أرغون الأمير "تكنا" على رأس الأمـراء بصـفته معاونًا لغازان فى حكم خراسان. ولكن لم ترق لغازان عـادات "تكنـا" وسيرته. ولما لم يكن ذلك مناسبا لطبعه لم يتيسر له أن يفعل ما يريـد. وكان الأمير قتلغ شاه نويان قد عاد من ناحية آذربيجان، وأقـام علـى حدود "خوجان" بسبب اعتلال صحته.

أما نوروز فقد سار إلى "وادى جز" حيث المقر الشتوى لجماعتـه، وأمضى الأمير "كينشو" فصل الشتاء فى هراة تنفيذًا لحكـم المرسـوم. وعندما حل الربيع، رحل الأمير غازان من مرو إلى ناحية سرخس[1] حيث مكث عدة أيام. ثم قدم إلى "قراتبه" سرخس" حتى تسمن الـدواب وانصرف إلى اللهو والرمى. ولخوف نوروز من أرغون بسبب تهمـة بوقا صار يرسل تباعا، وينتحل الأعذار قائلاً: "إن ما أصابنى من وجع فى قدمى هو المانع من وصولى إلى الحضرة". ثـم أحضـر أمـراء السرايا ممن هم تحت إمرته وكذلك أتباعه، وقال لهم: "سمعت أنه قـد وصل أمر من أرغون إلى الأمير النجل غازان يقضى بـأن "نـوروز" وأتباعه كانوا يتآمرون مع بوقا، فينبغى اعتقالهم وإعدامهم جميعا. ولما

---

(١) سَرْخَس: بفتح أوله وسكون ثانيه وفتح الخاء المعجمة، وآخره سين مهملة. ويقال سَرَخَس بالتحريك. والأول أكثر. مدينة قديمة من نواحى خراسان، كبيرة واسعة. وتقع بين نيسابور ومرو فى وسط الطريق. وتكثر فيها مراعى الإبل والأغنام. ولو أن ما يزرع من أراضيها محدود المساحة بسبب قلة مائها. ولأهلها مهارة فى صنع المقامع والعصائب المنقوشة المذهبة (انظر معجم البلدان، ج٣، ص٢٠٨ بلدان الخلافة الشرقية، ص٤٣٨).

كان الأمير "كينشو" قد تزوج من أخت "نوروز"، أرسـل إليـه أيضـا رسالة بهذا المعنى، بحيث إنه خوفه وحذّره، وجعله متحدا معه. وفـى تلك الأيام القريبة، وصل "ساداق ترخان" و"بيكلاميش" اللذان أرسـلهما غازان إلى حضرة أرغون. ثم أقام مدة شهر فى "قراتبه". وهكـذا ذاع على الأفواه تمرد نوروز وفتنته. وفى تلك الأثناء، وصل أيضا الأمير قتلغ شاه.

بعد ذلك استأذنت "سرميش" والدة نوروز والأميرة طوغان وكـذلك إخوته وأبناء إخوته فى المسير بحجة أن "نوروز" قد زوج ابنتـه مـن "ساربان بن نيكبى"، وأن الجمع فى انتظارهم كى يحضـروا مراسـم الزواج والأفراح على أن يعودوا بعد حفلات الزفاف فلما ذهبوا لحقـوا بنوروز.

وفى أوائل ربيع الأول سنة ٦٨٨هـ / ١٢٨٩م رحل غازان مـن "قراتبه"، وسار إلى ناحية طوس وراذكان[١]. ثم أرسل "ساداق" برسالة إلى نوروز يقول فيها: "إننا قد ارتحلنا، لنلحق بك هنـاك؛ فينبغـى أن تقابلنا عند نهر فرغانة أى عند "كشف رود". فلما وصل "ساداق" إلـى نوروز، اعتقله وقيده، ثم استجوبه بضرب العصى والهراوات قـائلاً: "لقد كنت فى خدمة أرغون، فصارحنى: ما حكمه على؟!... فأجـاب: "خير وحسنى". وعندما هم نوروز بقتله تحدث ببضع كلمات مضطربة

---

(١) راذكان أورادكان: قرية من قرى طوس. وقيل بليدة تقع فى نصف الطريق بين خبوشان وطوس. خرج منها جماعة وافرة من أهل العلم. ويقال: إن الوزير نظام الملك كان منها. (معجم البلدان، ج٣، ص١٣؛ بلدان الخلافة الشرقية، الترجمة العربية، ص٤٣٥).

خوفًا على حياته، غير أن والدة "نوروز" "سرميش" والأميرة طوغـان حالتا دون قتله، فزج به فى السجن. ثم سار به فى الطريـق. وهكـذا شرع نوروز فى إثارة الفتنة والاضطراب. أما غازان فقد نزل بعد ذلك فى منطقة "كشف رود" عند "سد معين".

وفى يوم الخميس ٢٧ من ربيع الأول سـنة ٦٨٨هـ ـ / ١٢٨٩م **[ص٢٦٠]** قدم نوروز بالجيش الذى معه، ليداهم المعسـكر المعظـم لغازان. واتفق أن بوقا وتكنا وكورك والأمراء الآخرين كانوا قد نزلوا عند النهر، واجتمع جمع غفير وعسكر الجيش عند حافة ربوة خـارج وادى النهر.

ولما كانت العناية الربانية ترعى غازان، أدرك نوروز ذلك التجمع، وظن أن تلك الجحافل تابعة لغازان خان، فحاصرهم؛ فأخذوا يهللـون ويصيحون جريا على عادة المغول. وبسبب اللطف الإلهـى، اسـتيقظ غازان مبكرا، وغسل وجهه، وحضر المقربون إليه، وركب الأمير قتلغ شاه استعدادا للقتال، وازداد الضجيج. كذلك ركب غازان. وكان الأمير قتلغ شاه فى خدمته. وقد سارا إلى ناحية رباط "سنكـ ـ بسـت" علـى طريق نيسابور. وبذلك نجا من تلك الغارة المفاجئـة بفضـل العـون الإلهى. وقد أعتق "نوروز" الأمير بوقا(١) وتكنا وكورك. وأمر بـإجلاء الجنود من المعسكرات ومنـازل الأمـراء جميعـا، وأرسـلهم إلـى "بزاوكان". ثم نهبوا كل ما وجدوه، وقتل "نوروز" بوقا. وكان يحـتفظ بتكنا والأمراء الآخرين مسجونين عنده.

---

(١) بوقا هذا شخص آخر غير الأمير بوقا وزير أرغون السابق ذكره.

وعندما بلغ غازان نيسابور، كان هناك الأميران ساتلميش ومولاى فالتحقا بخدمته. ثم اعتزم غازان السير إلى مازندران. وتصادف أن الدرع الذى كان فى غاية الحسن والجمال قد أسقطه السياس من العيبة[2] وبحثوا عنه مدة، فلم يعثروا عليه.

أما سبب عزيمة غازان على التوجه إلى مازندران، فيرجع إلى وجود الأمير "هولاجو" بها. وكان يشاع أنه متفق مع نوروز. وكان نوروز يكتب المنشورات إلى الولايات بهذا المعنى **[ص٢٦١]**، فأراد غازان أن يعتقل "هولاجو" قبل أن ينضم إلى نوروز، فسار بسرعة فائقة؛ بحيث إنه ركب من نيسابور، فبلغ ظاهر "شهرك نو" خلال خمسة أيام. وبقى الأمير "كورتمور" بمفرده. وقد انضم إلى الحضرة أمراء جيش مازندران. وكان هولاجو فى ظاهر مدينة جرجان[3] على مقربة من "كورداغى".

وفى يوم الجمعة السابع من ربيع الآخر، داهموا "هولاجو"، وطفقوا يهللون ويصيحون قبل أن يصلوا إلى دياره. وكان "هولاجو" يشكو من ألم فى قدمه، فخرج مسرعا قبل أن يلبس نعله، وعزم على الفرار.

---

(٢) العيبة: وعاء من أدم ونحوه، يكون فيه المتاع. الجمع عِيب وعياب (انظر المعجم الوسيط، ج٢، ص٦٣٩).

(٣) جرجان: مدينة عظيمة بين طبرستان وخراسان، ليس لها نظير فى نواحيها. والغالب على أعمال جرجان الجبال والقلاع. ويعرف عن أهلها الوقار والمروءة واليسار. وفيها مياه كثيرة وضياع واسعة. وليس بالمشرق بعد مجاوزة العراق، مدينة أجمع ولا أظهر حسنًا من جرجان. وبها الزيتون والنخل والجوز والرمان وقصب السكر والأترج. وفيها يجود الإبريسم ويحمل إلى كل الآفاق. وقد خرجّت جرجان كثيرًا من العلماء والأدباء (معجم البلدان، ج٢، ص١١٩ – ١٢٠؛ الروض المعطار، ص ١٦٠ – ١٦٢).

وعندما وصل الجنود إلى منزله، ولم يجدوه تعقبه الأميـران مـولاى وباينجار وقبضا عليه بالقرب من "سنكـ سواد"، وأحضراه. ثم نهـب الجنود دياره. ولما اقتادوه إلى الحضرة، وسألوه عن أحـوال نـوروز أنكر وقال: ليست لدى معلومات عن أحواله، وإننى لم أكـن متواطئـًا معه، ولم تخطر ببالى هذه الفكرة قط.

وفى ذلك اليوم نزل غازان على مقربة من جرجان. وفـى اليـوم التالى، أرسل "هولاجو" إلى حضرة أرغون رسالة، وذلـك علـى يـد "تايتمور". أما غازان فقد أقام يوما، وتفقد الجنود. ومن هناك تحرك إلى جانب خبوشان[1] وطوس ورادكان لمواجهة نوروز؛ بحيث إنـه فـى اليوم السابع، وصل إلى موضع "سلطان ميدان كلندر" الذى كان علـى بعد ثمانين فرسخًا. وفى آخر النهار، وصل خبر من الحراس يفيد أنـه يبدو ظل جيش المتمردين، فصدر الأمر بأن يتسلح الجيش كله. ولمـا رأى المتمردون **[ص٢٦٢]** الجيش المنصور من بعيد، سـاروا إلـى ناحية رادكان. وفى تلك الليلة ظلت الرايات السـلطانية فـى "سـلطان ميدان". ثم هطل مطر غزير أتلف معظم الدروع وسروج الخيل.

وفى الصباح الخامس عشر من ربيع الآخـر، توجهـت الرايـات السلطانية إلى رادكان فى طلب نوروز، فالتقوا به فى موضـع يسـمى

---

(١) خبوشان أو خوجان: مدينة تقع فى المستنقعات التى يخرج منها نهرًا ترك بالقرب من طوس. سمى رستاقها "أستوا". وقد عرف بخصوبة أرضه، وأعاد هولاكو خان بناء خبوشان فى المائة السابعة (الثالثة عشرة). ثم وسع حفيده أرغون هذه المدينة كثيرًا وطقسها معتدل. وهى تنتج القمح والقطن وفواكهها كثيرة. وقد وسع حفيده أرغون هذه المدينة كثيرًا (بلدان الخلافة الشرقية، الترجمة العربية، ص٤٣٥).

"اينجكه سو". واصطف الفريقان، فأسرع الجيش المظفر إلى مداهمتهم، وذلك لفرط شجاعته، وقاتل الجند قتالاً عنيفًا؛ لا سيما الأمير قتلغ شاه. ومن الجانب الآخر ثبت كينشو ونوروز وتكنا.

وفى نهاية الأمر ظهر وهن فى جنود هـذا الطـرف (أى جنـود غازان) فولوا الأدبار منهزمين. وكذلك توقفت الرايات السلطانية مـدة طويلة فى مواضعها. ثم أمر غازان الأمراء قتلـغ شـاه وسـاتلميش وسوتاى بجمع فلول الجنود. ورغم ما بذلوه من جهـد لـم يسـتطيعوا جمعهم. وعندئذ تحركت الرايات السلطانية إلى "جوين"[٢] عن طريـق أرغيان. وعقب أمراء الجيش، وصل ايغورتاى وغازان والآخـرون. ومن كل ولاية جوين لم يقدم أى مخلوق إلى الحضرة سـوى "مهتـر نجيب الدين الفراش" الذى خرج على الفور عندما وصلوا إلـى قريـة "زيرآباد"، وقدم أكمل فروض الطاعة وعنى بالخيل عناية فائقة، وقـام بالخدمات الجليلة اللائقة من كل نوع؛ فلا جـرم أن سـلطان الإسـلام عندما تربع على عرش السلطنة، شمله بعطفه، ومنحـه كثيـرا مـن الامتيازات، وجعله من جملة المقربين إلى الحضرة.**[ص٢٦٣]** ومنحه قرية "زير آباد" التى كانت من أملاكه الخاصة. كذلك منحـه مرسـوم

---

(٢) جوين: اسم ولاية على طريق القوافل من بسطام إلى نيسابور، وجميع قراها متصلة واحدة بعد الأخرى. وأكثر سكانها من الشافعية، وتستمد جوين ماءها من القنوات، وحاصلاتها متنوعة. وإلى جوين ينسب خلق كثير من الأئمة والعلماء. (انظر معجم البلدان لياقوت، ج٢، ص١٩٢ – ١٩٣، بيروت ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م؛ نزهة القلوب، ص١٨٤، تهران ١٣٣٦هـ.ش)

الترخانية[1] وفوض إليه الإشراف على الخزانة، وإدارة الخانقاه التـى بناها فى قرية "بوزينجرد" من أعمال همذان. وهى عبارة عن عمـارة مرتفعة وبناء رائع. وقد أوقف عليها أوقافًا كثيرة من الضياع والعقار، وجعل ولايتها له ولأولاده وأعقابه، وصار ملحوظًـا بنظـر العنايـة والعاطفة السلطانية.

وعلى هذا لا يخفى أن كل من يـؤدى للسـلاطين خدمـة جليلـة ومرضية لا بد أن يجنى نتيجتها وثمرتها، ويكون وموقرا ومحترما فى نظر الجميع. وحتى هذا الوقت فى عهد السلطان أولجانيو – خلـد ا سلطانه – كان هذا الشخص لا يزال يباشر هذه الأعمال ويتمتع بما كان له من توقير واحترام.

والحق أنه رجل شريف ومرتب، طيب الذات، حسن السيرة؛ فـلا غرو أن يكون جديرا بملازمة السلاطين، وينال منهم دائمـا الخيـرات والمبرات. وهكذا فإن كثيرا من الناس من الصلحاء والعلمـاء وسـائر أصناف الطوائف ينعمون – فى وجود غازان – بالراحة والرفاهية.

---

(١) الترخان هو الرجل المعفى من الضرائب، ويكون له حق الاستحواذ على ما يغنم فى الحرب، ويدخل على الخان الأعظم دون استئذان، ويخصص لـه عدد من الجند والأتباع يكونون تحت تصرفه، ويعطى من الدواب والحمير والمنقولات ما لا يدخل تحت حد وحصر، ويعفى من المساءلة عن الذنوب التسعة الأولى التى يرتكبها. ويكون لأبنائه أيضًا حق التمتع بهذه الامتيازات. وقانون الترخانية خاص بهذه الطبقة. (انظر عطا ملك الجوينى: تاريخ جهانكشاى، جلد أول در تاريخ جنكيز خان وأعقـاب أو تـاكيوك خـان، ص ٢٧ – ٢٨، بسـعى واهتمـام وتصـحيح محمد بن عبد الوهاب القزوينى، ليدن ١٣٢٩هـ / ١٩١١م).

وصفوة القول أنه عندما وصلت الرايات السلطانية إلى مكان قريب من جاجرم[٢] تشاوروا فى الأمر، وقالوا: إن المصلحة تقضى بأن نذهب إلى حضرة أرغون خان أو أن نقيم فى كالبوش. فرد عليهم غازان بقوله: حيث إننا قد أرسلنا الرسولين: يغميش وأرمنى بلا، ينبغى أن نصبر حتى نعرف ما عساه أن يحدث. ثم توقف فى كالبوش. ولما كان بها موطن "ايغورتاى غازان"، وكان مطلعا أيضا على الأوضاع فى مازندران، قدّم هناك خدمات جليلة. بعد ذلك عين غازان طائفة من الحراس ليرابطوا حتى صمنقان وجرمقان.

وفى تلك الأيام وصل نظام الدين يحيى من ولاية "بيهق"[١]، وأحضر معه كل ما تحتاج إليه الحضرة السلطانية، وما يلزم المعسكر من الخيول القبجاقية والآلات الذهبية **[ص٢٦٤]** والفضية والمخيمات والسرادقات والأوانى والبغال والإبل. كما قدم للأمراء خدمات مستحسنة، ثم عاد إلى بيهق حسب الأمر الصادر إليه كى يعد الأموال والميرة للجند.

---

(٢) جَاجرْم: يقال له أيضًا أُرغيان. بلدة لها كورة واقعة بين نيسابور وجوين وجرجان. تشتمل على قرى كثيرة. وهى بلد حسن. وتتميز مساكنها بالفخامة. تنتج القمح، وتكثر بها الفاكهة. (انظر معجم البلدان، ج٢، ص٩٢؛ نزهة القلوب، ص١٨٤؛ بلدان الخلافة الشرقية، ص٤٣٣ – ٤٣٤).

(١) بيهق: ناحية كبيرة وكورة واسعة، كثيرة البلدان والعمارة من نواحى نيسابور. تشتمل على ثلاثمائة وإحدى وعشرين قرية بين نيسابور وقومس وجوين. وكانت قصبتها أولا خسروجرد ثم صارت سبزوار. وقد خرّجت بيهق عددًا كبيرًا من الفضلاء والعلماء والفقهاء. والغالب على أهلها مذهب الشيعة الغلاة. (انظر معجم البلدان، ج١ ص ٥٣٧ – ٥٣٨؛ تاريخ بيهق، تأليف أبى الحسن على بن زيد البيهقى المعروف بابن فندق: مقالة العلامة محمد بن عبد الوهاب القزوينى، ص: ى وما بعدها، طهران ١٣١٧هـ.ش.).

وقبل الاشتباك مع نوروز بيومين، هاجم الأميـر "إلادو" وطائفـة أمراء القراوناس ديار نوروز، ونهبوا كل ما فيها. فلما وقف نـوروز على ذلك الأمر تعقبهم. أما كينشو والآخرون فقد أقاموا فى رادكـان. وكما هى عادة القراونة، انقسموا - بعد تلك الغارة - إلى فـرقتين أو ثلاث فرق وانفضوا من حول الأمير "إلادو"، وانضم بعضهم إلى الأمير نوروز، وسار بعضهم إلـى ديـارهم، وشـرعوا فـى إثـارة الفـتن والاضطرابات. وعندما شاهد "إلادو" تشتتهم وتفرقهم، نقل خيامه إلـى حدود "بادغيد" فى واد حصين وانضم إلى الحضرة، فشمله غازان بغاية عطفه ورعايته، وأقام مدة أربعين يوما فى "كـالبوش". وعنـدما قـدم الجنود من حضرة أرغون، يتقدمهم الأمير بايدو، ونورين آقـا وابنـه انضموا إلى حضرة غـازان، وشـغلوا عـدة أيـام بإقامـة الـولائم والاحتفالات. ثم رحل غازان من هناك - بطالع السعد – إلى "خبوشان" عن طريق سمنقان.

وعندما علم نوروز بوصول الجنود من ناحية العراق، وعرف أنهم يقصدونه، نقل خيامه وأمتعته إلى هراة، وقدم هو نفسـه إلـى حـدود جرمقان. وعندما رأى أنه لا طاقة له بالمقاومة عاد من حيـث أتـى، فصار الجيش المنصور يتعقبه حتى حدود جام. وفى موضـع "نجـار سراى" التى تلى جام **[ص٢٦٥]** دخل فى طاعة غازان "أولجتيو" مـع جماعة القراونة وتماجى بن يكه يندون من أتباع نوروز. ولمـا بلغـوا "خرجرد جام" كان نوروز قد ساق كل الـدواب التـى وجـدها فـى خراسان، سواء أكانت له ولجنوده أم كانت للعرب والتركمان وغيرهم. وكان يأخذها معه.

ولما وصل الجنود المنصورون متعاقبين، شاهدوا– ابتداء من مدخل جام حتى مدخل هراة – الحزون[1] والسهول وكلها تعج بالدواب التـى تركها وراءه نوروز وجنوده. وفى عدة أماكن أخرى شوهد كثير مـن الدواب قد نفق. ونظرا لشدة العفونة، أصبح السير متعذرا فكان المغول يأخذون تلك الدواب، ويسيرون بها. وفى القرى كـانوا يبيعـون كـل خروف بدانق واحد. وحيث إنه كان قد صدر أمر بألا يهتموا بالغنـائم، لم يجرؤوا على أن يأخذوا منها المزيد. وقد حمل نوروز كل ما خـف حمله من المتاع. ثم سار مع الأميرة "طوغان" وعائلات الإخوة وعـدد معدود عن طريق فره وسبزوار وهى منطقة صحراوية قاحلة.

ولما كان الوقت صيفًا، لم ير غازان من المصلحة فـى شـىء أن يرسل الجند فى إثر نوروز وأقام عند باب هراة على ضفاف نهر "بول مالان". ثم أرسل الأمراء إلى بادغيس لاسـتدعاء "كينشـو" والجـيش المعظم. وعلم كينشو بهذا الأمر، فخرج مع نسائه وأطفاله وأتباعه إلى جبال الغور وغرجستان. أما أمراء المعسكر المعظـم وتكنـا وجنـود القراونة الذين كانوا معه فقد رحلوا جميعا إلى هراة. ومما يدل علـى ثبات "كينشو" وسكونه وأمانته - خلال تلك المدة – أنه لم يستول على دينار واحد من الخزائن الخاصة أو الأموال والدواب التابعـة لبيـوت الأمراء الذين كانوا هناك، ولم يتصرف فيها. بل إنه فـى الواقـع أدى خدمات جليلة.

---

(١) مفرد حَزْن. والحّزْن من الأرض: ما غلظ. ومن الدواب مـا صـعبت رياضـته. ومن الناس من خَشُنَتْ معاملته. المعجم الوسيط، ج١، ص١٧١).

[ص٢٦٦] وبعد عدة أيام رحلوا من هراة، واتجهـوا إلـى ناحيـة "رادكان" ومن هناك سير غازان إلى حضرة أرغون "ايغورتاى غازان" فى صحبة تكنا ليشرحا له أحوال جيش خراسان. وعلى الـرغم مـن وجود المزيد من الفتن والاضطرابات التى كانت تحدث فى خراسـان، لم يكن غازان يغفل دقيقة واحدة قـط عـن مراعـاة قواعـد العـدل والإنصاف. وكان يبذل قصارى جهده فى رعاية شئون الرعية. وكـان قد سن قانونًا يقضى بألا يدع أى مخلوق من الجنود أو غيرهم الدواب تتلف مزارع الناس وبساتينهم. وقطعا لا يطعمونها الغلات، ولا يعيثون فى الولايات فسادا، وألا يشقوا قط على الرعايا.

بعد ذلك تحرك غازان من رادكان إلى "شتركوه" مع طائفة القراونة الذين كانوا قد تُركوا فى ناحية "جام"، وذلك كـى يصـطاف. وهنـاك شغلوا باللهو والشراب. وقد أكرمهم غازان غاية الإكرام.

وفى أثناء ذلك ورد نبأ من الحراس يفيد أن العصاة قـد ظهـروا، فتحركت الرايات السلطانية إلى ناحية رادكان. وكانت تلـك الإشـاعة كاذبة. وبسبب إدمان غازان الشراب اعتلت صحته. ثم قدم الجمع مـن هناك إلى خبوشان. وقد ظل غازان مريضا ما يقرب من أربعين يوما. وبعد ذلك استرد صحته.

وخلال تلك المدة وفد الأمير "شيكتور آقا" و"طوغـان" مـن لـدن حضرة أرغون، وأمضيا الصيف والخريف مع أتباعهما فـى منطقـة خبوشان ورادكان وشتركوه. فلما صار الجو باردا، استقر الرأى علـى أن يمضوا الشتاء فى نيسابور. أما غازان فقد مضـاه فـى "مويـدى"

ومضاه الأمير بايدو فى موضع "شامكان" الذى يقع بين بيهق ونيسابور. ولقد اشتد البرد فى ذلك الشتاء، ونزل الثلج بغزارة فهلك أغلب الدواب، وبقى أكثر الناس مترجلين **[ص٢٦٧]**.

ولما حل ربيع سنة ٦٨٩هـ / ١٢٩٠م قضوا الصيف فى منـاطق رادكان وخبوشان وشتركوه. وفى هذا العام كان الأمن مستتبا فى كـل الجهات. وقد أحضروا الأموال من لدن أرغون، وقسموها على الجنود. بعد ذلك سار طوغان حتى منطقة بادغيس ثم عاد. وفى أوائل الصيف بسبب عدم توافر الميرة فى خراسان، صدر الأمر بأن يعـود الأميـر بايدو ومن كان معه من الجنود الذين كانوا قد سـاروا مـن العـراق وآذربيجان، وأن يلازمه "نورين". ثم قدم غازان إلى ناحية بام وارغيان لتوديع بايدو، وعاد بعد ذلك.

وفى ذلك الصيف تغيرت نيات طائفة من القراونة، ودخلوا ولايـة جوين، يتقدمهم "دانشمند بهادر"، وصاروا يعربدون ويخربون، فعـين غازان الأمير "مولاى" لمقاومتهم واسـتمر غـازان طـوال الصـيف والخريف يشتغل بالصيد والنزهة فى منطقتى خبوشان ورادكان. كمـا عهد إلى الأمراء بتنظيم الجيش، وإلى أصحاب الديوان بضبط الأموال وإعداد الميرة للجند. ثم أمر بقضاء الشتاء فى "تزن باورد"، وإقامة سد على النهر الذى يدعى "كال تزن"، وعمر عدة قرى.

وفى ذلك الخريف، وصل المدعو "خوارزمى ترخـان" مـن لـدن أرغون خان لضبط شئون خراسان وتدبير الأموال فى هـذا الإقلـيم. كذلك أمر غازان بأن يباشر الجميع أعمالهم وفقًـا للفرمـان السـابق.

وبموجب الفرمان أيضا أمر باعتقال نـواب طوغـان فـى قهسـتان وإحضارهم إلى الحضرة. وأما الكُتّاب والعمال فى خراسان، فقـد زج بهم فى السجن، وحقق معهم.

وفى آخر الشتاء شرع جمع من القراونة فى التمـرد فـى ناحيـة سرخس وساروا إلى جهة مـرو **[ص٢٦٨]**. ثـم تحركـت الرايـات السلطانية إلى "وادى مرغه" . وقد سير غازان "الإدونويـان" للقضـاء على فتنة القراونة، فحاربهم إلى أن أخضعهم وألزمهم الطاعة. بعد ذلك أقام غازان مدة فى ناحية "ارجاه" و"شوكان". ومن هنـاك سـار إلـى سرخس، ثم نزل "بقراتبه" التى تسمى "شيرسيل".

وفى شهور سنة ٦٩٠هـ / ١٢٩١م وصل نبأ يفيد بأن "نـوروز" سوف يصل قاصدا خراسان بجيش معد تماما ومعه ساربان وأبوكـان أغول واوركتيمور وقواد يساوور. وكان سبب ذلك هـو أن "نـوروز" عندما هزم – قبل ذلك – فى منطقة هراة، فـر هاربـا، وسـار إلـى قايدو(١). وبعد أن قدم له خدمات كثيرة، التمس منه أن يمـده بجـيش فأجابه إلى طلبه وأرسل إليه جيشًا، وسير أيضا ابنه "سـاربان" علـى رأس جيش آخر لمساعدة نوروز. فما كان من غـازان إلا أن أرسـل

---

(١) قايدو: هو ابن قاشى بن أوكتاى قا آن بن جنكيز خان (انظر جامع التواريخ: تاريخ خلفاء جنكيز خان من أوكتاى قا آن إلى تيمور قا آن: نقله إلى العربية الدكتور فؤاد عبد المعطى الصياد، ص ٣٢١ – ٣٢٢، بيروت ١٩٨٣ رحلات ماركو بولو، ترجمها إلى العربية عبد العزيز توفيق جاويد، ص ٣٥١ – ٣٥٢، القاهرة ١٩٧٧؛ بارتولد: تركستان من الفتح العربى إلى الغزو المغولى نقله عن الروسية صلاح الدين عثمان هاشم، ص٧٠٤ وما بعدها الكويت ١٤٠١هـ / ١٩٨١م؛ الشرق الإسلامى، ص٤٧).

"قبرتو" مع طائفة من القواد لاستطلاع الأخبار، فساروا إلى "مرغـاب" ثم عادوا وقالوا: إن المتمرد سوف يصل حقيقة على رأس جيش كبير.

ولما لم يكن جنود غازان مجتمعين، رحل الحاضرون مـنهم إلـى موضع آخر حيث مرغانه وكشف رود، وصاروا ينتظرون حتى يصل الأمير قتلغ شاه والجنود الذين كانوا يمضون الشتاء فى هـراة. كـذلك أرسلوا الأمير "كونجك" لاستدعاء جنود مازندران. وعندما وصلوا إلى "جسر معين" "بول معين"، استأذن الأمير مولاى، وسار إلـى قهسـتان حتى يحضر الجنود من هناك. وكانت أخبار المتمردين تصل تباعـا، فرحل غازان من هناك، **[ص٢٦٩]**، ونزل فى أعلى المشهد الرضوى، وظل فى انتظار الأمير قتلغ شاه. وأثناء النهار وصل "قبان اختـاجى" من ناحية آذربيجان موفدا من قبل الأمراء الذين كانوا قد أثاروا الفتنـة هناك، وقتلوا جوشى واوردقيا وسعد الدولة، ثم أرسـلوا قبـان حتـى يضرم نار الفتنة فى خراسان مع نفر من المفسدين. كـذلك أخبـر أن جيوش آذربيجان والعراق سوف تصل من لدن أرغـون خـان. أمـا غازان خان فقد عرف بما كان له من فراسة وكياسة - أن مـا يقولـه "قبان اختاجى" كذب. ولكن لما كانت الأخبار تصل تباعا عن تحـرك المتمردين، لم يتفحص حقيقة الأمر.

وفى اليوم التالى، وصل الأمير قتلغ شاه، وصـرح بـأن جيـوش نوروز المتمرد، قد وصلت إلى رباط "سنكـ بست"؛ فشـمله غـازان بعطفه، وألبسه قباءه الخاص، وأعاده ليلاً كى يحضر الجيوش صـباحا إلى الحضرة فى موضع يلى المشهد المقدس، وذلـك لخـوض غمـار

المعركة. وفى منتصف الليل ورد نبأ من الحراس يفيد بـأن العصـاة اجتازوا جسر معين "بول معين"، فاقتضى الرأى العالى أن يسير الجيش الأعظم ليلاً بمعداته مع الخواتين إلى "أسفرايين"[(١)].

وفى صباح غرة ربيع الآخر سنة ٦٩٠هـ / ١٢٩١م تحرك غازان من هناك. وكان فى صحبته الأمراء: نورين آقـا وإلادو وايغورتـاى غازان وغيرهم. ثم ارتحل إلى ناحية تقع أسـفل المشـهد الرضـوى، ومكث هناك ساعة واستعرض الجيش، وظل منتظرا وصـول الأميـر قتلغ شاه كى يحارب المتمردين. وفى وقت الظهيرة قدم "جمجمة" مـن قبل قتلغ شاه، وقال: عندما وصلنا إلى "سنكـ بست"، كانت الجيـوش كلها قد سارت عن طريق "وجنك" و"اسحاقباد" إلى نيسابور **[ص٢٧٠]**. وعلى أثره جاء الأمير قتلغ شاه إلى الحضرة. وبعد ساعة ظهر سـواد الجنود. ولما كانوا كثيرين - على حين أن جنـود هـذا الجانـب (أى غازان) كانوا – قليلين – تشاور الأمراء فى الأمر، ورأوا أن المصلحة تقضى بتجنب الحرب وعدم خوض غمار المعركة. كذلك صرح "إلادو" بقوله: إنه ليس من صالحنا مواجهتهم. ثم ضرب هذا المثـل المغـولى الذى يقول: "إن الالتحام بجيش العدو المتمرد أمر سهل؛ أما الـتخلص منه فأمر عسير". وأنتم تعرفون أياما كثيرة تجيبون فيها على أرغون. أما جواب هذا اليوم فعلى أنا".

---

(١) أسْفَرايين وتكتب أيضًا أسُفَرَاين: بليدة حصينة من نواحى نيسابور على منتصف الطريق من جرجان. واسمها القديم "مهرجان". سماها بذلك بعض الملوك لخضرتها ونضارتها. وفيها أسواق ومياه جارية وخانات. وهواؤها رطب. وتكثر فيها الأعناب والقمح. (انظر معجم البلدان، ج١، ص١٧٧؛ الروض المعطار، ص٥٧؛ بلدان الخلافة الشرقية، ص٤٣٤ – ٤٣٥).

وأخيرا استقر الرأى المبارك على أن يتريث الحاضرون، ويعودوا، ويرابطوا فى أحد المواضع حتى تتجمع الجيوش بأكملها. ومن هنـاك تحرك غازان إلى ناحية "رادكان"، فصار المتمردون يتعقبونـه. وفـى آخر النهار داهم غازان بقواته جنود المتمردين بـالقرب مـن طـوس وتحاربوا. ثم ارتحل فى اليوم التالى، ورابط فى عدة مواضـع. ولـم يتصادف حدوث ذلك. ثم نزل فى "سلطان ميدان" ليلاً، وارتحل صباحا. وقد عرض "إلادو" قائلاً: "ما دام القتال ليس ميسرا. وقد سـار أهلـى وعشيرتى وأكثر الجنود إلى ناحية "جوين". فلو أذن لى قائدى، فـإنى سوف ألحق بهم. فصرح له غازان بذلك، وذهـب "إلادو" إلـى حـال سبيله. كذلك قال: "ارايتمور" والد "شيرين ايكاجى": لقد ذهـب أهلـى وجنودى أيضا إلى ناحية نيسابور، فلأذهب، وآتى بهم. فمضـى هـو كذلك. أما ايغورتاى غازان فكان يحب زوجته توزميش خـاتون ابنـة الأمير مباركشاه. وكان قد سيرها مع أهله إلى "كبود جامه". وفى نيتـه أن يأخذها وينضم إلى نوروز **[ص٢٧١]**، فطلب هو أيضا الإذن بحجة أنه سوف يذهب إلى دياره حتى يعبئ جنود مازندران، ويحافظ علـى تلك الحدود. فأذن له هو الآخر ورحل. أما الأمراء نورين آقـا وقتلـغ شاه وسوتاى فقد ظلوا ملازمين للحضرة.

بعد ذلك تحرك غازان سالكًا طريق أرغيان. وكانت أخبار الأعداء تصل تباعا. ثم توقف برهة فى مدينة إسفراين، ومر من هناك ونـزل فى قرية "كسرغ"، من أعمال إسفراين وفى منتصف الليل علم نـورين وقتلغ شاه وسوتاى أن طائفة القراونة الذين كانوا فى "هزاره"، وجـىء بهم إلى المعسكر كى ينضموا إلى "باتاى" ينتوون إثـارة الفـتن. وقـد

تشاوروا فيما بينهم، ثم استقر رأيهم على أن يتمردوا، ويعودوا أدراجهم. فعرضوا تلك الحال على غازان، ورأوا من الصالح أن يغادروا ذلك الموضع على أن يبقى الأمير قتلغ شاه ليقف على حقيقة الأمر. ثم تحركت الرايات المباركة إلى ناحية "جوربد"؛ بحيث إن غازان وصل إليها فى الصباح. ثم عاد ذلك الجمع من هناك، وهاجموا ديار "كونجك" و"قتلغ خواجه" وبقية الحرس ونهبوا كل ما وصلت إليه أيديهم، وانضموا إلى المتمردين. وكذلك كان جنود الأعداء يأتون فى إثرهم حتى بلغوا "جوربد".

فلما وصل السلطان إلى هناك، أمر بترحيل أسر قاجير بن سرتاق وسوقار وسواتو والقراونة الآخرين الذين كانوا قد نزلوا هناك فى ناحية جاجرم وبسطام[1]، وأقام غازان هناك إلى آخر النهار. وعندما وصل الأمير قتلغ شاه، وعرض الأخبار عن وصول المتمردين نزل غازان فى جاجرم حيث أقام تلك الليلة، وعاد نوروز من جديد. وإن ما حدث فى تلك السنة بخراسان من ضروب القتل والسلب والتخريب ليفوق حد الوصف والبيان؛ فلقد حاصروا مدينة نيسابور، ولكن بيمن غازان وإقباله، وقى الحق تعالى هؤلاء المسلمين شر الكفار[2]**[ص٢٧٢]** فلم يسيطروا عليهم. لكنهم مع هذا أغاروا على القرى، وأسروا كثيرا من

---

(١) بِسْطام أو بَسْطام: بلدة بقومس على جادة الطريق إلى نيسابور بعد دامغان بمرحلتين. منها أبو يزيد البسطامى الزاهد. وبها تفاح جيد يحمل إلى العراق.(معجم البلدان،ج١، ص ٤٢١ . انظر كتاب بسطام وبايزيد بسطامى نكارش اقبال يغمائى، ص٨ – ص١٧، تهران ١٣١٧هـ.ش).

(٢) من الملاحظ هنا أن رشيد الدين يطلق على غازان ورفاقه اسم مسلمين ويعتبر أعداءهم كفارًا. هذا على الرغم من أن العكس هو الصحيح؛ إذ إن غازان وأتباعه كانوا يدينون بالبوذية فى ذلك الوقت. أما عدوه نوروز فكان يعتنق الإسلام.

السكان. ثم قصد المتمردون "بارونقى" من نواحى نيسابور، حيث يوجد محاربون أشداء.

ولما كان الموضع حصينًا للغاية، لجأ كثير من الناس إليه بـأموالهم ودوابهم. ثم ذهب المتمردون إلى أحد الوديـان، فحاصـرهم السـكان وسدوا عليهم الطريق من فوقهم، وقتلوا ما يقرب من ألف فارس مـن الكفار. ثم عاد المتمردون من هناك، وذهبوا إلى مشهد طوس وانتزعوا أربع كرات فضية، كانت قد وضعت كحلية فى أعلى الضريح. ولقـد قتل الأهالى كثيرا من هؤلاء الجنود؛ بحيث إن الأعداء عندما وصـلوا إلى حدود بادغيس[1]، واستعرضوا الجيش، لم يجدوا ما يقـرب مـن خمسة آلاف فارس. ولهذا السبب اعتبروا "نوروز" مـذنبا ومقصـرا، وضربوه بالعصا.

وفى اليوم التالى ارتحلت الرايات الملكيـة عـن طريـق بسـطام ودامغان. وكان جميع الأمراء قد علموا بوفاة أرغون، ولكنهم يخفـون ذلك عن غازان. فلما وصل إلى بسطام، أقام بها يوما؛ لأن الخـواتين كن هناك. ثم اتجه إلى دامغان. وكان قبل ذلك قد أرسل "أبيشـقا" أخـا إلادو برسالة إلى حضرة أرغون، ولكن لأنه كان قد سمع بوفاته، توقف فى دامغان. وكان جميع سكانها قد خرجوا من المدينة، ومضى بعضهم

---

(١) بـاذغيس أو بـادغيس: عبـارة عـن بليـدات وقـرى كثيـرة ومـزارع بنـواحى هـراة. وأصـلها بالفارسـية "بـادخيز" أى قيـام الـريح أو هبـوب الـريح لكثـرة الريـاح فيهـا. (تقويم البلدان ص ٤٥٤؛ بلدان الخلافة الشرقية، ص٤٥٦).

بصحبة "شاه ايلدوز" إلى كردكوه[2] وبعضهم إلى حصن "دين مايـان"، وهو مكان حصين. ولهذا السبب عاد "آبيشقا" من دامغـان **[ص٢٧٣]**، ووصل إلى الحضرة فى بسطام وعرض على غازان أحـوال سـكان دامغان. وعندما وصلت الرايات السلطانية بدامغان، لم يتقدم لاسـتقباله مخلوق قط، ولم يكن الأهالى قد أعدوا الهدايا والعلاف والميرة، فغضب عليهم غازان. ولما كان الأكابر والأعيان هناك فـى حصـن مايـان، أمرهم بالخروج، فأبوا، فأمر بمحاصرتهم. وبعد حرب استمرت ثلاثـة أيام بلياليها، طلبوا الأمان، ودخلوا فى الطاعة وأعطوا غازان أمـوالاً كثيرة من النقود والأمتعة وقدموا للجيش المـؤن والأبقـار والأغنـام، فصفح غازان - لفرط عطفه ورحمته - عن ذنوب هؤلاء المجـرمين. ثم أشار بتخريب القلعة. وبعد جلوسه المبارك أمر بتعميرها.

بعد ذلك سار إلى ناحية سمنان. وخلال تلك الأحداث، كان معـين الدين مستوفى الديوان الأعظم، وجمع من الكتاب يسيرون إلى نيسابور فقبض عليهم، وسيقوا إلى الحضرة فلم يلتفت إليهم غازان إلى أن صدر

---

(٢) كردكوه: قلعة تقع على بعد ثلاثة فراسخ من دامغان فى وسط الجبل يراها الواقف بدامغان. ويطلق على هذه القلعة أيضًا اسم "دز كنبدان" أى القلعة المقببة. ويعرف رستاقها الخصب بمنصور آباد، وزراعاتها ومحصولاتها وفيرة.
وكردكـوه إحـدى قـلاع الإسـماعيلية المنيعـة التـى كانـت تسـيطر عليهـا طائفـة الإسماعيلية فـى إيران. وقد قـاوم المدافعون عن هذه القلعة قوات المغول بقيادة هولاكو مقاومة عنيفة استمرت عشرين سنة إلى أن سقطت فـى أيديهم فـى عهد آبـا قاخان (انظر جامع التواريخ، جلد سوم، متن علمى وانتقادى فارسى بسعى واهتمـام عبد الكريم على أوغلى على زاده، ص ٣٥ – ٣٦، باكو ١٩٥٧؛ نزهة القلوب، ص ٢٠١؛ بلدان الخلافة الشرقية، ص ٤٠٥. وللوقوف على مزيد من التفصيلات عن التطور التاريخى لهذه القلعة انظر كتاب "قلاع إسماعيلية در رشـتة كوهـاى البـرز، تأليف دكتر منوجهر ستوده، ص١٤٦ وما بعدها، تهران ١٣٤٥ هـ.ش).

الأمر باسترداد المراسيم (يرليغها) والأختام الحمراء (آل تمغها) التى كانت فى عهدتهم. ثم أذن لهم بالانصراف، فانصرفوا.

وعندما وصل غازان إلى سمنان، شاور الأمراء، فأحاطوه علما بوفاة والده أرغون. فقدم الأمير مراسم العزاء. وجريا على عادة المغول أمر بانتزاع الريشة من قلانس الحاضرين. ثم قدم الأمير "مولاى" من قهستان إلى سمنان عن طريق الصحراء، وانضم إلى الحضرة فاختصه غازان بأنواع العطف والرعاية. ثم صدر الأمر بتزويجه من شقيقة الأمير ساتلمش. ولما عاد "ايغورتاى غازان" من "سلطان ميدان" متجها إلى "كبود جامه"[١] وجرجان كانت تراوده فكرة فاسدة؛ فاصطحب معه "ترميش"، وقدم حتى حدود "سلطان دوين" واستراباد وصاح قائلاً: إن تلك الولاية مِلْك قايدو **[ص ٢٧٤]** وصار يشق على جنود المغول الذين كانوا يقيمون فى تلك المناطق، ويدأب على إثارة الفتن. ولما لم يكن كبار الأمراء حاضرين، اتفق سايغان إياجى ومام‌لاق وآخرون، وهجموا عليه فجأة، وطاردوه من هناك، وصاروا يتعقبوبه حتى أخرجوه من حدود جرجان وكبود جامه. فهام على وجهه مع نفر قليل ومضى إلى حال سبيله. وكان قبل ذلك يشق كثيرا على جماعة السادات والأهالى والرعايا فى مشهد طوس. والسلام.

---

(١) كبود جامه: ولاية توجد وراء مدينة استراباد التى تقع فى إقليم جرجان قرب حدود مازندران. وفى كبود جامه يكثر الحرير والقمح والكروم. وهى كثيرة الغنى والخير؛ إلا أن الخراب لحق بها فى حروب تيمور فى المائة الثامنة (الرابعة عشرة). (نزهة القلوب، ص١٩٩؛ بلدان الخلافة الشرقية، ص ٤١٦).

حكاية

أحوال غازان خان بعد وفاة أرغون خان حتى وقت رحيله إلى ناحيةآذربيجان فى عهد كيخاتو خان ثم عودته من تبريز إلى خراسان

بعد ذلك مكثت الرايات السلطانية عدة أيام فى سمنان. ثم تحركت نحو فيروزكوه[1] وسار حتى حدود دماوند بالقرب من ميشان حيث أقام عدة أيام. وهناك أنجبت بلغان خاتون الخراسانية ولدا لكنه توفى. ثـم قدموا إلى فيروزكوه. وقد ورد نبأ يفيد بأن كيخاتو قادم من الروم. أما الأمراء الذين أثاروا الفتنة فى المعسكرات فقد تفرقوا، وانضم بعضـهم إلى كيخاتو، ورافق بعضهم "بايدو". وقد فر "طوغان" من بينهم، وقـدم إلى خراسان. ولهذا السبب أمر غازان باعتقـال "مـولاى" وسـجنه. وعندما ورد نبأ اعتقال طوغان، أطلقوا سراح مولاى بشفاعة الأمراء.

ولما تحقق نبأ اعتلاء كيخاتو[2] العرش، أوفد إليه غـازان الأميـر قتلغ شاه برسالة، عرض فيها أحوال التخريب فى خراسـان، وشـئون

---

(١) فيروزكوه: قلعة حصينة فى جبال غرجستان بين هراة وغزنة اتخذها الغوريون عاصمة لهم. وقد استمروا فى الحكم إلى أن اكتسح المغول بلادهم، وسقطت عاصمتهم فى يد جنكيز خان سنة ٦١٩هـ / ١٢٢٢م بعد أن أنزل بها الخراب والدمار (انظر معجم البلدان، ج٤ ص٢٨٤؛ بلدان الخلافة الشرقية، ص ٤٥٩).

(٢) كان التقليد يقتضى اختيار الأكبر سنًا لخلافة الإيلخان المتوفى؛ لكن الأكبر سنًا يمكن أن يكون الأخ الأكبر للمتوفى. وبالفعل كان كيخاتو خان هو الأخ الأكبر لأرغون والد غازان. كما يمكن أن يكون أكبر أبنائه. ولم يكن هناك عرف يحدد متى ينبغى إحلال الجيل الأصغر محل الجيل الأكبر فى تعاقب السلطة. وكان المعتاد أن ينتصر الأكفأ والأقدر على فرض نفسه وسيطرته فى حالة تقدم اثنين كمرشحين لتولى السلطنة. ويتم ذلك الاحتكام إلى السلاح. (انظر دوروتيا

الجيش هناك. ثم أرسل الأمراء "هورقداق" و"قرا بن جـاورجى" **[ص ٢٧٥]** وقتلغ تيمور وآخرين إلى خراسان. وفى صيف سنة ٦٩٠هـ/ ١٢٩١م بموضع "أسيران" الواقع بين فيروزكوه وسمنان والذى يـدعى مصيف "نكاتو" كان غازان يشتغل دائما بالصيد والأخذ بأسباب المتعة. هذا على حين أن أصحاب الديوان كانوا يقومون بجمع المؤن للجنـود وتدبير أموال الولاية. وقد وصل الأمير قتلغ شاه إلى حضرة كيخـاتو فى أران، وعرض عليه حقيقة الأوضاع فى خراسان. ونظرا لاشتغال كيخاتو بالمتعة والبهجة واللهو والأنس، لم يعبأ به كثيرا، فرجـع هـو أيضا من حيث أتى، وقدم إلى حضرة غازان. وبعد ذلك حلّت الرايات السلطانية بناحية دامغان وبسطام. ثم هنـاك اتجهـت إلـى كـالبوش، وأرسلت "قتلغ خواجه" و"لالا" إلى ناحية بيهق لاستدعاء "نظـام الـدين يحيى". لأن هذا الشخص قد جاوز حده كثيرا بخراسان؛ إذ قتل جمعـا من الأكابر رغم أنهم كانوا تابعين له، واغتصب من الناس أموالاً طائلة ولهذا ظل متوجسا خيفة، وتقاعس فى المجىء. بعد ذلك دخلت الرايات السلطانية جرجان عن طريق قلعة "جناشك"، وقضت ذلك الشـتاء فـى "سلطان دوين استراباد".

ولقد أرسل كيخاتو إلى غازان خان الأمير النجل أنبارجى والأمراء "دولاداى" و"قونجقبال" و"ايلتمور" لإمداد جيش خراسان، فحظوا بشرف المثول أمام حضرة غازان فى "سلطان دوين". ثم صدر الأمـر بـأن يمضوا الشتاء فى ناحية "قراتوغان". وفى أواخـر الشـتاء أشـيع أن

كرافولسكى: العرب وإيران، ص ١٩٢ ـ ١٩٣، الترجمة العربية، بيروت ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م.

"نوروز" قدم إلى نيسابور قاصدا "جوين" حتى يخرج نظام الدين يحيى **[ص٢٧٦]** من قلعة "أندمد". ولما كان الجو لا يزال بـاردا والـدواب هزيلة، تحركت الرايات السلطانية إلى "كالبوش" حيث مكثت عدة أيام. ثم أرسل غازان الجواسيس إلى الأطراف والنواحى وزحف مع عـدد قليل ناحية "جوين" ثم رجع. بعد ذلك عادت الرايات الملكية إلى جرجان حتى تسمن الدواب.

وفى أول ربيع سنة ٦٩١هـ ـ / ١٢٩١م سـير غـازان الأميـر "أنبارجى" مع الجنود الذين كانوا قد قدموا معه، وذلـك عـن طريـق "دهستان" و"يارز" و"نسا" و"أبيورد"، وأرسل معهم "هوراقداق" لإعـداد المؤن وما يحتاج إليه حتى لا يجوروا على البلـد ويخربـوه. كـذلك تحركت الرايات السلطانية. وفى تلك السنة حلّـت بخراسـان ضـائقة شديدة بسبب القلاقل والاضطرابات؛ بحيث تعذّر وجود منّ من الغلـة بمائة دينار، فعين غازان الصاحب الأعظم الخواجه سعد الـدين علـى رأس أصحاب الديوان لإعداد المؤن للجنـود، وتـدبير الأمـوال فـى خراسان ومازندران والرى. وفى تلك الرحلة، كان طعام أكثر الجنـد من لحوم الصيد. بعد ذلك نزلت الرايات السلطانية على ضفاف نهـر هراة الذى يسمى "جوقجور". وبسبب غزارة المياه عبروا بمشقة بالغة. ثم سار إلى الحضرة الأمير النجل "أنبارجى" وأمراء العراق.

بعد ذلك وصل نبأ من الحراس يفيد أنهـم رأوا ظـل المتمـردين. فرحلت الرايات السلطانية إلى ناحية بادغيس، وأقامـت فـى "بولـداق بادغيس"، فأرسل غازان الجواسيس إلى الأطراف ولكن لم يكن هنـاك

أثر أو خبر عن العصاة فى موضع قط. ولأن مؤن الجند قد نفدت صار الجنود يسرقون خيول بعضهم البعض **[ص٢٧٧]** ويـأكلون لحومهـا. وبسبب عدم وجود الأغذية وقعوا فى مشقة بالغة. وهنا ذكر الأمـراء أنهم على مقربة من هراة حيث توجد مناطق ينضج فيها الشعير، وأنـه من المصلحة أن يذهبوا إلى هناك. وعلى هذا رحلـوا قاصـدين تلـك الجهة، ونزلوا على جسر مالان "بول مالان". ولكـن صـدور هـراة وأكابرها لم يكونوا فى المدينة بسبب الفتن والاضطرابات. وكان الملك "شمس الدين كرت" يقيم فى قلعة "خيسار". ومن المعروف أن هذا الملك كان قد سجن ابنه الأكبر "فخر الدين"[1] بسبب تألمه منه وغضبه عليه. أما ابنه الأصغر "علاء الدين"، فقد أرسله إلى حضرة غـازان ليكـون ملازما له.

ولما كانت ولاية هراة قد خربت بسبب المتاعب والأضرار التـى نتجت عن عبور الجيوش، ولم يحدث فيها عمران، عطف غازان على الأهالى هناك، ولم يشق عليهم.

أما سكان فوشنج[2]، فلأنهم كانوا قد لجأوا إلى القلعة عندما وصلت إلى هناك جيوش العراق، ولم يقدموا المؤن المطلوبة، وشنوا الحـرب، غضب عليهم غازان بسبب تصرفهم هذا وأصـدر أمـرا بمحاصـرة

---

(١) انظر كتاب الشرق الإسلامى، ص٢٨٣.

(٢) فوشنج أو بوشنج: مدينة بينها وبين هراة عشرة فراسخ. وتقع فى واد كثير الشجر والفواكه. وهى تنتج العنب بأنواعه الكثيرة المتعددة. وأكثر خيرات مدينة هراة مجلوبة منها، وطواحينها كلها تعمل بالهواء. ومن هذه المدينة خرجت طائفة متميزة من أهل العلم. (معجم البلدان، ج٤، ص٤٥٣ – ٤٥٤؛ نزهة القلوب، ص١٨٨).

القلعة، واستولى الجنود عليها بمشقة بالغة، وأخرجـوا منهـا الـدواب والثيران والأغنام والمؤن الوفيرة، وأسروا أغلب السكان هناك.

وعندما غادرت الرايات السلطانية هراة، وصلت إلى فوشنج. وهنا عرض سكانها ضعف حالهم؛ فعطف عليهم غـازان، وأصـدر أمـرا بإطلاق سراح نسائهم وأطفالهم الذين كانوا قد أسروا، وطيب خاطرهم. ثم ركب بطالع السعد، وقدم ناحية رادكان. ولأن كيخـاتو لـم يرسـل أموالاً إلى جيش خراسان، احتشد هناك جنود كثيرون، وتعرضوا لكثير من المشقات والمتاعب؛ فصمم غازان على التوجه إلى كيخاتو، ليبـين له حقيقة الأوضاع مشافهة، ولكنه عدل عن عزمه، وقدم إلى "شتركوه".

ونظرا لانقطاع أخبار العصاة، ونفاد المؤن، استأذن جنود العـراق وآذربيجان فى الانصراف. ثم أمضى غازان الصيف فى شتركوه وشيد بها "جوسق مراد"، **[ص٢٧٨]** ولم يكن السلاطين قد أقاموا عمارة فـى تلك الجهات. وفى هذه الأيام وصل نبأ يفيد أن الأوغاد والسفلة (رنـود وأوباش) قد اجتمعوا، وقتلوا أولاد ملك زوزن(١)، وطائفة من عظمـاء تلك الولاية، واستولوا على إحدى القلاع؛ فصدر الأمـر بـأن يسـير الأميران سوتاى ومولاى للقضاء على هؤلاء المجرمين. وعندما اقتربا من القلعة، كان شاه على ابن ملك سجستان قد جاء من قهستان طمعـا فى الاستيلاء على "خواف"، وقام بحصار القلعة فداهمه الأميران فجأة،

---

(١) زوزن: بضم أوله وقد يفتح: كورة واسعة بين نيسابور وهراة ويحسبونها فى أعمال نيسابور. وهى نقطة مهمة فى نظام الطرق. ومن أعمالها مائة وأربع وعشرون قرية. وفيها بيت نار للمجوس. كانت زوزن تعرف بالبصرة الصغرى لكثرة من خرّجت من الفضلاء والأدباء وأهل العلم. (معجم البلدان، ج٣، ص١٥٨؛ بلدان الخلافة الشرقية، ص٣٩٨).

وقتلا أغلب أتباعه، وسطوا على أموالهم ودوابهم. غير أن شاه علـى خلّص نفسه بصعوبة بالغة، ولاذ بالفرار. وبعد ذلك أخضع الأميـران المقاتلين فى تلك القلعة، وقتلا المشاغبين ومثيـرى الفتنـة، واسـتمالا الرعية ثم عادا.

وفى شعبان سنة ٦٩١هـ / ١٢٩١م صدر الأمر باعتقـال "علـى عماد الدين" خطيب نيسابور الذى كان رجلاً عظيما، غير أنـه كـان يتدخل لصالح نوروز، وكثرة الحديث عنـه اعتمـادا علـى صـيته؛ فأحضروه من نيسابور وأعدموه. وفى ذلك الصيف لم تحـدث وقـائع تذكر. وعندما دخل الشتاء أمضاه غازان فى "سلطان دوين اسـتراباد". ثم أوفد الأمير نورين إلى سمنقان وشقان.

وفى أوائل الربيع أشيعت أخبار عن ظهور المتمردين، فتحركـت الرايات السلطانية إلى ناحية جرجان و"شهرك نو" و"مورجا بـاد". ثـم وصل الأمير "نورين" إلى حضرة غازان. وفى أوائـل شـهور سـنة ٦٩٢هـ / ١٢٩٢م رحل من هناك، ومكث عدة أيـام فـى "سـمنقان" وأرسل الجواسيس إلى مختلف النواحى. وقد اتضح أن الأنبـاء عـن ظهور المتمردين كانت كاذبة. ومرة أخرى راودت غازان فكرة العودة إلى ناحية آذربيجان. والسلام.

حكاية

توجه غازان إلى ناحية ألاتاغ[1] بقصد مقابلة كيخاتو

ثم عودته من تبريز وهزيمة نوروز

تشاور غازان مع الأمراء، وعقد العزم على الرحيل إلى آذربيجان وكلّف الأمير الكبير "قتلغ شاه" وبقية الأمراء بالمحافظة على خراسان ثم عاد من سمنقان. وكان فى حضرته الأمراء نورين وساتلمش وسوتاى؛ الذين دخلوا عن طريق "شهرك نو" ومازندران. كذلك قدم إلى حضرة الأمير قتلغ شاه، وسار حتى موضع "تميشه" حيث يقيم غازان. وفى هذه البلدة تزوج الأمير قتلغ شاه من ابنة "جيرغوتاى"، وعاد بعد ذلك. أما الرايات السلطانية فقد سارت من تميشه حتى شوريل من نواحى مازندران؛ حيث كان المعسكر المعظم. وقد قطع غازان فى ليلة واحدة ما يقرب من واحد وثلاثين فرسخًا. وحدث أن أحد زعماء مازندران خاف ولم يحضر إلى الحضرة؛ فاتهم بالتمرد. ولكن غازان لم يعبأ بذلك وعقد العزم على الرحيل إلى العراق وآذربيجان، وسلك طريق "شاه دز" متجها إلى "فيروزكوه" وأقام عدة أيام فى دماوند. ومن هناك عهد إلى الأمير "ساتلميش" والخواجه سعد الدين بتحصيل أموال خراسان ومازندران وقومس والرى وإدارة شئون تلك المناطق والمحافظة على الولايات وتعيين مؤن الجند. ثم توجه

---

(١) ألاتاغ: تكتب أيضًا "ألاطاق". وفيها تكثر المياه، وتجود مزارع العلف، وتتعدد مناطق الصيد. وقد أقام فيها أرغون خان قصرًا كان يمضى فيه أكثر أيام الصيف. (نزهة القلوب، ص١١٨).

غازان إلى تبريز، وكان نورين آقا يرافقه. وقبل ذلك سير "يغميش" إلى كيخاتو للإعلام بوصوله، ثم عاد إلى منطقة أبهر، وصرح بقولـه: "إن كيخاتو يتساءل: ما الداعى إلى مجىء غازان؟!... كان ينبغى أن يعود إلى خراسان، وأن يرسل جماعة من قِبله لإنجـاز المهمـات، وتقـديم الملتمسات. فكان رد غازان: "حيث إننا وصلنا إلى هنا، كيـف نعـود، دون أن يرى الواحد منا الآخر؟!... ".

وعلى هذا توجه غازان إلـى تبريـز، وسـير الأميـرين "إلادو" و"مولاى" لتصريف المهمات وتوجه هو إلى تبريز. وعند قنطـرة زره **[ص٢٨٠]** وصل إلى الحضرة السادة: نجيب وعنبـر وريحـان مـن خواص أرغون خان وعندما وصل غازان باليمن إلى تبريز، مكث عدة أيام. وكان رسل كيخاتو يصلون تباعا كى يعود غازان. وفـى نهايـة الأمر وصل "كمجو" و"باردو"، وصرحا لغازان بقولهمـا: "إن كيخـاتو يأمرك بالعودة أيضا فى نفس هذا اليوم. وقد أرسل إليك هدايا قليلة. فلم يلتفت إليها غازان، ورد عليهما قائلاً: "حيث إن كيخاتو لا يريد لقاءنـا فنحن أيضا لا نريد لقاءه مائة مرة".

بعد ذلك غادر غازان تبريز بطالع السعد، وأقام فى "يـوز آغـاج" حيث تزوج من "آشيل خاتون" ابنة الأمير "توقتمور". وهناك أقام حفـل الزفاف. وقد وصل إلى الحضرة الأمير "محمد ايداجى" الذى كان على رأس إمارة إصفهان، فقدم الهدايا اللائقة، وحظـى بـأنواع الرعايـة والتكريم، وصار ملازما لغازان".

وبعد شهر توجهت الرايات السلطانية إلى خراسان. وفـى مدينـة "أبهر"[1] تقدم إلى الحضرة الخواجة[2]...، وطائفة من الرسل الذين كان أرغـون خان قد أرسلهم إلى حـضرة القـا آن[3] لإحضـار إحـدى قريبات بلغان خاتون الكبرى كى يتزوج منها،[4] فجاءوا بـ "كوكاجين خاتون" مع هدايا أخرى خطائية وصينية تليق بالملوك. وكان غـازان مقيما فى "أبهر" فتزوج من "كوكاجين"[5]. وبعد إتمام مراسم الزفـاف، أرسل إلى كيخاتو هدايا، كان من بينها ببر وعدة أشياء أخرى.

بعد ذلك سار إلى ناحية دماوند. وعندما نزل عند حدود فيروزكوه، وصل رسل الأمير قتلغ، وبشروه قائلين: "لقد حاربنا (نوروز)، فاندحر، وفر منهزما وراجلاً إلى جبال نيسابور. وقد استولى جنودنا على كـل الأموال والدواب والخيول المحملة بالأدوات والثياب. وعلى أثر ذلـك تحركت الرايات السلطانية إلى دامغان وبسطام. وإلى بسـطام وصـل الأمير قتلغ شاه والأمراء فأنعم عليهم غازان بالغنائم التـى غنموهـا، واختصهم بأنواع الرعاية والتكريم **[ص٢٨١]**. ومـن هنـاك دخلـوا جرجان عن طريق خرمابه.

---

(١) أبهر: مدينة مشهورة بين قزوين وزنجان وهمذان من نواحىالجبل. (معجم البلدان، ج١، ص٨٢).

(٢) هكذا فى المتن.

(٣) المقصود به قوبيلاى قا آن الذى كان يحكم فى مدينـة بكين عاصمة الصين (انظر جامع التواريخ تأليف رشيد الدين فضل الله الهمذانى: تاريخ خلفاء جنكيز خان من اوكتاى قا آن إلى تيمور قا آن الترجمة العربية، ص٢٣٦ وما بعدها؛ إمبرطورى صحرا نوردان، تأليف رنه كروسيه ترجمة عبد الحسين ميكده، ص٤٨٧ وما بعدها جاب سوّم، تهران ١٣٤٨هـ.ش).

(٤) انظر الشرق الإسلامى فى عهد الايلخانيين (أسرة هولاكوخان) ص١٩٧ ـ ١٩٩٩.

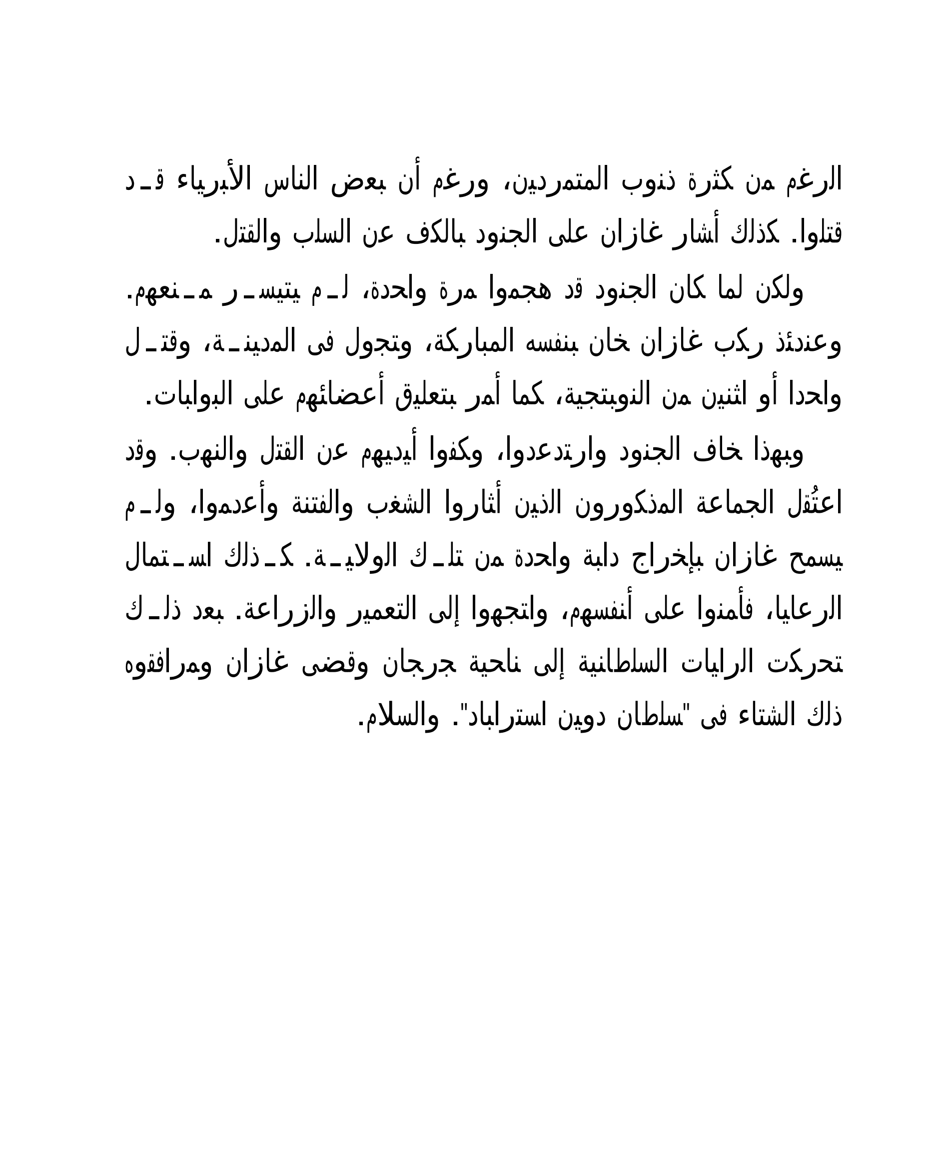
(٥) لأن أباه أرغون كان قد توفى.

بعد ذلك نزل غازان "بسلطان دوين استراباد"، وصار يمارس ضروب المتعة والصيد. وبسبب إفراط الأمير قتلغ فى الشراب، اعتراه مرض شديد؛ فلازمه الأطباء وفقًا للأمر الصادر إليهم، حتى استرد صحته، وصارت كما كانت من قبل. ومنذ ذلك الوقت أقلع عن الشراب. وحتى وقتنا هذا لم يحتس الشراب أبدا.

أما عن "كيا صلاح الدين" فقد تحاشى مقابلة غازان عندما حل هو ومرافقوه بولايته وهم يقصدون آذربيجان. وبعد أن عاد غازان من تبريز، ومثل بين يديه "كيا صلاح الدين" فى الرى وتشفع له الأمراء الآخرون، عفا عنه. ولكنه عندما عاد إلى ولايته، رجع إلى العصيان مرة أخرى؛ فكلف غازان الأمير "سوتاى" بالقضاء عليه، فذهب هذا، وأعدمه وأحضر من هناك مالاً وفيرا ودواب عديدة، فوزعها غازان على الجنود. وفى ذلك الشتاء كانوا فى مازندران، ولم ترد أخبار من أية ناحية.

بعد ذلك تحرك فى الربيع إلى ناحية دماوند، ثم سار عن طريق "جهار ديه"، ومكث شهرا فى دامغان. ثم غادرها إلى فيروزكوه عن طريق "سلطان ميدان". وأمضى الصيف فى دماوند. ومن هناك أرسل قائدين من قواد الجيش هما مولاى وهورقداق إلى خراسان فأبلغاه نبأ يفيد أن أهل نيسابور ينوون الخروج عن الطاعة، وليسوا مشغولين بالرحيل، فلم يعبأ غازان بذلك. ومن غاية لطفه الفطرى، سير الرسل منذرين بالوعد والوعيد. ولكن دون جدوى؛ فتحرك بنفسه إلى تلك الجهة، ووصل إلى هناك فى ذى القعدة سنة ٦٩٣هـ/ ١٢٩٣م، ونزل

فى "مويدى". ثم أرسل الخواجه سعد الدين إلى المدينة ليحـذر أهلهـا فاستطاع هذا بنصائحه ومواعظه أن يعيدهم إلى جادة الصواب، لأنـه ليس من المستساغ أن يقتْل الأتباع المخلصون القدماء بواسطة جـرائم حفنة من المفسدين. وعندما ذهب الخواجه سعد الدين إلى المدينة تقـدم إليه القاضى صدر الدين والبهلوان عمر وأعيان نيسابور وقالوا: "نحن نفكر فى أرواحنا. فإذا تعهد الخواجه بأن يعطينا الأمان، فإننـا سـوف نخرج **[ص٢٨٢]**، ونؤدى فروض الطاعة. فقبل الخواجه أن يعـرض الأمر على الأمير غازان وقال لهم: "سوف أعمل ما فى وسعى حتى لا يصيبكم أذى. كذلك خرج من المدينة القاضى صدر الـدين والبهلـوان عمر مع طائفة من السكان، وتقدموا إلى الأمراء الكبار فأرسلوهم إلـى الحضرة. وكان غازان قد رحل من "مويدى" وحل بنيسابور، وصـرح قائلاً: "لن ندمر ملكنا ورعيتنا بسبب حفنة من الغوغـاء؛ فينبغـى أن يسلموا طائفة المفسدين ومثيرى الفتن وهم: فخر الدين الريس وحسـام الدين أيبك الخطائى، أبو بكر على عايشه وعثمان مشكانى ومحمد عبد الملك. وعلى السكان أن يؤدوا الخراج بصدق وأمانة؛ حتى نعود مـن هنا فى أمن وسلامة. ولكنهم ماطلوا فى تسليم تلك الجماعـة. وصـدر الأمر بمحاصرة نيسابور فلجأ أهلها إلى مسجد حصين، ودخل الأمراء عليهم، كل منهم من ناحية. ولما طوقهم الجنود، عجزوا عن المقاومـة بسبب خوفهم وفزعهم. ثم نهب الجند الأحياء والأزقة وقصدوا المسجد، ونقبوا عدة أماكن فيه، وتسلقوا الجدران؛ فصـاح هـؤلاء المسـاكين، وطلبوا الأمان. فصفح غازان عنهم لفرط رأفته وشفقته. وذلـك علـى



الرغم من كثرة ذنوب المتمردين، ورغم أن بعض الناس الأبرياء قـد قتلوا. كذلك أشار غازان على الجنود بالكف عن السلب والقتل.

ولكن لما كان الجنود قد هجموا مرة واحدة، لـم يتيسـر مـنعهم. وعندئذ ركب غازان خان بنفسه المباركة، وتجول فى المدينـة، وقتـل واحدا أو اثنين من النوبتجية، كما أمر بتعليق أعضائهم على البوابات.

وبهذا خاف الجنود وارتدعدوا، وكفوا أيديهم عن القتل والنهب. وقد اعتُقل الجماعة المذكورون الذين أثاروا الشغب والفتنة وأعدموا، ولـم يسمح غازان بإخراج دابة واحدة من تلـك الولايـة. كـذلك اسـتمال الرعايا، فأمنوا على أنفسهم، واتجهوا إلى التعمير والزراعة. بعد ذلـك تحركت الرايات السلطانية إلى ناحية جرجان وقضى غازان ومرافقوه ذلك الشتاء فى "سلطان دوين استراباد". والسلام.

[ص٢٨٣] **حكاية**

خضوع نوروز، ودخوله فى طاعة حضرة غازان مرة أخرى، وإقامة الولائم والحفلات وتقديم الهدايا

فى أوائل المحرم سنة ٦٩٤هـ / ١٢٩٤م، وصل غلام "نوروز" موفدا من قبله إلى غازان خان، وذكر أن "نوروز" يقول: "إننى عبد وابن عبد قديم. ولكن بسبب افتراء الجنيثين من الناس وبهتانهم شردت نفسى عن الخضوع للحضرة؛ فإذا عطف علّى غازان، وصفح عن ذنبى، وعفا عنى، وتناسى جرمى؛ فإننى سوف أتوجه إلى الحضرة ثم أرحل على أن أقوم بتنفيذ شروط العبودية.

ونظرا لكمال شفقة السلطان وعدله، تجاوز عن ذنوب نوروز وقبل عذره. كما شرفه بأجوبة سلطانية كريمة. وفى نهاية الرسالة التى عرضها "ساتلمش" على غازان، جاء فيها: "إذا تلطف السلطان، وأرسل جندا على سبيل المدد إلى منطقة "مروجوق"، فإن العبد سوف ينضم إليهم بعد مفارقته هذه الجماعة. وإذا تعقبهم أحد، فسوف يكونون مددا للقضاء عليه؛ وذلك حتى أنال شرف العبودية بفضل إقبال السلطان. فأجاب السلطان غازان: "حيث إنه الآن فصل الشتاء وليست هناك أخبار واردة من الأطراف والجوانب، فإننى سوف أتحرك بذاتى المباركة إلى تلك الجهات باسم الصيد". ثم خص ساتلمش بأنواع التكريم والرعاية، وقفل راجعا.

وكان جواب الرسالة هو أنه ينبغى على نوروز أن يكون عند كلمته. ثم سار السلطان باليمن والبركة. وكان فى ركابه الأميران

الكبيران: نورين وقتلغ شاه آقا. وعندما بلغ ولاية "يازر" فى موضـع "كوشك"، ووصل من قبل نوروز أخوه "حسين حـاجى" وايحيـل بـن جاردو بهادر لنفس الغرض الذى كان ساتلمش قد جاء من أجله شملهما الأمير النجل بعطفه. ثم سار من هناك حتى سرخس. وبعد أن استراح، رحل متخذًا طريق "دالان قودون".

وعندما خرج الجمع من بين الجبال **[ص٢٨٤]** والتلال، وظهـرت فى صحراء مرو وشبورغان الديار والخيام والدواب، صدر الأمر بأن يتفحص أمرهم "باوداى" الذى كان أميرا للمشرفين على تعبئة الجيوش. وقد عاد بعد مدة ومعه ساتلمش غلام نوروز، فعرضا معا على غازان قائلين: إن نوروز قد نزل هناك ينتظر وصـول الرايـات السـلطانية؛ فوقف السلطان فوق ربوة فما كان من نوروز والأمير النجل طغان إلا أن أسرعا، فوصلا إلى الحضرة، وتشرفا بلقاء غـازان. وقـد مكـث السلطان ثلاثة أيام فى تلك القرية، وأقيمت الولائم والأفراح.

ولما كان العمار بعيدا والشراب قليلاً، أمر السلطان بـأن يقيمـوا مراسم الصلح بتبادل كئوس الماء. وهناك أمر بإقامة ناد يطلـق عليـه المغول اسم "اوبا". وعفا عن ذنوب نوروز وخصه بـأنواع الرعايـة والتكريم. ثم عاد إلى ناحية "مروجوق"، وساروا إلى طريق "شاخ". وقد اعترى "نورين آقا" ألم شديد جدا فى قدمه، وتحمل فى تلـك الرحلـة مشقة بالغة. وقد انضم إلى الحضرة أمراء جيش القراونـة "توغـاى" وآخرون. ثم رحل غازان عن طريق "اندخوى"، وتشرف بالمثول بـين يدى الحضرة أبناء عمر أغل ايكو وآخرون. ثم سـار إلـى طريـق

فارياب، واشتبكت طلائعه بطلائع المتمردين، وقتلت مـنهم كثيـرين، وقبض على بعضهم وسيقوا إلى الحضرة. وعندما سئلوا عن الأحوال، ذكروا أن جيش المتمردين يوجد فى فارياب وجوزجانه. وعندما نـزل بفارياب ترك المتمردون الخزائن والأمتعة والجنـود الـذين عجـزت دوابهم عن السير هناك.

بعد ذلك تحرك غازان إلى ناحية شبورغان حيث الطريـق مقفـر للغاية، ولا ماء فيه. وأخيرا وصل ليلاً بالقرب من تلك المنطقـة فـى موضع "اينجكه سو" وأمر بألا يشعل أى مخلوق نـارا حتـى لا يعلـم المتمردون بوجودهم، وأن يهـاجموهم فجـأة عنـد الصـباح. فعلـم المتمردون **[ص٢٨٥]** أن الرايات السلطانية قد وصلت إلى فاريـاب، فعادوا وخرجوا إلى طريق صان وجريك. ثم نزل الجـيش المنصـور عند وادى نهر شبورغان. وصدر الأمر بأن يتعقب المتمردين الأمراء الكبار قتلغ شاه والآخرون، وأقامت الرايات السلطانية فى تلك المناطق. وأما جنود القراونة الذين كانوا قد التجأوا إلى أماكن حصـينة خشـية المتمردين فإنهم قدموا جميعا إلى الحضرة. ثـم سـاروا إلـى ناحيـة سرخس بناء على الأمر الصادر إليهم. هذا على حين أن الأمراء الذين كانو قد تعقبوا العصاة فى مناطق جبل "صان" و"جريك" قـد أدركـوا هؤلاء المتمردين فى أوائل ربيع الأول سنة ٦٩٤هـ / ١٢٩٤م وشنوا عليهم حربا شعواء، وهزموهم، وقتلوا منهم كثيرين، ثم وصل هـؤلاء الأمراء إلى الحضرة ومعهم أسرى كثيرون، وغنائم لا حصر لها.

وقد أقاموا عشرين يوما فى تلك المناطق. وشرع جميـع الجنـود الذين كانوا مرافقين للحضرة فى نقل الغلال من المخـازن، وصـاروا

يأكلون منها ويطعمون دوابهم. ونظرا لكثرة هذه الغلال لم يظهر نقص فيها.

وفى تلك الأيام انضم نوروز أيضا إلى الحضرة. وبعد ذلك رحـل غازان من هناك. فلما وصل هو ومرافقوه إلى "فرامرزان" كان هنـاك الأمير النجل "طوغان"، وأهل نوروز؛ فأقاموا الولائم والاحتفالات عدة أيام، وأحضروا هدايا محدودة، وقدموا مراسم الخدمات من كل نـوع. ومن هناك تحرك غازان ومرافقوه عن طريق "سرخس"؛ حتى إذا بلغوا "قراتبه" وصل "بوغداى ايوداجى" من لدن كيخاتو، وأطلعه على مخالفة بايدو والأمراء لكيخاتو، فلم يعبأ بهذا.

بعد ذلك استأذن نوروز، وعاد إلى دياره بناحيـة "بـادغيس". ثـم توقفت الرايات السلطانية عدة أيام، وسـارت عـن طريـق "ازجـا" و"شوكان". وعندما وصلت إلى وادى "جز" عزمت على المسـير إلـى "مرج رادكان" لتصطاد طائر الحجلة كذلك وصل من قبل بايدو المدعو قتلغ شاه وطائفة من الرسل وعرضوا على غازان أخبار النزاع بـين كيخاتو وبايدو، وقالوا إن جميع الأمراء كبيـرهم وصـغيرهم وأفـراد الأسرة الحاكمة وخواتين الأمراء **[ص ٢٨٦]** قد اتفقوا على أن يسـير أمير العالم إلى تلك الناحية، ويجلس على عرش السلطنة التى يستحقها إرثًا واكتسابا. ولكن الأمير النجل لم يعر ذلك اهتماما، وأعاد جماعـة الرسل. ثم تشاور مع الأمراء الكبار، وأرسل رسولاً لاستدعاء نوروز ثم أقام عدة أيام فى "رادكان" و"جشمة كلسب". ثم قدم ومن معـه إلـى "خبوشان". وغادرها بعد عدة أيام. وعندما نزل "بدوير" لحق نـوروز بالحضرة.

ولأن العتاد وأغلب الجنود والأمير النجل "سوكا" الذى قدم من قِبل كيخاتو كانوا فى مازندران، استقر الرأى المبارك على أن يذهبوا إلى "سلطان دويك". ومن هناك يقصدون العراق وآذربيجان. ثم قدم غازان إلى "شهرك نو" فى جرجان، ونزل فى سلطان دوين استراباد. وفى المعسكر المعظم انهمكوا فى إقامة الولائم والأفراح واللهو والأنس. ثم أرسل أورايتمور ايداجى إلى بايدو قائلاً له: "إننا سوف نصل على الأثر". والسلام.

حكاية

توجه غازان من خراسان إلى العراق العجمى ومحاربته بايدو فى منطقة هشترود وقربان شيره

تحرك غازان خان – باليمن وطالع السعد – من "سـلطان دويـن" قاصدا العراق وآذربيجان. ثم قدم عن طريق "جهار ده" إلى دامغـان. بعد ذلك أراد أن يتجول فى قلعة "كردكوه". لكن الأمـراء قـالوا: لأن أمامنا عملاً خطيرا ليس من المناسب الآن التفاؤل بولوج القلعة. ثم أمر بأن يغادر القلعة أبناء تاج الدين الذين كانوا حراسا عليها، وذلـك مـع نسائهم وأطفالهم **[ص ٢٨٧]**. وقد سلم مفتاح القلعة للخواجة سعد الدين حبش، وعهد إليه بالمحافظة عليها.

وعندما قدم غازان إلى سمنان، وصل "اوردوبوقا" موفدا من قبـل كيخاتو، ومعه عدة أحمال من أوراق النقد "الجاو"[(١)] والأدوات الخاصة به من الورق الأبيض والأختام وغير ذلك. فقال غازان خان: "إنـه لا بقاء للآلات الحديدية والأسلحة فى مازندران. وما جاورها من مناطق بسبب جوها الشديد الرطوبة؛ فكيف يمكن أن يبقى فيها الورق دون أن يتلف"؟!.... وأمر بإحراقه تماما. ثم قدم من هناك إلى طهـران عـن طريق فيروزكوه حيث تشرف "بـورالغى" وأمـراء العـراق بلقـاء الحضرة. ولما بلغوا موضع "خيل بزركـ" قـدم ثانيـة "أورايتمـور

---

(١) انظر مزيدًا من التفصيلات عن التعامل بهذا النوع من العملة الورقية فى كتاب "مجموعة مقالات عباس إقبال آشتيانى، شامل يكصد ويك مقاله بامقدمه وتصحيح آقاى دكتر محمد دبير سياقى بعنوان "جاو – جاب – اسكناس"، ص ٣٣٧ – ٣٣٤، تهران ١٣٥٠هـ.ش، الشرق الإسلامى، ص٢١٣ وما بعدها).

ايداجى" من قبل بايدو وعرض قائلاً: "إن بايدو قد رجع فـى كلامـه، وظهرت فى رأسه الرغبة فى السلطنة. وقد أثار الأمـراء "طغاجـار" و"قونجقبال" و"دولاداى" وغيرهم الفتن، وأراقوا دماء أوردوقيا وجوشى وغيرهما. وبسبب خوفهم من حضرة غازان ووحشتهم منـه، اتفقـت كلمتهم جميعا على توليه بايدو الحكم، وهم يفكرون فى إثـارة الفـتن والشغب.

ولما لم يكن غازان خان يفكر فى مخالفة بايدو، لم يحضـر معـه جنودا كثيرين، ولم يصطحب الفرقة المدرعة بأسلحة الحرب إلى حـد أنهم تركوا هناك الطوق المبارك والطبل الخاص. وقـد تشـاور مـع الأمراء. وبدافع الشجاعة السلطانية، لم يلتفت إلى ما قالوه. ثم أرسـل مولاى ويغميش برسالة إلى بايدو يقول فيها: "إننا سوف نصـل بـذاتنا المباركة. فأين نتقابل الواحد منـا مـع الآخـر؟!.... ثـم اسـتدعى "اوركاوك".

وعندما قدم باليمن إلى "آق خواجه" من منطقة قزوين، وصل إلـى الحضرة "شادى كوركان" الذى كان قد أرسله بايدو والأمراء فتحـدث بشتى الأقوال التى يتكلم بها أصحاب التخليط والتمويه. وفحـوى هـذه الأقوال التى جاءت على لسان بايدو: "إنه لم يكن لى تفكير ولا رغبـة فى الحكم. ولكن نظرا لبعد الأمير النجل غازان، وقعـت **[ص ٢٨٨]** الفتن والقلاقل بين الرعية. ولهذا السبب اتفق أفراد الأسـرة الحاكمـة على أن أعتلى العرش. والحالة هذه فإن الأمير النجل سوف يجاب إلى كل ما يطلبه. وليس فى ذلك مجال للمضايقة. ولكن ينبغـى أن يعـود غازان من حيث أتى"، غير أن هذا الأمير لم يعبأ بـذلك وسـار فـى

طريقه. فلما وصل إلى "قونقور أولانكـ"، قدم مولاى ويغميش، وأخذا يتحدثان بمثل هذا الكلام المزخرف. وفى نفس ذلـك اليـوم انفصـل "ناولدار" عن بايدو، ووصل إلى حضرة غـازان، فشـمله برعايتـه، واختصه بأنواع العطف والتكريم. ثم رحل غازان من هناك ونزل فـى طريق "رباط مسلم". ثم استدعى "شادى كوركان" ورسل بايدو، وأنـبهم تأنيبا شديدا لدرجة أن شادى كوركان يئس من حياته. بعد ذلك أرسـل غازان رسائل شديدة اللهجة بخصوص تولى بايدو الحكم.

وفى الوقت الذى ذهب إلى هناك مولاى ويغميش، تفوه ايلدار - فى حالة سكره - بكلمات قال فيها: لقد اتفقنا نحن أفراد الأسـرة الحاكمـة على أن نولى بايدو مقاليد الحكم. فإذا لم يتفق معنا الأمير النجل غازان فى هذا الرأى، فإن الخصومة تقع بيننا.

وأخيرا أذن للرسل فى العودة. ثم كلف الأميرين الكبيرين: نـورين وقتلغ شاه باستعراض الجنود والتفتيش عليهم. وعلى الفور أرسل "ايسا بوقا" الكاتب برسالة إلى بايدو قال فيها: "نحن سوف نصل". وعلى أثر ذلك سلك طريق "توكاتو". ثم عبر "سفيد رود"[1]. وفى اليـوم التـالى الثلاثاء غرة رجب سنة ٦٩٤هـ / ١٢٩٤م الموافق الثانى من شـهر "شون آى" وصل إلى بايدو نبأ وصول الأمير النجل غازان، فأرسل فى الطليعة الأمير النجل ايلدار والأميرين ايلجيداى وجيجك. وأما من هذا

(١) "سفيد رود" أى النهر الأبيض. تسقى روافده الكثيرة نواحى آذربيجان الجنوبية الشرقية. ويؤلف معظم مجرى هذا النهر الحدود الفاصلة بين آذربيجان وإقليم الجبال. ويصب أخيرًا فى بحر قزوين بعد مروره بإقليم جيلان. (بلدان الخلافة الشرقية، ص٢٠٣).

الجانب (المقصود به غازان) فكان على الميسرة الأميـر قتلـغ شـاه ونورين آقا، ووقف فى القلب الأميـر النجـل "سـوكا" و"بـورالغى" و"نوروز" والأمراء الآخرون الذين كانوا فى حضرة غازان.

وعندما اقتربوا من بايدو، أوفدوا أمامهم بوقداى اختاجى وتحـدثوا فى كل أنواع الكلام عن الصلح والمودة، وضرورة مراعاة صلة الرحم بين أفراد الأسرة الحاكمة، غير أن غازان لم يلتفـت إلـى ذلـك **[ص ٢٨٩]**، والتحم الجنود من الطرفين بعضهم ببعض. وكان الأمير قتلـغ شاه فى المقدمة كالطود الثابت. ولما كان الأمير النجل "ايلدار" قد تفوه بكلام خطير اقتضى رأى غازان العالى المبادرة بتأديبه.

ولم تكن قد قرعت بعد طبول القلب إيذانًا ببدء المعركة، وقبـل أن يتحرك جنود القلب من جانب العدو، هاجمهم الأمير قتلغ شاه، ودحرهم بحملة واحدة؛ بحيث إنه عندما وصل الخبر إلى القلب فى جيش العدو، كانت الهزيمة قد حلت به، وقتل منه ما يقرب مـن ثمانمائـة جنـدى، وانهزم الباقون. وقتل "تغاى" نائب "ايلدار". ثم أحضر "أرسلان أوغول" إلى الحضرة مترجلاً، وطلب أن يهجم جنود خراسـان دفعـة واحـدة ليستأصلوا شأفة أعدائهم ويفنوهم. ولكن غازان حال دون ذلك مـدفوعا بما فطر عليه من رحمة، وقال: إن هؤلاء الجنود جميعهم عبيد آبائنـا وأجدادنا. وإذن فكيف نقتلهم بسبب حفنة من المشاغبين ومثيرى الفتن؛ هم أولئك الذين ولوا "بايدو" الحكم؟... غير أن نوروز وبقية الأمـراء صاروا يبالغون مصرين على أنه ينبغى اغتنام الفرصة. فما كان مـن غازان إلا أن صاح فيهم ونهرهم فالتزموا السكون.

وعندما اعتقل "أرسلان أغول"، وسيق إلى غازان، قال ابـن عـم بورلتاى: "بما أن "أرسلان" سل السيف فى وجوه عبيد الدولـة، فـإنى سوف أقتله لو أذن لى السلطان بذلك غير أن غازان لم يلتفت إلى هـذا القول. ثم أمر بأن يحضروا من خزائنه الخاصة قباء وقلنسوة ومنطقـة (حزاما) وحذاء، وألبسوا الأسير هذه الأشياء، وأركبوه جوادا مخصـيا من جياد الخاصة. كما أمر بإحضار جرحى المعركة، وصـار يضـع المرهم على جروحهم، وكان يسقيهم الأدوية المذابة فى الشراب. فـلا جرم أن الحق تعالى وضع أطراف الممالك وأكنافها فى قبضة سلطنته جزاء وفاقا لتلك العاطفة وهذه الرحمة.

ولما رأى بايدو وأمرؤه أن "ايلدار" و"توكال" اللـذين همـا أشـجع رجالهم قد هزما، عرفوا أنهم لا طاقة لهم بمقاومـة أعـدائهم فسـلكوا طريق المسالمة والشفاعة، وجاء بايدو وسط ميدان المعركـة، ووقـف على قمة ربوة مع الأمراء: طغاجار ودولاداى وقونجقبال.**[ص ٢٩٠]** ومع أن سلطان الإسلام قد خذلهم وهزمهم، تجشم السير إليهم. وكـان الأمراء نوروز ونورين وقتلغ شاه وسوتاى ملازمين للحضـرة. وقـد اتفق الجانبان على اللقاء، وسأل بعضهم بعضا وقالوا: "ينبغى أن يعقـد بيننا عهد وميثاق نتعهد فيه بألا يؤذى بعضنا بعضا. فصاح الأمراء من هذا الجانب (جانب غازان) قائلين: ينبغى أن نحسم أولاً أمـر الملـك والسلكنة. وبعد ذلك يبرم العهد والميثاق.

والخلاصة أنهم أحضروا الشراب، واحتسوه فـى الكئـوس. أمـا المسلمون منهم فتصافحوا وأقسموا بألا يفكروا فى الإساءة بعضهم إلى البعض. ثم قالوا: غدا يتقرر أمر الحكم والسلطنة. ولما كان النهار قـد

انتهى، وآذن بالمغيب، عاد كل منهم إلى مقره. وفى تلك الأثناء انفصل عن بايدو أفراد أسرة الخاتون المعظمة "بولوغان خاتون" منهم الشـيخ "هورقاسون" وجمع آخر، وانضموا إلى الحضرة. ولما كان جنود بغداد وموغان قد اقتربوا كان بايدو يرسل إليهم الرسل تباعا لاستدعائهم أثناء المفاوضات وكان الأمراء يصلون مع جنودهم لحظـة بعـد أخـرى، فظهرت لهم شوكة كبيرة آخر النهار. وفى اليوم التالى سار الجيشـان حتى "قربان شيره" لمناوشة الواحد منهما الآخر. ثم دخل جيش السلطان غازان واديا ضيقًا يبلغ طوله فرسخًا. ولم يكن أمامه غير طريق واحد؛ فأسرع "توكاتو بهادر" مع ألفى فارس، واستولى على مدخل الـوادى. وكان قونجقبال يتبعه ليعاونه. فلما علم بايدو ذلـك، وعـرف أن هـذا التصرف يؤدى إلى الحرب، أوفد على الفور رسولاً يأمر أتباعه بفـتح الطريق أمام جنود غازان، ولا يمنعونهم من الخروج؛ فغضب قونجقبال من ذلك التصرف.

وصفوة القول أنهم نزلوا فى تلك الليلة بعضهم بجـوار الـبعض؛ بحيث إنهم كانوا يشربون من عين واحدة على الرغم مـن أن جميـع الجنود كانوا يمسكون بأعنة خيولهم مدججين بأسلحتهم، ولم يسـتريحوا فى تلك الليلة. وفى اليوم التالى الاثنين السابع من رجب، أخذ جمع من الساعين فى الصلح يترددون بين الجانبين.**[ص٢٩١]** وأخيـرا اسـتقر رأى الأميرين توقتيمور وسوتاى على أن يقام سرادق بـين الطـرفين على أن تحضر "توداى خاتون" التى يقع موطنها على مقربة من ذلـك المكان، وتعقد الصلح بين الطرفين. وفى تلك الأثناء قـدم "قنجقبـال"

وعرض قائلاً: "إذا كان الظفر من نصيب غازان، فإن الأمير "آقبوقـا" سوف يقضى علينا. ولهذا السبب قتلوه فى نفس ذلك اليوم.

وبعد حديث طويل تقرر أن يجتمع الأمراء وسط ميدان المعركـة، ويقر الطرفان بصواب وجهة نظر الطرف الآخر. وعلى هذا ذهب من هذا الطرف (أى غازان خان) الأمراء نوروز ونـورين وقتلـغ شـاه وتوقتيمور. ومن طرف بايـدو قـدم طغاجـار وقونجقبـال ودولاداى وصاروا يتناقشون حتى منتصف النهار. وكان جنود بايـدو يصـلون لحظة بعد أخرى فصارت تزداد قوتهم.

ولما رأى الأمراء ذلك، استقر رأيهم على أن يرسـل بايـدو إلـى حضرة الأمير النجل غازان المخيمات الخاصة بأرغون خان والخاتون المعظمة بولوغان واوروك خاتون والأمير النجل خربنده مع الأمـراء الأنجال الآخرين، وأن تُسلم له أمواله وخزائنه. ويكون لغازان أيضـا من الجانب الآخر مناطق "سفيدرود" والعـراق وخراسـان وقـومس ومازندران ونصف إقليم فارس مع كل أملاك الخاصة هناك. وعنـدما عرضوا ذلك الأمر على حضرة غازان، طلب أن يسـلموه طغاجـار أيضا مع عشرة آلاف من القراونة الذين هم مـن خاصـة أرغـون. وبموجب هذا الاتفاق ننهى الحديث عند هذا الحد ونعود. فأجاب بايـدو بحضور الأمراء قائلاً: "إن الأمير النجل غازان يعلم أن أرغون كـان يعتبرنى ابنًا له من صلبه، وكان يعين لكل ابن مشتى خاصا فى جهـة من الجهات فى صحبة أحد الأمراء. وكان طغاجار مـع عشـرة آلاف جندى من القراونة فى صحبتى دائما فى بغداد. وها أنا أقر ذلك حسب أمر أرغون خان، فإنه هو الحـاكم". وأخيـرا اسـتقر رأى السـلطان

والأمراء على هذا، وقالوا: "فلتسلم هذه المقررات لغازان حتى نعـود".
ثم أرسل بايدو "دولاداى" يحمل الطعام والشراب إلى الحضرة، فحظى بالإعزاز والرعاية، وناوله قدحا من الشراب.

بعد ذلك أشار السلطان غازان قائلاً: لنعد عن طريق "سياه كـوه"؛ غير أن بايدو والأمراء لم يرضوا بهذا الرأى. والسبب فى ذلك هو أن جيش القراونة كان مقيما هناك، فخافوا أن ينضموا إلى غازان خان إذا ما قر فى تلك الناحية **[ص٢٩٢]** فتحدث الفتنة مرة أخرى. ثم أوفـدوا "بولاد جينكسانك[١]" إلى الحضرة ليقنع غازان بالعودة من الطريق الذى قدم منه.

وفى اليوم التالى أرسل بايدو ابنه "قيجاق" مع طائفة من الأمراء إلى حضرة غازان لإبداء رعايتهم وإعزازهم له، ولتناول أقداح الشـراب، وليبلغوه أن بايدو يقول: "إن الأمير النجل قدم إلى هنا باليمن والبركـة، وتم الصلح والاتفاق بيننا. فإذا ما انصرفنا دون أن يرى الواحـد منـا الآخر، ولو للحظة، فسوف يظن القريب والبعيد أن الكدر لا يزال بيننا. وإذن فالأولى أن نجلس ساعة بعضنا مع البعض لنجدد عهد اللقاء، ثـم يعود الأمير النجل باليمن والبركة". ولإبلاغ هذا الالتماس، قدم أيضـا الأميران سوتاى وتوقتيمور عدة مرات. وأخيرا تقرر أن تعد دار ينزل فيها كلا الجانبين مع عدة أشخاص من خواصه، ويقابل الواحد منهمـا الآخر.

---

(١) كـان يعمـل سـفيرًا للخاقـان فـى بـلاط إيـران، ويتمتـع بمنزلـة كبيـرة بـين الايلخـانيين (انظر كتاب الشرق الإسلامى، ص٢١٣،٢٧٤).

وفى ذلك اليوم تودد السلطان غازان إلى "قيجاق اغـول" وشـمله بعطفه ورعايته، وخلع عليه، وأركبه جواده وأعاده. ثـم تشـاور مـع الأمراء نوروز ونورين وقتلغ شاه فلم يروا المصلحة فى هذا الاجتماع. كما أن المنجمين قالوا: "إنه يوم نحـس. فأرسـل غـازان "سـوتاى" وتوقتيمور إلى بايدو ليقولا له : "إن اليوم نحس حسب قول المنجمـين، وقد اقترب أيضا وقت الليل، وغدا صباحا سوف يقابـل الواحـد منـا الآخر. ثم كلف الأميرين نوروز وتوقتيمور بأن يقيما معه هذه الليلـة، على أن يذهبا فى الصباح إلى بايدو. وبعد ذلك يصرفان شئون الملـك، ويسيران الجنود. ثم رحل غازان ليلاً باليمن والبركة بعـد أن أوقـدوا النيران فى كافة البيوت، وسار فى طريقه حتى إذا حلّ الصباح كان قد عبر نهر "سبيدرود"، وانضم إلى الحضرة أمراء الجنـد الـذين كـانوا هناك. ثم خرج وسلك طريق "ديه منار"، وبات ليلته فى زنجان.

وفى اليوم التالى أرسل غازان "كورتيمور" من "مسلم" إلـى بايـدو ويقول له: "لقد سرنا إلى ناحية دماوند، وتركنا هناك الأميرين نـوروز وتوقتيمور فينبغى أن تكون عند كلمتك فتيسـير الجنـود والخـواتين، وتحسم أمر الملك بالمشافهة".**[ص٢٩٣]** ومن هناك مر غازان "بقونقور أولنكـ"، ووصل إلى موضع "كره رود" الذى يسميه المغـول "تركـان موران". وهناك وصل إلى الحضرة "كشهر بخشى"، وأبلغه رسالة بايدو التى يقول فيها: "كان من المتوقع أن نجدد عهد اللقاء، ونأتنس لحظـة بمجاورة الواحد منا الآخر. وحيث أن الأمير قد ارتحل فإن الصـلاح يكون فى ذلك. والآن ينبغى أن يفى كل منا بوعده". فأعـاد السـلطان غازان "كشهر بخشى" بصحبة إبراهيم شكورجى (سكورجى) برسـالة

إلى بايدو يقول فيها: "ينبغى أن تبرم الأمـور بأكملهـا مـع نـوروز وتوقتيمور وكورتيمور، وتعيدهم فى أسرع وقت". ومن هنـاك توجـه غازان إلى دماوند حيث أمضى الصيف.

وعندما رجع الأمراء: نوروز وتوقتيمور وكورتمـور، ظهـر أن بايدو قد أبدى أعذارا غير مقبولة فيما يتعلق بتصريف المهمات، وتدبير شئون الملك، وإرسال الخواتين والجنود، ولم يف بما تعهد به مما أثار غضب غازان؛ فأمر بأن يذهب الأمراء جميعا مـع جنـودهم لإعـداد العلف وتسمين الدواب.

أما عن حال نوروز ومن معه من الأمراء، فكان على هذا النحـو: عندما وصلوا إلى بايدو، والتمسوا إليه أن يصدر مرسوما بشأن الـبلاد والجنود والخواتين، توجس خيفة بسبب عودة السلطان غازان، فاعتقـل رسله. ثم أرسل قونجقبال ودولاداى وايلجيداى فـى المقدمـة لتعقـب غازان، وتحرك هو نفسه فى اليوم التالى. وفى يوم الأربعاء التاسع من رجب عبر غازان "سفيد رود". وفى يوم الجمعة الحادى عشـر قـدم "كورتيمور" برسالة. وكان الأمراء يتتبعون أثرهم حتى شـرويان، ثـم عادوا من هناك، واتصلوا ببايدو فى منطقة سجاس[1] ورحلوا فى يـوم الاثنين الرابع عشر من رجب حتى ربوة شرويان ثم عادوا من هناك.

---

(١) سِجاس أو سُجاس: بلدة تقع على بعد خمسة فراسخ غرب السلطانية، ويجاورها أكثر من مائة قرية أغلب سكانها من المغول. وكان فى الجبل المجاور لها قبر أرغون خان. وجريًا على عادة المغول أخفى هذا القبر. وكان الناس يجدون مشقة فى عبور تلك المنطقة إلى أن جاءت اولجاى خاتون فأظهرت قبر أبيها وأقامت هناك خانقاها للدراويش. (نزهة القلوب، ص ٦٩ – ٧٠؛ بلدان الخلافة الشرقية، ص ٢٥٨).

وأما عن بايدو فقد **[ص٢٩٤]** تشاور مع الأمراء فيما يتعلق بالتصرف فى شأن نوروز وتوقتيمور. فأجابوا جميعا: "لا يمكن أن نمسهما بسوء". ما عدا "توكال" الذى كان يسعى فى إراقة دم نوروز؛ إذ قال فى هذا الصدد: "إن نوروز هو الملجأ والظهير لغازان. وإذن فقتله يكون ضرورة لازمة". لكن طغاجار وأمراء آخرين لم يجيزوا ذلك بسبب صلات القربى والصداقة فعاد توكال مهموما لعدم الأخذ برأيه، ورحل إلى ولاية جورجيا "كرجستان" حيث موطنه، ولم يعد منها حتى حادث مقتل بايدو.

وعن موقف طغاجار فنظرا للعداء الذى يكنه له "توداجو" نفر من حكم بايدو. وكذلك الحال بالنسبة إلى "صدر الدين"؛ ويرجع سبب ذلك إلى أن منصب الوزارة لم يتيسر له فحقد على بايدو، وصار يحرض "نوروز" عليه، واتفق معه على مؤازرة غازان. كذلك أشار على نوروز بأن يتظاهر بالموافقة على ما يراه بايدو وأتباعه، وأن يبرم معهم عهدا على أى نحو يريدونه.

بعد ذلك شمل بايدو "نوروز" بعطفه. وأخيرا استقر الرأى على أن يعقد معه ميثاقًا يتعهد بموجبه بأن يرسل إليه غازان مقيدا[1]. وعلى هذا

---

(١) يقول بيبرس الدوادار فى كتابه زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة ج٩، ص٢٨٨ – ٢٨٩، تحقيق د. زبيدة محمد عطا المملكة العربية السعودية، بدون تاريخ: "لما استوثق نيروز من الأمراء الذين استمالهم، علم قازان بأمرهم، فتجهز للسير من خراسان، وبلغ بايدو خبره فأوجس خيفة منه، وذكر ذلك لنيروز، فقال له: أنا أكفيك أمره، وأدفع عنك شره، ومتى وجهتنى إليه ثنيت عنك عزيمته، وفرقت جماعته وأرسلته إليك مربوطًا، فاستحلفه أنه لا يخون عهده إذا فصل من عنده ثم سرحه؛ فسار إلى خراسان، وأخبر قازان بكل ما كان وخرجا معًا لقصد بايدو. وسارا طالبين الأردو. وأرسل نيروز فيه قدرًا مربوطة فى عدل. وقال: "قد وفيت بما قلت لك، وأرسلت قازان إليك مربوطًا بالوثاق، ولم أغيّر ما وقع به الميثاق.

سمح بايدو لنوروز بالعودة، وخصه بمزيد من الرعاية والتكريم. كذلك فوضت إمارة يزد من قبل بايدو إلى "سـلطان شـاه" نجـل نـوروز، وحررت له حوالة على يزد بعشرة آلاف دينار.

وفى يوم الثلاثاء الخامس عشر من رجب سنة ٦٩٤هـ / ١٢٩٤م أعادوا نوروز وتوقتيمور والرسل الآخرين. وفى اليـوم التـالى عـاد ايلجيداى الذى كان يتعقب غازان. ثم لوى بايدو العنان، وسار صـوب "سوغورلاق" وفى يوم السبت التاسع عشر من رجب نزل فى موطنـه الكبير بسوغورلوق. والسلام.

فغضب بايدو لرسالته، وتبينّ له مكره به من مقالته". انظر أيضًا الشرق الإسلامى فى عهد الإيلخانيين (أسرة هولاكو خان) ص٢٣٨.

حكاية

انشراح الصدر المبارك لسلطان الإسلام غازان بنور الإيمان واعتناقه الإسلام هو والأمراء بحضور الشيخ

زاده صدر الدين إبراهيم بن حمويه الجوينى

دامت بركاته

عندما يكون الله تعالى وتقدس قد أراد فى أزل الآزال أن يخلق عبدا سعيدا، ويختصه بأنواع التأييد، يجعل قابلية السعادة **[ص٢٩٥]** فى طينته وجبلته مخمرة ومركزة. وإن الألفاظ الدرية النبوية الدالة على تحقيق هذا المعنى، وتصديق هذه الدعوى لدليل واضح وبرهان ساطع. "السعيد من سعد فى بطن أمه"[١]. وبعد ذلك يربيه مربى العناية الربانية فى مهد التربية بيد العناية، ويوصله بالتدريج إلى مدارج الكمال، ويرشده بمرور الشهور إلى النظر فى حقائق الأمور حتى يتأمل فى أحوال الصور والمعانى، ويطلع بذلك على حقيقة كل شىء وبطلانه وتتحول آثار سعادته من القوة إلى الفعل بفضل ذلك التدبر والتفكر ويتحقق ظهور كل ما تقتضيه سر الحكمة الإلهية القائمة عليه إرادة تلك السعادة، وفقًا لنص القرآن الكريم: ﴿وكان أمر الله قدرا مقدورا﴾[٢].

---

(١) أخرجه البيهقى فى المدخل والبزار فى مسنده عن أبى هريرة. وجاء على هذا النحو: "السعيد من سعد فى بطن أمه والشقى من شقى فى بطن أمه". وسنده صحيح. وأخرجه الطبرانى فى الصغير مقتصرًا على "السعيد من سعد فى بطن أمه" (كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس، تأليف إسماعيل بن محمد العجلونى الجراحى، ج١، ص٥٤٨، حلب بدون تاريخ).

(٢) الآية بأكملها ﴿ما كان على النبى من حرج فيما فرض الله له سنة الله فى الذين خلوًا من قبل وكان أمر الله قدرًا مقدورًا﴾. (سورة الأحزاب آية ٣٨).

وبموجب هذه المقدمات، فإنه لما اقتضت عناية ذى الجلال ومشيئة الأزلى أن يتدارك الوهن والفتور اللذين قد تطرقا إلى أطـراف الملـة الإسلامية بتقلب الشهور والأعوام، وتعاقب الليالى والأيام على يد أحـد خواص العباد الذى يتولى حكم الأمصار والـبلاد. لـذلك جعـل ذات صفات غازان الملائكية مستعدة لفيض أنوار الهداية والإلهام الربانى.

ولما كان فى أوائل طفولته يتربى فى رعاية جده الأعظم آباقاخـان وكان ميالاً إلى طريقة الكهنة البوذيين، ومعتقدا معتقداتهم، عهد به إلى واحد أو اثنين من كبار الكهنة، وكلفهما بأن يجدا فى تعليمه إلى أقصى حد، وحثه على اقتباس مراسم طريقتهما. وعلى هذا كانـا يلازمانـه. ودائما كانا يواظبان على ترغيبه فى تلك الملة.

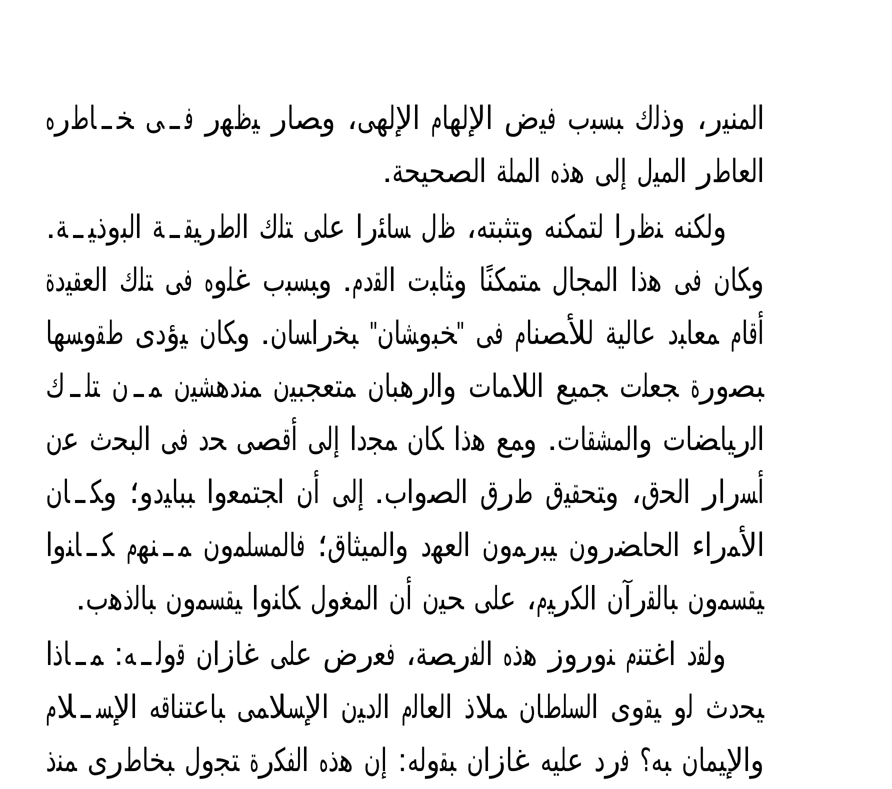
ولكن الأمير النجل لفرط كياسته ودهائه وفطنة ذهنه وذكائه اطلع - فى وقت قصير– على عيوب تلك الطريقة "عجرها وبجرها"[(١)]، ووقف على غوامض ودقائق أقوال تلك الطائفة وأفعالها وحاز درجة الكمـال؛ بحيث إنه صار متعمقًا إلى درجة كبيرة فى الطريقة البوذية[(٢)].

غير أنه بتأثير العناية الأزلية، صار ينظر بفكره الثاقب **[ص٢٩٦]** ورأيه الصائب إلى أسرار البوذية. كما كـان يتأمـل حقيقـة الأديـان والملل؛ فسطعت ولمعت أشعة أنوار الديانة المحمدية علـى ضـميره

---

(١) عُجر وبُجر: يقال عجره وبجره أى ذكر عيوبه وأمره كله ما أخفى منه وما أبدى. (المعجم الوسيط: ج٢ ص٥٨٥).

(٢) انظر دكتر شيرين بيانى (اسلامى ندوشن): دين ودولت در إيران عهد مغول، جلد دوم، حكومت إيلخانى: نبرد ميان دوفرهنگ، جاب اول، ص٤٤١ وما بعدها، تهران ١٣٧١هـ.ش.



المنير، وذلك بسبب فيض الإلهام الإلهى، وصار يظهر فـى خـاطره العاطر الميل إلى هذه الملة الصحيحة.

ولكنه نظرا لتمكنه وتثبته، ظل سائرا على تلك الطريقـة البوذيـة. وكان فى هذا المجال متمكنًا وثابت القدم. وبسبب غلوه فى تلك العقيدة أقام معابد عالية للأصنام فى "خبوشان" بخراسان. وكان يؤدى طقوسها بصورة جعلت جميع اللامات والرهبان متعجبين مندهشين مـن تلـك الرياضات والمشقات. ومع هذا كان مجدا إلى أقصى حد فى البحث عن أسرار الحق، وتحقيق طرق الصواب. إلى أن اجتمعوا ببايدو؛ وكـان الأمراء الحاضرون يبرمون العهد والميثاق؛ فالمسلمون مـنهم كـانوا يقسمون بالقرآن الكريم، على حين أن المغول كانوا يقسمون بالذهب.

ولقد اغتنم نوروز هذه الفرصة، فعرض على غازان قولـه: مـاذا يحدث لو يقوى السلطان ملاذ العالم الدين الإسلامى باعتناقه الإسـلام والإيمان به؟ فرد عليه غازان بقوله: إن هذه الفكرة تجول بخاطرى منذ زمن. عندئذ أخرج نوروز قطعة من اللعل المصقول النـادر، وركـع على ركبتيه وقال: "ولو أنه ليس للعبد سبيل إلى هذه الجرأة؛ بحيث يقدم هدايا لأبناء الملوك. ولكنى أطمع فى أن يتعطف السلطان على عبـده، فيحتفظ بهذه الهدية لحين عودتى من مهمتى ووصولى إلى الحضرة".

فلما قدم نوروز وبقية الأمراء من لدن بايدو دون أن ينجزوا مهمتهم غضب السلطان وصار يفكر فى تدارك الأمر. وهنا طرح نوروز تلك القضية مرة ثانية بحضور الشيخ زاده العظيم صدر الدين إبراهيم ابـن قطب الأولياء الشيخ سعد الدين حمويه - أعزه ا وقدس نفسه – وكان يلازم السلطان فى أغلب الأوقات، فيستفسر منه عن الدين الإسـلامى

وحقائقه، ويتباحث معه فى هذا الشأن، فينشرح صدره للإسلام[1]. ولقد كان نزول السكينة على صدره المبارك يقوى سطوع أنوار الإيمان فى ضميره، فيستولى عليه إمداد الهداية، فقال: حقًا إن الإسلام **[ص٢٩٧]** دين متين ومبين للغاية. ويحتوى على كل الفوائد الدينية. وإن معجزات - الرسول عليه الصلاة والسلام - لمؤثرة فى القلوب وباهرة وعلامات صحتها - على صفحات الـدهر– واضـحة وظـاهرة. ولا شـك أن المواظبة على أداء الفرائض والواجبات والنوافل تؤدى إلى الوصـول إلى الحق. وأما عبادة الأصنام فإنها عديمة الجدوى، وبعيدة كل البعـد عن العقل والعلم. وعند أصحاب الرأى والكفاية يكون وضـع الجبهـة على الأرض أمام الجماد محض جهالة وحماقة، ويبدو أيضـا - مـن وجهة نظر الحق - أمرا مكروها أمام الإنسان الذى هو سـيد الـروح والعقل. ولا يوجد أى إنسان كامل يرضى أن يضع جبهته على الأرض أمام الصنم. وعلى وجه الصدق، فإن صورة الصنم تليق بعتبة البـاب، يطؤها الناس بأقدامهم دون مشقة. ثم إن اتفاق كافة الناس على الإسلام وإنكار عبادة الأوثان، أمر مقطوع به، وليس فيه مجال للتأويل.

وصفوة القول فإن غازان خان نطق بكلمة التوحيد فى أوائل شعبان سنة ٦٩٤هـ / ١٢٩٤م بحضور "الشيخ زاده صدر الدين إبراهيم بـن حمويه"[2]،ومعه كافة الأمراء. وبهذا صار الجميع مسلمين. ولقد أقيمت

---

(١) الآيـة القرآنيـة: ﴿فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقًا حرجًا كأنما يصَّعَّد فى السماء كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون﴾ (سورة الأنعام، آية ١٢٥).

(٢) هو الشيخ الصوفى الزاهد والإمام الجليل صدر الدين أبو المجامع إبراهيم ابن الشيخ سعد الدين محمد بن المؤيد بن أبى بكر بن حموّيه الجوينى الشافعى. ولد سنة ٦٤٤هـ فى آمل بطبرستان، وتتلمذ على أكثر علماء عصره. وقد = رحل – فى

الولائم والأفراح، واشتغل الحاضرون بالعبادة. وشمل غازان برعايتـه جماعة السـادات والأئمـة والمشـايخ، وأجـرى علـيهم الإدرارات والصدقات. وفيما يتعلق بتعمير المساجد والمدارس والخوانق وأبـواب البر، بالغ فى إصدار الأحكام المتعلقة بهذه المؤسسات. وعنـدما حـلّ شهر رمضان، صار مشغولاً بالطاعة والعبـادة مـع طائفـة الأئمـة والمشايخ.

ولا يخفى على كافة العقلاء أن إسلام وإيمان سلطان الإسلام غازان خان إنما كان عن صدق وإخلاص، ومبـرءا مـن شـوائب الريـاء والرعونة، وصافيا خالصا؛ إذ إنه لا يتصور أن يكون هنـاك إجبـار وإلزام فى اعتناقه الإسلام مع وجود عظمة السلطان وشوكته، وكمـال القدرة على إبرام الأمور وتنفيذها. ومن المسلم به أنه فى حالـة عـدم الاحتياج وفرط الاستغناء لا يمكن أن يكون هناك ريـاء ومـراء. وا الموفق.

طلب العلم والحديث – إلى العديد من البلاد والمدن العربية والإسلامية وفى سنة ٦٧١هـ تزوج من إحدى بنات المؤرخ الفارسى عطا ملك الجوينى. وعلى يديه أسلم السلطان غازان فى سنة ٦٩٤هـ، ونال حظوة كبيرة فى بلاط هذا السلطان. وقد توفى هذا العالم الجليل فى سنة ٧٢٢هـ، ودفن فى "بحر آباد" إحدى قرى جُويَن (انظر كتاب شد الإزار فى حط الأوزار عن زوار المزار، تأليف معين الدين أبى القاسم جنيد شيرازى، بتصحيح وتحشية محمد قزوينى وعباس إقبال، ص٣٧١ – ٣٧٢، حاشية٧، طهران ١٣٢٨هـ.ش الشرق الإسلامى، ص٢٥٠، ٢٥١، حاشية٣).

حكاية

توجه الرايات المباركة لسلطان الإسلام

إلى بايدو للمرة الثانية وخضوع أمرائه

بعد أن نطق غازان بكلمة التوحيـد، وتبعـه جمهـور الأمـراء **[ص٢٩٨]** وأعلنوا إسلامهم، وصاروا مشغولين بالعبادة، قدم رسـولاً بايدو: المدعو "قتلغ شاه"[١]، وشيخ المشايخ "محمود"، فتحدثا عن كـل أنواع الكلام غثه وسمينه. وقد اغتنم الشيخ محمود الفرصة وعـرض كلام الأمراء الذين فى معية بايدو وقلوبهم مع غازان، وأبلغ رسالة كل منهم، وأخذ عليها الجواب مختوما بالختم الذهبى. وفى اليوم الثالث أذن غازان للرسولين بالإنصراف. ولما عاد الشيخ محمـود، وأبلـغ تلـك الجماعة الإجابة المختومة بالختم الذهبى عقدوا النية على نصرة سلطان الإسلام، واتفقت كلمتهم على الإخلاص له.

كذلك لأن "صدر الدين الزنجانى" لم يبلغ غايته فى عهد بايدو وذلك بسبب إسناد منصب الوزارة لجمال الدين الدسـتجردانى، صـار هـو الآخر يحرض طغاجار على المخالفة والمناوأة. ولهـذا كـان بايـدو وأتباعه يخشون مكائده؛ فشملوه برعايتهم التامـة، ومنحـوه الفرمـان والبايزة، وعينوه حاكما على بلاد الروم. فلما اجتاز حدود "هشترود"[٢]

(١) "قتلغ شاه" هذا شخص آخر يحمل نفس اسم "قتلغ شاه" أحد أمراء غازان وقائد قواته المسلحة.

(٢) هشترود (الأنهار الثمانية) مخرجها الجبال شرق مراغه ذات اثنين وثلاثين طاقا (بلدان الخلافة الشرقية، ص٢٠٤).

تذرع بإحدى الحجج، وأرسل إلى تبريز أهلـه وأتباعـه مـع الأميـر "ياغلاقو" الذى كان فى صحبته. ثم ذهب بنفسه إلى "سراو" بحجة أنـه يريد قرضا، وعرج من ذلك الطريق على "جيلان". ومن سـوغورلوق عقد عزمه على التوجه إلى قزوين لإخطار أخيه قطـب الـدين بتلـك الفكرة فخرج هو الآخر من المدينة متذرعا بإحدى الحجج. ثم توجه إلى جيلان، وانضم إلى أخيه وذهبا معا إلى سلطان الإسلام غازان خـان. وفى فيروزكوه تشرفا بتقبيل الأرض بين يدى غازان، وبحضور الأمير نوروز الذى كان قد قدم من خراسان منذ وقـت قريـب. وقـد ذكـر الأخوان أقوالاً مرضية نقْلاً عن لسان طغاجار.

ولما كان نوروز قد شمل برعايته جنوده، وهيـأهم للقتـال، أمـر غازان بحشد كافة الجيوش. وقد جرت تلك الأحوال فى شهر شـوال. ولأن بايدو كان خائفًا هلعا، أرسل "قتلغ شاه" مرة أخرى بأقوال مموهة؛ غير أن سلطان الإسلام **[ص٢٢٩]** - بفرط كياسته- عرف أن الأمـر لا يخلو من كيد ومكر؛ فأمر بتعريته، وبضربه بالعصـى والهـراوات وبهذا تفحص منه حقيقة الأحوال. إذ راح يشرح كـل أحـوال بايـدو وأمرائه وجنوده وتفكيرهم فى إثارة الدسائس والفتن وتلمس العيوب. ثم أضاف قائلاً: لقد أرسلونى حتى أعلم إن كنتم تنـوون الزحـف أو لا. فأمر غازان بتقييده وسجنه فى قلعة استونابند بهبارود.

وفى يوم الجمعة منتصف شوال توجه غازان باليمن والبركة صوب الرى، وسار الأميران نوروز وقتلغ شاه فى المقدمة، وصار نـوروز- جريا على عادته – يذيع الأنباء عن كثرة جنود غازان. وعندما وصل

سلطان الإسلام إلى "هبارود"، فر من بايدو الأمير جوبان وقورومشـى كوركان بن عليناق، وانضما إلى الحضرة، فسر سلطان الإسلام سرورا شديدا بوصولهما، واعتبر ذلك فألاً ميمونًا، وأكرمهما إكرامـا بالغًـا، ومنح كلا منهما قباء وقلنسوة ومنطقة (حزاما) مرصعة. ثم تحرك من هناك، ونزل عند وادى نهر "قوهه" وأقام عدة أيام. وقد انتهز الأميران جوبان وقورومشى هذه الفرصة فقالا: لو يتعطف علينا سلطان الإسلام فسوف نرحل ونسير فى المقدمة مع الأميرين الكبيرين نوروز وقتلـغ شاه؛ فأذن لهما بذلك وانضما إليهما.

بعد ذلك ترك سلطان الإسلام غـازان خـان زوجتـه بولوغـان الخراسانية هناك، وسار عقب الأمراء. وعندما وصل إلى آمد خواجـه قزوين، قدم "أرغا بيتكجى" أخو بوغداى اختاجى مـن قبـل نـوروز، وأعلن أن الأميرين طغاجار وبوغداى انفصلا عن بايدو وأنهما يقصدان حضرة سلطان الإسلام. وقد انضما إلى نوروز. ثم سار السلطان مـن هناك عن طريق "سجاس" حيث وصل إلى خدمته الأمير النجل خربنده والأمير النجل "ايلدار". وعندما قدم غازان إلى بهستان علـى ضـفاف "سبيدرود"، وصل إلى الحضرة الأمراء دولاداى ايداجى وايلتمور بـن هندوقور مع طائفة أخرى. ثم رحل من هناك، ونزل "بيوز آغاج" فـى انتظار **[ص٣٠٠]** نوروز وقتلغ شاه اللذين خرجـا إلـى "نخجـوان" و"أرس" يتعقبان بايدو وتوكال.

وبعد ذلك قدم غازان إلى أوجان، ووصل من قِبل نوروز وقتلغ شاه الأمير "باينجار" يعلن أن بايدو قد أسر، وسيق من ناحية نخجوان إلـى

تبريز. وهو يقول: أريد أن أتحدث إلى السلطان بكلمة أو كلمتين. فما هو الرأى؟ غير أن السلطان قد عرف بفراسته أنه ليس لدى بايدو كلام مفيد يقوله، وإنما يبحث عن حجة يتذرع بها. وعلى هذا صدر الأمر بعدم إحضاره إلى الحضرة والخلاص منه هناك. وكانوا قد أخرجوه من تبريز، ووصلوا به إلى "باغ بيكش" حيث أنهوا حياته فى يوم الأربعاء الثالث والعشرين من ذى القعدة سنة ٦٩٤هـ / ١٢٩٤م.

وعلى أثر ذلك، نفذ حكم المرسوم الذى يقضى بتخريب كل معابد البوذيين ودور الأصنام والكنائس والبيع فى دار الملك تبريز وبغداد وسائر بلاد الإسلام. وقد شكر المسلمون الله تعالى شكرا كثيرا على هذا الفتح المبين؛ لأن أهل الأزمان السالفة لم ينالوا تلك الأمنية.

بعد ذلك عقد سلطان الإسلام العزم على السير إلى دار الملك تبريز، فاستقبله صدر الدين الزنجانى الذى كان قد ذهب إلى المدينة لتدبير المصالح، ثم سار حتى بلغ "كندرو"، وكان يريد أن يطلع الناس على منزلته وجاهه، فصار يتعالى ويتغطرس إلى حد الوقاحة. وكان يتحدث وهو على صهوة جواده. وفى ذلك اليوم كانت النوبتجية للأمير مولاى، فقال لصدر الدين الزنجانى: ليس هذا السلوك هو سبيلك! فلا تتجاسر، والزم حدك". ولكن صدر الدين لم يعبأ به؛ فضربه مولاى بالسوط عدة مرات على رأسه، وأقصاه عنه. ولهذا السبب ولأسباب أخرى انحط شأن صدر الدين.

وفى يوم الأربعاء الثالث والعشرين من ذى القعدة نزل سلطان الإسلام فى عظمة تامة بظاهر تبريز فى السراى المبارك "بشم".

وبموجب الفرمان أعدم ايلجيتاى قوشجى دون محاكمـة، وأعطـى السلطان بولوغان الخراسانية ما يملكه. وبعد ذلك وصل نوروز وقتلـغ شاه وقدمت من "سوقورلوق" بولوغان خاتون والخـواتين الأخريـات. وفى جوسق العادلية أقيمت الولائم والاحتفالات، وحقق مـع قنجبقـال وجيجك، وقتل قونجقبال قصاصا لدم آقبوقا **[ص٣٠١]** ثم أسرع غازان من هناك إلى "قراتبه"، وضرب جيجال بالهراوة وأطلق سراح توداجو، وأرسل الأمير "نورين" على رأس جيش إلى خراسان ومازندران، ثـم عاد إلى تبريز حيث وجه هذا النداء ومضمونه أن علـى الجميـع أن يراعوا مسلكهم، ولا يظلم بعضهم بعضا، ولا يثيروا الفتنة والفساد، ولا يعطوا دانقًا ذهبيا قط لأى مخلوق بدون حوالة مختومة بالختم الذهبى.

بذلك نال العالم والعالمين – بفضل عدل سلطان الإسـلام وميـامن إنصافه – الزينة والنظام والراحة التامة، ولهجت ألسنة القريب والبعيد والترك والتازيك[(١)] بالدعاء للدولة الممتدة أيامها، وتعبيرا عن الشـكر لمثل هذه الموهبة الفذة قدموا صدقات لا حد لها. ومـن وراء حجـاب الغيب، صاح هاتف الإقبال وقال:

(بيت فارسى فى الأصل ترجمته)

---

(١) كان الإيرانيون أول من أطلق هذه الكلمة على العرب، ثم انتقلت إلى الصينيين، ويحتمل أن تكون قد وصلت إلى الترك. ومن المعلوم أن دلالة هذه الكلمة قد تغيرت تمامًا؛ ففى القرن الحادى عشر الميلادى كانت تطلق على غير العرب وربما على الإيرانيين. وأغلب الظن أن الأتراك أطلقوها على كل المنتسبين إلى المدنية الإسلامية. ثم بعد ذلك على الإيرانيين خاصة، لأن الأتراك كانوا يعرفونهم أكثر من غيرهم من المسلمين. (انظر: تاريخ الترك فى آسيا الوسطى، تأليف المستشرق الروسى و.بارتولد، ترجمة الدكتور أحمد السعيد سليمان، ص٣٨، القاهرة ١٩٥٨م).

كان ملك العالم قد بقى بغير سلطان ورئيس
أما الآن فجــاء سلطان جدير بأن يزين رأسه

بعد ذلك أرسل السلطان من تبريز الأمير مولاى للإمارة والحكم فى ديار بكر وديار ربيعة، ورعى الأمير نوروز رعاية تامــة، وأصــدر مرسوما ينص على أن تفوض إليه الوزارة لجميع الرعايا. وهو يقــيم الآن فى تبريز، ويصرف مصالح الناس ثم يجيء عقب ذلك إلى أران.

وفى يوم الاثنين ٦ من ذى الحجة سنة ٦٩٤هـ / ١٢٩٤م تحــرك غازان خان من دار الملك تبريز قاصدا مشــتى "أران". وفــى ناحيــة تبريز تزوج من بولوغان خاتون زواجا شرعيا رغم أنها كانت ضجيعة والده أرغون خان. ولكن حيث أن الزواج كان قد تم مع اختلاف الديانة فى ذلك الوقت، وأن السلطان والخاتون فى الوقت الحاضــر، كلاهمــا على دين الإسلام، فإن هذا النكاح يعتبر نكاحا صحيحا شرعا[٢].

وقد زف عليها باليمن والسعادة. وجريا علــى المعهــود والمعتــاد أقيمت الولائم والأفراح، وأظهروا المباهج والمسرات. ثم خرجوا إلــى طريق "اهروبيشكين"، واتجهوا إلى موغان، ونزل الموكب عنــد (أبــو بكر آباد) بموضع "بول خسرو".

---

(٢) بخصوص زواج غازان من بولوغان خاتون يقول ابن حجر العسقلانى عن غازان: "لما أسلم قيل له: إن دين الإسلام يحرم نكاح نساء الآباء. وكان قد استضاف نساء أبيه إلى نسائه. وكان أحبهن إليه بلوغان خاتون، وهى أكبر= =نساء أبيه، فهمَّ أن يرتد عن الإسلام؛ فقال له بعض خواصه: إن أباك كان كافرًا ولم تكن بلغان معه فى عقد نكاح صحيح، إنما كان مسافحًا بها، فاعقد أنت عليها، فإنها تحل لك ففعل. ولولا ذلك لارتد عن الإسلام. واستحسن ذلك من الذى أفتاه به لهذه المصلحة. (الدرر الكامنة، ج٣، ص٢١٣، حيد آباد الدكن، ١٣٥٠هـ).

وبعد أسبوعين نال نوروز التشرف بالحضرة، واجتمع فى "قراباغ" من أران كافة الخواتين والأمراء والأنجال والأمراء وأركـان الدولـة وأعيان الحضرة، واتفقوا جميعا على تولية سلطان الإسلام الحكم بـلا رياء ونفاق، وحرروا جملتهم إقرارا مكتوبا شاهدا علـى ذلـك. وقـد اختاروا لجلوسه المبارك **[ص٣٠٢]** يوم الأحد الثالث والعشرين مـن ذى الحجة سنة ٦٩٤هـ / ١٢٩٤م الموافق الثالث والعشرين من شهر طوقسونج آى، قوبين ييل، وأجلسوا سلطان الإسلام على عرش الخانية بالطالع المسعود. وقد ركع كافة الخواتين والأمراء الأنجال والأمـراء كل فى مكانه وأداروا الكئوس، وهنأوا العالم بجلوسه المبارك وقالوا:

(بيت من الشعر الفارسى فى الأصل ترجمته)

اسـ ـ ـ ـع بنفـ ـسك واجتـ ـ ـهد لأن الروح العالمـ ـ ـية

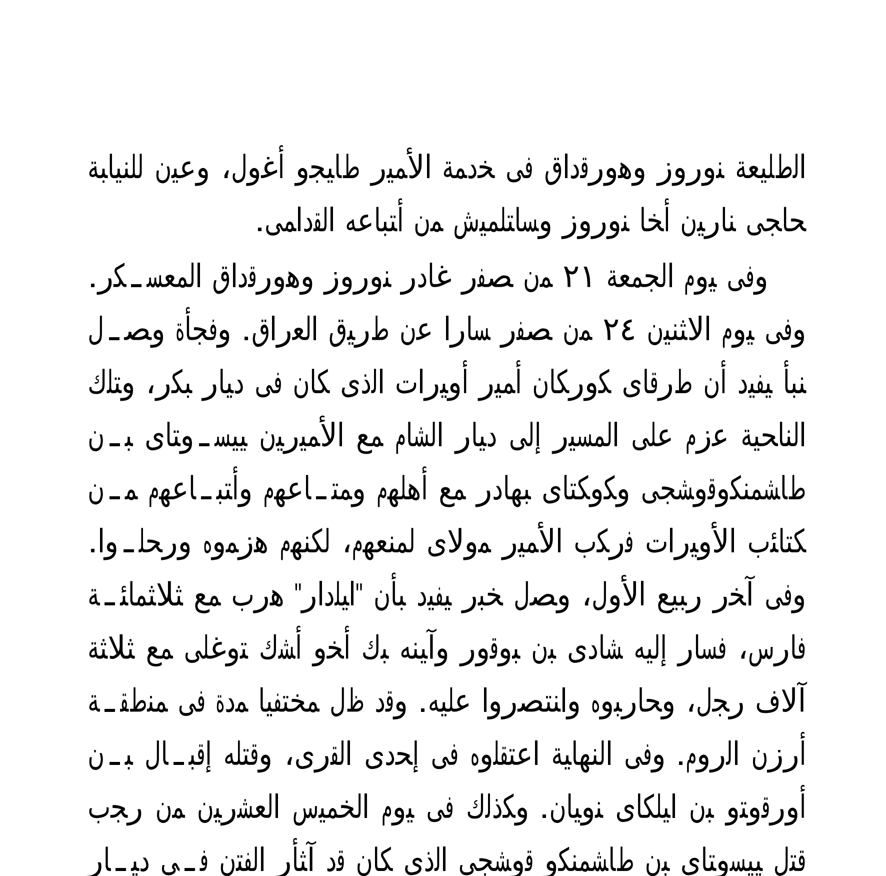
مرتبطة بتلك الروح العزيزة التى تملكها أنت

حكاية

بدء تنظيم شئون الجيش والبلاد بأمر سلطان الإسلام

بعد جلوسه المبارك

بعد إقامة مراسم الأفراح والأنس، اتجه رأى غازان - الـذى هـو زينة للممالك - إلى ضبط وتنظيم شئون المملكة. وفى الأربعاء سـلخ ذى الحجة سنة ٦٩٤هـ / ١٢٩٤م، أرسل الأمير طغاجـار ليتـولى إمارة الروم وحمايتها؛ وذلك لأنه رجل سريع التقلب. ومن المصـلحة أن يكون بعيدا عن الحضرة. وفى يوم الجمعـة سـلخ المحـرم سـنة ٦٩٥هـ / ١٢٩٥م قدم الرسل من خراسان، وأخبـروا أن الأميـرين "دوا" و"ساربان" ابنى "قايدو" انتهزا فرصة غياب الرايات السـلطانية، ودخلا خراسان ومازندران، وشرعا فى النهب والسلب، فتشاور سلطان الإسلام مع الأمراء، واستقر الرأى على أن يسـير الأميـران سـوكا ونوروز للقضاء عليهما. غير أن سوكا ذهب إلى دياره. ومهما حاولوا استدعاءه كان لا يستجيب متعللاً بشتى الأعذار. وأخيرا أرسل سـلطان الإسلام "هورقداق" لاستدعائه. وتحت وطأة السكر تفوه بعـدة كلمـات مثيرة للفتنة؛ فأوصلوا تلك الحكاية إلى السمع الأشرف؛ غير أن غازان لم يلتفت إلى ذلك لفرط ثباته ووقاره **[ص٣٠٣]** وعندما وصل سـوكا إلى الحضرة شمله غازان برعايته التامة وعينه على خراسان، وسـير معه من أمراء التومان "بارولا" بن الخواجه بن ييسور نويان من قبيلـة أولقونوت، وكذلك أرسلان أغول من أحفاد "جوجى قسار"، وأرسل فى



الطليعة نوروز وهورقداق فى خدمة الأمير طايجو أغول، وعين للنيابة حاجى نارين أخا نوروز وساتلميش من أتباعه القدامى.

وفى يوم الجمعة ٢١ من صفر غادر نوروز وهورقداق المعسـكر. وفى يوم الاثنين ٢٤ من صفر سارا عن طريق العراق. وفجأة وصـل نبأ يفيد أن طرقاى كوركان أمير أويرات الذى كان فى ديار بكر، وتلك الناحية عزم على المسير إلى ديار الشام مع الأميرين بيسـوتاى بـن طاشمنكوقوشجى وكوكتاى بهادر مع أهلهم ومتـاعهم وأتبـاعهم مـن كتائب الأويرات فركب الأمير مولاى لمنعهم، لكنهم هزموه ورحلـوا. وفى آخر ربيع الأول، وصل خبر يفيد بأن "ايلدار" هرب مع ثلاثمائـة فارس، فسار إليه شادى بن بوقور وآينه بك أخو أشك توغلى مع ثلاثة آلاف رجل، وحاربوه وانتصروا عليه. وقد ظل مختفيا مدة فى منطقـة أرزن الروم. وفى النهاية اعتقلوه فى إحدى القرى، وقتله إقبـال بـن أورقوتو بن ايلكاى نويان. وكذلك فى يوم الخميس العشرين من رجب قتل بيسوتاى بن طاشمنكو قوشجى الذى كان قد آثأر الفتن فـى ديـار بكر. وفى السادس من ربيع الآخر أُعدم بولارغى قتاى شكورجى الذى كان متضامنًا فى آخر عهد أرغون مع الأمراء المثيرين للفتنة، وحتـى يوم مقتله كان له دخل فى كل ما حدث من قلاقل. والسلام.

حكاية

شروع سوكا وبارولا فى المخالفة والتمرد ووضوح ذلك وتوجه الجيش للقضاء عليهما ومآل ذلك الحال

لما سار سوكا وبارولا من أران تشاورا كثيرا مع الجنـود، فقـالوا جميعا: إنهم يرسلوننا إلى خراسان كـى يتقاسـموا نسـاءنا وأطفالنـا ويوزعوهم على جنود خراسان. وعقـب التشـاور اتفقـوا علـى أن يتخلصوا من نوروز أولاً. وبعد ذلك يداهموا المعسكرات، ثم يجلسـوا سوكا على العرش. وقد جرى هذا التدبير فى موضع "كره رود" الـذى يسمونه "تركان موران".

فلما علم نوروز بتلك المؤامرة داهم سوكا وقت الضـحى، واقتتـل الطرفان قتالاً شديدا فقتل "بارولا" أولاً فى تلك المعركة وهرب سوكا، واتجه إلى خرقان[1] وساوه[2]، فتعقبه هورقداق مع كوكبة من الفرسان، وتم اعتقاله فى ناحية خرقان، ثم جاءوا به إلى موضع "سركوى رى". فقال هورقداق لساتى بن لاوداى الذى كان متآمرا معهم: "اقتـل أنـت سوكا". فذهب إلى السرادق كى يقتله جريا على العادة المتبعة فى قتـل أبناء الملوك. ولكن سوكاى طعن ساتى بمدية فى بطنه، فأرداه قتـيلاً. عندئذ دخل المدعو باتيمور من أتباع هورقوداق، فانتزع المدية من يده وأجهز عليه.

---

(١) خرقان: تقع على بعد أربعة فراسخ من بسطام فى الطريق الذاهب إلى استراباد. وكان لها شأن كبير فى المائتين السابعة والثامنة (الثالثة عشرة والرابعة عشرة) وهواؤها طيب وماؤها كثير. وفيها قبر الولى أبى الحسن الخرقانى (بلدان الخلافة الشرقية، ص٤٠٦).

(٢) ساوه: مدينة حسنة بين الرى وهمذان، ويقربها مدينة يقال لها آوه وساوه سنية شافعية، والنسبة إليها ساوى وساوجى. أما آوه فأهلها شيعة إمامية، وبينهما نحو فرسخين. وكان بها دار كتب كبيرة. وقد نسب إليها طائفة من أهل العلم (معجم البلدان، ج٣، ص١٧٩)

فى ذلك الوقت كان سلطان الإسلام قد اعتزم صيد نوع من الأسماك اسمه "آق باق" من موضع "أبى بكر آباد". وفى الثامن من ربيع الآخر، قدم "ساتلمش كلجى" من قبل نوروز وأبلغ غازان – وهو فى موضع الصيد – نبأ تمرد سوكا. وفى تلك اللحظة عاد سلطان الإسلام، ونزل على حافة سد "منكو تيمور".**[ص٣٠٥]** وكان فى حضرة غازان الأميران قتلغ شاه وساتلمش. وفى الصباح أصدر غازان قرارا يقضى باعتقال ايسن بن قونقورتاى وقورمشى أخى بارولا إذ كان لهما دخل فى المؤامرة التى دبرها سوكا. وبعد المحاكمة قتل ايسن تيمور و"جريك مغول" الذى كان أميرا على معسكره وكذلك قورمشى.

وقد اتفق الأمراء قتلغ شاه وجوبان وساتلمش وسوتاى وإيلباسميش على تعبئة الجيوش. وفى أثناء ذلك وصل ياساميشى أمير مولاييد من خراسان، وأخبر أن "نوروز" قتل سوكا[١] وبارولا، وأن الأمير "نورين" اعتقل جيجاك ودولاداى فى خراسان، وأن الأمور تسير وفق المراد، وهزم أغلب طائفة الأمراء. أما الجماعة التى بقيت فقد نصبت أرسلان أغول رئيسا لها، ثم قدموا إلى بيلسوار[٢]، ومن هناك ساروا إلى جهة سارى المنصورية، وقرية بابى (ديه بابى)، وأقاموا بهما. وفى الحال كلف سلطان الإسلام الأمراء جوبان وسولاميش وقورمشى وطغريلجه وتاييناق وايلباسميش بالسير بجنودهم للقضاء عليهم، فالتحموا فى منطقة بيلقان[٣]، وخاضوا حربا حامية. وكان مع أرسلان أغول من الأمراء

---

(١) ذكر المؤرخ أن الذى قتل سوكا هو تيمور أحد أتباع هورقداق.

(٢) بيلسوار: تقع فى سهل موغان. يقال إنها سميت بهذا الاسم نسبة إلى الأمير "بيله سوار" الذى ولاه بنو بويه عليها. ومعنى اسمه "الفارس الصنديد". (بلدان الخلافة الشرقية، ص٢١٠).

(٣) بيلقان: مدينة قرب الدربند الذى يقال له باب الأبواب. تعد فى أرمينية الكبرى قريبة من شروان. وقد عدها قوم من أعمال أران (معجم البلدان، ج١، ص٥٣٣).

تولاك ابن عم أوجان الذى كان أمير السلاح، وآينه بك بن أشك توغلى من الجلاير وغزان بن طايجو بهادر وموسى ترخان وسـركيس بـن نارين أحمد. وكانت لهم الغلبة فى ذلك اليوم. وقد أصيب من جنودنـا طغر يلجه بجرح بليغ؛ كاد يسقطه على الأرض، فرعاه قورمشى بـن عليناق (ص٣٠٦) ثم سار هورقوداق وباريم مع ألفـى جنـدى لمـدد جيشنا، ووقف الجيشان كل فى مواجهة الآخر؛ غير أن جنود الأعـداء استسلموا وأعلنوا خضوعهم دون قتال، وبذلك لحقت الهزيمة بأمرائهم.

بعد ذلك عاد هورقوداق، واعتقل سركيس، وأحضره معه.

كذلك قام الأمراء الآخرون بتعقب المنهزمين، واعتقلـوا "تولـك"، وأحضروه معهم، ثم أعدموه مع سركيس. وفى يوم الخمـيس الثالـث والعشرين من جمادى الأولى سنة ٦٩٥هـ/ ١٢٩٥م اعتقلوا أرسـلان أغول، وأحضروه معهم ثم أعدموه. وعقب ذلك تخلصوا أيضـا مـن غزان بن طايجور بهادر.

وفى تلك الأيام أُعتقل صدر الدين الزنجانى، وطالبوه بالأموال التى كان قد سجلها عليه جمال الدين الدستجردانى[1]، ولكن حمته بولوغـان خاتون، ونجا بشفاعتها. ثم انتقل إلى معسكر قويتول. وفى يوم الخميس السابع من جمادى الآخرة، عزم غازان على زيـارة الشـيخ إبـراهيم الزاهد. وبعد يومين قدم إلى المعسكر، وأرسل الأميـر "هورقـوداق" ليكون أميرا على إقليم فارس، وعهد إلى "ياساميشى" بتصريف الشئون وجمع الأموال.

---

(١) انظر التفصيلات فى كتاب الشرق الإسلامى ص٢٣٠ – ٢٣١.

وفى تلك السنة وقعت حرب بين توقتا ملـك "أولـوس" القبجـاق ونوقاى بن تاتار، فقتل نوقاى، وتفرق أتباعه، فقـدمت إلـى حضـرة سلطان الإسلام "جبى خاتون" زوجة نوقاى و"تورى" ابنـه الأصـغر، وطلبا المساعدة والمدد قصاصا لدم نوقاى، فصـار سـلطان الإسـلام يطيب خاطرهما بلطفه، ويهدئ من روعهمـا. وفـى ليلـة الأربعـاء السادس والعشرين من رجب زوج سلطان الإسلام أخته "أولجـاتيمور" **[ص٣٠٧]** من الأمير قتلغ شاه، وكانت قبل ذلك زوجة لتوكال.

ولما كان وجود "طغاجار" أساسا للفتن والفسـاد، وكـان سـلطان الإسلام يرغب فى أن يقضى نهائيا على مصادر الفتن، أرسل الأميـر "خرمنجى" فى ذلك الشتاء إلى الروم كى يتفق مع بالتو وعرب وأمراء جيش الروم على الخلاص من طغاجـار. وعلـيهم أن يبـادروا أولاً بتسليمه اليرليغ (المرسوم) الذى يتضمن استمالته والتـودد إليـه، ثـم ينتهزون الفرصة لقتله فى السر حسب الأمر الصادر إلـيهم. ومـع أن سلطان الإسلام لم يكن يميل إلى القضاء عليه؛ إلا أن مصـلحة الملـك وإدارة شئونه حتمت عليه اتخاذ هذا القرار. وفى تلـك القضـية قـال السلطان غازان للمقربين إليه: حدث فى قديم الأيام فى ولاية الخطا أن ملكين تحاربا فانهزم أحـدهما، وتفرقـت جنـوده، وصـار الجنـود المنصورون يتعقبون المنهزمين عدة أيام، حتى أدرك أحد الأمراء ذلك الملك المنهزم. ولما كان هذا الملك فى غاية العجز والضـعف أشـفق عليه الأمير، وأراد أن يخلصه، فصحبه حتى وصل به إلى بئر فى تلك المنطقة، وقال له: انزل فى هذه البئر حتى لا يـراك جنودنـا. ولمـا وصلت طائفة الجند المنصورين لم يستطيعوا العثور عليه لأن المنطقة

كانت رملية، وثارت الرياح فمحت آثار الأقدام. فقال لهم ذلك الأمير: "إن الطريق ليس واضحا، ولا يعلم إلى أية ناحية ذهب الملك وقد يمضى فى طريق، ونحن نسلك مائة طريق. وإذن فكيف يمكن العثور عليه؟!... الأولى أن نعود. فرجعوا جميعا. ثم خرج ذلك الملك من البئر، وعاد إلى مملكته، وجمع جيشًا بالتدريج والتأنى وعاد إلى شن الحرب مرة أخرى، وانتصر على ذلك الملك الذى كان قد تغلب عليه فى المرة السابقة وقتله واستولى على ملكه، وخص الأمير– الذى كان سبب نجاته - بأنواع الرعاية والتكريم وصار مقربا إليه للغاية، وفوض إليه الإمارة الكبرى والنيابة المطلقة.

وذات يوم قال أحد الأمراء للملك: إن هذا الشخص تنكر لحقوق مليكه، ولم يكن وفيا له، وكان هو السبب فى هلاكه ووصولك إلى الحكم. فكيف يمكن تركه حيا؟!.... إنه عن قريب سوف يفكر فى الغدر بك.**[ص٣٠٨]** وكان الملك غاية فى الذكاء، فاستمع لذلك الكلام، وأشار بقتل منقذه؛ فصرخ ذلك الأمير قائلاً: إن لى عليك حقوق إنقاذك والمحافظة على حياتك. فبكى الملك، وقال: إن الحق معك، وأنا لا أرضى عن قتلك مطلقًا. ولكن لا مفر من رعاية مصلحة الملك والحكم. ومن اللازم أن تقتل. ثم قتله وهو يبكى.

وهكذا فإن شأن ضبط الأمور يجرى على هذا النمط. ورغم أن قتل شخص من الأشخاص أمر صعب على جدا، فإنه إذا لم تراع السياسة والحزم فى المحافظة على القضايا الكلية والجزئية، فإنه لا يمكن تدبير الملك.

وجملة القول أن سلطان الإسلام ركب فى أول الربيع من "بيلسوار" قاصدا دار الملك تبريز، ونزل باليمن والبركة فى سراى "شم تبريـز". وفى السابع والعشرين من رجب قبض على آينه بك، وأُحضـر إلـى تبريز. وفى يوم السبت التاسع والعشرين، قتل فى الميدان هناك. وفـى يوم الأربعاء العاشر من شعبان وصل الأمير "إلادو" مـن خراسـان، وعرض أحوال ذلك الإقليم كما هى ثم غادر سلطان الإسلام تبريز إلى ناحية "مرغزار صاين" الواقعة بين سراو وأردبيل. وفى يوم الأربعـاء السابع عشر من شعبان عقدوا مجلس الشورى (القوريلتاى) فـى تلـك المنطقة، وانفض المجلس فى التاسع عشر. والسلام.

حكاية

أحوال نورين آقا وكراهية الأمير نوروز إياه

وبدء اختلال وضع نوروز

كان نورين آقا من قبيلة قيات. وكان بالنسبة إلى غـازان شخصـا موثوقًا به محترما لديه وموضع اعتماده المطلق، ومحـرم أسـراره. وكانت له سلطة كبيرة فى خراسان ومازندران. وكان "أويراتاى" أخـو نوروز تابعا له. واعتمادا على عظمة محتد نورين، كان لا يعبأ كثيـرا بأويراتاى، فكان هذا يشكوه إلى أخيه نوروز؛ فيتولـد بـذلك الكـدر والنفور. ثم إن "نوروز" عندما وصل إلى منطقة خراسـان **[ص٣٠٩]** أرجع سبب تغلب المتمردين وسيطرتهم إلى تقصـير نـورين، وكـان يغتابه بكلمات لاذعة مزعجة فى حضور أتباعـه وغيـابهم. وعنـدما وصل الاثنان إلى جرجان، كان كل منهما متأثرا من صاحبه. ثم وصل الأمير النجل "طايجو" من طريق "تميشه"، فقال له نوروز مدفوعا بدافع الغضب والتهور: "لقد أمرت أن أسائل نورين: كيف ترك المتمـردين يدخلون هذه البلاد دون اكتراث؟! والآن أسأل هذا السـؤال بحضـور الأمير طايجو. فتضايق منه الجميع، واستنكروا منه هذا الكلام.

وكان أول خلل تطرق إلى وضع نوروز بسبب ذلك العناد واللجاج ثم قدم من هناك إلى خبوشان، واستعرض الجنود. بعد ذلك قدم رسول من الطليعة ينبئ أن المتمردين قد شوهدوا فى مرج رادكان (مرغـزار رادكان)، فسار إليهم نوروز للقضاء عليهم، ولكن عندما تفحص الأمر

اتضح أن الخبر كان كذبا. ثم تشاور مع الأمراء فى مشهد طوس قائلاً: "سوف أتحرك إلى مدينة هراة بأربعة آلاف فارس حتى أقـف بنفسـى على أحوال العصاة. ثم سار على هذا العزم فى السـابع عشـر مـن رجب، وأرسل غازان الأمير النجل طايجو والأمير نورين إلى رادكان.

وفى يوم الخامس والعشرين من رجب عاد نـوروز ونـزل فـى معسكر طايجو، وقال دون أن يعمل عملاً أو يبذل جهـدا: سـمعت أن زوجتى مريضة، وسوف أذهب إلى حضرة سلطان الإسلام، فـاهتموا أنتم بشئون الجيش وإعداده؛ وذلك لحين وصولى. ثم سار على الفـور قاصدا آذربيجان، وأهمل شئون خراسان وجيشها. كذلك سـار عقـب نوروز المذنبون الذين كان السلطان غازان قد أرسلهم معه، ليكونوا فى مقدمة الجيش وقت الحرب.

وعندما عاد نوروز، صار جنود خراسان يذيعون إشاعات كل يوم، فتطرقوا إلى هذا السبب إلى حد أنهم رحلوا جميعا. وكان المدعو "سوم" أمير هزاره[(١)] هو أول من هرب مع أربعمائة من رجاله، وعـاد إلـى حدود أردبيل[(٢)] حيث موطنه الأصلى. فلما سمع نوروز فى شـروياز خبر فرار "سوم" ورجاله، ركب إلى سـراة دون أن يخبـر سـلطان الإسلام بذلك وهاجم ديـارهم، وأنـزل بهـم الأضـرار وعرضـهم

---

(١) المقصود قائد كتيبة عددها ألف جندى.

(٢) أردبيل: من أشهر مدن آذربيجان. وهى مدينـة كبيرة جدًا. رآها ياقوت فى سنة ٦١٧هـ / ١٢٢٠م فوجدها تقع فى فضاء فسيح، وبها عدة أنهار. ولكن من الغريب حقًا أنها لا تنبت صنفًا من الفواكه. فتحها المغول عنوة، وخربوها خرابًا تامًا؛ غير أنها سرعان ما عادت إلى الازدهار فى عهدهم. ينسب إليها كثير من أهل العلم فى كل فن (معجم البلدان، ج١ ، ص١٤٥ – ١٤٦).

للمشقات.**[ص٣١٠]** فتأثر سلطان الإسلام بسبب رجوع نوروز، وأرسل إليه رسولاً يقول له: "عد إلى قواعدك". فرد قائلاً: إن زوجتى الأميرة "طوغان" مريضة، فكيف يمكن أن أعود دون أن أراها؟!... فكان هذا الامتناع أيضا سببا فى تغير غازان عليه.

وفى يوم الحادى والعشرين من شعبان سنة ٦٩٥هـ / ١٢٩٥م قدم نوروز إلى حضرة سلطان الإسلام، فاختص بالإعزاز والاحترام. ثم جاء سلطان الإسلام إلى "أوجان". وفى يوم الاثنين ٢٩ من شعبان تزوج من "آشيل خاتون".

وعندما أحس قتلغ شاه نويان والأمراء الآخرون تغير نظرة السلطان إلى نوروز، وتأثره منه، عرضوا عليه قائلين: ليس من المصلحة إرساله إلى خراسان. ومن الواجب التحرى عن أحواله؛ إذ إنه من تصرفاته يمكن مشاهدة أمارات الفتنة والفساد. غير أن سعة صدر سلطان الإسلام، كانت مثل البحر المحيط لا نهاية له، وحلمه ووقاره أزيد مما يدركه الوصف فقال: مع أن كلامكم صحيح؛ غير أنى لا أستسيغ نقض العهد والحنث فى اليمين.

وفى يوم الأربعاء غرة رمضان عاد نوروز إلى خراسان بناء على أمر غازان، وكان يصاحبه نظام الدين يحيى باعتباره نائبا له. فلما وصل إلى خراسان، كان أبناء "نوقاى يارغوجى" يقصدون قتله فى السر قصاصا لدم أبيهم، فكان نوروز خائفًا منهم. وخلال هذه الأحداث توفيت "طوغان" زوجة نوروز، وأخذ حاله فى التدهور، ولكنه كان يتجلد ويجد ويجتهد. وفى الثامن من رمضان سنة ٦٩٥هـ / ١٢٩٥م

نزل غازان خان على ضفاف "ناوور دولا" طريق تبريز، حيث شـيد الحديقة والجوسق المبارك. وفى تلك الأيام قدم سلطان "ماردين" وأهدى غازان مالاً وفيرا من النقود والجواهر، ثم عـاد مشـمولاً بالرعايـة والتكريم التام، وبمزيد من الابتهاج. وفى الثالث عشر من شوال قتلـوا "حسام الدين لر" فى "هشترود". وفى السادس والعشرين كان الاحتفـال بعرس "دوندى" والدة ألافرنك. وفى الثامن من ذى القعدة قتلوا بايغوت بن شيرامون بن جورماغون فى "سه كنبدان".**[ص٣١١]**.

بعد ذلك قدم سلطان الإسلام إلى مراغة حيث تفقد المرصد[1]. وقد أقام الحكام هناك الولائم والاحتفالات. وفى ذلك اليوم عرضـوا علـى غازان الرسالة التى كتبها ايلدار بن قونقورتاى إلى بالتو يحرضه على التمرد والعصيان، فرحل غازان على الفور عائدا إلى المعسكرات. ثـم قبض على ايلدار وقتل بعد ثبوت التهمة عليه.

---

(١) أقام هذا المرصد العالم الرياضى الفلكى خواجه نصير الدين الطوسى – المسمى محمد بن محمد بن الحسن – بأمر هولاكو خان فى مدينة مراغه، وأعده بأدق الأجهزة المعروفة فى زمانه، وألحق به مكتبة كبيرة تحوى ما يزيد على أربعمائة ألف مجلد. وكان هناك علماء فى الفلك من الصين يقدمون العون والنصح. إلى جانب المهمة الأساسية التى كان يؤديها هذا المرصد، كان عبارة عن دار للفقهاء والفلاسفة والأطباء(انظر جامع التواريخ، المجلد الثانى- الجزء الأول: تاريخ هولاكو، الترجمة العربية، ص٣٠٣ – ٣٠٤ وما بعدها، فوات الوفيات تأليف ابن شاكر الكتبى ج٢ ص٣٠٧ وما بعدها، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، القاهرة ١٩٥١م؛ السلوك للمقريزى، ج١ ق٢ ص ٤٢١؛ تنسوخ نامة ايلخانى، تأليف خواجه نصير الدين طوسى، بامقدمه وتعليقات مدرس رضوى، ص نوزده – بيست ويك (١٩ – ٢١) من مقدمة المحقق، تهران ١٣٤٨هـ.ش؛ موجز تاريخ العلم والحضارة فى الصين، تأليف جوزيف نيندهام، ترجمة غريب جوده، ص١٢٨، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٥م.

حكاية

توجه الرايات السلطانية إلى بغداد، وقتل افراسياب لر

وجمال الدين الدستجردانى ومولانا عز الدين

مظفر الشيرازى وولادة الأمير

النجل أولجاى

فى يوم الثلاثاء الثامن عشر من ذى القعدة سنة ٦٩٥هـ / ١٢٩٥م تحركت الرايات السلطانية من مراغة قاصدة مشتى بغداد، ثم سارت صوب همذان. وفى الرابع والعشرين من الشهر المذكور، وصل نورين آقا من خراسان، فشمله سلطان الإسلام بعطفه ورعايته.

ولما كان بالتو بن تبشى يعمل فى ممالك الروم منذ عهد آبا قاخان سيطر هناك سيطرة تامة؛ خصوصا بعد أن توفى سماغار نويان، وكان ابنه "عرب" لا يزال طفلاً. لهذه الأسباب زاد استبداد بالتو، واشتد نفوذه. وكلما استدعاه سلطان الإسلام، كان ينتحل الأعذار. وبعد قتل طغاجار جاوز نفوذه وغطرسته الحد، ولصق به اسم المتمرد.

وفى شهور سنة ٦٩٦هـ / ١٢٩٦م، أبلغوا غازان - فى الوقت المناسب، فتوجه الأمير قتلغ شاه إلى الروم بموجب الفرمان مع ثلاثين ألف جندى للقضاء على فتنة بالتو الذى اختبأ فى كمين خلف أحد الجبال **[ص٣١٢]**، فتعقبه الأمير قتلغ شاه مع سولاميش وعرب وبورلتاى أغول وأبيشقا الذى كان فى المقدمة. فلما وصل إلى ذلك

الجبل، خرج بالتو من الكمين. وقد جرح أناس من الطـرفين. وعلـى الأثر وصل الأمير قتلغ شاه إلى صحراء "ماليه"، وهزم بالتو بهجمـة واحدة. ثم أرسل الأمير قتلغ شاه "سولاميش" فى إثره وعاد إلى مشـتى أران.

فى ذلك الوقت كانت الرايات السلطانية تقصد بغداد. وعندما عادت إلى "مرج زك" (مرغزار زك) من منطقة همذان، قلد السلطان جمـال الدين الدستجردانى الوزارة بدلاً من شرف الدين السمنانى، وكان ذلـك فى الثامن من ذى القعدة سنة خمس وتسعين وستمائة. وقد أقام غـازان هناك شهرا، وتشرف بلقاء حضـرته ملـوك "العـراق العجمـى"[1]، وأنجزوا المهمات، ثم استأذنوا فى الانصراف. وكان "هورقداق" قد عاد بعد أن فرغ من جباية أموال فارس. وكان الأتابك "أفراسياب لر" قد هم بالرجوع بعد أن وجد الرعايـة والتكـريم مـن السـلطان. غيـر أن "هوراقداق" أعاده من الطريق، واصطحبه معـه. فلمـا وصـل إلـى الحضرة، استفسر منه غازان عن الأوضاع فى فارس. فقال: إن العبد يعرض أولاً أحوال هذا "التازيك" إذ أنه عند ذهابى إلى فارس مـررت

---

(١) المقصود بـالعراق العجمـى (إقليم الجبـال) المنطقـة التـى تكـون حـدودها علـى النحـو التـالى: حدها الشرقى مفازة خراسان وفارس وأصبهان وشـرقى خوزسـتان، وحـدها الغربـى آذربيجـان، والشـمالى بـلاد الـديلم وقـزوين والـرى، وحـدها = =الجنـوبى العراق وبعض خوزستان (انظـر الـدكتور نـافع توفيـق العبـود: الدولـة الخـوارزمية: نشأتها – علاقاتها مع الدول الإسلامية – نظمهـا العسـكرية والإداريـة ٤٩٠ – ٦٢٨ هـ/ ١٠٩٧ – ١٢٣١م، ص٣٢، حاشية ٥٧، بغداد ١٩٧٨م).

ببلاد "أفراسياب لر"؛ فلم يجئ لاستقبالى فثار أتباعه فى وجهه، وقالوا: لقد استولينا على هذا الملك بحد السيف، فآلت موارده إلينا وأصبحت حقًا لنا. وأنا لن أتحدث عن إثارة الفتن الأخرى وقتل بايدو شحنة أصفهان والزحف بالجيش إلى أصفهان وفيروزان، وما صحب ذلك من اعتقالات، وأمثال تلك التصرفات. فغضب سلطان الإسلام على أثر سماعه تلك المخالفات، وأمر بقتل أفراسياب[1].

وعندما بلغ غازان وأتباعه منطقة قرية سبندان "ديه سبندان" حرض الشيخ محمود وصدر الدين الزنجانى جماعة على التمرد والعصيان **[ص٣١٣]**، وذلك بوشاية جمال الدين الدستجردانى، فحقق معه فى الثامن والعشرين من ذى الحجة سنة ٦٩٥هـ / ١٢٩٥م وقتل. ومن هناك سير السلطان الأمير "خربنده" ابن سلطان العالم إلى خراسان ليكون نائبا عنه. وفى تلك الأيام وشى عز الدين المظفر الذى كان حفيد

---

(١) يذكر شرف خان البدليسى أنه لما تولى غازان خان أمر المغول، وبسط سلطانه على البلاد، بادر أفراسياب إلى تقديم الطاعة له، وإلى التشرف بالحضرة السلطانية، فتعطف عليه السلطان وأبقاه فى منصبه فى حكومة لرستان. وفى سنة (٦٩٥هـ / ١٢٩٥م) التى كان غازان قد توجه فيها نحو بغداد كان الأتابك أفراسياب قد تشرف مرة أخرى عند حدود همذان بالعتبات السامية، ونال لديها الحظوة والقبول. ولكنه حين رجوعه إلى بلاده التقى به فى الطريق الأمير "هورقوداق" الذى كان عائدًا حينئذ من فارس قاصدًا الحضرة الملكية، فقبض هذا عليه، وأعاده بالقوة والغصب إلى الحضرة ورفع إلى غازان خان تفاصيل ما صدر من أفراسياب من الأعمال الجائرة والتصرفات السيئة، وبالغ فى ذلك مبالغة كبيرة حتى حمله على صدور الأمر بقتله (انظر كتاب شرفنامه، ج١، ص٣١ – ٣٢، ترجمة إلى العربية محمد على عونى، وراجعه وقدم له يحيى الخشاب، القاهرة ١٩٥٨م).

عميد فارس - بحاكم ذلك الإقليم الشيخ جمال إبراهيم السواملى، وكان صدر الدين الزنجانى متعاونًا معه. ولما لم يستطع إثبات تهمة الخيانـة على الحاكم، قتل الواشى عز الدين.

بعد ذلك تحرك غازان من هناك، وقدم إلى بغداد باليمن والإقبال فى يوم الأربعاء ١٤ من صفر ٦٩٦هـ / ١٢٩٦م، ونزل فـى جوسـق "بيرونى". وبعد بضعة أيام نهض معتزما الصـيد فـى منـاطق نيـل ونعمانية وشيب الحلة، واستمر فى رحلته حتى وصل قريبا من المزار المبارك لسيدى أبى الوفا، ثم عاد بعد أربعة وعشرين يوما، ونزل فـى مرزبانية. وفى التاسع من ربيع الآخر ركب للصيد فى منطقة "هيـت" و"آبار"، ونزل فى "محول" بعد ثمانية أيـام وزار المشـهد الكـاظمى المقدس، وضريح الإمام الأعظم أبى حنيفة الكوفى. وفى يوم الجمعـة أدى الصلاة فى مسجد سوق السلطان. ثم عزم على العودة فـى يـوم الخميس الرابع من جمادى الأولى، فتحرك من بغداد. وفى يوم الخميس الثامن عشر من جمادى الأولى سنة ٦٩٦هـ / ١٢٩٦م، ولد الأميـر النجل أولجاى قتلغ فى موضع شهر آبان والسلام.

[٣١٤] حكاية

حال قيصر غلام الأمير نوروز، وقتل أبناء نوروز وإخوته، والقضاء على سلطته نهائيا ثم قتله فى هراة

فى يوم الأربعاء السابع عشر من جمادى الأولى سنة ٦٩٦هـ / ١٢٩٦م اعتقل فى بغداد علم الدين قيصر الذى كان رسول نوروز. وقد أوفد الشيخ محمود أخاه إلى الحضرة لإطلاع غازان على ذلك الأمر.

وتتلخص تلك القصة فى أن "نوروز" فى عهد بايدو، كان يريد القضاء على دولة هذا الإيلخان، وتنصيب سلطان الإسلام غازان خان على عرش الخانية بعد أن ينتزعه من بايدو حتى يكفر عن سيئاته السابقة بفضل هذه الخدمة الجليلة. ورغم أن هذا الأمر كان متيسرا بسبب المدد وكثرة العدد، أرسل نوروز قيصر المذكور - الذى كان غلاما لتاجر بغدادى وكان يسافر إلى الشام ومصر– برسالة إلى ملك مصر، يقول فيها: "إن بايدو كافر، ونحن مسلمون. فينبغى أن نتفق على القضاء عليه". وعندما أحضر قيصر الجواب، كان بايدو قد هزم، واستقر الحكم لسلطان الإسلام. وبذلك ارتفع شأن نوروز إلى أوج العظمة.

فى ذلك الوقت لم ير نوروز من المصـلحة شـرح ذلـك الأمـر للحضرة. وأمر جمال الدين الدستجردانى – الذى كان نائبا له - بـأن يدون مسودة مناسبة بما حدث. ثم حرفت هذه النسخة، وكتبـت بخـط غير معروف، وعرضت على الحضرة. وأخيرا طيبوا خاطر قيصـر طبقًا للفرمان، وأعادوه إلى بغـداد. وعنـد محاكمـة جمـال الـدين الدستجردانى عدوا هذه القضية ضمن جرائمه. أما فخر الدين الرومـى المرافق للأمير ناولدار، فإنه كان يعمل شحنة لبغداد **[ص٣١٥]**، وكان مطلعا على موضوع ذلك المكتوب، فأبلغه الأمير ناولدار، وعرضه هذا بدوره على غازان؛ فصدر الأمر بأن يذهب فخر الدين الرومـى إلـى بغداد ليتفحص أحوال قيصر.

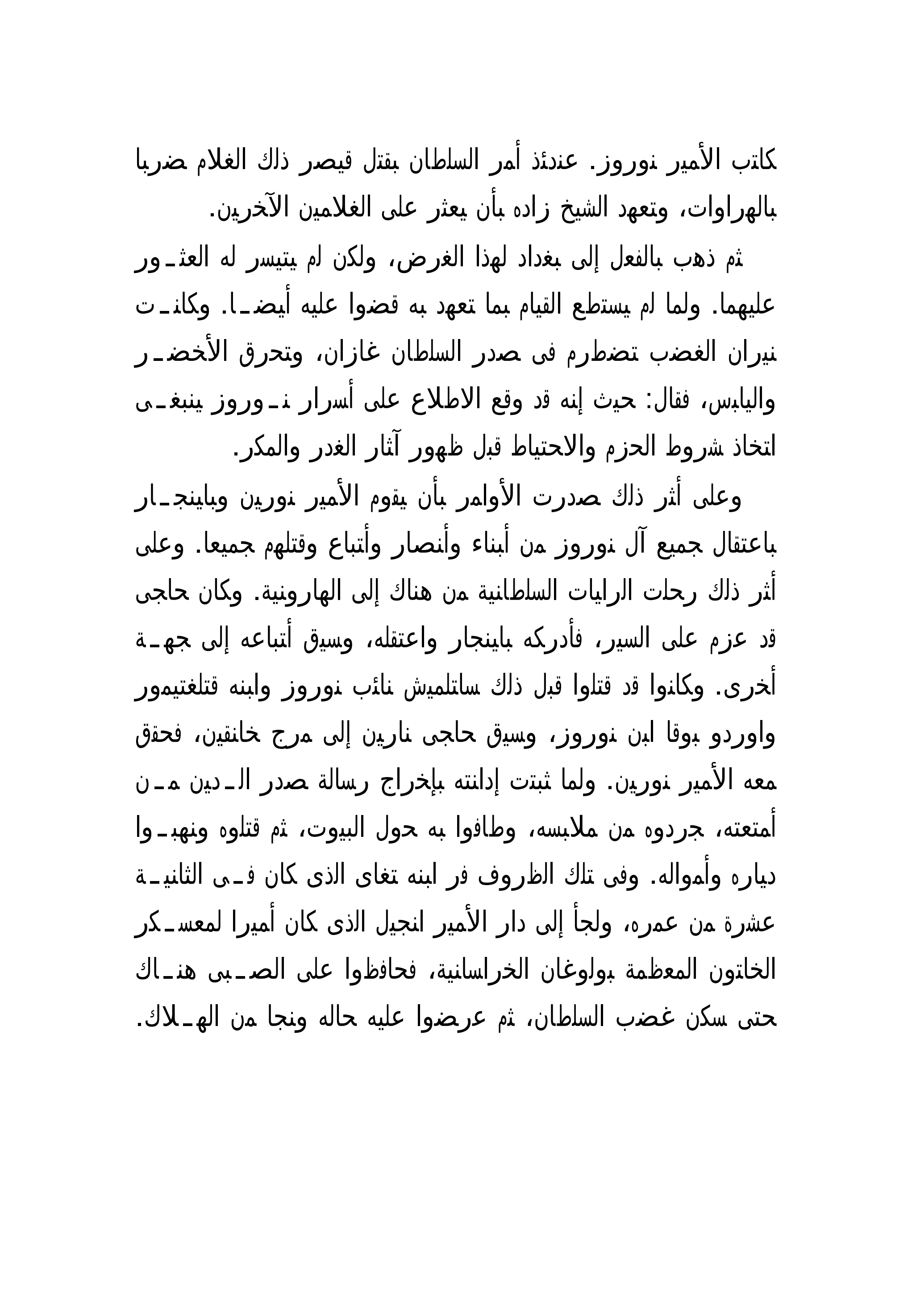
وحيث إن "نوروز" كان يعرف عند توجهه إلى خراسان أنه لم يعد يحظى بعناية سلطان الإسلام، أرسل صدر الدين ابن شيخ الإسلام فـى هراة إلى الحضرة، وكان نوروز يثق به فاختاره كى يكون فى صحبة غازان، ويذكره عنده بالخير. وكان صدر الـدين هـذا مطلعـا علـى موضوع إيفاد قيصر إلى مصر. وقد تحدث إلـى أحـد الثقـات مـن أصدقائه عن جانب من تودد نوروز إلى سلطان مصـر، فنقـل ذلـك الشخص تلك الحكاية إلى شيخ المشايخ محمود وعرضوا ذلك مجتمعين فى حضرة غازان، فطمأن السلطان الشيخ زاده صدر الـدين، ووعـده وعودا طيبة، وأرسله إلى بغداد كى يتحرى عن أحوال قيصر، ويعرف

هل قدم من خراسان أو لاً؟ فسار من هشترود إلى بغداد ممتطيا حصان البريد. ثم قدم إلى جمجال مع سلطان الإسلام، وأبلغه أن "قيصرا" لـم يأت بعد، فأمره بأن يعود إلى بغداد ويحضره بيده مقبوضا عليه. فلمـا ذهب الشيخ إلى هناك، كان قيصر قد وصل مع ثلاثة من الخدم، وكان يزمع السفر فى ذلك الأسبوع. ثم قصد دار صدر الدين مع خـادمين، وذلك بدافع الصداقة. وكان الشيخ زاده قد أخبر المستشار بأن يرسـل إليه طبقًا من الحلوى الممزوجة بمادة مخدرة حتى يطعمها الضـيوف. فأكل قيصر والخادمان بنهم شديد، وناموا فى أماكنهم فاقدى الـوعى. وكان ذلك المستشار يقف مع طائفة من الخدم مترصـدين، فـاقتحموا المنزل، وقبضوا على قيصر وخادميه، وكبلوهم بالقيود.

أما صدر الدين الزنجانى الذى كان قد تولى الوزارة حـديثًا؛ فإنـه كان ينتهز الفرصة دائما كى يوجد خللاً كبيرا فى تصـرفات نـوروز **[ص٣١٦]**. ويرجع سبب ذلك إلى أن صدر الدين كان يتوقع أن يتولى الوزارة؛ ولكن "نوروز" اختار جمال الـدين الدسـتجردانى نائبـا لـه ووزيرا للدولة. ومنذ ذلك الوقت صار صدر الـدين عـدوا وخصـما لنوروز؛ إذ إنه لم يبق له عمل يزاوله. وعلى هذا وجد صـدر الـدين وأخوه الفرصة سانحة فى تلك القضية للانتقام من نوروز، وأظهرا فى ذلك براعة تامة، فكتبا ست رسائل على لسان نوروز إلى مصر والشام مضمونها أن السلطان مسلم بحمد ا ومنه. ولكن بما أننى أريد تقويـة

دين الإسلام وتدعيمه، يمانع الأمراء فى ذلك. وإذن فالمأمول هـو أن نتفق معا على القضاء عليهم ليكون عملنا مستحسنًا ومقبـولاً شـرعا وعقلاً. ولقد كتبت أنا نفسى إلى أخوى لكزى وحاجى قائلاً لهمـا: إذا استطعتما تدارك الأمر قبل اتفاقنا فافعلا، وإلا فعلنا نحن ذلك. وبهـذا أُحرر إيران وأسلمها لكم. هذا وقد أرسلت بعضا مـن الثيـاب باسـم الهدية. ثم وضعوا تلك الرسائل المزورة فى العيبة التـى كانـت مـع قيصر مع سبعة عشر ثوبا. ثم كتب صدر الدين رسـالة علـى لسـان نوروز إلى حاجى نارين بخصوص هذا الموضـوع، وذهـب إليـه، وتناول كأسا على سبيل الاحترام، ثم وضع الرسالة فى متاعه دون أن يتنبه، ثم انصرف. بعد ذلك أرسل الشيخ محمود أخـاه سـليمان إلـى الحضرة لإطلاع غازان على ما حدث. وكان سلطان الإسلام قد عـاد من موضع الميدان على حدود كرمانشاهان، وجد فى السير يوما واحدا حتى بلغ (شهر آبان) التى تبعد ثلاثين فرسخًا.

وفى يوم الأحد الحادى والعشرين من جمادى الأولى، وصل الشيخ محمود وقطب الدين أخو صدر الدين الزنجانى، ومعهما قيصـر إلـى "شهر آبان" وعرضا على غازان موقف قيصر فقال له سلطان الإسلام: "قل الصدق". عندئذ عرض قيصر الموضوع بطريقة لم يثبت فيهـا أى ذنب على الأمير نوروز. ثم طلبوا عيبته، وأخرجـوا منهـا الرسـائل والثياب، **[ص٣١٧]** وشهدوا جميعا بأنها كتبت بخط حاجى رمضـان



كاتب الأمير نوروز. عندئذ أمر السلطان بقتل قيصر ذلك الغلام ضربا بالهراوات، وتعهد الشيخ زاده بأن يعثر على الغلامين الآخرين.

ثم ذهب بالفعل إلى بغداد لهذا الغرض، ولكن لم يتيسر له العثـور عليهما. ولما لم يستطع القيام بما تعهد به قضوا عليه أيضـا. وكانـت نيران الغضب تضطرم فى صدر السلطان غازان، وتحرق الأخضـر واليابس، فقال: حيث إنه قد وقع الاطلاع على أسرار نـوروز ينبغـى اتخاذ شروط الحزم والاحتياط قبل ظهور آثار الغدر والمكر.

وعلى أثر ذلك صدرت الأوامر بأن يقوم الأمير نورين وباينجـار باعتقال جميع آل نوروز من أبناء وأنصار وأتباع وقتلهم جميعا. وعلى أثر ذلك رحلت الرايات السلطانية من هناك إلى الهارونية. وكان حاجى قد عزم على السير، فأدركه باينجار واعتقله، وسيق أتباعه إلى جهـة أخرى. وكانوا قد قتلوا قبل ذلك ساتلميش نائب نوروز وابنه قتلغتيمور واوردو بوقا ابن نوروز، وسيق حاجى نارين إلى مرج خانقين، فحقق معه الأمير نورين. ولما ثبتت إدانته بإخراج رسالة صدر الـدين مـن أمتعته، جردوه من ملابسه، وطافوا به حول البيوت، ثم قتلوه ونهبـوا دياره وأمواله. وفى تلك الظروف فر ابنه تغاى الذى كان فـى الثانيـة عشرة من عمره، ولجأ إلى دار الأمير انجيل الذى كان أميرا لمعسـكر الخاتون المعظمة بولوغان الخراسانية، فحافظوا على الصـبى هنـاك حتى سكن غضب السلطان، ثم عرضوا عليه حاله ونجا من الهـلاك.

وهو الآن ملازم لخاله الأمير حسين، وسلموا خاصته وأتباعه لبولوغان خاتون الخراسانية **[ص٣١٨]**. كذلك قتلوا كمال الصغير (كمال كوجك) الذى كان أيضا نائبا له. وقتل أيضا لكزى فى السـابع مـن جمـادى الآخرة فى ميدان "مايدشت"، وعفوا عن كشاك ابن أخى نوروز، وأخيه يول قتلغ. وبسبب ذلك الفتح سموا الميدان الكبير "قتلغ ميدان". كـذلك أرسلت الأوامر إلى كل البلاد بقتل جميع أقـارب نـوروز وأتباعـه، وقضوا أيضا على شيدون وايل بوقا ابنى هندوقور على حدود قصـر شيرين.

وفى يوم الثلاثاء العشرين من رجب، وصل إلى الحضرة الأميـر النجل خربنده من خراسان. وفى الخامس من شعبان، وصل الأمير قتلغ شاه إلى أسد آباد همذان قادما من ناحية موغان. وبعد ذلك قـدم مـن ناحية الرى الأمير جوبان وبولادقيا. ثم صدر الأمر بأن يسير بولادقيا إلى خراسان لاعتقال نوروز، ويلحق بهورقوداق والأمير سوتاى.

وبعد يومين سير أيضا الأمير قتلغ شاه. وفى إثره أرسـل قتلغيـا كذلك. وفى أوائل شعبان اعتقل فى بلاد الروم سولاميش وعرب بـالو بن تنجى بسبب تمردهما، وأحضروهما إلى تبريز. ثم تحرك سـلطان الإسلام من أسد آباد قاصدا مصيف آلاتاغ، وسير من حدود "كره رود" خربنده ابن ملك العالم للمحافظة على بلاد خراسان. وعنـدما وصـل غازان إلى "نوشهر" جاءت الرسل بالبشارة من قبل قتلغ شـاه، وهـم

يقولون: إن "نوروز" اشتبك فى القتال وانهزم وأحضـر يولجـه أخـا طوغان جوق فى الرضاعة.

ومؤدى هذه القصة أنه عندما وصل الأمير قتلغ شاه إلـى دامغـان وجد أن هورقداق وسوتاى كانا قد قتلا شِحن نوروز الذين كـانوا فـى الرى ورامين وخوار وسمنان ودامغان وبسطام **[ص٣١٩]**.

ولما بلغ قواد غازان اسفرايين، سار معهم أبناء "بوقا تيمور آلغـو" للأخذ بقصاص دم أبيهم من نوروز. وفى تلك الأيـام أعلـن المـدعو دانشمند قائد إحدى فرق نوروز المكونة من ألف جندى، أعلن خضوعه ودخوله فى الطاعة؛ فسيره قتلغ شاه فى الطليعة. ثم ذهـب اويراتـاى قزان إلى نيسابور، وأخطر "نوروز" بوصول جيش غازان، فرحل من هناك. وفى إحدى محطات البريد، واجه جيش دانشمند بهادر، فتحارب الفريقان. ورغم أن جيش دانشمند كان قليل العدد، انهزم نوروز وهرب مع نفر قليل. وفى الصباح وقعت أمتعته وخزائنـه غنيمـة فـى يـد خصومه. ثم تعقبه بسرعة فائقة هورقوداق وأبناء بوقاى يارغوجى مع عشرة آلاف جندى. وفى الليل وصل نوروز إلى ولاية جام حيث توجد قطعان خيوله ونزل بينها، وأمر الخدم بإعداد كمين خلـف الجـدران. وفى منتصف الليل وصل جنود غازان وأرادوا أن يسـوقوا الخيـول، ففتح نوروز وخدمه الكمين، وأحضروا أوتار القسى، وأطلقوا السـهام، فقتل خلق، وصار الباقون مشردين. وبهذا انهزم نوروز، وخرج جيش

هذا الطرف (أى جيش غازان) فائزا منتصرا. وكان نوروز يسير على غير هدى، وهو منهزم؛ حتى إذا وصل إلى باب هراة دعـاه حاكمهـا فخر الدين بن شمس الدين كرت إلى داخل المدينة ففكر فى ذلك الأمر. ولكن أمراءه بابكر وساربان وسدوم قالوا: أيها الأمير!... إن قلوبنا لا تطمئن إلى كلام هذا الرجل. والمصلحة تقضى أن نمر بسـلام مـن وراء هذا الجدار، ولا نعتمد على وعده. فقال نوروز: لقـد فـاتنى أن أؤدى صلاة الفرائض ثلاثة أيام، وأنا أريد قضاءها. فمضى الأمـراء ونجوا بأنفسهم. ودخل نوروز مدينة هراة مع أربعمائة فارس وصـعد القلعة. **[ص٣٢٠]** أما الأمير قتلغ شاه الذى كان يتعقبه، فإنـه عنـدما وصل إلى مشهد طـوس، زار القبر، وصلى ركعـتين صـلاة الحاجة، ثم سجد وتضرع إلى ا قائلاً: "يا إلهـى!... إنـى لا أدرى أمصيب أنا أم مخطئ فى هذا الأمر؟.. فكلا الخصمين مسلم والسلطان مسلم. وأنت يا رب عالم الأسرار. فإذا كنت تعرف أن "نوروز" مذنب، وعلى باطل، وخالف غازان وعصاه، فاجعله على يدى أسيرا مخذولاً".

ثم سار من هناك حتى إذا بلغ هراة، حاصر الجنود المدينة، وشرع الجانبان فى القتال. وكان الأميران نورغاى وجمجاى يحاربان بشـدة. وكان الطقس حارا جدا، فقالت جماعة من جند قتلغ شاه: إن المصـلحة تقضى بأن نعود لأن سور هراة حصين جدا، ولن يكون مـن السـهل القضاء على الخصم نوروز فتكدر الأمير قتلغ شاه إلى أقصـى حـد،

وقال: لقد صار الخصم ضعيفًا ذليلاً، وبقى خلف الجدار بـلا أعـوان وانصار، فكيف نعود، وما العذر الذى نقدمه إلى الحضرة؟! لا بـد أن نصمم على الاستمرار فى هذا الأمر، ونسعى فى سبيل هذا الهدف حتى يتحقق الفتح المبين بفضل التأييد الربانى. ثم كلّف شيخ الإسلام "جـام" فجأة - الذى كان فى صحبة الأمير - بأن يكتب رسالة إلـى صـهرة الملك فخر الدين، يقول فيها على لسان قتلغ شاه: ينبغى أن تتدبر هـذا الأمر جيدا وإلا فإن مدينة هراة، وكل بلاد خراسـان سـوف تـروح ضحية لهذه القضية. وقد ذيل قتلغ شاه هذه الرسالة بتوقيعه. ثم أرسلت إلى المدينة على يد أحد الجواسيس. فلما قرأهـا الملـك حملهـا إلـى نوروز، فقال هذا للمقربين إليه: إنه يتضح من هذه القضـية أن قلـب الملك معى فى غاية الصدق والإخلاص. عندئذ قال حـاجى رمضـان لنوروز فى السر: إن المصلحة تقتضى **[ص٣٢١]** أن نعتقل الملك فخر الدين ونقيده حتى نهاية المعركة؛ فإذا كان النصر لنـا، فإننـا نكرمـه ونرعاه ونطلق سراحه، وإلا فسيعرف الجميع غدره وخيانتـه. وبهـذا نكون قد راعينا شروط اليقظة والاحتياط. ولكن "نوروز" لم يقبل هـذا الكلام. وكان هناك رجل سجزى قد استرق السمع، فمضى على الفور، وأبلغ الملك كل ما سمع، فخاف الملك، وتشاور مع عظمـاء المدينـة وأعيانها، وقال: إن جنود غازان سوف يستولون علـى هـذه المدينـة ويأسرون نساءنا وأبناءنا، وتسقط أسرتنا العريقة منـذ القـدم. ثـم إن

"نوروز" سبق أن أقسم لغازان بالأيمان المغلظة أنه لن يخالفه أبدا. وقد خالفه. وإذن فمصلحتنا فى أن نسبقه ونعتقله بالمكر والحيلـة ونعلـن الخضوع والطاعة. وعلينا أن نأخذ عهدا بالأمان مـن الأميـر قتلـغ، ونسلمه له. فقال أهالى المدينة: إن رأى الملك هو الأعلى، فهو يبرم كل ما يعرفه صوابا.

بعد ذلك ذهب الملك إلى نوروز بعد إجراء هذه المقدمة، وقال لـه: إن جنودنا الهرويين والغوريين يتراخون فى القتال. فالرأى أن ترسـل رجلين من رجالك على رأس كل عشرة من جنودنا كـى يحرضـوهم على القتال، ولا يسمحوا لهم بالتراخى. وبناء على نصيحة الملك وزع نوروز جميع جنوده على تلك الجماعة، فتشتتوا وتفرقوا، وبقـى هـو وحده فى القلعة. ثم أوعز الملك إلى جنوده بأن يعتقلوا جميـع أتبـاع نوروز، ويقيدوهم. ثم صعد القلعة هو نفسه مـع عـدة رجـال مـن الغوريين الشجعان، واعتقل نوروز، وأحكم وثاقه، وقال له: إن الفرمان يقضى بتسليمك للأمير قتلغ شاه.

ومن عجائب الأمور أن الملك فخر الدين كان فى عهد أبيه شـمس الدين كرت عاقًا إلى أقصى حد، وعنيدا متمردا ومشاغبا. ولهذا قيـده أبوه الملك شمس الدين، وسجنه فى قلعة "خيسـار". وبعـد أن وصـل نوروز إلى هناك، التمس إلى أبيه أن يطلق سراحه، فقال شمس الدين: أنا أعرفه جيدا، ،أعرف كيف أن له نفسا مجردة من الوفاء. ومن حيث

إنه لم يكن وفيا لأبيه، فلن يكون وفيا لك أنت أيضا. ورغم هذا صـار نوروز يبالغ ويلح فى الشفاعة له. وأخيرا قال الملك: إننى أطلق سراحه بشرط أن تعطينى تعهدا ينص على أن كل عمل يصدر عنه مـن الآن فصاعدا، يكون الأمير مسئولاً عنه؛ فأعطاه نوروز تعهدا بذلك. وعلى هذا فك الملك شمس الدين قيوده وأطلق سراحه.

وعندما كان الملك فخر الدين يقوم باعتقال نوروز، قال له: إننى لـم أسئ إليك حتى تنكث العهد وتسفك دمى. وإذا كان لا مفر من الغـدر، فأعطنى جوادى الكميت وسيفى حتى أركـب الجـواد بـدون سـرج وأخوض المعركة وسط هذا الجيش، فأقتل فى الحرب كى أكون غازيا وشهيدا فى آن واحد. فرد عليه الملك قائلاً: منـذ الآن سـوف تـرى الحصان والسيف تحت أفخاذ الآخرين. وفى قبضة أيديهم. وبمجرد أن اعتقل نوروز، قطع فخر الدين رأس حاجى رمضان، وأرسله على يـد رسول إلى الأمير قتلغ شاه، يبلغه نبأ اعتقال نوروز وإخوته وأتباعـه. ثم طلب منه عهدا بالأمان حتى يكون ذلك شفيعا له، وحتى لا يؤاخـذه غازان باسم الهرويين، وأن يقسم على ذلك بالأيمان المغلظة. ثم ألقـى الرسول رأس حاجى أمام قتلغ شاه، وقال له: إن الملك يقدم الخضـوع والطاعة، ويقول: لقد تهيأ نصر كبير بسعادة الأمير وإقبالـه، وأسـر نوروز وأتباعه وكبلوا جميعا بالأصفاد.

ولما رأى الأمير رأس حاجى رمضان، عرف أن كلام فخر الـدين صدق، قال: بناء على التماس الهرويين، كتـب عـلاء الـدين نصـر الخطائى كتاب الأمان المؤكد، وذكر فى مقدمته أيمانا مغلظة. ثم أرسل الأمير قتلغ شاه إلى المدينة الأمير بولا دقيا وخواجه علاء الدين وشيخ الإسلام "جام" حامل هذا المكتوب بعنوان الرسالة، فتلقى الملك مقـدمهم بالترحيب والتكريم، وأعادهم معززين قائلاً لهم: سوف أرسل نـوروز ليلاً مقيدا إلى حضرة الأمير.

بعد ذلك عاد الرسل على هذا النحو، وأطلعوا الأمير على ما حدث. وفى الليل أرسل الملك "نوروز" مقيدا، وفى حراسة طائفة من الضـباط الغوريين؛ فسر قتلغ شاه بذلك الفتح سرورا بالغًا. ثم سأل نوروز: لـم فعلت هذا؟ فرد عليه بقوله: إن غازان يستطيع محاكمتى لا أنت. وكلما سألوه بعد هذا، لم يجب عن أسئلتهم، وسبب ذلك أنه لم يرتكب ذنبا قط، وأنه لا إثم عليه. ثم أمر قتلغ شاه بإنزاله، وشقوه نصفين، وأرسل رأسه إلى الحضرة. ومن هناك أرسل إلى بغداد، وظل فى باب النوبى عـدة سنوات معلقًا على رأس عمود من الخشب. كذلك قتـل هنـاك أخـواه أرغون حاجى وبولادوق. وكان ذلك فى الثالث والعشرين من شوال سنة ٦٩٦هـ / ١٢٩٦م. والسلام.

حكاية
ارتفاع شأن صدر الدين الزنجانى، وازدهار عمله
بسب قتل الأمير نوروز، ووصول الرايات
السلطانية من ألاتاغ إلى تبريز
ووضع أساس القبة العالية
فى شم تبريز

بعد قتل نوروز رحل الأمير قتلغ شاه من ظاهر هراة، ونزل فـى مرج شوران (مرغزار شوران). كذلك قضى علـى قـواد نـوروز: بوراجر واليجاق وتوكال قرا وطائفة أخرى. **[ص٣٢٤]**. أما قراسـون فقد لاذ بالفرار، وكان فى خدمة الأمير قتلغ شاه. كذلك رحل سـلطان الإسلام من ألاتاغ. وفى يوم الجمعة الرابع والعشرين من ذى القعـدة وصل إلى تبريز. وفى اليوم التالى قتل بالتو وابنه فى ميدان تبريز.

وعلى إثر قتل نوروز، ارتفع شأن صدر الدين، وشـمله السـلطان برعايته، ومنحه الختم الأحمر (آلتمغا). وفى غـرة ذى الحجـة قـدم سلطان الإسلام من شم إلى تبريز، وذهب إلى المسـجد لأداء صـلاة الجمعة، وتصدق على الفقراء والمساكين بأموال طائلة. وكذلك فعل فى الجمعة التالية. وفى يوم السبت السادس عشر مـن ذى الحجـة سـنة ٦٩٦هـ/١٢٩٦م وضع أساس قبة عالية وسط حديقة العادلية بموضـع

"شم". وقد شغفف شغفًا كبيرا بهذا الأمر. وكان يتردد دائما على هـذا المكان ليتفقد أعمال البنائين والعمال. ولما رفعوا بناء سـرداب القبـة على وجه الأرض، سأله المهندسون عن عدد ما ينبغى أن يفتحوا مـن منافذ للإنارة. فسألهم: لماذا؟ فأجابوا: كى يكون السرداب منيرا. فأجاب هو نفسه على هذا السؤال: ينبغى إيصال النور من هنا إلى هناك، وإلا فلا فائدة للمرء من ضوء الشمس غير الثابت. وفى يوم الاثنين الثـامن عشر من ذى الحجة وصل قتلغ شاه نويان من خراسان. وفى منتصف المحرم سنة ٦٩٧هـ/١٢٩٧م وضع غازان العمامة على رأسـه هـو وكافة الأمراء. وفى اليوم التالى أقاموا الولائم والحفـلات. وبعـد أداء الصلاة فى يوم الجمعة العشرين من المحرم سـنة ٦٩٧هـ ـ/١٢٩٧م غادر غازان تبريز قاصدا مشتى أران. وفى ذلك الوقت كانـت تـذاع أنباء عن وقوع اضطرابات فى جورجيا[١]، فأرسل الأمير قتلـغ شـاه وهو فى الطريق إلى هناك كى يتفحص شـئون هـذه الولايـة، فقـام بمهمته، وعاد سريعا مصطحبا معه أخا الملك داود "وختانكـ" فوجـدا الرعاية والتكريم.

---

(١) تسمى أيضًا كرجستان. يسكنها جيل من الناس يعرفون باسم الكرج (الجرج)، وهم نصارى. فتحها تيمور فى ختام المائة الثامنة (الرابعة عشرة) وتفليس قصبة جورجيا، وتقع فى أعالى نهر الكر، وأرضها خصبة كثيرة الخيرات. (انظر معجم البلدان، ج٤، ص٤٤٦؛ بلدان الخلافة الشرقية، ص٢١٦).

بعد ذلك تحركت الرايات السلطانية إلى ناحيـة بـاكو **[ص٣٢٩]** وغادرت هذا الموضع بعد عدة أيام. وفى يوم الجمعة التاسع من ربيـع الآخر سنة ٦٩٧هـ/١٢٩٧م توفى الأمير النجل "ختاى أغـول" فـى "دالان ناوور". وفى هذا البلد أيضا ولد الأمير النجل "آلجو" فى التاسـع من جمادى الأولى سنة ٦٩٧هـ/١٢٩٧م، وصار الجميع منهمكين فى إقامة الولائم والاحتفالات والأخذ بأسباب اللهو والمتعة. والسلام.

حكاية

اختلال أحوال صدر الدين الزنجانى وإعدامه

فى يـوم الجمعـة الثالـث عشـر مـن جمـادى الآخـرة سـنة ٦٩٧هـ/١٢٩٧م جثا على ركبتيه السيد قطـب الـدين الشـيرازى[1] ومعين الدين الخراسانى، وعرضا على غازان موضوع خيانة صـدر الدين الزنجانى وتلاعبه فى أموال البلاد.

---

(١) هو العلامة قطب الدين محمود بن مسعود بن مصلح الكازرونى الشيرازى. ولد سنة ٦٣٤هـ. وكان أبوه طبيبًا. درس مقدمات علم الطب على يد والده وعمه. كذلك برع فى الحكمة والهيئة، واستكمل دراساته ومعارفه بعد أن اتصل بالخواجه نصير الدين الطوسى وشارك فى الأعمال العلمية التى يقوم بها فى مرصد مراغه. وكان يتمتع بذكاء نادر وعقلية مستنيرة. بعد ذلك رحل إلى بلاد الروم، وشغل منصب قاضى سيواس وملطية. ثم سافر إلى الشام والتقى بالصوفى الكبير جلال الدين الرومى، وتزيى بزى أهل التصوف ثم عاد إلى تبريز، وكان معززًا مكرمًا لدى السلطان أولجاتيو. وفى مدينة تبريز كانت وفاته فى سنة ٧١٠هـ.
يعد العلامة قطب الدين الشيرازى أحد العلماء الراسخين فى العلم. وقد عرف عنه أنه رجل مرح، يتمتع بلطف وظرف، ويجيد لعب الشطرنج والعزف على الرباب. وهناك حكايات تروى عن روحه المرحة ومطيباته العديدة. له مؤلفات عديدة باللغتين العربية والفارسية منها شرح كتاب القانون فى الطب لابن سينا وشرح حكمة الإشراق لشهاب الدين السهروردى المقتول، وشرح مفاتيح العلوم للسكاكى، وكتاب درة التاج لدرة الدباج. وهو بالفارسية، ويتناول علومًا مختلفة. (انظر عباس اقبال: تاريخ مفصل إيران از استيلاى مغول تا اعلان مشروطيت جلد أول از حملة جنكيز تاتشكيل دولت تيمورى، ص٣١٢، ٥٠٦ ـ ٥٠٧، طهران ١٣١٢هـ.ش؛ مجموعة مقالات عباس اقبال آشتيانى شامل يكصدويك مقاله با مقدمه وتصحيح آقاى دكتر محمد دبير سياقى بعنوان علامة قطب الدين شيرازى ومطايبات أو، ص ٢٩٠ ـ ٢٩٦، تهران ١٣٥٠ هـ.ش؛ الشرق الإسلامى، ص ٣٥٥).

وفى أغلب الأوقات كان بين مؤلف هذا الكتاب رشيد الطبيب وبين صدر الدين صداقة ومودة. وقد حاولت طائفة من أصـحاب الـديوان تكدير صفو العلاقات بين الصديقين وصاروا ينقلون الكلام من كل نوع للإيقاع بيننا. ولكنى لم أكن ألتفت إلى مثل هذه المحاولات. ولما يئسوا منى، مضوا إلى صدر الدين، وألّبوه على بتخليطهم وتمويههم وتلفيقهم؛ غير أننى لم أكن أعبأ كثيرا بمثل هذه الأمور. وفى يوم الأحد منتصف جمادى الآخرة، ركع صدر الدين على ركبته فى حضـرة السـلطان، وحاول إهانتى بطريق الغمز واللمز فشغلت بالرد عليه. ولكـن نهـره السلطان وقال له: إنه لم يتناولك بسوء مطلقًا. وعندئـذ شـرعت فـى الكلام؛ غير أن السلطان قال لى: لا تلوث لسانك بالرد عليه، وحـافظ على سيرتك ومسلكك. ولما اتضحت براءتى، استاء صدر الدين مـن تلك الجماعة استياء شديدا؛ لأنها هى التى قامت يالسعاية والدس لإفساد العلاقات بيننا.

وفى يوم الأحد سلخ جمادى الآخرة، قبض علـى طـايجو آغـول وأصحابه **[ص٣٢٦]** وذلك بسبب إثارتهم الفتنة. كما قبض على الشيخ الذى يرافقه، والذى وعده بتقليده الحكم. وفجأة أبلـغ السـلطان تلـك القضية. وفى الثانى من شهر رجب قتل طايجو اغول مع أربعة مـن أتباعه على ضفة النهر الذى كانوا قد شقوه فى منطقة "دالان نـاوور". وقد عبر السلطان النهر، ونزل فى المعسكرات فى موضع "جوى نـو"

وعندما كان السلطان فى "دالان ناوور"، وكان الأمير قتلغ شاه قد عـاد من جورجيا (كرجستان) أخذ السلطان يعاتب صدر الدين بخصـوص الأموال التى تجبى من هناك، فخافه صدر الدين، وعرض قـائلاً: إن أتباع قتلغ شاه خربوا ولاية جورجيا. ولهذا السـبب صـار السـلطان يعاتب الأمير فى صحوه وسكره. فما كان من الأمير إلا أن سأل صدر الدين قائلاً: ألا تعلم من شكانى إلى حضرة غازان حتى صار يعاتبنى؟!

فأجاب صدر الدين: إنه رشيد الدين.

وفى يوم "نوروز"[1]، خرج الأمير قتلغ شاه من لدن حضرة غازان، وتصادف أن قابلنى، فقال لى: لقد كنا سويا فى حاشية واحدة ولم يحدث بيننا شىء قط يعكر صفو علاقاتنا ويسبب الأذى. وإذن فكيف أسـأت إلى فى حضرة السلطان؟!.. فرددت عليه قائلاً: الحقيقة أنه لم يلحقنـى ضرر منك مطلقًا؛ بحيث أسىء إليك!.. ينبغى أن تصرح لـى باسـم الشخص الذى قال لك هذا الكلام، وإلا فسوف أعرض الموضوع على حضرة السلطان. فلما لم يذكر اسم هذا الشخص، عرضت هذا الكـلام على غازان خان فى موضع الصيد. فاستدعى السلطان الأميـر قتلـغ شاه، وقال له: تلبية لرغبتى الشديدة، أصدقنى القول: من قال لك هـذا الكلام؟! أجاب صدر الدين: فتضايق سلطان الإسـلام ضـيقًا شـديدا،

---

(١) للوقوف على تفصيلات عن النوروز انظر كتاب النوروز وأثره فى الأدب العربى، تأليف الدكتور فؤاد عبد المعطى الصياد، بيروت ١٩٧٢م.

وقال: مهما حاولت أن يترك هذا الرجل الخداع والتمويه وإثارة الفتن، كان ذلك دون جدوى؛ لأن طبيعته تجرى على هذا النمط.**[ص٣٢٧]**.

وفى يوم الأربعاء السابع عشر من رجب صـدر الأمـر باعتقـال صدر الدين، وأخيه قطب الدين أيضا. وفى يوم الجمعة التاسع عشـر من رجب شرعوا فى محاكمة صدر الدين، فكان يرد علـى المحققـين بإجابات جريئة ودون مبالاة، ولم يكن يكترث بالقضاة. ولو أنه أُعطى فرصة الكلام لخاص نفسه من تلك الورطة الهائلة، غير أن السـلطان أمر بأن ينهى قتلغ شاه حياة صدر الدين.

وفى يوم الأحد الحادى والعشرين من رجب سنة ٦٩٧هـ/١٢٩٧م وفى وقت الضحى وفى موضع "جوى جاندار" أمسك الأميـر سـوتاى بإحدى يدى صدر الدين، وأمسك البهلوان ملك غورى بيده الأخرى. ثم قده الأمير قتلغ شاه نصفين[1].

---

(١) يقول عنه ابن الفوطى فى أحداث سنة ٦٩٧هـ: فيها أمر السلطان غازان بقتل صدر الدين أحمد بن عبد الرزاق الخالدى صاحب ديوان الممالك لما ظهر من سوء حركاته، وكان غير محمود السيرة ظالمًا، أظهر الجاو، وقسر الناس على المعاملة به، فأضربهم، وبطلت معايشهم وتعطلت أمورهم إلى أن لطف الله تعالى، وألهم السلطان (كيخاتو) إبطاله ثم ضاعف الخراج كما فعل جمال الدين الدستجردانى، وبالغ فى المصادرات والتثقيلات. فلما قتل أمر بقتل أخيه قطب الدين فقتل، وطلب أخوه زين الدين الذى كان قاضى القضاة ببغداد، فهرب، ولحق بصاحب جيلان فسأل من السلطان العفو عنه، فأجاب سؤاله فسأل أن يعاد إلى القضاء بالعراق، فأخذ وحبس بتبريز فهرب من الحبس، فأدرك وأعيد إليه وقتل. (الحوادث الجامعة والتجارب النافعة فى المائة السابعة، تحقيق الأستاذ مصطفى جواد، ص ٤٩٥ – ٤٩٦، بغداد ١٣٥١هـ).

تعالى ا ، فإن صدر الدين قد بذل من السعى والاجتهاد الشىء الكثير؛ بحيث إنه فى كل وقت، كان يهدف إلى ازدهار شأنه. وإن كل الفتن والقلاقل التى أثارها، كانت فى سبيل تحقيق هذا الغرض. ولكن كانت عاقبة أمره، أن عندما وصل إلى غايته، لم يتمتع بما حصل عليه، ولم ينل بغيته.

بعد ذلك تحركت الرايات السلطانية من هناك إلى "بيلسوار" وواصل غازان خان ومن معه الرحلة تلو الرحلة حتى يوم السبت الثانى عشر من شعبان عندما وصلوا إلىدار الملك تبريز. وفى يوم الاثنين الحادى والعشرين من شعبان قتل القاضى قطب الدين وابن عمه قوام الملك على باب بوابة "ورجونة" بتبريز. أما القاضى زين الدين الذى كان من أقاربهما، فقد هرب ليلاً من سجن تبريز وسار ناحية كيلان، وعاد بعد سنتين أو ثلاث سنوات ثم هرب ثانية. وأخيرا اعتقل وقتل.

وفى يوم الأحد العاشر من شوال سنة ٦٩٧هـ/١٢٩٧م أثار عوام تبريز الشغب، وخربوا باقى الكنائس؛ فغضب عليهم سلطان الإسلام، وعوقب بعض هؤلاء المشاغبين من مثيرى الفتنة. وفى يوم الاثنين التاسع من ذى القعدة توفى ساربان بن سونجاق نويان فى تبريز. وفى الخامس والعشرين من ذى القعدة توفى "بورلتاى أغول" من ذرية جوجى قسار. والسلام.

حكاية
توجه الرايات السلطانية من دار الملك تبريز إلى مشتى بغداد، وتفويض منصب الوزارة إلى الخواجه سعد الدين، ووصول خبر تمرد سولاميش، وزحف الجيش للقضاء عليه

فى يوم الخميس الثالث من ذى الحجة سنة ٦٩٧هـ / ١٢٩٧م سار سلطان الإسلام من دار الملك تبريز جنوب أوجان[1]، قاصدا مشتى بغداد وفوض منصب الوزارة إلى الصاحب الأعظم الخواجه سعد الدين الذى كان قد أكد سوابق حقوق التأييد بلواحق أنواع الوفاء وقام بشروط ومراسم الملازمة، والمرافقة فى السراء والضراء، وفى الحل والترحال. ثم أرسل السلطان الأمير "نورين" من دربند إلى أران للمحافظة على الأمن. وفى يوم الجمعة الثانى من المحرم سنة ٦٩٨هـ/١٢٩٨م نزل فى مرج زك (مرغزار زك) على حدود همذان.

(١) أوْجان أو أُجان:مدينة تقع على بعد عشرة فراسخ من تبريز فى طريق ميانه. وقد وصف ياقوت أجان فقال عنها إنها مدينة عليها سور وبها سوق. إلا أن الخراب لحق بها. ولكن بعد عصر ياقوت أعاد غازان بناءها وأقام فيها زمنًا، وأطلق عليها اسمًا جديدًا هو" شهرإسلام" أى مدينة الإسلام. وكانت نواحيها وافرة الخيرات، يكثر فيها القطن والقمح والفواكه. (معجم البلدان، ج١، ص١٠٠؛ نزهة القلوب، ص٩١؛ بارتولد: تذكرة جغرافياى تاريخى ايران، ترجمة حمزه سردادور، ص٢٧٣ طهران ١٣٠٨هـ.ش؛ بلدان الخلافة الشرقية، ص١٩٨).

وفى شهر المحرم أيضا توفى ايسن بوقـا كوركـان بـن نوقـاى يارغوجى. ثم رحل السلطان فى الثامن من المحرم من براهان. وفـى منطقة بروجرد أعدم أبو بكر داد قابادى الذى كان واليا على همـذان بعد ثبوت إدانته.

بعد ذلك سار إلى ناحية جبل الأكراد. وفى يـوم السـبت الثـانى والعشرين من صفر، نزل فى مرج جوقين (مرغـزار جـوقين) مـن أعمال واسط. ومن هناك مر ببطائح شيب، ودخل واسط. وفـى تلـك الأيام كانت تصل تباعا أنباء تمرد سولاميش فى ولاية الروم.

وتتلخص تلك الحكاية فى أنه بعد قتل بالتو، عهد سلطان الإسـلام بإمارة الروم إلى الأمراء باينجـار وبوجقـور ودقوزتيمـور. وكـان سولاميش نفسه أمير أمراء جـيش الـروم **[ص٣٢٩]**. ولمـا عـزل السلطان مسعود بتهمة انتمائه لبالتو عهدوا بالسلطنة إلى ابن أخيه علاء الدين كيقباد بن فرامرز فذهب مع الأمراء المذكورين إلى الروم. وفى ذلك الشتاء كان البرد شديدا جدا فى تلك المناطق، وتسـاقطت ثلـوج كثيرة سدت الطرق، فانقطعت الأخبار. وقد شاعت أنباء تفيد بأن أحوال المعسكر قد ساءت واضطربت.

وقد اغتنم سولاميش هذه الفرصة، فاتفق مـع إقبـال وطاشـتمور وطائفة أخرى، وفجأة ألقى القبض على باينجار وبوجقـور وقتلهمـا، وشرع سولاميش فى العصيان والمخالفة. ثم اسـتدعى الجنـود مـن

أطراف الشام ونواحيها، وأدخل فى طاعته الجنود الذين كانوا يقيمـون فى ولاية دانشمند، واستقروا فى صحراء "قازاداه". ثم جمع عددا كبيرا لا يحصى من الصعاليك والرعاع. وكان يغدق على الجنـود أمـوال الولايات وأملاكها؛ حتى اجتمع حوله ما يقرب من خمسين ألف فارس، وكذلك قبل السوريون أن يمدوه بعشرين ألف جندى وأطلق اسم الأمراء على طائفة منهم، وأعطاهم الأعلام والطبول. وقد اشتدت جرأتـه لأن الطريق كان مسدودا، ولا يصل الرسل والسعاة من هذه الناحية.

فلما وصلت تلك الأنباء إلى السمع المبارك لسلطان الإسلام غازان، أمر بأن يسير الأمير قتلغ شاه على رأس جيش فى يوم الأحـد الثـانى عشر من جمادى الأولى سنة ٦٩٨هـ/١٢٩٨م عن طريق ديار بكـر قاصدا بلاد الروم للقضاء على سولاميش، وأسرع الأمير جوبان بهادر، فسار فى المقدمة، وفى إثره الأمير قتلغ شاه. أما الأمير سـوتاى فقـد سار على رأس جيش آخر. وفى فصل الربيع تقابـل الجيشـان فـى صحراء آقشهر التابعة لأرزنجان. وقـد دارت الحـرب فـى الرابـع والعشرين من رجب سنة ٦٩٨هـ/١٢٩٨م. وبعد أن انهزم سولاميش، توجه إلى ديار الشام، فقبض عليه الأمراء وأحضروه **[ص٣٣٠]**.

بعد ذلك رحل سلطان الإسلام من جوقين قاصدا بغداد. وفى يـوم الثلاثاء الحادى والعشرين من شهر جمادى الأولى توجه من مدينة نيل (شهرنيل) إلى مشهد أمير المؤمنين على (رضـى ا عنـه) فـزاره،

وشمل بعطفه ورعايته المقيمين والمجاورين للمشهد المقدس وخصـهم بالإنعامات والصدقات.

وفى يوم الأربعاء التاسع والعشرين من جمادى الأولى، قدم جمـع من أمراء الشام ومصر وهم سيف الدين قبجاق وسيف الدين بيكتيمور والبكى وعزار الذين كانوا قد انقلبوا على حاكم مصر لاجـين بسـبب تألمهم منه. وكان معهم ثلاثمائة فارس. وفى رأس العين سمعوا خبـر وفاة لاجين، فندموا. ولكن لم تكن هناك حيلة أخرى. وقد تحدثوا إلـى غازان خان بأنواع من الكلام الغث والسمين. وفى الثالث من جمـادى الآخرة، نزل سلطان الإسلام فى بغداد. وفى يوم الخميس الخامس عشر من الشهر المذكور، ركب السلطان من بغداد واتجه إلى الميدان. ومـن جملة المصريين الذين دخلوا فى الطاعة "بوزلار" الذى فر مع طائفـة أخرى فتعقبهم الجيش المصرى، وقتل أغلب السوريين، وأسـر سـبعة أشخاص، وفر بوزلار وحده ونجا.

وفى أوائل شعبان سنة ٦٩٨هـ/١٢٩٨م هرب فوج من القراوناس، ومقدمهم المدعو بوقا، وهؤلاء كانوا يقيمون فـى ضـواحى طـارم، وساروا عن طريق العراق، واجتازوا حدود يزد وكرمان. وفى الطريق صاروا يغيرون وينهبون، ثم انضموا إلى النكودريين[١] فى "بينى كاو".

---

(١) عرف النكودريون بهذا الاسم نسبة إلى زعيمهم "نكودر" وهو من سلالة جنكيز خان. وقد التحق أول الأمر بخدمة هولاكو خان، ثم ثار عليه، وهاجر مع قبيلته

[ص٣٣١] وفى يوم السبت الرابع عشر من شعبان وصل بالبشارة من الروم يغلاقو سكورجى معلنًا أن الأمير جوبان وباشـغرد قـد هزمـا سولاميش، ولكنه هرب مع نفر قليل. غير أن جميع الجنود الذين كانوا تحت إمرته دخلوا فى الطاعة، وقتل آلغو أخو ايلجيداى قوشجى الـذى كان قد ذهب معه. كذلك أُعتقل إقبال بن أورقتو بـن ايلكـاى نويـان وطاشتيمور الخطائى، وجاءوا بهما.

بعد ذلك نزل سلطان الإسلام فى قوجين الكبرى (قوجين بزرك) من منطقة سغورلوق ووصل "نورين آقا" إلى "قربن شيره" عائدا من أران. وفى الخامس والعشرين من شعبان نزلت الرايات السلطانية فى أوجان. كذلك وصل الأمير النجل خربنده من منطقة خراسان فاستبشر الأخوان بلقاء الواحد منهما الآخر وصارا أكثر تعاونًا وتآزرا. ثم شرع السلطان وأعوانه فى عقد مجلس الشـورى (القوريلتـاى)، وأقـاموا الـولائم والحفلات. ولما فرغوا من المشاورات والمداولات فى مجلس الشورى،

وأتباعه إلى أراضى أفغانستان الحالية. وأعقاب هؤلاء النكودريين هم الذين كونوا قبيلة "هزاره" هناك، وكانوا دائمى الإغارة على خراسان وسجستان وكرمان وفارس. وعلى أيديهم دمرت فارس عام ٦٧٧هـ بعد أن نجت من غارات المغول عند فتحهم إيران. هذا، وقد ظل النكودريون يغيرون على حدود إيران ويحطمون ويدمرون. كذلك أغاروا على يزد فى عهد مبارز الدين محمد المظفرى، وظل يحاربهم إلى أن استأصل شأفتهم. (انظر بارتولد: تذكرة جغرافياى تاريخى إيران، ترجمة حمزه سردادور "طالب زاده" ص١٣٤، جاب أول، طهران ١٣٠٨هـ.ش؛ شرف خان البدليسى: شرفنامه ج٢، ص٢٧).

قتلوا "إقبال" فى الثامن من شعبان. وفى يوم الأربعاء الرابع والعشرين من رمضان قتل أمراء الروم: كرزه وجركس وايسـن الـذين كـانوا متحدين مع سولاميش. وفى يوم الخميس السادس عشر من شوال سنة ٦٩٨هـ/١٢٩٨م تزوج سلطان الإسلام من كرامـون خـاتون ابنـة قتلغتيمور بن آباتاى نويان، ودفع مهرا لها ستين تومانا عـن المقـدم والمؤخر، وأقام حفل الزفاف، وأنزلها فى المعسكر الأعظم فى مكـان "دوقوز خاتون". وفى أوائل ذى الحجة أمر بأن يعود الأميـر النجـل "خربنده" إلى خراسان وأن يحفظ ذلك الإقليم من الاضطرابات.

وفى يوم الجمعة الرابع عشر مـن ذى الحجـة نزلـت الرايـات السلطانية **[ص٣٣٢]** فى العاصـمة تبريـز. وأخيـرا قـبض علـى "سولاميش"، وأحضر من الروم. وفى يوم الثلاثاء التاسع والعشرين من ذى الحجة، قتل فى ميدان تبريز بصورة بشعة ثم أحرقت جثته، وذروا رمادها فى الهواء. وعلى أثر ذلك شعر سلطان الإسلام بتعب بسـبب رمد أصابه، فصار الناس يحرقون الحرمل (نوع من البخـور) لـدفع إصابة العين عنه. وكانوا يدعون ا ، ملتمسين له الشفاء. والسلام.

حكاية
توجه سلطان الإسلام إلى ناحية الشام ومصر
ومحاربته المصريين وهزيمتهم
وفتح ولاية الشام

فى تلك الأيام التى قدم فيها سلطان الإسلام باليمن والإقبال إلى تبريز، كان الرسل يصلون متتابعين من ناحية الروم وديار بكر ويبلّغون أن السوريين زحفوا إلى حدود تلك الولاية يهاجمون ويقطعون الطريق ويحرقون الغلات ويشقون على المسلمين. وقد حاصروا ماردين، وأسروا الكثيرين من المسلمين. وفى شهر رمضان هتكوا أعراض بنات المسلمين وشرب بعضهم الخمر كذلك. ولكن سلمت قلعة ماردين وحدها من شرهم، إلا أنهم أغاروا على بقية المدينة والولاية. ثم مضوا من هناك إلى دنَيسِر[1]، وارتكبوا هذه المنكرات وأرادوا تكرارها فى "رأس العين"[2] أيضا. ولكن الناس هناك كانوا جنودا

---

(١) دنيسر: بلدة عظيمة مشهورة من نواحى الجزيرة قرب ماردين، بينهما فرسخان. ولها اسم آخر هو "قوج حصار". رآها ياقوت وهو صبى وقد صارت قرية، ثم رآها بعد ذلك بنحو ثلاثين سنة، وقد صارت مصرا لا نظير لها كبرًا وكثرة أهلٍ وعَظم أسواق. ليس بها نهر جار إنما يشرب الأهالى من آبار عذبة طيبة، وهواؤها صحيح. (معجم البلدان، ج٢، ص٤٧٨).

(٢) رأس العين هى من الجزيرة على مسيرة يومين من حرّان، وتشتهر بكثرة عيونها التى تبلغ ٣٦٠ عيناً

شجعان التحموا بالمعتدين فى معركة فى الأزقـة الضـيقة بالمدينـة، فعجزوا عن التغلب عليهم؛ غير أنهم نهبوا كل ما وجدوه خارج المدينة من الدواب وغيرها. وفى حلب صاروا يبيعون - على سـبيل الشـكر والامتنان – أسرى المسلمين بأغلى الأثمان.

فلما بلغت هذه الأخبار السمع المبارك لسلطان الإسلام، تميز غيظًا لشدة غيرته على الدين وحمية الإسلام **[ص٣٣٣]**، ورأى لزاما عليـه المبادرة بالقضاء على شر أولئك الطغاة. وبعد أن استفتى أئمـة الـدين وعلماء الإسلام، أفتوه جميعا أن دفع شرهم عن ممالك المسلمين الذين هم فى ذمة همة السلطنة؛ فأمر بحشد الجيوش وسير– حسب ما تقتضيه المصلحة - الأمراء من اليمين واليسار.

وفى يوم الجمعة التاسع عشر من المحرم سنة ٦٩٩هـ ـ/١٢٩٩م تحركت الرايات من دار الملك تبريز نحو الشام. وفى اليوم التالى رحل من ظاهر مدينة مراغة، واستدعى "نورين آقا" من دهخواركـان كـى يسير إلى أران، وعبر نهر الزاب فى العاشر من صفر، وعسكر فـى مقابل قلعة كشاف. وفى يوم الثلاثاء الرابع عشر مـن صـفر تحـرك بالطالع المبارك لبرج الحوت، وودع الخواتين اللائى كن قد سرن مـن

تصب فى نهر الخابور، وتجتمع هذه العيون فتسقى بساتينها وتجعلها كأنها بستان واحد. وتتمتع رأس العين بطقس جميل جدًا، ويكثر بها القطن والقمح والكروم. (تقـويم البلـدان، ص٢٧٩؛ نزهــة القلـوب، ص١٢٢ بلــدان الخلافــة الشــرقية، ص١٢٥).

الموصل لتوديعه، ثم عدن من حيث أتين. وفى يوم السـبت الخـامس والعشرين من صفر، وصل إلى حدود نصيبين[1]، واستعرض الجيش، وفى يوم الاثنين السابع والعشرين من صفر سير قتلغ شاه نويان فـى المقدمة على رأس جيش. وفى يوم الثلاثاء الثانى عشـر مـن ربيـع الأول، عبر باليمن والبركة نهر الفرات فى محاذاة قلعة جعبر وصفين، ووصلت أنباء حسنة تفيد أن خلافًا قد وقع بين الأعداء[2].

وفى يوم الأحد السابع والعشرين من ربيع الأول، وصلت الرايـات السلطانية إلى مدينة حلب، ثم رحلت من هناك. وفى الطريق صـادف جنود غازان المروج والحقول، فابتهجوا برؤيتها قائلين: سوف نطعـم الغلات. عندئذ لوى السلطان العنان، وخرج من جانب الزرع وصـرح قائلاً: إن كل مخلوق يمد يده إلى هـذه الغـلال أو الغـلال الأخـرى **[ص٣٣٤]** التى سوف نصل إليها، ويتناولها أو يطعمها غيره، سـوف يقتل على الفور؛ لأنه ليس مستساغًا أن نطعم الدواب غذاء الإنسان.

---

(١) نصيبين: من أعظم مدن الجزيرة شأنًا. وهى مخصوصة بالورد الأبيض ولا توجد فيها ورود حمراء. وتقع شمالى سنجار. وجبل نصيبين هو الجودى. وهو الذى يقال إن سفينة نوح استقرت عليه. وتتميز نصيبين بكثرة غلاتها من الحبوب والقمح والشعير. (تقويم البلدان، ص٢٨٢؛ بلدان الخلافة الشرقية، ص١٢٤).

(٢) المقصود المؤامرة الخطيرة التى دبرها زعماء قبيلة الأويراتية (العويراتية) بالتعاون مع الأمراء الناقمين؛ وذلك بقصد اغتيال السلطان وإعادة صاحبهم كتبغا إلى عرش مصر. وبالرغم من أن هذه المؤامرة قد أحبطت، كانت سببًا فى تأخر زحف الجيش المصرى، وإضعاف الروح المعنوية للجنود. (المقريزى: السلوك، ج١ ق٣، ص ٨٨٣ - ٨٨٤).

وفى يوم الثلاثاء التاسع عشر من ربيع الأول نزلوا بمنطقة "سرمين"[٣]، وفر مغولتاى أجاجى مع أتباع قبجاق. وفى يوم الاثنين الخامس والعشرين من ربيع الأول اجتاز مدينة حماة ونزل بجوار مدينة سلمية. وهناك ظهر يزك[٤] الأعداء.

وعندما رأى سلطان الإسلام جنوده كأنهم فى غفلة، ذاهلين عن التأهب للحرب، سار باليمن والإقبال مع طائفة من الأبطال الشجعان كى يتخذ الحيطة فى تحديد مكان المعركة وليطلع على أحوال الأعداء. ثم أمر بأن ينادى فى المعسكر أن الأعداء قد وصلوا. عندئذ استعد جنود المغول لخوض المعركة، وشغل الجميع بإعداد أسلحتهم، وصاروا متأهبين للقتال. بعد ذلك عاد الأمير جوبان وقال: ليس هناك أثر لجيش الأعداء. وكان الغرض من إذاعة هذا النبأ على حد قول السلطان: أن ننبه إلى أننا قد اقتربنا من الأعداء، فعليكم أن تكونوا يقظين متنبهين، وأن تقفوا مستعدين متحفزين. وكان غازان قد احتاط للأمر وعرف أن المصريين قد نزلوا فى نفس الموضع الذى كان قد احتشد فيه الجنود فى عهد "منكوتيمور"، وأنهم قد احتلوا المكان الأفضل

---

(٣) سرمين: تقع جنوبى حلب. وهى على منتصف الطريق بين المعرة وحلب. وتتميز سرمين بأنها ذات أشجار كثيرة من زيتون وغيره. وليس لها ماء إلا ما يقع من الأمطار فى الصهاريج. (تقويم البلدان، ص ٢٦٤ – ٢٦٥).

(٤) اليزك: رئيس العسس، ومن يراقب من مضى فيتبعه.(أبو المحاسن: ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، ج٧،ص١٧٣).

وحتى يكون المكان الردىء لجند هذا الطرف (أى جند غازان)، ففكـر فى إفساد خططهم، ورأى من المصلحة عدم مواجهتهم فمال بميسـرته التى تقابل ميمنة الأعداء.

وفى يوم الأربعاء السابع من ربيع الأول، نزل غازان على ضفاف نهر صغير على بعد ثلاثة فراسخ من مدينة حمص وأمر جنوده بـأن يأخذوا كفايتهم من الماء لمدة ثلاثة أيام، وأن يسلكوا طريق الصحراء، ويتعقبوا الأعداء حتى يجبروهم بالضرورة إلى التوجه إلى تلك الناحية، فتبطل بذلك خطتهم التى وضعوها. وقد شغل الناس بأخذ حاجتهم مـن الماء، وظن المصريون أن جنود المغول قد اتجهوا إلى اليسار لتوقعهم الهزيمة. وكان من المقرر أن يحاربوا فى يـوم الخمـيس. ولإيهـام الأعداء بالهزيمة، ركبوا دفعة واحدة فـى يـوم الأربعـاء **[ص٣٣٥]** وتقابلوا وجها لوجه.

ولما علم سلطان الإسلام غازان خان بوصـول الأعـداء، صـلى ركعتين بنية صادقة مع جميع الجنود، ثم ركب، وجاء فـى مواجهـة الأعداء مع من كان حاضرا معه من الجنود. وكان الأمير"مولاى" على رأس الميمنة، ويليه الأمير زاده ساتلميش، وبعده الأمير قتلغ شاه ومن بعدهم "يمن" و"مرتد"، كل مع فرقته المكونة من عشـرة آلاف جنـدى (تومان). أما سلطان الإسلام فقد وقف فى القلب كأنه جبل شامخ. وكان فى مقدمة القلب الأمراء: جوبان و"سـلطان جوبـان" علـى اليمـين،

وساطان على اليسار. وكان على ميمنة القلـب طغريلجـه بـن آجـو سكورجى، وخلف القلب وزيرا السلطان من ذوى المرتبة السامية. وبعد ذلك ايلباسمش على رأس تومانه ويليه جيجاك. وبعده قورمشـى بـن عليناق، وآخر الجميع كوربوقا بهادر الذى كان يعتبر مؤخر الجيش.

وقبل أن يتحرك الجنود جميعهم، شُملوا بالرعايـة والتكـريم، ثـم اشتبكوا فى القتال. وكان السوريون معتمدين إلى أقصـى حـد علـى عددهم وعدتهم؛ غير أنهم لم يكونوا يدركون أنهم وضعوا أقدامهم على أذناب الحيات، وأيديهم على الأشواك. وقد أمر قتلغ شاه بقرع الطبول، فظن المصريون أن السلطان يقف فى ذلك الصف، فحملوا دفعة واحدة على ذلك الموضع، وكانوا يتعاقبون ألفًا بعد ألف، وهم يشقون الصفوف ويجندلون الأبطال؛ فقتل من فرسان الأمير (المقصود قتلغ شاه) طائفـة كبيرة، وصار الباقون منهكين. فسارع قتلغ شاه وانضم إلى الحضـرة مع فوج من الفرسان. وكان المصريون – جريا علـى النظـام الـذى اتبعوه فى عهد منكوتيمور[1] قد أوعزوا إلى "عيسى ابن مهنا"[2] بـأن

(١) منكوتيمور هو ابن هولاكو. أرسله أخوه آبا قاخان على رأس جيش كبير لمحاربة المصريين والسوريين بقيادة السلطان المملوكى قلاوون، فالتقى الطرفان عند حمص فى معركة فاصلة أسفرت عن نصر مبين للقوات العربية وذلك فى سنة ٦٨٠هـ/١٢٨١م. ولما علم آباقاخان بهزيمة قوات المغول هزيمة منكرة، وبخ الناجين منهم وعنفهم وعاتب آخاه منكوتيمور فى لهجة عنيفة قاسية، إذ قال له: لم لا مت أنت والجيش ولا انهزمت (انظر الحافظ الذهبى: العبر، ج٥، ص٣٢٦؛

يرابط بجوار كمين أعدوه مع خمسة آلاف عربى. فلما علم سلطان الإسلام بذلك أمر كورباقا بأن يحمى ظهر الجيش بخمسة آلاف فارس مغولى.

وفى أثناء القتال، فتح جنود العرب الكمين فجأة، فداهمهم كوربوقا (ص٣٣٦)، وسمع سلطان الإسلام صوتًا من الوادى الأيمن يقول: ﴿لا تخف نجوت من القوم الظالمين﴾[3]. فكان لتلك البشرى أثر قوى فى نفسه المباركة، وصار يزمجر كالأسد الهصور، فنزلوا وأمطروا هؤلاء الأعداء بوابل من السهام. ثم ركبوا وشنوا عليهم هجوما كاسحا. وقد استمر القتال من الضحى حتى المساء. وفى النهاية هزم المصريون. ولما انتهوا من القتال وصل "أبيشقا" من الروم، وفى صحبته خمسة آلاف جندى، وصار سلطان الإسلام يتعقب المصريين على مهل حتى

المقريزى: السلوك ج١، ق٣، ص٦٩٩؛ الشرق الإسلامى فى عهد الإيلخانيين (أسرة هولاكو)، ص١٠٠ وما بعدها).

(٢) ورد فى كتاب ابن حبيب أن عيسى بن مهنا بن مانع بن حديثة بن غضبة الأمير شرف الدين. توفى فى سنة ٦٨٣هـ/١٢٨٤م. وربما قصد رشيد الدين هنا الابن حسام الدين بن مهنا الذى تولى بعد أبيه إمرة العرب. فهو الذى كان معاصرًا للسلطان الناصر محمد بن قلاوون، وتوفى فى سنة ٧٣٥هـ عن نيف وثمانين سنة (تذكرة النبيه فى أيام المنصور وبنيه، ج١، ص٩٠، دار الكتب ١٩٧٦، ج٢، ص٢٦٤، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٢).

(٣) الآية بأكملها: ﴿فجاءت إحداهما تمشى على استحياء قالت: إن أبى يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا. فلما جاءه وقص عليه القصص قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين﴾. (سورة القصص، آية ٢٥).

مشارف حمص. ثم نزل بعد فرسخ من المدينة. وقد دخل أهلها وحماة قلعتها فى الطاعة.

وفى يوم الأحد الثانى من ربيع الآخر استولى المغول على خزانـة سلطان مصر، فوزعها غازان على الأمراء، وشرف أغلـب هـؤلاء الأمراء بإلباسهم ثياب سلطان مصر. وفى اليوم التالى رحـل قاصـدا دمشق، وأرسل الرسل يحملون بشرى ذلك النصر إلى دار الملك تبريز وأطراف البلاد. وفى يوم الخميس السادس من ربيع الآخر قدم عظماء دمشق وأكابرها وأعيانها لاستقبال غازان خان، وأعلنـوا خضـوعهم، وطلبوا تعيين شحنة[1]، فعين "قتلغيا" هناك لهذه المهمة. وفى التاسع من ربيع الآخر سار من أدنى دمشق[2] إلى "مرج راهط" وبـادر سـكان دمشق بالخضوع والطاعة لغازان، واستظلوا بظل دولة تلك الحضـرة. وعندئذ سألهم سلطان الإسلام: "من أنـا؟! " فأجـابوا جميعـا: "أنـت السلطان غازان بن أرغون خان بن آبا قاخان بن هولاكـو خـان بـن

---

(١) شحنة (بكسر الشين) اسم يطلق على من يتولى رئاسة الشرطة ومهمته حفظ الأمن والنظام ومطاردة العابثين ومعاقبة المسيئين. جمعها شحن (انظر حسن أنورى: اصطلاحات ديوانى، دورة غزنوى وسلجوقى، ص ٢٢٣ – ٢٢٥ تهران ٢٥٣٥ شاهنشاهى؛ محمد محمود إدريس: رسوم السلاجقة ونظمهم الاجتماعية، ص١٠٩ – ١١٠، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٨٣م).

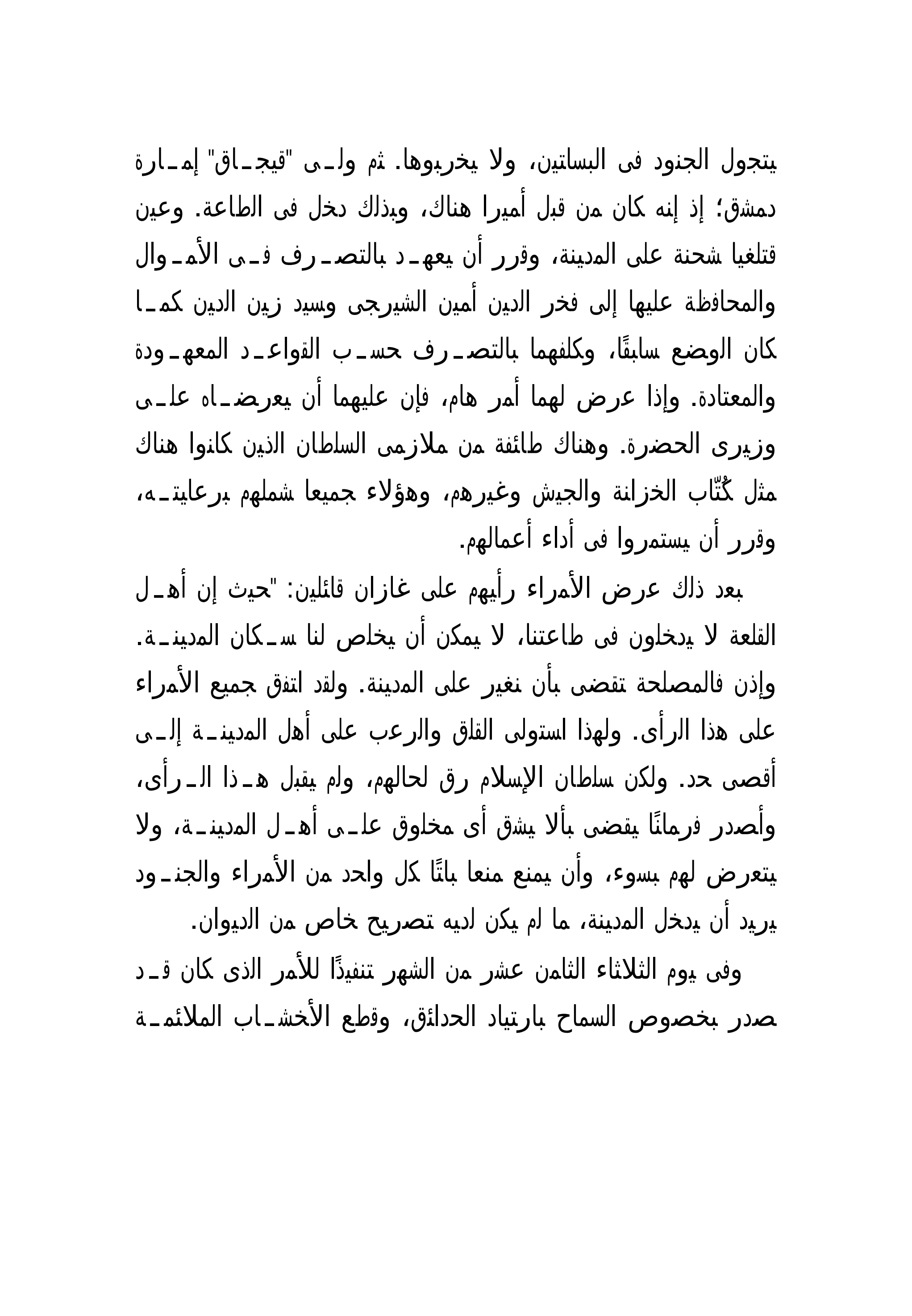
(٢) انظر تفصيلات عن هذه المدينة وأهميتها التاريخية فى كتاب المسالك والممالك للاصطخرى، ص٤٥ – ٤٦ تحقيق د. محمد جابر عبد العال الحينى، القاهرة ١٣٨١هـ / ١٩٦١م.

تولوى خان بن جنكيز خان. بعد ذلك سألهم: من هو والـد الناصـر.؟ أجابوا: الألفى[3]. فسألهم: من كان والد الألفى؟ فعجزوا جميعـا عـن الإجابة. ومن المعروف للجميع أن حكم هؤلاء القوم آل إلـيهم اتفاقًـا وليس استحقاقًا، فكلهم كانوا عبيدا لأسرة جد سلطان الإسلام المشهور. ثم قال لهم سلطان الإسلام **[ص٣٣٧]**: ليس هناك خير مـن وجـودكم أحياء، ولكن يوجد فى الموتى من أسلافكم كثير من الخيـر والبركـة. وإنى لأخطركم بأننى سوف أصفح عنكم أنتم الجهال إكرامـا لهـؤلاء الموتى. فاستبشر بذلك أهالى دمشق إلى أقصى حد، وقويت عـزائمهم، ودعوا للدولة كثيرا.

وفى الثانى من ربيع الآخر ذهب إلى ميدان الحصا للتفرج. وعندما وجد زرعا ناضرا للغاية، رأى من الواجب صيانته والمحافظ عليه. ثم عين جماعة من الحراس على بوابة "باب توما" حتى لا يدعوا الجنـود يشقون على سكان المدينة، وأمر بإغلاق البوابات السبع الأخرى. وبألا

---

(٣) المقصود الأمير سيف الدين قلاوون (الألفى العلائى الصالحى النجمى أبو الناصر محمد) أحد المماليك البحرية الذين نبغوا فى أواخر الدولة الأيوبية. وهو قفجاقى من قبيلة برج أغلى، فجلب صغيرًا واشتراه الأمير علاء الدين آقسنقر العادل بألف دينار، وغالى فى قيمته لحسنه وصورته، فعرف بالألفى. تولى العرش بعد خلع السلطان سلامش ابن الظاهر بيبرس لصغر سنه، وتلقب بالمنصور ٦٧٩ – ٦٨٩هـ / ١٢٧٩ – ١٢٩٠م (د. على إبراهيم حسن: دراسات فى تاريخ المماليك البحرية، وفى عهد الناصر محمد بوجه خاص، ص ٤٤٠ وما بعدها، الطبعة الثانية القاهرة ١٩٤٨م).



يتجول الجنود فى البساتين، ولا يخربوها. ثم ولى "قيجاق" إمارة دمشق؛ إذ إنه كان من قبل أميرا هناك، وبذلك دخل فى الطاعة. وعين قتلغيا شحنة على المدينة، وقرر أن يعهد بالتصرف فى الأموال والمحافظة عليها إلى فخر الدين أمين الشيرجى وسيد زين الدين كما كان الوضع سابقًا، وكلفهما بالتصرف حسب القواعد المعهودة والمعتادة. وإذا عرض لهما أمر هام، فإن عليهما أن يعرضاه على وزيرى الحضرة. وهناك طائفة من ملازمى السلطان الذين كانوا هناك مثل كُتّاب الخزانة والجيش وغيرهم، وهؤلاء جميعا شملهم برعايته، وقرر أن يستمروا فى أداء أعمالهم.

بعد ذلك عرض الأمراء رأيهم على غازان قائلين: "حيث إن أهل القلعة لا يدخلون فى طاعتنا، لا يمكن أن يخاص لنا سكان المدينة. وإذن فالمصلحة تقضى بأن نغير على المدينة. ولقد اتفق جميع الأمراء على هذا الرأى. ولهذا استولى القلق والرعب على أهل المدينة إلى أقصى حد. ولكن سلطان الإسلام رق لحالهم، ولم يقبل هذا الرأى، وأصدر فرمانًا يقضى بألا يشق أى مخلوق على أهل المدينة، ولا يتعرض لهم بسوء، وأن يمنع منعا باتًا كل واحد من الأمراء والجنود يريد أن يدخل المدينة، ما لم يكن لديه تصريح خاص من الديوان.

وفى يوم الثلاثاء الثامن عشر من الشهر تنفيذًا للأمر الذى كان قد صدر بخصوص السماح بارتياد الحدائق، وقطع الأخشاب الملائمة

للمنجنيق **[ص٣٣٨]** بقصد الاستيلاء على القلعة، ألقى جمع من سياس الخيول والأرمن والكرج والأتباع بأنفسهم فى ساحة الصالحية وقـامموا بالقتل والنهب والأسر؛ فغضب سلطان الإسلام من ذلـك التصـرف. وعلى الفور أمر أرغى بن قونجى بن كيتوبوقا بالـذهاب إلـى هنـاك وحماية الناس، وقتل الأشخاص الذين شنوا الغارات، واغتصبوا أموال الناس. فلما وصل هذا القائد تفرقت جموع الجند الذين كانوا قد عـاثوا فسادا. وأخذ جنود أرغى يبحثون عن ديار الكرج والأرمن واسـتعادوا منهم الأسرى، وأطلقوا سراحهم.

وفى يوم السبت التاسع والعشرين من ربيع الآخر عاد مولاى الذى كان قد تعقب المنهزمين حتى غزة. وحيث أن الجو كان قد مـال إلـى الحرارة، لم يهتم السلطان غازان بأهل القلعة الذين كانوا قـد خرجـوا على طاعة مصر.

وفى يوم السبت الثامن عشر من جمادى الأولى عاد مـن دمشـق، وترك الأمير قتلغ شاه والأمير جوبان للمحافظة على اسـتتباب الأمـن هناك على أن يعودا إذا ما حل الربيع. ثم كلف الأمير مولاى بأن يقيم هناك على رأس جيش كبير، وعين ناصر الدين يحيى ليكون فى خدمة قبجاق وأسند عملاً مناسبا لكل من بيكتيمور وايلبكى اللذين كانا قد قدما إلى الحضرة. ولكنهما وكذلك قبجاق نسوا حق نعمة سلطان الإسـلام

ورعايته لهم. وكانوا يشيعون الإشاعات المختلفة مما كان سـببا فـى عودة الأمير مولاى والجماعة.

وصفوة القول أن سلطان الإسلام عبر نهر الفرات فى يوم الأربعاء الرابع والعشرين من جمادى الأولى فى محاذاة قلعة جعبر على جسـر كان قد اقترح إقامته، وهو مصنوع من حزم القصب، ومربوط بحبـال من ألياف الأشجار. وفى ذلك اليوم أيضا لحق بمضارب الخيام ووصل "سلطان بيساول" الذى كان قد سار إلى غزة. وعلى حدود سنجار لحق السلطان بالخواتين. كذلك وصل رسل كرمان، وعرضوا على غـازان خان نبأ تمرد محمود شاه وأشياعه، وقتل علامة العالم مولانـا فخـر الدين **[ص٣٣٩]** قاضى هراة وأولاده بسبب الفتن التى أثاروها.

وفى يوم الثلاثاء الخامس عشر من جمادى الآخرة، وصل السلطان إلى الموصل. وفى يوم الأحد الخامس من رجب، قدم قتلغ شاه نويـان من الشام، وأخبر غازان بمخالفة قبجاق وأتباعه. وفى غرة شعبان عبر سلطان الإسلام نهر دجلة. وفى السابع عشر من شعبان وصل الأميـر مولاى من دمشق. وفى التاسع عشر من شعبان سـعد بشـرف لقـاء الحضرة - فى منطقة دربند زنكى – الأمير نورين وجيجاك وطوغان الذين كانوا قد عادوا من أران، وفى يوم السبت الخامس عشـر مـن رمضان، نزلت الرايات السلطانية فى مراغة وذهب فى اليـوم التـالى لمشاهدة المرصد، ورأى كل أعماله وأجهزته، وتفحصها بأكملها بتـأن

تام، واستفسر عن كيفية استعمال كل منها. ورغم وجـود معضـلات دقيقة تتعلق بها، فهم أكثرها. ثم أمر بأن يقام مرصد آخر بجوار القبـة العالية ومواضع أبواب البر فى "شم"، على أن يخـتص بعـدة أعمـال شرحها كلها بوضوح، لدرجة أن الحاضرين من الحكماء قـد أعجبـوا لحسن استنباطه إذ إنهم لم يقيموا مثل هذا العمل فـى أى عهـد مـن العهود. وقد بين الحكماء لغازان خان أن إقامة هذا المرصد أمر متعذر للغاية؛ فعلمهم وأرشدهم، وشرعوا فى إقامة هذا المرصد على سـبيل التجربة والاختبار، وأتموه حسب تعليمات السـلطان. وهـم وجميـع المهندسين المهرة مجمعون على أن أحدا لم يقم مثل هذا المرصد، ولم يعرف له نظيرا. ثم رحل غازان من هناك، وقدم إلى أوجان.

وفى يوم الثلاثاء الرابع والعشرين من شوال، شـرعوا فـى عقـد مجلس الشورى (القوريلتاى). وبعد أن انفض المجلس تـوفى الأميـر النجل آلجو فى يوم السبت الثالث من ذى الحجـة سـنة ٦٩٩هـ / ١٢٩٩م فى أوجان، وحمل جثمانه إلى القبة العاليـة بتبريـز. وفـى السادس من ذى الحجة استأذن الأمير النجل خربنده فى العـودة إلـى خراسان. أما غازان خان نفسه فقد عزم على الرحيل – باليمن والإقبال – إلى دار الملك تبريز وكان يذهب كل يوم للإشراف على تشييد القبة العالية. والسلام.

حكاية

توجه سلطان الإسلام إلى الشام ومصر للمرة الثانية

لما دخل فصل الخريف عقد غازان خان عزمه على السير مرة ثانية إلى ديار الشام. وفى يوم الاثنين غرة المحرم سنة ٧٠٠هـ / ١٣٠٠م سير الأمير قتلغ شاه فى المقدمة على رأس جيش كبير.

وفى الخامس عشر من الشهر المذكور غادرت الرايات السلطانية تبريز، وهى على هذا العزم. وفى الثالث من صفر أعاد نورين آقا من "جغاتو" كى يمضى إلى أران. وفى الرابع من ربيع الأول وصل – باليمن والإقبال – إلى مدينة الموصل، وأمضى يومين أو ثلاثة فى الأنس والسرور. ثم سار إلى منطقة "أبو ميرى" بناء على اختيار الجند وسير الأميرين جوبان ومولاى فى المقدمة.

وفى ذلك الوقت توفيت طغانشاه خاتون بنت مباركشاه فى منطقة سنجار. وفى السادس من ربيع الآخر عادت الخواتين اللائى قدمن من رأس العين لتوديع غازان. وفى الثانى عشر من ربيع الآخر وصل "شينقا" من قبل الجيش، وأخبر قائلاً إن يزكنا (رئيس عسسنا) داهم بعدة فرسان، "كوشلوك" طليعة جيش الأعداء، وقتل منهم أميرا.

وفى السابع من صفر عبر سلطان الإسلام الفرات بمحاذاة جعبر وصفين. وفى يوم الثلاثاء الحادى والعشرين من صفر نزل فى أعلى "حبول" على مقربة من حلب. ثم وصل "قبرتو بهادر"، ومعه العديد من

السوريين الذين كان قد أسـرهم. وفـى السـابع والعشـرين شـاعت الأراجيف عن وصول الأعداء، فهب الجيش كله دفعة واحـدة. ولكـن اتضح بعد التدقيق أن هذه الأخبار ملفقة فتخلوا عـن حالـة التأهـب القصوى. وفى الخامس من جمادى الأولى اجتازوا حلب، ونزلوا فـى رباط "وصيحى" على ضفاف نهر "قويق" الذى هو عبـارة عـن وادى نهر مدينة حلب. وفى السابع من الشهر حلوا بمحاذاة قنسرين.

ولما لم تكن هناك أخبار عن الأعداء، ولم يخرج سـلطان مصـر خوفًا ورعبا، رأف سلطان الإسلام ببلاد المسلمين، ولم يتقدم أبعد مـن ذلك، وأمر بأن يرابط قتلغ شاه مع جيشه فى "سرمين". وكان المطـر غزيرا فى ذلك الشتاء. **[ص٣٤١]** وقد اتفق أن نزل فى موضع ردئ، الأمير سوتاى مع بعض من جنود الأمير "شباوجى" الذين قـدموا مـن الروم. وفجأة هطل مطر غزير[١]، واشتد البرد، وظهر وحـل كثيـر؛ بحيث إنه لم يستطع الأميران أن يتصل أحدهما بالآخر وهلك كثير من دوابهما بسبب الوحل والبرد. ولهذا أرسل السـلطان غـازان الأميـر مولاى مع تومان من الجنـود (عشـرة آلاف جنـدى) حتـى ينقلـوا المحاصرين بدوابهم. وعندما وصلوا إلى هناك، استطاعوا أن ينقـذوا أنفسهم بألف حيلة (بصعوبة بالغة).

---

(١) انظر تفصيلات عن هذا الحدث فى كتاب زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة، ج٩ ص ٣٣٤ _ ٣٣٥.

وفى الثامن والعشرين من جمادى الأولى عاد السلطان، واجتاز الجسر الذى كان قد أقيم بمحاذاة مدينة الرقة، وزار قبر عمار بن ياسر وشهداء صفين (رضى ا عنهم). وفى يوم السبت الخامس عشر من جمادى الآخرة لحق بالخواتين والجنود فى موضع "جهار طاق" أدنى سنجار. وفى سلخ ربيع الآخر توفى الأمير ساتلميش بن بورالغى من أقارب "التاجو آقا" على حدود كشاف، فحزن السلطان حزنًا شديدا لنبأ وفاته. وفى يوم الخميس الحادى عشر من رجب وصل من الشام "سلطان بيساول". وفى منتصف رجب عاد أيضا الأمير قتلغ شاه، وأمضى مع مرافقيه عدة أيام فى تلك المنطقة فى الأنس والمتعة والصيد.

وذات يوم كان سلطان الإسلام يعدو وراء أحد الغزلان ورماه بسهم. وبدا كأن السهم لم يصبه. ولكن سقط الغزال فجأة فاحتاط أتباع السلطان للأمر غير أنه اتضح أن الغزال أصيب من ذلك السهم بتسعة جروح. وقد شاهد هذا المنظر عامة الخلق، وتبين لهم كيف حدثت تلك الجروح التسعة؛ وذلك أن سهما يسميه المغول "تونه" نصله له ثلاث ريشات حادة إلى أقصى حد قد أصاب الغزال عند وثوبه فى الهواء، فتقاربت يداه ورجلاه، فأصاب السهم قوائمه الأربعة وجرحها، ومرق منها، فأصاب صدره وبطنه، وتحت أذنه كذلك. وقد أحدثت كل ريشة من النصل جرحا طويلاً. وعندئذ وصل تأثير السهم إلى عنقه وحلقه

[ص٣٤٢]، فجرحه جرحين آخرين؛ بحيث إنه قد ظهرت فيه بالتحديد على هذه الصورة تسعة جروح.

بهذه الرواية تكون قد محيت محوا تاما حكاية "بهرام كور"(١) الذى رمى بمهارته غزالاً فربط ظلفه بأذنه، تلك الحكاية التى أعجب بها الناس كثيرا. وعلى مدى ألف وخمسمائة عام ظلوا ينقشونها على الجدران، ويصورونها فى الكتب. ولقد شاهد هذا الحادث ما يزيد على ألفى شخص.

وفى يوم الأربعاء الثالث والعشرين من شعبان، وصل رسل توقتاى ملك الوس جوجى وتشرفوا بلقاء الحضرة ثم عادوا سريعا. وفى يوم الأربعاء سلخ شعبان عبر غازان خان نهر دجلة، وأمر وهو فى الطريق باعتقال الأكراد الذين كانوا يرتكبون كل أنواع الجرائم ويعيثون فى الأرض فسادا، وقُتِل منهم الكثيرون. وفى الرابع والعشرين من رمضان نزل غازان خان فى أوجان. والسلام.

---

(١) تكتبه المصادر العربية، "بهرام جور" والمقصود به بهرام الخامس بن يزدجرد الأول المعروف بيزدجرد الأثيم أحد ملوك الساسانيين. تولى بهرام عرش إيران بمساعدة النعمان بن المنذر ملك الحيرة. حكم من سنة ٤٢٠ – ٤٣٨م. كان بهرام مثلاً أعلى للشجاعة والفروسية. ونظرًا لولعه بصيد حمار الوحش (كور) أطلق عليه "بهرام كور". كان ينظم الشعر بالفارسية والعربية. أحبه الإيرانيون لميله إلى الغزو والفتح والانتصار على الأعداء، وللتخفيف عن الرعية؛ إذ أباح لهم أن يأخذوا بنصيبهم من اللهو والمتعة إلى أقصى حد. وقد اشتهرت سيرته بولعه بالصيد وعشقه النساء.

حكاية
تكريم الخواجه سعد الدين صاحب الديوان
وقتل حساده

بعد أن عاد سلطان الإسلام باليمن والبركة والإقبـال مـن رحلتـه بالشام، نزل بمدينة الإسلام "أوجان". وفى السابع والعشـرين مـن ذى القعدة سنة ٧٠٠هـ / ١٣٠٠م كرم الخواجه "سعد الـدين"[(١)]، وشـمله برعايته إلى أقصى حد، ومنحه "الختم الأحمر" "آلتمغا"[(٢)] وفوض إليـه شئون صاحب الديوان. وفى غرة ذى الحجة كان زفاف قتلغ شاه نويان على "ايل قتلغ" ابنة كيخاتو.

وفى ذلك المصيف كان جماعة من المقربين وأصحاب الديوان مثل صاين القاضى والشيخ محمود والسيد قطب الدين اينجـو والشـيرازى

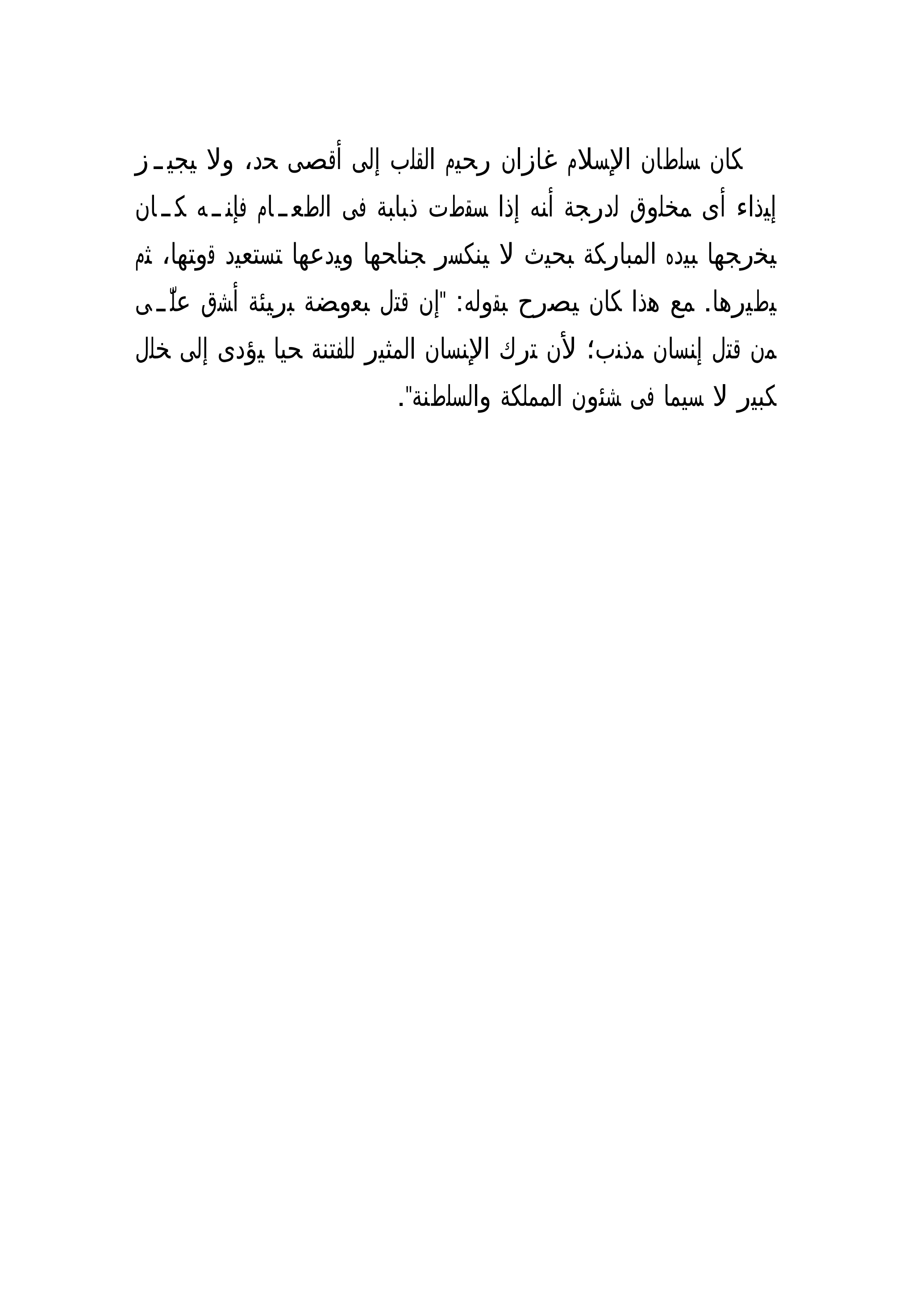
---

(١) انظر تفصيلات عن هذا الوزير فى كتاب مؤرخ المغول الكبير، تأليف الدكتور فؤاد عبد المعطى الصياد، القاهرة ١٣٨٦هـ / ١٩٦٧م.

(٢) كلمة مغولية مركبة من آل بمعنى أحمر تمغا بمعنى ختم، أى الختم الأحمر. وأحيانًا يكتب هذا اللفظ "تمغاى آل". وكان هذا الختم أول الأمر مربع الشكل، وتختم به المنشورات والفرمانات والأحكام، وذلك بالمداد الأحمر. وبناء على طلب نوروز أصدر السلطان غازان أمره بأن يغير هذا الختم، فيصير مستديرًا بدلاً من أن يكون مربعًا وذلك بقصد التيمن والتبرك والتفاؤل (انظر الجوينى: تاريخ جهانكشاى، ج١ ص يط من المقدمة؛ مؤرخ المغول ص٧٧).

وغيرهم من الأتباع قد عقدوا جلسة للمشاورة بقصد إقصاء السادة من كبار موظفى الدولة.

[ص٣٤٣] وفى المجلس الذى كان "يحتسى فيه السلطان الشراب"، صار يذكر الأمراء. وكان السيد قطب الدين الشيرازى حاضرا، فقال: "إن باسميش كان رجلاً حسن السيرة فقال السلطان: أنت تتحدث عن حسن سيرته لأنك ذهبت معه إلى شيراز، وكان أداة لكسبك، وجلب المنفعة لك، وحصلتما على أموال طائلة من هناك. ثم أضاف السلطان قائلاً: إنك وأمثالك تسعون دائما إلى الفتنة والشر. فرد قطب الدين تحت وطأة السكر: إن السلطان يظهر الكرامات كأنه كان معنا أثناء المشاورة. فأدرك السلطان بحدسه وفراسته ما دار بين المتآمرين. وفى تلك الليلة أيضا أمر باعتقال الشيخ محمود. وفى الصباح قبض على صاين القاضى والسيد قطب الدين ومعين الدين الخراسانى وأمين الدين الإيداجى وسعد الدين حبش، وشرع المحققون فى استجوابهم. وبعد سبعة أيام أطلقوا سراح أمين الدين. وبعد عشرة أيام أطلقوا أيضا سراح سعد الدين حبش لأن كلا الاثنين لم يرتكب ذنبا. وفى يوم الاثنين الثانى والعشرين من ذى الحجة قتل صاين القاضى والسيد قطب الدين ومعين الدين فى موضع "دول". وفى يوم الأربعاء منتصف المحرم سنة ٧٠١هـ/١٣٠١م أطلق سراح الشيخ محمود بشفاعة بلوغان خاتون.



كان سلطان الإسلام غازان رحيم القلب إلى أقصى حد، ولا يجيـز إيذاء أى مخلوق لدرجة أنه إذا سقطت ذبابة فى الطعـام فإنـه كـان يخرجها بيده المباركة بحيث لا ينكسر جناحها ويدعها تستعيد قوتها، ثم يطيرها. مع هذا كان يصرح بقوله: "إن قتل بعوضة بريئة أشق علّـى من قتل إنسان مذنب؛ لأن ترك الإنسان المثير للفتنة حيا يؤدى إلى خلل كبير لا سيما فى شئون المملكة والسلطنة".

[ص٣٤٤]

حكاية
توجه سلطان الإسلام غازان خان إلى ألاتاغ ثم تحركه من هناك عن طريق نخجوان إلى مشتى أران، ووصول الرسـ ـ ـل الذين كانوا قد ذهبوا إلى مصر

فى يوم الأربعاء منتصف المحرم سنة ٧٠١هـ/١٣٠١م توجهـت الرايات السلطانية إلى ألاتاغ. وفى الحادى والعشـرين مـن الشـهر المذكور سار قتلغ شاه نويان على رأس جيش قاصدا ديار بكـر عـن طريق مراغه. وفى يوم الخميس الثانى من صفر، نزل سلطان الإسلام فى قصر آلاتاغ. وفى يوم الأحد الثانى من ربيع الأول تحـرك مـن ألاتاغ قاصدا أران عن طريق نخجوان. ثم صدر الأمر بعودة الأميـر قتلغ شاه إلى ديار بكر. وفى يوم الاثنين السادس عشر من ربيع الآخر وصل كمال الدين الموصلى وعلى خواجه اللذان كانا قد سارا برسـالة إلى مصر. ولأن الجيوش عسكرت فى منطقة قراباغ، لم يمكث سلطان الإسلام هناك طويلاً، وسار للصيد فى جبال شروان ولكزستان حيـث مارس الصيد عدة أيام. ومن هناك توجه إلى ناحية كاوبـارى لصـيد الإوز. كما اشتغل هناك مدة بصيد الطيور والأسماك.

ثم نزل بموضع "خليزى" التى سماها السلطان "قوش قيون"، وهـى التى تقع على شاطئ البحر، وتمتد إلى حدود برمكى، وتمر بها كافـة أنواع الكركى والطيور المائية التى تعود من المشتى إلـى المصـيف. ولما حلت الألوية السلطانية بتلك المنطقة على مقربة من "دربند"، انهزم ملك الألوس، كما انهزم **[ص٣٤٥]** أمراؤه الذين كانوا على مقربة من هذه الناحية ظانين أن الألوية الغازية متوجهة إليهم، وأن الجنود عبروا الأنهار. وبعد مدة عرفوا أن الأمر على خلاف ظنهم، فعاد التجار إلى التنقل مرة أخرى. وقد دخل فى الطاعة جميع أمراء لكزسـتان الـذين كانوا قد أعلنوا العصيان والتمرد منذ مدة طويلة، واختبأوا فى الجبـال المنيعة فتوجهوا إلى الحضرة عن إخلاص ورضا وتمسـكوا بـالعروة الوثقى طائعين منقادين. وقد أعتقل جماعة اللصوص والرعاع الـذين كانوا قد قدموا من ولاية آذربيجـان واعتصـموا بالجبـال. وكـانوا يمارسون أعمال اللصوصية وقطع الطرق فقتلوا جميعا. ثم عاد غازان خان من تلك الجهات، ونزل فى المعسكرات فى بيلسوار و"همه شهره". بعد ذلك خرج معتزما الصيد فى المناطق الواقعة على طريق تالشـان واسبهبد. ثم أمر بإقامة جدارين من الخشب والحسك وسط تلك الجبال، وذلك فى مدة ما يقرب من يوم واحد؛ بحيث كانت الفتحـة الخارجيـة الواقعة بين الجدارين بقدر مسيرة يوم واحد تقريبا. وكانت تضيق شيئًا فشيئًا على شكل مخروطى حتى تصير الفاصلة بينهما خمسين ذراعـا.

وفى قاعها أقاموا - من الخشب - ما يشبه الحظيرة. وبعد ذلـك أعـد الجنود خندقًا دائريا، وأخذ الصيادون يسوقون الصيد[١] بين الجـدارين، حتى جمعوا الحيوانات كلها فى تلك الحظيرة. وكان من بينهـا البقـرة الجبلية وحمار الوحشى والغزال وابن آوى والثعلب والـذئب والـدب وغير ذلك من أنواع وأصناف الوحوش والسباع.

ولما كانت هذه الحيوانات محصورة بين الجدارين وليس لها مخرج كان لا مفر لها من الدخول فى الحظيرة. وكان سلطان الإسلام يجلـس مع بولوغان خاتون فى عريشة صنعت من الخشب، وأقيمت وسط تلك الساحة، فكانا يشاهدان تلك الحيوانات. وقد اصطادا بعضـها، وأطلقـا بعضها الآخر. ثم رحلا من هناك، وكانا يتجولان ويتنقلان من مكـان إلى آخر إلى أن وصلا إلى دار الملك تبريـز. فصـار أهـل ولايـة آذربيجان من رجال ونساء وكبار وصغار يبسطون أيديهم بالدعاء عن طواعيه وإخلاص. كما لهجت ألسنتهم بالثناء على حضرة السلطان. ثم خرج جميع أهل تبريز مع علماء الإسلام بنظام وترتيب تام، وقـاموا

---

(١) جريًا على عادة آبائه وأجداده الذين كانوا يهتمون بالصيد اهتمامًا كبيرًا، ويجدون فيه رياضتهم المحببة ويتخذونه وسيلة للإعداد والتدريب إذا ما جد الجد، ودعوا إلى حمل السلاح وخوض غمار المعارك فهم فى حلبات الصيد يتدربون على ما سيفعلونه وقت الحرب (انظر الجوينى: تاريخ جهانكشاى، ج١ ص١٩ – ٢٠ د. السباعى محمد السباعى: عطا ملك الجوينى وكتابه جهان كشا ص٢٣١ - ٢٣٣، القاهرة ١٤١٢هـ/١٩٩١م المغول فى التاريخ، ص٣٤٢ – ٣٤٤).



بمراسم الاستقبال، فأظهر لهم سلطان الإسلام كـل عطـف ورحمـة، وأعفاهم من التكاليف والمؤن غير الملائمة. والسلام.

حكاية
الاحتفال العام الذى أقيم بأمر سلطان الإسلام
فى المعسكر الذهبى بموضع حديقة أوجان
وختم القرآن هناك، وبذل العطايا والصدقات

كان سلطان الإسلام قد أمر الصناع البارعين والمهندسين المهـرة بإقامة سرادق منسوج بخيوط ذهبية، وعرش مطلى بماء الذهب. وكان هذا السرادق مزودا بالآلات والأدوات المناسبة. وقد ظلـت مجموعـة كبيرة من الصناع، تعمل مدة ثلاث سنوات فى إعداد ذلـك السـرادق. وما أن حل غازان بدار الملك تبريز فى هذا الوقت حتى كان السرادق قد تم.

وفى أواخر ذى القعدة سنة ٧٠١هـ/١٣٠١م سار غازان خان من تبريز إلى أوجان. وهناك كانوا قد أقاموا سورا حول مرج ناضر بهيج للغاية، أعد لنزوله المبارك حيث تجرى الأنهار والينابيع. وقد أقيمـت الأحواض والبحيرات العظيمة، فاتخذتها أنواع الطيور مأوى لها، وقسم ذلك المربع المتساوى الأضلاع إلى أقسام متساوية، وعلى جانبى كـل ممر منها غرست أشجار الصفصاف والحور ليمر النـاس مـن تلـك الممرات، ولا يسير أى مخلوق وسط المرج. وقد عين طريـق لكـل طائفة لتعرف من أين تدخل، ومن أين تخرج. ثم أمر بإنشاء الجواسق

والأبراج والحمامات والعمارات العالية، **[ص٣٤٧]** وبأن يقـام كـذلك السرداق المطرز بخيوط ذهبية وسط تلك الحديقـة، وكـذلك المخـيم السلطانى والمظلات الخاصة به. وقد احتشد جميع العمال والمهندسين، واستطاعوا إقامة المخيم فى مدة شهر. وكان غاية فـى الفخامـة. ثـم وضعوا العرش المرصع بالجواهر واليواقيت.

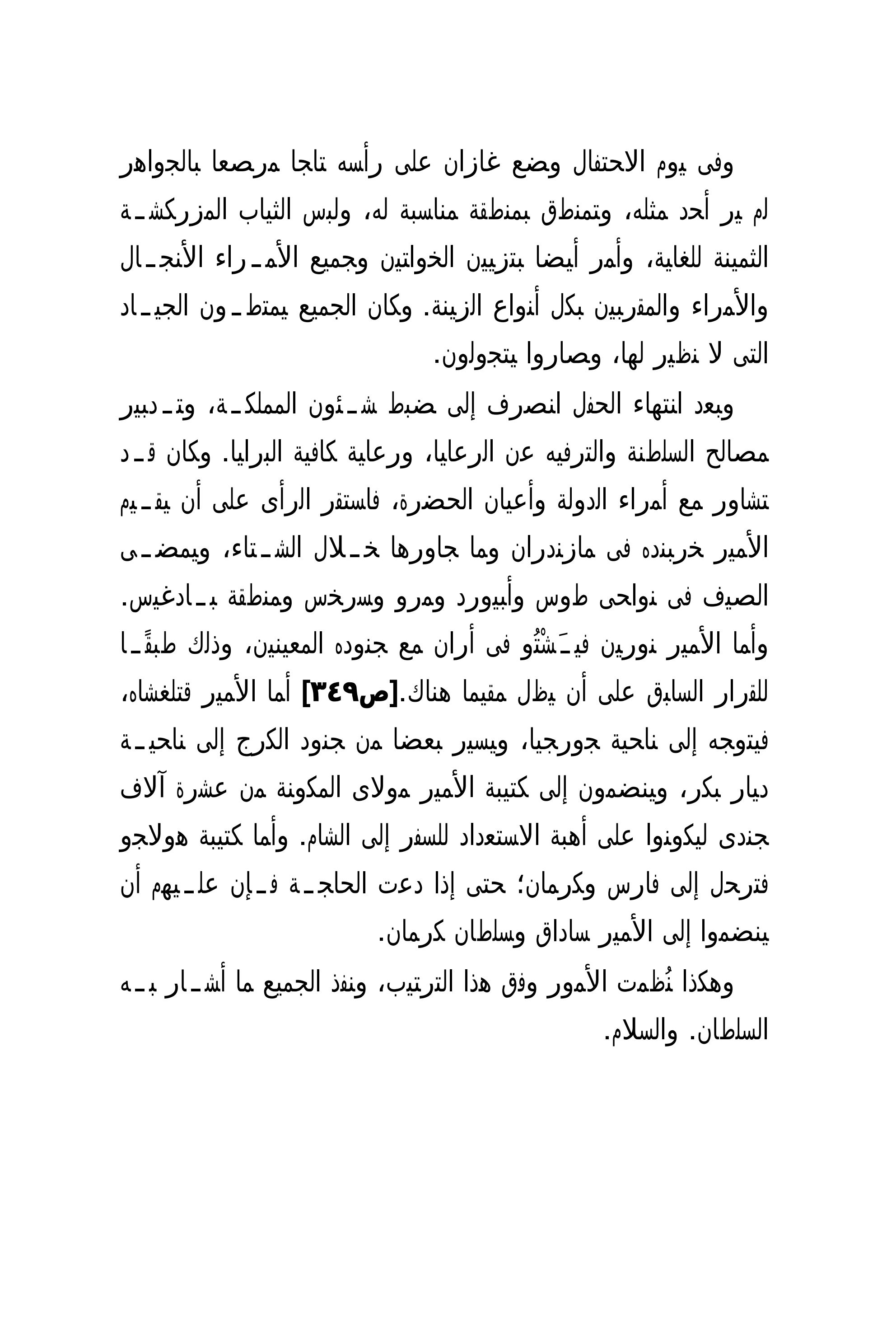
وتعظيما للإسلام بادر غازان خان – قبل إقامة الحفـل – بـدعوة السادات والأئمة والمشايخ والقضاة والصالحين. وبالتبعية دعـا أهـل الأمم من الطوائف الأخرى. ثم توجه إلى الجميع، وخـاطبهم بلسـان فصيح وبيان عذب، وساق على لسانه حديثًا دقيقًا فـى بـاب الحكمـة والمعرفة. وكان ينصح طبقات الناس ويعظهم، وصار يشـكر الـنعم والآلاء الإلهية. وخلال حديثه قال: إننى أنا العبد الضعيف أعترف وأقر بالعجز والقصور وكثرة الذنوب وبأنى لست جديرا بهذا العطـاء، ولا لائقًا لهذه الموهبة؛ غير أن فيض الرحمة والرأفة الإلهية وآثار لطـف وكرم البارئ – عز وعلا – عظيمة فى حق عباده إلى أقصى حد. ولا شك أن نعمه من الكثرة بحيث لا يستطيع ابن آدم، ولا جميع الخلائـق أن يوفوها حقها من الشكر ولست غافلاً عن أن شكرها واجـب ولازم بمائة ألف لسان؛ إذ إن ا - فضلاً وإحسانًا منه– قـد أدخـل جميـع خلائق إيران – الذين هم ودائع الحضرة الإلهية – فى دائرة طـاعتى. ولست أخدع بغرور الملك السريع الزوال، والذى انتزع من عدة آلاف

من الأشخاص. ومن بين أصناف النعم التى من ا بها علّى أنه منحنى ما لم يمنحه الملوك الآخرين. وقد حقق لى آمال أسلافى. وإن أفضـلها أن عباده قد أمنوا بطشى **[ص٣٤٨]**، وهم راضون بحكمى وراغبـون فيه.

وبناء على هذه المعانى والمقدمات لم أشأ أن أدخل هـذا السـرادق والمخيم بالجاه والجبروت. وينبغى فى هذا الزمان أن نؤدى شكر هـذه النعمة العظمى نحن وأنتم أى الحـاكم والمحكومـون؛ وذلـك يكـون بالتضامن، ودون نفاق ورياء، ونطلب من ا غفران ذنوبنا مخلصـين متضرعين.

والآن نبدأ حفلنا بتلاوة القرآن الكريم، ونؤدى الطاعة والعبادة، ثـم نشتغل باللهو والطرب.

هكذا نطق غازان بهذه الكلمات المهذبة، وذكـر اسـم ا تعـالى والرسول صلى ا عليه وسلم بالتعظيم. ثم وضع قدمه المبـارك فـى السرادق وأسند ظهره إلى مسند التوفيق والنجاح. ثم أمر بإحضار ما لا يعد ولا يحصى من قطع الذهب والثياب، وتصدق بها كلها بعد إطعـام الناس بأصناف الأطعمة المختلفة شكرا ؛ بحيث نالت كافة الطوائـف نصيبها منها. بعد ذلك اشتغلت كل طائفة على طريقتها مدة ثلاثة أيـام بلياليها بختم القرآن، وأداء فروض العبادة.



وفى يوم الاحتفال وضع غازان على رأسه تاجا مرصعا بالجواهر لم ير أحد مثله، وتمنطق بمنطقة مناسبة له، ولبس الثياب المزركشـة الثمينة للغاية، وأمر أيضا بتزيين الخواتين وجميع الأمـراء الأنجـال والأمراء والمقربين بكل أنواع الزينة. وكان الجميع يمتطـون الجيـاد التى لا نظير لها، وصاروا يتجولون.

وبعد انتهاء الحفل انصرف إلى ضبط شـئون المملكـة، وتـدبير مصالح السلطنة والترفيه عن الرعايا، ورعاية كافية البرايا. وكان قـد تشاور مع أمراء الدولة وأعيان الحضرة، فاستقر الرأى على أن يقـيم الأمير خربنده فى مازندران وما جاورها خـلال الشـتاء، ويمضـى الصيف فى نواحى طوس وأبيورد ومرو وسرخس ومنطقة بـادغيس. وأما الأمير نورين فيـَشْتُو فى أران مع جنوده المعينين، وذلك طبقًـا للقرار السابق على أن يظل مقيما هناك.**[ص٣٤٩]** أما الأمير قتلغشاه، فيتوجه إلى ناحية جورجيا، ويسير بعضا من جنود الكرج إلى ناحيـة ديار بكر، وينضمون إلى كتيبة الأمير مولاى المكونة من عشرة آلاف جندى ليكونوا على أهبة الاستعداد للسفر إلى الشام. وأما كتيبة هولاجو فترحل إلى فارس وكرمان؛ حتى إذا دعت الحاجـة فـإن علـيهم أن ينضموا إلى الأمير ساداق وسلطان كرمان.

وهكذا نُظمت الأمور وفق هذا الترتيب، ونفذ الجميع ما أشـار بـه السلطان. والسلام.

حكاية

توجه الرايات السلطانية من مدينة الإسلام أوجان

إلى بغداد، والأحداث التى حدثت فى الطريق

ثم الوصول إلى واسط والحلة وعقد النية على السير إلى الشام

فى غرة المحرم سنة ٧٠٢هـ/١٣٠٢م توجه سلطان الإسلام من مدينة الإسلام "أوجان" إلى ناحية همذان عاقدا العزم على السفر إلى الشام. وفى تلك الأيام تقرر أن يسير الأمير "نورين" إلى أران لقضاء الشتاء والمحافظة على تلك الجهات.

وقبل أن يستأذن من الحضرة توجه نحو "هشترود". وقد لبس السواد أبناء شرف الدين عبد الرحمن الذى كان حاكما على تبريز مدة من الزمان ثم سار بعد ذلك ليكون مستوفيا على ممالك الروم، ولجأ هؤلاء الأبناء إلى عدالة حضرة السلطنة قائلين: إن نظام الدين يحيى ابن خواجه وجيه قد أمر بقتل والدهم. وعندما بلغت الرايات السلطانية هشترود نال الأمير نورين الإعزاز والتكريم. ثم عاد متوجها إلى أران (ص٣٥٠). وفى يوم عاشوراء قتلوا نظام الدين يحيى ابن خواجه وجيه ودولتشاه بن أبى بكر داد قابادى بناحية يوز آغاج وهشترود. كما قتلوا فى اليوم التالى عربشاه حفيد السلطان "حجاج كرمان". ومن هناك دخل السلطان همذان، ونزل فى الخانقاه المبارك الذى أنشأه فى قرية بوزينجرد، وأوقف عليه أوقافًا كثيرة. وكان بناء فخما وعاليا إلى

أقصى حد. ثم سار من هناك إلى "جغان ناوور فراهان" حيث أقام عدة أيام. ثم سلك طريق نهاوند قاصدا جمجال.

وفى ناحية بيستون دخل فى طاعة غازان ثلاثة من أمـراء الشـام كان مقدمهم على شير فأكرمهم سلطان الإسلام، وأنعم عليهم. ووقـت فتنة نوروز، واعتقال إخوته وأتباعه فـى ناحيـة كرمانشـاهان كـان السلطان يقيم مع جماعة من المقربين إليه فى العراء فى الصحراء دون خيمة تؤويهم. وقد ناموا وسط جبل كان قد نبتت أمامه شجرة وارفـة الظلال. ولأن لكزى لم يكن قد قبض عليه، ولم يكن مصير نوروز قد علم، كان الخاطر المبارك لغازان مشتتا بعض الشىء. وبخصوص ذلك الأمر، صار يفكر فى ذلك الموضع، فظهر من عالم الغيب فتح وفرج. وعندما وصل إلى هناك وكانت الآمال قد تحققت تذكر ذلك الموضـع وتلك الشجرة؛ فذهب قاصدا زيارة تلك الناحيـة، وبصـحبته جميـع الخواتين والأمراء، فبكى وتذكر تلك العزيمة والضـراعة والـدعوات **[ص٣٥١]** التى توجه بها فى ذلك الوقت فأدى واجبات الشكر على ما ناله من ظفر ونصر، وصلى ركعتين صلاة الحاجة، ثم سجد. وبخشوع تام، طلب من حضرة الحق تعالى النصر فى جميع الأحوال، ثم رفـع رأسه. وأخذ ينصح الجمع قائلاً: استعينوا بالحق – جل وعـلا – فـى السراء والضراء، ولا تيأسوا من رحمته بأى حـال ولا تفخـروا ولا تغتروا بأى شىء. وتيقنوا أنه لن يغيب ا عـنكم طرفـة عـين، ولا

تتخدعوا بقوتكم وقدرتكم، واخشوا البطش الإلهى. ثم التمس غازان حاجاته من الحق تعالى، ونوى نوايا طيبة من كل نوع؛ خصوصا فيما يتعلق بتحقيق العدل والإنصاف على نطاق واسع. بعد ذلك ربط جميع الحاضرين علامات على تلك الشجرة، وأصبحت مزارا لهم.

بعد ذلك عزف المطربون بعض العزف، ورقص الأمراء. وكان الأمير بولاد جينكسانك حاضرا، فقال: إن "قوبله قاآن" عم جد سلطان الإسلام، كان فى عهده ملكًا على عدة أقوام. وكان بطلاً فى غاية الشجاعة حتى كانوا يضربون به المثل فى البطولة، ونظموا فيه شعرا كثيرا. وكان صوته جهوريا مرعبا؛ بحيث إنه كان يصل إلى السامع على بعد سبعة تلال. وتصادف أنه سار ذات يوم لمحاربة المركيت[1]. وفى الطريق وصل إلى إحدى الأشجار؛ فنزل عندها، وناجى ا الأزلى، وطلب منه النصر، ونذر قائلا: إننى إذا انتصرت على العدو، فسوف أجعل هذه الشجرة مزارا، وأزينها بالأقمشة الملونة الجميلة،

---

(١) قوم مركيت يطلق عليهم اسم "مكريت"، وهم يسكنون المنطقة الواقعة شمال بلاد الكرايت على مجرى نهر سلنجا وجنوب بحيرة بايكال. وكان لهم جيش قوى ذو بأس شديد فى الحروب، ويعدون أصلاً من جنس المغول، ولكنهم قاموا بعدة حروب ضد جنكيز خان واونك خان. وقد عرف عن هؤلاء القوم ميلهم إلى الشغب وإثارة الفتن. ولهذا شن عليهم جنكيز خان حربًا شعواء مستعملاً أقسى ما عرف عن المغول من قسوة وشدة. (انظر رشيد الدين فضل الله: جامع التواريخ، جلد أول از آغاز بيدايش قبايل مغول تاپايان دورة تيمور قاآن، ص ٧١ – ٧٣، بكوشش دكتر بهمن كريمى، تهران ١٣٣٨هـ.ش).

فنصره الحق تعالى على عدوه. ولما عاد بعد الفتح، وتقدم إلـى تلـك الشجرة، وفى بنذره وزينها، وشكر الخالق – عز وعلا – ثم أخذ فـى الرقص مع جنوده تحت تلك الشجرة، ودقوا الأرض بأرجلهم دقًا عنيفًا إلى حد أن هبط ما حولها بقدر ذراع، وأحدث حفرة عميقـة. فأعجـب سلطان الإسلام بذلك الكلام إلى أقصى حد، وقال: لو لم يكن لأجـدادنا هذه النية والإخلاص، لما صيرهم ا سادة ملوك العالم، ولمـا بلغـت أسرتهم هذه المنازل الرفيعة والدرجات العالية. **[ص٣٥٢]** ثـم مكـث ساعة فى حالة من الفرح والسرور مصغيا إلى المطربين.

بعد ذلك سار السلطان غازان عقب الجيوش، وفجأة وصل الرسـل من قبل الأمير قتلغ شاه، ومعهم أمراء الشام الذين كانوا قد فروا مـن هناك، ودخلوا فى الطاعة، وعلى رأسهم "علاء الدين"، فشملهم السلطان بعطفه وطيب خاطرهم بالوعود الطيبة. وعند تلك الحدود أيضـا وفـد رسل فاسيليوس ملك القسطنطينية يحملون التحف والهـدايا، وأبلغـوا غازان أن فاسيليوس يريد أن يكون فى ظل حماية سلطان الإسلام، وأن يرسل إليه ابنته لتكون محظية له، فشملهم السلطان بعطفه. ومن هنـاك رحل إلى "بندينجين". وبعد إقامة ثلاثة أيام، أرسل الخواتين والأسر إلى بغداد. وفى يوم الأربعاء الرابع عشر من ربيع الآخـر، ركـب مـن بندينجين قاصدا الصيد فى جوقين. كذلك شغل بالصيد عدة أيـام فـى نواحى شيب وواسط ومشهد سيدى أبى الوفاء رحمـه ا . ثـم ذهـب

لزيارة المشهد، وخص المجاورين بالصدقات والإنعامات، وأمر بإقامة عمارات على شاطئ النهر الذى كانوا قد أجروه من نهر الفرات إلى تلك الصحراء القاحلة، ولذلك السبب صار ذلك المشهد كأنه مدينة. وبعد ذلك قدم غازان من هناك إلى الحلة، ونزل فى المعسكرات. وفى الحلة وصل إلى الحضرة القاضى نصير الدين التبريزى والقاضى كمال الدين الموصلى اللذان كانا قد أرسلهما غازان من أران برسالة إلى مصر[1]، ثم عادا من هناك، ومعهما رسل مصر، فقدموا الرد على الرسائل وكان يجانبه الصواب. كذلك قدم رسل توقتا البالغ عددهم ثلاثمائة فارس.

وفى يوم الأحد غرة جمادى الآخرة الذى كان على رأس السنة التركية أقيمت الولائم والاحتفالات. وفى ذلك اليوم تشرف بلقاء غازان رسل مصر وكذلك توقتا، فخصه برعايته الفائقة. ثم أرسل المصريين **[ص٣٥٣]** إلى تبريز، وأغلق عليهم أبواب المدينة حتى لا يغادورها.

وفى يوم الاثنين التاسع من جمادى الآخرة اجتاز غازان خان جسر الحلة قاصدا ديار الشام. وفى يوم الاثنين السادس عشر من الشهر المذكور زار مشهد أمير المؤمنين الحسين (رضى ا عنه)، وعلّق عليه الستائر الفاخرة التى كان قد أمر بإعدادها للمقام هناك، ومنح

(١) انظر نص الرسالة فى كتاب زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة، ج٩ ص ٣٣٦ – ٣٣٧.

المجاورين والحاضرين صدقات لا حصر لها. ومن حاصلات النهـر الغازانى الذى كان قد حفر فى تلك المنطقة، والذى كانت مياهه تجرى إلى "مشهد" عين ثلاثة آلاف منّ من الخبز، تقدم يوميا للسادات المقيمين هناك. وفى ذلك اليوم وصل "أرمنى بلا" من خراسان وأبلغ أن ثلاثة أو أربعة آلاف من المتمردين قد اقتربوا، فداهمهم الجنـود المنصـورون وأنهكوهم وأفنوهم عن آخرهم؛ فسر السلطان غاية السرور، وزاد حبه وشفقته نحو أخيه[1].

وفى يوم الجمعة الرابع من رجب سنة ٧٠٢هـ ـ/١٣٠٢م وصـل رسول أبلغ السلطان أن الأمير "نورين آقا" قد توفى فى مشتى أران فى أوائل جمادى الآخرة؛ فحزن سلطان الإسلام بسبب تلك الواقعة. بعـد ذلك شرع يجتاز الفرات من شاطئ إلى آخر. فلما بلغ "حديثة"[2] أمـر أغلب الخواتين وكل أفراد الأسر بعبور نهر الفرات والذهاب إلى ناحية سنجار، والإقامة هناك. ثم توجه بنفسه على رأس جيشه إلى عانـة[3]. وكان برفقته بعض الخواتين الأخريات بقصد توديعه. وفى يوم السبت

---

(١) المقصود أخوه اولجايتو، وكان قد عيّن من قبله حاكمًا على خراسان.

(٢) الحديثة موضعان: أحدهما هذه الحديثة التى هى من بلاد الجزيرة، وتقع على الفرات تحت عانة، وفوق الأنبار. والثانية حديثة الموصل. والحديثة بلد على بعد فراسخ من الأنبار فى وسط الفرات، والماء محيط بها، ويقال لها حديثة النورة (تقويم البلدان، ص٢٨٧).

(٣) عانة: بلدة صغيرة على جزيرة فى وسط الفرات. وهى على مقربة من الحديثة. وتشتهر بخمرها الذى يتردد صداه فى الأشعار (تقويم البلدان، ص٢٨٧).

الثانى عشر من رجب نزل بمدينة عانة. وفى الحقيقة أنه لا يوجد مكان فى العالم أكثر رونقًا وجمالاً من هذا المكان؛ إذ إن المدينة تقـع علـى جزيرة وسط الفرات، وقد أحاطت بها الحـدائق والبسـاتين الزاخـرة بالأشجار والرياحين؛ وذلك بعرض فرسخ، بحيث إن ضوء الشمس لا يقع من جوانبها على الأرض. وهناك أنشأوا الجواسق والأبنية العاليـة المنحوتة من الرخام. وقد شيدوا بناءها من أعماق الأرض، وفتحوا فى جوانبها النوافذ التى تطل على الفرات، والحدائق الشبيهة بالجنات.

[ص٣٥٤] وهكذا فإن بهجة تلك البساتين ونضرتها ومزارع النخيل لمما يفوق حد الوصف. وعلى هذا النمط الذى ذكر، تمتـد عمـارات توابع الفرات إلى مسافة تسعين فرسخًا ابتداء من "سكر فلوجه" الواقعة على حدود الأنبار حتى نهاية سروج[١] وحران[٢]. وهـذه العمـارات يتصل بعضها ببعض على امتداد هذا الطول المذكور، وبعرض فرسخ أو أكثر على شاطئ الفرات؛ بحيث لا تنحسر قطعا ظلال الأشجار عن

---

(١) سروج: مدينة بنواحى حرّان من بلاد الجزيرة، وبينها وبين حرّان مسيرة يوم. وهى كثيرة المياه والبساتين. وبها الرمان المفضل والكمثرى والخوخ والسفرجل. وهى أيضًا على مسافة يوم من البيرة فى جهة الشرق والشمال عنها (تقويم البلدان، ص٢٧٧).

(٢) حَرّان: مدينة مشهورة تعد من ديار مضر. بها تل عليه مصلى للصابئين يعظمونه، وينسب إلى إبراهيم. وهى قليلة الماء والشجر. والجبل منها فى سمت الجنوب والشرق على فرسخين. وتربتها حمراء. وشرب أهلها من قناة تجرى من عيون خارج المدينة ومن الآبار (تقويم البلدان، ص٢٧٧).

أية بقعة. وتظل السدود مغلقة على الدوام، ودواليب السـواقى تـدور بالمياه على الجانبين ليلاً ونهارا، والجواسق والأبنية العالية متلاصقة.

وصفوة القول فإن بلوغان خاتون ودعت زوجها غازان خان، ثـم عبرت النهر وتوجهت إلى سنجار. أما الرايات السلطانية فقد قصـدت مع الجيش المظفر إلى رحبة الشام. وقبل وصول الرايـات السـلطانية إليها أشيع أن العدو قد ظهر فى أطراف الشام.

ورغم أن الإشاعة كانت كاذبة فإن السلطان أمر باستعراض الجند، وتفقد أحوالهم لتعبئة الجيش وإعداد الأسلحة والدروع.

وفى اليوم الثامن والعشرين من رجب ساروا حتى ظاهر الرحبـة. وكان الأهالى هناك قد هيأوا العجلات الحربية، واتخذوا للاسـتعدادات الأخرى. ولكن غازان لم يعبأ بذلك، وغادر معسكره ليلاً، وصار على مقربة من القلعة. وكان الأمير علم الدين الغنمى وأهـل الرحبـة قـد تحصنوا بالقلعة؛ فأمر سلطان الإسلام فى آخر رجب بأن يذهب الأمراء الكبار وكذلك أصحاب الديوان إلى مكان قريب من القلعة. وهؤلاء هم: سوتاى وسلطان ومؤلف هذا الكتاب: رشيد الدين الطبيب(٣) والخواجـه

---

(٣) يصر هنا رشيد الدين على تلقيب نفسه بلقب رشيد الطبيب مع أنه كان وزيرًا لغازان خان منذ سنة ٦٩٧هـ يشارك زميله سعد الدين محمد الساوجى فى منصب الوزارة. وليس من الميسور أن نكشف عن العلل والأسباب = = التى جعلت رشيد الدين يكتفى بالانتساب إلى مهنته الأولى دون أن يكشف عن شخصيته كوزير

سعد الدين صاحب الديوان ليدعوا الأهالى إلى الخضوع والدخول فـى الطاعة، فقدموا– حسب الأوامر – إلى أسفل القلعة **[ص355]** وأشاروا بكتابة منشور بعبارات عربية جاء فيه: "إن سبب مجيئنا هو تصـرفات المصريين غير الصائبة التى درجوا عليها منذ مدة. وقد أرسلنا الرسل مرارا يحملون إليهم المواعظ والنصائح؛ فلم ينتصـحوا، وردوا علينـا بردود تدل على عدم اكتراث، فحملتُ ذلك على سبيل جهالتهم، وعـدم ممارستهم الأمور العظيمة. وحيث إن هذه الأساليب قد جاوزت حدها، زحف جيشنا المظفر بقصد الانتقام. وكان لا مفر من عبور هذه الديار؛ وإلا فليس لنا غرض فى إلحاق الضرر بكم أنتم أيها السوريون فعليكم أيضا أن تتدبروا هذا الأمر، وأن ترعوا مصالحكم وتحقنـوا دمـاءكم، وتحفظوا أموالكم، وتتقدموا إلينا طائعين منقادين. وحيث إنكم تـدركون أن الحق فى جانبنا، كان عليكم ألا تعاندوا، ولا تلقـوا بأيـديكم إلـى التهلكة".

وهكذا حرر المنشور بهذه الصورة، وختم بالختم، ثم أرسـل إلـى داخل القلعة، فأعادوا حامله قائلين: حيث إن عبارات المنشور فى غاية الفصاحة والبلاغة، نطلب مهلة هذه الليلة كى نسبر غور معانيه، ونقدم الرد غدا نهارا. وفى اليوم التالى الخميس غرة شعبان، أوفدوا جمـال

مسئول يشترك مع سعد الدين فى إدارة شئون الدولـة. (انظر مؤرخ المغول الكبير رشيد الدين فضل الله الهمذانى، ص ١٢٥ – ١٢٦).

الدين الإسكندرى والشيخ شرف الدين من مريدى سيدى أحمد الكبير يحملان الرد على ذلك المنشور ومضمونه: "إننا مطيعون ومنقادون لأمر سلطان الإسلام"؛ فشملهما غازان خان بعطفه وأعادهما. وفى اليوم التالى نزل حسام الدين لاجين نائب علم الدين الغنمى الذى كان قائد القلعة وأظهر الخضوع والطاعة؛ فوجد العطف والرعاية ثم عاد. وفى اليوم التالى نزل هو وسيف الدين قليج، الابن الأكبر للغنمى[1] والقاضى نجم الدين وطائفة من أعيان الرحبة، وقدموا فروض إتمام الطاعة وتشرفوا بلقاء الحضرة. وقد حررت لهم عهود أمان محكمة باللغة العربية بخصوص اختصاصات الغنمى وأعماله، وما يتعلق بأبنائه ونوابه، وكذلك القاضى وجمهور **[ص٣٥٦]** أصحاب الأعمال هناك، وتأمين أهل المدينة والقلعة والولاية. وقد زخرت هذه الكتب والعهود بالأختام المباركة، وسلمت لهم.

وفى يوم الثلاثاء السادس من شعبان غادر غازان خان قلعة الرحبة، وجاءت البشرى من ناحية خراسان تنبئ أن جيش قايدو قد انهزم وهلك، وجرح "دوا". وفى هذا الوقت كان الأمير قتلغ شاه وجوبان ومولاى قد عبروا مع جنودهم نهر الفرات إلى الرقة. ثم وصلوا إلى حلب. أما سلطان الإسلام فقد نزل بأعلى "دير بسير" على ضفاف نهر

(١) انظر زبدة الفكرة، ج٩ ص٣٥٢.

الفرات، وأقام هناك ثلاثة أيام ثم سير جميع الأمراء مع جنودهم كـى يلحقوا بالأمير قتلغ شاه والآخرين. ولما حل الربيـع، وزادت الميـاه وصار الجو حارا، عبر غازان الفرات قاصدا سنجار والموصـل فـى اليوم الثالث عشر من شعبان. ثم عبر نهر الخابور فى مدينة ماكسين، وشمل برعايته رسولى خراسان: سايغان وقونجى آقتاجى، ثم أذن لهما بالعودة. وكان يسير فى تلك البرية المليئة بأزهار اللعـل والأقحـوان، وهو يتنزه ويصطاد.

وفى يوم الأحد الخامس والعشرين من شعبان لحق بالخواتين اللائى كن قد أتين لاستقباله فى موضع "جهار طاق" مما يلى سنجار، وأقـام يومين أو ثلاثة. وفى غرة رمضان نزل فى المعسكرات فـى موضـع تلعفر، وفوض السلطان نجم الدين ماردين حكم ديار بكر كلها وديـار ربيعة، ولقبه بلقب الملك المنصور. ثم عبر نهر دجلة، ونزل بصحراء كشاف. ولما كانت شكوى أهل الموصل قد بلغت الفلك السابع بسـبب ظلم فخر الدين النصرانى، صدر الأمر بأن يقضى عليه السلطان نجـم الدين عند مسيره إلى الموصل، فخدعه هذا السـلطان متظـاهرا بأنـه سوف يجعله نائبا هناك، ثم قضى عليه بعد عدة أيام.

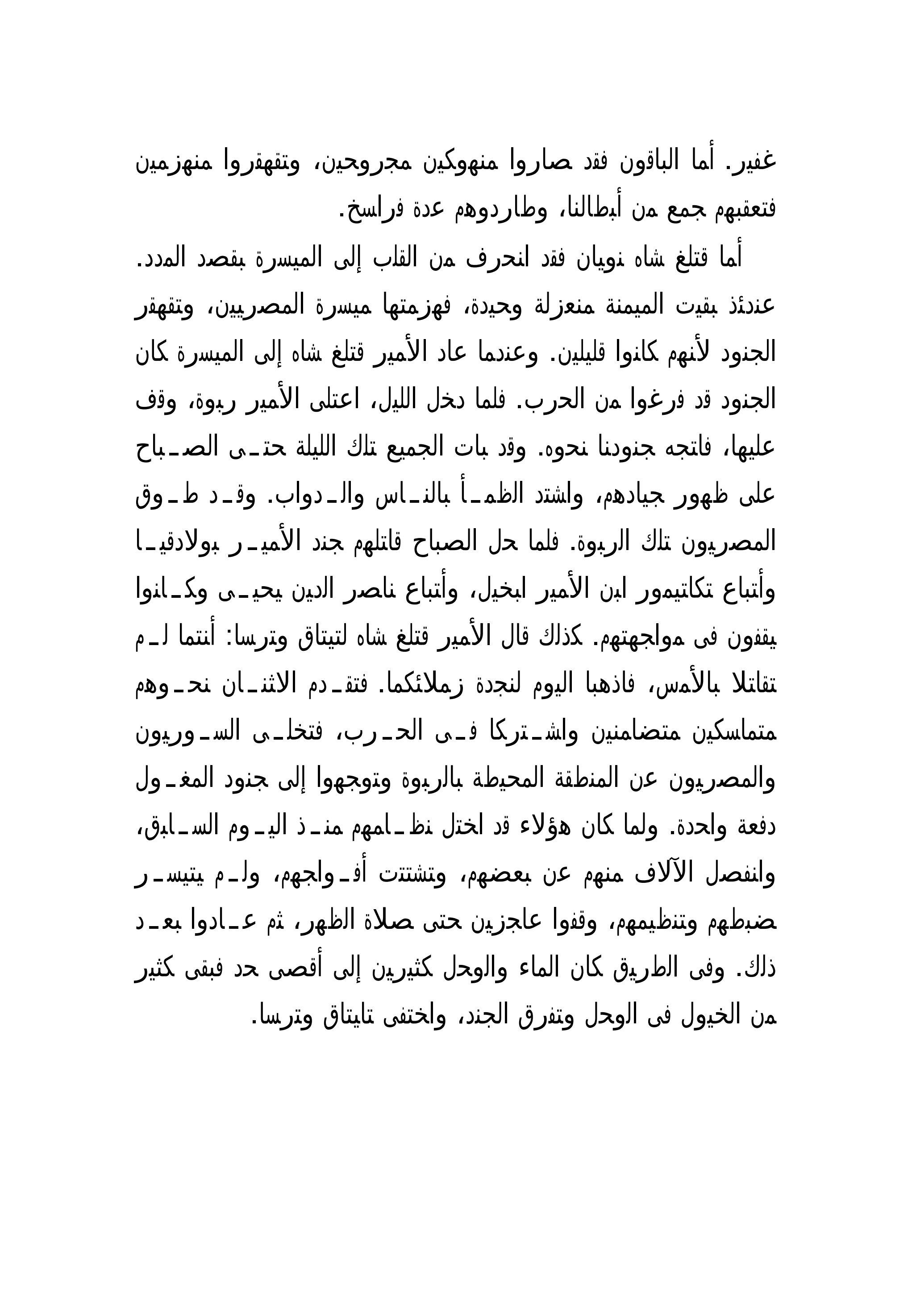
حكاية

التحام قتلغشاه نويان بجيش مصر ثم رجوعه من هناك، وعودة الرايات السلطانية إلى أوجان

ظل سلطان الإسلام فى كشاف يترقب وصول الأمـراء والجنـود الذين كانوا بالشام. وهؤلاء عندما بلغوا حمص، شرعوا فـى النهـب والقتل العام. فلما اقتربوا من دمشق، وسمعوا أن العدو قد اقترب فـى صباح السبت غرة رمضان، ركبوا دفعة واحدة، وتقدموا إلى ما يقرب من خمسة فراسخ، واجتازوا المياه والأوحال الكثيرة؛ فأدركوا العدو فى موضع "مرج الصفر"[1]، وتحاربوا. وكان ذلك فى اليوم التـالى مـن رمضان؛ فهزمت ميسرةُ جيشنا ميمنتَهم، وقتل منهم ثلاثة عشر أميـرا من أمرائهم الكبار، من جملتهم حسام الدين "أستاد الدار". كما قتل جمع

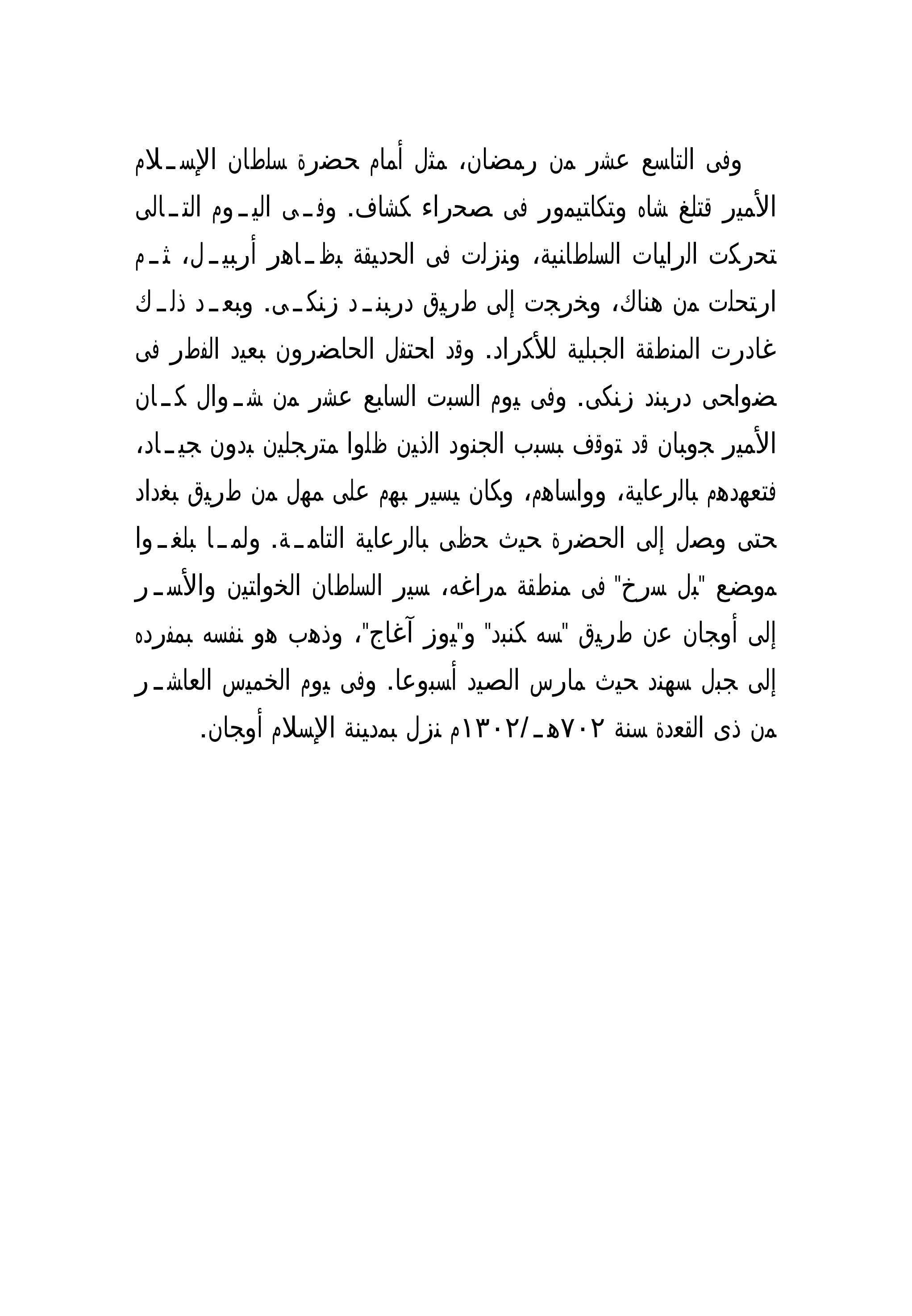
---

(١) انظر المزيد من التفصيلات عن هذه الواقعة الحاسمة التى تم فيها النصر المبين للمصريين والسوريين فى المصادر والمراجع الآتية: زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة، ج٩ ص٣٥٥ وما بعدها؛ أبو بكر بن عبد الله بن أيبك الدوادارى: كنز الدرر وجامع الغرر، ح٩ تحقيق هانس روبرت رويمر، ص٨٢ وما بعدها؛ رحلة ابن بطوطة، ص٥٣٩، دار صادر، بيروت ١٣٨٤هـ – ١٩٦٤م؛ المقريزى: السلوك، ج١ ق٣، ص ٩٣٧؛ الشرق الإسلامى فى عهد الإيلخانيين، ص ٢٩٦ وما بعدها).



غفير. أما الباقون فقد صاروا منهوكين مجروحين، وتقهقروا منهزمين فتعقبهم جمع من أبطالنا، وطاردوهم عدة فراسخ.

أما قتلغ شاه نويان فقد انحرف من القلب إلى الميسرة بقصد المدد. عندئذ بقيت الميمنة منعزلة وحيدة، فهزمتها ميسرة المصريين، وتقهقر الجنود لأنهم كانوا قليلين. وعندما عاد الأمير قتلغ شاه إلى الميسرة كان الجنود قد فرغوا من الحرب. فلما دخل الليل، اعتلى الأمير ربوة، وقف عليها، فاتجه جنودنا نحوه. وقد بات الجميع تلك الليلة حتى الصباح على ظهور جيادهم، واشتد الظمأ بالناس والدواب. وقد طوق المصريون تلك الربوة. فلما حل الصباح قاتلهم جند الأمير بولادقيا وأتباع تكاتيمور ابن الأمير ابخيل، وأتباع ناصر الدين يحيى وكانوا يقفون فى مواجهتهم. كذلك قال الأمير قتلغ شاه لتيتاق وترسا: أنتما لم تقاتلا بالأمس، فاذهبا اليوم لنجدة زملائكما. فتقدم الاثنان نحوهم متماسكين متضامنين واشتركا فى الحرب، فتخلى السوريون والمصريون عن المنطقة المحيطة بالربوة وتوجهوا إلى جنود المغول دفعة واحدة. ولما كان هؤلاء قد اختل نظامهم منذ اليوم السابق، وانفصل الآلاف منهم عن بعضهم، وتشتتت أفواجهم، ولم يتيسر ضبطهم وتنظيمهم، وقفوا عاجزين حتى صلاة الظهر، ثم عادوا بعد ذلك. وفى الطريق كان الماء والوحل كثيرين إلى أقصى حد فبقى كثير من الخيول فى الوحل وتفرق الجند، واختفى تايتاق وترسا.



وفى التاسع عشر من رمضان، مثل أمام حضرة سلطان الإسلام الأمير قتلغ شاه وتكاتيمور فى صحراء كشاف. وفى اليوم التالى تحركت الرايات السلطانية، ونزلت فى الحديقة بظاهر أربيل، ثم ارتحلت من هناك، وخرجت إلى طريق دربند زنكى. وبعد ذلك غادرت المنطقة الجبلية للأكراد. وقد احتفل الحاضرون بعيد الفطر فى ضواحى دربند زنكى. وفى يوم السبت السابع عشر من شوال كان الأمير جوبان قد توقف بسبب الجنود الذين ظلوا مترجلين بدون جياد، فتعهدهم بالرعاية، وواساهم، وكان يسير بهم على مهل من طريق بغداد حتى وصل إلى الحضرة حيث حظى بالرعاية التامة. ولما بلغوا موضع "بل سرخ" فى منطقة مراغه، سير السلطان الخواتين والأسر إلى أوجان عن طريق "سه كنبد" و"يوز آغاج"، وذهب هو نفسه بمفرده إلى جبل سهند حيث مارس الصيد أسبوعا. وفى يوم الخميس العاشر من ذى القعدة سنة ٧٠٢هـ/١٣٠٢م نزل بمدينة الإسلام أوجان.

حكاية

محاكمة الأمراء والجنود الذين كانوا قد عادوا من الشام، ثم عقد مجلس الشورى بموضع أوجان، وتشرف الأمراء بلقاء غازان

بعد أن وصلت الرايات السلطانية إلى مدينة الإسلام أوجان شرعوا فى التحقيق مع الأمراء والجنود، وكان ذلك فى اليوم الثانى لوصـولهم الموافق الثانى عشر من ذى القعدة. ومع أن المحققين كـانوا يسـألون المتهمين أسئلة دقيقة، فإن سلطان الإسلام كان يستدرك علـيهم عـدة ملاحظات تتسم بالفطنة، وذلك عندما كان يعرض عليه سجل الاتهـام؛ فكان المحققون يستجوبون المتهمـين مـرة أخـرى مـراعين تلـك الملاحظات الدقيقة.

وعاقبة الأمر فإن التحقيقات قد انتهت فى غرة ذى الحجة وأعـدم آغوتاى ترخان بن جيبك ترخان، وطوغان تيمور من قبيلة منكقـوت، وطبقت قواعد "الياسا الكبرى"[1] فى كل الشئون الحربية. وفـى يـوم الخميس الثانى من ذى الحجة شرعوا فى الاحتفال بعقـد القوريلتـاى وتشرف الأمراء بلقاء الحضرة.

---

(١) المقصود الياسا التى وضعها جنكيز خان، وذلك مقصور على النواحى الحربية لأن غازان خان بعد أن اعتنق الإسلام، وأعلن الإسلام دينًا رسميًا، وضع نظمًا وقواعد جديدة وفقًا لأحكام الشريعة الإسلامية، وذلك بدلاً من أحكام الياسا الجائرة.

حكاية

إصابة سلطان الإسلام بالرمد، ووصول الأمراء من خراسان

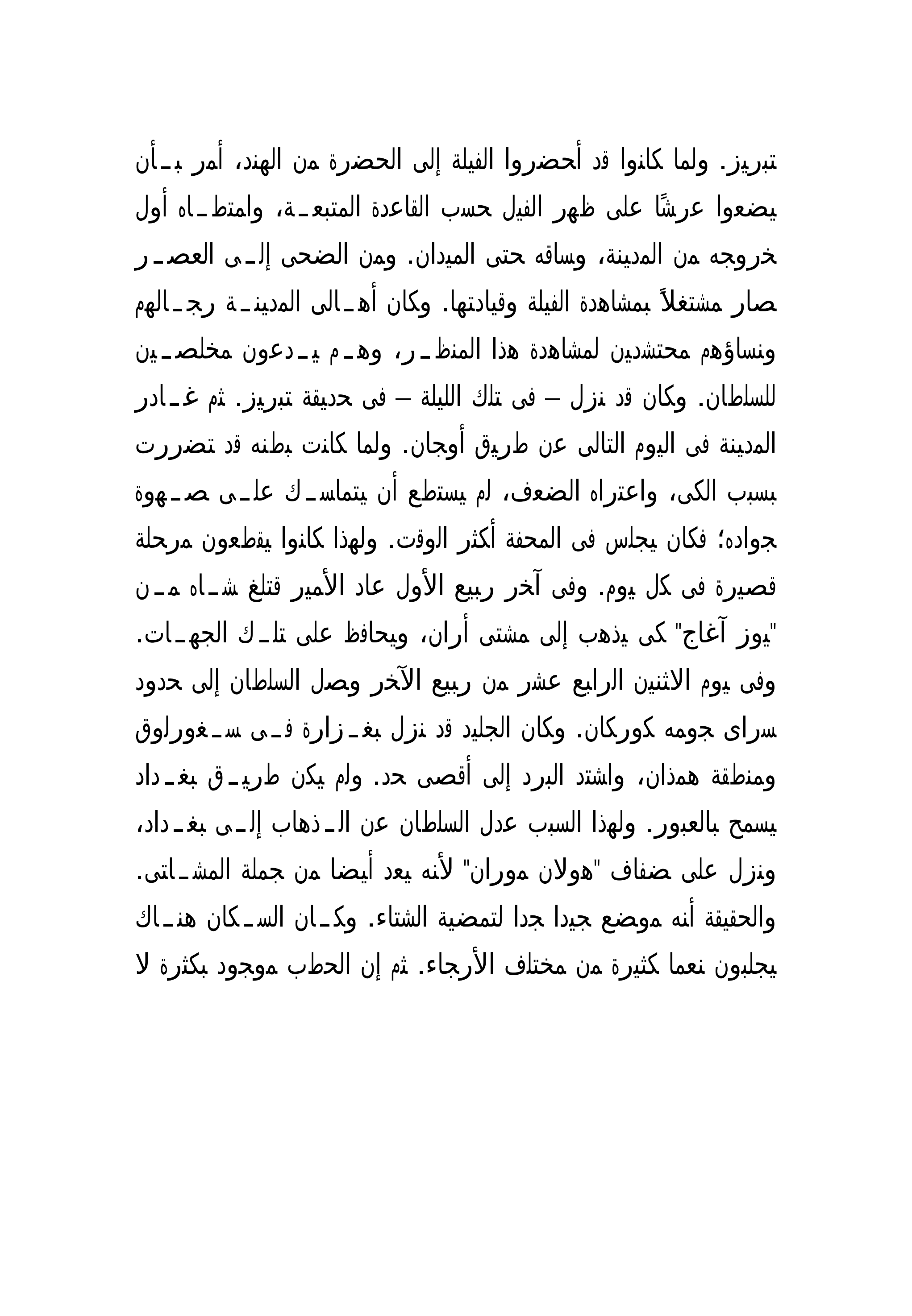
ثم توجه الرايات السلطانية إلى بغداد،

والنزول فى هولان موران

فى يوم الخميس الخامس والعشرين من المحرم سنة ٧٠٣هـ/١٣٠٣م وصلت الرايات السلطانية إلى دار الملك تبريز، ونزلت فى القلعة. ثم أشار السلطان بإعداد الجيش والسلاح. ولكن أصابه الرمد بعد عدة أيام؛ فاشتغل الأطباء والحكماء بمعالجته ومداواته. ولقد طالت مدة المرض، فضاق وقت العزم على الرحيل إلى المشتى. **[ص٣٦٠]**.

وفى يوم الاثنين الرابع من صفر وصلت من خراسان الخاتون المعظمة "ايلتوزميش" مع الأميرين بسطام وأبى يزيد، فابتهج سلطان الإسلام، وسر كثيرا بوصولهم، ورشح ابنته أولجاى خاتون للزواج من الأمير بسطام، وكان يجلسهما دائما إلى جواره ويرعاهما ويتودد إليهما.

وفى أواخر أيام مقامه فى تبريز فى يوم الأحد السابع من ربيع الأول، كوى موضعين فى جسده المبارك، عملاً برأى أطباء الخطا. وفى يوم الجمعة التاسع عشر من ربيع الأول عزم على مغادرة مدينة



تبريز. ولما كانوا قد أحضروا الفيلة إلى الحضرة من الهند، أمر بـأن يضعوا عرشًا على ظهر الفيل حسب القاعدة المتبعـة، وامتطـاه أول خروجه من المدينة، وساقه حتى الميدان. ومن الضحى إلـى العصـر صار مشتغلاً بمشاهدة الفيلة وقيادتها. وكان أهـالى المدينـة رجـالهم ونساؤهم محتشدين لمشاهدة هذا المنظـر، وهـم يـدعون مخلصـين للسلطان. وكان قد نزل – فى تلك الليلة – فى حديقة تبريز. ثم غـادر المدينة فى اليوم التالى عن طريق أوجان. ولما كانت بطنه قد تضررت بسبب الكى، واعتراه الضعف، لم يستطع أن يتماسـك علـى صـهوة جواده؛ فكان يجلس فى المحفة أكثر الوقت. ولهذا كانوا يقطعون مرحلة قصيرة فى كل يوم. وفى آخر ربيع الأول عاد الأمير قتلغ شـاه مـن "يوز آغاج" كى يذهب إلى مشتى أران، ويحافظ على تلـك الجهـات. وفى يوم الاثنين الرابع عشر من ربيع الآخر وصل السلطان إلى حدود سراى جومه كوركان. وكان الجليد قد نزل بغـزارة فـى سـغورلوق ومنطقة همذان، واشتد البرد إلى أقصى حد. ولم يكن طريـق بغـداد يسمح بالعبور. ولهذا السبب عدل السلطان عن الـذهاب إلـى بغـداد، ونزل على ضفاف "هولان موران" لأنه يعد أيضا من جملة المشـاتى. والحقيقة أنه موضع جيدا جدا لتمضية الشتاء. وكـان السـكان هنـاك يجلبون نعما كثيرة من مختلف الأرجاء. ثم إن الحطب موجود بكثرة لا

حد لها. أما الناس فقد اعتكفوا جميعا فى بيوتهم، وتفرغوا للقيام بمهـام الأمور، وتصريف المصالح.

وقد اتفق أن سلطان الإسلام أراد أن يطعم عشرة مساكين ويكسوهم ككفارة صغيرة. وكان يرغب فى أن يمـنحهم تلـك الصـدقات بيـده المباركة؛ فأمر بإحضار عشرة من المساكين وتنفيـذًا لأمـر غـازان أحضر إليه مهتر نجيب الدين فراش - الذى كان من جملـة خواصـه والمقربين إليه – عشرة مساكين، وقدم لهم الطعام بحضور السـلطان. ثم أمر بإحضار عشرة أثواب من الخزانة، وأمعن فيهـا النظـر. ثـم أعطى ثمانية أشخاص كل واحد منهم ثوبا وسلم مهتر نجيـب الـدين الثوبين الباقيين قائلاً له: اخرج وأحضر مسكينين آخرين كى أعطيهما الثوبين الباقيين؛ لأن هذين الاثنين مسيحيان. فقال لهما نجيب الدين: ألم تقولا إنكما مسلمان؟! فأجابا: بلى. لقد قلنا لك هذا بسبب الطمع. ولكـن الآن لا يمكن الكذب على سلطان الإسلام؛ إذ إن رأيه المبارك صائب؛ فنحن الاثنان نعتنق الدين المسيحى.

ولا شك أن هذه النكتة دليل واضح على أن غازان كان وليـا مـن أولياء الحق - عز وعلا– رحمه ا رحمة واسعة. والسلام.

حكاية
اعتكاف سلطان الإسلام فى مشتى هولان موران
والكشف عن تآمر ألافرنك وتمرده
والقضاء على جماعة المتآمرين

كان سلطان الإسلام ينوى الاعتكاف فى ذلك المشتى عدة أيام تبلـغ الأربعين (جهله) فأمر بإقامة منزل خارج السرادق، وأقام فيه وحـده، ولم يسمح لأى مخلوق بأن يدخل عليه سـوى أميـر الـدار (خواجـه سرايى) والحارس الخاص (كزيكتانى). وكان يقنع كل يوم بقليل مـن الطعام.

وفى أثناء ذلك حدثت حالة عجيبة مؤداها أن جمعا مـن المشـايخ المنافقين فى مقدمتهم "بير يعقوب الباغبانى"، كانوا قد دعوا إلى مدينـة تبريز الأمير النجل "ألافرانك" لتوليته الحكم، وذلك بدافع حـبهم الجـاه والمال، وأرادوا أن يظهروا الكرامات التى ليست فيهم. وخـلال تلـك الأيام، أرسلوا إلى المعسكر مريدا اسمه محمود **[ص٣٦٢]** كى تتحـد معه طائفة من المقربين فأفشى ذلك الرجل السر جهلاً منه، وقـال: إن شخصا طوله أربعون ذراعا وعرضه خمسة أذرع يجىء مـن جبـال "مرند وأيقان" إلى الشيخ يعقوب ليرشده، ويكشف له الأسرار. والآن قد

منح الأمير النجل "ألافرنك" السلطنة؛ إذ إنها تئول إليه طوعا أو كرها. وقد وهبه الزهاد هذه المنحة.

فلما بلغ هذا الكلام مسامع الخواجه سعد الدين صـاحب الـديوان، اعتقل ذلك الشخص وكبله بالأصفاد، وعرض ما حدث على حضـرة سلطان الإسلام، فأرسل جابى الأختاجى إلى تبريز لإحضار المفسـدين مثيرى الفتنة، فعاد بعد عشرة أيام ومعه كل من بير يعقـوب وناصـر الدين ايلجى قاآن والشيخ حبيب الذى كان خليفة رشيد البلغارى والسيد كمال الدين. وكان الشيخ رشيد شيخا لصدر الدين الزنجـانى، والسـيد كمال الدين من ملازميه أيضا. والعجيب فى الأمر أن سلطان الإسـلام عندما رآهم، قال: "إن نفسى تحدثنى أن هؤلاء المتآمرين مـن أتبـاع صدر الدين الزنجانى". فلما تحروا الحقيقة، اتضح أن الأمر كان علـى هذا المنوال. عندئذ قال السلطان: يبدو أن الميت ما زال يثيـر الفـتن. وعلى أثر ذلك صار يتفحص الأمر بنفسه، وذلك بحضـور الأمـراء والمقربين إليه. وكانت تلك الطائفة من الجهال يرددون هذا النوع مـن الكلام العبث. ولما تفحصوا الأمر جيـدا تبـين أن معتقـدات هـؤلاء الأشخاص هى نفس عقائد مزدك وأنهم يقصدون نشر ذلك المذهب بين الناس. فلما ثبتت إدانتهم قال يعقوب: "سوف يحفظنا شيوخنا". فرد عليه سلطان الإسلام قائلاً: "إن شيوخى هم ا والمصـطفى والمرتضـى. فلننظر من الأقوى؟ أنت أم هم؟! ثم أمر بأن يلقوا به من أعلى الجبـل

هناك. كذلك قُتِل أصحابه. أما الأمير ألافرنك فقد عفا عنه السلطان. فما كان منه إلا أن صرح بالحقيقة قائلاً: "ما دام السلطان قد شملنى بعطفه ورعايته، فإنى سوف أفصح عن حقيقة ما حدث لقد صحبونى مرتين أو ثلاث مرات إلى الشيخ يعقوب فى تبريز؛ بحجة أننا سوف نذهب لممارسة الصيد **[ص٣٦٣]**. وكان هو ومريدوه يتحدثون عن حالة السماع وغيرها من هذا القبيل من الكرامات، وصاروا يغروننى بالملك. ولكننى بسبب الخوف لم أستطع أن أبوح بذلك، وكنت أخفى هذا السر. كذلك استجوبوا يتميش نائب تايتاق وقتلوه لأنه أقر أيضا بذنبه. أما آقبوقا بن تايتاق فقد كان له دخل فى هذه المؤامرة، وكان من أخلاط ذلك المعجون خصوصا وأن ألافرنك قال عنه: إن كل ذلك داخل فى جريمته. ولكن حيث إنه كان شابا وحدثًا، وأبلى والده بلاء حسنًا فى حرب الشام، ووقع أسيرا فى يد الأعداء – عفا عنه سلطان الإسلام، واكتفى بأن زج به فى السجن. والسلام.

حكاية
الاحتفال بعيد ميلاد الأمير أبى يزيد فى معسكر
ايلتوزميش خاتون، وخروج السلطان
من الاعتكاف الأربعينى

فى يوم الأحد غرة جمادى الآخـرة أقـيم احتفـال فـى معسـكر اولتوزميش بمناسبة عيد ميلاد الأمير أبى يزيد جريا على المعتاد. وقد حضر الحفل سلطان الإسلام وجميـع الخـواتين والأمـراء الأنجـال والأمراء وقدموا مراسم التهنئة والابتهاج، وبالغوا فى الطرب والمتعة. وقد اختص سلطان الإسلام الأمراء والخواتين وأتباعهم بأنواع العطف والرعاية والتكريم.

وبعد ذلك خرج سلطان الإسلام من خلوته، واعتنى بتدبير المملكة، وضبط مصالح السلطنة. وكان مزاجه قد صح، وصار يمضى أوقاتـه سعيدا مسرورا. وكان جمهور أركان الدولة مستبشرين فرحين لكشـف مكر وخداع الشيخ وأتباعه.

حكاية
تكريم سلطان الإسلام الخواجه سعد الدين
صاحب الديوان لما أبداه من إخلاص
فى قضية ألافرنك

نظرا لأن الخواجه سعد الدين صاحب الديوان ألقـى القـبض فـى الحال على رسول بير يعقوب الذى كان قد قدم إلى المعسـكر لجـذب القلوب إليه، وأرسل إلى كل شخص الرسائل التـى تمنـيهم بـالوعود الحسنة – عرض صاحب الديوان على الفور تلك النية المبيتـة علـى حضرة السلطان، فشمله بعطفه، ووثق به إلى أقصى حـد، وأيقـن أن الاعتماد المطلق عليه فى جميع الشئون إنما كان فـى موضـعه، وأن صدقه وإخلاصه للحضرة وتفانيه فى الولاء لها وتنقلـه لأداء واجبـه نحوها، إنما هى خدمات على درجة يسـتحق مـن أجلهـا أن يشـمله السلطان برعايته كل يوم مائة مرة، ويكون ذلك لائقًا له وجـديرا بـه، ومن قبيل وضع الشىء فى موضعه. ولهذا أراد السـلطان أن يكـرم وزيره بطريقة تزيد فى مرتبته ومنزلته وحتى تبلغ حشـمته وعظمتـه درجة أكبر.

ولما كان زمام الأمور حلها وعقدها، وعنان قبض مصالح السلطنة وبسطها قد وضعا فى كف يدٍ ذات كفاءة، وبكيفية لا يتصـور المزيـد

عليها قط، أكرمه السلطان بطريقة لا نظير لها؛ إذ فوض إليه إمرة ألف جندى مغولى، ومنحه الطوق والطبل، وأمر جميع الأمراء بتقديم التهنئة له.

والحقيقة أن تلك الذات الملائكية الصـفات، والتـى هـى مجمـع للفضائل النفسانية، ومنبع للكمالات الإنسانية سبب راحة الناس رفيعهم ووضيعهم وخواصهم وعوامهم، ولازمة لزينة الملك والدولة والإيمـان والإسلام. ليمتعه الحق تعالى بالجاه العريض والحشـمة المستفيضـة. والسلام.

حكاية وفاة كرمون خاتون، ونقل جثمانها إلى تبريز
وذكر بعض الكلمات الحكيمة التى تفوه بها
سلطان الإسلام فى أحوال الخلق

فى وقت السحر من يوم الثلاثاء الثانى عشر من جمـادى الآخـرة سنة ٧٠٣هـ/١٣٠٣م توفيت فجأة "كرمون خاتون" ابنة قتلغتيمور بـن آباتاى نويان التى كانت زوجة سلطان الإسلام. وكانت وفاتها فى مشتى منطقة "سراى جومه"، ثم نقل جثمانها بمراسيم مهيبة للغاية. ولما كانت فى ريعان الشباب، ولم تتمتع بالدنيا طويلاً، كان وقع موتها شديدا إلـى أقصى حد على سلطان الإسلام، فتألم كثيرا لحدوث تلك الواقعة. وبعـد وفاتها حضر السلطان إلى مخيمها، وبكى كثيرا، وأمر بأن يعد لها كل ما يجب من الترتيبات والمراسم. وبعد أن تم نقل نعشها، كانت عينـه المباركة تدمع كلما تذكرها.

وذات يوم كان جمهور أركان الدولة حاضرين، فسألهم: أى أمر لا يوجد ما هو أشق منه وأصعب؟! فأجاب الأمراء هو أن يقع الإنسـان أسيرا فى يد عدوه، ويصبح ذليلاً لخصمه. وقالت طائفة: إنـه الفقـر. وقالت مجموعة: إنه الموت. عندئذ قال لهم السلطان: إن أصعب أمـر هو أن يولد الإنسان ويجىء إلى الدنيا؛ ذلك أن جملة العنـاء والـبلاء والتعب والشقاء تكمن فى الحياة. ولو لم يكن الوجود ما وجـدت أيـة مشقة.

وليس لإنسان راحة فى الدنيا مطلقًا إلا بالموت. والدليل على ذلـك أنه إذا سار شخصان؛ أحدهما يجرى والآخر يمشى الهـوينى؛ فأيهمـا يكون أكثر راحة؟!أجابوا: الذى يمشى الهوينى. عندئذ سألهم: إذا سـار أحدهما الهوينى، وجلس الآخر. فأيهما يكون أكثر راحة؟! أجابوا: ذلك الذى يكون جالسا. فسألهم: إذا جلس أحدهما، ونام الأخر؛ فأيهما يكون أكثر راحة؟! فأجابوا: النائم. فقال لهم: إذن على هذا القيـاس، وطبقًـا للقاعدة الصحيحة **[ص٣٦٦]** يكون الميت أكثر راحة من النـائم، إذ أن فلاح النفوس، والفائدة التامة إنما يكونان فى الخلاص من ضيق الحياة. وليس هناك قيد ولا سجن ولا جحيم ولا عذاب أشد من الجهل وحـب الدنيا؛ ذلك أن الدنيا جحيم عباد ا ، والآخرة جنتهم. ومصـداق هـذا حديث النبى المصطفى عليه أفضل الصلوات وأكمل التحيات: "الـدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر"[(١)]. وبالقطع فإن الجاهـل لا يرغـب فـى التخلص من سجن الحياة. ومن شدة جهلة يحسـب أن الميـت يمـوت بالروح، وأن الحى يحيى بالبدن، وهو لا يدرى أن الحال على خـلاف ذلك، إذ إنه يفخر ويتباهى بأنواع الجهل والحماقة، وهـو لا يعلـم أن الموت حالة مستحبة، وأنه محض العدل. ولو لم يمت الآبـاء، فكيـف

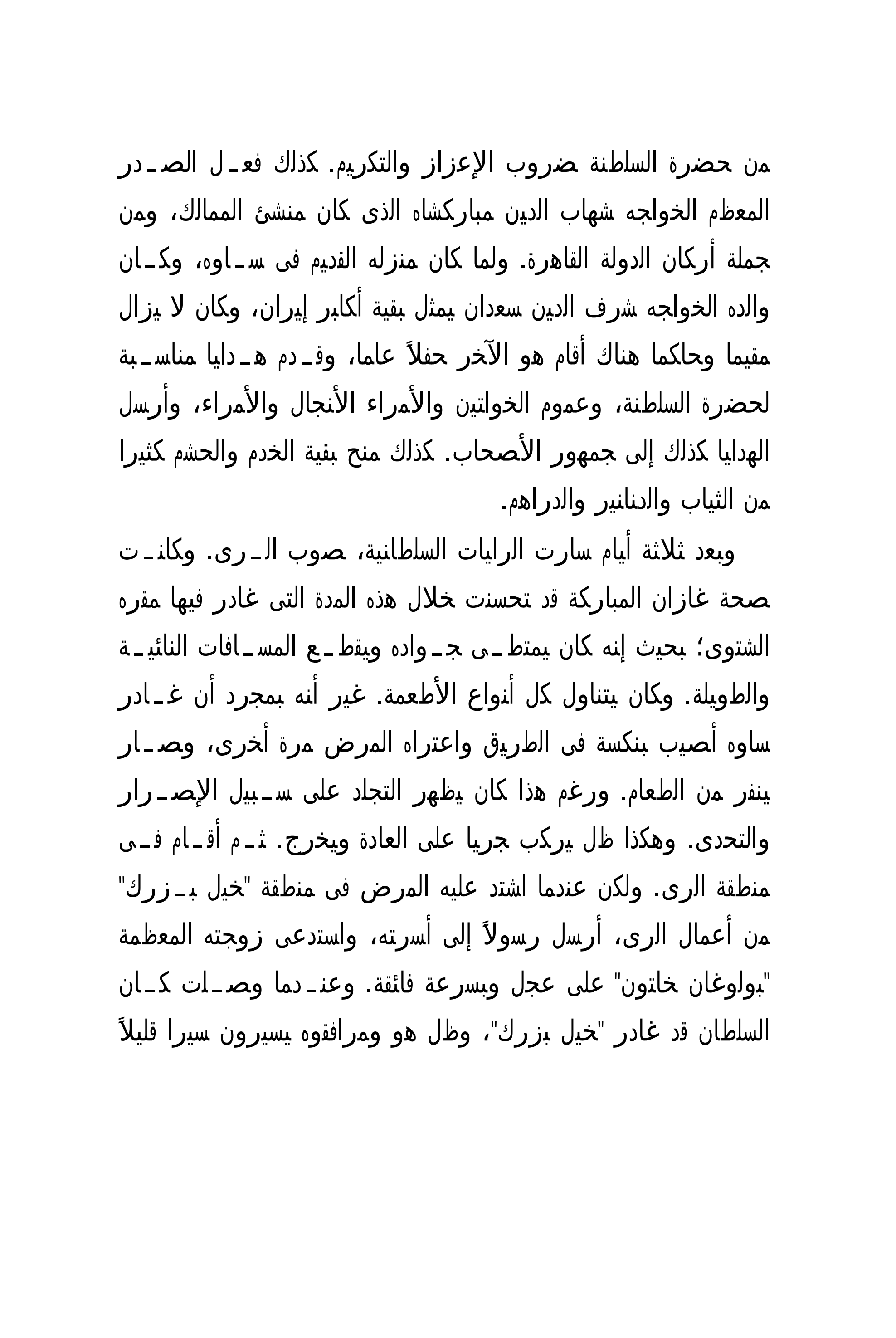
---

(١) حديث حسن صحيح ورد فى سنن الترمذى، ج٣ ص ٣٨٤ – ٣٨٥ القاهرة بدون تاريخ؛ انظر أيضًا كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس، أشرف على طبعه وتصحيحه أحمد القلاش، ج١ ص ٤٩٤ – ٤٩٥، حلب بدون تاريخ.

كانت تئول إلى الأبناء المناصب والأموال والجاه والأبهة والملك؟! ولو أن موت الآباء صعب ومؤلم، إلا أنه مستحب بسبب دور آخر. ولـيس هناك فائدة فى طول العمر إلا لشخص ينشد الكمـال، وتقبـل روحـه الارتفاع والارتقاء يوما بعد يوم.

إذن فالأولى أن يرضى البشر بقسمة الحق، لأنهم إذا عاشوا أكثـر من ثمانين عاما، فإن أعضاءهم تعجز عن العمـل، وتختـل حواسـهم وتتعطل، ويصبحون فى نظر الناس أذلاء محتقـرين، وينفـر مـنهم الأقارب والأباعد. وحيث إن الكمال هو ثمرة العمر، فإنه بعد الحصول عليه، يمكن أن يئول إلى نقصان مهما يكن العمر. وإذن فلـيس هنـاك فائدة من طول العمر وعلى هذا المنوال تفوه غازان خان بكلام دقيـق كله محض حكمه.

وفى أواخر شعبان ستة ٧٠٣هـ/١٣٠٣م رحل من مقـر "هـولان موران" الذى سماه "اولجايتو" (بوينوق)، وترك الخواتين وأفراد الأسرة فى منطقة قلعة "جوق" التى تبعد مرحلة واحدة عن "سـراى جومـه"، وتوجه فريق من جنده مع أركان الدولة وأعيان الحضرة إلـى ناحيـة "مراق". أما السلطان غازان فقد قضى بضعة أيام فى الجبال الواقعـة على حدود خرقان ومزدقان. ثم نزل بمدينة ساوه. وهناك أقام الصاحب الخواجه سعد الدين حفلاً عاما **[ص٣٦٧]** دعا إليه سـلطان الإسـلام وجميع الخواتين والأمراء والأنجال والأمراء، ورحب بهم. وقد وجـد



من حضرة السلطنة ضروب الإعزاز والتكريم. كذلك فعـل الصـدر المعظم الخواجه شهاب الدين مباركشاه الذى كان منشئ الممالك، ومن جملة أركان الدولة القاهرة. ولما كان منزله القديم فى سـاوه، وكـان والده الخواجه شرف الدين سعدان يمثل بقية أكابر إيران، وكان لا يزال مقيما وحاكما هناك أقام هو الآخر حفلاً عاما، وقـدم هـدايا مناسـبة لحضرة السلطنة، وعموم الخواتين والأمراء الأنجال والأمراء، وأرسل الهدايا كذلك إلى جمهور الأصحاب. كذلك منح بقية الخدم والحشم كثيرا من الثياب والدنانير والدراهم.

وبعد ثلاثة أيام سارت الرايات السلطانية، صوب الـرى. وكانـت صحة غازان المباركة قد تحسنت خلال هذه المدة التى غادر فيها مقره الشتوى؛ بحيث إنه كان يمتطـى جـواده ويقطـع المسـافات النائيـة والطويلة. وكان يتناول كل أنواع الأطعمة. غير أنه بمجرد أن غـادر ساوه أصيب بنكسة فى الطريق واعتراه المرض مرة أخرى، وصـار ينفر من الطعام. ورغم هذا كان يظهر التجلد على سـبيل الإصـرار والتحدى. وهكذا ظل يركب جريا على العادة ويخرج. ثـم أقـام فـى منطقة الرى. ولكن عندما اشتد عليه المرض فى منطقة "خيل بـزرك" من أعمال الرى، أرسل رسولاً إلى أسرته، واستدعى زوجته المعظمة "بولوغان خاتون" على عجل وبسرعة فائقة. وعنـدما وصـلت كـان السلطان قد غادر "خيل بزرك"، وظل هو ومرافقوه يسيرون سيرا قليلاً

كل يوم حتى وصلوا إلى ناحية قزوين. وفى أواخـر شـهر رمضـان عندما وصلت الخاتون، أقام الجميع هناك. ولما دخلت علـى زوجهـا السلطان غازان تصادف أن وجدته على تلك الحـال، فبكـت وبكـى الحاضرون، وسكبوا من أعينهم الدموع الحارة.

بعد ذلك استدعى السلطان غـازان جميـع الأمـراء والخـواص والمقربين وأركان الدولة وأعيان الحضرة، ونصح كلا منهم نصـيحة لائقة ومناسبة لحاله.**[ص٣٦٨]** ثم جدد البيعة بولاية العهد لأخيه الجليل – خلد سلطانه – وكان قد أمر بذلك قبل خمس سنوات، وكرره وأكـده مرات ومرات فى مجالس مختلفة. وبعد ذلك كتب وصية فـى غايـة اللطف والتهذيب وحث الأقران – بإلحاح – على مراعاتها والمحافظـة على ما جاء بها من مسائل دقيقة.

ولما فرغ من وصيته، كان يؤثر الخلوة فى أكثر الأوقات. ورغـم أن وطأة المرض قد اشتدت عليه تماما، كان يبدو متماسكًا، وكأنه فـى تمام قوته. كذلك كان دائما مرهف الحواس فصيح اللسان.

ولكن لما كانت أيام عمره قد آذنت بالانتـهاء بموجـب قولـه تعالى:﴿فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾[1] انتقلـت روحه الطاهرة من دار الغرور إلى دار السرور وقت غروب شـمس

(١) وردت هذه الآية فى سورة الأعراف، آية ٣٤. ووردت أيضًا فى سورة النحل، آية ٦١.

يوم الأحد الحادى عشر من شوال سنة ٧٠٣هـ/١٣٠٣م، فحلت بالعالم الطامة الكبرى بسبب تلك الواقعة العظمى، ولبست الأفلاك لباس الحداد الزرقاء، وبكت بمائة ألف عين، وجرت أنهار الدم من أعـين سـكان الربع المسكون على مثال النيل وجيحون. وبعد إقامة مراسـم الغسـل والتكفين حملوا جثمانه الشريف على مراكب خاصة وتبعـه الأمـراء والخواتين، وكان الرجال والنساء يخرجون من المدن والقرى حاسرى الرؤوس، حفاة الأقدام. وقد لبسوا الثياب البالية. وكانوا يهيلون التراب على رءوسهم وهم يبكون وينوحون.

(شعر فارسى فى الأصل ترجمته:)

علـ ـ ـ ـى نعـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـش ذلك الملك العـ ـ ـ ـادل

التقـ ـ ـ ـ ـى

انـ ـ ـتـ ـ ـخـ ـب الـ ـ ـ ـ ـ ـ ـزمـ ـ ـان،

وبـ ـ ـ ـ ـ ـكـ ـ ـ ـت الأرض

وكان كل شخص يقول: وا أسفاه وا أسـفاه

لـ ـقـ ـد غابـ ـ ـت شمـ ـ ـس الدنيـ ـ ـا وراء السحاب.

وفى كل المدن ببلاد إيران، ألبسوا المآذن ملابس الحداد، واندفعوا إلى الشوارع والميادين كبيرهم وصغيرهم، رجالهم ونسـاؤهم بثيـاب ممزقة وبالية، وأقاموا مآتم التعزية سبعة أيام. ولما أوصـلوا جثمانـه الشريف على بعد مرحلة واحدة من دار الملك **[ص٣٦٩]** تبريز، خرج

أهل المدينة برمتهم: رجالهم ونساؤهم كبيرهم وصغيرهم. ولعجـزهم وفقرهم لبسوا ملابس الحداد الزرقاء.

(بيت من الشعر الفارسى فى الأصل ترجمته:)

هـــــــــــــــــام الجميـــــــــع على وجوهـــــــم

فى الصحـــــــراء

ضاربين صدورهم بالأحجار بسبب جزعهم وقلقهم

وكان الجنود والحشم والرعية والخدم يطوفـون حـول الجثمـان الشريف باكين منتحبين إلى أن أوصلوه إلى موضع شم حيث القبة التى أنشأها وأحدثها، ودفنوه هناك.﴿كل شىء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون﴾[1].

أغرق الحق تعالى ذلك السلطان السعيد فى بحر رحمتـه الـذى لا ساحل له، وجعل سلطان سلاطين الإسلام السـلطان أولجـايتو وارث أعماره، وأبلغه منتهى آماله. إنه ولى الإجابة. وصلى ا علـى نبينـا محمد وآله وسلم.

---

(١) الآية بأكملها: ﴿ولا تدع مع الله إلها آخر لا إلـه إلا هو كل شـىء هالك إلا وجهه لـه الحكم وإليه ترجعون﴾. (سورة القصص، آية٨٨).

القسم الثالث

من تاريخ سلطان الإسلام غازان خان

خلد سلطانه ودام عدله

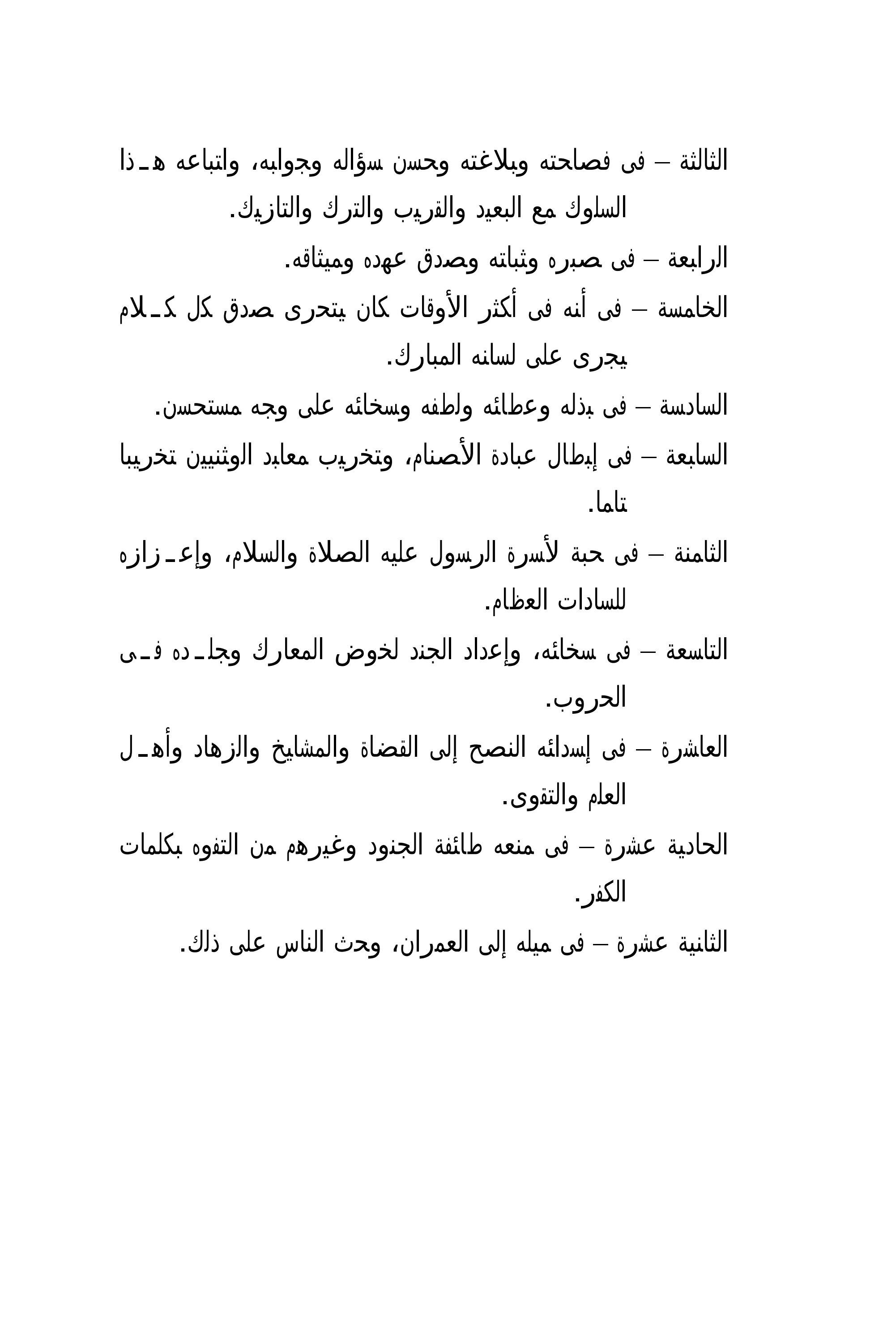
فى أخلاقه الكريمة وسيره الحميدة، وآثار عدله وإحسانه وخيراته ومبراته، وفنون آدابه وجميل عاداته، وكلماته التى تفوه بها فى كل مناسبة على وجه التحقيق، وعلى سبيل التدقيق، وحِكَمه المحكمة وأوامره المبرمة المشتملة على رعاية مصالح كافة الخلائق، والتى قام بتنفيذها فى كل شأن من الشئون، وكذلك نوادر الحكايات والأحوال مما لم يدخل فى القسمين السابقين. وهما موضوعان:

بوب أحدهما، ويتضمن أربعين حكاية، والآخر ما يسجله القلم متفرقًا حسب القضايا والحوادث المختلفة.

وبموجب هذا الفهرست نذكر بالتفصيل ما هو مبوب، وهو عبارة عن أربعين حكاية فى غاية الجودة، وبيانها كالآتى:

الأولى – فى فنون كمالات وعلوم سلطان الإسلام – خلد ملكه – ومعرفته الصناعات والحرف المختلفة.

[ص٣٧٠]الثانية – فى عصمة وطهارة سلطان الإسلام – خلد سلطانه – من الخصال المرذولة.



الثالثة – فى فصاحته وبلاغته وحسن سؤاله وجوابه، واتباعه هذا السلوك مع البعيد والقريب والترك والتازيك.

الرابعة – فى صبره وثباته وصدق عهده وميثاقه.

الخامسة – فى أنه فى أكثر الأوقات كان يتحرى صدق كل كلام يجرى على لسانه المبارك.

السادسة – فى بذله وعطائه ولطفه وسخائه على وجه مستحسن.

السابعة – فى إبطال عبادة الأصنام، وتخريب معابد الوثنيين تخريبا تاما.

الثامنة – فى حبة لأسرة الرسول عليه الصلاة والسلام، وإعزازه للسادات العظام.

التاسعة – فى سخائه، وإعداد الجند لخوض المعارك وجلده فى الحروب.

العاشرة – فى إسدائه النصح إلى القضاة والمشايخ والزهاد وأهل العلم والتقوى.

الحادية عشرة – فى منعه طائفة الجنود وغيرهم من التفوه بكلمات الكفر.

الثانية عشرة – فى ميله إلى العمران، وحث الناس على ذلك.

الثالثة عشرة – فى أبواب البر بتبريز وهمذان، والنذور التى نذرها فى الولايات.

الرابعة عشرة – فى القضاء على التزوير والدعاوى الباطلة وخيانة الخونة.

(ص٣٧١) الخامسة عشرة: فى إبطال تحريـر المسـتندات غيـر القانونية، وكذلك الحجج القديمة.

السادسة عشرة – فى إبطال الحكر والقضاء على أنواع الكسب غير المشروع.

السابعة عشرة – فى المحافظة على الرعايا ورعايتهم، ورفع الظلم والمشقة عنهم.

الثامنة عشرة - فى إبطال السخرة، ومنع الرسـل الزائـدين عـن الحاجة فى البلاد.

التاسعة عشرة – فى القضاء على اللصـوص وقطـاع الطـرق، وحماية الطرق فى البلاد من شرهم.

العشرون – فى تخليص عيار الذهب والفضة على وجه لم يوجـد من قبل على الإطلاق وليس من الممكن أن يكون أفضل منه.

الحادية والعشـرون – فـى إصـلاح أوزان الـذهب والمـوازين والمقاييس والمكاييل والقفيز والتغار.

الثانية والعشرون – فى تنظيم شئون المراسيم والبايزات التى تمنح للناس.

الثالث والعشرون – فى استرداد المراسيم والبايزات المكررة التـى كانت فى أيدى الناس.

الرابعة والعشرون – فى منح الإقطاعات لجند المغـول فـى كـل ولاية.

الخامسة والعشرون – فى تقرير كيفية إعداد جـيش علـى حـدة للخاصة السلطانية.

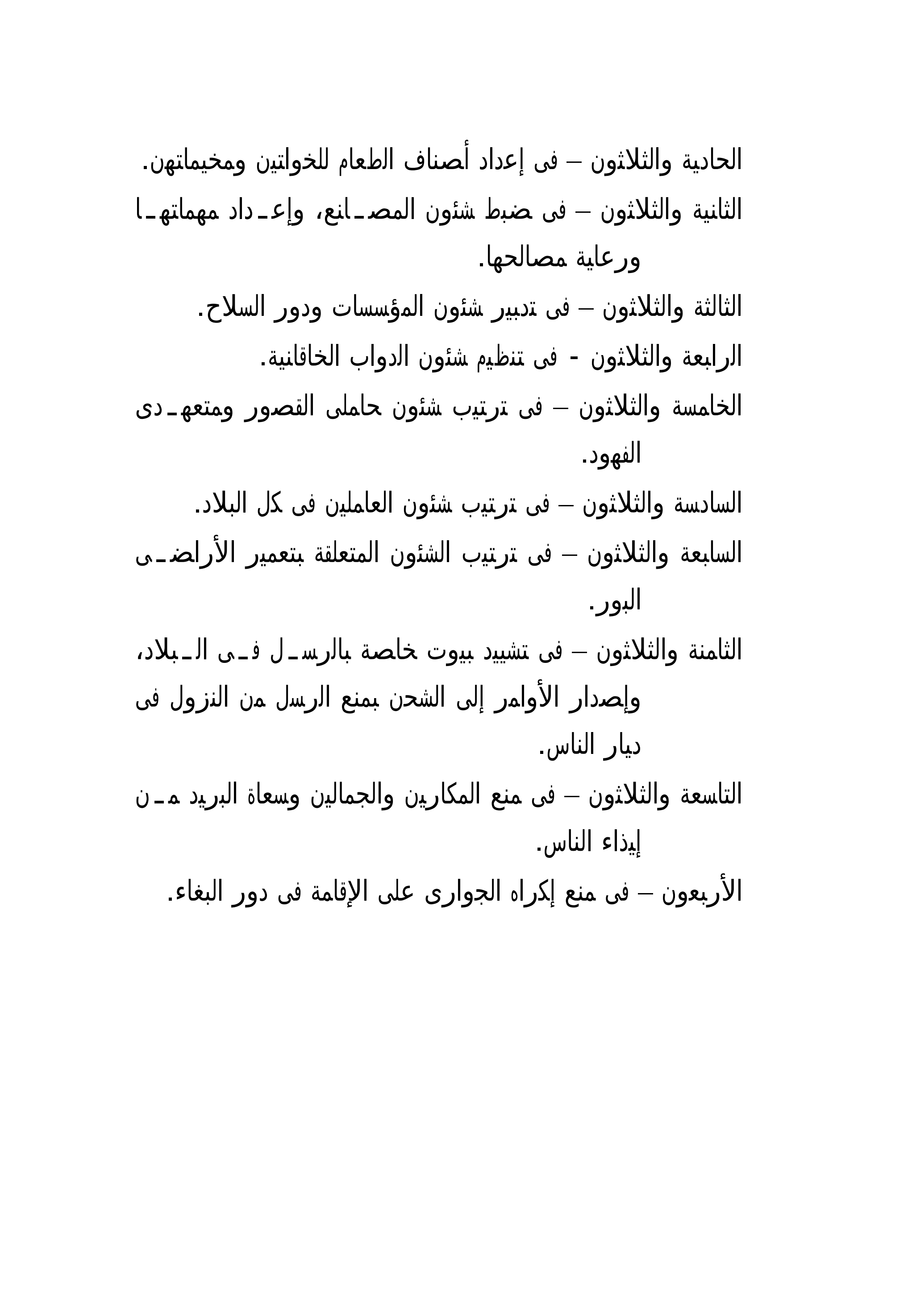
السادسة والعشرون – فى منع التعامل بالربا والمعاملات بالأربـاح الفاحشة.

السابعة والعشرون – فى منع الزواج بالمهر الغالى غلاء فاحشًـا، وتحديده بتسعة عشر دينارا ونصف.

[ص٣٧٢] الثامنة والعشرون – فى تشييد الحمامات والمساجد فـى القرى والمواضع فى كل البلاد.

التاسعة والعشرون – فى منع الناس من احتساء الخمر والمسكرات المنكرة الأخرى.

الثلاثون – فى إعداد أصناف الطعام الخـاص والشـراب للمخـيم المعظم.



الحادية والثلاثون – فى إعداد أصناف الطعام للخواتين ومخيماتهن.

الثانية والثلاثون – فى ضبط شئون المصـانع، وإعـداد مهماتهـا ورعاية مصالحها.

الثالثة والثلاثون – فى تدبير شئون المؤسسات ودور السلاح.

الرابعة والثلاثون - فى تنظيم شئون الدواب الخاقانية.

الخامسة والثلاثون – فى ترتيب شئون حاملى القصور ومتعهـدى الفهود.

السادسة والثلاثون – فى ترتيب شئون العاملين فى كل البلاد.

السابعة والثلاثون – فى ترتيب الشئون المتعلقة بتعمير الأراضـى البور.

الثامنة والثلاثون – فى تشييد بيوت خاصة بالرسـل فـى الـبلاد، وإصدار الأوامر إلى الشحن بمنع الرسل من النزول فى ديار الناس.

التاسعة والثلاثون – فى منع المكارين والجمالين وسعاة البريد مـن إيذاء الناس.

الأربعون – فى منع إكراه الجوارى على الإقامة فى دور البغاء.

[ص٣٧٣] الحكاية الأولى

فى فنون كمالات سلطان الإسلام ـ خلد ملكه ـ وعلومه ومعرفته الصناعات والحرف المختلفة ووقوفه على أسرار تلك الصناعات

لا يخفى على العالمين أن سلطان الإسلام– خلد ملكه – عندما كان فى سن الطفولة كان جده آباقاخان يربيه عنده ويرعاه ويحافظ عليـه. وقد صير الكهنة الوثنيين ملازمين له ومعلمين. وعلـى هـذا النحـو رسخت الوثنية فى ذهنه؛ خصوصا أن هذا المذهب كان عقيدة لآبائـه. وكانوا يسيرون وفق تعاليمه.

ومنذ بداية الإسلام، كانت عبادة الأصنام قد زالت نهائيا مـن كـل الديار؛ إلا أنها عادت إلى الظهور فى عهد المغول وقوى حال طائفـة البوذيين، فاستدعوا أصناف الكهنة الوثنيين من بـلاد الهنـد وكشـمير والخطا والأويغور وصاروا معززين مكرمين، وأقاموا فى كل موضع معابد للأصنام وصرفوا الأموال الطائلة. وقد ارتفع شأن مذهبهم حتـى

وصل إلى العيوق[1]. وكان سلطان الإسلام يلازم دائما الكهنة فى معابد الأصنام، ويتابع تلك الطريقة، ويوما بعد يوم كان يزداد ميله إليها فيستحكم اعتقاده فيها.

وبعد أن توفى آباقاخان، أرسله أبوه أرغون خان إلى خراسان للحكم وإمارة الجيش فأقام هناك معابد فخمة للأصنام فى مدينة خبوشان. وفى تلك المعابد كان يمضى أكثر أوقاته فى التحدث مع الكهنة وتناول الطعام والشراب. وهكذا صار له اعتقاد راسخ فى تلك الطريقة الوثنية كما كان حرصه على عبادة الأصنام يفوق حد الوصف. وقد استمر الحال على هذا الوضع، حتى ذلك الوقت الذى استولى فيه بايدو على الملك، وبادر غازان بالعمل على انتزاعه منه.

[ص٣٧٤] ولما كان الحق تعالى قد قدر لغازان أن يتولى الملك والسلطنة، وأن يظهر بمدد التأييد والتوفيق الربانى آثار العدل والإنصاف فى العالم، وأن يعيد الصلاح إلى الأعمال التى أصابها الخلل، وأن يعمر البلاد التى آل إليها الخراب، وأن يجعل على يده تقوية الدين الإسلامى، وتسيير أمور الشريعة والأحكام الخاصة بها. بعد أن كان هو نفسه وكذلك أهل العالم غافلين عن كل ذلك. وفجأة فى

---

1) نجم أحمر مضيء فى طرف المجرة الأيمن، يتلو الثريا لا يتقدمها، ويطلع قبل الجوزاء. (المعجم الوسيط، الجزء الثانى ص٦٣٧).

الوقت المعلوم، وبفيض اللطف الإلهى حل نور الهداية بصدره الطاهر؛ فوضع قدمه المباركة فى ساحة الإسلام، وتشبث بالحبل المتين للإيمان، فأمر بإبطال شعار الأديان الباطلة.

وكان ظن أكثر الناس أن سبب إسلامه يرجع إلى ترغيـب بعـض الأمراء والمشايخ وحثهم له على ذلك. ولكن بعد التفحص، علم أن ذلك الظن خطأ؛ لأنه أثناء الخلوة بى أنا العبد الضعيف مؤلف هذا الكتـاب قرر أن هناك عدة ذنوب، لا يعفو ا عنها أكبرها أن يسـجد شـخص لصنم؛ إذ إنه من المؤكد والمقطوع به أن ا لن يغفر ذلك الذنب، وأن المساكين من الناس المبتلين بالجهل هم الذين يسجدون للأصنام، وأنـا أيضا كنت مثلهم. ولكن الحق تعالى وهبنى النـور والعلـم، فنجـوت وتطهرت من ذلك الإثم بهداية حضرة الحق تعالى.

وتوضيح هذا الكلام أنه ليس هناك شىء قط يحمل الإنسـان إلـى الجحيم سوى الجهل؛ بل إن الجهل نفسه هو جحيم لا يمكـن الخـروج منه. فكيف يستسيغ العقل السجود أمام جماد؟!.... إن هذا الإقدام دليل على الجهل المحض. وأمر آخر هو أن أصل الفكرة فى عبادة الأصنام أن يكون الإنسان شخصا كاملاً قضى نحبه. ونحـن نعـد صـورته، ونضعها للذكرى ثم نطلب المدد من همة ذلك العظـيم ونلتجـئ إلـى الصورة ونعبدها ونسجد لها. ونحن فى هـذا غـافلون عـن أن هـذا الشخص أثناء حياته التى هى خلاصة الإنسان كان متحـدا مـع بدنـه

الأصلى، ولم يطلب مطلقًا، ولم يجز **[ص٣٧٥]** أن يسجد له أحد حتى يبدو فى نفسه تكبر وعجب.

وحيث إن عبادته والسجود له هما لاستمداد الهمة منـه والالتجـاء إليه، كيف ترضى نفسه عن هذه الجماعة التى تسجد لشىء يشـبهه؟! وإذا طمع الساجدون فيما له فى نفسه من همة عالية، وإذا تصـورنا أن أثرا لتلك الهمة لا يزال موجودا فإنه من المؤكد أن تكون همة رديئـة وتعسة، وليست همة عالية مبتهجة. وأمر آخر هو أن الإنسان ينبغى أن يعرف الحقيقة، وأن يدرك أنه ليس للجسد أية أهمية، فينسى أيضا حبه له، ويعلم أن ما يفارق البدن إنما هو خلاصته، وأن يفكر فى ماهية ما يفارقه ويتساءل: أى شىء هو؟.. وأين يذهب؟!.... وكيف يكون باقيـا وثابتًا حتى يتصور ذلك الشىء، وذلك الموضع وتلك الحالات. ثم يتتبع ذلك إلى أن يدركه. وإذا ما اعتقد فى الصورة التى صنعت على هيئـة البدن، وسجد أمامها، فإنه يعجز عن إدراك هذه الفكرة، وهذا الطلـب الذى هو خلاصة الجنة بعينها. وعكس ذلك هو محض جهنم والـدرك الأسفل منها.

ولو يفكر المرء فى أن الصنم يصلح لصنع عتبة يطؤهـا النـاس بأقدامهم فى ذهابهم وإيابهم؛ حتى تظن تلك النفس أن ذلك شبه بـدنها، فيكون الإنسان راضيا عنهما؛ إذ إنه يتصور قائلاً لنفسه: إننى ما دمت حيا فى الدنيا صرت كاملاً بالتواضع. وبعد الممات يكون أيضا لشـبه

البدن نفس الحالة. وأمر آخر هو أنه يفكر فى أن النفس التى لها ذلـك الكمال، قد صار بدنها ترابا شبيها ببدنه، وجديرا أيضا بأن يكون عتبة تطؤها الأقدام. ونحن الذين نعتقد الكمال نتساءل: أية قيمة تكون لبدننا؟!

وبناء على هذا تنقطع علاقة الناس بالبدن انقطاعا تاما، فيتجهـون **[ص٣٧٦]** إلى التفكير فى الآخرة، ومنازل الأطهار وأحـوال الأرواح المقدسة. وعليهم أن يلاحظوا دائما تلك الحالات حتى ينالوا شيئًا ممـا هو حق، وأن تكون لهم فائدة من مجيئهم إلى الدنيا ويبلغوا الكمـال؛ إذ إن الغرض من وجود الخلق هو أن يتوجهوا من عالم الظلام إلى عالم النور.

ولما شرح السلطان هذه الحقائق وفق هذا الترتيب بعبارات جيـدة ومعان دقيقة، ظهر بوضوح تام نور باطنه وصدقه وصفائه. وبعد ذلك صار يسوق دائما حكايات من هذا القبيل، ويذكر كلاما عميقًا فى بـاب العرفان والتحقيق مما لم يسمع مثله قط من حكيم وعارف.

ولما تربع على عرش السلطنة عامين أو ثلاثة، كان يزيد يوما بعد يوم فى تقوية دين الإسلام، وراح فى صدق وإخلاص يهتم اهتماما تاما بشئون هذا الدين.

وقد ثبت وتحقق لجميع الناس أن سبب إسلامه لم يكن بتأثير بعض الأمراء والمشايخ، بل كان بهدى من ا ، إذ إنـه مـن المجـرب أن

المسلمين إذا أجبروا أقل الناس شأنًا على أن يكـون ملكًـا أو حاكمـا عليهم، فإنه حسب ميله هو نفسه يدين بعقيدتهم. فـإذا وجـد الفرصـة سانحة فى تلك الولاية أو فى ولاية أخرى فإنه يرجـع إلـى عقيدتـه الأولى. وإذن فأية حاجة تضطر مثل هـذا السـلطان الرفيـع القـدر، الباطش القوى إلى الالتفات إلى كلام شخص من الأشخاص فـى مثـل هذا الأمر الخطير، فيتحول عن مذهبه أو يختار دينًا آخر مكرهـا؛ لا سيما وأن آباءه قد استولوا على كل ممالك العالم فى زمن كفرهم؟!

وبناء على هذه المقدمات علم أن أجره يكون فى هذا الأمـر مثـل أجر إبراهيم الخليل صلوات ا عليه؛ فقد أدرك منذ البداية - بفضـل نور الهداية الربانية - ضلال عبادة الأوثان، فحطم صنمه، وعرف ا بإيمانه الوجدانى. كذلك كان إسلام السلطان على هذا المنوال. ورغـم عظمة الملك وجبروته، فإنه عندما تحول عن عبادة الأصنام، واعتنـق دين الإسلام، حطم كل الأصنام التى كانت فى بلاد إيـران، وخـرب تخريبا تاما كل بيوت الأوثان وجملة المعابد غير الشرعية **[ص٣٧٧]**، وأدخل فى الإسلام جميع عابدى الأصنام والكفار الذين كانوا يزيـدون على عدد الرمال، بحيث إنه لم يضطر إلى قتل أى مخلوق. ولا بد أن هذا يكون له زيادة فى الأجر.

هذه المعانى التى سبق ذكرها إنما هى دلائل واضحة علـى كمـال علمه ومعرفته وحكمته. وهناك دليل آخر هو أن الشباب عندما يشغلون بالطرب واللهو واحتساء الشراب، يخضعون لأهوائهم ويستغرقون فـى

الكلام العبث وأنواع اللهو. أما سلطان الإسلام فإنه عندما كان يصير مبتهجا قليلاً، يستغرق فى تفحص أحاديث أهل الحكمة وتحقيق الحكايات والمباحث الدقيقة العميقة مما لا يدركه فهم كل حكيم وعالم. وكان يحب صحبة جماعة الحكماء والعقلاء الممتازين. وإذا رأى من يتصف بالحكمة، وله عقل وتمييز وأدب ولكن لا قدرة له على احتمال هذا العبء، فإن السلطان لا يعجب به. وكل من يتصل به يعرف قدره فى الحال. ولا يوجد مجال لأى محتال ومزور أن يتحدث فى حضرته بكلام فيه خداع ورياء. وإذا تكلم فلن يستطيع القول أكثر من مرة، لأنه يعرفه. ومن ثم فإنه لا يسمح له بمعاودة الكرة. وإذا قابل حكيما ثرثارا أبله، فإنه يسبر غوره فى الحال. ونحن هنا نورد حكاية لتوضيح هذا المعنى.

كان هناك شخص فى خراسان، قدم من تركستان اسمه "هبة ا "[1]، وكان حسن الخلق، لطيف المحضر، قد أخذ من كل علم نصيبا وكان يعرف اللغتين السريانية والتركية ويحفظ أمثالاً كثيرة. وكان يقول كلاما حسنًا على طريقة المشايخ. وكان السلطان والأمراء يثقون بكلامه. وقد ظل مدة يلازم حضرة السلطان – خلد ملكه – ولما تربع على سرير الملك باليمن والبركة، أرسل إليه رسولاً يستدعيه، وأعزه وقربه إليه، ومنحه الذهب وأغدق عليه الخلع، وقرر له المرتبات الكافية، وعهد به إلى أنا العبد المطيع للدولة، وقال لى: عامله معاملة

(١) انظر تفصيلات عن هذا الرجل فى كتاب رجال حبيب السير، كرد آوردة عبد الحسين نوائى، ص ٢٣ – ٢٤ طهران، تيرماه ١٣٢٤هـ.ش).

حسنة، فنفذت ما أشار به السلطان. وكان دائما يجىء إلـى الحضـرة. **[ص٣٧٨]**. فكان الحديث يتناول كلاما عميقًـا يتعلـق بموضـوعات الحكمة والعرفان. ومع أنه كان رجلاً مطلعا، إلا أنه كان هناك تفـاوت كبير بين كلامه وكلام سلطان الإسلام - خلد ملكه - وكنـت أتعجـب وأقول فى نفسى: إذا كان السلطان لا يعلم الفرق بين علمه وعلم هـذا الرجل فإن هذا أمر مستبعد. وإذا كان يعلم، فلماذا كمال الاعتقاد فـى "هبة ا " هذا؟!..... ولما كان الطعن أيضا فى حق هذا الرجـل أمـرا غير مناسب، وكان السؤال عن هذا الموضوع متعذرا أيضـا – بقيـت متحيرا فى هذا الأمر إلى أن تفوه السلطان ذات يوم بكلام عميق قـال فيه: إنه حديث لا يحق لكل شخص أن يخوض فيـه؛ فـأكثر النـاس يعرفون قشوره وظاهره ولا ينفذون إلى معانيه؛ إذ أنه ليس فى وسـع كل شخص أن يدخل خزائن الملوك التى هى مفتوحة للخاصة وحدهم. أما الآخرون فيظلون فى الخارج مثل الشيخ هبة ا الذى سبيله هو أن يبقى خارج الخزانة، ويدرك فقط ما يكون ظاهرا؛ إذ إنـه لا يعـرف طريق الدخول إلى الخزانة والإحاطة بتفاصيل ما تحتويه. عندئذ تقدمت قائلاً: طالما أردت أن أسأل مولاى عن هذا الموضوع؛ لكن الفرصة لم تكن مواتية. والآن قد تحققت أن السلطان يعرف قدر الجميـع، لكنـه يعزهم كلهم. فقال السلطان: إننى لا أعجب من أنه أو غيره لا يعـرف هذه الأسرار؛ غير أننى أسر كثيرا بكل ما يعرفونه، وأريد أن أتـذكر كل ما حبانى به ا حين أحاورهم؛ فحجر المسن مع كونه أكثر ليونـه ونعومة من السيف إلا أنه يشحذه. وسبب ذلك أن جوهر الفولاذ يـزداد

بالحجر؛ إذ إن الحدة موجودة فى جوهره ولكنها تـزداد بالـين حجـر المسن.

وفى المحافل والمجامع التى حضرها مختلف أصناف الناس، تعجب الجميع من الأسئلة التى وجهها إلى العلماء والحكماء. ومع أنـه كـان يتكلم باصطلاحات المغول، وكل شخص لا يدركها بسرعة، لكن لأنـه كان يعيد ويكرر ويشرح كان يتبينه البعض، ولا يفهمه أغلبهم. وهكـذا كانـت طـرق حكمتـه ومعرفتـه ا علـى هـذا الوجـه الـذى قررناه.**[ص٣٧٩]**.

وأما عن أحوال المذاهب المختلفة ومعتقدات كل طائفة فإنـه كـان يعرفها واحدة واحدة على انفراد؛ بحيث إنه عندما يتباحث مع أئمة تلك المذاهب، لا يعرفون الإجابة عن واحد من عشرة أسئلة يوجهها إليهم.

وأما عن اللغات المختلفة، فقد كانت المغولية لغته الأم. كمـا كـان يعرف طرفًا من العربية والفارسية والهنديـة والكشـميرية والتبتيـة والخطائية والفرنجية وسائر اللغات.

وأما عن السلاطين والملوك المتقدمين والمتأخرين، فقد كان يعلـم بالتفصيل آدابهم وعاداتهم ونظمهم، ويقف كذلك على عادات كل مـنهم فى الحفلات والحروب والأفراح والأتراح والطعام واللباس والمركوب وغير ذلك من الحالات والأشياء. كيف كانت وعلى أى نحو صـارت فى هذا الزمان؟!..... ويشرحها لكل طائفة منهم، فيتملكهم الإعجاب.

وأما عن معرفة تواريخ المغول وحكاياتهم التى كانت ذات أهميـة قصوى بالنسبة إليهم وكذلك أسماء الآباء والأجـداد والأقـارب نسـاء ورجالاً، وكذلك أمراء المغول قديما وحديثًا ممن كانوا فى الـبلاد أو لا يزالون فيها؛ فقد كان يعرف بالتفصيل شعب نسل كل مـنهم باسـتثناء بولاد آقا؛ إذ إنه لا يوجد من أقوام المغول شخص آخر مثله يحيط بهذا التاريخ والجميع يتعلمون منه. وإن تاريخ المغول هـذا الـذى كتبتـه، استفدت أكثره من حضرته وبذلك أصبح ميسرا. ويوجـد كثيـر مـن أسرار المغول وحكاياتهم يعرفها هو نفسه، ولم تسجل فى هذا التاريخ.

كذلك يعرف السلطان غازان أغلب تواريخ ملوك العجم والأتـراك والهند وكشمير والخطا والأقوام الأخرى على اختلاف طبقاتهم ويقـول ذلك أمام كل قوم، فيصيرون متحيرين.

وأما شجاعته ووقوفه على نظم الحرب والإعداد لها، فإن ذلك يبلغ غاية الكمال. وسوف نفرد فصلاً على حدة فى هذا الموضوع.

وأما عن الحرف المختلفة، فإنه لا توجد حرفة قط لم يمارسها بيده، وذلك من قبيل الصياغة والحدادة والنجارة والـنقش وصـب المعـادن والخراطة والصناعات الأخرى؛ وذلك على نحو أفضل **[ص٣٨٠]** مما يصنعه جميع الأساتذة المهرة، ولأنه يمـارس صـنعها بنفسـه كـان

يرشدهم. وكل أستاذ مهندس يريد أن يصنع آلـة منقطعـة النظيـر لا يعرفها المهندسون الآخرون، كان يرشده ويعلمه حتى يتعلم.

وأما صنعة الكيمياء التى هى أعقد الصناعات فقد أولع بها، ووقف على طريقتها فى مدة وجيزة. ولما كان يعرف حق المعرفـة أن هـذا العمل لا يستطيع كل شخص أن يحققه على الوجه الأكمل، استدعى تلك الطائفة التى تدعى معرفة هذه الصنعة، ولم يفسح لهم المجال كى ينفقوا عليها شيئًا على النحو الذى كان مألوفًا، وهو أن تصرف لهـم أمـوال كثيرة على تلك الحرفة، وذلك بناء على كلامهم. لكنه أمرهم بصـناعة عدة صناعات يعرفونها ويجيدونها وما يلزمها مـن الآلات والأدوات، وذلك مثل صنعة الميناء وحل الطلق وصهر البلور وعمـل الزنجفـر، وصهر المواد الصلبة بواسطة تسخينها وتكثيف البخار المنبعث منهـا وصنع شىء يشبه الذهب والفضة، بالإضافة إلـى صـناعات أخـرى صنعوها أمامه حتى اطلع عليها وعرفها، وقال: إننى لا أريد أن أتعلمها كى أصنع ذهبا وفضة؛ إذ إننى أعلم أن ذلك أمر متعذر لكننى أريد أن أحيط أيضا علما بالصناعات الدقيقة الظريفة وأصنعها كذلك لأن ذلـك كمال فى العلم الذى لا يقف عند حد. ولكن ينبغى التقدم والترقى مـن عمل إلى آخر.

أما علم الطب وطرقه المتبعة عند التازيك والخطا والمغول والهنـد وكشمير فقد اطلع على كليات كل منها، وعلم وجهة نظر كل طائفـة.

كما عرف كل الأدوية، ووقف على أكثر خواصها. والأطباء فى هـذه البلاد يعرفونها على الأكثر فى دكاكين العطارين. أما هو فقد اكتشـف فى الصحراء الأعشاب الطبية عند كل طائفة ووقـف عليهـا. كـذلك يعرف **[ص٣٨١]** ما يسمى الآن "بنج دارو" (الأدوية الخمسة)، وذلـك من ورقها. وإذا ما تعاطاها، ظهر أنها هى بعينها. وهناك كثيـر مـن الأدوية، كانت تنسب إلى بلاد التركستان والخطا والهند، وكان التجـار يجلبونها للمتاجرة فيها وبيعها فى هذا البلد بثمن باهظ فاكتشف السلطان غازان وجودها فى هذه البلاد. وبالتجربة وقف بنفسه على خصائصها.

وكان هناك فى الولايات بعض علماء العقاقير المشهورة من الترك والتازيك، فاستدعاهم السلطان، وكان يصطحبهم معه فى أوقات الصيد وغيره فى الجبال والصحارى، وكان يستفسر منهم عن كل مـا يريـد معرفته حتى وقف على تلك الطريقة؛ بحيث إنه فى هذا الزمان لم يكن هناك بين جميع علماء العقاقير والأطباء شخص مثلـه يعـرف هـذه الأوصاف. كذلك أحاط علما بكل ما كان من الأدوية المفردة المعروفة عند أهلها بالترياقية وهى مجربة وعددها أربعة وعشرون دواء مفردا، كان كل منها ترياقًا مطلقًا. ثم أضاف إليها الترياق الفاروقى، وجـرب ذلك الترياق، فظهر نفعه للغاية، وصار اسمه "الترياق الغازانى".

وأما عن علم المعادن، فنظرا لكثرة تفحصه وتباحثه مع علماء ذلك العلم، صار يعرف ما يحويه كل موضع من الجبال والصحارى التـى يراها، ثم يحدد المعدن الذى يوجد فى ذلك الوضع. وعنـدما يتحـرى المتخصصون حقيقة ذلك، يكون هو الذى ذكره. كما أنه يعرف طريقة استخراج كل نوع من المعادن وصهرها بواسطة الآلات والأدوات. وقد صنعها كلها وجربها.

وأما التعاويذ، فإنه يعرف منها ما يقرأ لكل آفة.

وأما معرفة خواص أشكال الآدميين والدواب، وما تدل عليه فإنـه يقف بالتفصيل على كل ما يتصل بها على نحو ما ذكر فى الكتب.

وأما علم النجوم والهيئة فقد ذهب عدة مرات إلى مرصد مراغـة؛ واستفسر باستفاضة عما يشتمل عليه من آلات وعن كيفيـة تشـغيلها. ولهذا استفاد وتعلم، واطلع على تفاصيل تلك الآلات والأجهزة؛ بحيـث إنه مال إلى تشييد عمارة لمرصد جديد **[ص٣٨٢]** حسب ما تراءى له هو نفسه، فأقيم هذا المرصد. كما بنى قبة من تصميمه بقصـد تعيـين دوران الشمس، وناقش المنجمين فى ذلـك، فـأجمع هـؤلاء قـائلين: "علىالرغم من أننا لم نر قط مثل هذه الآلة، فإن ذلك أمر معقول. وفى

المرصد المجاور لأبواب البر فى تبريز أقيم بناء على شكل قبة تحوى تلك المعدات على النحو المشاهد.

بهذا كله يكون السلطان قد حصل نصيبا من كل علم يتصور، ولـم يمنع الحق تعالى عنه أى كمال، وزينه بالأخلاق الحميدة كمـا سـوف نذكر فى الفصول الأخرى القادمة. ولهذا السبب لم يتطرق إليه العجب بنفسه مطلقًا. وهو يصرح بأن خلاصة العلوم علم الإلهيات.

أما الإحاطة بالعلوم والصناعات الأخرى فهى التى يمكن أن يطلق عليه اسم الكمال لأن من لا يعرفونها، يكون ذلك نقصانًا فيهم. وقياسـا على هذا ينبغى أن يعرف الشخص من كل شىء شيئًا حتـى لا يكـون ناقصا. وإلا فماذا كنت أتحمل هذه المشقات؟!.. " وإلـى الآن مـا زال غازان خان يشغل نفسه دائما بالتعليم والتعلم.

وهكذا ذكرنا شطرا مما يتعلق بعلوم وآداب سلطان الإسلام غازان خان - خلد ملكه - وأهل هذا العهد واقفون على تلك الحقـائق وهـم شهود على أن الحال يجرى على هذا المنوال؛ وذلك حتـى لا يطعـن القراء فى كلامى فيما بعد قائلين: "لقد حدثت مبالغة فيما كتبت".

اللهم امنح غازان فضيلة جديدة كل يوم.

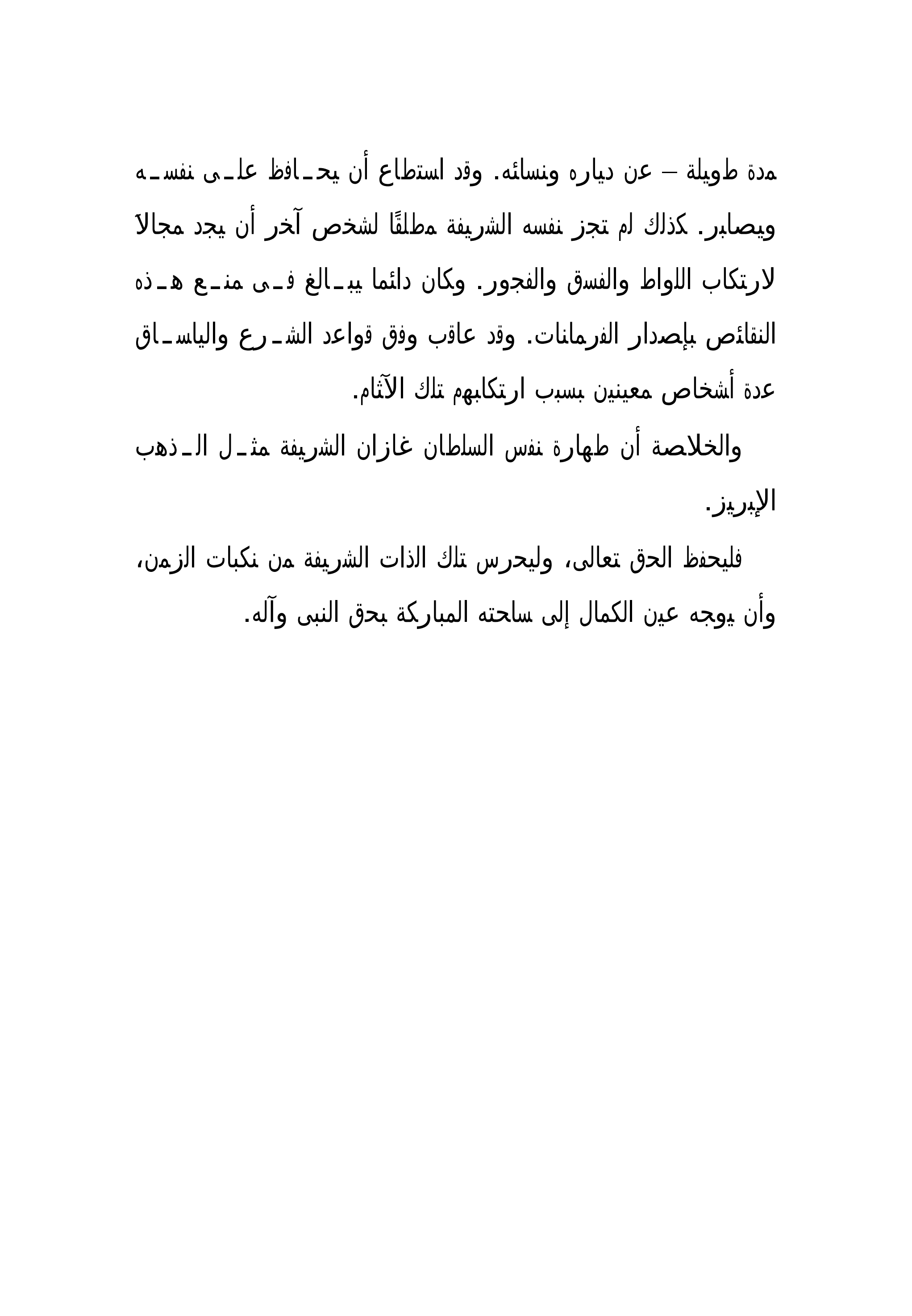
الحكاية الثانية

فى عفة سلطان الإسلام وعصمته

يقرر الذين كانوا قبل هذا مقربين إلى الحضرة أن سلطان الإسـلام - خلد ملكه -لم يقدم على حرام قط. وإذا ما اتفق له النظر إلى أحـد، فإنه لم يكن يجيز مطلقًا أن يرتكب إثما.

وفى الوقت الذى ظل فيه زمنًا طويلاً بعيدا عن داره، يقود الجـيش ويقوم بالفتوحات **[ص٣٨٣]** كان القواد كلما حصـلوا علـى البنـات الحسناوات نتيجة الغارات، يختارون أكثرهن جمالاً ويأتون بهن إلـى الحضرة. ومع أن من عادات المغول أن يحتفظن بمثل أولئـك الإمـاء السريات حتى يتفاءلوا بهن، ويكون طـريقهم فـى الغـزو مزدهـرا وميسرا، فإن سلطان الإسلام لم يكن يميل إليهن مطلقًا، ويقول فى هـذا الصدد: كيف ألوث جسدى بهن وكيف أتعرف عليهن فجأة؟..... وعلى هذا لم يكترث بهن ولم يقـ ـ ـبلهن.

بعد ذلك خلال هذه الفترات، وحسب ما اتضـح لـم تصـدر مـن حضرته محاولة مطلقًا هيأت له طريق الزنا واللواط والفسق، ولم ينظر إلى نساء الناس بالخيانة والإثم. وفى كل مرة أثناء فتح الشام، كانت فى دمشق بنات المغول وغيرهن، فلم يلتفت إليهن على الرغم من ابتعاده –



مدة طويلة – عن دياره ونسائه. وقد استطاع أن يحـافظ علـى نفسـه ويصابر. كذلك لم تجز نفسه الشريفة مطلقًا لشخص آخر أن يجد مجالاً لارتكاب اللواط والفسق والفجور. وكان دائما يبـالغ فـى منـع هـذه النقائص بإصدار الفرمانات. وقد عاقب وفق قواعد الشـرع والياسـاق عدة أشخاص معينين بسبب ارتكابهم تلك الآثام.

والخلاصة أن طهارة نفس السلطان غازان الشريفة مثـل الـذهب الإبريز.

فليحفظ الحق تعالى، وليحرس تلك الذات الشريفة من نكبات الزمن، وأن يوجه عين الكمال إلى ساحته المباركة بحق النبى وآله.

الحكاية الثالثة

فصاحة سلطان الإسلام وبلاغته وحسن سؤاله

وإجابته فى أحاديثه مع البعيد والقريب

والترك والتازيك

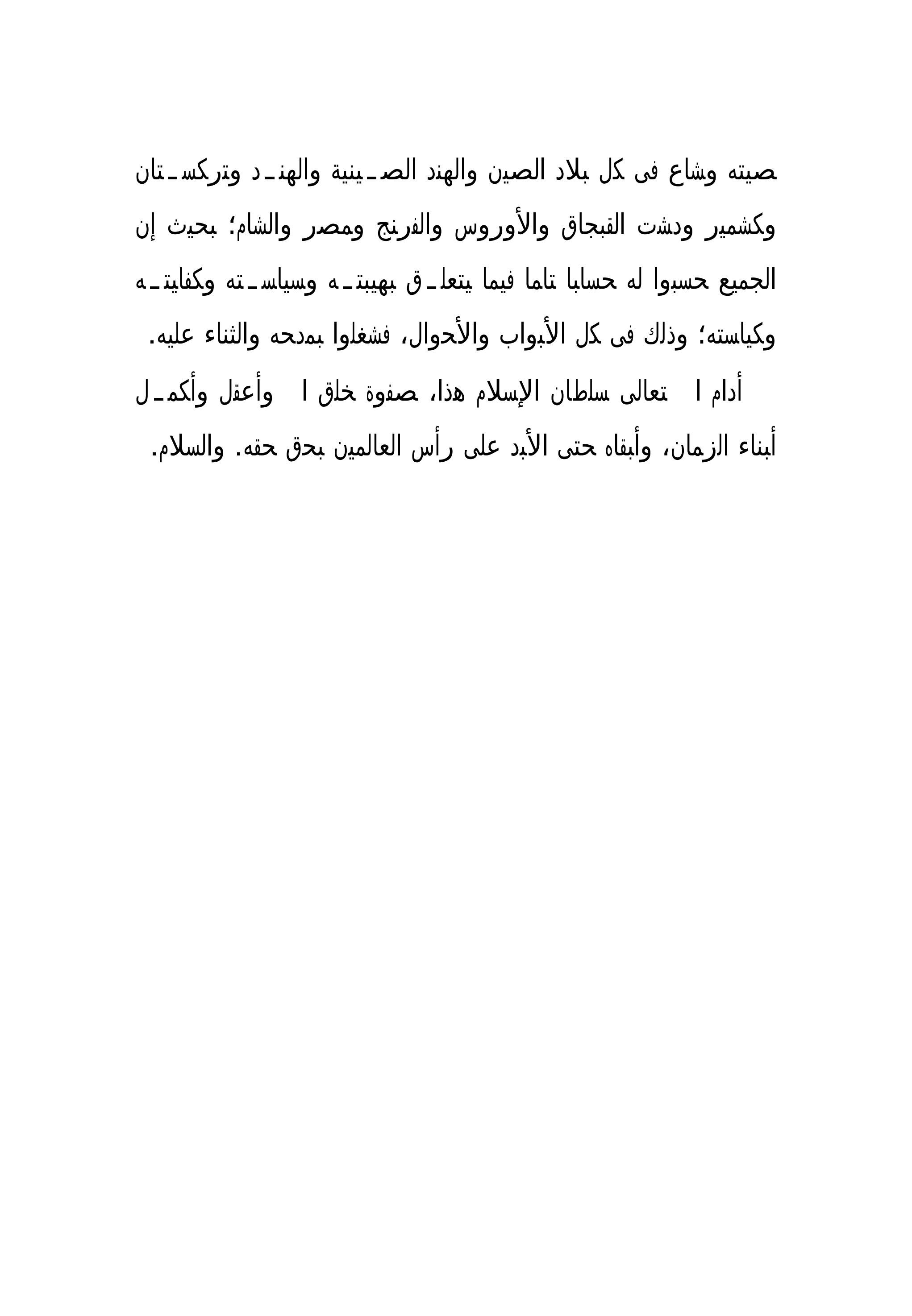
قبل هذا العهد، كان الأمراء والوزراء يصرفون أكثـر المهمـات ومصالح الدولة. كما كانوا هم أنفسهم يدبرون شـئون الملـك. وكـان السلطان فارغ البال من تلك الأمور. وكان يمضى أكثر أوقاته منهمكًـا فى الصيد واللهو. وعلى هذا يمكن إدراك **[ص٣٨٤]** كيف يكون تدبير الأمراء والوزراء المختلفى الأقوال والأهواء؟!

وفى كل وقت كان يفد رسول من قبل الملوك البعيدين والقـريبين، يتفاوض الأمراء معه ويردون عليه. أما سلطان الإسلام غازان خـان فقد أصلح كل شئون الملك التى كان الأمراء والوزراء قد ألحقوا بهـا الضرر مدة سنوات وعرضوا قواعدها للخلل، وذلك بأفكاره الصـائبة، وآرائه الثاقبة. وقد أصر على تنفيذ أوامره، ولم يدع سبيلاً لأى أمير أو وزير كى يعترض أو يتحدث عن شأن من الشئون، ولم يقم وزنًـا أو اعتبارا لأى واحد يعرض فكرا أو رأيا، بل يظل الجميـع منتظـرين ومترقبين إشاراته لتنفيذ ما يأمر به إلى حد أنه لم يترك مجالاً لمخلوق

قط كى يسأله حتى عن يوم الرحيل. وقد اتخذ بقوة عزيمتـه طريقـة تجعل الجميع من شيب وشبان وعقلاء وجهلاء يراعون رأيه وتـدبيره وإشارته.

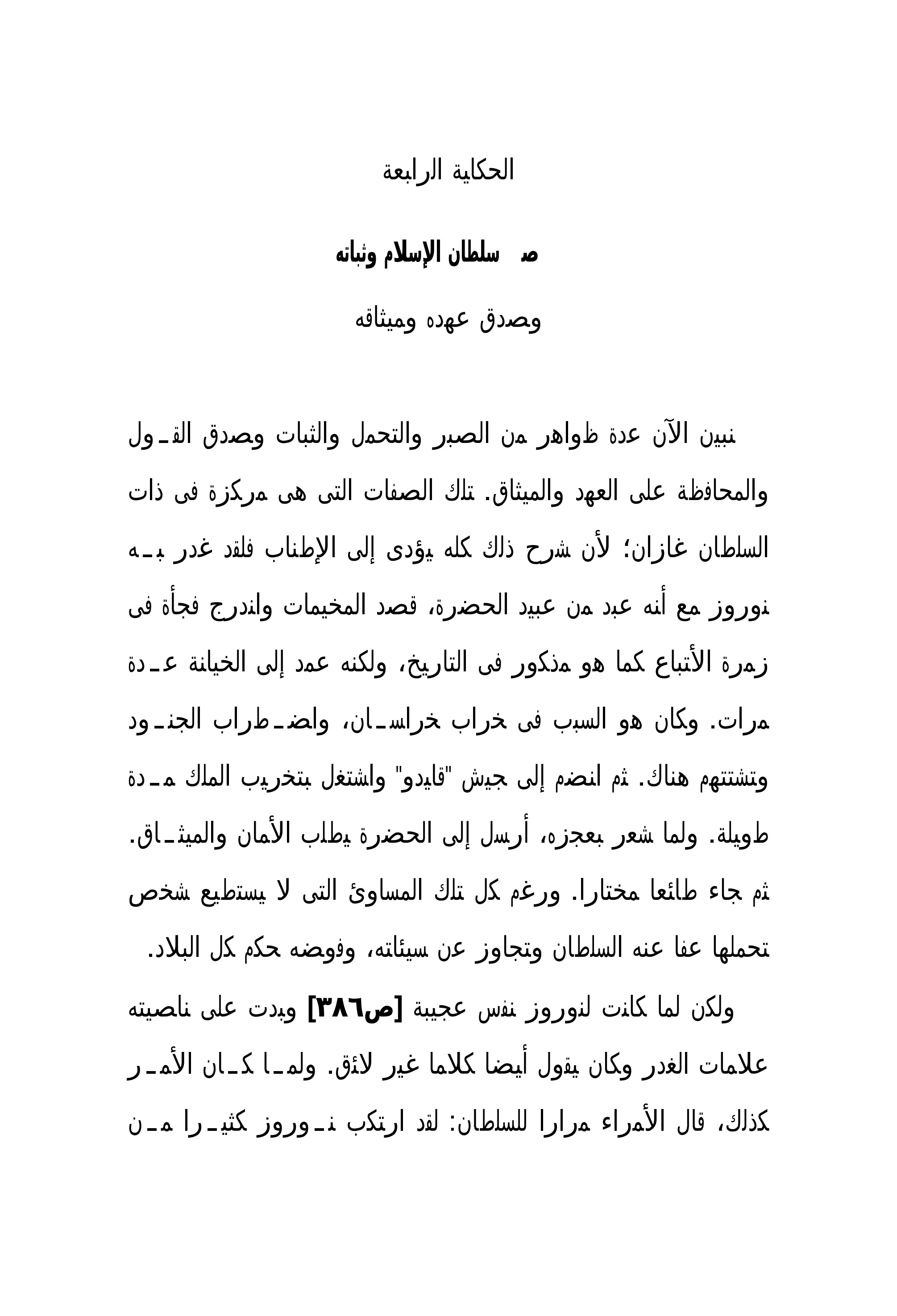
وفى الحقيقة لم يشق ذلك على أى شخص مـنهم، لأنهـم جميعـا شاهدوا أن نفسه هى الأكمل، ورأيه هو الأصوب مـن كـل الوجـوه. وكذلك حركاته وسكناته مرتبة إلى أقصى حد؛ فلا جرم أن رأوا أنفسهم لا شىء بالقياس إلى كفاءته.

ورغم حداثة سن السلطان، فإنه يذكر عدة أمثال منتخبة وتـواريخ وحكايات لطيفة تجعل المستمعين يبقون حيارى متعجبين. وكلما وصل إليه رسول من إحدى الجهات، كان يجيبه إجابة صائبة دون الرجـوع إلى أركان الدولة وأهل الفكر والمشورة. ومن المسلم بـه أن الملـوك العظام يرسلون إلى الملوك الآخرين رسلاً فى غاية الـذكاء والـدهاء بالإضافة إلى أنهم علماء وفصحاء ومحنكون. وإن طائفة الرسل الذين وفدوا حتى الآن، وكذلك الحكماء والأطباء المشهورون الذين قدموا من الأطراف إلى بلاط غازان قد تعجبوا جميعا مـن فصـاحته وبلاغتـه وحسن محاورته ومحادثته وكمال أخلاقه. **[ص٣٨٥]** وكـان يتحـدث معهم عن أكثر الحكايات والحوادث التى تتعلـق بـبلادهم، ويشـرح بالتفصيل معتقدات كل طائفة تفد إليه. وعن طريق الحكاية يبين رسوم وعادات كل ملك وكل قوم من المتقدمين والمتأخرين؛ فلا غرو أن ذاع



صيته وشاع فى كل بلاد الصين والهند الصـينية والهنـد وتركسـتان وكشمير ودشت القبجاق والأوروس والفرنج ومصر والشام؛ بحيث إن الجميع حسبوا له حسابا تاما فيما يتعلـق بهيبتـه وسياسـته وكفايتـه وكياسته؛ وذلك فى كل الأبواب والأحوال، فشغلوا بمدحه والثناء عليه.

أدام ا تعالى سلطان الإسلام هذا، صفوة خلق ا وأعقل وأكمـل أبناء الزمان، وأبقاه حتى الأبد على رأس العالمين بحق حقه. والسلام.



الحكاية الرابعة

صبر سلطان الإسلام وثباته

وصدق عهده وميثاقه

نبين الآن عدة ظواهر من الصبر والتحمل والثبات وصدق القول والمحافظة على العهد والميثاق. تلك الصفات التى هى مركزة فى ذات السلطان غازان؛ لأن شرح ذلك كله يؤدى إلى الإطناب فلقد غدر به نوروز مع أنه عبد من عبيد الحضرة، قصد المخيمات واندرج فجأة فى زمرة الأتباع كما هو مذكور فى التاريخ، ولكنه عمد إلى الخيانة عدة مرات. وكان هو السبب فى خراب خراسان، واضطراب الجنود وتشتتهم هناك. ثم انضم إلى جيش "قايدو" واشتغل بتخريب الملك مدة طويلة. ولما شعر بعجزه، أرسل إلى الحضرة يطلب الأمان والميثاق. ثم جاء طائعا مختارا. ورغم كل تلك المساوئ التى لا يستطيع شخص تحملها عفا عنه السلطان وتجاوز عن سيئاته، وفوضه حكم كل البلاد.

ولكن لما كانت لنوروز نفس عجيبة **[ص٣٨٦]** وبدت على ناصيته علامات الغدر وكان يقول أيضا كلاما غير لائق. ولما كان الأمر كذلك، قال الأمراء مرارا للسلطان: لقد ارتكب نوروز كثيرا من

الأعمال المستهجنة، وصدرت عنه أنواع الجرائم، فينبغى القضاء عليه. لكن سلطان الإسلام – خلد ملكه – لم يرض بذلك وقال: الحق معكم لكننى لا أستطيع أن أنكث عهدى وميثاقى. ومهما كانت تصدر عنه حركات وأفعال سيئة كان السلطان يتحمل ويصبر إلى أن ذهب إلى خراسان وشرع فى إثارة الفتنة وإعلان العصيان وأراد أن يستولى على تلك النواحى بالإضافة إلى شيراز وكرمان. وكانت البلاد على وشك أن تخرب على يديه مرة أخرى. وهكذا كانت تلك التصرفات ظاهرة وواضحة؛ فأشار السلطان بتدارك الموقف. وهنا قال الأمراء: لقد قلنا مرارا إنه يضمر هذه النوايا فى قلبه. فقال غازان: إننى أيضا كنت أعلم ذلك ولكنى أردت أن يكون هو البادئ بالعدوان لا أنا.

كذلك كانت هناك طائفة أخرى من كبار الشخصيات، قتل السلطان بعضهم، وليس هناك داع لذكر أسمائهم بالتفصيل، ولا يكون ذلك مناسبا. وأثناء محاكمتهم قال السلطان للأمراء: إننى مطلع على قبح سيرتهم وسريرتهم منذ خمس سنوات، وأعلم عنهم كل شىء ولكننى صبرت عليهم. ولقد قال بعضهم مرات عديدة كلاما غير لائق يتسبب فى خراب البلاد. ولو كنت ألتفت وأستمع إلى أنواع الحيل التى يذكرونها، لترتب على ما يقولون تلك الفتن التى لا تنتهى، ولا أريد أن أذكر بعضها، ومنذ فترة وجيزة ذكرتها لهم فى الخلوة. ولقد عرفت –

لأول وهلة – أن أقوالهم التى ذكروها إنما هى محض اختيال وخـداع، فاستنكرتها. ولكنهم رغم ذلك لم يستحوا، وظلوا يعيدونها مـدة خمـس سنوات ويعرضونها بصور مختلفة. والعجيب أنهم كانوا يرون أنـى لا أصدقها **[ص٣٨٧]** ولا أعمل بها. ومع ذلك صاروا يكررونهـا. وقـد أراد هؤلاء الجهال الحمقى أن يستجهلونى ويوقعونى فى حبائلهم. ولما تجاوز الأمر الحد، وظهرت نواياهم، اعترفوا هـم أنفسـهم. وعندئـذ أعلنت ذلك على الملأ فثبت للناس من صورة الأحوال والقضايا أن مـا حدث كان على النحو الذى ذكرت. ومنذ مدة كـانوا يتفوهـون بـذلك الكلام ويقولون جميعا متعجبين: كيف استطاع السلطان الصـبر علـى هذه المخالفات؟!.... ولقد زاد عجبهم لأنهم ذكروها بنصـها، ولكـنهم تأكدوا من أن أى مخلوق وشى بالناس فى حضرة السلطان وعمد إلـى التزوير والتلبيس، عرفه السلطان فى الحال، واستاء منه، ولكنه بصبره لم يتعجل فى إظهار غضبه، ولم يفطن ذلك الرجل إلى أن السلطان يعلم ذلك ويصبر عليه، ولكنه كان يصر على خطئه، فكانت عاقبته الإعدام.

ولقد كانت تلك الجماعة كثيرين من بينهم قاضى سمنان الذى كـان يدعى "القاضى صاين"، وكان أكثر خلق ا شرا. وفى الحقيقـة كـان أكثر شرا من إبليس. ومن هؤلاء أيضا الصاحب الأصـفهانى وعـدة أشخاص آخرين ممن لا يستحقون الذكر. ولقد فطـن السـلطان إلـى

أفعالهم جميعا. وبعد أن صبر عليهم مدة، أمر بقتل بعضهم بناء علـى أقوال شهود النفى والإثبات، وطرد بعضهم من خدمته.

وعلى العكس فإن الأشخاص الذين عرفوا طبيعتـه، وكفـوا عـن الهذيان وإثارة الفتن وقالوا دائما الكلام المعقول المفيد المعبر عن حقيقة شعورهم، هؤلاء الأشخاص قدرهم حق قدرهم بميزان عقلـه الكامـل، وأثنى عليهم ووثق بهم. ولما كـان ضـميره المنيـر مطلعـا علـى أحـ ـوالهم، لم يستمع إلى أقوال الآخرين إذا راحوا يطعنون فى حقهم، ويتهمونهم على سبيل الحسد والعداء. وكان يتأنى، ويطلق يـد هـؤلاء المخلصين فى الأمور التى كانوا مكلفين بأدائها وذلك حتى تسير تلـك الشئون بجودة وإحكام، ولا يتطرق إليها أى خلل. وكان يكـرر قولـه: ليس هناك فى العالم شىء قط أشرف ولا أنفس من إنسان ثقة مسـتقيم **[ص٣٨٨]**.

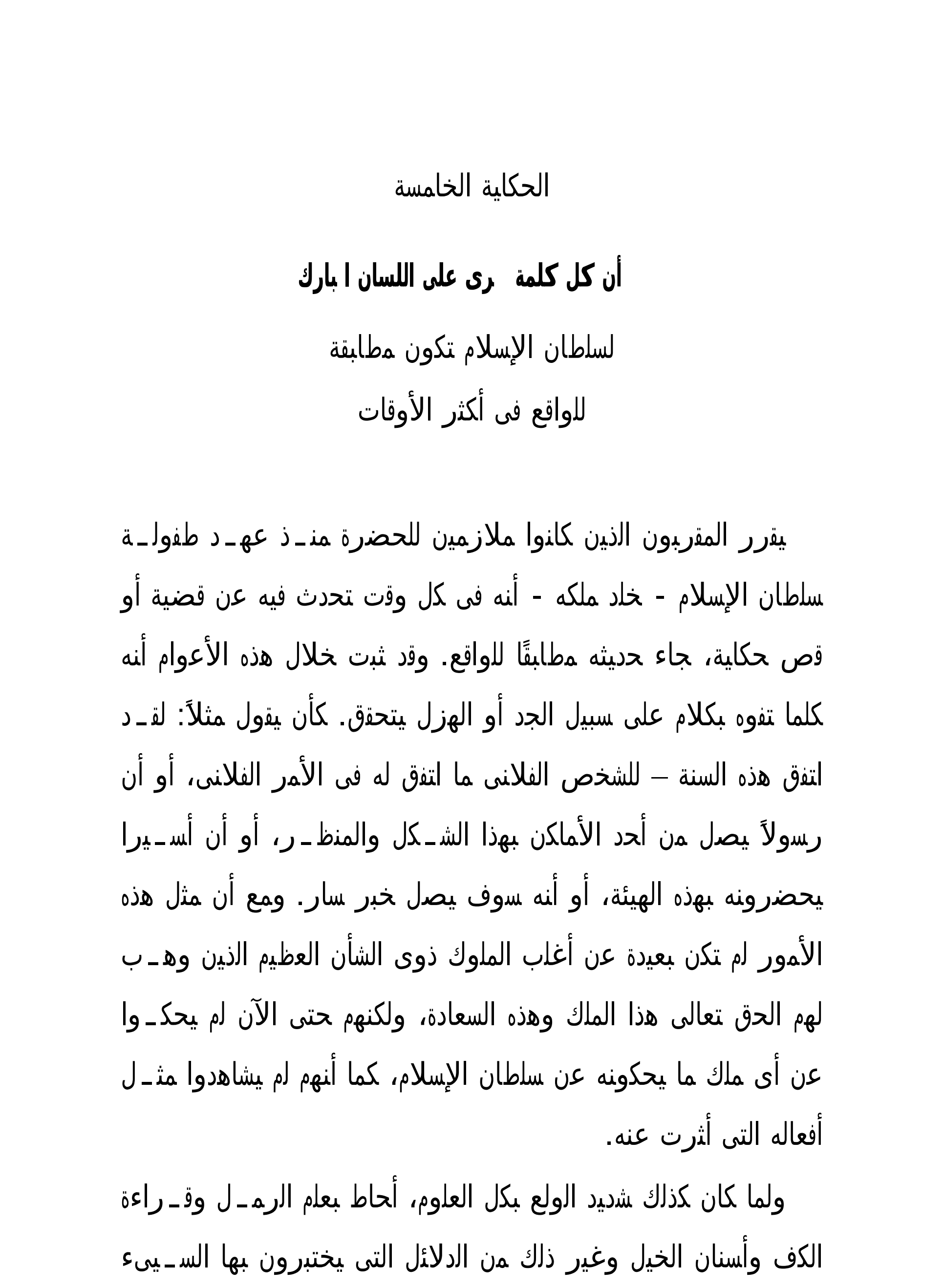
فلا غرو أن يكون الصادقون الثقاة معـززين محتـرمين. ولكـن السلطان كان يقضى على كل مفسد وسارق وسيىء العمل. وإذا حلـف المطلعون على بواطن الأمور بالأيمان المغلظة أن سلطان الإسـلام – خلد ملكه – لم يقتل أحدا مطلقًا إلا ذلك الشخص السيىء الخلق ويلـزم القضاء عليه، وأن وجود هؤلاء الأشرار هو عين الضرر للعـالمين - كانت أيمانهم صحيحة لا تستلزم الكفارة. ومن المتيقن أنه إذا تقرب إليه

مفسد آخر فإنه يأمر بقتله أيضا لأن طبيعة نفسه الشـريفة بخصـوص المفسدين لها خاصية الزمرد والأفعى. أما من بقى من المفسدين فـإنهم تلك الزمرة التى لم يرها ولم يعرفها؛ وإلا فإن نفسه الشـريفة كانـت كالجوهرى الذى يميز البلور من اليواقيت، فيعرف هؤلاء الأشـخاص فى الحال. ومع هذا فإنه لا يتعجل فى أى أمر إلا فى عمل الخير أو ما يوشك على النسيان، ولقد نصح الأمراء والقضـاة والـوزراء كـرات ومرات قائلاً: لا تقبلوا على الفور كلام طائفة تشكو حاكما أو موظفًـا؛ إذ من الممكن أنهم من قبل لم يكونوا قد سددوا ما عليهم من ضرائب، وحملوا مسئوليتهم على غيرهم، فاضطرهم ذلك الحـاكم إلـى تسـديد الضريبة. ومثل هؤلاء الناس لا بد أن يشكوا. وإذا صـدقت أقـوالهم أيضا، فإن جماعة أخرى يأتون متذرعين بنفس الأسباب. ومن الممكن أن تكون هذه الجماعة من الراغبين فى تولى المناصب ويريـدون أن ينتزعوا من المشكو منه وظيفته، كى تفوض إليهم ويمكـن أن تجـىء جماعة ممن كانوا أعداءه سـابقًا، أو أنهـم تـربطهم صـداقة بأحـد الأشخاص، فيشنعوا على الحاكم. فاحتاطوا لكل هذه الأمـور وتحـروا أحوال كافة الرعايا ممن يسددون الضرائب، وتأكدوا من أن حـاكمهم ظالم أو لا وأنهم يريدونه أو لا؟ حتى تتبين حقيقة أمره **[ص٣٨٩]**؛ إذ إنه من الممكن أن يكون كلام الكثرة من الناس خاليـا مـن الغـرض والهوى. وأن كلام أصحاب الغرض والقلة من الناس ليس لـه أهميـة

تذكر، وأن الأشخاص الذين ترضى عنهم الرعية، وتميل طبيعتهم إلـى العدل قليلاً ما يعثر عليهم. وإن الحاكم الذى يؤخذ عليه عيب أو عيبان، وله فضائل أخرى كثيرة، لا سيما قلة الطمع وحسن السياسة والصـدق والاستقامة مثله لا يمكن عزله من عمله.

وعلى هذا النهج الذى استقر فى خاطر السلطان المبـارك، صـار يحتاط دائما، ويرشد الأمراء والوزراء أيضا، ولا تفوتـه - فـى أيـة قضية - قيد شعرة من الكياسة وبعد النظر.

فليمتع ا تعالى سلطان الإسلام هذا بسنوات عديـدة مـن العمـر والسلطنة بحق النبى وآله.



الحكاية الخامسة

أن كل كلمة ـرى على اللسان ا ـبارك

لسلطان الإسلام تكون مطابقة

للواقع فى أكثر الأوقات

يقرر المقربون الذين كانوا ملازمين للحضرة منـذ عهـد طفولـة سلطان الإسلام - خلد ملكه - أنه فى كل وقت تحدث فيه عن قضية أو قص حكاية، جاء حديثه مطابقًا للواقع. وقد ثبت خلال هذه الأعوام أنه كلما تفوه بكلام على سبيل الجد أو الهزل يتحقق. كأن يقول مثلاً: لقـد اتفق هذه السنة – للشخص الفلانى ما اتفق له فى الأمر الفلانى، أو أن رسولاً يصل من أحد الأماكن بهذا الشـكل والمنظـر، أو أن أسـيرا يحضرونه بهذه الهيئة، أو أنه سوف يصل خبر سار. ومع أن مثل هذه الأمور لم تكن بعيدة عن أغلب الملوك ذوى الشأن العظيم الذين وهـب لهم الحق تعالى هذا الملك وهذه السعادة، ولكنهم حتى الآن لم يحكـوا عن أى ملك ما يحكونه عن سلطان الإسلام، كما أنهم لم يشاهدوا مثـل أفعاله التى أثرت عنه.

ولما كان كذلك شديد الولع بكل العلوم، أحاط بعلم الرمـل وقـراءة الكف وأسنان الخيل وغير ذلك من الدلائل التى يختبرون بها السـيىء

والحسن على نحو ما جاء فى الكتب. كما أنه تتبع كل أنـواع التنخـيم التى اصطلح عليها كل قوم، **[ص٣٩٠]** وكل ولاية، ودرسـها جيـدا. وكان يصدر أيضا أحكاما بشأنها.

أما النجوم من سيارة وثوابت، والتى هى مشهورة لدى المنجمـين، فإنه يعرف أغلبها وهو مطلع على طلوعها وغروبها وخـواص كـل منها؛ بحيث إنه يثير العجب لدى مستمعيه. كذلك يعرف بدقة خـواص الأشكال لكل الحيوانات المستأنسة والوحشية وذلك على تباين أصـنافها واختلاف أنواعها، كما أنه يعرف عادة وحركة وسكون ومـوطن كـل منها فى الصيف والشتاء. وكل هذا لا يتأتى إلا بقـوة الفراسـة. وا أعلم.

الحكاية السادسة

بذل سلطان الإسلام وعطائه وجوده وسخائه

على الوجه المستحسن القائم

على أساس المعرفة

عندما تربع سلطان الإسلام – خلد ملكه – على سـرير السـلطنة كانت خزائن آبائه وأجداده خالية من الأموال، والولايات خربة مختلـة إلى أقصى حد، وأموال الديوان عرضة للنهـب والتلـف، وتحصـيل الضرائب أمر متعذر. وبسبب سوء تدبير الوزراء والحكـام السـابقين طمع عمال الولايات فى الأموال؛ فكان يلزم من مرور فترة من الزمن كى يمكن ضبط مصالح البلاد، وضمان وصول المال إلى الخزانة بعد ذلك.

هذا الخلل يتضح فيما يلى:

أولاً: الخزائن التى كان هولاكو خان قد أحضرها من بغداد وبـلاد الملاحدة والشام والولايات الأخرى، وأودعها قلعتى تله[١] وشاها[٢] هذه

(١) يكتبها أبو الفداء "تلا"؛ ويذكر أن بحيرة "تلا" هى بحيرة أرمية. والبحيرة المذكورة بين مراغة وبين سلماس غربى مراغة وشرقى سلماس. وفى وسطها جزيرة فيها قلعة تسمى قلعة تلا على جبل منقطع فى هذه الجزيرة. وكان "هلاوون" (هولاكو)

الخزائن كان الخزنة ينهبونها بالتدريج، وكانوا يبيعون للتجار بالشات[3] الذهب الأحمر والمرصعات. ولما كان كل منهم مطلعا على ما يعلمه الآخر، لم يكن أى منهم يبوح بشىء عنها. وقد اتفق أن تهدم برج من الأبراج المطلة على البحر فبحجة أن البالشات والمرصعات قد سقطت فى البحر، اختلس الخزنة مبالغ أخرى.

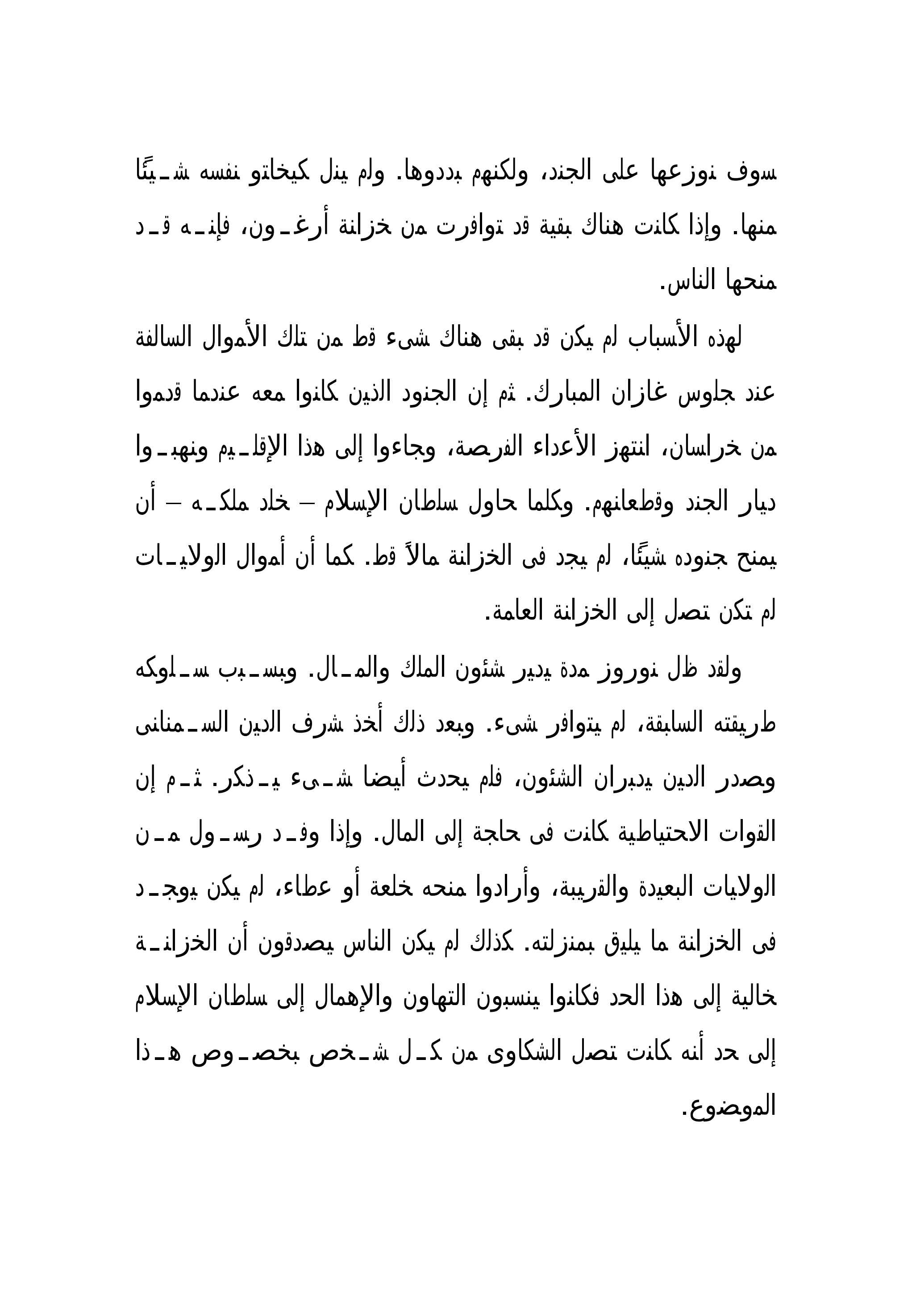
ثانيا: السلطان أحمد "تكودار" كان يريد أن يجذب إليه الجند، ويستخلص الملك لنفسه ويحارب أرغون؛ فأعطى الجند جملة ما تبقى. ولم يكن قد بقى هناك شىء أكثر من هذا. وقيل إن ما بقى فى الخزانة لم يكن يبلغ مائة وخمسين تومانا.(ص٣٩١).

ثالثًا: ما جمعه أرغون فى "سوغورلوق" من كل نوع وأودعه الخزانة، سرقَ بعض منه وأتلف بعضه الآخر. وبعد ذلك فإن ما كان أرغون قد حصله فى عهد توليه الحكم وزع وأتلف أيضا. وعندما فكر الأمراء والمقربون فى الغدر به ومخالفته ومحاولة قتله، قسم بعض الأمراء والمقربين محتويات تلك الخزانة فيما بينهم وقال بعضهم: إننا

قد جعل أمواله فيها لحصانتها. (تقويم البلدان، ص٤٢، تصحيح وطبع رينود والبارون ماك كوكين ديسلان، باريس ١٨٤٠ مسيحى).

(٢) شاها: قلعة جددها هولاكو، ووضع فيها أمواله مما نهبه من بغداد وأقاليم الخلافة. ثم صارت هذه القلعة مدفنًا له. وكانت تعرف بالفارسية كور قلعة، أى "قلعة القبر". (بلدان الخلافة الشرقية، الترجمة العربية، ص١٩٥، بغداد ١٣٧٣هـ/١٩٥٤م).

(٣) بالشات جمع بالش. والبالش عبارة عن خمسمائة مثقال من الذهب أو الفضة (انظر كتاب تاريخ جهانكشاى، جلد اول، تحقيق محمد بن عبد الوهاب القزوينى، ص١٧٧، حاشية ٢، ليدن ١٣٢٩هـ/١٩١١م).


سوف نوزعها على الجند، ولكنهم بددوها. ولم ينل كيخاتو نفسه شـيئًا منها. وإذا كانت هناك بقية قد توافرت من خزانة أرغـون، فإنـه قـد منحها الناس.

لهذه الأسباب لم يكن قد بقى هناك شىء قط من تلك الأموال السالفة عند جلوس غازان المبارك. ثم إن الجنود الذين كانوا معه عندما قدموا من خراسان، انتهز الأعداء الفرصة، وجاءوا إلى هذا الإقلـيم ونهبـوا ديار الجند وقطعانهم. وكلما حاول سلطان الإسلام – خلد ملكـه – أن يمنح جنوده شيئًا، لم يجد فى الخزانة مالاً قط. كما أن أموال الولايـات لم تكن تصل إلى الخزانة العامة.

ولقد ظل نوروز مدة يدير شئون الملك والمـال. وبسـبب سـلوكه طريقته السابقة، لم يتوافر شىء. وبعد ذلك أخذ شرف الدين السـمنانى وصدر الدين يدبران الشئون، فلم يحدث أيضا شـىء يـذكر. ثـم إن القوات الاحتياطية كانت فى حاجة إلى المال. وإذا وفـد رسـول مـن الولايات البعيدة والقريبة، وأرادوا منحه خلعة أو عطاء، لم يكن يوجـد فى الخزانة ما يليق بمنزلته. كذلك لم يكن الناس يصدقون أن الخزانـة خالية إلى هذا الحد فكانوا ينسبون التهاون والإهمال إلى سلطان الإسلام إلى حد أنه كانت تصل الشكاوى من كـل شـخص بخصـوص هـذا الموضوع.

وعندما بلغ ذلك سمعه الأشرف كرر قوله على رأس جمـع مـن الأمراء والمقربين: إنكم تظنون عندما يصل عدد الإبل والبغال المحملة بالصناديق، أنها تحمل أموالاً إلى الخزانة؛ ولكن الحقيقة هى أنى أحب الصناعة، وأشتغل دائما بقطع أنواع الأخشاب وتصنيعها؛ فكل ما يحمل إلى هنا ليس أكثر من أخشاب، وأصناف الأدوات والآلات الخاصة بكل صنعة. **[ص٣٩٢]** بالإضافة إلى بعض قطع من الأسـلحة. وهـذا لا يخفى عليكم. والخزنة مطلعون على تلك الحقيقة، فكيف أهب الشـىء الذى لا وجود له؟! إنه لم تظهر لى خزانة ورثتها عـن الآبـاء، ولـم يحضروا إلى مالاً من الولايات. وعلى هذا جئت على رأس بلد خرب. فعليكم أنتم أن تجمعوا أموال الولايات وأحضروها لى. وعندئذ إذا لـم أعطها إياكم، فسوف يكون التقصير من جـانبى. ومـن هـذا الكـلام الصريح ثبت للجميع أن الحق بجانب السلطان.

وبعد عامين عندما فرغ من ترتيب شئون المملكة وتدبيرها وأحكـم شئون الأطراف والثغور، وقضى على الخوارج والأشـخاص الـذين كانوا قد دأبوا على إثارة الفتن والعصيان أو أنه عـنفهم وزجـرهم – اشتغل بتدبير شئون الولايات وترتيب الأمور المتعلقة بضبط الأمـوال وتحصيل الضرائب. وكان يجلس بنفسه كل يوم من الصـباح البـاكر حتى المساء يصحح بقلمه المبارك المسودات الجديرة بالتسجيل. كـذلك

أوجد نسقًا لأمور البلاد، ووضع لها قانونًا، وبين على أى نظام يسـير كل عمل.

أما الولايات التى يقطعونها فقد قرر أن تعطى أناسـا أقويـاء ولا تسترد منهم مدة ثلاث سنوات، وألا يلتفتوا إلـى أى شـخص وضـيع خسيس. وبين سبل تحصيل الأموال، وكيف يكون ذلك. وعـين أيضـا الأموال التى يجب تحصيلها من كل البلاد. كما عين وجوه الصرف فى كل باب على الوجه الذى سوف يجىء شرحه فى الفصول التالية.

بذلك انتظمت أمور الولايات، وأخذت الأموال تصل إلى الخزانـة يوما بعد يوم، وصار الدخل يزداد سنة بعد أخرى. وأما نسيج المصانع الذى لم يكن يسد نفقاته قبل ذلك، ولم يكن الثوب يساوى دانقـين مـن السعر المقرر، فقد وصل الإنتاج كله إلى حد الكمـال. ولمـا حصـل السلطان على المال، شغل بالعطاء، وقال للأمراء وأركان الدولة فـى هذا الصدد: ليس فى العالم أمر أصعب من بذل المال. وإن جنكيز خان كان يصرح: "ليس هناك عمل أسوأ من إعطاء المال، وأيضا من عـدم الإعطاء. ومن المؤكد أن من لا يعطى يكون بخـيلاً. **[ص٣٩٣]** وأى شىء يكون أسوأ من البخل؟! وأما فى حالة الإعطاء فإنهم إن منحـوا أحدا قليلاً، وآخر كثيرا، أو أنهم أعطوا أحـدا ومنعـوا آخـر، أو أن الشخص الذى ينبغى أن يسرعوا فى إعطائه أبطأوا فى تنفيذ ذلك، فهذا التصرف يكون على الناس أقسى من الموت ويصيرهم أعداء، وقليـل

من يستطيع مراعاة هذه الدقائق، ويتاح له هذا التفكير. ولا يتيسر فهـم هذا المعنى لكل شخص. والآن يجب علينا أن نراعى هذه القاعدة بقدر المستطاع.

واتفق أن وصلت عدة خزائن أول الأمر. وكان كل منهـا يحتـوى على مائتى تومان أو ثلاثمائة، حولها إلى الأمراء والنواب، وقال: إنى لا أتمسك بما أتوا به، ولن أودعه الخزانة وأشار بأن يضعوا – علـى حدة – ما حصلوه من الولايات حتى يقوم الأمراء بتوزيعه. وبعد ذلـك بين لهم أى قوم يعطون، وما المبلغ الذى يعطى لكـل طائفـة. وكـان الأمراء يعطون أيضا طبقًا لهذه القاعدة.

بعد ذلك فى هذه السنوات الأخيرة صرح قائلاً ذات مرة: لقـد وزع جماعة من الأمراء الأموال، وإننى أرغب من كل قلبى أن أمنح شـيئًا بنفسى. وعند انعقاد مجلس الشورى (القوريلتاى) فى أوجان أمر بإقامة مخيم ملكى كبير حيث جمع الخزائن التى أحضروها من أطراف البلاد، وجلس بنفسه مع بعض الأمراء المشهورين، فأعطى مبلغًا كبيرا مـن كانوا أرفع درجة، وهؤلاء الذين أدوا خدمات جليلة. وكذلك من مهدوا الطرق المستحسنة خصص لهم منحا أزيد. وقد عبر عن تلك الزيـادة بقوله: على هذا النحو أعطى هذه الجماعة أكثر من غيرهم. والمقصود من هذا أن يجد الآخرون أيضا فى تمهيد الطـرق، وتأديـة الخـدمات

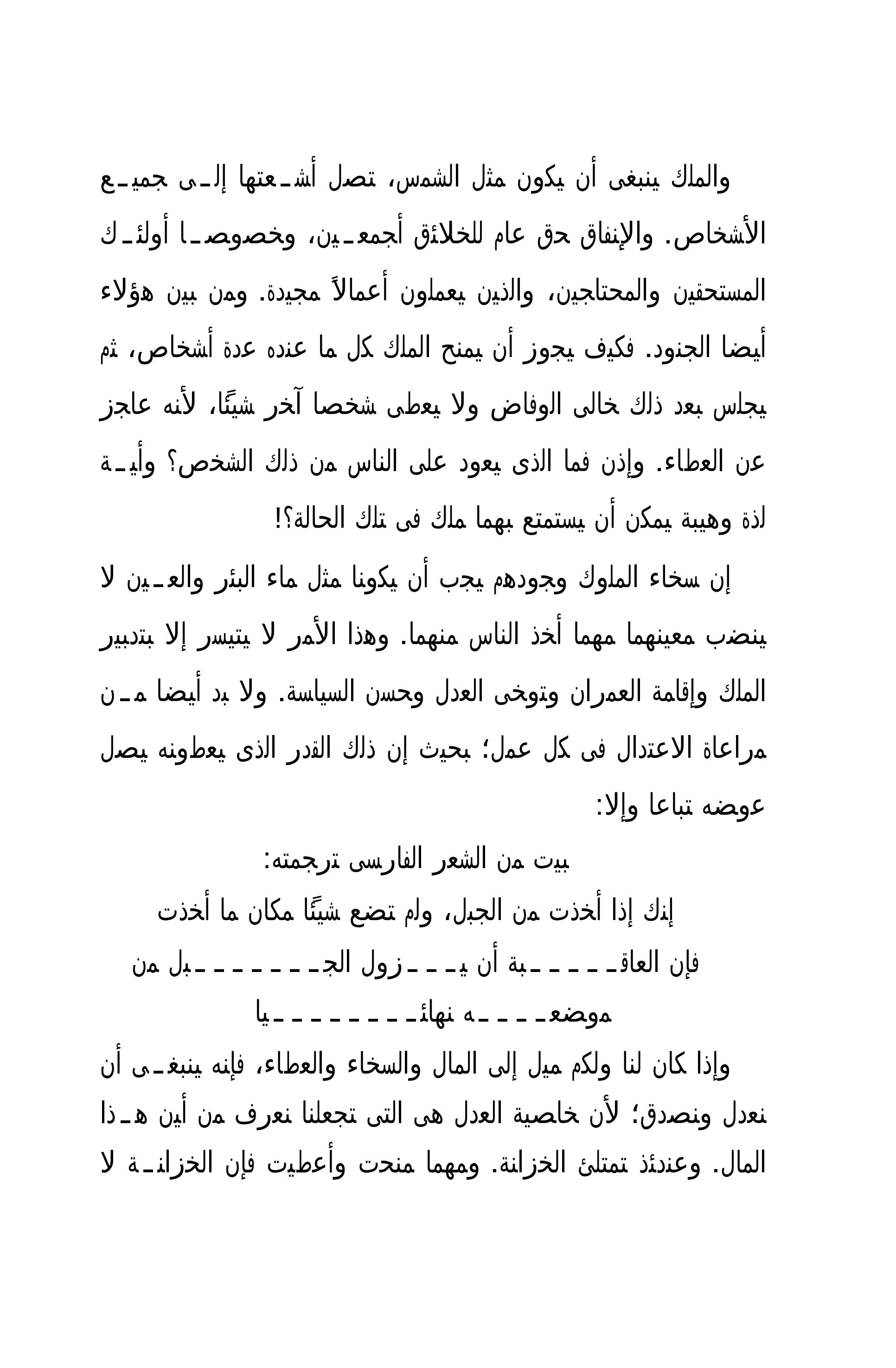
الجليلة ويسعون سعيا حثيثًا ويجتهدون اجتهادا تاما. وهكذا كان يـتكلم على هذا النحو، وهو يمنحهم العطاء.

وبعد ذلك كان يقدم طائفة الآباء الذين لهم أبناء ثـم يعطـى قـواد الميمنة والميسرة على حسب القاعدة المعهودة. كذاك أمر بوضع أنواع الثياب مرتبة صنفًا صنفًا وبابا بابا. ثم وزن كل أكياس الذهب الإبريز والفضة كلا على حدة، وكتب عليها مقدار ما تحويه واسم الطائفة التى تستحقها، وذلك على حسب استعدادها وأحقيتها. وكان ينـادى واحـدا فواحدا، **[ص٣٩٤]** ويأمر بتسليم كل منهم نصيبه بحضوره. وظل على هذا النحو يمنح الأموال مدة عشرة أيام أو خمسة عشر يوما؛ فمنح مبلغ ثلاثمائة تومان نقدا ذهبيا وعشرين ألف ثوب وخمسين حزاما مرصـعا وثلاثمائة حزام ذهبي ومائة بالش من الذهب الأحمر. وبعد ذلك ظـل دائما وعلى التوالى يمنح العطايا من الخزانة من النقود الذهبيـة، ولـم يحول على الولاية مطلقًا حوالة يدفع بموجبها لأحد باسم العطاء دانـق من الذهب أو قطعة من الثياب. وكل ما طلبه الأمراء والوزراء لم يكن حوالات، وإنما أعطاهم المبالغ نقدا.

على هذا النحو ظل السلطان يعطى، لكنه كان يراعى قدر الشخص ومنصبه وظروف العطاء؛ بحيث لا يعطى القليل من كان أهلاً للكثير، ولا يعطى الكثير من ينبغى أن يعطى القليل. ولم تفرغ خزائنه مطلقًـا

من الذهب والثياب. ومهما أعطى الكثير منحه الحق تعالى بركة بسبب عدله وحسن تدبيره. ولم تخل خزائنه قط من الثياب والذهب، ولا يكاد يمضى يوم إلا ويصرف من خزائنه عشرة آلاف وعشرين ألف دينـار من الذهب ومائة ومائتين وثلاثمائة ثوب من الثياب الجـاهزة. وهكـذا يكون السخاء والبذل والعطاء .

بعد ذلك قال بحضور الأمراء وعظماء الدولة: إن أفضل الأعمـال التى يؤديها الإنسان هى أن يتخلق بأخلاق ا ، لا سيما الملـوك. وإن الجود والسخاء هما من صفات ا . لكن جوده وسخاءه لا ينقصان. ولا ينفدان مهما أعطى الكثير، وآثر بهما المستحقين. وإن ما يفعله الإنسان بالنسبة إلى ا تعالى لا يكون إلا كقطرة بالنسبة إلـى البحـر. لكـن التخلق بخلق ا بقدر المستطاع أمر واجب. أما الملوك وجميع الناس، فيجب عليهم أن ينفقوا أموالهم على هذا النحو؛ بحيث يكونـون دائمـا قادرين على ذلك حتى يمكنهم الإنفاق دائما؛ فإنهم إن أنفقوا مالهم فـى بضعة أيام دون ضبط أو روية، ثم يكونون بعد ذلـك عـاجزين عـن الإعطاء ولا يستفيدون من مالهم. فما الفائدة التى تعود على الشـخص إذا لم يستطع الإنفاق بعد ذلك؛ والأمر الذى لا شك فيه أن من يمنحون أشخاصا معدودين كل ما عندهم ويحرمون الآخـرين حرمانًـا تامـا، يكونون مخطئين أيضا، ولا يكون تصرفهم هذا مرضيا ولا متفقًا مع صفته. **[ص٣٩٥]**.



والملك ينبغى أن يكون مثل الشمس، تصل أشـعتها إلـى جميـع الأشخاص. والإنفاق حق عام للخلائق أجمعـين، وخصوصـا أولئـك المستحقين والمحتاجين، والذين يعملون أعمالاً مجيدة. ومن بين هؤلاء أيضا الجنود. فكيف يجوز أن يمنح الملك كل ما عنده عدة أشخاص، ثم يجلس بعد ذلك خالى الوفاض ولا يعطى شخصا آخر شيئًا، لأنه عاجز عن العطاء. وإذن فما الذى يعود على الناس من ذلك الشخص؟ وأيـة لذة وهيبة يمكن أن يستمتع بهما ملك فى تلك الحالة؟!

إن سخاء الملوك وجودهم يجب أن يكونا مثل ماء البئر والعـين لا ينضب معينهما مهما أخذ الناس منهما. وهذا الأمر لا يتيسر إلا بتدبير الملك وإقامة العمران وتوخى العدل وحسن السياسة. ولا بد أيضا مـن مراعاة الاعتدال فى كل عمل؛ بحيث إن ذلك القدر الذى يعطونه يصل عوضه تباعا وإلا:

بيت من الشعر الفارسى ترجمته:

إنك إذا أخذت من الجبل، ولم تضع شيئًا مكان ما أخذت

فإن العاقـ ـ ـ ـ ـبة أن يـ ـ ـزول الجـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـبل من موضعـ ـ ـ ـه نهائـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـيا

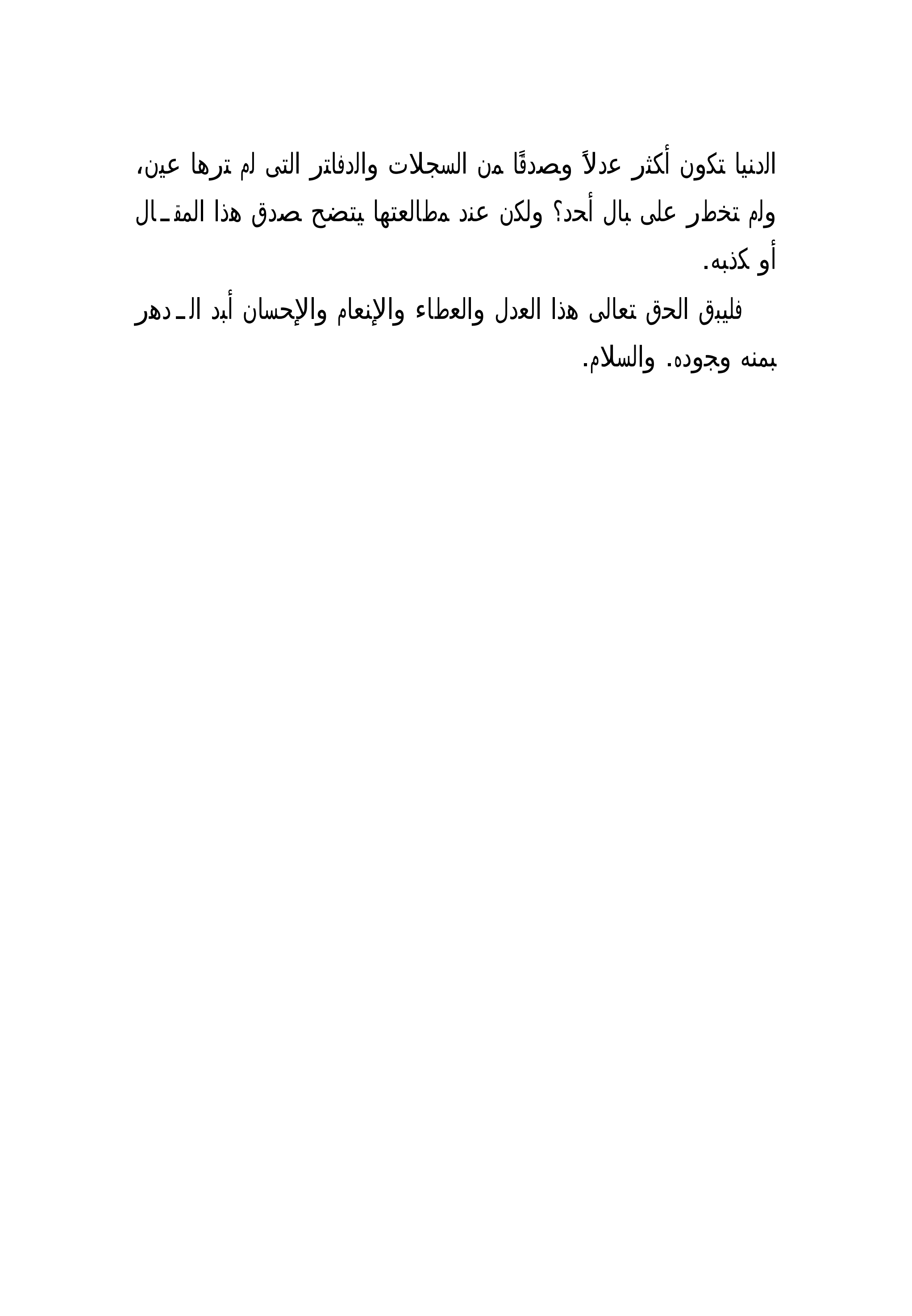
وإذا كان لنا ولكم ميل إلى المال والسخاء والعطاء، فإنه ينبغـى أن نعدل ونصدق؛ لأن خاصية العدل هى التى تجعلنا نعرف من أين هـذا المال. وعندئذ تمتلئ الخزانة. ومهما منحت وأعطيت فإن الخزانـة لا

ينضب معينها. ومن الأفضل أن نكون قادرين على هـذا دائمـا. وإلا فكيف يصلح ملك يكون قادرا يوما وعاجزا يوما، وثريا وقتًـا وفقيـرا وقتًا آخر؟! إن هذا الأمر لا يليق بالملوك. ولو يكون هناك ملك بهـذه الصفة فإنه يضطر إلى أن يعيش دائما فى غم وحزن، ويحرم الخلـق مواهبه، ويصيرون فى غنى سلطانه.

فينبغى أن نراعى هذه القاعدة، وأن نعمل على أن نعطى كـل مـا يجىء إلينا من مال، لا أن ندعه يتراكم بعضه فـوق بعـض، ولا أن نصير أيضا دفعه واحدة خالى الوفاض مفلسـين. **[ص٣٩٦]** والمـال القليل يجب أن يكون دائما مستمرا؛ لأن خاصية المال هى أنه إذا كان قليلاً؛ فإنه سرعان ما ينمو ويأخذ فى الزيادة مثل الصياد إذا لـم يكـن لديه طائر يضعه على شبكته كى تنجذب إليه الطيور التى من جنسـه؛ فإنه لا يستطيع أن يصطاد طائرا قط. أما إذا كان هناك طائر واحد هو كل ثروته، فإنه بواسطته يصطاد عدة آلاف من الطيور فى سنة واحدة.

فأثنى الأمراء وأركان الدولة على كلام سلطان الإسلام ودعوا لـه، وصاروا جميعا مبتهجين. ومنذ ذلك التاريخ حتى الآن، ويسير السلطان الأمور دائما على هذا النمط.

ولا بد أن الناس يحملون هذا الكلام على سبيل المبالغة ويقولون من الذى رأى الملوك السابقين، ومن وقف على أوضاع خـزائنهم حتـى يستطيع القيام بهذه المقارنة؟! لكن الشاهد الصادق على هذه الأمور هى سجلات الدخل والخرج لخزائن السابقين، وكلهـا محفوظـة فـى دار المحفوظات، ولا يزال قسم منها موجودا حتى الآن. فأى شهادة فى هذه



الدنيا تكون أكثر عدلاً وصدقًا من السجلات والدفاتر التى لم ترها عين، ولم تخطر على بال أحد؟ ولكن عند مطالعتها يتضح صدق هذا المقـال أو كذبه.

فليبق الحق تعالى هذا العدل والعطاء والإنعام والإحسان أبد الـدهر بمنه وجوده. والسلام.

الحكاية السابعة

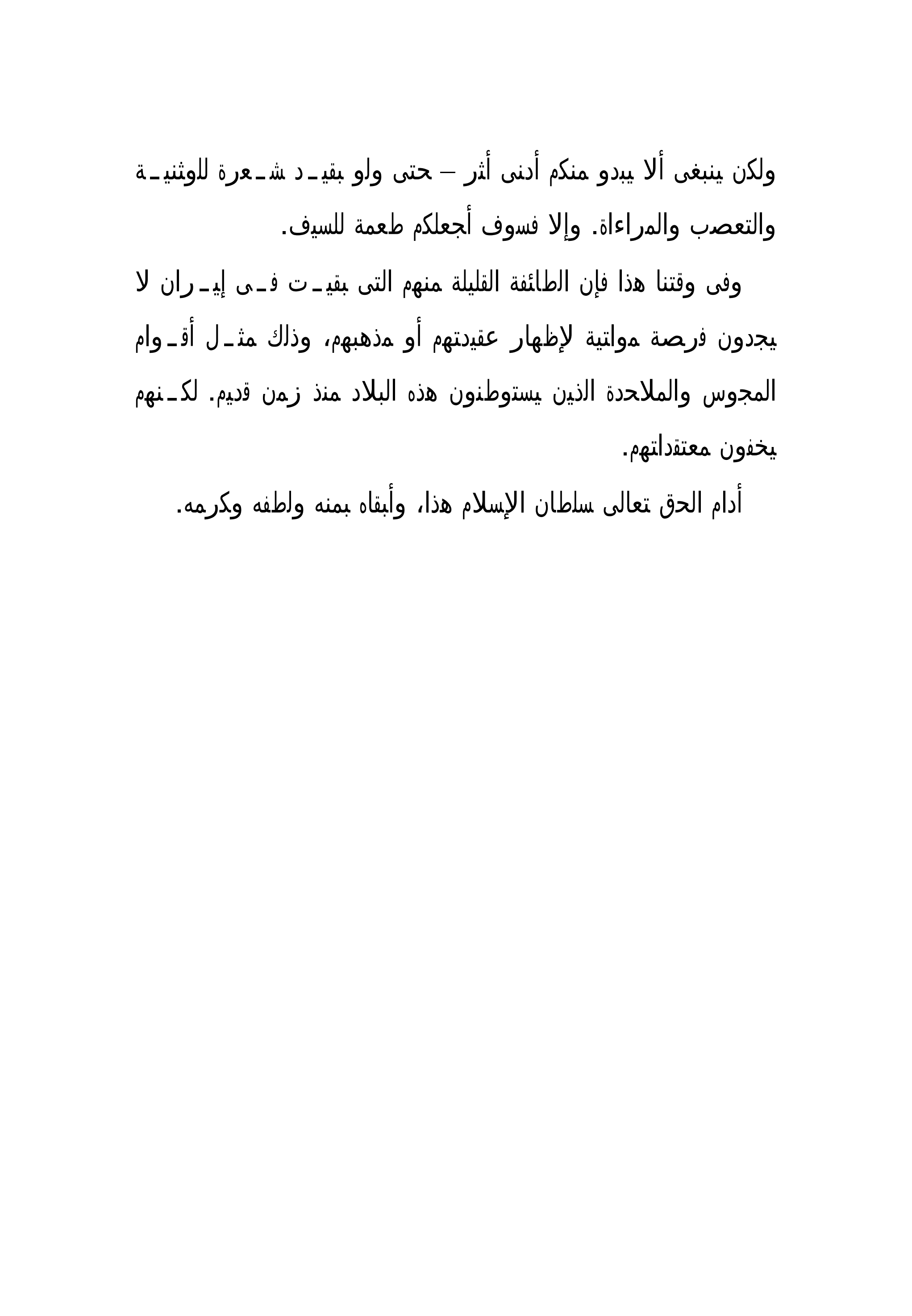
إبطال الديانة الوثنية، و ريب معابد الوثني

وتحطيم كل الأصنام

حينما دخل فى الإسلام سلطان الإسلام غازان خان - خلد سلطانه بالتوفيق والهداية الإلهية – كما سبق ذكره – أمر بتحطيم كل الأصنام وتخريب كافة معابدها وهدم بيوت النار **[ص٣٩٧]** والمعابد الأخرى التى لا يجوز وجودها شرعا فى بلاد المسلمين. كذلك أدخلوا أكثر جماعة الكهنة عباد الأصنام فى الإسلام. ولكن لما لم يهب لهم ا تعالى إيمانًا قويما، كانوا يتظاهرون مضطرين بالإسلام. هذا على حين أنه تبدو على سيماهم آثار الكفر والضلال. وبعد مدة أدرك سلطان الإسلام – خلد ملكه – نفاقهم، فقال لهم: كل من يريد منكم أن يرحل إلى بلاد الهند وكشمير والتبت وموطنه الأصلى فليرحل. أما الذين يبقون هنا فعليهم ألا ينافقوا ويظلوا ثابتين على ما فى قلوبهم وضمائرهم، وألا يلوثوا الدين الإسلامى الحنيف بنفاقهم. لكن إذا علمت أنهم يقيمون معابد النار أو بيوت الأصنام فسوف أجعلهم – دون محاباة – طعمة للسيف. ومع هذا فقد استمر بعضهم فى النفاق واشتغل بعضهم بأفكارهم المستهجنة. كذلك صرح سلطان الإسلام قائلاً: إن أبى كان

وثنيا، ومات على هذه العقيدة. وقد أقام لنفسه بيتًا للأصـنام ومعبـدا، وأوقف عليهما وقفًا باسم تلك الجماعة من عباد الأصنام. وقد خربـت ذلك المعبد. فاذهبوا إلى هناك وأقيموا وعيشوا على الصـدقات. وقـد انتهز الأمراء والخواتين تلك الفرصة، وقالوا: إن أباك قد أقـام معبـدا ونقش صورته على جدرانه. وحيث إن المعبد صار الآن خرابا، يسقط الثلج والمطر على صور أبيك، وقد كان وثنيا. فإذا عمروا هذا المكان، فإن ذلك يكون مؤديا لاستقرار روح أبيك وحسن سمعته. لكن غازان لم يستحسن هذا الرأى، ولم يعره اهتماما. فأضافوا قائلين: ليجعلوه علـى هيئة قصر. فلم يرقه ذلك أيضا، وقال: إذا كان فى نيتى تشييد قصـر حيث تحفظ صورة أبى؛ فإنه لا يجوز إقامته هناك، لأن هذا المكان كان معبدا وموضعا للوثنيين. وإذا كان من اللازم تشييد هذا القصر، فليشيد فى مكان آخر. وكانت هناك حكايات وقضايا كثيرة مـن هـذا النـوع يطول شرحها.

وصفوة القول أنه قال للكهنة **[ص٣٩٨]** إننى أعلم أنكم لستم علـى علم. ولكن يجب على الملوك أن يراعوا كافة أصـناف الخلـق مـن رعاياهم. ولهذا السبب عليهم أن يحافظوا على الجميع ويرعوهم ويعنوا بهم؛ حتى البهائم التى لا إدراك لها ولا عقل؛ فإن الملوك وأهل الإسلام وكافة الناس يعطفون عليها ويهتمون بها، ويوفرون لهـا احتياجاتهـا. وأنتم أيضا تسيرون فى نفس هذا الطريق، وتتمتعون بهـذه المزايـا.



ولكن ينبغى ألا يبدو منكم أدنى أثر – حتى ولو بقيد شعرة للوثنية والتعصب والمراءاة. وإلا فسوف أجعلكم طعمة للسيف.

وفى وقتنا هذا فإن الطائفة القليلة منهم التى بقيت فى إيران لا يجدون فرصة مواتية لإظهار عقيدتهم أو مذهبهم، وذلك مثل أقوام المجوس والملاحدة الذين يستوطنون هذه البلاد منذ زمن قديم. لكنهم يخفون معتقداتهم.

أدام الحق تعالى سلطان الإسلام هذا، وأبقاه بمنه ولطفه وكرمه.

الحكاية الثامنة

فى محبة سلطان الإسلام لآل الرسول عليه السلام

رأى سلطان الإسلام – خلد ملكه – فى المنام مرتين جمال سيد الكائنات عليه أفضل الصلوات وأكمل التحيات. وقد أيده الرسول عليه الصلاة والسلام، وقوى عزيمته بالوعود الطيبة، ودارت بينهما محاورات طويلة. وكان أمير المؤمنين على والحسن والحسين رضى ا عنهم بصحبة النبى صلوات ا عليه، فعرفهم به قائلاً: يجب أن تكونوا **[ص٣٩٩]** إخوة. ثم أمر سلطان الإسلام بمعانقتهم؛ فقبل الجانبان هذه الأخوة. ومنذ ذلك الوقت تيسرت لسلطان الإسلام انتصارات وفتوحات؛ كان أعظمها هذه الخيرات كلها، وضبط الأمور وترتيبها، وتوخى العدل وحسن السياسة تلك المبادئ التى أذاعها فى العالم؛ فتهيأ له التوفيق فى الحصول على السمعة الطيبة، وحصل لنفسه ذخيرة من دعوات الخلق العديدة له بالخير. فأية سعادة يمكن أن تكون أعظم من هذه؟!

ومنذ ذلك التاريخ ازداد حبه لأهل بيت النبوة رضى ا عنهم، وصار يمد الحجاج دائما بإعاناته، ويزور قبور أسرة الرسول، وينذر النذور ويرسلها إلى مستحقيها، ويعز السادات ويأمر لهم بالصدقات والإدرارات.

ولما كان يقيم فى كل موضع الخوانق والمدارس والمساجد وأبواب البر الأخرى ويخصص لها الأوقاف، ويقرر الوظائف والمرتبات لكـل طائفة، قال: كيف يكون للفقهاء والمتصوفة والطوائف الأخرى أوقـاف خاصة بهم، ولا يكون ذلك أيضا للسادات؟! إنه لواجب أن يكون ذلـك للعلويين كذلك. وأمر بإقامة دور السيادة فى تبريز، وفى أمهات المـدن الأخرى فى كل البلاد الهامة مثل أصفهان وشيراز وبغداد وأمثالها كى ينزل فيها السادات. كما عين لهم مرتبات ينفقونها فى أداء مصـالحهم على النحو الذى رآه محققًا لهذا الغرض، وحسب ما نصت عليه حجج الأوقاف؛ وذلك حتى يكون لهؤلاء أيضا نصيب من خيراته. وكان دائما يصرح بقوله: لست منكرا أى شخص، وإننى لمعترف بعظمة الصحابة. ولكن بعد أن رأيت الرسول عليه الصلاة والسلام **[ص٤٠٠]** وقد آخى بينى وبين أبنائه، ومنحنى صداقتهم. لا بد أن أزيد فـى حبـى لأهـل البيت، وإلا فمعاذ الله أن أنكر الصحابة. كذلك أمر بحفر نهر لإيصـال الماء إلى مشهد الحسين عليه السلام، كما يجىء شرح ذلك. وكان دائما يأمر بمدح أسرة الرسول صلى الله عليه وسلم دون تعصب لأنه بحمـد الله ومَـنه حكيم وكامل.

فليبق الحق تعالى هذا السلطان العادل الكامل بين العالمين سـنوات لا نهاية لها.

الحكاية التاسعة

شجاعة سلطان الإسلام، وإعداد ا ند للحرب

وجاده فى خوض المعارك

كان سلطان الإسلام – خلد ملكه – يعيش منذ عهد الطفولة فى ثغر خراسان الذى كان يعد أخطر الثغور وأعظمها شأنًا. ومن قديم العهـد حتى الآن كانت الجيوش الأجنبية تزحف إلى تلك المنطقة. فكان لا بـد من اتخاذ الحيطة والحذر، فلا تكاد تمر سـنة دون أن يسـير غـازان بقواته الاحتياطية. ولهذا حارب الأعداء كرات ومرات واشتبك معهـم فى حروب طاحنة، وتحمل كثيرا من المتاعب والمشقات ووقف وقوفًـا تاما على دقائق تلك الأمور، ومهر فى معالجتها إلى أقصى حد، وقوى قلبه إلى حد أنه لم يشعر بخوف من الأحداث الخطيرة، ولـم يتطـرق التردد إلى خاطره المبارك. ورغم أنه يعلم أن الموقف صعب والعـدو قوى كان يظهر المصابرة والتجلد، ولا يدع أثرا يبدو عليه من التفكير فى هذه الأمور، وكان يصرح بقوله: لم يتأت من الخوف أية فائدة بـل تكون نتيجتة العجز عن التدبير، فيقوى حال الخصم.

شاهد الملازمون للحضرة هذه المواقف عدة مرات فى خراسـان. وإن شرح ذلك يطول. أما ما اتفق وقوعه فى هذه الديار، فواحدة مـن ذلك هى قضيته مع بايدو، فقد أسرع كالبرق الخاطف مـن خراسـان، **[ص٤٠١]** وداهم بايدو وأتباعه وصابر مع نفر قليل من جنده. بعد ذلك

رأى من المصلحة أن يتقابل مع خصمه فى الخلوة، ومعـه نفـر مـن أتباعه. وأثناء اللقاء ضربه بايدو على سبيل المداعبة ضربة قوية على ظهره؛ بحيث إنه تألم، ولكن بايدو عرف أن غازان لا يعبأ به، وبقـى الخوف مسيطرا عليه.

بعد ذلك عبأ غازان جنده، واستغل الفرصة، فداهم بايدو ومعه نفر ضئيل من جنده وأسره دون أن يلحـق أى ضـرر أو مشـقة بـالبلاد والجيش. وفى ذلك الوقت اعتقل الأمراء الذين كانوا يثيرون الفتن فـى عهد أبيه وعمه. ورغم أنه كان لهم حماة أقوياء، إلا أنه اتبـع الـرأى الصائب مدفوعا بقوة عزيمته، ولم يأبه بشفاعة أى أحد منهم، بل قضى عليهم جميعا. ثم نظم شئون الملك.

وموقف آخر وهو موقفه فى قضية "سوكاى" الذى ثار عليه. وكذلك فى عودة "أرسلان" بجيش مجهز وهجومه عليه. وكان السلطان يسـمع ذلك الخبر تباعا. وقد تبين له أنه إذا ما وصل العدو فإنه لن يسـتطيع مقاومته لعدم وجود الجند. ومع هذا لم يكن مـنفعلاً علـى الإطـلاق، واستمر يزاول أعماله جريا على عادته كل يوم. ولما اقترب "أرسلان" أرسل إليه الجنود الذين كانوا حاضرين وكأنهم فى رحلة للصيد، ولـم يتحرك هو بنفسه، ولم يطلع أيضا كل شخص على ذلك الأمر، وظل – كالعادة – يمرح ويلعب، ويروى مختلف الحكايات، ويـدعو الأطبـاء والمنجمين ويقول لهم: أريد أن أتناول مسهلاً، فهيئوا لى هذا النوع من

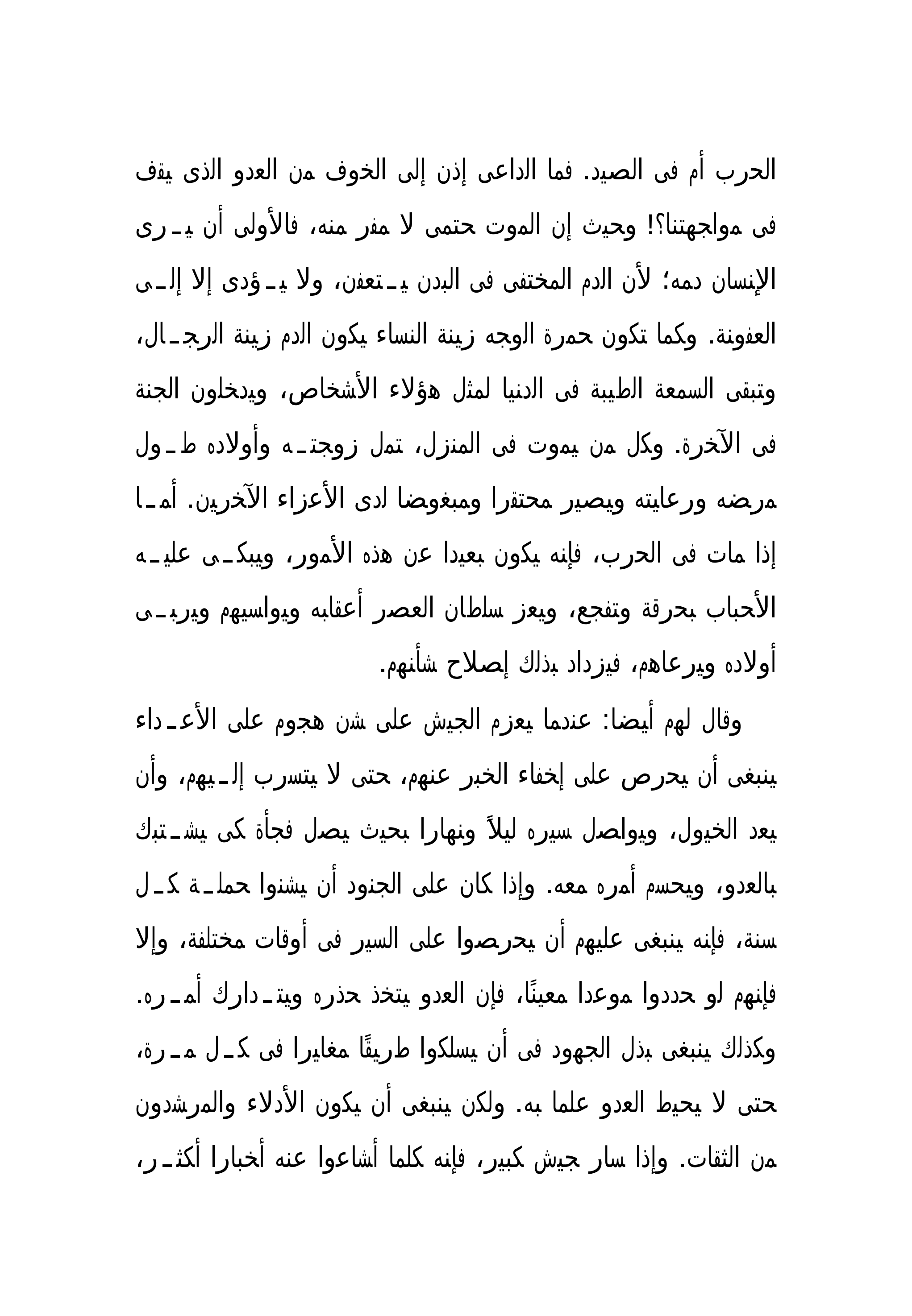
الأدوية، واختاروا لى يوما مناسبا لتناوله. ولم يبد اهتماما بـأمر ذلـك المتمرد؛ غير أن خاطره كان قلقًا بصورة لا يمكـن وصـفها. ولكـن بسبب ما أبداه من تجلد ومصابرة لم يطرأ خلل قط؛ إذ لم يصل نبأ ينبئ عن خطورة الموقف، وبقى الناس هادئين. **[ص٤٠٢]** ولو ظهر علـى السلطان أقل تغير، حتى ولو بقيد شعرة، لاضـطربت كـل الأمـور؛ وخصوصا وإن الأمر كان فى بدايته. ولم يكـن الملـك والجنـد قـد استقروا. أما الجنود فكانوا قد شاهدوا الاضطرابات السابقة، واعتـادوا عليها. وكانوا حريصين ومولعين بشن الغارات. فمثل هذه الأمور كانت تبدو لهم لعبة من اللعب. ومع كل هذا صح ذلك الأمر، وزال الخطـر بتأييد الخالق – عز وعلا – وبيمن مصابرة وتجلد سلطان الإسـلام – خلد ملكه – لم تصبه عين السوء بأى وجه.

موقف آخر فى قضية الحرب ضد مصر والشام؛ فقد ظن الناس أن السلطان سوف يقف فى ركن من الأركان؛ بحيث لا يعرفه أحد لكنـه على خلاف ذلك اقتحم الميدان بجرأة نادرة، ونظم كل جنوده ووقف فى مقدمتهم، وصار يحمل على أعدائه تباعا كالأسد الهصـور. ولـو لـم يمسكوا بعنان فرسه، لما كان يتوقف عن القتال. ورغم أن القريبين منه كانوا يمنعونه، اخترق صفوف الأعداء عدة مـرات وتجـول بيـنهم، وصار يطاردهم، وقتل بعضا منهم، ثم عاد. وفجأة انهزم الجند أيضـا الذين كانوا على مقربة منه. ولم يعلم بعض من فى الأطراف شيئًا عن

الاشتباكات، ولم يصل بعضهم إلى ميدان القتال وبقيت ميسرة سـلطان الإسلام وميمنته خاليتين. أما هو فقد ثبت مع نفر قليـل صـمدوا فـى مواجهة الخصم. ونظرا لأن الهزيمة الأولى قد لحقت بقلـب الجـيش، ابتعد الجند عن الميدان ووقفوا عاجزين لا يتحركون علـى الإطـلاق، ظانين أنه أثناء حملة العدو لن يصل مدد قط. هذا فى حين أن العـدو كان يواصل هجماته الشديدة دون انقطاع. لكن السلطان ثابر على القتال فى شجاعة كأنه أسد هصور أمام ذلك الحشد الكبير، وذلك من وقـت الظهيرة حتى صلاة العصر يصد هجمات العدو بمفرده ويقاوم – بحسن التدبير ولطائف الحيل – مثل هذا الحشد الكبير. فأى محارب شجاع له مثل هذه القوة والقدرة؟!

وعاقبة الأمر أن جنود الميسرة الذين كانوا يقفون بعيـدا منتهـزين الفرصة ومستعدين للتقهقر، عندما شاهدوا ذلـك الموقـف البطـولى، توجهوا إلى الأعداء، **[ص٤٠٣]** وتبعهم بعض الجنود مـن الميمنـة. فعجز الأعداء عن مقاومتهم ومحاربة سلطان الإسلام -خلـد ملكـه- واضطروا إلى الفرار منهزمين.

وهكذا فإن مثل هذه الحكايات كثير. وقد اقتصرنا على ذكـر هـذا القدر من المواقف كشاهد على صدق ما نقول. وكان دائما يقدم النصح والإرشاد للجنود المظفرين، فيقول لهم: "إن الموت لا بد أن يدرك كـل من حل أجله حيثما يكون؛ سواء أكان فى المنزل أم فى الطريق أم فى



الحرب أم فى الصيد. فما الداعى إذن إلى الخوف من العدو الذى يقف فى مواجهتنا؟! وحيث إن الموت حتمى لا مفر منه، فالأولى أن يرى الإنسان دمه؛ لأن الدم المختفى فى البدن يتعفن، ولا يؤدى إلا إلى العفونة. وكما تكون حمرة الوجه زينة النساء يكون الدم زينة الرجال، وتبقى السمعة الطيبة فى الدنيا لمثل هؤلاء الأشخاص، ويدخلون الجنة فى الآخرة. وكل من يموت فى المنزل، تمل زوجته وأولاده طول مرضه ورعايته ويصير محتقرا ومبغوضا لدى الأعزاء الآخرين. أما إذا مات فى الحرب، فإنه يكون بعيدا عن هذه الأمور، ويبكى عليه الأحباب بحرقة وتفجع، ويعز سلطان العصر أعقابه ويواسيهم ويربى أولاده ويرعاهم، فيزداد بذلك إصلاح شأنهم.

وقال لهم أيضا: عندما يعزم الجيش على شن هجوم على الأعداء ينبغى أن يحرص على إخفاء الخبر عنهم، حتى لا يتسرب إليهم، وأن يعد الخيول، ويواصل سيره ليلاً ونهارا بحيث يصل فجأة كى يشتبك بالعدو، ويحسم أمره معه. وإذا كان على الجنود أن يشنوا حملة كل سنة، فإنه ينبغى عليهم أن يحرصوا على السير فى أوقات مختلفة، وإلا فإنهم لو حددوا موعدا معينًا، فإن العدو يتخذ حذره ويتدارك أمره. وكذلك ينبغى بذل الجهود فى أن يسلكوا طريقًا مغايرا فى كل مرة، حتى لا يحيط العدو علما به. ولكن ينبغى أن يكون الأدلاء والمرشدون من الثقات. وإذا سار جيش كبير، فإنه كلما أشاعوا عنه أخبارا أكثر،

فإن ذلك يكون أفضل. وينبغى أن يبطئ الجنود فى الحرب؛ لأن الجيش الكبير لا يستطيع الزحف بسرعة. ومن المسلم به أن العـدو إذا علـم بتحركاتنا، فإنه يشغل بتدبير جيشه وإعـداده منتظـرا المواجهـة. ولا يجوز الاعتماد على كثرة الجنود أو قلتهم حتى يسرعوا؛ لأن النصر لا يمكن التنبؤ به. أما إذا تأنوا فى السير، وأذاعوا الأخبار المروعة؛ فإن الأعداء يفزعون منها، ويقع الاضطراب بينهم، ويـدب الخـلاف فـى صفوفهم **[ص٤٠٤]** أو يداهمهم عدو من ناحية أخرى، أو تسرى بينهم إشاعة مغرضة، أو أنهم يعجزون عن مواصلة القتـال لنفـاد العلـف والمؤونة. وعند التصميم على مثل هذه العزيمة ينبغى أن يحتاط الجنود قبل إذاعة الأخبار وذلك بتوفير الماء والعلف ونتاج الصيد، وأن يتوقفوا فى مثل هذه الأماكن التى تتوافر فيها هذه الأمور، وألا يؤكـل العلـف الذى أعد ليوم الحاجة فى المواضع الجدباء. وينبغى إرسال الجواسيس بصفة مستمرة للاطلاع على أحوال العدو. وبعد الاطلاع توضع كـل الأفكار والخطط والأعمال على أساس سليم؛ لأن التصـرف الـذى لا يقوم على أساس من الاطلاع والمعرفة يكون كالملاكمة فى الظلام.

ثم توجه إلى جنوده قائلاً: بعد الاحتياط التام ينبغى أن يكـون إمـا الدخول فى المعركة أو الانصراف عنها، وذلك يكون مرتبطًا باختياركم لا باختيار العدو؛ لأنكم إذا كنتم مجبرين وتعجلتم الأمر دون توقـف أو روية، فإن العدو يصل فجأة ويباغتكم فيسوء موقفكم. وعندئـذ يتحـتم

عليكم خوض المعركة والقتال مضطرين. أما العدو فيكون فى موقـف أفضل.

وصفوة القول أن العامل الأساسى هو تنظيم الجيش، وعدم السـماح لأى جندى بالتحرك من مكانه دون إذن؛ لأنه قد ثبت بالتجربة أن العدو ينتهز الفرصة، ويأخذ زمام المبادرة فيتغلب عليكم. والشرط المهم هـو ألا يدع القائد أحدا بصورة قاطعة يسير حسـب هـواه إلـى القـرى والمواضع العامرة، ويسلب منها شيئًا؛ لأن الجنود إذا تعودوا على ذلك؛ فإنه لا يمكن منع أفراد الجيوش الجرارة من تلك المحاولـة، ويتعـذر التنظيم والتنسيق. ولهذا السبب يشغل الجنـود وقـت الحـرب بجمـع الأسلاب والغنائم فى وقت غير مناسب ولا يمكن منعهم. وكل السيئات التى أصابت الجيوش، إنما كان أكثرها راجعا إلـى الاسـتيلاء علـى الغنائم عندما تنتهى المعركة. وإذن فعلى القائد أن يعرف جيـدا أيـن تذهب الأسلاب والغنائم. ولا ينبغى التراجع عن توقيـع العقوبـة ولا التردد عن القتل والسفك؛ لأن القواد إذا امتنعوا عن قتل شخصـين أو ثلاثة، فسوف يهلك عشرة آلاف وعشرون ألف رجل فى مقابـل هـذه القلة ويتبع ذلك ضياع الملك أيضا.

وفى حالة مغادرة الجنود قواعدهم، ينبغى أن يتوجهوا دائمـا بنيـة طيبة، وأن يشتغلوا بذكر ا تعالى، وأن يطهروا أنفسهم، فلا يرتكبـوا أفعالاً سيئة، وأن يكونوا محبين لموطنيهم ووطنهم، وألا يظلموا أحـدا

حتى يثق الناس بهم، ويبذلوا هممهم الطيبة فى سـبيلهم ويـدعوا لهـم بتضرع فيستجاب لهم؛ إذ إنه ليس للجند ذخيرة **[ص٤٠٥]** قط أفضـل من دعاء الخير والهمة الطيبة. وينبغى ألا يبالغوا فى القول، وألا يدعوا سبيلاً إلى الكبر والزهو بأنفسهم وألا يحتقروا العدو، ولكن لا يخشـوه أيضا، وأن يعدوا أنفسهم ضعفاء، وأن يعظموا ا تعالى ويخشوه حتى يصح تفكيرهم وتنتظم أمورهم، ويتأكدوا من أن كل من يقول كلاما فيه كبرياء واستعلاء، ويفكر على هذا الأساس، فإن الحق تعالى يعلو عليه بكبريائه؛ لأن العظمة خليقة با وحده، وهو يريد أن يتساوى مـع ا . وكل من يتساوى مع ا ، يخذله ا ويمد الآخرين بعونه، ويهينه هـو. وهذا أمر يسير على قدرة ا تعالى، فيقهره بصورة لا تخطر على بال أى بطل عادل كفء.

وعلى هذا المنوال كان السلطان ينصـح دائمـا جماعـة الأمـراء والجنود، وظل ينصحهم، بل إنه تحدث إليهم بكلام كثير أدق من هذا لم يبق فى الذاكرة، ولربما يؤدى ذلك أيضا إلى التطويل لو رحنا نشـرح ما قاله. وحيث إن المقصود هو إيراد شواهد وأمثلة، يكون هذا القـدر كافيا. وإن الزوائد والإضافات معلومة ومحققة لدى الجميع.

أدام الحق تعالى أبد الدهر هذا الحارس للدنيا وسيد العالمين وراعى الرعايا والجند.

الحكاية العاشرة

فى نصح سلطان الإسلام القضاة والمشايخ

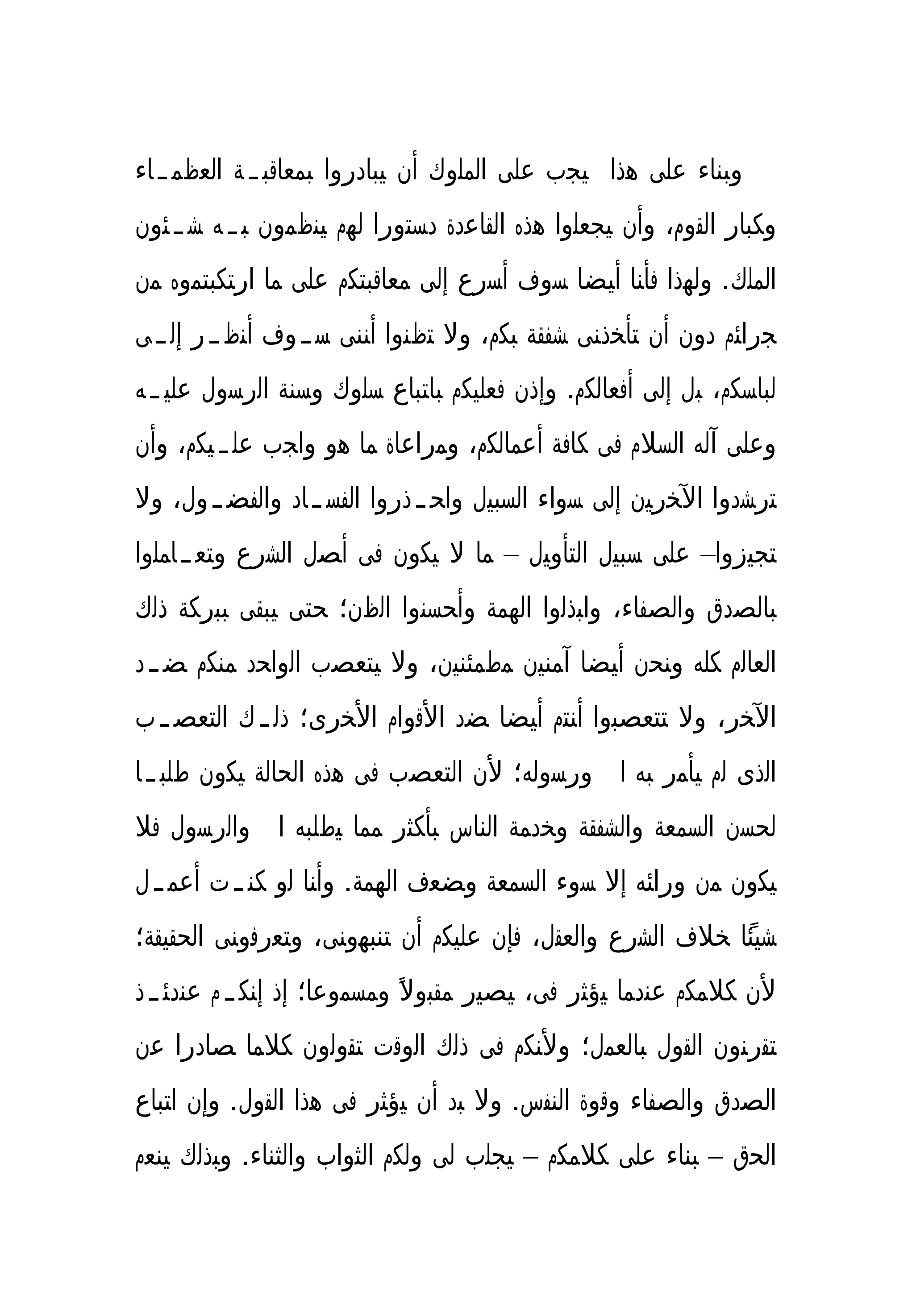
والزهاد وأهل العلم والتقوى

فى كل وقت كانت تصل الطوائف المذكورة إلى الحضـرة، كـان السلطان يسدى إليهم مختلف النصائح. لكنه عنـدما حضـر العظمـاء وكبار الشخصيات، مجلس الشورى (القوريلتاى)، ومثلوا بين يديه، قال لهم: أنتم ارتديتم لباس الرياء، وهذه مسألة خطيرة لأنكم بهذا التظـاهر قد لا تخادعون الخلق، وإنما تخادعون الله، ويمكـن أن يسـلم الخلـق بادعائكم وريائكم عدة أيام **[ص٤٠٦]**؛ لأنهم لا يكونون مطلعين علـى حقيقة ما تضمرون. لكن الله تعالى مطلع على ضمائركم، ولا يؤثر فيه التزوير والتلبيس، ويغضب عليكم، ويجازيكم أيضا فى الدنيا. وأما فى الآخرة فإنه من المقرر والمؤكد أن كل من يرتـدى لبـاس الريـاء أو التلبيس يكشف الله عيوبه بين الخلق، وتسوء سمعته ويصير خجلاً من الناس، ويبدو بينهم حقيرا وممتهنا، ويكون دائما أضـحوكة الخـواص والعوام.

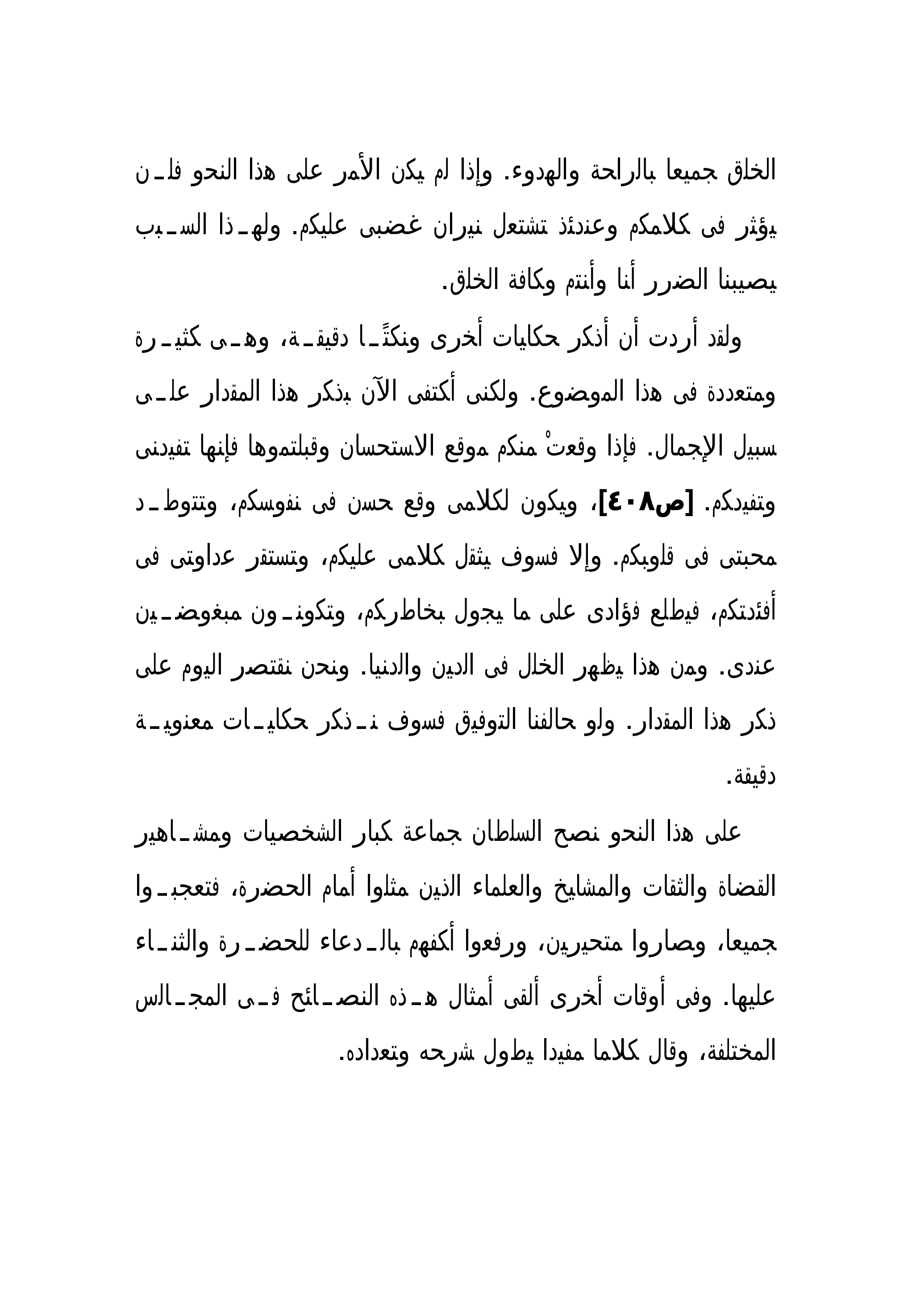
أما أولئك الذين لا يرتدون لباس الرياء، ويسـلكون سـلوكًا أمينـا وصادقًا، ولا يميزون أنفسهم عن الآخرين، وليس لـديهم تفكيـر فـى

السيطرة والرئاسة، ولا يدعون الزهد والتواضع؛ فإنه ليس لأحد اعتراض عليهم، ولا يتوقع أحد منهم حياة لا تتناسب مع ظاهرهم.

وأما قولنا: إنكم ارتديتم زى العدالة، فإن معنى ذلك أنكم مثل غيركم من البشر، ولكن بواسطة هذا الزى اكتسبتم اسما عظيما. وتحت هذا الاسم هناك عدة معان خاصة لا توجد فى الآخرين، وأنتم أنفسكم قبلتم هذا الاسم والمعنى، وتعهدتم وتكفلتم بأداء الحقوق وتقولون: نحن كذا كذا، وسوف نفعل كذا كذا. والآن فكروا جيدا فيما أقول: إذا كنتم تستطيعون عدم الخروج من عهدة هذا العهد والميثاق والعدالة التى تلازم هذا اللباس، وأن تكونوا عند كلمتكم، فإن هذا يكون حسنًا جدا وممدوحا، وتسمو منزلتكم، وتكونون أفضل من الآخرين عند الخالق والخلائق. وإلا فسوف تؤدى النتيجة إلى الخجل من ا والخلق، وبمحض اختياركم أو رغم أنفكم تكونون قد جلبتم على أنفسكم تلك المتاعب والمشقات. وتأكدوا من أن الحق تعالى قد وهب لى الملك بسبب ذلك، وفوض إلى رئاسة الخلق، كى أدبر أمورهم، وأقيم بينهم العدل والمساواة. وقد أوجب على أن أقول الحق وأعمل به، وأن أجازى المجرمين جزاء وفاقا.**[ص٣٠٧]** وقد اقتضى حكم ا منذ الأزل أن يكون عقاب الخاصة أزيد وأعنف. ولهذا السبب لا تؤاخذ البهائم على جرائمها.



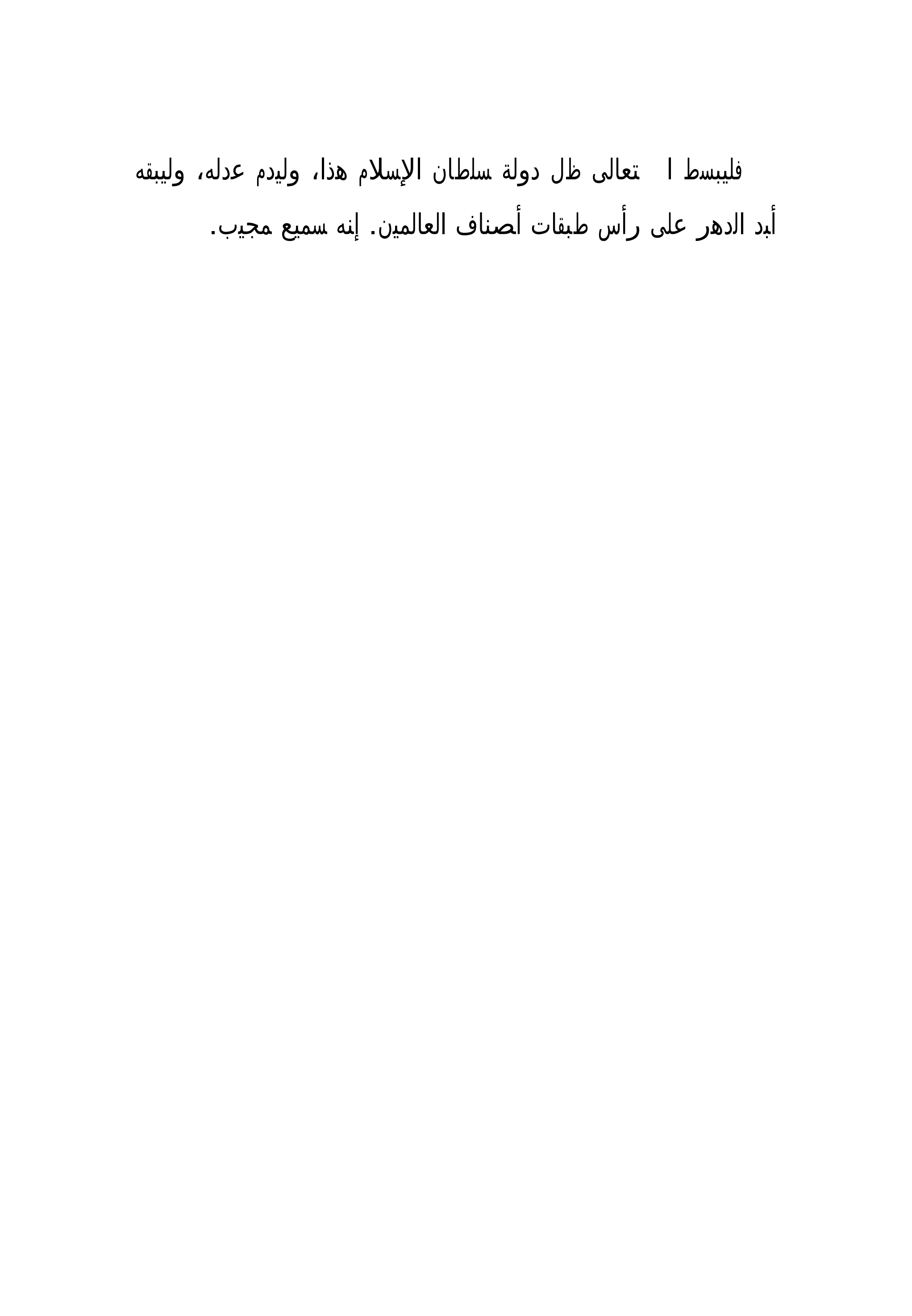
وبناء على هذا يجب على الملوك أن يبادروا بمعاقبة العظماء وكبار القوم، وأن يجعلوا هذه القاعدة دستورا لهم ينظمون به شئون الملك. ولهذا فأنا أيضا سوف أسرع إلى معاقبتكم على ما ارتكبتموه من جرائم دون أن تأخذنى شفقة بكم، ولا تظنوا أننى سوف أنظر إلى لباسكم، بل إلى أفعالكم. وإذن فعليكم باتباع سلوك وسنة الرسول عليه وعلى آله السلام فى كافة أعمالكم، ومراعاة ما هو واجب عليكم، وأن ترشدوا الآخرين إلى سواء السبيل واحذروا الفساد والفضول، ولا تجيزوا– على سبيل التأويل – ما لا يكون فى أصل الشرع وتعاملوا بالصدق والصفاء، وابذلوا الهمة وأحسنوا الظن؛ حتى يبقى ببركة ذلك العالم كله ونحن أيضا آمنين مطمئنين، ولا يتعصب الواحد منكم ضد الآخر، ولا تتعصبوا أنتم أيضا ضد الأقوام الأخرى؛ ذلك التعصب الذى لم يأمر به ا ورسوله؛ لأن التعصب فى هذه الحالة يكون طلبا لحسن السمعة والشفقة وخدمة الناس بأكثر مما يطلبه ا والرسول فلا يكون من ورائه إلا سوء السمعة وضعف الهمة. وأنا لو كنت أعمل شيئًا خلاف الشرع والعقل، فإن عليكم أن تنبهونى، وتعرفونى الحقيقة؛ لأن كلامكم عندما يؤثر فى، يصير مقبولاً ومسموعا؛ إذ إنكم عندئذ تقرنون القول بالعمل؛ ولأنكم فى ذلك الوقت تقولون كلاما صادرا عن الصدق والصفاء وقوة النفس. ولا بد أن يؤثر فى هذا القول. وإن اتباع الحق – بناء على كلامكم – يجاب لى ولكم الثواب والثناء. وبذلك ينعم



الخلق جميعا بالراحة والهدوء. وإذا لم يكن الأمر على هذا النحو فلن يؤثر فى كلامكم وعندئذ تشتعل نيران غضبى عليكم. ولهذا السبب يصيبنا الضرر أنا وأنتم وكافة الخلق.

ولقد أردت أن أذكر حكايات أخرى ونكتًا دقيقة، وهى كثيرة ومتعددة فى هذا الموضوع. ولكنى أكتفى الآن بذكر هذا المقدار على سبيل الإجمال. فإذا وقعتْ منكم موقع الاستحسان وقبلتموها فإنها تفيدنى وتفيدكم. **[ص٤٠٨]**، ويكون لكلامى وقع حسن فى نفوسكم، وتتوطد محبتى فى قلوبكم. وإلا فسوف يثقل كلامى عليكم، وتستقر عداوتى فى أفئدتكم، فيطلع فؤادى على ما يجول بخاطركم، وتكونون مبغوضين عندى. ومن هذا يظهر الخلل فى الدين والدنيا. ونحن نقتصر اليوم على ذكر هذا المقدار. ولو حالفنا التوفيق فسوف نذكر حكايات معنوية دقيقة.

على هذا النحو نصح السلطان جماعة كبار الشخصيات ومشاهير القضاة والثقات والمشايخ والعلماء الذين مثلوا أمام الحضرة، فتعجبوا جميعا، وصاروا متحيرين، ورفعوا أكفهم بالدعاء للحضرة والثناء عليها. وفى أوقات أخرى ألقى أمثال هذه النصائح فى المجالس المختلفة، وقال كلاما مفيدا يطول شرحه وتعداده.



فليبسط ا تعالى ظل دولة سلطان الإسلام هذا، وليدم عدله، وليبقه أبد الدهر على رأس طبقات أصناف العالمين. إنه سميع مجيب.

الحكاية الحادية عشرة

فى منع سلطان الإسلام الجنود وغيرهم

من التفوه بكلمات الكفر

لما سمع سلطان الإسلام – خلد ملكه – أن بعض الجنود وغيـرهم كانوا يتباهون عندما يسيرون إلى ميادين القتال، ويتيسـر لهـم الفـتح والنصر، فيقولون: نحن فعلنا هذا وفعلنا ذلك. وقد تيسر تدبير المهـام العظيمة بواسطة فلان، وأن الشخص الفلانى أبدى ضروبا من الشجاعة والبطولة، وأن العدو هزم بسعى فلان. وعلى هـذا النحـو يرجعـون الأمور إلى كفاءتهم وشجاعتهم وبطولتهم. كما كانوا يتحـدثون بكـلام خطير، ويظهرون العجب والخيلاء. وكانوا أحيانًـا يعـودون– علـى العكس من ذلك – خاسرين غير موفقين، فيقولون: كان ذلك قضاء ا ؛ وإلا فقد سعينا **[ص٤٠٩]** وبذلنا الجهود الجبارة. وكثيرا ما كان يـدور هذا الكلام على ألسنة الخلق. وعلى هذا النمط كان يتحدث أيضا المغول والتازيك فى كل الشئون الجزئية؛ فوصلت هذه الحكايات مـرات إلـى السمع الأشرف، فلم يستسغها وراح بدافع غيرته على الدين يقـول: إن هذا الكلام كفر محض، وإن أكثر أعمالنا، وما يتعلـق بشـئون الجنـد وكافة الناس إنما تصاب بالخلل نتيجة شؤم مثل هذا الكلام، فيجـب أن

يدرك الجميع أن كل خير يصل إلينا وإلى الجند والخلائق الآخرين إنما هو مرتبط برحمة الحق تعالى وشفقته، وأن كل سوء وإخفاق إنما هـو نتيجة ذنوبهم وسيئاتهم. وإذن فلا ينبغى أن يتكلموا بـأى وجـه مـن الوجوه بكلام يتعلق بالعجب والكبر. وللحيلولة دون الوقوع فـى هـذا الخطأ أمر بأن يكتب فى هذا الشأن مرسوم بليغ أرسله إلى كل الـبلاد حيث جماهير المغول والتازيك، نص فيه على أن كل شخص يعتقـد - منذ الآن إلى ما بعد - فى الكلام السابق ويتفوه به، يكون مذنبا. وفـى الآخرة يكون مثواه النار. وينبغى أن يثق أن الحسنة من فضل ا ، وأن السيئة إنما هى نتيجة أفعاله المستهجنة[1].

ويجب على أصحاب البيوت أن يطعموا مما عندهم - كل شـخص يقصد ديارهم ويعدوا له هذا الطعام سواء قل أو كثر، وأن يسلكوا معه طريق المروءة، وأن يعاشروا الناس جميعا بالتواضع.

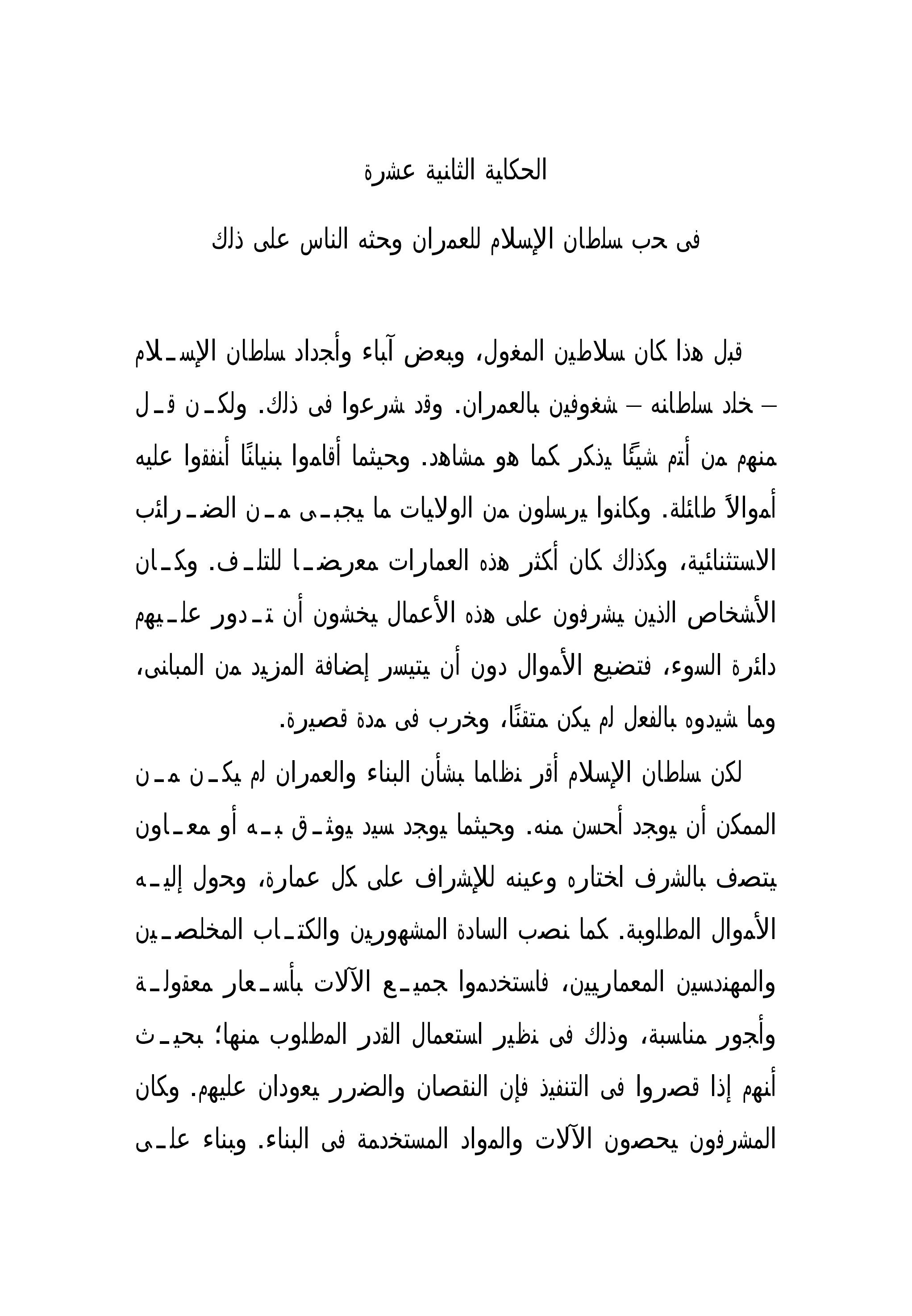
وبمقتضى هذا المرسوم الذى أصدرناه، كان على الذين يقصـدون بيوت الناس ألا يتخذوا هذا الأمر ذريعة لمطالبتهم بما يشـاءون؛ إذ إن ذلك متروك لمروءة أصحاب البيوت. وإذن فليس لهـم أن يطـالبوا أو يظنوا أن أحدا مكلف بتقديم شىء لهم، بل إن ذلك الأمر يتعلـق بمـا

---

(١) مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك وأرسلناك للناس رسولا وكفى بالله شهيدا﴾. (سورة النساء آية ٧٩).

يتصفون به من مروءة. وقد أرسل المرسوم بهذا المعنى، وأمـر بـأن ينادوا به فى كل البلاد.

وهكذا فى عهد سلطان الإسلام المبارك، عمت بركاته كافة الشئون. وبعون ا تعالى تكون فى ازدياد بمنه وكرمه.



الحكاية الثانية عشرة

فى حب سلطان الإسلام للعمران وحثه الناس على ذلك

قبل هذا كان سلاطين المغول، وبعض آباء وأجداد سلطان الإسلام – خلد سلطانه – شغوفين بالعمران. وقد شرعوا فى ذلك. ولكن قل منهم من أتم شيئًا يذكر كما هو مشاهد. وحيثما أقاموا بنيانًا أنفقوا عليه أموالاً طائلة. وكانوا يرسلون من الولايات ما يجبى من الضرائب الاستثنائية، وكذلك كان أكثر هذه العمارات معرضا للتلف. وكان الأشخاص الذين يشرفون على هذه الأعمال يخشون أن تدور عليهم دائرة السوء، فتضيع الأموال دون أن يتيسر إضافة المزيد من المبانى، وما شيدوه بالفعل لم يكن متقنًا، وخرب فى مدة قصيرة.

لكن سلطان الإسلام أقر نظاما بشأن البناء والعمران لم يكن من الممكن أن يوجد أحسن منه. وحيثما يوجد سيد يوثق به أو معاون يتصف بالشرف اختاره وعينه للإشراف على كل عمارة، وحول إليه الأموال المطلوبة. كما نصب السادة المشهورين والكتاب المخلصين والمهندسين المعماريين، فاستخدموا جميع الآلات بأسعار معقولة وأجور مناسبة، وذلك فى نظير استعمال القدر المطلوب منها؛ بحيث أنهم إذا قصروا فى التنفيذ فإن النقصان والضرر يعودان عليهم. وكان المشرفون يحصون الآلات والمواد المستخدمة فى البناء. وبناء على

هذا يحاسبون كل متعهد كاف بهذا العمل وهكذا سارت العملية بمنتهـى الدقة؛ بحيث إنهم لو أرادوا – حتى بعد مائة سنة أخرى – **[ص٤١١]** أن يراجعوا المبالغ والنفقات والاعتمادات المالية على حسابات الكتـاب والآلات التى استخدمت لاتضح على الفور الحق من الباطل وقطعا لن تكون هناك زيادة أو نقصان فى تلك الحسابات. ولن يوجد مجـال لأى نمام للطعن فى أعمال هؤلاء السادة والمهندسين. ولتنفيذ كل مشـروع نصب مشرفين أمناء حتى لا يجيزوا استخدام آلات غير صـالحة، أو ينقص العمال شيئًا من الجص والأسمنت ويخلطوهما بالرمـاد. وهـذا التدقيق والاحتياط إنما يكون فى دائرة اختصاصهم وضـمن عهـدتهم. وهناك مسألة أخرى هى أن كل المعدات من الخشب والحديد، سـلمت للمقاول بثمن محدد. كما قُررت جملة أنواعها والمطلـوب اسـتعماله منها.

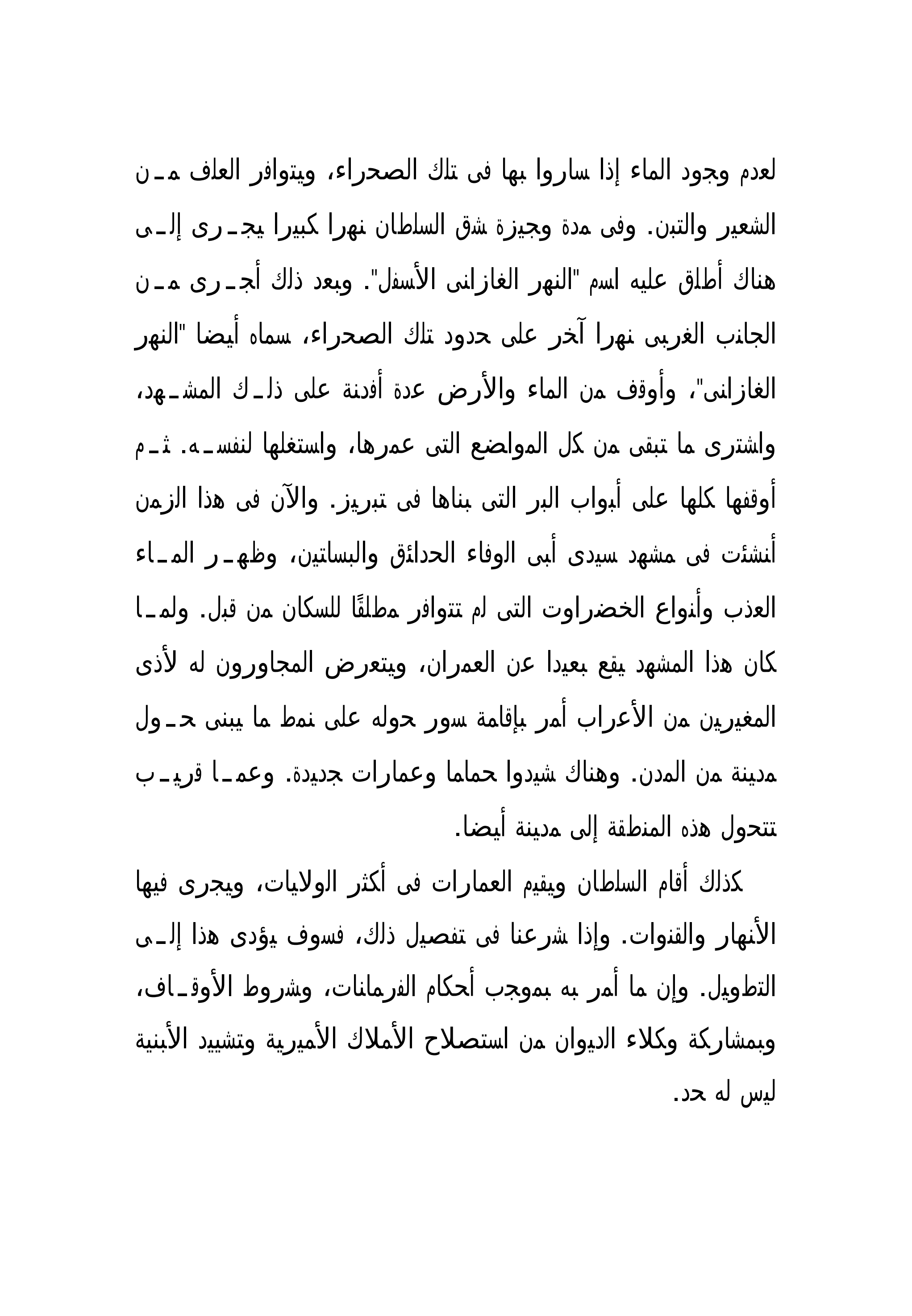
وهكذا راح السلطان يأمر بتشييد العمارات فى كل مدينـة وولايـة وصار يشق الأنهار والقنوات، ويجريها بالمياه. ومن جملتها وأعظمها نهر يتمثل فيه الخير التام والنفع العام. وهو نهر كبير للغايـة، أجـراه السلطان فى ولاية الحلة وأطلق عليه اسم "النهـر الغـازانى الأعلـى" وأوصل ذلك النهر إلى المشهد المقدس لأمير المؤمنين الحسين (رضى ا عنه)، وأجرى عذب الفرات إلى كل صحارى سهل كربلاء التـى كانت قاحلة، ولم يكن فى المشهد ماء عذب للشـرب. ونتيجـة لهـذا

صارت كل المناطق حول المشهد مزروعة فى هذا الزمان. كما أنهـم أنشأوا الحدائق والبساتين وتستطيع السفن القادمة من بغـداد والمـدن الآخرى الواقعة على ضفاف الفرات ودجلة الإبحار إلى المشهد، ويبلغ محصولها ما يقرب من مائة ألف "تغار"[1]. وهنـاك تنمـو الحبـوب وأنواع الخضر أحسن مما تنمو فى أى مكان من أعمال بغداد. ونتيجة لهذه الإصلاحات صار السادات المقيمون فى المشهد مرفهـى الحـال جدا. ولما كان هؤلاء أناسا فقراء، وعددهم كبيرا، وهم فى أمس الحاجة إلى المعونة، أمر بأن تكون لهم إدرارات تصرف سنويا.

وفى منطقة مشهد سيدى أبى الوفاء – رحمة ا عليـه **[ص٤١٢]** كانت هناك أيضا صحراء قاحلة، ولا يوجد فى المشـهد مـاء عـذب للشرب، فتصادف أن سلطان الإسلام – خلد ملكه – ذهب فى إحـدى السفن قاصدا الصيد فى تلك الصحراء، فلم يجد مرافقوه ماء للـدواب، فهزلت جدا، كما ضعفت حمر الوحش والغزلان بسبب عدم وجود الماء والعلف فأمر بأن يشقوا نهرا من الفرات يجرى إلى هناك كى يتـوافر الماء، ويكثر الزرع فى ذلك المشـهد أيضـا، وتسـتريح الحيوانـات الصحراوية كذلك. وبالإضافة إلى هذا لا يعترى الدواب التعب والمشقة

---

(١) وحدة من وحدات الوزن يستعمل أكثر للغلال ويساوى مائة مَنٍّ تبريزى (٢٩٥ كيلو جرام). وتأتى هذه الكلمة أيضًا بمعنى الضرائب العينية التى تحصل من الرعايا، وتنفق على العلف الخاص بالجيش "آذوقة" (انظر تحرير تاريخ وصاف به قلم عبد المحمد آيتى، ص٣٧٨، تهران ١٣٤٦ هـ.ش).



لعدم وجود الماء إذا ساروا بها فى تلك الصحراء، ويتوافر العلف من الشعير والتبن. وفى مدة وجيزة شق السلطان نهرا كبيرا يجرى إلى هناك أطلق عليه اسم "النهر الغازانى الأسفل". وبعد ذلك أجرى من الجانب الغربى نهرا آخر على حدود تلك الصحراء، سماه أيضا "النهر الغازانى"، وأوقف من الماء والأرض عدة أفدنة على ذلك المشهد، واشترى ما تبقى من كل المواضع التى عمرها، واستغلها لنفسه. ثم أوقفها كلها على أبواب البر التى بناها فى تبريز. والآن فى هذا الزمن أنشئت فى مشهد سيدى أبى الوفاء الحدائق والبساتين، وظهر الماء العذب وأنواع الخضراوت التى لم تتوافر مطلقًا للسكان من قبل. ولما كان هذا المشهد يقع بعيدا عن العمران، ويتعرض المجاورون له لأذى المغيرين من الأعراب أمر بإقامة سور حوله على نمط ما يبنى حول مدينة من المدن. وهناك شيدوا حماما وعمارات جديدة. وعما قريب تتحول هذه المنطقة إلى مدينة أيضا.

كذلك أقام السلطان ويقيم العمارات فى أكثر الولايات، ويجرى فيها الأنهار والقنوات. وإذا شرعنا فى تفصيل ذلك، فسوف يؤدى هذا إلى التطويل. وإن ما أمر به بموجب أحكام الفرمانات، وشروط الأوقاف، وبمشاركة وكلاء الديوان من استصلاح الأملاك الأميرية وتشييد الأبنية ليس له حد.

وفى عهده المبارك، ونتيجة لعدله الشامل، سارعت الآلاف المؤلفة من الناس إلى مشاركته، وشغلوا بتشييد المبانى، حتى أن ما أقاموه هم أنفسهم يزيد مائة مرة على ما أقامه السلطان بنفسه. وكـل بسـتان أو دار، كان ثمنه قبل هذا مائة دينار، أصبح فى الوقت الحالى يساوى ألف دينار. وهذا على حين أنهم قبل هذا **[ص٤١٣]** كـانوا يعمـدون إلـى التخريب أكثر مما يعملون فى التعمير. وفى الحقيقة إن العمارات التى تنشأ الآن فى البلاد، لم ينشئ مثلها ملك قط بعد عهد الأكاسرة. ومـن العجيب أنه إذا كان الناس فى عهد الأكاسرة قد شغلوا أيضا بـالتعمير بهذا القدر فإن البلاد كانت عامرة تماما فى ذلك الوقـت. ومـع هـذا عمرت خلال سنوات عديدة. وحيث إنه أيضا فى ذلك الوقت، لم يكـن موجودا مثل هذا الخراب الموجود حاليا، فـأى عمـارات إذن كـانوا مشغولين بتشييدها فى تلك الأيام؟!

أما مدينة تبريز التى هى الآن عاصمة البلاد، فقد كان لهـا سـور صغير اندرس أيضا وتوجد خارج المدينة منازل وعمارت كثيرة، فقال السلطان: كيف يجوز أن مدينة يسكنها الآلاف العديدة من الناس، وهى فى الوقت نفسه دار الملك، ولا يبنى لها سور؟! وعلى الفـور أشـار باتخاذ الإجراءات حتى يمكن تحديد المكان والكيفية التـى يبنـى بهـا السور.

ولما كانت الحدائق والبساتين تتصل بالمدينة، كان من الضـروري أن يقع بناء السور بين أملاك الناس المعمورة. وهنا عرض مستشـارو السلطان قائلين: حيث إن السكان فى تبريز من الغرباء والمقيمين الذين لا حصر لهم، وأكثرهم من الأثرياء، يقسم السور إلى أقسام حتى تتكفل كل طائفة بإقامة قسم منه على نفقتها فى مدة سنتين أو ثلاث سـنوات. فقال سلطان الإسلام – خلد ملكه – مدفوعا بهمته العالية وكمال رحمته وشفقته: كيف يليق أن تخرب أكثر عمارات الناس، ويصيبهم الضرر، ومع هذا نجبرهم على إنجاز عمل خير نشير به؟! ثم إنهم لـم يكونـوا يظنون أنه فى الوقت الذى كانوا يشيدون فيه مدينة تبريز قد آل أمرها إلى حد أن آلافًا عديدة من المنازل قد شيدت خارج السور. وفى هـذه المدة الوجيزة لوحظ أن جميع الناس قد ازدادوا كثيرا، فأقـاموا هـذه العمارات خارج المدينة، وسوف يصيرون كثرة هائلة، فينبغى أن نبذل همة عالية، ونقيم هذا السور؛ بحيث تقع كل حدائق الناس وبيوتهم داخل نطاق المدينة؛ حتى لا يضطروا إلى تخريب الحـدائق وحتـى ترتفـع أثمانها كلها فيحصل لنا الأجر والمثوبة. ويمكن كذلك بـيمن التوفيـق الإلهى أن يزداد عدد السكان بمرور الزمن بحيث يؤول الأمر إلـى أن يبنوا **[ص٤١٤]** بيوتًا فى المنطقة التى يحيط بها السور بأكمله فيتصل بعضها ببعض، ولا يضيق المكان على الناس؛ إذ إنه من المجـرب أن بعض المدن التى ينعم ا عليها بثروة طائلة، يضيق الموقع بالنـاس

بسبب كثرتهم، فيجعلون عماراتهم مكونة من طابقين أو ثلاثة طوابـق، وتضيق الأزقة، وترتفع الجدران، ويفسد الهواء. ولهذا السبب يظهـر الوباء، وتنتشر الأمراض المتنوعة، فتخرب المدن مرة أخـرى مثـل مدينة خوارزم. ووفق هذا الترتيب أمر السلطان بتشييد السور خـارج الحدائق.

وعما قالوه من أن سكان المدينة يدفعون نفقات بناء السور، صـرح السلطان بقوله: رغم أن فائدة بناء السور تعود علـيهم أنفسـهم؛ لكـن الرعايا والعوام يكونون قصيرى النظر، ولا يستطيعون إدراك عواقب الأمور، ومآل الأحوال. وعلى أى حال فإنه من العسير عليهم تسـديد النفقات. وهذا عمل خيرى، فلندع نحن النفقات من أموالنـا الخاصـة، ولنشيد السور حتى يبقى الثواب وحسن الذكر ذخيرة لنـا، ويسـتريح الخلق والرعايا، ولا يحتك بهم أحد بسبب هذه المطالبة. ثم أصدر أمره بتنفيذ هذا القرار. وقد أمضوا عامين منذ البدء فى بناء هـذا السـور. وسوف يتم هذا كله خلال هذه السنة إن شاء ا .

كذلك بنى السلطان مدينة أخرى أكبر من ساحة تبريز القديمة فـى موضع "شنب" ويقال له أيضا "شم" حيث توجد منطقة أبواب البر التـى تحيط حدائقها بالمدينة. وقد أطلق السلطان علـى هـذه المدينـة اسـم "الغازانية"، وأمر بأن ينزل فيها التجار الذين يصلون إليها من الـروم والإفرنج. وهناك يفرغون أحمالهم. كما أمر بأن تكون المكـوس فـى

المدينة الجديدة هى نفسها السارية فى مدينة تبريز حتى لا يقع اختلاف. ثم أمر بأن يبنى على كل بوابة من البوابات الجديدة فى تبريز "خـان" كبير وأربع أسواق وحمام ومصانع، واصطبل للدواب حتى يدخل جميع التجار الذين يفدون من الجهات المختلفة، كل طائفة منهم من البوابـة المخصصة لهم، وينزلون فى الرباط وعلى مشرف المكوس أن يسجل ما معهم من بضائع. وبعد ذلك يدخلون الحمام. ثم يذهبون إلى المدينة، حتى يراجع مشرف المكوس ما معهم مـن أحمـال. **[ص٤١٥]** ثـم يغادرون هذا المكان. وعلى هذا النحو أقام السلطان فى البلاد العمارات الكثيرة من كل نوع، ولا يزال يبنى ويشيد.

مسألة أخرى هى أن السلطان أمر بأن يجلبوا من كل مكان أنـواع الأشجار المثمرة والرياحين والحبوب التى لم تكن فى تبريز ولم يرهـا أحد هناك مطلقًا. وقد طعموا فسائلها وفروعها. كما أحضروا بذورها، واشتغلوا بغرسها وإنمائها فى تبريز؛ فنمت وازدهرت وسـوف تـؤتى ثمارها يوما بعد يوم. وهى أكثر من أن تحصى. والناس ينتفعون بهـا ويلهجون بالدعاء للدولة القاهرة – ثبتها ا – كذلك أرسـل السـلطان الرسل إلى كل الولايات البعيدة من ممالك الهند والخطا وغيرهما لجلب بذور الزراعات المختصة بتلك البلاد.

فليمتعه ا بطول العمر ودوام الملك.

الحكاية الثالثة عشرة

أبواب الـ الـ أنشأها سلطان الإسلام

في تبريز وهمذان والبلاد الأخرى

والأوقاف التي وقفها وتنظيم هذه المنشآت

جرت رسوم المغول وعاداتهم منذ عهد جنكيز خان حتـى الآن أن تكون قبورهم في مواضع مجهولة بعيدة عن العمران؛ بحيث لا يكـون لأي مخلوق علم بها. وكانوا يخلون ما حولها، ويعهدون إلـى الثقـات بالاشراف عليها؛ حتى لا يدعوا أحدا قط يقترب منها.

فلما أسلم السلطان، وسما بشئون الدين وأوصلها إلى نجم العيـوق، قال: ولو أن هذه هي عادة آبائنا، وحتى لو اعتنـق أحـدهم الإسـلام، ويريد ألا يكون قبره معلوما، فإنه لا يخالف الدين بتصرفه هذا. لكـن ليست هناك فائدة أيضا من وراء ذلك. وحيث إننـا اعتنقنـا الإسـلام، **[ص٤١٦]** ينبغي أن يكون شعارنا كذلك مطابقًا لطريقة المسلمين؛ ولا سيما أن الرسوم الإسلامية أفضل بكثير من تلك العادات.

وفي بادئ الأمر ذهب السلطان إلى خراسان وقصد طوس لزيـارة المشهد المقدس رضي ا عن ساكنه، وزار كذلك مقابر السلطان بايزيد وأبي الحسن الخرقاني والشيخ أبي سعيد ابن أبي الخير وغيـرهم مـن

الأولياء هناك. روح الله رموسهم، وشاهد الأضرحة فى تلـك البقـاع، وتفقد أحوال المجاورين لها. وبعد دخوله فى الإسلام، تشرف بزيـارة المشهد المقدس لأمير المؤمنين "على" – رضى الله عنه – والمشـاهد الأخرى ومزارات الأولياء – قدس الله أرواحهم، وذلك فى بغداد. وذات يوم صرح قائلاً: إن من مات على هذا النحو، ومشهده ومزاره علـى هذه الوتيرة، كيف يمكن أن نعده من الأموات؟! والحال أن موته هـذا أفضل من حياة الآخرين. ومع أنه ليست لنا مرتبة الصـالحين، ولكـن تشبها بهم عمدنا إلى إنشاء أبواب البر كى تكون مثوى لآخرتنا. وبذلك تصير لنا خيرات وصدقات جارية. وببركات تلك الخيرات تأخذ بيـدنا رحمة الله تعالى، ويدخر لنا ثواب دائم. وإنه من المفضل إلى أقصـى حد أن نسرع فى إنجاز هذه المؤسسات فى الوقت الذى منحنـا الحـق تعالى القدرة، وهيأ لنا الفرصة حتى تتم هذه الأعمال بيمن التوفيق.

ولما كان السلطان مقيما فى حاضرة ملكه تبريز، اختـار أن يبنـى قبره هناك خارج المدينة فى الجانب الغربى فى موضع "شنب". والآن وهم مشغولون – منذ عدة سنوات – ببناء هذا القبر[1] الذى تعلوه قبـة

---

(١) كانت عادة المغول منذ عهد جنكيز خان إلى ما قبل غازان خان – أن يخفوا مواضع قبورهم، ويقيموها بعيدة عن العمران؛ بحيث تظل سرًا مخفيًا على الناس. ولكن لما اعتنق غازان الإسلام، حرص على أن يقيم شعائره، ورأى قبور الأئمة والأولياء ظاهرة واضحة تبدو عليها العظمة والعبرة والدعوة إلى التأسى بسيرة السلف الصالح؛ فكان بذلك أول سلطان من سلاطين المغول يدفن فى مقبرة ظاهرة (انظر حمد الله المستوفى القزوينى: تاريخ كزيده، باهتمام دكتر عبد الحسين نوائى، ص٦٠٦، تهران ١٣٣٩ هـ.ش).

أفخم من قبة السلطان سنجر السلجوقى فى مرو التى كانت تعد أعظـم عمارة فى العالم. وكان قد شاهدها بنفسه. وإن تصـميم تلـك البقعـة الشريفة ليبدو على هذا النحو الذى نسجله ونفصله فيما يأتى:

نفقات أوقاف أبواب البر المذكورة وسائر الخيرات
والمبرات التى تُعد من ملحقاتها
بموجب شروط الواقف غازان خان تقبل ا منه
حسب تفصيلات الوقفية المباركة، وذلك بطريق الإجمال

حرف

ما يتعلق بالقبة العالية وسائر أبواب ال

التى تحيط بها

(١) القبة العالية

إضافات	**مرتبات**
الفرش والتخطيط وثمن الشمع المذاب والعطر، وتهيئة الحلوى فى ليالى الجمع باسم الحفاظ.	المرتزقة من الحفاظ والعمال.



(٢) المسجد الجامع

إضافات

الفرش والتخطيط، وثمن الشمع المذاب والعطر.

مرتبات

المرتزقة من الخطباء والأئمة والوعاظ والمؤذنين والمكبرين والعمال.

(٣) مدارس الشافعية والحنفية

إضافات

الفرش والتخطيط ونفقات الإضاءة والعطر، والمعدات الخزفية وغيرها.

مرتبات

المرتزقة من المدرسين والمعيدين والفقهاء والعلماء.

(٤) الخانقاه

إضافات

الفرش والتخطيط، وأدوات المطبخ، ونفقات الإضاءة والعطر.

مصالح

طعام الإفطار والعشاء، والحفلات العامة بواقع مرتين فى الشهر.

جرايات

المرتزقة من المشايخ والأئمة والمتصوفة والمنشدين والخدم

صدقات

مخصصة للفقراء والمساكين لسداد ثمن الكرباس والأحذية وفراء الأكتاف.

وأصناف العمال الآخرين.



(٥) دار السيادة

إضافات

الفرش والتخطيط، وثمن الشمع المذاب والعطر.

وظيفة

مرتب المشرف الذى يقوم بمهمات دار السيادة، والذى يؤدى الخدمة للسادات بمقتضى شرط الواقف.

معاشات

السادة من النقباء المقيمين هناك. والسادات القادمين والذاهبين.

مرتبات

الخدم والطهاة والعمال الآخرين الذين يقيمون هناك.

(٦) المرصد

إضافات

الفرش والتخطيط، وثمن الشمع المذاب والبذور والعطر.

معاشات

المرتزقة من مدرسى العلوم الدينية والمعيدين والمتعلمين والخزنة والمناولين وسائر العمال.

إصلاح

وتـــــرميم الآلات وأدوات الساعات والمرصد، وتلك التى تصلح للاستعمال.

[ص٤١٩]

(٧) دار الشفاء

إضافات

الفرش والتخطيط، وثمن الشمع المـذاب والبـذور والعطـر والآلات الخزفية.

مصالح

الأدوية والأشربة والمعـاجين والمراهم والكحـل والحسـاء الخفيف وثياب النوم وملابـس المرضى.

مرتبات

المرتزقة من الأطباء والكحالين والجراحين والخزنـة والخـدم وسائر العمال.

تجهيز

الأموات الذين يتوفون هناك.

(٨) دار الكتب

إضافات

الفرش والتخطيط، وثمن الشمع

مصالح

إصـلاح الكتـب وترميمهـا،

المذاب.	وسداد ثمن الكتب الضرورية.

(٩) دار القضاء

إضافات	**مصالح**
الفرش والتخطيط، وثمن الشمع المذاب والبذور.	نفقات إعداد القوانين ونسخها وتجديدها.

(١٠) بيت المتولى

مرتب مخصص لأحد البوابين حسب ما هو مقرر.

[ص٤٢٠]

(١١) دورة المياه

مصالح	**جراية**
الشمع المذاب والبذور والعطر والأباريق والجرار والأباريق والدنان والأكواز.	مخصصة لفراش واحد قائم بالخدمة.

(١٢) حمام السبيل

مصالح	جرايات
المـــآزر والـــدلاء والعطـــر والمصـــابيح والمســـاحات والمجارف والحطـــب ووقـــود موقد الحمام.	العمال من الحمامى والـدلاك وحارس الملابس والوقّاد.

حرف

(١٣) ما يذكر من ملحقات وتوابع أبواب البر

مصالح	مصالح
الطعام الخارجى فى جوسـق العادلية الذى يقدم إلى أمـراء المغول والتازيك والأشـخاص الذين يجيئون إلى هناك إذ إنهم عند زيارتهم يقصـدون ذلـك الجوسق، ويأكلون هذا الطعام. ما يحتاج إليه الطعام الذى يصرف كـل يـوم، وإضـافة الفـــرش والتخطـــيط وأدوات المطبخ ولـوازم دار الشـراب	الوليمة التى يقيمها الواقـف – شكرا [ ] سعيه – كل سنة فـى اليوم الذى يحـدده بشـرط أن يجتمع المجاورون فى البقـاع المذكورة والأئمـة والأعيـان والمستحقون فى تبريز وغيرهم ممن يجيئون إلى هنا ويختمون القـرآن ويتنـاولون الطعـام ويعطون الصدقات المخصصة لذلك اليوم.

وثمن الشمع المذاب.

[ص٤٢١] جرايات	**ما يحتاج إليه صدقة**
العمال من الطهاة والمتعهدين بشراء ما يحتاج إليه، والسقاة والخزنة وبقية فئات العمال هناك.	الطعام المذكور الذى يصرف فى هذا اليوم.
مصالح	
الحلوى التى تقدم فى ليالى الجمعة برسم أهل المسجد والخانقاه والمدارس وملاجئ الأيتام، بالإضافة إلى ما تعين صرفه على حدة فى القبة العالية بمقتضى التفصيلات المنصوص عليها فى السجل.	

(١٤) نفقات العيدين

والأيام والليالى المباركة من عاشوراء وليلة القدر وغيرها

مدرسة

الأيتام البالغ عددهم دائما مائة يتيم يدرس لهم القرآن

وجوه الإنفاق	هدية
السنوية، وتقديم العيدية لمائة طفل يكونون قد حفظوا القرآن الكريم، ويعملون بالسنة، ثم يحضرون – بدلاً منهم – أشخاصا آخرين.	مائة مصحف جديد تشترى كل سنة.

مرتبات	إضافات
لخمسة معلمين وخمسة رقباء يلازمون الأطفال، وخمس من النسوة يقمن على رعايتهم.	الفرش وإعداد المكتب، وما تدعو الحاجة إليه.

[ص٤٢٢]

(١٥) للمستحقين

شراء ألفين من فراء الكتف المصنوع من فرو الخروف وذلك كل سنة، وتقديمها إلى المستحقين.

(١٦) الإشراف على تربية

الأطفال اللقطاء الذين يلقى بهم فى الطريق، فهؤلاء يؤخـذون وتـدفع أجور المرضعات وما يحتجن إليه حتى يبلغ هؤلاء الأطفال سن الرشد.

(١٧) تجهيز

ودفن الغرباء الذين يموتون فى تبريز، ولم يكونوا يملكون تركة تفى بدفنهم.

(١٨) الحبوب

التى تلتقطها أنواع الطيور فى أشهر الشتاء الستة عندما تشتد البـرودة وينزل الثلج، فينثر القمح والجاوَرس (الدخن) مناصفة على الأسطح ولا يصطاد أحد هذه الطيور. وكل من يقصدها بسوء، تحل عليه لعنة الحق تعالى وسخطه. وعلى المتولى وسكان تلك البقاع أن يمنعوا المعتـدين ويردعوهم، وإلا يكونوا آثمين.

(١٩) للأرامل



الفقيرات اللائى يصرف لهن القطن كل سنة، ليكون رأس مال لهن؛ على أن تمنح كل واحدة من الأرامل البالغ عددهن خمسـمائة أرملـة، أربعة أمنان من القطن المحلوج.

(٢٠) عوض

الأوانى الفخارية والكيزان التى يكسرها الغلمان والجوارى والأطفـال فينصب متولٍ أمين فى مدينة تبريز، حتى إذا ما أرادت تلك الفئة نقـل الماء، وانكسرت أوانيهم، ويخشون عقاب ساداتهم؛ فإن ذلـك المتـولى يعوضهم عنها بعد أن يتحرى الحقيقة.

[ص٤٢٣] (٢١) بخصوص

تنظيف الطرق من الأحجار، وإقامة القناطر على النهيرات ابتداء مـن مدينة تبريز إلى مسافة ثمانية فراسخ من المناطق والجوانب المحيطـة بها وذلك على النحو المفصل فى السجل.

(٢٢) مرتبات

النواب وعمال ديوان أوقاف البر المذكورة والمسماة "الأوقاف الخاصة" وذلك بموجب شرط الواقف خارج أعمال الولايات والمواضع.

(٢٣) نفقات

عمارة القبة العالية وأبواب البر بأضلاعها الاثنتى عشرة، وكذلك جوسق العادلية الذى أنشأه أرغون خان بموجب شروط الواقف المنصوص عليها فى الوقفية المباركة.

(٢٤) نفقات عمارة

أملاك الأوقاف، والتى أسبل زرعها من الضياع، والعقار والأراضى المستغلة المتعلقة بأبواب البر المذكورة فى كل ولايات الممالك، حيثما وجد شىء منها بمقتضى شرط الواقف.

وحيث إن الهمة المباركة قد اقتضت أن يستفيد أكثر أصناف الخلق من هذه الخيرات ومن أبواب البر كذلك حسب الشروط المعينة أوقف غازان على هذا كله ما كان يمتلكه شرعا؛ فهو حقه المطلق وملكه المطلق بطريقة لا يمكن أن تتيح مجالاً لأى طاعن للاعتراض عليها. وقد قطع بصحتها جميع المفتين وثقات العلماء الكبار وقضاة الإسلام. ثم أمر بكتابة سبع نسخ من تلك الوقفية، وتسجيلها كلها؛ بحيث تكون واحدة منها فى يد المتولى والثانية فى الكعبة والثالثة **[ص٤٢٤]** فى دار القضاء بدار الملك تبريز والرابعة فى دار القضاء بمدينة السلام بغداد. أما الخامسة والسادسة والسابعة فتحفظ فى السجلات. وبعد كل مدة يجدد الشهادة عليها قضاة بغداد وتبريز. وعلى كل قاض يتقلد منصب القضاء أن يبادر بتسجيلها فور جلوسه على مسند القضاء. ثم

أمر بأن يسكن ويتوطن أبواب البر المذكورة الجماعة الذين هم أفضـل وأكمل أهل العصر، وأن يظلوا ملازمين لها.

كذلك شيد السلطان "خانقاه" كبيرة فى ولاية همـذان علـى حـدود سفيدكوه فى قرية بوزينجرد، وأوقف عليها أوقافًا كثيرة؛ بحيـث إنـه صار المغادرون تلك الخانقاه أو القادمون إليها فى راحة تامـة بسـبب تمتعهم بتلك الخيرات كما يشاهد الجميع.

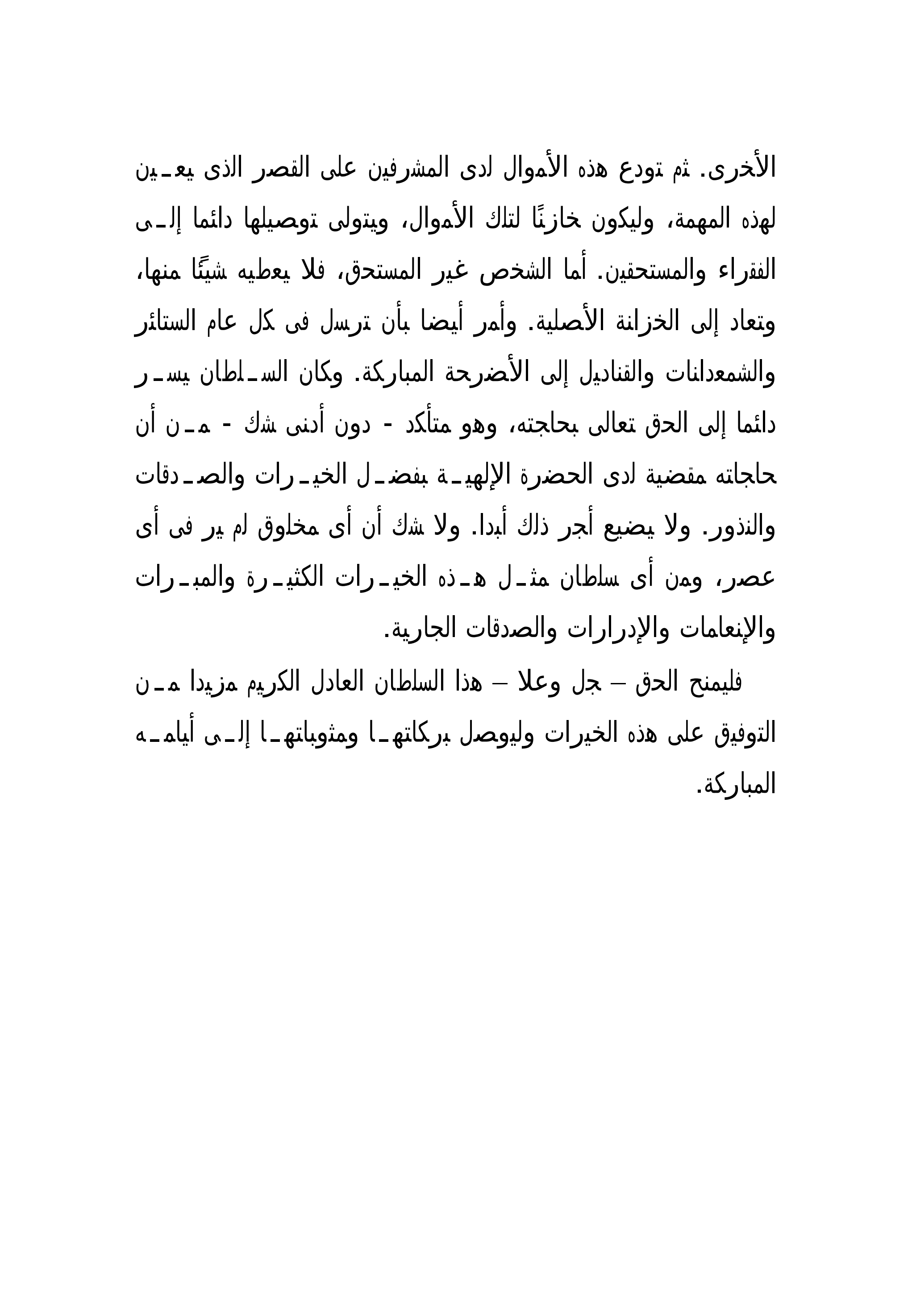
مأثرة أخرى للسلطان هى أنه فى كل ولاية حل بها، وراوده أمـل، وعن له مراد، ومسته حاجة مستترة، لجأ فى الحال إلى حضرة الحق، وأفضى إليه بسره، والتزم نذرا، وأدى صدقة. وعنـدما هـزم جـيش مصر، وجلس على عرش السلطنة فى دمشق، وفى بعدة نذور كان قد نذرها إبان زحفه على تلك البلاد، بعضها فى هذه الممالك، وبعضها فى تلك الممالك (أى ممالك إيران). وأحد هذه النذور كان لقبر سـيف ا خالد بن الوليد - رضى ا عنه - حيث دارت المعركـة فـى تلـك المنطقة وكان هذا النذر عبارة عن قناديل ذهبية ومعدات ومفروشـات سلمها أيضا إلى المشرفين على المقبرة.كذلك نذر نذرا آخر وذلك بـأن وقف عدة قرى من أعمال دمشق على بيت المقدس ومشـهد إبـراهيم الخليل صلوات ا عليه.

وقد لاحظ أن ملوك مصر والشام كانوا ينفقون ريع أوقاف الحرمين وسبيل الحجاج فى أغراض تتعلق بتصريف مصالح الجيش والـديوان

وكانوا يجيزون صرفها بفتاوى تأويلية، ولم يكن ذلك بجائز فى الحقيقة. ولهذا نذر أيضا أن تصرف أموال هذه الأوقاف فى الأغـراض التـى خصصت لها، وقال فى هذا الشأن: حيث إن الحق تعالى وهب لى هذا الملك، ينبغى أن يصرف ريع كل تلك الأوقاف والأراضى التى أسـبل زرعها فى وجهها الصحيح، وألا يصرف قطعا فى الإنفاق على الجيش والديوان. ثم صرح قائلاً: إن هذه المملكة تحت تصرفنا الآن. وعنـدما نعود **[ص٤٢٥]** سوف نترك جيشًا مجهزا تماما للمحافظة عليها. وإن نية الخير التى كنت قد أقدمت عليها، يجب أن تخرج إلى حيز التنفيذ.

ثم أصدر فرمانًا فيما يتعلق بأبواب البر هذه. وقد نذر فى هذه البلاد أن يصرف مبلغ عشرين تومانا من الأموال من ريع أملاكه الخاصـة، وذلك على سبيل الإدرار والوقف والصدقة والإنعام على جماعة مـن الأمراء والرعاع والشرفاء والأثرياء والفقراء والجند الذين يجتمعـون كل عام فى مجلس الشورى (القوريلتاى).

وبعد عودته وفى بذلك النذر، وخلع على كل طائفة وجماعة - على قدر مراتبهم - خلعا كانت عبارة عن أحزمة مرصعة وغير مرصـعة وملابس متنوعة. ونذر أيضا عشـرين تومانـا ذهبيـا علـى سـبيل الإدرارات والصدقات. ولا تزال هذه الصدقات تُصرف حتى الآن وتنفذ فى كل ولاية سنة بعد أخرى. وفضلاً عن ذلك أمر بأن يستقطع من كل الأموال التى يؤتى بها إلى الخزانة دينار واحد من كل عشرة دنـانير، وثوب من كل عشرة أثواب وعشر من كـل صـنف مـن الأصـناف



الأخرى. ثم تودع هذه الأموال لدى المشرفين على القصر الذى يعـين لهذه المهمة، وليكون خازنًا لتلك الأموال، ويتولى توصيلها دائما إلـى الفقراء والمستحقين. أما الشخص غير المستحق، فلا يعطيه شيئًا منها، وتعاد إلى الخزانة الأصلية. وأمر أيضا بأن ترسل فى كل عام الستائر والشمعدانات والقناديل إلى الأضرحة المباركة. وكان السـلطان يسـر دائما إلى الحق تعالى بحاجته، وهو متأكد - دون أدنى شك - مـن أن حاجاته مقضية لدى الحضرة الإلهيـة بفضـل الخيـرات والصـدقات والنذور. ولا يضيع أجر ذلك أبدا. ولا شك أن أى مخلوق لم ير فى أى عصر، ومن أى سلطان مثـل هـذه الخيـرات الكثيـرة والمبـرات والإنعامات والإدرارات والصدقات الجارية.

فليمنح الحق – جل وعلا – هذا السلطان العادل الكريم مزيدا مـن التوفيق على هذه الخيرات وليوصل بركاتهـا ومثوباتهـا إلـى أيامـه المباركة.

الحكاية الرابعة عشرة

فى القضاء على الوثائق المزورة والدعاوى الباطلة

ودفع[1] خيانة من لا أمانة لهم وغير المتدينين

إن سلطان الإسلام – خلد سلطانه – لكمـال عدلـه، أزال أنـواع الوثائق المزورة والادعاءات الباطلة، ومنع طائفة القضاة والخطبـاء– الذين لم يكونوا على علم تام بالعلوم الشرعية – من تحريـر القبـالات والوثائق، وكلف جميع القضاة بأن يحرروا القبالات بطريقـة واحـدة؛ بحيث تراعى جملة الدقائق الشرعية، حتى تغلق أبواب المنازعات بين الناس. وحيث إن شرح تلك الأمور مدون بوضوح تام ضمن الأحكـام والقواعد نكتب نصوص تلك المراسيم كى نعلم المقصـود منهـا، ولا نكرر الكلام عنها.

تلك الأحكام والقوانين نفصلها فيما يأتى:

مرسوم بخصوص تفويض القضاة النظر فى شئون القضاء.

مرسوم بخصوص عدم إعادة النظر فى القضايا التى مضى عليها ثلاثون عاما.

---

(١) دفع الشىء: نحاه وأزاله بقوة. يقول الله تعالى: ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض﴾. (انظر المعجم الوسيط، ج١، ص٢٨٩).

مرسوم بخصوص إثبات ملكية البائع قبل البيع.

مرسوم بخصوص تأكيد الأحكام السابقة وتمهيد الشروط اللاحقة.

مرسوم بخصوص قانون الوثائق الذى اتفق عليـه جميـع أئمـة العصر.

ومضمون كل مرسوم من المراسيم المذكورة، يكون على هذا النمط الذى نكتبه فيما يلى:

مضمون المرسوم بشأن تفويض القضاة

بسم ا   الرحمن الرحيم

[ص٤٢٧]   مرسوم السلطان محمود غازان

ألا فليعلم الحكام والملوك والأشخاص الـذين كـانوا حكامـا فـى الولايات الفلانية قبلنا، أننا قد عينا فلانًا قاضيا لتلك الولاية وتوابعهـا، حتى تعرض عليه كل قضية أو أمر أو مهمة ليحكم ويقطع فيها برأى، ويحافظ جيدا على أموال اليتامى والغائبين. ومحظور على أى مخلوق كائنًا من كان أن يتدخل فى عمله. والشخص الذى يزج به فى السـجن الشرعى لا يطلق سراحه أى مخلوق، ولا تخالفه الجماعة التى يعهـد إليها بالقيام بالمهمات والشئون الشرعية.

ولما كان حكم المرسوم الأعظم لجنكيز خان يقضى بـأن القضـاة والعلماء والعلويين لا يدفعون الرسوم والضرائب، أمرنا بـأن يعفـى هؤلاء– بناء على هذا – من دفع الضرائب، وألا يأخذ الحكـام مـنهم خيولاً أو دواب البريد، ولا ينزلوا فى منازلهم، ولا يسـمحوا للرسـل بدخولها، وأن يدفعوا لهم مستحقاتهم دون تقصير. وسنة بسنة. وكـذلك معاشاتهم طبقًا لما ورد فى التوصيات والسجلات. وقد أمرنـا شـحنة

الولاية بأن يجازى كل من يتفوه بكلام عنيف أو يجيب إجابة غير لائقة أمام القاضى، أو يحاول أن ينتقص من حرمته.

مسألة أخرى هى أنه لا ينبغى أن يطالـب أى مخلـوق القاضـى بالحضور عنده. وإذا بتّ القاضى فى أمر من أمور الشريعة بناء على ما قدمه من دلائل ومستندات، فإن عليه ألا يتقاضى **[ص٤٢٨]** شـيئًا من أى مخلوق فى مقابل ذلك مهما كانت الأعذار والعلـل. وإذا كتـب وثائق جديدة، فإن عليه طبقًا لحكم المرسوم الذى أصدرناه – على حدة – أن يحضر الوثائق القديمة إلى "طاس العدل"[(١)]، ويرميها فيـه حتـى يمحوها، وتزول كتابتها، ولا يستمع للدعاوى القديمة التى لم يبت فيهـا منذ ثلاثين سنة، ولا يهتم كذلك بالوثائق القديمة التى دونت قبل ثلاثـين سنة، وذلك بمقتضى حكم المرسوم والشرط الذى نصصنا عليه علـى حدة فى هذا الباب. وعندما يحضرون إليه مثل هذه القبالات القديمة لا يعطيها الخصوم والمتنازعين، بل يغسلها فى طاس العدل.

مسألة أخرى هى ألا يستمع لقضية المزور المدلس. والشخص الذى يقدم على ذلك تحلق لحيته، ويحمل على ثور، ويطاف به فى المدينـة،

---

(١) طاس العدل عبارة عن وعاء كبير مملوء بالماء تلقى فيه الوثائق الخطية كى تمحى وتتلف.

ويعزر تعزيرا[1] تاما. وبعد هذا لا يدون له محضر. وإذا دون لا يؤخذ به، ولا يلتفت إليه.

ومسألة أخرى وهى أنه إذا مثل خصمان أمـام القاضـى، وجـاء كلاهما فى حماية أحد الأشخاص، أو أنهما أحضرا معهمـا إلـى دار القضاء جماعة من ذوى النفوذ بقصد الوقوف إلى جانب الخصـمين أو أحدهما، ومحاولة الضغط والتأثير على القاضى، فإنه فى هذه الحالة لا يستمع لقضيتهما، ما لم يغادر هؤلاء قاعة المحكمة. وقطعـا لا ينظـر القاضى فى القضايا الشرعية ما دام حماة الخصوم حاضرين.

مسألة أخرى بخصوص الدعوى بين اثنين مـن المغـول أو بـين مغولى ومسلم. وبخصوص القضايا التى يصعب القطع والفصل فيهـا قال السلطان: لقد أمرنا بأن يجتمع يومين فى كـل شـهرين الشـحن والملوك والكتاب والقضاة والعلويون والعلماء فـى المسـجد الجـامع بديوان المطالعة حيث يستمعون إلى الدعاوى ويتعمقون فى فحصها. ثم يفصلون فيها طبقًا لأحكام الشريعة، ويكتبون محضرا، ويدونونه فـى

---

(١) يقول الماوردى عن التعزير: "التعزير تأديب على ذنوب لم تشرع فيها الحدود. وأما صفة الضرب فى التعزير فيجوز أن يكون بالعصا وبالسوط. ويجوز فى نكال التعزير أن يجرد من ثيابه إلا قدر ما يستر عورته ويشهر فى الناس وينادى عليه بذنبه إذا تكرر منه ولم يتب. ويجوز أن يحلق شعره ولا يجوز أن تحلق لحيته. واختلف فى جواز تسويد وجوههم فجوزه الأكثرون، ومنع منه الأقلون (الأحكام السلطانية ص ٢٣٦ – ٢٣٩ بيروت ١٣٩٨هـ – ١٩٧٨م).

السجلات. ثم يوقعون بشهادتهم على صحة ما كتبوه؛ **[ص٤٢٩]** حتى لا يكون بعد ذلك مجال لطعن أى مخلوق، ولا يستطيع إبطال ما أبرم.

مسألة أخرى تتعلق بالعقار الذى يدور حوله كلام وادعاء وينشب شجار ونزاع، فإنه لا تتدخل بشأنه أمهات الأحفاد ولا الخواتين والأبناء والبنات والأصهار، وأمراء التومان والهزاره والصده والدهه (أى قواد الكتائب المكونة من عشرة آلاف وألف ومائة وعشرة) وكذلك المغول الكثيرون وكتاب الديوان الكبار والقضاة والعلويون والعلماء والشيوخ والرؤساء، فلا يشترون هذا العقار. وطبقًا للمرسوم الذى أصدرناه يحتاط القاضى الفلانى احتياطًا بليغًا، فلا يحرر قبالة باسم هذه الجماعات المذكورة، وذلك فى حالة كل عقار أو معاملة تكون محل خلاف ونزاع. وإذا رأى شخصا آخر يحرر هذه القبالة، فإن عليه أن يمنعه.

مسألة أخرى بخصوص الصداق (المهر) الذى يؤخذ عند الزواج قال السلطان: "لقد قررنا قبل هذا أن يكون الصداق "تسعة عشر دينارا ونصف دينار"[1]، ولا يؤخذ أزيد من هذا الصداق.

مسألة أخرى تتعلق بالولاية التى تتبع القاضى فلان، وينظر فى قضاياها. تبحث هذه القضايا فما كان منها بعيدا عن المدينة فى هذه

---

(١) اختلف أهل العلم فى المهر؛ فقال بعضهم: المهر على ما تراضوا عليه، وهو قول سفيان الثورى والشافعى وأحمد وإسحاق. وقال مالك ابن أنس: لا يكون المهر أقل من عشرة دراهم. (انظر سنن الترمذى، ج٢، تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان ص٣٩٠، المدينة المنورة، بدون تاريخ).

الولاية، ومن المناسب أن ينصب لها قاض للنظر فيها، يعين قاض ثقة لهذه المدينة، ويؤخذ منه الحكم على النحو المذكور. وعليه فى كل شهر أن يتخذ سبيل الاحتياط عند النظر فى شئون المتقاضين كى يحافظ على طريق الشريعة وتحرى الصدق، وذلك بموجب المرسوم الذى أصدرناه حتى لا يكون غافلاً عن ذلك، وأن يأذن بتحرير القبالات، وينفذ حكـم الشرع، وترسل إليه نسخة فى كل شهر. أما النواحى الداخلة فى نطاق القرى، ونصب لها قاض، فإنه ليس له حـق النظـر فـى الـدعاوى والقضايا، ولا يحكم فيها، ولا يدون سـجلات العقـارات. **[ص٤٣٠]** كذلك لا يحرر ورقة أخرى قط فيما عدا ما يتعلـق بقـراءة الخطبـة، وصكوك القروض ووثيقة الصداق. وإذا تصادف أن وجـدت قضـية معقدة أو دعوى خطيرة، فعلى القاضى أن يأتى إلى المدينة ويعرضـها على قاضيها كى يفصل فيها.

مسألة أخرى: ينبغى أن يعين رجل ثقة متدين ليحرر تاريخ الوثائق، ويكون له سجل وعليه أن يحتاط احتياطًا تاما عندما يحـاول شـخص آخر أن يفعل ذلك. وهذا الشخص المخالف تحلق لحيته ثم يطاف به فى أنحاء المدينة. كذلك إذا عرف مسجل االتواريخ شيئًا عن هذه القضـايا وفهمه، لكنه أخفى الحقيقة، فإنه يكون آثما، ويستحق الإعدام.

تحريرا فى التاريخ الفلانى. والسلام.

نص المرسوم المتعلق بعدم النظر فى القضايا
التى مضى عليها ثلاثون عامًا

بسم الله الرحمن الرحيم

بقوة الله تعالى وميامن الملة المحمدية

فرمان السلطان محمود غازان

فليعلم قضاة البلاد أن كل همتنا مصروفة ومقصورة على أن نرفع عن الخلق الظلم والتعدى والادعاءات الباطلة والخلافات والمنازعات وأن يمضى العالم والعالمين وقتهم، وهم فارغو البال، فارغو الحال، وأن تصل آثار عدلنا إلى الخاص والعام والبعيد والقريب، وتصير عامة شاملة، وأن يقضى على مواد الخلاف والنزاع من بين جمهور الخلائق وأن توضع الحقوق فى موضعها، وتغلق نهائيا أبواب التزوير والتمويه والاحتيال. ولهذا السبب أرسلنا مرارا المراسيم إلى جمهور القضاة والعلماء الذين تقلدوا الأمور الشرعية، وتصدوا للأشغال الدينية حتى يفصلوا فى الدعاوى، ويقضوا على الخصومات بين كافة الخلق على نحو يكون متفقًا مع مقتضى قواعد الشريعة، وموجبا لقوانين العدل. ويمكن أن يكون خاليا من الشوائب والتزوير والمداهنة والميل والهوى. ومن بين ما هو أهم وأجدر أن يمعنوا **[ص٤٣١]**

النظر فى المحاضر المزورة والصكوك والسجلات المموهة، ويتقصوا حقائق الأمور والأحوال ويصلوا إلى غورها.

وإذا ما بدت على تلك الحجج مظاهر قدم العهد، ولم يراع ذلك جيدا القضاة والحكام السابقون فإن على القضاة الحاليين الحذر التام؛ بحيـث لا يتهاونون دقيقة واحدة فى اتخاذ شروط الاحتياط. وكذلك فيما يتعلق بالحجج التى مضى عليها ثلاثون سنة ولم يبت فيهـا واعتبرهـا كـل مزور ومغرض سندا وحقًا مكتسبا، وصار يتعب الناس، ويشق عليهم، ولم يستطع القضاة تدارك ذلك رغم الشروط المنصوص عليها. وكذلك قبل هذا فى عهد السلاطين السابقين ذكر فى كل الفرمانات والمراسيم، ألا يستمع إلى الدعاوى التى مر عليها ثلاثون عاما. ورغم هـذا فإنـه حتى الآن لم ينفذ هذا الشرط، ولم يصلوا إلى كنـه الموضـوع ولـم يتداركوا ذلك تداركًا كليا. أما فى هذا العهد فقد تفحصنا هذا الأمر مـن قضاة الإسلام فعرضوا علينا بالحق والصدق حقيقة الأمر. وحيث إننـا أردنا أن نحكم تلك الأمور بين المتخاصمين وبين القضاة مـن جهـة أخرى، حتى لا يستطيع أحد قط أن يصر على الباطل ولا يسـتطيع أن يقنن الحجج القديمة الباطلة التى مضى عليها ثلاثون سنة. ولتلافى هذا أشرنا على قضاة الإسلام بأن ينظروا فى الوثيقة التى تناسب الشـرع والصدق. وحتى لا يحيد شخص قط عن الحـق، ولا يسـتطيع أيضـا جماعة الأقوياء المستبدين الإلحاح والتأثير عليهم؛ وذلك بـأن يسـألوا

أسئلة مضللة وغير مشروعة، ولا يستطيعون أن يشقوا علـى القضـاة والأئمة. ولقد كلفنا المرحوم السعيد القاضى فخر الدين الهراتـى بـأن يدون صورة الحجة وأن يكتب على ظهرها ذلك المرسـوم؛ بحيـث لا تطرأ زيادة أو نقصان على ما هو مقرر. ثم تحضر هذه النسخة إلـى الخزانة لتكون نصب أعين المسئولين. والغرض من هذا الفرمان وتلك الوثيقة المسطر على ظهرها المرسوم أن تكون دليلاً للخاص والعـام، فيخشى الجميع التحريف والتبديل، ولا يستطيع الأقويـاء المسـتبدون الإلحاح على القضاة كى يتركوا الدعاوى الباطلة والمتنازع عليها، ولا يحوموا حول كل ما هو خارج عن هذا الحكم وتلك الحجة المنصوص عليها فى ظهر الوثيقة. وإذا خالف القضاة ذلك عزلوا مـن مناصـب القضاء ويكونون آثمين إلى أن يعرفوا الحقيقة. وأنا لن أستمع إلـى أى عذر منهم. وإذا ألح عليهم شخص قوى مستبد، وأصر على رأيه، ولـم يراع **[ص٤٣٢]** القضاة هذه التعليمات المدونة على ظهر الحجـة ولا يحكمون بموجبها، فعلى المسئولين أن يكتبوا أسماء هؤلاء المسـتبدين ويرسلوها إلينا كى نعتبر هؤلاء الأشخاص مذنبين ونعـاقبهم ليكونـوا عبرة للعالمين.

كتب فى الثالث من رجب الأصم فى سنة تسع وتسـعين وسـتمائة (٦٩٩هـ - ١٢٩٩م) فى موضع "كشّاف".

نص الوثيقة التى كتبت على ظهر المرسوم المذكور

لما كانت الهمة العالية والرأى السديد لملك العالم والعالمين وملك ملوك الإسلام والمسلمين، المخصوص بعناية الرحمن، غازان خان لا زالت دولته الحالية متمتعة بالدوام آخذة فى الزيادة، غير بالغة النهاية. ومنذ بدء ظهور دولته، وهمته مقصورة ومصروفة إلى أعمال الخير والبر، وعنان عنايته وعاطفته موقوفة ومعطوفة نحو إصلاح حال الرعية؛ بحيث إنه فى عهد دولته وزمان حكمه وسيطرته، يمضى العالم والعالمين أيامهم، وهم فارغو البال مرفهو الحال. وإن آثار كمال عدله ومخايل وفور عاطفته ومرحمته لتشمل الخواص والعوام والبعيد والقريب والترك والتازيك. كذلك تنحسم بل تزول مواد الخلاف والنزاع من بين جمهور الخلق فى كل المعاملات، وتستقر الحقوق فى مواضعها، وتسد أبواب التزوير والمكر والاحتيال سدا نهائيا.

ولهذا السبب توجه السلطان بمخاطبة جمهور القضاة والعلماء الذين يتقلدون الأمور الشرعية، ويتصدون للأشغال الدينية، وذلك فى مضامين المراسم السلطانية ومدلولاتها والمختومة بالأختام المباركة لا زالت نافذة فى مشارق الأرض ومغاربها. فالسلطان فى حديثه إلى هؤلاء يحثهم على أن يفصلوا فى القضايا، وينهوا الخصومات بين عامة الخلق حسب ما تقتضيه قواعد الشريعة، وتوجبه قوانين العدل

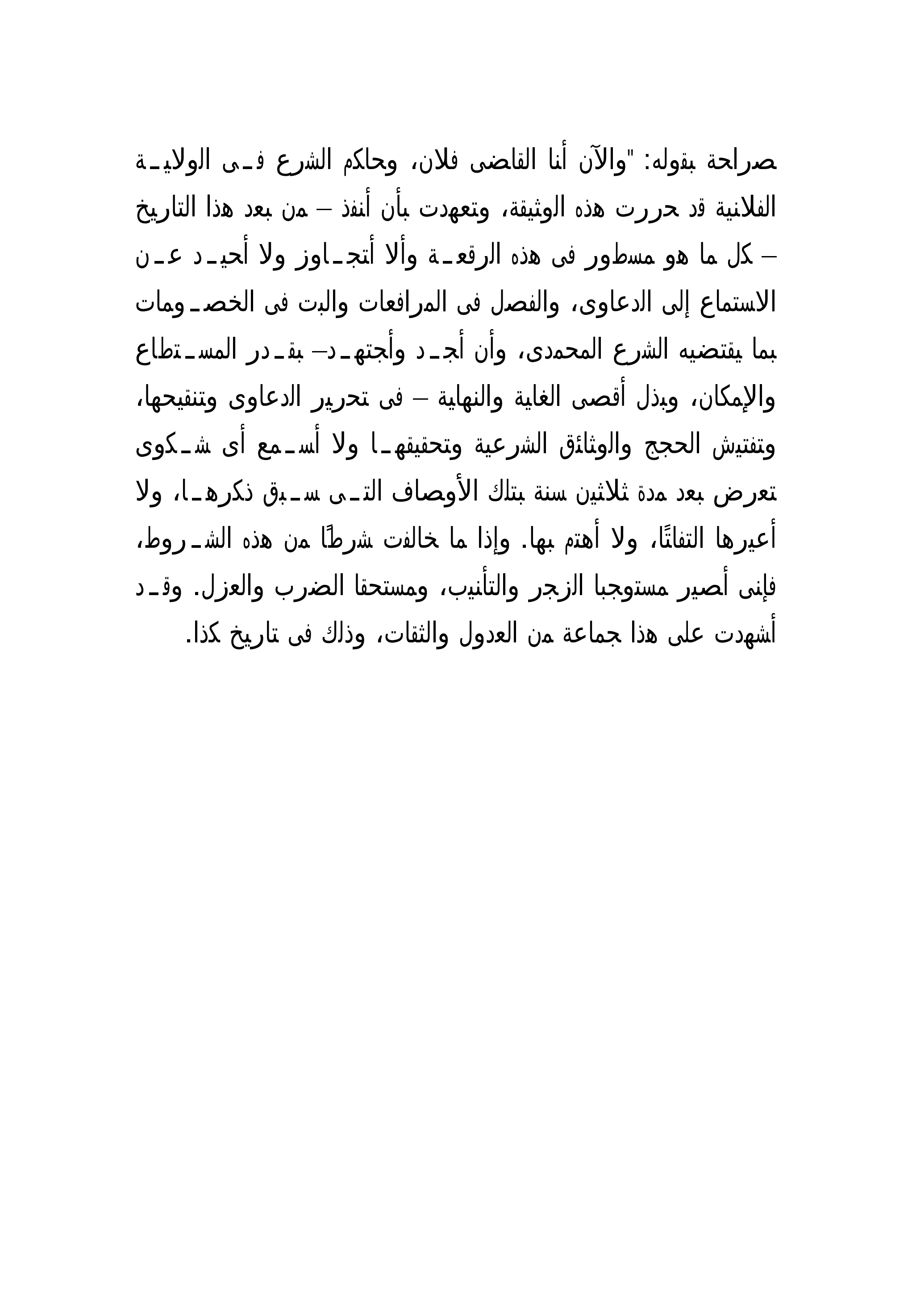
والإنصاف، حتى يمكن أن يكون حكمهم مقدسا وبعيدا عـن شـوائب التزوير والتمويه والميل والهوى والمداهنة. ومن جملة ذلك أيضا عليهم أن يمعنوا النظر فى المحاضر المزورة والصكوك والسجلات المموهة، ويكشفوا عن حقيقتها ويصلوا إلى غور الأمور بقدر الاستطاعة والقدرة **[ص٤٣٣]**.

وإذا ما بدا على تلك الحجج مظهر قدم العهد، فإن علـى القضـاة الحاليين - على سبيل حسن الظن بالقضـاة والحكـام السـابقين - ألا يهملوا دقيقة قط من شروط الاحتياط ومراسمه، والتحقيق والتفتيش، فلا يعولوا على تلك الحجج؛ إذ إن كثيرا ما يحدث أن يمتلك شخص عقارا أنشأه وأحدثه أو أنه آل إليه عن شخص آخر. وقد دونت وثائق وحجج شرعية تدل على ملكيته واستحقاقه. وبناء على حكم القضـاة وحكـم الشرع صار العقار مؤكدا ومسجلاً. وبعد مدة مديدة انتقل منه إلى غيره بناء على حكم شرعى، ثم انتقل من ذلك الشخص إلى آخر، وهلم جرا. هذا على حين أن تلك الحجج بقيت فى منزل المالك الأول. ثم مضـت إلى أيدى عدد من الورثة. وبعد مدة طويلة وعهد متكامل ينتهـز أحـد الورثة هذه الفرصة، ويظهر تلك الحجج ويحتج بها قائلاً إنه فى التاريخ الفلانى، كان هذا العقار ملكًا لجدى، واليوم آل إلى بحكـم الإرث. ثـم تشهد جماعة بتأثير جماعة أخرى على صحة استحقاقه. وبذلك تطـول بينهم المنازعات والمجادلات، الأمر الذى يترتب عليه أن بعض القضاة

فى بعض الولايات ممن لم يكن لهم قدم راسخة ونصاب كامل من الدين والتقوى وعلم الفقه والفتوى – لا يصلون إلـى غـور الأمـور، ولا يميزون بين الحق والباطل. ويمكن أن يصدروا حكما يؤدى إلى ضياع حقوق المستحقين.

بناء على هذه المقدمات فإنه قبل هذا، حكم السلاطين السـابقون - سقى ا ثراهم وجعل الجنة مثواهم – متجنبين أمثال هذه الاحتمـالات بحيث إنهم لا يسمعون ولا يعتمدون على القضايا التى مضت عليها مدة ثلاثين سنة، وهى التى يطلقون عليها "جيلاً واحدا" ولا يصدرون حكما قبل اتخاذ الحيطة والتحرى. ومن بعد هؤلاء السلاطين صدر مرسـوم الإيلخان الأعظم أرغون خان، يقضى بتنفيذ تلك الأحكام.

وحيث إنه كان يرجع – فى هذا الخصوص – إلى أقـوال الأئمـة واجتهاد العلماء، علم أن جمعا صغيرا، وآخر كبيرا من الأئمة والعلماء **[ص٤٣٤]** قد اتفقوا واتحدوا فى الرأى علـى أنـه إذا كـان هنـاك شخصان فى مكان واحد، وكان أحدهما متصرفًا فى عدة ضياع. وكان يوجد فى ذلك الموضع حاكم عادل وقاض نافذ الحكم، ولم يكن هنـاك مانع أو وازع آخر من إقامة الدعوى وإظهار الاستحقاق، ومضى على ذلك ثلاثون سنة كاملة، ولم يدع أحدهما على الـذى كـان متصـرفًا وواضعا يده على العقار، ولم يتمكن بعد ذلك من إقامة الـدعوى فـإن القاضى فى هذه الحالة لا يستمع لدعواه ولا يقبلها. وقد نص على هـذا


صراحة بقوله: "والآن أنا القاضى فلان، وحاكم الشرع فـى الولايـة الفلانية قد حررت هذه الوثيقة، وتعهدت بأن أنفذ – من بعد هذا التاريخ – كل ما هو مسطور فى هذه الرقعـة وألا أتجـاوز ولا أحيـد عـن الاستماع إلى الدعاوى، والفصل فى المرافعات والبت فى الخصـومات بما يقتضيه الشرع المحمدى، وأن أجـد وأجتهـد– بقـدر المسـتطاع والإمكان، وبذل أقصى الغاية والنهاية – فى تحرير الدعاوى وتنقيحها، وتفتيش الحجج والوثائق الشرعية وتحقيقهـا ولا أسـمع أى شـكوى تعرض بعد مدة ثلاثين سنة بتلك الأوصاف التـى سـبق ذكرهـا، ولا أعيرها التفاتًا، ولا أهتم بها. وإذا ما خالفت شرطًا من هذه الشـروط، فإنى أصير مستوجبا الزجر والتأنيب، ومستحقا الضرب والعزل. وقـد أشهدت على هذا جماعة من العدول والثقات، وذلك فى تاريخ كذا.

نص المرسوم بخصوص إثبات ملكية البائع قبل البيع

بسم الله الرحمن الرحيم

بقوة ا تعالى وميامن الملة المحمدية

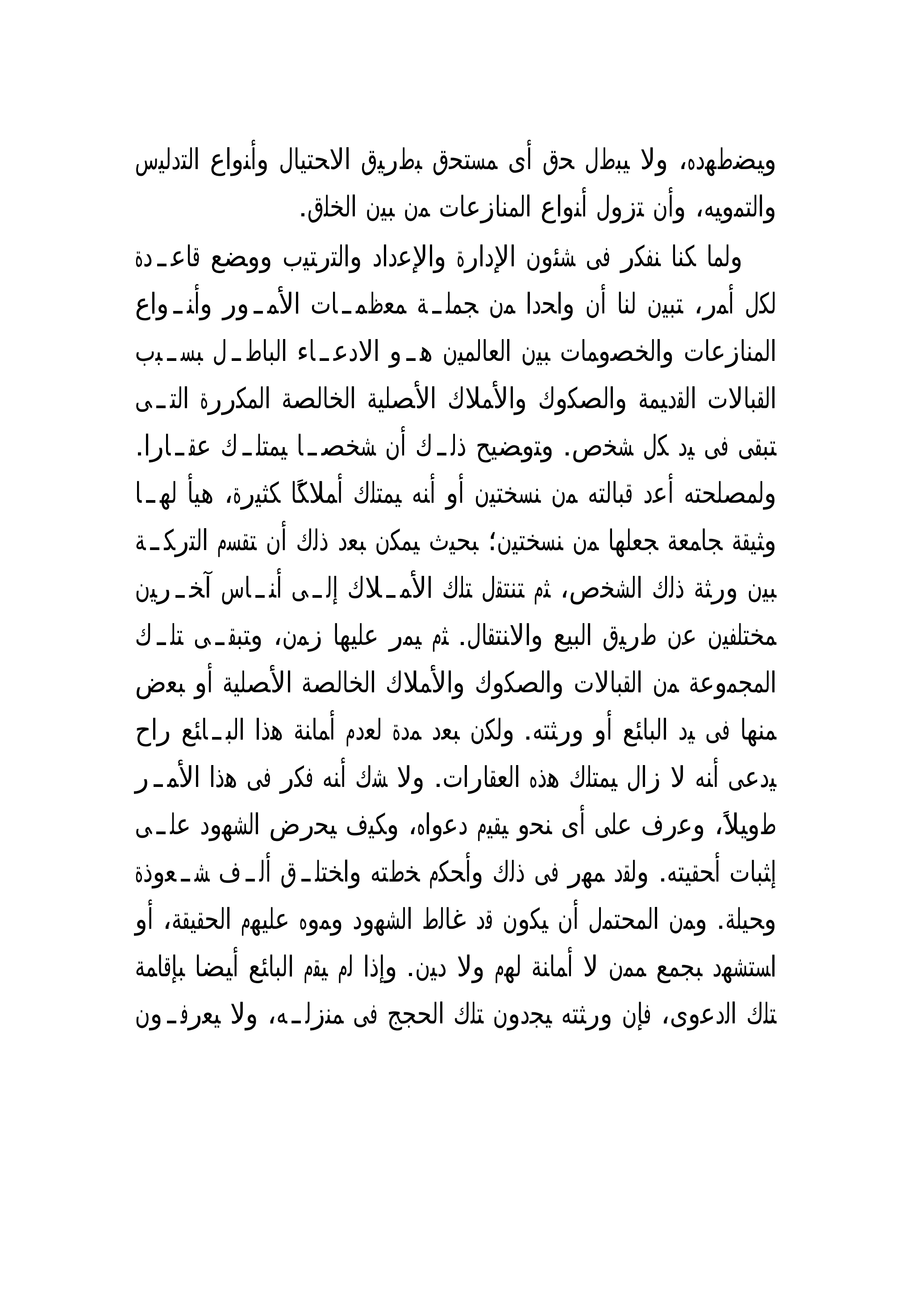
فرمان السلطان محمود غازان

فليعلم الحكام والملوك والقضاة والكتاب والنواب والأئمة والأعيان والسراة والوكلاء وجمهور رعايا الولايات أنه بموجب نص قوله تعالى: ﴿يا داود إنا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق﴾ [1]، وقول المصطفى صلوات الرحمن عليه: "عدل ساعة خير من عبادة أربعين سنة" [2]، تكون كل همتنا وعزيمتنا **[ص435]** ورأينا السلطانى مصروفًا إلى رفاهية عموم الخلق. وإن إرادتنا هى أن ينتشر فى العالم عدلنا وإنصافنا، وألا يستطيع أى قوى أن يظلم ضعيفًا

---

(1) الآية بأكملها: ﴿يا داود إنا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب﴾ (سورة ص، آية ٢٦).

(2) وردت صيغة هذا الحديث على هذا النحو: "عدل يوم واحد أفضل من عبادة ستين سنة". رواه الديلمى عن أبى هريرة، وأسنده من طريق أبى نعيم بلفظ: "عدل حكم ساعة خير من عبادة سبعين سنة". (انظر كتاب كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس للمفسر المحدث الشيخ إسماعيل بن محمد العجلوانى الجراحى، ج٢، ص٥٨، دار إحياء التراث العربى، بيروت ١٣٥٢هـ).


ويضطهده، ولا يبطل حق أى مستحق بطريق الاحتيال وأنواع التدليس والتمويه، وأن تزول أنواع المنازعات من بين الخلق.

ولما كنا نفكر فى شئون الإدارة والإعداد والترتيب ووضع قاعـدة لكل أمر، تبين لنا أن واحدا من جملـة معظمـات الأمـور وأنـواع المنازعات والخصومات بين العالمين هـو الادعـاء الباطـل بسـبب القبالات القديمة والصكوك والأملاك الأصلية الخالصة المكررة التـى تبقى فى يد كل شخص. وتوضيح ذلـك أن شخصـا يمتلـك عقـارا. ولمصلحته أعد قبالته من نسختين أو أنه يمتلك أملاكًا كثيرة، هيأ لهـا وثيقة جامعة جعلها من نسختين؛ بحيث يمكن بعد ذلك أن تقسم التركـة بين ورثة ذلك الشخص، ثم تنتقل تلك الأمـلاك إلـى أنـاس آخـرين مختلفين عن طريق البيع والانتقال. ثم يمر عليها زمن، وتبقـى تلـك المجموعة من القبالات والصكوك والأملاك الخالصة الأصلية أو بعض منها فى يد البائع أو ورثته. ولكن بعد مدة لعدم أمانة هذا البـائع راح يدعى أنه لا زال يمتلك هذه العقارات. ولا شك أنه فكر فى هذا الأمـر طويلاً، وعرف على أى نحو يقيم دعواه، وكيف يحرض الشهود علـى إثبات أحقيته. ولقد مهر فى ذلك وأحكم خطته واختلـق ألـف شـعوذة وحيلة. ومن المحتمل أن يكون قد غالط الشهود وموه عليهم الحقيقة، أو استشهد بجمع ممن لا أمانة لهم ولا دين. وإذا لم يقم البائع أيضا بإقامة تلك الدعوى، فإن ورثته يجدون تلك الحجج فى منزلـه، ولا يعرفـون

على وجه التحقيق أن أملاكه قد انتقلت إلى غيره، فيدعون ملكيتهم لها حسب ما ذكر. وحيث أن القبالات المسجلة محكـوم بأنهـا للشـخص الحى، وقد تعرض على القاضى مع الشهود، فتثبت صحتها عنده؛ لأنه يعرف أنها انتقلت إلى الغير بطريق شرعى. ومن المشهور أن القاضى يعجز بشهادة شاهدين. وإذا ما اعتمد عدد من القضاة المتقدمين الثقـات المشهورين تلك الصكوك وسجلوها وكان الشهود العدول المشار إلـيهم أحياء وحاضرين، ولكنهم غافلون عن أنه قد حدث بيع بعد ذلك، وانتقل **[ص٤٣٦]** ذلك العقار وبقيت تلك الصكوك المكررة أو غير المكررة فى يد البائع، ولم تسلم للمشترى، فيدلون بشهادتهم بالضرورة فيسجلها القاضى ويحكم بصحتها. ثم يذهب المدعى. واسـتنادا إلـى معاونـة الأقوياء المستبدين، وبموجب القبالة التى حكم بصـحتها حـديثًا وتـم تسجيلها يتصرف فيها، أو أنه يبيعها إلى هـؤلاء الأقويـاء فيتضـرر المشترى بسبب ذلك. ونتيجة لهذه الأوضاع ينشـب النـزاع ويطـول الخصام بين هؤلاء الأطراف.

وحيث إن صكوك الملكية تثبت بشهادة الشـهود العـدول، يكـون تصرف المالك مراعى تماما فى الشرع، ونظرا لأن الصكوك كثيرا ما تتكرر وتبطل فى يد كل شخص، يصير الاعتماد عليها أمرا مشـكوكًا فيه ومبهما. ولما كان بعـض ذوى النفـوس يميلـون إلـى التزويـر ويمارسونه فإن أفضل الوجوه أن يمثل أمـام القاضـى البـائع مـنهم

والمشترى وذلك عند بيع العقارات، وعليهما أن يحضرا الشهود العدول مع الصكوك التى تكون فى حوزتهما، فيثبت البـائع ملكيتـه، ويشـهد الشهود العدول الثابت صدقهم على أن ذلك العقار خاص بالبائع وتحت تصرفه، ويقولون: إننا لم نسمع ولم نعلم أن لأى شخص دعوى شرعية بالنسبة إلى ذلك العقار. ثم تغسل تلك الصكوك فى الماء. وإذا لم يكـن لدى البائع والمشترى صكوك فإن على الشهود أن يشهدوا طبقًا لما هو مذكور، ويقرروا أن هذا العقار كان تحت تصرف البائع أو المشـترى قديما أو حديثًا، ويقر البائع بأنه ليس لديه صكوك. وإذا ظهرت بعد ذلك تكون باطلة. ثم يسجل العقار له، وتكتب شـهادة الشـهود، ويسـجلها القاضى ويحكم بصحتها. وبعد ذلك ينص على ثبوت الملكية أسفل حجة المبايعة. وإذا أقر أحد بحق فى النقل الشرعى، فإنهم يعترفون به أيضا. وإذا ظهرت بعد ذلك بعض الصكوك لذلك العقار أو الملك الخالص أو المقسم بين البائع وأولاده أو أقاربه أو الآخرين، كل واحد منهم كائنًـا من كان، **[ص٤٣٧]** فإن أى قاض من قضـاة الإسـلام لا يعيرهـا اهتماما. وعندما يراها فى يد أحد يأخذها منه بإلحاح وعنف ويمحوها. وإذا كان لأمثال هؤلاء سند قوى، أو كانوا فى حماية بعض الأشخاص، ولم يسمعوا كلام القضاة، فإن عليهم أن يبلغوا شحنة تلك المدينة كـى يأخذها منهم بالعنف والزجر، ثم تغسل فى دار القضاء. وإذا قصـروا فى ذلك فإنهم يكونون مدانين. وينبغى أن يقـوم كتـاب دار القضـاء

وحدهم لا غيرهم بكتابة الحجج والقبالات الخاصـة ببيـع العقـارات. وعندما يجلس القاضى للحكم فى دار القضاء، فإنه من الضـرورى أن يحضر طاسا مملوءا بالماء موضوعا على كرسـى، أسـميناه "طـاس العدل". ثم تطلب صكوك كل مبايعة ودعوى يتم البت فيهـا وتغسـل بالماء. وإذا باع البائع جزءا من أملاكه الخاصـة الخالصـة، وأبقـى بعضها فى حيازته، فإن ذلك الجزء الذى قد تم بيعه، يكتب على ظهـر الحجة بحضور القضاة والعدول، ويبين فيها أنه قد بيعت هذه المسـاحة من هذه العقارات المذكورة فى الحجة إلى الشخص الفلانى فى التاريخ الفلانى، حتى تكون تلك الحجة ثابتة فى يد المشترى. كذلك ينص فـى حجة المشترى أن للبائع عدة أملاك، وأنه قد بيع بعض منها إلى هـذا الشخص، ويظل يمتلك البعض الآخر. ولهذا السبب يبقى فى يد للبـائع صك غير ممحو (غير مغسول).

مسألة أخرى: هى أنه إذا أدى شخص شهادة أو حرر كتابة تتعلـق بمبايعة أو رهن. ثم أقام ذلك الشاهد – فى وقت آخر – دعوى علـى ذلك المشترى أو المرهون، فإنه لا يستمع له، وتحلق لحيته، ويركـب حمارا، ثم يطاف به فى أنحاء المدينة. وإذا باع شخص عقـارا لآخـر كان قد رهنه قبل هذا، أو أنه أقر بحق شخص آخر فيه أو باعه فـإن هذا التصرف يعتبر حالة من حالات التمويه، وإقـرارا بـالغش، فـلا يستمع له، وتحلق لحية الشخص المدعى كذبا ويركب حمارا ثم يطاف

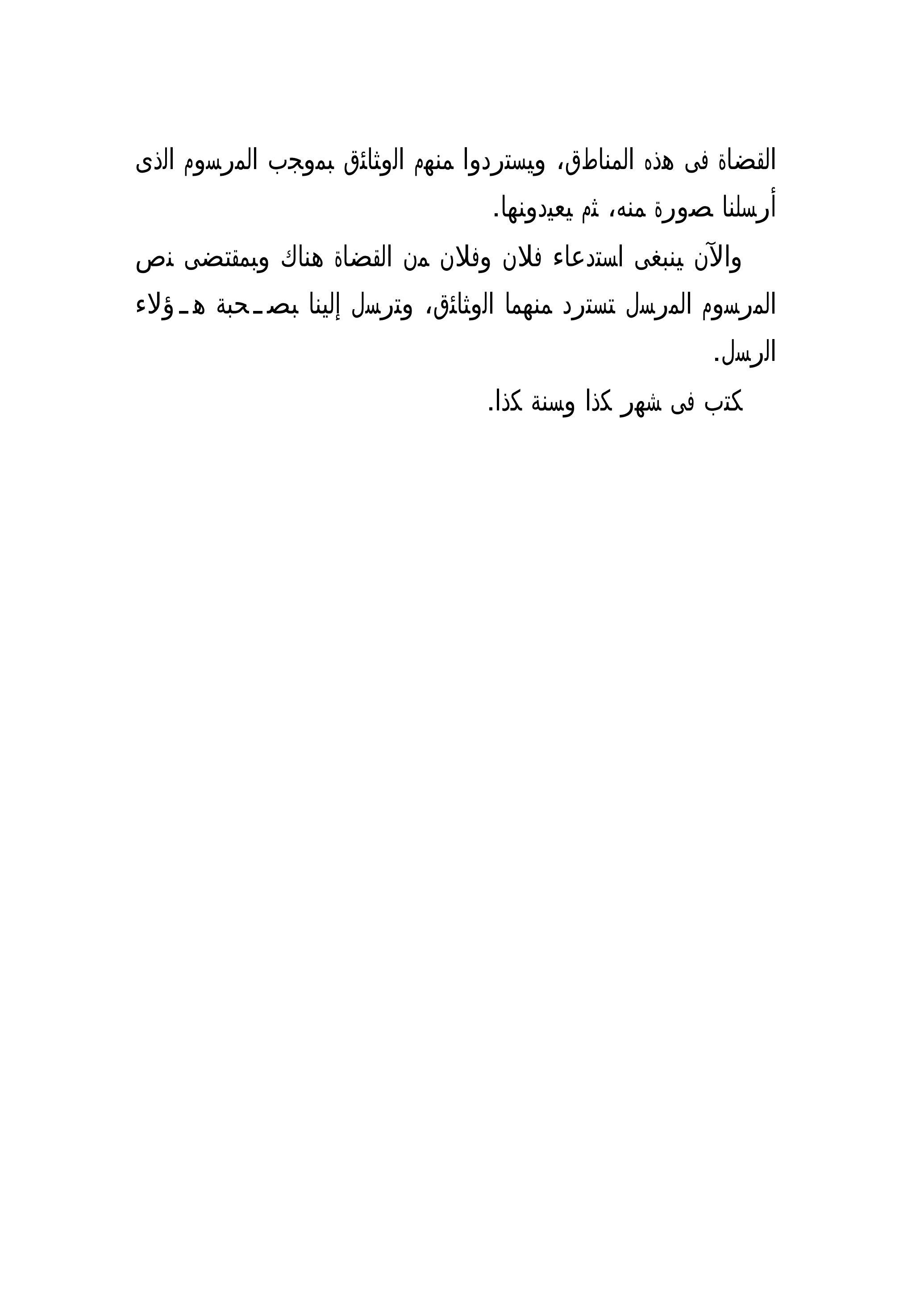
به فى أنحاء المدينة. وإذا باع شخص عقارا أو رهنه ثـم عـاد ذلـك الشخص نفسه مرة أخرى، وباعه لآخر أو رهنه فيكتشف هذا التزوير، ويتأكد من ذلك فإن أمثال هؤلاء الأشخاص يعدمون.

[ص٤٣٨] موضوع آخر هو أننا قررنـا ألا يتوقـع القضـاة أن يأخذوا من أحد دانقًا واحدا نظير قيامهم بالتسجيل والنظر فى الدعاوى حسب العادة المعهودة، وأن يقنعوا بالمرتب الذى قررناه لهم، وأن يأخذ الكاتب الذى يحرر الحجج درهما واحدا عن كل حجة تبلغ قيمتها مائـة دينار. أما ما يزيد على مائة دينار فإنه يتقاضى عنها مبلغًا يصل إلـى دينار واحد، ولا يأخذ ما يزيد على ذلك أبدا. ويتقاضى المـدير الـذى يقوم بمهمة الإشهاد نصف دينار عن كل حجة يـتم تسـجيل الشـهادة عليها. ويكون هذا الرسم من النقد المتداول. ومهما تكررت الـدعاوى، فإنه يقنع بهذا المبلغ. وكل محام[1] يأخذ شيئًا من كلا الطرفين يعـزر أولا ثم تحلق لحيته، ويعزل من الوكالة.

مسألة أخرى بخصوص القضايا المحددة بفترة ثلاثين عاما، أفردنا لها مرسوما خاصا، وبينا شروطها، فينبغى مباشرة العمـل بموجبهـا. وكل قاض يحكم بخلاف المراسيم والأحكام التى أصـدرناها يعاقـب ويعزل. وأمرنا الحكام والملوك فى كل الممالك والمدن بأن يحضـروا

---

(١) المقصود المحامى الذى تعينه المحكمة للدفاع عن المتهم.



القضاة فى هذه المناطق، ويستردوا منهم الوثائق بموجب المرسوم الذى أرسلنا صورة منه، ثم يعيدونها.

والآن ينبغى استدعاء فلان وفلان من القضاة هناك وبمقتضى نص المرسوم المرسل تسترد منهما الوثائق، وترسل إلينا بصـحبة هـؤلاء الرسل.

كتب فى شهر كذا وسنة كذا.

نص المرسوم بخصوص تأكيد الأحكام السابقة
وتمهيد الشروط اللاحقة

بسم الله الرحمن الرحيم

بقوة ا تعالى وميامن الملة المحمدية

[ص٤٣٩] فرمان السلطان محمود غازان

ليعلم قضاة البلاد أننا عندما أدركنا أن استقامة حال العالم والعالمين منوط بالتزام الأمور الشرعية، أرسلنا قبل هذا مرسوما إلى كل الأطراف والجهات من البلاد ابتداء من نهر جيحون إلى حدود مصر بخصوص تدارك الخلل الذى يقع عند الفصل فى القضايا يحتم على القضاة التأنى والاحتياط التام فى تحقيق وتدقيق الأحكام الشرعية، وينبههم إلى ضرورة مراعاة اللوازم والشروط فيما يتعلق بفحص شئون المحاضر والحجج والوثائق والسجلات. وعند تنفيذ أحكام القضايا يحذرهم مما قد يشوبها من التزوير والتمويه والغش والتفويض وأنواع الحيل الأخرى، وأفهمهم وجوب عدم الالتفات إلى مجرد قدم الحجج أو إلى أحكام القضاة السابقين؛ إذ ربما لم تكن تخلو من تساهل أو تحيز، وألزمهم العمل - بقدر المستطاع– بالتزام الضوابط والدقائق الضرورية لسلامة البدن والنجاة فى الآخرة وصيانة العرض. وقرر هذه القواعد فى كل البلاد على رءوس الأشهاد مرة كل شهر؛ حتى

ترتسم وتتوطد بالتكرار فى الأذهان، وينزجـر أصـحاب الادعـاءات الباطلة من تلقاء أنفسهم ويسلكون طريق السلامة، ولا يبقى أيضا مطمع للأقوياء ذوى النفوذ فى أن يحملوا القضاة على إصدار حكم بعيد عـن جادة الصواب؛ خصوصا بعد أن أكدنا ذلك الحكم. وأمر السلطان كذلك بأن تؤخذ خطوط كافة القضاة، حتى لا ينظروا بعد هذا إلى رغبـة أى مخلوق، ولا يراعوا جانبا قط غير جانب الحق– جـل وعـلا – وأن يبذلوا أقصى الغاية فى تنقيح الدعاوى وفحص الحجج والوثائق حتـى يكونوا بمنجاة من فتن التزوير والتلبيس، وألا يتعرضوا للنظر فى كـل دعوى مر عليها ثلاثون عاما رغم تمكن المدعى، وبشرط عدم الموانع التى تعترضها. وإذا قدمت دعوى بعد انقضاء تلك المدة، فلا يستمع لها بتاتًا، ولا يحكم فيها؛ لأن فساد مثل هذا الادعـاء ظـاهر وواضـح، وسماعها أمر مستهجن.

وقبل هذا واجه سلاطين السلاجقة هذا الأمر. وبعون اجتهاد أئمـة الوقت منع سماع مثل هذه الدعاوى وبعد ذلك كتب الأئمـة والقضـاة وعلماء الإسلام رسائل مستقلة فى هذا الشأن **[ص٤٤٠]**، وأكدوا تلـك الأحكام. كما أن نسخها منتشرة فى الأطراف. كذلك صدرت مراسـيم آبائنا فى هذا الشأن، ويجرى العمل بها لغرضين:

الغرض الأول: تأكيد تلك الأحكام، حتى يتحقق الرفقاء مـن شـدة عنايتنا واهتمامنا باستقامة أمور الدين، وتزول مـن النفـوس نقيصـة

التساهل والتهاون فى شئون الشرع، وتحل محلهـا فضـيلة الصـلابة وثبات القدم.

وليعلم الجميع على وجه التحقيق أن كل من يحيد عن هذه التعليمات سوف يعامل بنفس المعاملة التى عومل بها قاضى أردبيل، فإنه لما لـم يحترز فى تنفيذ القضايا المزورة المموهة، أجهزوا عليه بالسيف علـى أبشع صورة، وأشنع حالة.

الغرض الثانى: حيث إن خاطرنا منصرف ومهتم دائمـا باسـتقامة أمور العالم وانتظامها وموجه إلى تحصيل وتكميل أسباب ذلك أردنا أن نلحق بالأحكام السابقة عدة أمور ضرورية نبلغها قضاة البلاد ونحـثهم على وجوب العمل بها، حتى يسيروا بمقتضاها، ولا يتجاوزوها.

فأولاً وقبل أى اعتبار آخر ينبغـى تأكيـد الاحتيـاط بخصـوص الاستماع للشهادة[1] التى يتوقف عليها مدار أكثر القضايا؛ إذ تبـين أن القضاة يبدون تساهلاً فى هذا الشأن، ولا يجتهدون فى تحـرى الدقـة فيصدرون حكمهم بناء على هـذه الشـهادة دون توقـف، أو دون أن يتطرق اطمئنان إلى نفوسهم، أو يغلب الظن ويطغى الشك على صـحة

---

(١) الشاهد يعاون القضاء على أداء رسالته الاجتماعية، فمن غير الممكن أن يفصل فى دعوى – على الوجه السليم – ما لم يدل الشاهد بشهادته؛ ويعنى ذلك أن الشاهد يحقق مصلحة اجتماعية ترجح على من تسند إليه الواقعة فى الشرف والاعتبار. (انظر الموجز فى قانون العقوبات: القسم الخاص تأليف الدكتور محمود نجيب حسنى، ص٥٧٢ القاهرة ١٩٩٣م).

الشهادة وسلامتها ويتمسكون بذلك، ويقفون عاجزين أمام شاهدين، ولا يخشون مغبة هذا الإهمال. وقد يتفق أن تكون القضية فى ذاتها خطيرة. ولكن لأنهم لا يعرفون الحقيقة ولا يحتاطون يصدرون حكمهم على هذا النحو، فيقضون بذلك على طائفة من الناس الوجهاء الأثرياء. ونتيجـة لهذا يشتد ساعد المدعين؛ ذلك أن ثبوت الحق شرعا، ولو أنه متوقـف على شاهدين[1] **[ص٤٤١]**، إلا أن الشهادة مقيدة بشرط توافر العدالة. والعدالة أمر عظيم لا يتوافر إلا فى أفراد البشر، وعلى سبيل الندرة؛ إذ إن هوى النفس يستولى على أكثر الخلق. وإذن على القاضى أن يفكـر دائما فى أن شهادة زيد أو عمرو لا تخلو من هوى النفس، أو انحيـاز إلى إحدى الجهات أو مراعاة جانب شخص من الأشخاص، ولا يجوز أن ينخدع لمجرد أن الشاهد يبدو فى سمت وصفة الرجال الصـالحين، ويزين ظاهره بزخرف القول. وينبغى أن يسـتعمل سـلامة التفكيـر ولطائف الحيل وصفاء الذهن فى استنباط حقيقة الحال واستخلاص مـا فى باطن القضية. وفى هذا الإطار ينبغى أن يوضح كيفية الحال وإزالة الإبهام والإشكال. ولما كانت حكمة البارى – عز اسمه – فـى خلـق الكون قد اقتضت أن الباطل مهما خفى أمره فى الباطن، فإن آثاره تبدو فى الظاهر من فحوى ألفاظ القائل كما قال أمير المؤمنين على (رضى

---

(١) يقول الله تعالى: ﴿واستشهدوا شهيدين من رجالكم فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى ولا يأب الشهداء إذا ما دعوا ﴾ (سورة البقرة، آية ٢٨٢).

ا عنه) "كل ما يكون مستترا فى باطن الأحمق يتضح من فلتات لسانه". وإذن فكل من يتعرض للغوص فى أعماق شخص من الأشخاص بذهن سليم، يستطيع أن يستشف الحقيقة من كلامه.

وبناء على هذه المقدمات، أمرنا بأن يتبع القضاة سبيل الاحتياط فى استماع كل شهادة يخالج الخاطر ريب فى قبولها. وينبغى أن يسأل كل من الشاهدين على انفراد كى يتبين التناقض فى أقوالهما لأن التثبت بتحقيق الأمور متوقف على تناقض أقوال المتكلمين. وبناء على هذا يسأل كل شاهد عدة مرات فى المجالس المختلفة، وتكتشف الأحوال من زوائد الكلام، ثم توضع الأسس بغية الوصول إلى النكات التى تكون فى الأسئلة المفيدة مثل التعرض للأزمنة والأمكنة وكمية المقادير وكيفية أحوال القضية، ولطائف الأسئلة التى يكون فى تحقيقها والوصول إليها مدخل لتحقيق الهدف، وحتى يظهر من هذا الاجتهاد أحد الغرضين المطلوبين، إما الصحة التى يمكن إصدار الحكم بموجبها. ويمكن الاعتماد عليها. وإما الشبهة التى توجب التوقف عن إصدار الحكم، ويكون ذلك سببا فى النجاة من ورطة **[ص٤٤٢]** الحكم بالباطل. ولما كان أكثر الخلل الذى يحدث فى القضايا يقع بسبب تزكية المزكين الذين هم أنفسهم يفتقدون التزكية ينبغى اتخاذ المزيد من الاحتياط فى هذا الأمر. كذلك يلزم الرجوع إلى الفصل الذى كتب خصيصا لشئون التزكية.

مسألة أخرى تتعلق بضرورة التأنى والتروى فى إبرام الأمور بشأن إصدار الأحكام وختمها؛ إذ إنه تقع شبه كثيرة فى هذا القسم. وأكثر القضايا التى تنفذ فى دوائرها ومناطقها، يقوم أصحابها بإثباتها لدى قضاة الولايات الأخرى. ونظرا لأنه فى تلك المناطق الغريبة، لا يقع اطلاع دقيق على أسباب تلك القضايا وظروفها، ويخفى على القضاة صحتها وسقمها، إذ يختمون الوثائق دون تحر، ويرسلونها إلى القضاة الآخرين ليفتحوها ويصدقوا عليها، ويحكموا بصحتها. وبذلك يروج الباطل فى صورة الحق. ولا شك أن طريق الخلاص من هذه الورطة هو أنه فى حالة عدم اطلاع القضاة على ماهية القضية، وضرورة رفعها فى موضع قريب، ولم يحيطوا بظروفها إحاطة تامة، لا يسجلونها ولا يختمونها. وعلى الذى يفتح وثيقة الحكم، ألا يسارع بفتحها، وإصدار الحكم بشأنها، ما لم يعرف ضرورة الحكم لدى ذلك القاضى الذى ختم الورقة بختمه.

موضوع آخر يتضمن الاحتياط فى الأمور التى تتعلق بتحرير الحجج والوثائق وأنواع الكتب وأصناف التصديق على الأحكام والسجلات لأن ما يحرر فى أكثر الأحوال لا يخلو من خلل. كما أن سريان ضرر عدم الاحتياط يؤدى إلى إثبات الأباطيل وإبطال الحقوق. وهذا الخلل إنما يرجع إلى جهل الكتبة بلوازم الكتابة وشروطها. أو إلى تحكم الميول الشخصية أو محاباة جانب وترجيحه على جانب آخر.

ولما كان من الواجب تدارك مثل هذه الأمور تداركًا تاما، أمرنا جمعـا من القضاة والأئمة والعلماء الذين كانوا متصفين بدقة النظر بأن يقوموا متضامنين بحصر **[ص٤٤٣]** أعداد أنواع المكتوبات التى تكتب على سبيل الإجمال فى المحكمة؛ فحرروا نسخة لكل نوع وجمعوا المطالـب كلها فى مجلد واحد يكون كامل الشروط، جامع الدقائق بعيدا عن مواقع الطعن، واحتمال المعارضة، موشحا بتمهيد مناسب ينطوى على فوائـد كثيرة. ثم اعتمد هذا المجلد كبار الشخصيات وأعيان العلماء بتوقيعاتهم، وشهدوا على صحة تلك المقاصد. وعندما تم هذا الغرض استنسخوا من ذلك نسخًا كثيرة، وأرسلوها إلى أطراف البلاد، حتـى إذا مـا دعـت الحاجة إلى تحرير أى نوع من الفتاوى والأحكام والوثائق، أقدموا على كتابتها على تلك الصورة، وذلك بعد صدور حكم الحاكم، وبناء علـى إشارته. ويجب على قضاة البلاد أن يمعنوا النظر فيها أولاً على سبيل الاحتياط. وعندما يرونها مطابقة للمقصود، وتستقيم مع جادة الشـرع المطهر يعتمدونها ويصادقون عليها بتوقيعـاتهم، ويلتزمـون بتنفيـذ شروطها؛ حتى لا يتجاوزوا - فى المستقبل – ما نص عليه فـى كـل باب منها، ويكتبوها حرفًا حرفًا. وحيث إن هذا الأمر قد تأكد سـابقًا، وهو أنه عندما ينص على أن حكم الحاكم قـد صـدر بتحريـر هـذه الأحكام، لا يقوم الكتبة بذلك بناء على التكليف الصـادر إلـيهم، بـل يشعرون أيضا بأنهم فى مثل تلك الأمور إنما يحققون محض الرحمة.

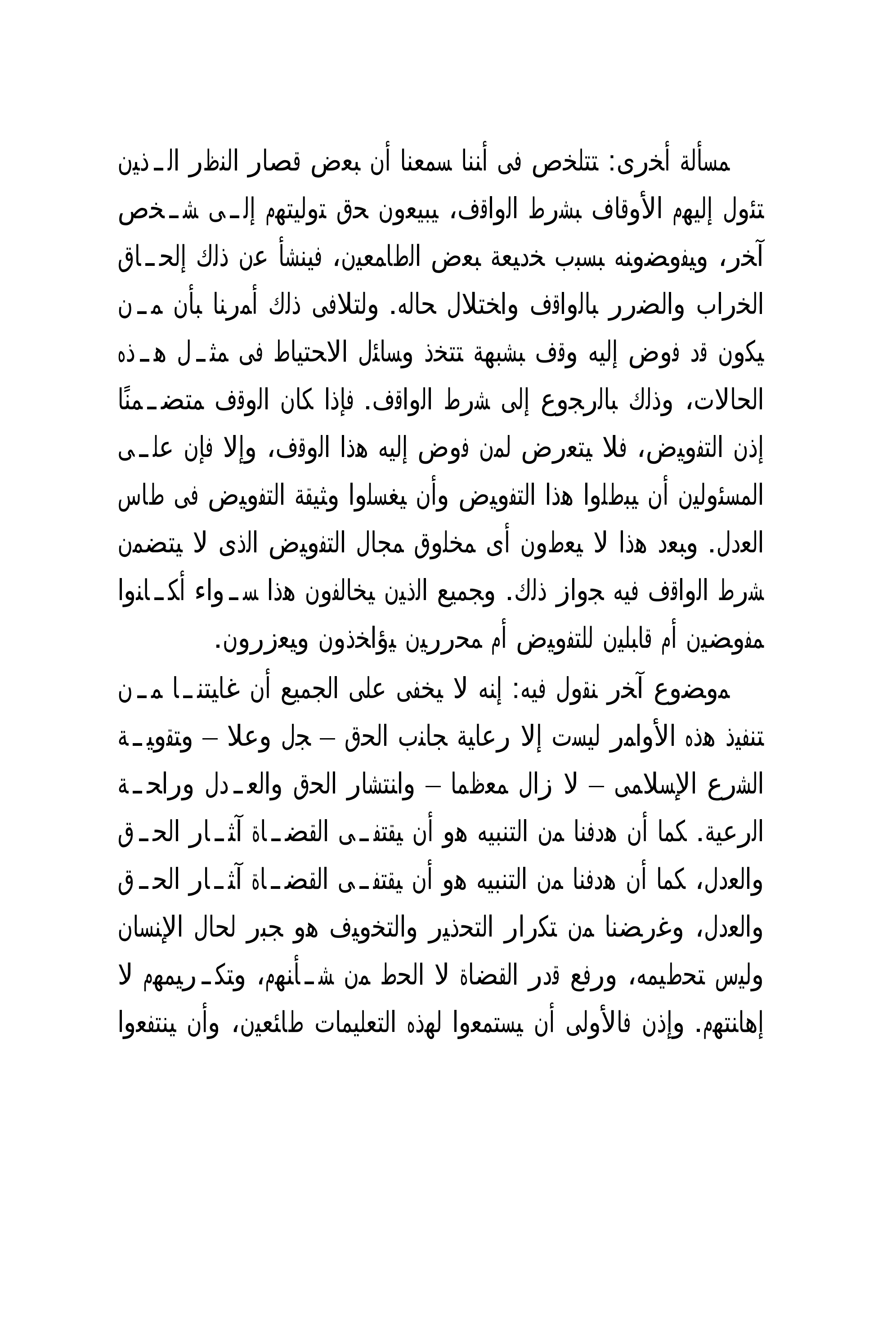
مسألة أخرى: فكما هو معلوم أن تساهل بعض القضاة وتـراخيهم وعدم نزاهتهم قد بلغ حدا خطيرا؛ بحيث إنهم راحوا يصدرون حكمين متناقضين فى قضية واحدة بين خصمين كلاهما مسـجل، ولـم يفكـر هؤلاء القضاة فى قبح ما يقدمون عليه، ولم يحتـرزوا مـن اكتشـاف أمرهم. ولتلافى ذلك أمرنا بألا يسيروا فى المستقبل على هذا المنوال، لأى سبب أو تصريح وأن يهتموا بتلافى ما حدث. وإذا ما وقع مثل هذا الأمر فى محضر أى قاض فإن عليه أن يحضر الحكمين، ويجـد فـى الاحتياط لتحرى الحقيقة فى كل ما يتعلق بالقضية. وإذا كان محتاجـا إلى معاونة الأئمة، فليعقد اجتماعا لتوضـيح الأمـر وفـق القـانون الصحيح، وتمكين أى طرف يتضح ويلوح الحق إلى جانبـه، ويغسـل الحكم الآخر فى طاس العدل. وإذا لم يفصل فى تلك القضية فى حينها، ولم يصدر قرار حاسم بشأنها تودع على سبيل الوديعة **[ص٤٤٤]** لدى أمين المحكمة، ولا تسلم بتاتًا للخصمين، بل توقف حتى يفصل فيها؛ إذ إن ترك أمثال هذه الوثائق بيد الخصوم، لا يترتب عليه شىء قط سوى الفساد والفتنة والاختلال. وليس هناك شك فى أن كل خصم أو ورثتـه سوف يظهرون تلك الوثيقة عندما يجدون مجالاً للشبهة والالتباس فـى وقت من الأوقات، ويبادرون بإقامة الدعوى. وربما لا تتـوافر لـدى القاضى الجديد الدلائل والشواهد على تلك القضية، فيحكم بالباطل. أما إذا احتفظوا بالوثيقتين، وتحقق الخصمان من أنهما لن تعـادا إليهمـا،

فإنهما سوف يحضران بالضرورة للمقاضاة، ويفصل فى الدعوى على النحو المقرر على وجه التحقيق. وبهذا يستقر الحق فى نصابه.

مسألة أخرى: سبق أن حكم السلطان ملكشاه بناء على اتفاق أئمـة العصر واجتهادهم واستصوابهم، ودون ذلك من أجل مصلحة النـاس. وقد نص على أن كل من وقف وقفًا خِفية، أو كتب إقرارا بتمليك أحـد سرا، وأخفى ذلك. ثم باع هو نفسه أو ورثته ذلك العقار المنصـوص عليه فى الوقفية أو المذكور فى الإقرار. وبعد مدة أظهر هو أو ورثته تلك الوقفية أو ذلك الإقرار مدعيا أنه قد اشترى ذلك العقار، فإن علـى قضاة البلاد ألا يستمعوا لتلك الدعوى، ويبطلوا الوقفية والإقرار. كذلك يجب عليهم تأديب المـدعى وتعزيـره. وعلـيهم أن يقـروا الملكيـة للمشترى.

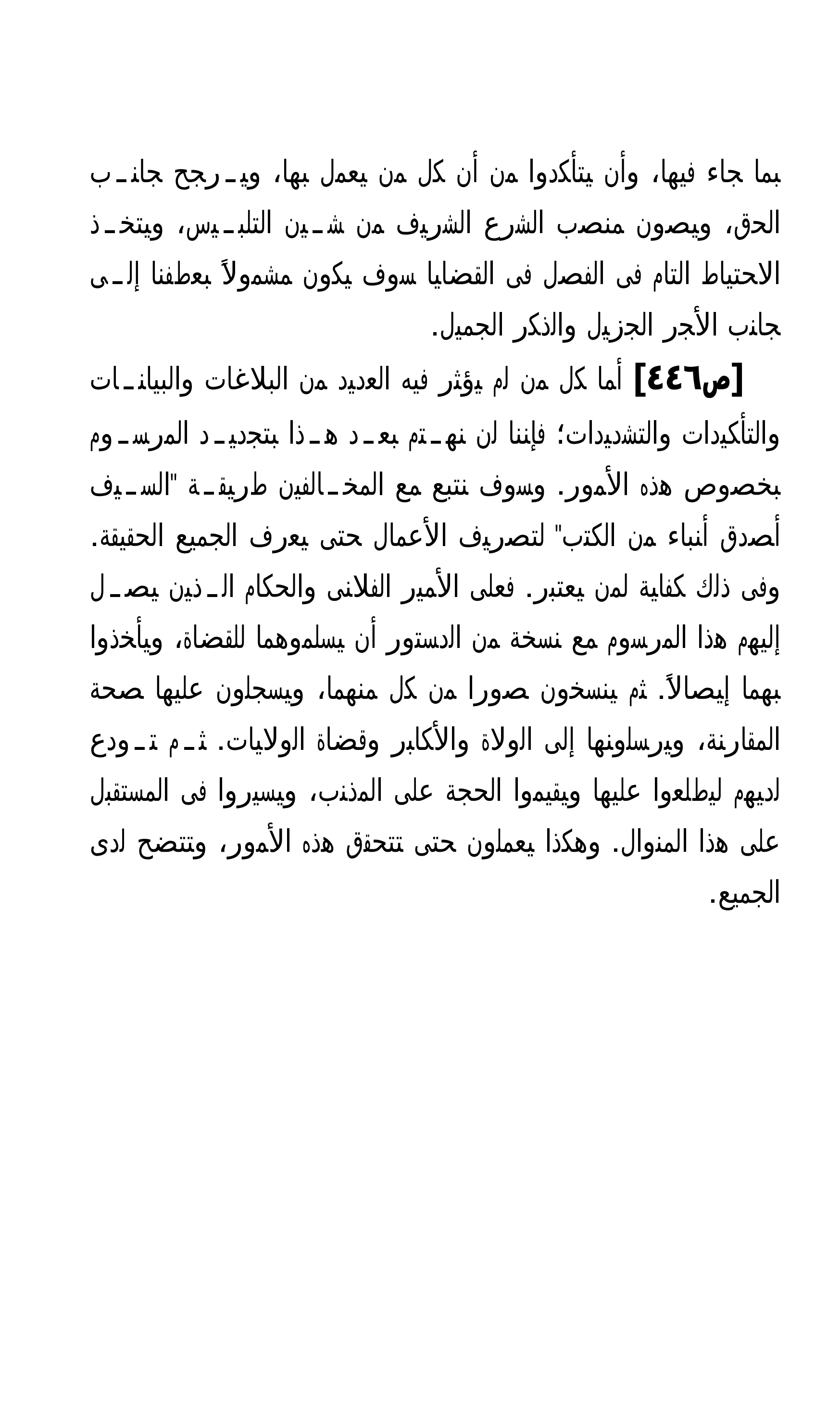
وبعد أن اجتمع جماعة من مشاهير الأئمة فترة مـن الوقـت فـى قزوين سجلوا بالاجتهاد مسائل الإصلاح التى أعدوها، والمنـوط بهـا صلاح الخلق فوجب على القضاة العمل بها. ومن جملتها أن كل عقار يكون شرعا فى يد أحد الملاك لا يسترد منه، **[ص٤٤٥]** بسبب ظهور عقد مخالف له، بل يبقونه فى يده.

ونحن أيضا قد أمرنا قضاة البلاد بأن يسيروا على هـذا المنـوال، وألا يتجاوزوا هذا الحكم الذى اتفقوا عليه، وطلبـوا بواسـطته إقـرار الحق.



مسألة أخرى: تتلخص فى أننا سمعنا أن بعض قصار النظر الذين تئول إليهم الأوقاف بشرط الواقف، يبيعون حق توليتهم إلى شخص آخر، ويفوضونه بسبب خديعة بعض الطامعين، فينشأ عن ذلك إلحاق الخراب والضرر بالواقف واختلال حاله. ولتلافى ذلك أمرنا بأن من يكون قد فوض إليه وقف بشبهة تتخذ وسائل الاحتياط فى مثل هذه الحالات، وذلك بالرجوع إلى شرط الواقف. فإذا كان الوقف متضمنًا إذن التفويض، فلا يتعرض لمن فوض إليه هذا الوقف، وإلا فإن على المسئولين أن يبطلوا هذا التفويض وأن يغسلوا وثيقة التفويض فى طاس العدل. وبعد هذا لا يعطون أى مخلوق مجال التفويض الذى لا يتضمن شرط الواقف فيه جواز ذلك. وجميع الذين يخالفون هذا سواء أكانوا مفوضين أم قابلين للتفويض أم محررين يؤاخذون ويعزرون.

موضوع آخر نقول فيه: إنه لا يخفى على الجميع أن غايتنا من تنفيذ هذه الأوامر ليست إلا رعاية جانب الحق – جل وعلا – وتقوية الشرع الإسلامى – لا زال معظما – وانتشار الحق والعدل وراحة الرعية. كما أن هدفنا من التنبيه هو أن يقتفى القضاة آثار الحق والعدل، كما أن هدفنا من التنبيه هو أن يقتفى القضاة آثار الحق والعدل، وغرضنا من تكرار التحذير والتخويف هو جبر لحال الإنسان وليس تحطيمه، ورفع قدر القضاة لا الحط من شأنهم، وتكريمهم لا إهانتهم. وإذن فالأولى أن يستمعوا لهذه التعليمات طائعين، وأن ينتفعوا



بما جاء فيها، وأن يتأكدوا من أن كل من يعمل بها، ويرجح جانب الحق، ويصون منصب الشرع الشريف من شين التلبيس، ويتخذ الاحتياط التام فى الفصل فى القضايا سوف يكون مشمولاً بعطفنا إلى جانب الأجر الجزيل والذكر الجميل.

[ص٤٤٦] أما كل من لم يؤثر فيه العديد من البلاغات والبيانات والتأكيدات والتشديدات؛ فإننا لن نهتم بعد هذا بتجديد المرسوم بخصوص هذه الأمور. وسوف نتبع مع المخالفين طريقة "السيف أصدق أنباء من الكتب" لتصريف الأعمال حتى يعرف الجميع الحقيقة. وفى ذلك كفاية لمن يعتبر. فعلى الأمير الفلانى والحكام الذين يصل إليهم هذا المرسوم مع نسخة من الدستور أن يسلموهما للقضاة، ويأخذوا بهما إيصالاً. ثم ينسخون صورا من كل منهما، ويسجلون عليها صحة المقارنة، ويرسلونها إلى الولاة والأكابر وقضاة الولايات. ثم تودع لديهم ليطلعوا عليها ويقيموا الحجة على المذنب، ويسيروا فى المستقبل على هذا المنوال. وهكذا يعملون حتى تتحقق هذه الأمور، وتتضح لدى الجميع.

الحكاية الخامسة عشرة

فى منع تحرير القبالات غير المشروعة وإبطال الحجج القديمة

قبل هذا فى عهد الخلفاء والسلاطين - أنار ا بـراهينهم - كـان المسئولون يبذلون كل ما فى مقدورهم بخصوص ازدهار شئون القضاء وقوانين الشريعة ويحتاطون احتياطًا تاما فى هذه الأمور، ويختـارون الرجال المتدينين من العلماء والفضلاء من أهل الثقة الجـديرين بتقلـد منصب القضاء. وكان هؤلاء أيضا بدورهم يحرصون على أن يجعلوا المتدينين الشرفاء من العلماء المشهورين يلازمون دار القضـاء. فـلا غرو أن كانت الأمور الشرعية والقضايا الدينية تبرم وفقًا لأوامـر ا تعالى ورسوله عليه السلام. وبذلك استقرت حقوق الخلق فى مواضعها، وأغلقت تماما أبواب الظلم والحيف.

وعلى هذا لم يعد هناك مجـال للأخسـاء والمـارقين الطـامعين والفضوليين المزورين كى يحوموا بأى وجه حول أمثال هذه الأعمـال الخطيرة متذرعين بأنواع الحيل والتلبيس. وعلى هذا لـم يكـن لمثـل هؤلاء الأشخاص قدرة على التردد على المجامع والمجالس، ولم يلتفت إليهم أى مخلوق.

ورغم ذلك الضبط والترتيب الذى كان متبعا فـى عهـد السـلطان السعيد ملكشاه - طاب ثراه – فإنه لا يزال فى أيدى الناس– كما هـو الحال الآن ايضا – كثير من القبالات القديمة المكررة والخالصة الملكية فكانوا يحملونها إلى القضاة، ويلجأون إلى الحيل **[ص٤٤٧]** التى تلزم القضاة بضرورة الاستماع إليها والنظر فيها. وعن طريق تقديم بعـض الهدايا[١] المتواضعة يستطيعون ترويج الباطل فى صورة الحق. ولمـا كانت المتاعب تحل بالناس لهذا السبب، ثم يتضح بعد ذلـك أن تلـك الدعاوى كانت باطلـة، وأن الوثـائق ومسـتندات الأمـلاك القديمـة والخالصة الملكية قد انتقلت من قبل إلى الآخرين، بلغت تلك الـدعاوى والشكاوى مرات ومرات مسمع السلطان ملكشاه ووزيره نظام الملـك، فتأكدوا أن الذريعة التى يتمسك بها هؤلاء المزورون إنما هى القبالات القديمة المكررة والخالصة الملكية التى بقيت بعد أصحابها الأول فى يد المالك أو ورثته. وبتمادى الأيام، لم يقف على أحوالها أحـد. وفجـأة يبرز أحد أبناء المالك تلك القبالة، فيقيم الدعوى. ويمكن أن مشترى تلك الأملاك أو ورثته لم يروا تلك القبالات، أو تكون قد فقـدت، أو أنهـا نهبت أثناء الغارات، أو أنها أيضا تكون قد سرقت من آباء المشـترى وسلمت للبائع. وهؤلاء لعلمهم أن القبالة المتنقلة الشرعية ليسـت فـى

---

(١) يقول الماوردى: "وليس لمن تقلد القضاء أن يقبل هدية من خصم ولا من أحد من أهل عمله، وإن لم يكن له خصم لأنه قد يستعديه فيما يليه". (الأحكام السلطانية، ص٧٥).

أيديهم ومع هذا يقيمون الدعوى بقبالتهم القديمة، ويثبتون بها أحقيـتهم زورا. وهكذا فإن أمثال هذه الحالات كثيرة ومتعددة.

وقصارى القول فإن السلطان ملكشاه والوزير "نظام الملك"[1] عندما وقفا على تلك الأوضاع، كتبا منشورا حسب ما يقتضيه الشرع. وقـد صرح السلطان بأنه ليس لأحد أن يقيم الدعوى، ولا أن تُسمع دعـواه استنادا إلى القبالات القديمة التى مر عليها ثلاثون عاما. ثم سلم ذلـك المنشور إلى جميع مفتى خراسان والعراق وبغداد؛ فـأفتوا فيـه وفقًـا لأحكام الشريعة. بعد ذلك أرسله إلى دار الخلافة لتوقيعه ولا زال ذلك المنشور موجودا حتى الآن ونسخه منتشرة فى الأطراف. ولمـا كـان القضاة وأصحاب دار القضاء على هذا النحو الذى ذكرناه فـإن مثـل هؤلاء القضاة المتدينين الثقات والسلطان والوزير تحيروا مـن أفعـال هؤلاء الأشرار، فاضطروا إلى إصدار مثل هذا المرسوم.

---

(١) للحصول على تفصيلات عن الخواجه نظام الملك الطوسى وزير السلاجقة الكبير انظر: المؤرخ الإيرانى الكبير غياث الدين خواندمير كما يبدو فى كتابه دستور الوزراء تـأليف وترجمـة وتعليق الدكتور حربى أمين سليمان ص٢٤٥ – ٢٦٧ الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٠م؛ الوزارة فى عهد السلاجقة تأليف عباس إقبال وترجمة الدكتور أحمد كمال الدين حلمى، ص ٦٩ – ٨٣، مطبوعات جامعة الكويت، ١٩٨٠م؛ سياستنامه أو سير الملوك، تأليف نظام الملك الطوسى وترجمة الدكتور يوسف حسين بكار، مقالة الدكتور غلام حسين يوسفى بعنوان: تصدير: السياسى العجوز، ص١٣ – ٤٢، الدوحـة ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م؛ مجلـة الدراسات الأدبية فى الثقافتين العربية والفارسية: مقالة بعنوان المدرسة النظامية فى بغداد للأستاذ سعيد نفيسى، ص ٦٧ – ٩٣، الجامعة اللبنانية: قسم اللغة الفارسية وآدابها، السنة التاسعة – العددان ١،٢ الربيع والصيف ١٩٦٧م.

وقد اتفق أنه فى عهد المغول علم بالتدريج أن القضـاة والعلمـاء يعرفون بمجرد لبسهم العمامة والدراعة[1]. ولكن مـن المقطـوع بـه **[ص٤٤٨]** أن المغول لم يكونوا يعرفون كيف يميزون هذه الطبقة من غيرهم. ولهذا السبب ارتدى الجهال والسفهاء الدراعة والعمامـة بكـل وقاحة وراحوا يلازمون المغول. وسرعان ما نالوا شهرة لديهم، وذلك بأنواع التملق والتزلف والرشوة. وقد تدخلوا فى شئون القضاء وتقلدوا المناصب الشرعية، وحصلوا على المرسوم فى هذا المجال.

ولما استمر الحال مدة على هذا النحو كف العلماء الكبار المتدينون ذوو الشرف أيديهم عن تلك الأشغال والأعمال؛ إذ كيف يوافق الرجال الكبار على أن يضعوا أنفسهم فى محيط هؤلاء الأشـخاص غيـر أن الوزراء والحكام التازيك لم يكونوا يتخلون عن طائفة العلمـاء الكبـار الشرفاء، والذين كانوا فى قمة الشهرة، فصاروا يثنون علـيهم دائمـا، ويمنعون كل شخص مفسد يحاول أن ينال منهم. ولهذا السـبب بقـى بعض القضاة الكبار المشهورين فى مناصبهم. وكانت أحوال الكثيـرين منهم على النحو الذى شرحناه.

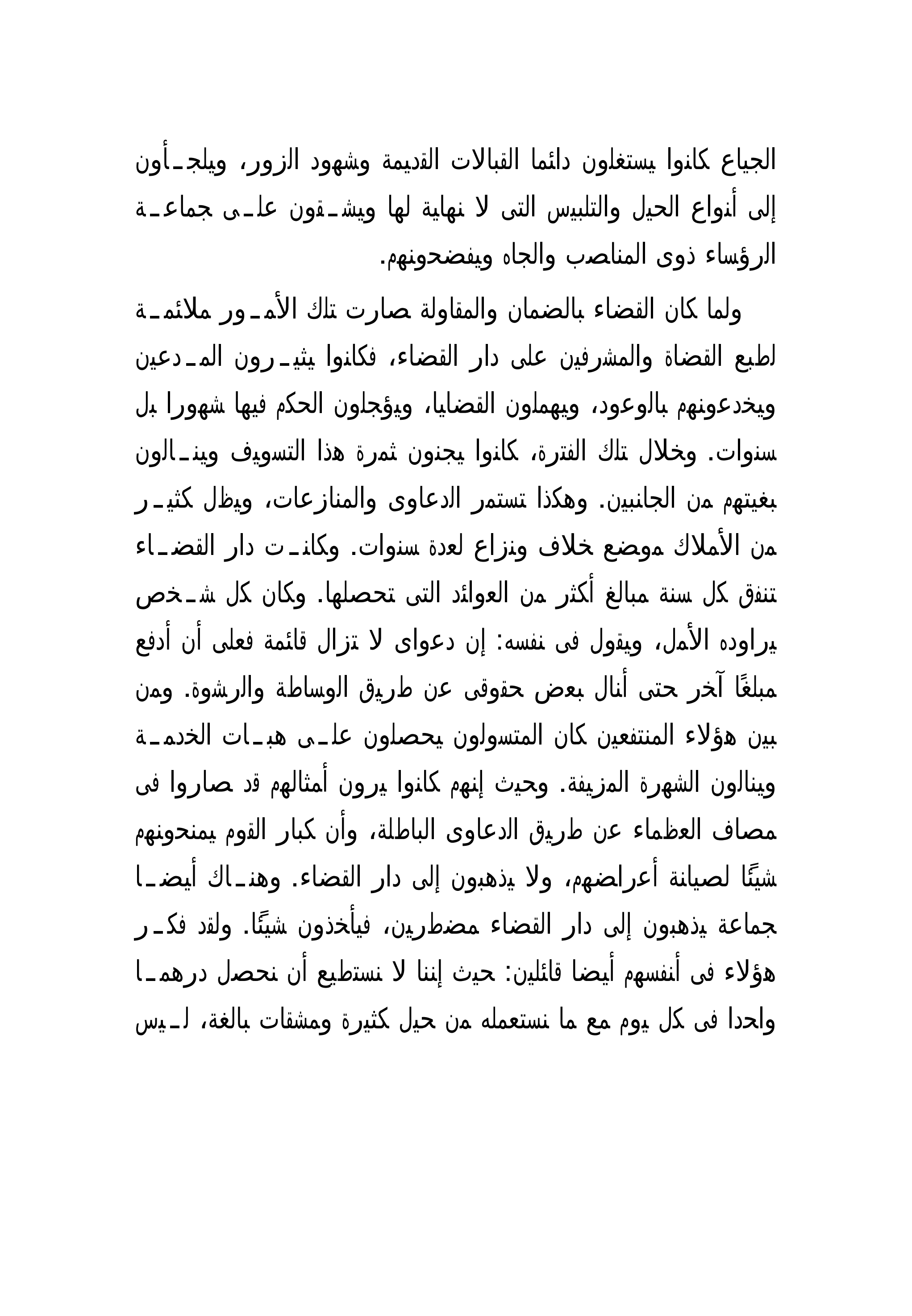
ولما كان الجهال والسفهاء – الذين يبدون فى صـورة العلمـاء – كثيرين فى البلاد وكانوا يرون أن أمثال هؤلاء يتقلدون مناصب كبيرة،

---

(١) الدراعـة: ثـوب مـن صـوف. وجبـة مشـقوقة المقـدّم. (انظـر المعجـم الوسـيط، ج١ ص٢٨٠).

طفقوا يعارض بعضهم بعضا. وقد لفت نظر المغول كثـرة نـزاعهم ومجادلاتهم. كما اتضحت وقاحتهم للجميع؛ فظـن المغـول أن جميـع العلماء على هذا النحو، وبذلك ضاعت حرمة وهيبة كبار الشخصـيات بل زالت كرامة أمة الإسلام بسبب هؤلاء الجهال، وصار الجميع سيئى السمعة أذلاء محتقرين. وكان كل أمير وعظيم يحمى واحدا من هؤلاء الأشرار. وفى كل فترة ينصب أحدهم قاضيا، ويعزل آخر. وقـد بلـغ الأمر ببعضهم أنهم كانوا يتقلدون منصب الفقهاء بالضمان، ويجب على القاضى أن يحكم بشفاعة هذا الأمير أو ذاك، وبناء على إلحاحـه، ولا يأخذ شيئًا من أحد.

ولما كان منصب القضاء يؤخذ بالضمان والمقاولة، فإننا يمكـن أن نعرف كيف كانت الأمور تجرى على أى وجه. وقد وضح هـذا فـى عهد كيخاتو خان الذى كان وزيره صدر الدين، ولقب نفسه بصدرجهان (صدر العالم) هذا على حين أن أخاه نصب قاضيا للقضاة ولقب بلقـب "قطب جهان" (قطب العالم). وتقلد الشيخ محمود منصب شيخ المشـايخ وأسند إليه النظر فى بعض الشئون الدينية، فبلغت غاية الكمال. كـذلك كانوا يعهدون بالأعمال الشرعية إلى أشخاص عن طريـق المقاولـة. ولهذه الأسباب أدى الأمر فى السنوات الماضـية إلـى فـتح طريـق الدعاوى الباطلة **[ص٤٤٩]** وكل مخلوق امتلك أو حاز عقارا، صـار وبالاً عليه. وكان أسوأ وأخطرمن مائة عدو؛ لأن المفسدين المحتـالين



الجياع كانوا يستغلون دائما القبالات القديمة وشهود الزور، ويلجـأون إلى أنواع الحيل والتلبيس التى لا نهاية لها ويشـقون علـى جماعـة الرؤساء ذوى المناصب والجاه ويفضحونهم.

ولما كان القضاء بالضمان والمقاولة صارت تلك الأمـور ملائمـة لطبع القضاة والمشرفين على دار القضاء، فكانوا يثيـرون المـدعين ويخدعونهم بالوعود، ويهملون القضايا، ويؤجلون الحكم فيها شهورا بل سنوات. وخلال تلك الفترة، كانوا يجنون ثمرة هذا التسويف وينـالون بغيتهم من الجانبين. وهكذا تستمر الدعاوى والمنازعات، ويظل كثيـر من الأملاك موضع خلاف ونزاع لعدة سنوات. وكانـت دار القضـاء تنفق كل سنة مبالغ أكثر من العوائد التى تحصلها. وكان كل شـخص يراوده الأمل، ويقول فى نفسه: إن دعواى لا تزال قائمة فعلى أن أدفع مبلغًا آخر حتى أنال بعض حقوقى عن طريق الوساطة والرشوة. ومن بين هؤلاء المنتفعين كان المتسولون يحصلون علـى هبـات الخدمـة وينالون الشهرة المزيفة. وحيث إنهم كانوا يرون أمثالهم قد صاروا فى مصاف العظماء عن طريق الدعاوى الباطلة، وأن كبار القوم يمنحونهم شيئًا لصيانة أعراضهم، ولا يذهبون إلى دار القضاء. وهنـاك أيضـا جماعة يذهبون إلى دار القضاء مضطرين، فيأخذون شيئًا. ولقد فكـر هؤلاء فى أنفسهم أيضا قائلين: حيث إننا لا نستطيع أن نحصل درهمـا واحدا فى كل يوم مع ما نستعمله من حيل كثيرة ومشقات بالغة، لـيس

هناك أفضل من هذه المهنة وهذه الصنعة. وبناء على هذا سلك الجميع هذا المسلك، فاحتفظ بعضهم بقبالاتهم القديمة، وصار الـبعض الآخـر يقف إلى جانب غيره يؤيده بالوقاحة والسفاهة، وآخرون يتفقـون مـع شخص يستطيع تقليد أنواع الخطـوط المشـابهة لخطـوط الآخـرين ويحررون القبالات المسجلة، ويعاون أحدهم الآخر فى هذا السبيل. هذا على حين أن هناك طائفة أخرى راحت تقلد المنشورات الصادرة عـن السلاطين السالفين، وكذلك القبالات القديمة المكتوبة بخطوط مجهولـة، والتى مر عليها مائة وخمسون سنة. ولو لم يكن للقبالة شاهد عدل، فإن كل واحد **[ص٤٥٠]** من هذه الجماعة، كان يذهب إلى المحكمة فـى حماية رجل مغولى أو واحد من أصحاب النفوذ وينازع الناس. وإذا لم يصدر القضاة حكمهم فى مثل هذه القضايا، فإنهم يلزمـون الصـمت مراعاة لمصلحتهم الشخصية، ولا ينطقون بكلمة الحق، ويبلغونهم الحكم سرا على لسان أعوان المجالس قائلين: إن هذه الجماعة باطشة أيـديهم، ولا نستطيع أن نجيب إجابة صريحة. وهكذا كانوا يمضون يومهم بهذه الطريقة. وفى مقابل ذلك كانوا يأخذون شيئًا. وإذن فهذه القضية كانـت مثل الطاحون كلما زاد دورانها تصير أحد وأقوى. وقد وصل الأمـر إلى حد أن ظهرت فى البلاد دعاوى كثيرة باطلة لا تعد ولا تحصى.

وعندما كان المدعى بالباطل يحتمى بأحد أصحاب الأيدى القوية فإن المدعى عليه المسكين والمالك الحقيقى للعقار يضطر إلـى الاسـتعانة

بحماية رجل آخر من ذوى السلطان خوفًا على ماله وعرضه، فيستتبع ذلك بالضرورة أن ينشب النزاع وتسود الخصـومة بـين الشخصـين القويين. وهذه طبيعة الزمان منذ قديم الأيام أن يستعمل السيف من أجل المحافظة على الملك. وقد بلغ الشؤم بهؤلاء القوم إلى حد أن أكثر ذوى النفوذ شرعوا هم الآخرون ينازع الواحد منهم الآخر، ونشـبت بيـنهم الخصومات مما يؤدى إلى استعمال السيف. وكان أكثر تلك المنازعات يحدث بوجه خاص إذا ما باع المغتصب القرية - التى يعـادل ثمنهـا عشرة آلاف دينار وهى ملك لصاحبها الحقيقى – لأحـد ذوى النفـوذ بثلاثين أو مائة دينار ذهبى. وقد استقر فى ذهنه أن هذه القرية كانـت ملكًا له. وهى الآن على حد قوله "فى حيـازتى". كـذلك راح بعـض خطباء القرى وغيرهم يؤيدونه جهلا ومروقًا، ويقولون: "إن هذا البيـع صحيح والقرية ملك خاص لك".

وحيث إن المغول – على خلاف ما كانوا عليه فى العهود السابقة – قد ظهرت فيهم رغبة اقتناء الأملاك، واشتد سعيهم فى هذا السبيل فأدى الأمر إلى أن برزت مشكلة الأملاك دفعة واحدة، وصارت فى مقدمـة القضايا المقلقة، وأصبح جميع الناس غيـر آمنـين علـى أعراضـهم وأرواحهم، وعجز القضاة المتدينون من أفعال تلك الفئة من المفسـدين المزورين ولم تكن لهم قدرة على تدارك تلك الأوضاع. فصاروا دائما يلتمسون الخلاص **[ص٤٥١]** من حضرة الحق تعالى.

فلما وصل العهد المبارك لسلطان الإسلام – خلد سلطانه – وشاهد ذلك الأسلوب المذموم، فكر فى تداركه، فأصدر فرمانًا، وكلف نقلة الأخبار الثقات بأن يذهبوا إلى كل ولاية أينما يوجد أى مزور، يظهر فيها تزويره، ولا يدعون الآخرين يعملون على إخفاء هؤلاء المزورين أو حمايتهم، وطلب فى الحال استدعاء هؤلاء الذين افتضحت أمورهم فعاقبهم بعد ثبوت جرمهم.

وبهذه الطريقة اكتشف كثير من محاولات التزوير والقبالات الكاذبة التى كانوا قد حرروها، وأعدم هؤلاء المزورون طبقًا لعدل وإنصاف سلطان العالم غازان خان خلد سلطانه. وهذا هو مغزى الحكاية التى كتبتها عن السلطان ملكشاه، ومضمونها هو عدم الاستماع للدعاوى التى مر عليها ثلاثون عاما.

وفى عهد هولاكو خان شرح له الوزراء التازيك هذا الوضع. وبناء على ذلك صدر مرسوم فى هذا الشأن. ولقد استمر العمل بهذا المرسوم فى عهود آباقاخان وأرغون خان وكيخاتو خان. ولكن لم يظهر أثر بخصوص تنفيذه، وذلك لسببين:

السبب الأول: أن هناك شروطًا كثيرة شرعية وعقلية وعرفية لها أهميتها فى هذا الشأن لم تذكر فى تلك الأحكام. وحيث إنهم بخصوص القبالات القديمة نصوا - بصورة مطلقة - على عدم سماع الدعاوى التى مر عليها ثلاثون سنة، فإن ذلك لم يكن أمرا مشروعا فبقى مهملاً.

السبب الثانى: هو أن أحكام المرسوم ينبغـى أن ينفـذها الحكـام والأئمة ولما كان أغلبهم يريدون شراء أملاك كثيرة بأسعار زهيدة، لم يكن يتسنى لهم ذلك إلا بهذه الطريقة. وإذن فكيف كان يمكـنهم تنفيـذ نص ذلك المرسوم؟ لقد كان من الطبيعى أن يهملوا هذه الأحكام رغـم أنهم أقروها.

وعندما أراد سلطان الإسلام – خلد ملكه – أن يوقع ذلك المرسـوم أمر بتحرير صورة منه باتفاق ومشورة القضاة الكبار والعلماء الفطاحل ذوى الكفاءة. ولقد كتب نص ذلك المرسوم المرحوم مولانا فخر الـدين قاضى هراة الذى كان من فحول العلماء والفضلاء المشـهورين فـى عصره، **[ص٤٥٢]** والذى كان يتحلى بفنون الكمالات، والمشار إليـه بالبنان وقاضى قضاة عصره، ووحيد دهره فى الإنشاء. كتب هذا العالم صورة ذلك المرسوم؛ بحيث يكون مشتملاً على عدة قيـود وشـروط ينبغى مراعاتها فى هذا الباب. ولقد نفذ المرسوم على هذا النحو.

كذلك صدر الأمر بأن يتقلد منصب القضاء فى كافة البلاد من يتفق الوضيع والشريف على أحقيته واستعداده لمباشرة هذا العمل الخطيـر. كذلك قرر لهؤلاء القضاة مرتبات مجزية كى يقنعوا بهـا ولا يأخـذوا شيئًا قط من أحد لأى سبب من الأسباب، وأصدر السـلطان مرسـوما شمل كل باب من أنواع الاحتياطات ثم أرسل إلى الجهـات المختصـة مجموعة القوانين التى اتفق الأئمة على صحتها. وإن كل نصوص تلك



المجموعة من القوانين بالإضافة إلى نص ذلك المرسـوم كُتبـت فـى الفصل السابق، وليست هناك حاجة تدعو إلى تكرارها.

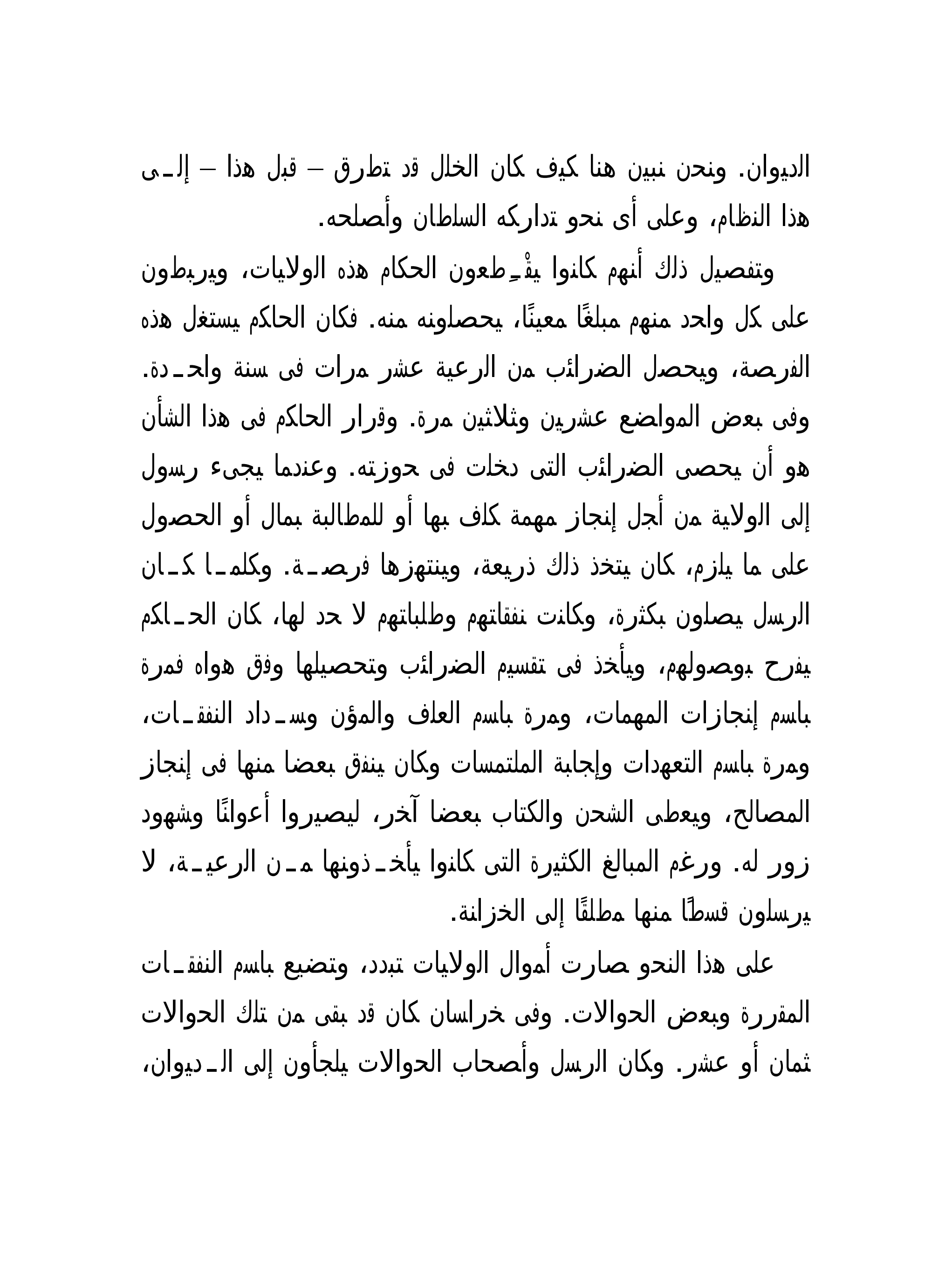
الحكاية السادسة عشرة

فى إبطال الحيازة والغصب وإزالة أنواع المصادرات

حكايات عن وقائع الأفعال وظلم حكام الولايات

نذكر هنا على سبيل الإجمال بعضا من الحكايات والأحوال، ونبين كيف أن الجباة فى كل ولاية كانوا يحصلون أموال الديوان ومسـتحقاته وما أكثر أنواعها. كما نذكر طرقًا من سوء تدبير الـوزراء، وفنـون الظلم والجور التى كانوا يتخذونها وسيلة لتخريب البلاد، وإفقار الرعايا كى يتشتتوا ويتفرقوا، ولن نبالغ فى هذا الموضوع؛ لأن القراء يعرفون أن المظالم كانت تجرى أضعافًا مضاعفة عما كانت عليه مـن قبـل. ولكن الناس فيما بعد سوف يتمتعون بالرفاهية والراحة بسـبب عـدل وإنصاف سلطان الإسلام – خلد سلطانه – وينسون أيضا تلك المتاعب والمشقات. أما الأطفال والأشخاص الذين يأتون بعد هذا، ولم يكونوا قد رأوا ذلك الظلم والجور، فلا بد أنهم يتصورون أن تلك الأمور قد كتبت على سبيل المبالغة والتهويل. ولهذا السبب نوجز حـديثنا عـن هـذا الموضوع فيما يلى:

[ص٤٥٣] لقد وقف سلطان العالم على أحوال العـراق العجمـى وآذربيجان والولايات التى كانت تجبى منها الضرائب، وتسدد حقـوق



الديوان. ونحن نبين هنا كيف كان الخلل قد تطرق – قبل هذا – إلى هذا النظام، وعلى أى نحو تداركه السلطان وأصلحه.

وتفصيل ذلك أنهم كانوا يقطعون الحكام هذه الولايات، ويربطون على كل واحد منهم مبلغًا معينًا، يحصلونه منه. فكان الحاكم يستغل هذه الفرصة، ويحصل الضرائب من الرعية عشر مرات فى سنة واحدة. وفى بعض المواضع عشرين وثلاثين مرة. وقرار الحاكم فى هذا الشأن هو أن يحصى الضرائب التى دخلت فى حوزته. وعندما يجىء رسول إلى الولاية من أجل إنجاز مهمة كاف بها أو للمطالبة بمال أو الحصول على ما يلزم، كان يتخذ ذلك ذريعة، وينتهزها فرصة. وكلما كان الرسل يصلون بكثرة، وكانت نفقاتهم وطلباتهم لا حد لها، كان الحاكم يفرح بوصولهم، ويأخذ فى تقسيم الضرائب وتحصيلها وفق هواه فمرة باسم إنجازات المهمات، ومرة باسم العلف والمؤن وسداد النفقات، ومرة باسم التعهدات وإجابة الملتمسات وكان ينفق بعضا منها فى إنجاز المصالح، ويعطى الشحن والكتاب بعضا آخر، ليصيروا أعوانًا وشهود زور له. ورغم المبالغ الكثيرة التى كانوا يأخذونها من الرعية، لا يرسلون قسطًا منها مطلقًا إلى الخزانة.

على هذا النحو صارت أموال الولايات تبدد، وتضيع باسم النفقات المقررة وبعض الحوالات. وفى خراسان كان قد بقى من تلك الحوالات ثمان أو عشر. وكان الرسل وأصحاب الحوالات يلجأون إلى الديوان،

وفى أيديهم الحوالات، فيجيبهم المسئولون: "إن المـال موجـود فـى الولايات، فكيف لا يسلم إلى أصحابه؟!" ثم يؤكدون ذلك بختم الحوالات مجددا بالختم الأحمر (آلتمغا) كى تصرف لهم حقوقهم بسرعة، فيذهب هؤلاء إلى الحاكم مرة ثانية، ويترتب على ذلك تحمل نفقـات أخـرى، فيتخذ الحاكم من ذلك ذريعة، ويفرض على الرعية ضـرائب جديـدة. وكان الحاكم يقول للرعايا: "أنتم ترون أن رسلاً عديدين قدموا إلى هنا. وإذا لم تكن هناك نفقات ولوازم معدة لهم، فإنه لا يمكن إجـابتهم إلـى مطالبهم. ولم يكن أى مخلوق يجرؤ على أن يقول له: ينبغى أن تعطينا أموالهم **[ص٤٥٤]**. أو أن يقول: إنك قد أخذت أول العـام ضـرائب مضاعفة وبددتها، إذ وزعتَ أربعة أسداس منها فيما بيـنكم، وأبقيـت سدسين لنفقات الرسل. وفى النهاية يعودون بخفى حنين. وهكذا ظلـوا يترددون مرات عديدة إلى أن صارت تلك الحوالات فى أيديهم أوراقًـا بالية. وأخيرا ينقطع الأمل فى صرف قيمتها، وتظل سنوات عديدة فى محافظهم وحقائبهم.

وجريا على المعتاد لم يكن أى مخلوق يعرف على الإطلاق ما هى حقيقة المبالغ التى تدفعها كل ولاية، ولا الجهة التـى يمكـن تحريـر الحوالات إليها حتى يحصل قيمتها. وكانوا يحررون الحوالات المتتابعة إلى الأطراف حسب الطلب.

ولما كان الوزراء والنواب يعلمون علم اليقين أن المبالغ لن تصل، ظلوا يماطلون ويسوفون، ويمنون الناس بقصد جذب قلوبهم قائلين: إننا نكتب هذه الحوالات مراعاة لخاطركم. وبهذه الألاعيب كانوا يصرفونهم راضين مسرورين. ولم يسفر هذا الوضع عن نتيجة سوى خراب الولاية. وخلال ذلك يجد النائب والوزير مبررا لاستغلال الموقف فيعرضان على حضرة السلطان قائلين: إن الجباة كثيرون فى الولاية. ويجب أن يزودوا الخزانة بقسط من الأموال. وفى الحال يستصدرون مرسوما مضمونه أنه على كافة أرباب الحوالات ألا يدفعوا شيئًا إلا كذا وكذا من النفقات، وتلك المبالغ المعدودة التى تخصص لتقديم هبات وعطايا للوزير والنائب، وهدايا للحكام. وهذه ينبغى وصولها.

بعد ذلك كان الحاكم يكتب رسالة يقول فيها: حيث إننا منعنا الجباة من التصرف فى الأموال، ينبغى أن تصل النفقات الخاصة بسرعة من الولاية. وبهذه الحيلة كان يأخذ تلك الهدايا نقدا. وكذلك كان الوزير يتواطأ مع حكام الولايات. وإذا لم ير الحاكم التأشيرة على الحوالة أو الرسالة، فإنه يمتنع عن دفع تلك الأموال. ومرة ثانية كان الرسل والجباة يعودون حيارى. ومرة ثالثة كان الوزير يمن عليهم وعلى الأمراء **[ص٤٥٥]**، ويكتب من جديد رسالة يبين – خلال سطورها – أن مصلحة الوزير قد أنجزت وأن غرضه قد تحقق.

وأما حكام الولايات فنتيجة لتواطئهم مع الوزير ومراعاة لخـاطره تجرأوا واشتد بطشهم وتمادوا فى ممارسة أنواع الظلـم والغلـو فـى الاعتداء. وكان يضيع هدرا كل سنة جزءان أو ثلاثـة مـن مجمـوع الضرائب ورسوم التمغا فى المدينـة لسـد نفقـات الرسـل والوفـاء بالتزاماتهم. وكان الناس يتعجبون لهذا التصرف ويقولون: لماذا يمتنـع الحاكم عن صرف رسوم الدمغة النقدية لمستحقيها، هذا على حين أنـه ينفقها فى مثل هذا الهراء؟! ولكنهم فى غفلة عن هذا الأمـر وهـو أن الحاكم قد اختار تلك الطريقة بسبب سوء فعله، ولكى يسـتطيع بهـذه الحجة أن يأخذ أضعاف تلك النفقات ويسلبها. وعند تصـفية الحسـاب يوفد اثنين أو ثلاثة من المندوبين من أجل نفقات الرسل. وبهذه الحجـة لا تصل حقوق الديوان. وفى الحقيقة لم يكن يصل على الإطلاق مـن تلك الولايات إلى الخزانة دانق ذهبى واحد. وكذلك الحال بالنسبة إلـى النفقات المقررة التى أنفقت من أصل الحوالات، فإنهم لم يدفعوا منهـا دينارين من عشرة دنانير. ولم يكن أحد مطلقًا يرى التمغاجى[(١)] يباشر عمله؛ لأنه كان دائما هاربا، أو أنه وقع أسيرا فى أيدى الجباة يضرب بالعصا. ولهذا كان بقدر ما يستطيع يرسل أشخاصا فى الخفاء، يذهبون ليلاً إلى منازل الرعايا كالنقابين ليستوفوا رسوم الدمغة مـن النـاس. وبحكم الضرورة كان يرضى بأن يحصل منهم نصف الرسوم المقررة

---

(١) الشخص المكلف بوضع الدمغة.

يقدمونه له خفية. ولهذا السبب كانت رسوم الدمغة تهبط وتتناقص، وما كان يحصل منها يصرف لسد نفقات العلف لدواب الرسل. هـذا علـى حين أن خدمهم كانوا ملازمين لهم كظلهـم ويحصـلون مـنهم علـى نصيبهم. وحيث إن النقود لم تكن تصل إلى الجميع، كان هؤلاء الخـدم يتشاجرون فيما بينهم؛ فمن كان أكثر قوة، فاز بالنصيب الأكبر. وأمـا أجور العمال والنفقات المقررة للولاية مما يمكـن أن يتوقـف عليـه عمرانها، وبدونها لا تُسير شئون الملك، فإنه بسبب تآمر الحكام – كان يزيد أغلبها على أًصل المال المقرر، ورغم هذا لم يعطوا مخلوقًا قـط دانقًا واحدا.

وفى أول العام يحتجون بأنهم يبادرون بإعـداد أمـوال الخزانـة. ولكنهم بعد ذلك كانوا يقولون **[ص٤٥٦]** إننا سندفعها وقت الرخـاء. ولما كان الرسل والمحصلون الكثيرون الذين لم تكن أمورهم قد أنجزت بعد، يحضرون دائما، كان الحاكم ينتحل الأعذار ويقـول: إن أفواجـا عديدة من الرسل ملازمون لى، وينبغى إنجاز مهامهم قبل غيرهم. أما أرباب الأجور والرسوم والصدقات وغيرهم، فإنهم يقضون الوقت من أول السنة إلى آخرها فى المماطلة من جانب المسئولين والتسويف إلى اليوم والغد. وهكذا كان هؤلاء الضحايا يجلسون عرايـا جياعـا. أمـا الأشخاص الأكثر نشاطًا فقد التجأوا إلى نواب الحـاكم. وبمزيـد مـن الإلحاح والتوسط يبيعون نصيبهم الواحد بنصف ثمنه. وفـى المقابـل

يشترون البضائع بضعفى ثمنها بحيث إن حقوقهم فى النهاية تصل إليهم بمشقة بالغة. وبألف حيلة إلى ربع ما كانوا يستحقون. ومن أتيحت لـه هذه الفرصة، كان يعتبر نفسه عضوا فعالاً وسـعيدا. أمـا الآخـرون فيبقون محرومين حرمانًا تاما يحسدون زملاءهـم المحظـوظين. وإذا استطاع أحد المحرومين أن يصل بمشقة بالغة إلـى بـلاط السـلطان لعرض شكواه، فإنه كان يأخذ رسالة من الديوان الأعظم مضمونها كما يقول المسئولون: إننا قد قررنا صرف مستحقاته قبل الجميع، فلـم لـم تصل إليه؟! وهنا ينتحل الحاكم عذرا قائلاً: إن على الولايـة أمـوالاً متأخرة، ولهذا لم أصرف له حقوقه، وسوف أحرر له رسالة يتسـلمها، فكان ذلك المسكين يأخذ الحوالة مضطرا بالبقايا المتأخرة. ولمـا كـان الحاكم قد استوفى الأموال الطائلة - التى سبق ذكرها - بالزيادة، كيف تكون لديه بقايا؟ وتلك البقايا التى كانت متأخرة إنما هى من الضرائب الإضافية التى فرضوها على الرعايا. وهناك بعض الرعايا الذين لـم تكن لهم طاقة على سداد الضرائب المتكررة، فيضطرون إلـى تـرك قراهم ومساكنهم ويهربون، أو إذا كان هناك أشـخاص ذوو نفـوذ أو حيثية، فإنهم يمانعون فى سداد المبـالغ الإضـافية، وهـؤلاء كـانوا يرضونهم بقولهم: لن نطالبكم بسداد هذا القسط الأخير، أو إننا سـوف نخفض لكم نصف المطلوب. وكان المحصل والكاتب قد سـجلا فـى السجل مجموع الأقساط على الرغم من أن المقرر تحصـيله لا يزيـد

على ضريبة واحدة. **[ص٤٥٧]** ونظرا لأن آخرين قد سددوا وبعضـا لم يسددوا، أو دفعوا أقل من المطلوب، يتبقى شىء من القسط الأخيـر، سموه "البقايا". ولما كان المحصل والكاتب شريكين فى إضـافة تلـك الأقساط المكررة واختلاسها، كانا يسجلانها، ويشهدان على صحة مـا كتباه شهادة غامضة.

وإذا ما سأل الحاكم نائبَ أو وزيرَ قائلاً: هل هذا الباقى من أصـل المال، أو أنه من الإضافات التى أضفتها؟ بيـن حقيقة الأمـر. ولكـن حيث إن النواب والوزراء يعرفون هذه الحقيقة، وهى أنهم يتقاضـون من الحكام تلك الإضافات كنوع من المجاملة، كانت تقصـر ألسـنتهم. وهكذا فإن هذه التصرفات التى شرحناها كان يقدم عليها كل واحد مـن الوزراء السابقين. لكن هذا الأسلوب كان حرفة "صدر الدين الجاوى"[١] وصنعته. فقد اكتسب مهارة فائقة فى ذلك التدليس بحيث إنـه أوصـل الفساد والجور إلى عنان السماء، وألحق الضرر البـالغ بكـل شـئون المملكة والإدارة. وفى عهده لم يتطلع أى مخلوق أن يحصل على قيمة حوالة من الحوالات من إحدى الولايات، ولم ينل حقه أى مستحق لأجر

---

(١) صدر الدين "الجاوى" هو صدر الدين أحمد الخالدى الزنجانى وزير كيخاتوخان (٦٩٠ – ٦٩٤هـ/١٢٩١ – ١٢٩٤م) والذى أقنع السلطان باستعمال هذا النوع من العملة الورقية (جاو) بدلاً من التعامل بالذهب والفضة وذلك لتفريج الأزمة المالية التى حلت بالبلاد. ولكن ثبت فشل هذا النظام فشلاً ذريعًا فتقرر إلغاؤه والعودة إلى التعامل بالذهب والفضة. ولهذا لقب الوزير بلقب "جاوى" على سبيل السخرية والاستهزاء. (انظر كتاب الشرق الإسلامى ص٢١٠ وما بعدها).

أو رسوم ذلك أن كل الحوالات الصادرة عنه كانت محـض تضـليل وخداع. وكثير من الفقراء والمستحقين والشيوخ الذين كان يتـاح لهـم الوصول إليه، كان يحرر للواحد منهم حوالة بمبلغ خمسمائة دينار بناء على التماس أو غيره من وسائل التذلل والإلحاح. ولأن هذا الشـخص الفقير لم يكن قد رأى مطلقًا مائة آقجه[1]، كان يسـمى ذلـك سـخاء، ويفرح لذلك أشد الفرح. وعندما كان يذهب لطلب هذا المبلغ كان يفكر فى نفسه قائلاً: إن لى خمسمائة دينار، فلأقترض الآن مائة دينار أنفقها فى التنقل وإنجاز المصالح وما يلزم من نفقات الطريق. وبعد أداء قيمة القرض، يتبقى لى أربعمائة دينار. وعلى هذا الأمل، كان يتردد كثيـرا لتحصيل هذا المبلغ، وينسى أنه شبح لا طائل وراءه. وما كان يجنيـه من وراء ذلك هو أنه كان يتعلم عمل السعاة والجباة والعيارين؛ غير أن كل هذه المحاولات لم تحقق له أية فائدة. وعاقبة الأمر أن المقتـرض كان يهرب من هذا البلد.

ولا شك أنه نتيجة لسوء التدبير والتدمير جلا أكثر الرعايا فى البلاد عن وطنهم، وأقاموا بيوتهم فى بلاد أخرى غريبة. وبهذا خلت المـدن والقرى من السكان، وبقيت خاوية علـى عروشـها. **[ص٤٥٨]** وإذا ذهب رسول لإحصاء الغائبين وجمعهم، فإنه كان ينزل بهم كثيرا مـن المشقات ويأخذ عليهم تعهدا بسداد أضعاف الضرائب المقررة علـيهم.

---

(١) عملة صغيرة.

ورغم هذا لم يكن لهم ميل مطلقًا فى العودة إلى بلادهم، وكانوا نافرين منها أشد النفور. ورغم محاولات العديدين من الرسل الذين يذهبون فى أوقات مختلفة إلى الأطراف لجمع الغائبين لم يستطيعوا حمل واحد من الرعية على العودة إلى مقره. وأما أولئك الذين كانوا قد بقوا فى مدنهم، فقد سدوا أبواب منازلهم بالحجارة، وضيقوا مداخلها. وكانوا يروحـون ويجيئون عن طريق أسطح منازلهم، ويهربون خوفًـا مـن الجبـاة. وعندما يذهب هؤلاء الجباة إلى منازل الرعايا، يبحثـون عـن أحـد الأشقياء المحتالين الذين لهم إحاطة تامة بعناوين المساكن. وبإرشـاده كان مرافقو الجباة يسحبون الناس من الأزقة والسـراديب والحـدائق والأماكن الخربة. وإذا لم يستطيعوا إلقاء القبض على الرجـال، فـإنهم كانوا يعتقلون نساءهم ويسوقوهن كقطعان الغنم من محلة إلى أخـرى، ويلقون بهن أمام الجباة. وكانوا يعلقونهن من أرجلهن، وكثيرا ما شوهد الجابى يصعد سطح المنزل، حتى إذا ما وجد صاحبه جرى وراءه إلى أن يلقى القبض عليه. فكان الرجل يهرب على غير هدى بدافع العجـز الشديد والبؤس الذى لا حد له ليلقى بنفسه مـن سـطح المنـزل إلـى الأرض، فكان يدركه المحصل ويمسك بتلابيبه، وتأخذه الشـفقة عليـه والرأفة به؛ فيستعطفه ويستحلفه ألا يلقى بنفسه من فوق السطح حتى لا يهلك. ولكن حيث إن الزمام قد أفلت، والفرصة قد ضاعت، يكون قـد سقط بالفعل وكسرت رجله.

من جملة هذه الولايات التى تعرضت لهذه المآسى ولاية يزد[1] التى آل أمرها إلى حد أنه إذا تجول شخص فى كل قراها، فإنه قطعـا لـن يرى فيها مخلوقًا يتحدث إليه أو يسأله عن الأحوال. أمـا الأشـخاص المعدودون الذين بقوا فيها، فقد عينوا لهم حارسا؛ حتى إذا رأى أحـدا من بعيد، أخطر الباقين، فيختفون جميعا فـى القنـوات وبـين كثبـان الرمال. **[ص٤٥٩]** وكل واحد من أكابر الملاك يمتلك أملاكًا فى يزد، إذا ما ذهب إلى هناك، وأراد أن يتفقدها، لا يرى أحدا من فلاحيه، حتى يسأله عن أحوال بساتينه وأين توجد. وفى أكثر المدن – خشية أن ينزل الرسل فى منازل السكان– كان هؤلاء يعدون أنفاقًا تحت الأرض لهـا ممرات ضيقة ومتعرجة بحيث تجعـل الرسـل لا يميلـون إليهـا ولا يرغبون فى ولوجها. وقد أقدم السكان على ذلك؛ لأن الرسل إذا نزلـوا دارا، كانوا فضلاً عن تمزيق السجاجيد وثياب النوم، وتحطـيم أدوات المنزل، أو استعمالها استعمالاً سيئًا، يحملون منها كـل مـا أرادوا، أو

---

(١) يبدى رشيد الدين اهتمامًا خاصًا بولاية يزد مما يدل على ارتباطه الشديد بهذا البلد؛ إذ تروى المصادر أنه كان يمتلك فى يزد أملاكًا وضياعًا وعقارات عديدة، وقف الكثير منها على أعمال الثقافة والبر والخير. كذلك استقدم عددًا من الفلاحين من أهالى يزد ممن لهم خبرة وتجربة فى أعمال الزراعة والفلاحة ليعملوا فى ضياعه وأراضيه الواسعة فى تبريز. وفى مقدمة هذا كله كانت تربطه صلة مصاهرة ونسب ببعض الشخصيات المرموقة فى هذه المدينة.
لكل هذه الاعتبارات كان رشيد الدين أقدر من غيره على الوقوف على حقيقة الأوضاع فى ولاية يزد. (انظر مجموعة خطابه هاى تحقيقى در بارة رشيد الدين فضل الله همذانى: مقاله الأستاذ ايرج افشار بعنوان: رشيد الدين فضل الله ويزد، ص٢٥ – ٣٦، طهران ١٣٥٠ هـ.ش).

يسرقها خدمهم. وإذا كان رب البيت قد جمع قليلاً من القوت والنفقـات والأحطاب، فإنهم كانوا يستولون على هذه الأشياء، كما كانوا يستعملون الأبواب للوقود، فيحرقونها بدلاً من الحطب. وهكذا صاروا يخربـون كل ما تقع عليه أيديهم.

ومن جملة ما سمع أن أحد أئمة يزد، كان يمتلك منزلاً فـى هـذه المدينة. وفى شهور سنة خمس وتسعين وستمائة (٦٩٥هـ ـ/١٢٩٥م) نزل فى هذا المنزل سلطانشاه بن نوروز على أنه رسول، وكانت معه والدته وأتباعه. وكان ذلك فى عهد عظمة أبيه نوروز. وقد أقاموا هناك أربعة أشهر. وبعد أن استولوا على الأمتعة الثمينة ولم يتركوا منها شيئًا يذكر، ورحلوا باليمن والبركة، حضر مثمنو العقارات فـى المدينـة، وسلكوا سبيل الاحتياط فى تحديد ثمن محتويات الدار التى بلغت قيمتها خمسين ألف دينار. وكانت قد أحرقت أبواب المنزل التى هى فى غاية اللطف والأناقة، والتى كان يقدر ثمنها بما يزيد على ألفى دينار. كمـا خربت أماكن أخرى.

فإذا كان – على هذا المنوال – حال دار رجل معمم يتولى منصب الإفتاء فى المدينة وينتمى إلى هيئة القضاء فإنه يمكننا أن نقيس علـى ذلك كيف تكون أحوال الأهالى والأفراد والرعايا؟! إن الأمر الـذى لا شك فيه أنه لن تكون للسادة والأكابر والأصاغر من الرعايـا قضـية أصعب وأعقد من هذه. **[ص٤٦٠]** وبحجة إيفاد الرسل كانوا يسـلبون

الآلاف العديدة من السجاجيد وثياب النوم وقدور طهى الطعام والأوانى وأدوات الناس، ويسوقون الدواب إلى بساتينهم. وكانوا يخربون فى يوم واحد الحدائق التى كان أصحابها قد عمروها بمائة ألف مشقة خلال مدة تزيد على عشر سنوات. وإذا تصادف أن كانت هناك قناة فـى ذلـك البستان وسقطت فيها دابة يمتلكونها، كانوا يعتقلون صاحب البسـتان، ويقطعون الأشجار فى الشتاء للتدفئة. وإذا رأوا شجرة باسقة فى إحدى الحدائق، فإن الحكام والأشداء يقطعونها بحجة أنها تصلح لصنع رماح الجند. وفى بعض الولايات كان هناك كثرة هائلة من الجباة والغلمـان وساداتهم من القواد، وهؤلاء يكونون فى الحقيقة ضعف عـدد أفـراد السكان.

وقد ذكر أنه فى سنة إحدى وتسعين وستمائة (٦٩١هـ ـ/١٢٩١م) كان عليخواجه بن عمر شاه السمرقندى حاكما على ولاية يزد، فـذهب أحد الملاك إلى قرية تدعى "فيروزآباد"، وهى من أهم وأعظم القـرى هناك كى يحصل شيئًا من عوائد ملكه الذى كان يمتلكه. ومهما سـعى هذا الرجل فى سبيل ذلك ثلاثة أيام بلياليها، لم يستطع العثور علـى أى مخلوق قط من الأعوان. هذا على حين أنه قد أقام فى القريـة سـبعة عشر من المحصلين وأصحاب الحوالات. وقـد قبضـوا علـى أحـد الحراس واثنين من السكان من الصحراء وأحضـروهم إلـى القريـة، وقيدوهم بالحبال، وصاروا يضربونهم، وذلك كى يحضروا الآخـرين،

وحتى يحصلوا على طعام لهم. ولكن لم يتيسر لهم ذلك مطلقًا. وكـان من اللازم لمجموع هؤلاء المحصلين وأتباعهم الحصول على العلـف والمؤن والشراب والسرارى. ويمكن أن نقيس على هذه التصـرفات: كيف كانت أنواع الظلم الأخرى. وينبغى التفكير فـى أن هـذه البـدع الكثيرة والرسوم السيئة التى أصبحت بمرور الأيام عادة أهـل السـوء كيف يمكن تداركها فى وقت قصير؟! خصوصا وأنهم فى كـل زمـن أرسلوا المراسيم إلى الأطراف بخصوص استمالة الرعايا، **[ص٤٦١]** ودفع بعض الظلم عنهم. ولكن لم يعمل بها فى أى وقت، ويئس منهـا كافة الخلق.

وفى هذا الوقت الذى يمثل العهد المبارك لسلطان الإسلام غـازان خان - خلد ا سلطانه، وأدام عدله وإحسانه – وجه رأيه المبارك الذى هو محض العدل والخير، وصرف كل همته إلى تدارك الخلـل الـذى كان قد تطرق إلى شئون الملك، والقضاء نهائيا على البدع والمفاسـد. وقد سعى سعيا جديا فى سبيل أن يعيش الناس دائما فى راحـة تامـة، وصرح بأن الفائدة من حاصل عمر المرء فى الدنيا إنما تكـون فـى تحقيق هذه الأمور، وألزم نفسه أن يجد ويجتهد إلى أقصى حد فى هذا المجال لتدارك هذه العيوب المذكورة فى الولايات التى تدفع الضرائب، وقال فى هذا الصدد: فى الوقت الذى فسدت فيـه القـوانين، تعطلـت السياسة وتطرق إليها خلل بالغ، فينبغى البدء بتنظيم الأمور الصـغيرة

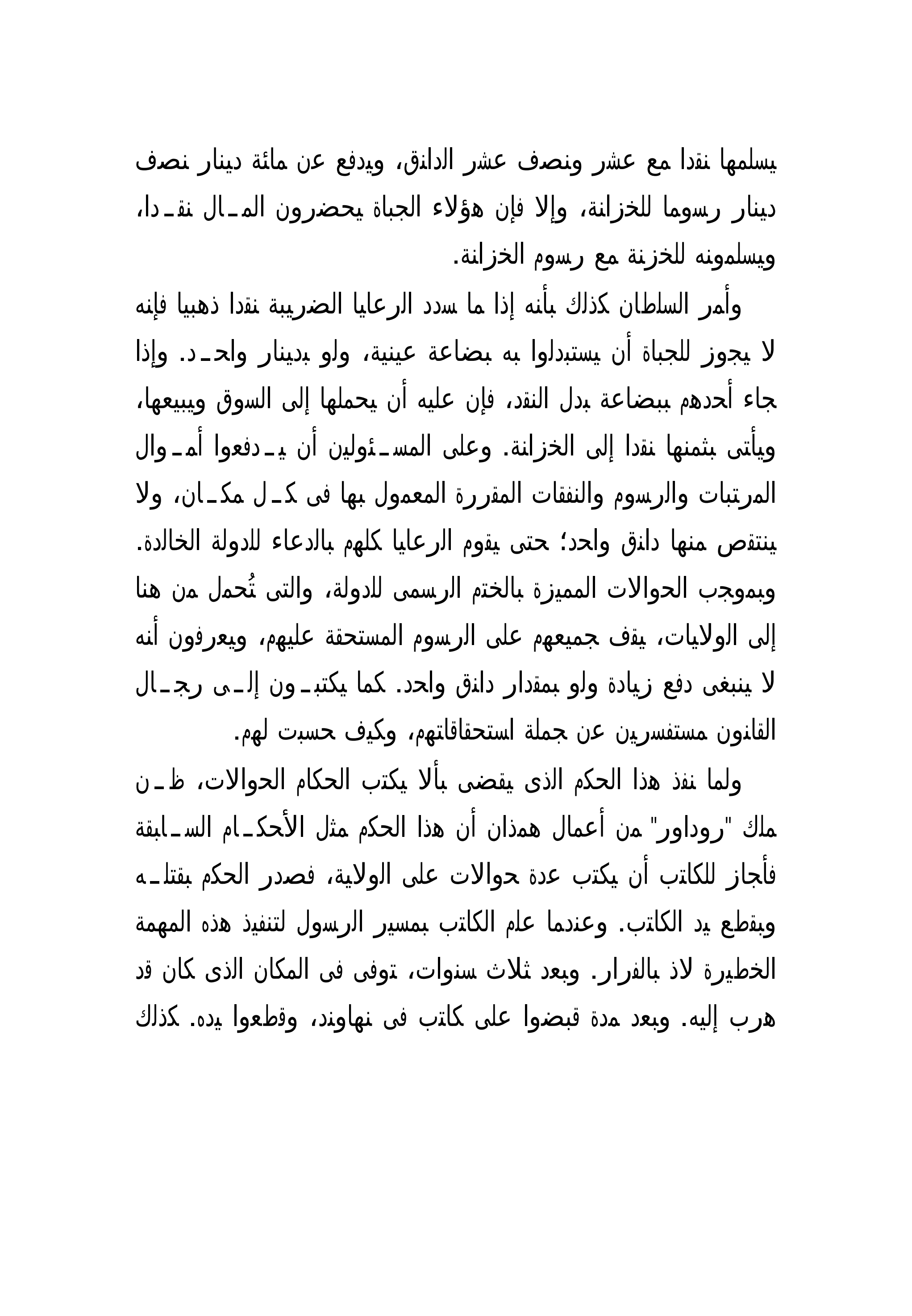
قبل أى شىء آخر حتى يعرف أهل العالم أن المؤاخـذة والعقوبـة إذا وقعت بسبب الأمور البسيطة فإن العقاب على الكبائر يكون بالضرورة أضعافًا مضاعفة. وهذا من شأنه أن يرغم الناس على أن يكفوا أيـديهم عن ارتكاب هذه المخالفات. وقال أيضا: إن أساس كل عمل، وأصـل الوصول إلى كل غرض هو المحافظة على كل الجزئيات داخلـه؛ لأن المسئولين إذا تداركوا تلك الجزئيات واحدة فواحدة إلى أن تستقيم واحدة منها، ثم شغلوا بإصلاح جزئية أخرى، فإن ما تم إصلاحه أول الأمـر قد يختل مرة أخرى، ويتعذر إصلاحه. ثم أضاف السلطان قـائلاً: إن قوما تعودوا على طريقة ما زمنًا طويلاً، وصارت طبيعة لهم، يصعب جدا منعهم من انتهاج هذا السلوك، وانتزاع تلك العادة من طبعهم. كما أن الحكام المستبدين الذين اعتادوا فى هذه الأعوام الإسراف فى الجور على الرعايا والاستيلاء على الأموال مضاعفة، ولا يعطـون الـديوان شيئًا منها قط. وكل سنة يحالون إلى المقاضاة والمحاكمـة، ويرشـون ويقضون فترة من الزمن فى اختلاق الحكايات العديدة. وإذا قتل أيضـا نفر من هؤلاء يظن الآخرون أن قضاياهم وقعت صدفة، ولا يعتبرون ويتعظون، بل يقولون: إن الشخص الفلانى لم يساعدهم ويهتم بهم. وإلا فلو كان ما وقع من أجل المال والرقابة عليه، لكان يلزم اتخـاذ هـذا الإجراء **[ص٤٦٢]** مع العديد من الأقوام الأخرى.

وصفوة القول أننا إذا عاقبنا نصف هذه الجماعة، فليس من الممكن أن يرتدع الآخرون فيكفوا أيديهم عن الظلم والاعتداء، ويظل الرعايـا على هذا النحو فى عذاب دائم، ولا تصل أموال قـط إلـى الخزانـة والجند. وإذن فالمصلحة تقتضى أن نفكر فى طريقة تكف نهائيا أيـدى حكام الولايات عن التصرف فى الأموال، حتى لا يجدوا بالطبع منفـذًا إلى التعدى تحت أية حجة أو ذريعة، فيكون مثلهم مثل الثعلـب الـذى قال: سوف أخاص نفسى من الكلاب بألف حيلة وحيلة. ولكن أفضـلها هى ألا أراه ولا يرانى. وإذن فالأفضل أيضا فى هذه القضية هـو ألا يستطيع متصرفو الولايات تحرير حوالة على الرعية ولو بدانق ذهبـى واحد.

وبناء على هذا أمر السلطان غازان خان بأن يذهب كاتب نشيط إلى كل ولاية، ويكتب بالتفصيل مجموع المناطق التى تضمها تلك الولايـة قرية قرية، وأن يقرر الضرائب بالتساوى بموجب الحسابات السـابقة، ولا يتقيد بالزيادة والنقصان. وعلى هذا النحو يعمل حتى يصبح الرعايا مرفهين هانئين. كذلك أمر السلطان بأن يتفحص الكُتاب كـل أمـلاك الخاصة (اينجو) والأوقاف والملاك الذين كانت فـى حـوزتهم هـذه الأملاك دون منازع منذ ثلاثين سنة، ويكتبوها موضـحا بهـا أسـماء الحكام ويثبتوها فى سجلات القوانين؛ حتى إذا ضاعت قبالة من أحـد الأشخاص، أو أراد شخص آخر أن يستولى عليها فإنه يمكن الرجـوع

إلى تلك السجلات، والالتزام بما هو مدون بها. وبهـذا لا يبقـى لأى مخلوق مجال للتلبيس أو التعدى.

وعلى هذا ذهب الكُتاب إلى البلاد حسب الأوامر الصادرة إلـيهم. ورغم أن الرجال الموثوق بهم تماما والصالحين قليلون فقد سعى هؤلاء الكتاب بقدر المستطاع، ودونوا قوانين الولايات وأحضروها. وبعد ذلك أمر بألا يؤشر مطلقًا أى ملك أو حاكم أو كاتب بقلمـه علـى ورقـة لتحرير حوالة. وإذا كتبت حوالة، فإن الحاكم الذى أذن بكتابتها، يقتـل وتقطع يد الكاتب الذى حررها، حتى يراه الكتاب الآخرون، فيأخذوا من ذلك العظة والعبرة. كذلك عين لكل ولاية كاتبا يكـون ملازمـا هنـا للديوان الأعظم. وفى أول العام يكتب الحوالات الموجهة حسب ما نص عليه القانون، قرية فقرية **[ص٤٦٣]** مع ذكـر الأسـماء والتفاصـيل الأخرى اللازمة. ثم يؤشر عليها نواب الديوان الأعظـم، ويؤكـدونها بالختم الرسمى للدولة أى الختم الذهبى (التون تمغا). وبعد ذلك ترسـل إلى الولاية كى يسددها الرعية على قسطين مع العشر ونصف العشـر وحق الخزانة، وأتعاب جابى الضرائب الذى ينصب فى كل ولاية. وهو الذى يصرف لأصحاب الحوالات بعضا مما حصـله نقـدا بموجـب الحوالات المختومة بالختم الرسمى للدولة (التون تمغا)، ويرسل الباقى إلى الخزانة العامرة، ويسلمه للخَزنَة مع سداد رسوم الخزانة. وإذا حمل الجابى أو الرئيس الأموال أحيانًا إلى ملتزمى الضريبة، فإن عليـه أن



يسلمها نقدا مع عشر ونصف عشر الدانق، ويدفع عن مائة دينار نصف دينار رسوما للخزانة، وإلا فإن هؤلاء الجباة يحضرون المـال نقـدا، ويسلمونه للخزنة مع رسوم الخزانة.

وأمر السلطان كذلك بأنه إذا ما سدد الرعايا الضريبة نقدا ذهبيا فإنه لا يجوز للجباة أن يستبدلوا به بضاعة عينية، ولو بدينار واحـد. وإذا جاء أحدهم ببضاعة بدل النقد، فإن عليه أن يحملها إلى السوق ويبيعها، ويأتى بثمنها نقدا إلى الخزانة. وعلى المسـئولين أن يـدفعوا أمـوال المرتبات والرسوم والنفقات المقررة المعمول بها فى كـل مكـان، ولا ينتقص منها دانق واحد؛ حتى يقوم الرعايا كلهم بالدعاء للدولة الخالدة. وبموجب الحوالات المميزة بالختم الرسمى للدولة، والتى تُحمل من هنا إلى الولايات، يقف جميعهم على الرسوم المستحقة عليهم، ويعرفون أنه لا ينبغى دفع زيادة ولو بمقدار دانق واحد. كما يكتبـون إلـى رجـال القانون مستفسرين عن جملة استحقاقاتهم، وكيف حسبت لهم.

ولما نفذ هذا الحكم الذى يقضى بألا يكتب الحكام الحوالات، ظـن ملك "روداور" من أعمال همذان أن هذا الحكم مثل الأحكـام السـابقة فأجاز للكاتب أن يكتب عدة حوالات على الولاية، فصدر الحكم بقتلـه وبقطع يد الكاتب. وعندما علم الكاتب بمسير الرسول لتنفيذ هذه المهمة الخطيرة لاذ بالفرار. وبعد ثلاث سنوات، توفى فى المكان الذى كان قد هرب إليه. وبعد مدة قبضوا على كاتب فى نهاوند، وقطعوا يده. كذلك

قبضوا على بقال من الشخصيات المرموقة فى همذان، كان قد حـول لحسابه منيـن من السماق مفضلاً نفسه علـى شـريكه، **[ص٤٦٤]** وصدر الأمر بقتله، فتشفع له الكثيرون، وخفف عنه الحكـم بالإعـدام واكتفى بجلده مائة وعشرين جلدة، ودفع غرامة قدرها ألف دينار.

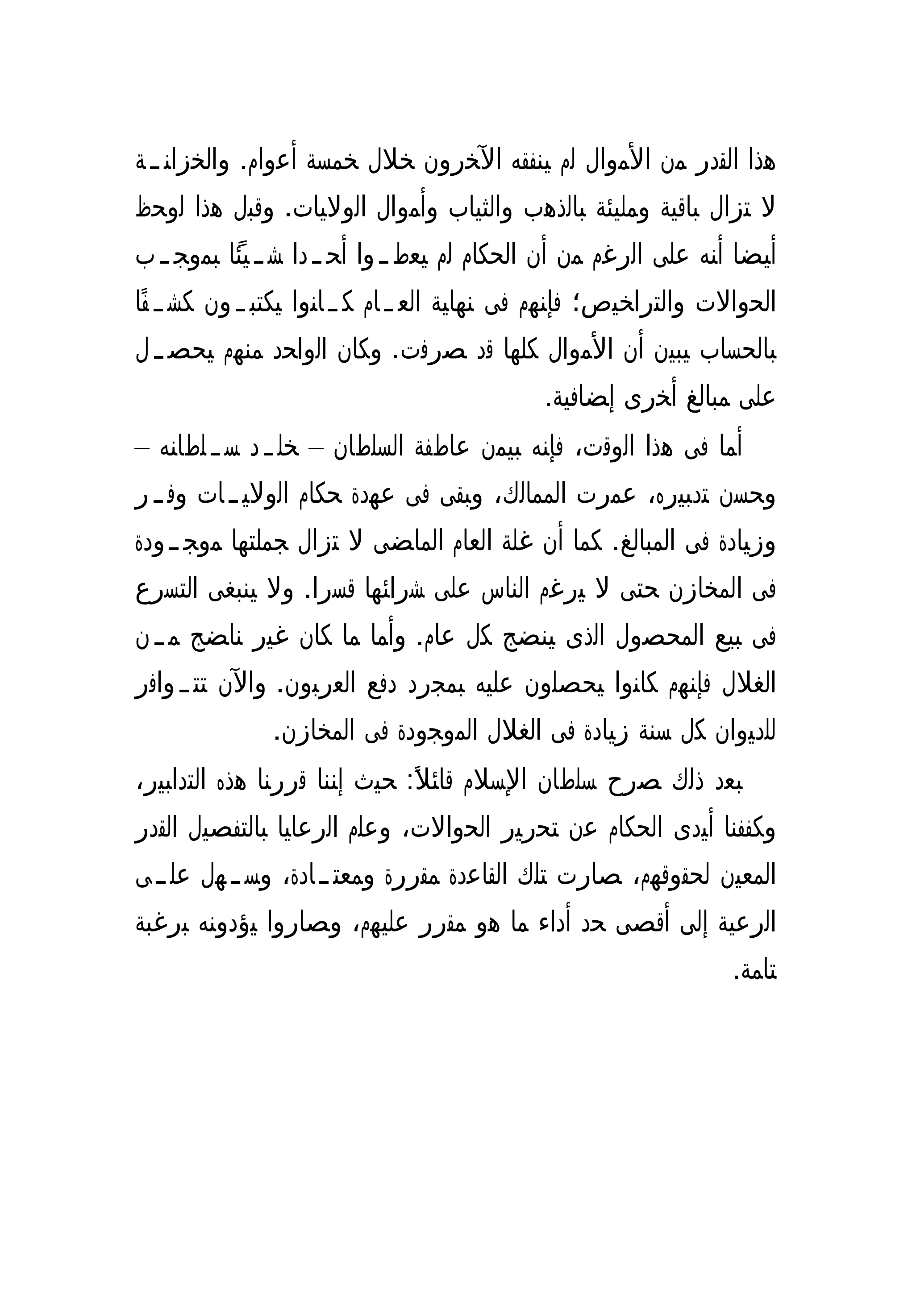
وفى الآونة الأخيرة كانوا يأتون بالفيلة من الهند، حتـى إذا بلغـوا همذان، حل الشتاء، ولم يكن يوجد علف. فقال الحكام هنـاك: يجـب الحصول على العلف من البساتين. فلما بلغ هذا الرأى السمع الأشـرف لغازان، قال: إننا نوفر العلف للفيلة، ونرصد ميزانية لذلك. وإذن فكيف يؤخذ من بساتين الناس؟! فليشتر أينما وجد، وإذا لـم يوجـد فكيـف يستساغ الحصول عليه من البساتين؟! ومهما يكن من أمر فلنتسامح هذه المرة. أما إذا أقدم المسئولون بعد ذلك على مثل هذا التصرف فسـوف نعاقبهم.

وجملة القول أنه خلال هذه السنوات لم يبق هناك مجال لأى مخلوق فى كل الولايات كى يكتب حوالة بمن من تبن أو حبة من ذهب. وبذلك سد طريق كتابة الحوالات نهائيا. وفى العام الماضى تبين أن الحكام لم يجرؤوا على إضافة شىء على المبالغ المقررة؛ لذلك وزع الرؤسـاء والعمد فى القرى الزيادات فيما بينهم. ومن الطبيعى أنه إذا علـم كـل واحد من الرعايا المبلغ المقرر عليه، فإنه لا يدفع شيئًا زيـادة علـى

المطلوب. وكذلك لا يستطيع المسئولون مطالبة الغرباء وغيرهم ممـن لم ترد أسماؤهم فى السجلات بسداد مبالغ قط.

وبسبب هذه الإصلاحات شغل جميع الرعايا بالدعاء لدولة سـلطان الإسلام - خلد سلطانه – وعاد الغائبون إلى مقارهم دون أن يسعى أحد فى طلبهم. وقد ترتب على هذا أيضا أن المنزل الذى كان ثمنـه مائـة دينار، صار لا يباع الآن بألف دينار. وقد توافرت أموال كل الولايات من مسكوكات "دار الضرب". وفى كل سنة يـوافى بهـا المسـئولون الخزانة مرتين أو ثلاث مرات دون إبداء عذر أو تعلل كما يشاهد ذلك أهل العالم. وخلال هذه السنوات المعدودة لم تصدر مطلقًا إلى أية ولاية حوالة بدانق من ذهب أو "تغار" من غلة، أو حمل حمار مـن تـبن أو خروف أو من من شراب أو هدية أو حريـر أو ذخيـرة أو مئونـة. **[ص٤٦٥]** كما لم يؤخذ شىء من هذه الولايات.

وقد منح الحق تعالى البركة فى الأموال وحقوق الديوان؛ بحيث إنه مهما أمر السلطان بالإغداق على الجنـد، وإجابـة المحتـاجين إلـى ملتمساتهم، والإنعام على المقربين، وسداد نفقات كل طائفة، تكون كلها نقدا من الخزانة. ولم يصادف فى أى وقت أن تكون الخزانة خالية من الذهب والثياب. وإنه معلوم وواضح من السجلات القديمة والجديدة أنه لم يصرف فى أى عهد وزمان هذا القدر من الذهب والنقد والثياب الذى يأمر به ويمنحه فى كل عام السلطان غازان – خلد سلطانه – كمـا أن



هذا القدر من الأموال لم ينفقه الآخرون خلال خمسة أعوام. والخزانـة لا تزال باقية ومليئة بالذهب والثياب وأموال الولايات. وقبل هذا لوحظ أيضا أنه على الرغم من أن الحكام لم يعطـوا أحـدا شـيئًا بموجـب الحوالات والتراخيص؛ فإنهم فى نهاية العـام كـانوا يكتبـون كشـفًا بالحساب يبين أن الأموال كلها قد صرفت. وكان الواحد منهم يحصـل على مبالغ أخرى إضافية.

أما فى هذا الوقت، فإنه بيمن عاطفة السلطان – خلـد سـلطانه – وحسن تدبيره، عمرت الممالك، وبقى فى عهدة حكام الولايـات وفـر وزيادة فى المبالغ. كما أن غلة العام الماضى لا تزال جملتها موجـودة فى المخازن حتى لا يرغم الناس على شرائها قسرا. ولا ينبغى التسرع فى بيع المحصول الذى ينضج كل عام. وأما ما كان غير ناضج مـن الغلال فإنهم كانوا يحصلون عليه بمجرد دفع العربون. والآن تتـوافر للديوان كل سنة زيادة فى الغلال الموجودة فى المخازن.

بعد ذلك صرح سلطان الإسلام قائلاً: حيث إننا قررنا هذه التدابير، وكففنا أيدى الحكام عن تحرير الحوالات، وعلم الرعايا بالتفصيل القدر المعين لحقوقهم، صارت تلك القاعدة مقررة ومعتـادة، وسـهل علـى الرعية إلى أقصى حد أداء ما هو مقرر عليهم، وصاروا يؤدونه برغبة تامة.

وما ينبغى التفكير فيه هو أنه فى الوضع الثانى بقيت هذه القاعـدة مضبوطة ومستحكمة ومستمرة لا يتطرق إليها وهن بسبب الانقلابـات وكثرة الأشغال ووقوع الحوادث والوقائع التى تحدث فى العالم؛ إذ إنـه بتوافر هذه الأمور لا تدعو الحاجة إلى كتابـة كـل هـذه الحـوالات الصادرة عن الديوان الأعظم، والمطالبة بأموال الولايات علـى وجـه السرعة، أو يتوانى النواب ووزراء العهد عن ضـبط هـذه المسـائل، فيأذنون للحكام **[ص٤٦٦]** بتحرير الحـوالات، ويصـل المسـتبدون النهازون للفرص إلى مقصودهم، ويبسطون أيدى التطـاول فيتعـذب الرعايا من جراء ذلك، ولا يكون هناك مجال للسؤال والجواب، وتبطل هذه القاعدة الحميدة التى أمكن إرساؤها بمشقة بالغة. وبهـذا يخـرب العالم مرة أخرى، وتتبدد أموال الخزانة، ونفقات مؤن الجيش.

وحيث إن السعادة حلت بنا، وكانت عونًا لنا، وصار التوفيق حليفنا أسند إلينا الحق تعالى أمور السلطنة، ومنحنا القوة والقـدرة. فينبغـى مداومة السعى، وبذل الجهود الجبارة وتجنب الإهمال والغفلة. وبـذلك تتوطد هذه الضوابط والقواعد، وتصير ثابتة ومؤكدة بحيث إنه لا يمكن أن يتطرق إليها– بأى وجه من الوجوه – أى تغيير أو تبديل.

بناء على هذا أمر السلطان بأن يكتب مرسوم مصاغ فـى عبـارة واحدة، وتحفظ صورة منه فى كل ولاية. وهكذا يفعلون حتـى تكـون الأحكام واضحة ومعينة لدى الجميع كبيرهم وصغيرهم.

وهذا هو نص المرسوم نذكره على النحو الآتى:

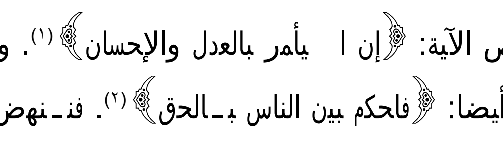
نص

المرسوم الخاص بدخل الولايات الذى يكتبه الديوان بالتفصيل، ثم يقوم بتوزيعه، ويقضى بألا يكتب الملوك وحكام الولايات حوالات بتاتًا

بسم الله الرحمن الرحيم

فرمان السلطان محمود غازان

ليعلم جباة الضرائب والملوك والنواب والحكام والقضاة والسادات والأئمة والصدور وملاك الأراضى والأعيـان والوجـوه والرؤسـاء والعمد، وعموم الرعايا وأهالى المدن والبلاد من ضفاف نهر جيجـون إلى تخووم الشام والافرنج أن كل همتنا وتفكيرنا ونظرنا كان موقوفًـا على أن تكون هذه الأيام المعدودة من العهد المبارك لسـلطتنا سـائرة بمقتضى نص الآية: ﴿إن ا يأمر بالعدل والإحسان﴾[1]. وبموجـب قوله تعالى أيضا: ﴿فاحكم بين الناس بـالحق﴾[2]. فنـنهض لإزالـة



-

(١) الآيـة: ﴿إن الله يـأمركم بالعدل والإحسـان وإيتـاء ذى القربـى وينهـى عـن الفحشـاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون﴾. (سورة النحل، آية ٩٠).

(٢) الآية: ﴿يا داود إنا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب﴾. (سورة ص، آية ٢٦).

أنواع الظلم (ص٤٦٧) والتعدى والجور واستبداد المستبدين والظالمين الذين اعتادوا ذلك بمرور الزمن حسب فحوى الآيـة الكريمـة: ﴿إنـا وجدنا آباءنا على أمة، وإنّا على آثارهم مقتدون﴾ [٣]، فجعلـوا دمـاء المسلمين وأموالهم رزقًا وطعمة لهم، فعلينا أن نقضى على ذلك قضاء مبرما؛ بحيث لا يطمع بعدها أحد فى الرجوع إلى عادة طمعه وخيانته الأولى، فرتبنا ونسقنا شئون الملك، ودبرنا الأمور؛ بحيث تعود فوائدها عاجلاً أو آجلاً إلى كافة خلق الله تعـالى، وتكـون سـببا لرفـاهيتهم وراحتهم، وحتى يحصل لنا ببركة ذلك حسن السمعة فى الدنيا والآخرة. وذلك بموجب قوله (صلى الله عليه وسلم) "من سن سـنة حسـنة فلـه أجرها وأجر من عمل بها" [٤]؛ إذ قد تحقق لدينا أنه لا توجد فائدة فـى العالم أعظم من العمل بمقتضى قول النبىﷺ: "عدل ساعة خير مـن عبادة سبعين سنة". فلا يمكن الحصول على زاد للآخرة أفضل من هذا الوجه.

والآن قد تحقق وتبين لأهل العالم أنه بتوفيق الحق تعالى، وعمـلا بما جاء فى الحديث النبوى الشريف "أحب الناس إلى الله تعالى وأقربهم

---

(٣) الآية: ﴿وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون﴾. (سورة الزخرف، آية ٢٣).

(٤) ورد فى مسلم بعبارة "من سن فى الإسلام سنة حسنة" (باب الزكاة ص٦٩ وباب العلم ص١٥)؛ النسائى: (باب الزكاة، ص٦٤؛ ابن ماجه: المقدمة، ص١٤).

إليه السلطان العادل، وأبغضهم إليه وأبعدهم منه السلطان الجائر"[٥]، قد خرج ذلك إلى حيز التنفيذ. وبقدر الوسع والإمكان أمكن تدارك بعض تلك المظالم والاعتداءات التى كانت مستمرة قبل هذا. وقد تعين شرح وتفصيل ذلك على حدة:

من جملة هذه الإصلاحات تعيين وتقرير أموال وأحوال الممالك وإزالة الحيازة، والقضاء على المضاربات، وإلغاء الضرائب الاستثنائية وأنواع الحجوزات الديوانية، ومنع تحصيل نفقات توفير العلف لدواب الجباة والرسل الذين كانوا يوفدون تباعا إلى كل ولاية لجمع الأموال. وكانت تصرفاتهم سببا رئيسيا فيما لحق بالرعايا من أنواع المشقات والتخريب.

من أجل هذا أرسلنا الكتاب إلى كل الممالك، كى يكتبوا بالتفصيل أسماء الولايات والنواحى والقرى، ويحددوا ما عليها من الأموال والضرائب؛ بحيث يكون جميع الخلق مستريحين من ذلك الإصلاح، وشاكرين راضين؛ إذ إنه قبل هذا كان المستبدون والظالمون يأخذون أضعاف تلك الأموال باسم الإتاوات والضرائب الاستثنائية والمؤن

---

(٥) ورد هذا الحديث فى كتاب سنن الترمذى على هذا النحو: "إن أحب الناس إلى الله يوم القيامة وأدناهم منه مجلسًا إمام عادل، وأبغض الناس إلى الله وأبعدهم منه مجلسًا إمام جائر". (سنن الترمذى، وهو الجامع الصحيح للإمام أبى عيسى بن سورة الترمذى، ج٢، ص٣٩٤، حققه وصححه عبد الرحمن محمد عثمان، المدينة المنورة بدون تاريخ).

وأمور أخرى كثيرة؛ بحيث إننا لو رحنا نكتبها، فإن الشرح يطـول. ؟ **[ص٤٦٨]** ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل إن أكثر العمال وكـذلك الأراذل والقواد كان يسلبون الأموال ولا تعود فائدة تذكر على الـديوان وبيت المال، بل كان ذلك يؤدى إلى الخلل وخراب الملك وتبديد المال. ثم إن الأشخاص الذين كانوا يقبلون أموال الديوان وفق نظام الإقطـاع والضمان، وغرضهم أن يصيروا ملاكًا يفعلون ما يريـدون، فكـانوا يستولون على أضعاف أموال الإقطاعية، ولا يؤدون جزءا منهـا إلـى الديوان. ولهذا السبب لم تكن هناك أموال للإنفاق منها علـى تجهيـز الجيش والمحافظة على الثغور وإبرام مصالح الملك، فكانت الضرورة تدعو إلى مصادرة الأموال وفرض ضرائب استثنائية على كافة الناس، وإرغامهم على تقديم إعانات.

ولهذا السبب كان الملك دائما وكذلك الولايات والرعايا فى زعزعة وعدم استقرار وتعب ومشقة، والجيش بلا مئونة وضعيف الحال. أمـا الآن فقد تيسر بمعونة الحق تعالى وانفسح المجال كى ندون كل القواعد والقوانين بالتفصيل عن أكثر مواضع الممالك قرية قرية، بصورة لـم يسبق لها مثيل مطلقًا فى أى عهد، ولم يجمع نظيرها مـن السـجلات والكتب. كذلك قررت أموال تلك المواضع ورصـدت. ولـو أنـه لا يستطيع أى شخص مطلقًا أن يأتى بما يساوى هذه المجهـودات وذلـك بسبب عدم الاطلاع عند بعضهم، وبدافع الأغراض والمطـامع عنـد

البعض الآخر. وقلما يوجد الشخص الذى لا تكون فيه هـذه الصـفات الذميمة. ولكن القوانين دونت بقدر ما تيسر. ثم عرضـت علينـا. وإذا كان فيما عرض قد حدث تفاوت فاحش أو سـهو واضـح مـن أحـد الأشخاص، فإن نواب الديوان الأعظم قد تداركوه. وأكثـر المواضـع الديوانية التى تقتضيها المصلحة وتوجبها الضرورة قد سلمت للعـاملين من القضاة والمزارعين ورجال القانون، بشروط مؤيدة مخلدة وموشحة بالتوقيعات الديوانية، وممهورة بختمنا الرسمى للدولة كـى يتصـرفوا بموجبها، ويؤدوا حقوق الديوان سنة بسنة.

وحيث إنه قد زالت أنواع الظلم والاعتداء والضرائب الاسـتثنائية والأعباء الديوانية التى كانت موجودة قبل هذا، فإن ما وقع من تفـاوت وسهو لم يقم له وزن بالقياس إلى المظـالم والأضـرار التـى كانـت موجودة سابقًا. وعلى هذا لم يضايق النـاس الواحـد مـنهم الآخـر. **[ص٤٦٩]** وصار جميع الخلق شاكرين راضين مادحين. وقد تخلصوا من متاعب الحيازة والاستيلاء والضرائب الاستثنائية والأعباء الديوانية التى يكثر عددها ويطول شرحها. أما الأشخاص الذين كانوا لا يخشون ا والمارقين وقصار النظر فلكى تكف أيديهم عن تحرير الحـوالات التى يستعملونها فى جذب أموال الناس وامتصاص دمـائهم أمرنـا - بخصوص تلك الأموال المفضلة والمقررة على كل موضـع بموجـب القانون - بألا يتدخل الحكام والولاة فى الولايات فى كـل مـا يتعلـق

بشئون الحوالات حتى تقصر أيديهم نهائيا عن تحريرها ومـنعهم مـن إصدار التراخيص. وبهذا الإجراء تُغل أيدى المستبدين وقواد الجـيش الكثيرين الذين يزيد عددهم على عدد الرعايا ممن يدفعون الضـرائب. ولما كانت عوائدهم وأقواتهم من دماء وأموال الرعايا العاجزين الـذين يصدق عليهم قوله تعالى: ﴿وإن يسلبهم الذباب شيئًا لا يستنقذوه منه﴾ [1] وكانوا لا يتحرجون من أكل ذلك المال الحرام. ومـن الضـرورى كذلك أن يزاول هؤلاء أعمالاً من قبيل التجـارة والفلاحـة وزراعـة البساتين وأنواع التعمير من أجل الحصول على رزق حلال، وهم بهذه الأعمال الشريفة والرزق الحلال يكفون عن العادات السـيئة. وإذا مـا انصرفوا عامين أو ثلاثة عن الأعمال السيئة إلى الأعمـال الصـالحة، فإنهم ينسون تلك العادات والتصرفات والحركات المذمومـة، وتسـود العالم قواعد ونظم جديدة؛ ذلك أن الانفطام عن المألوف أمر صـعب. ومهما فكرنا فيه لا يمكن تداركه إلا بهذه الطريقة لا بالسيف والضرب والزجر والحبس. وكان الحكام والمستبدون فى الولايات قـد اعتـادوا أيضا أنه فى حالة ما إذا منح سلطان الزمان شخصا قرية أو موضـعا على سبيل الإدرار أو التعطف أو الإقطـاع أو الخيـرات أو الهبـات والإنعامات أو أنه أوقف وقفًا، أو أن إحدى الخـواتين أو واحـدا مـن

---

(١) الآية بتمامها: ﴿يأيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابًا ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئًا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب﴾. (سورة الحج، آية ٧٣).

الأمراء الأنجال والأمراء قد حمى شخصا وأقطعه موضعا، ولـم يـؤد حقوق الديوان، أو تصادف أن خربت قرية فإن هؤلاء يتخـذون ذلـك ذريعة لفرض أضعاف النفقات **[ص٤٧٠]** المطلوبة للديوان الأعظـم، ويسجلونها فى الحسابات، ويستولون عليها لأنفسهم. وإذا لم يكن لنواب الديوان الرئيسى علم تفصيلى بالخدمات اللازمة لكل موضـع، فكيـف يعرفون ما يدعيه الحكام فى تقاريرهم وبياناتهم؟! كذلك الذين كانت لهم مآرب خاصة صاروا يدفعون الحكام كى يشهدوا زورا. وبهذه الوسيلة كانوا يبددون مبالغ طائلة من النقد العينى.

أما الآن فلأنه وردت تقارير وتفصيلات عن كل موضع بموجـب قانون الديوان الأعظم لم يبق بعد مجال لأى شخص كى تمتد يده إلـى مثل هذا التمويه والتخليط، وتكون أيضا مثل هذه الأمـور المـذكورة وغيرها سهلة وواضحة لدى ملوك العصر ونوابهم، ولا يسـتطيع أى شخص فى عهدهم أن يظلم غيره أو يشق عليـه؛ إذ إن فوائـد ذلـك القانون مفصلة والإحصاءات الماليـة واضـحة بينـة لـدى العقـلاء والمطلعين، وتؤدى إلى الغرض المطلوب. وإذن ليست هنـاك حاجـة تدعو إلى التطويل والإسهاب فى شرحها وبيانها.

ولما صار التوفيق حليفًا، ونجحت التجربة، وتحقق أن القانون قـد نفذ فى كل موضع وتيسر – لهذا السبب – تحرير الحوالات بالتفصـيل وصدورها عن الديوان الأعظم، مختومة بالختم الذهبى الرسمى للدولة.

وقد ظهرت ثمرة ذلك؛ إذ استراح الرعايا، وعمرت البلاد وتحقق سر فحوى الآية الكريمة: ﴿وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليه الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج﴾[1]. ولم يبق مجال لأى مستبد انتهازى كى يتصرف فى دانق ذهبى أو من واحد من الثمر. وقد علم رعايا كل قرية وموضع، مقدار المال المقرر عليهم. وكل شخص يأخذ منهم ما يزيد عليه، يكون ضالا عديم الإنصاف. ولا سند له. وخلاف حكم المرسوم وإجازة الديوان الرئيسى الذى لا يجنى فائدة تذكر من ذلك الضلال وتلك الزيادة، ولا يشعر بغبطة. وعلى الرعية أيضا ألا يطيعوا أوامر الظالمين، ويسددوا ما تقرر عليهم فقط بموجب الحوالات المختومة بالختم الذهبى الرسمى للدولة. ثم يعود مجموع ذلك النقد إلى الخزانة والجيش وبيت المال.

وفى هذا الوقت فكرنا قائلين: "حيث إن الغرض من هذا التدبير والترتيب هو رفاهية الخلق ونيل الثواب، كان علينا أن نسعى بقدر ما نستطيع حتى تصير تلك القاعدة أكثر استحكاما وثباتًا، فيزداد ثواب تلك الإصلاحات، ويستمر بقاؤها مدة أطول. **[ص٤٧١]** ومع أننا قد نصبنا

---

(١) الآية بتمامها: ﴿يأيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئًا وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج﴾. (سورة الحج، آية ٥).

فى كل ولاية كاتبا فى الديوان الأعظم لتحرير الحـوالات المفصـلة؛ وذلك حتى يقوم النواب بتوشـيح الحـوالات المكتوبـة بالتأشـيرات الديوانية، ويختموها بختمنا الذهبى فإن وضع الإشارات على الحوالات وختمها يحتاج إلى وقت وتفرغ تام. وقد لا تتيسر كتابة عدد وفير مـن الحوالات المفصلة، والتأشير عليها وختمهـا بسـبب تبـدل الزمـان والانقلابات وإبرام الأمور الضرورية للملك والثغـور والاضـطربات والمشقات التى لا يمكن أن يخلو منها عالم الكون والفساد. وحيث إنه من المتوقع أن يتطرق إليها عائق أو يحدث إهمال، تدعو الضرورة - لهذا السبب - إلى أن تكتب الحوالات المقررة على الولايات بصـورة مجملة فينفسح المجال بهذا - مـرة أخـرى - للانتهـازيين ليكتبـوا الحوالات وتمتد إليها أيديهم ويتجرأون ويخربون العالم بنفس الطريقة، وجريا على العادة القديمة. وبهذا يلحق الكساد ببيت المال على نحو ما كان عليه الحال سابقًا، وينفد ما فيه من نقد، ويؤجل أيضا تدبير النفقات المقررة للبلاد التى يصرف منها على ضروب الإصلاحات من قبيـل تشييد العمارات وتنفيذ المشـروعات، وتـوفير المـنح والإعفـاءات والصدقات وغيرها بحجة أن الأموال لا تصل مطلقًا إلـى الخزانـة، ويسوقون أعذارا أخرى وحكايات مقنعة جريا على عـادتهم. وبهـذه الذريعة يمضون وقتهم سنة بعد سنة، ويبقى الجميع محرومين. ويترتب على هذا أن تبطل هذه القاعدة التى كان قد مهد لها خلال مدة طويلـة

وبجهود بالغة؛ فكان أن استراح أهل العالم لهذا السـبب. أمـا هـؤلاء الانتهازيون فإنهم يحرصون على الظلم ويتجرأون ويسخرون الرعايـا العاجزين. ومرة أخرى يتعذر تدارك الأمـر، فتكسـد كـل الأمـوال والمعاملات وتستهلك، ويزول الحق على النحو الذى كان سائدا حتـى الآن. ومن الطبيعى ألا يكون هذا الوضع ملائما لملـوك العصـر ولا الجند ولا الرعية. وقد فكرنا فى تدارك هذا الأمر فقررنـا– بموجـب القانون – ما على الولايات قرية قريـة وموضـعا موضـعا، وذلـك بالتفصيل والتقنين. ثم أمرنا بجمع كل السجلات الخاصـة بالولايـات وإيداعها المكتبة الملحقة بالقبة والخانقاه وأبواب البر التى أقمناها فـى تبريز. وقد أودعت لدى المسئولين الثقات، وصدر المرسوم بالمحافظة عليها، وخصصنا للمكتبة وقفًا لما جاء فى شروط الوقفية. كذلك كتبـت "وثيقة اللعنة" نص فيها على لعنة كل من يبطل مـا جـاء فـى هـذه السجلات **[ص٤٧٢]** التى يرجع إليها فى كل مشكلة تقع بعد ذلك. وإذا ما فقدت نسخة أو لائحة كانت قد أعطيت لأحد الأشخاص، فإنه يـزود بنسخة أخرى من المكتبة؛ حتى يحصل بذلك الثواب. وقد أودعنا نسخة منها فى الديوان الأعظم، وواحدة مثلها فى كل ولاية. وتوجد نصوص اللوائح والقوانين فى يد القضاة والملاك والرعايا. كذلك أمرنا بكتابـة هذه البيانات على النحو الذى قرر فى كل قرية وموضع على رقعة أو حجر أو صحيفة من النحاس أو الحديد حسب رغبة الأهالى، وذلك بأن

ينقشوها عليها. وإذا رغبوا، فلهـم أن يكتبوهـا بـالجص المحفـور، ويعلقوها على باب القرية أو المسجد أو المئذنة والمواضع الأخرى التى يقع عليها اختيارهم. وتعلق هذه البيانات لليهود والنصارى على أبواب معابدهم، وفى القرى والمواضع التى يريدونها. كذلك تقام لسكان البادية فى المواضع التى يرونها صالحة لذلك.

أما المبالغ المقررة على الولايات، فتعلن بياناتها للأهالى دون زيادة أو نقصان بحضور القضاة والسادات والأئمة والعدول والأكـابر فـى المدينة، ويلزم كل واحد من السكان فى كل قرية وموضع بـأن يسـدد سريعا الأموال والرسوم وفق كل قائمة معلنة فى تلك الولايات، وذلـك خلال عشرين يوما. وكل ذلك بموجب القانون على النحو الذى سـبق ذكره. ثم تثبت هذه القوائم بالجص والمسامير فى المواضع المختلفـة؛ بحيث تبقى سنوات عديدة، لا يغيرها أو يبدلها أى مخلـوق علـى أن يخصص موضع لبيان الأموال العينيـة، وكـذلك البضـائع المقـررة ومقدارها؛ بحيث يكون سداد كل قسم من تلك الأقسـام فـى الموعـد المحدد. كذلك تُعين رسوم الدمغة كى تسجل على اللوح وفى كل قسـم من تلك الأقسام المسجلة على اللوح، تكتب له مسودة المرسـوم علـى ظهر هذا اللوح حتى يعرف أن كل قسم خاص بالأموال المختلفة فـى الولايات المتباينة مقنن ومعين وعلى أى نحو ينبغى أن يكتب، ثم يحدد موعد سداد كل نوع، وكيف يكون الإيداع والتسليم. وينبغى أن يسـجل

كل قسم على لوح على نحو ما هو مذكور فى المسودة **[ص٤٧٣]** كى يتخذ وجوه القوم من الرؤساء والرعايا فى كل قرية أماكنهم فى موعد الموسم المعين، فيحضرون إلى الميدان؛ إذ إن المقرر أن يقيم المحصل خيمة وسط المدينة. ومنذ بداية الموعد المحدد حتى اليوم الذى تنتهـى فيه المهلة يدق الطبل خمس مرات كل يوم. ثم يستدعى موظف الخزينة والمسئول عنها الذى عيناه فى كل ولاية كى تسلم له الأموال كلهـا أو بعضها. وقطعا لا يتقاضى المحصل من أى موضع شيئًا آخـر باسـم المؤن أو الخدمة وغير ذلك. كما لا يرسل المسئولون الحـوالات مـن الديوان بأى وجه من الوجوه، ولا أى محصل إلى أى موضع أو ولاية. وإذا أهمل الرئيس والرعايا وتهاونوا، ولم يسلموا أموال الضرائب فـى الموعد المحدد، فإن المحصل يقبض عليهم ويأخذ منهم دينـارا واحـدا عن كل مائة دينار من أصل الضرائب المقررة. وكل من يقصر فـى هذا الشأن يجلد سبعين جلدة إلى أن تبقـى هـذه القاعـدة مضـبوطة ومحكمة، وتعم فائدتها الخاص والعام، وحتى لا يقع بسـبب الإهمـال والتغافل والجهل عدد من الناس مرة أخرى فريسة جـور المسـتبدين والمارقين والذين لا يخشون ربهم.

والآن حيث إن مواعيد جمع الأموال العينية والمحاصـيل قـررت وحددت بمقتضى القانون المؤبد المخلد على النحو الذى سـبق شـرحه قمنا بترتيبها وتعيينها على هذا النسق:

موعد سداد الضرائب العينية لكل ولاية تختلف أقسامها كى يكتـب كل قسم معين منها على الألواح فى موضع خاص بذلك النـوع الـذى صار مقننًا، والممولون يستجيبون لهذا النظام، ويسددون ما عليهم على النحو التالى:

١ – الضرائب والرسوم التى يدفعها الرعايا من سكان القرى. وقد جرت العادة على أن يؤدوها على قسطين كل سنة.

٢ – من جملة الرسوم السنوية التى تقررت لكل موضع اشترط أن يؤدى نصفها من بداية حلول "النوروز الجلالى"[1]. وتستمر هذه المهلة عشرين يوما بالكامل. أما النصف الآخر فيؤدى ابتـداء مـن طلـوع الشمس فى أول برج الميزان، وتستمر هـذه المهلـة عشـرين يومـا بالكامل.

[ص٤٧٤]

---

(١) النوروز الجلالى نسبة إلى السلطان جلال الدين ملكشاه السلجوقى. يقول ابن الأثير فى ذيل حوادث سنة ٤٦٧هـ/١٠٧٩م: "فيها جمع نظام الملك والسلطان ملكشاه جماعة من أعيان المنجمين، وجعلوا النيروز أول نقطة = = من الحمل. وكان النيروز قبل ذلك عند حلول الشمس نصف الحوت. وصار ما فعله السلطان مبدأ التقاويم. (الكامل فى التاريخ، ج٨، ص١٢١، الطبعة الأزهرية، تحقيق الشيخ عبد الوهاب النجار، القاهرة ١٣٤٨هـ). ومما هو جدير بالذكر أن شاعر الرباعيات الذائع الصيت عمر الخيام كان من بين العلماء الذين عهد إليهم بوضع هذا التقويم. (انظر براون: تاريخ الأدب فى إيران من الفردوسى إلى السعدى، نقله إلى العربية الدكتور إبراهيم أمين الشواربى، ص٢٢٦).

٣ – الضرائب والرسوم التى يدفعها سكان الصحراء التى جـرت العادة على أن يستجيبوا لدفعها مرة واحدة فى أول العام.

٤ – خراج المال الذى كان مقررا من قديم أن يدفع كضريبة عينية، تقرر سداده مرة واحدة فى أول السنة من بداية (النـوروز الجلالـى). وتستمر المهلة عشرين يوما.

٥ – خراج الضرائب العينية تقرر أن تسدد فى بعـض المواضـع مثل بغداد وغيرها وقت حصاد المحاصيل الصيفية.

٦ – رسوم الدمغة بموجب ما تقرر أن تسددها كل ولاية على حدة. ويكون هذا مناسبا لها، وذلك على النحو المكتوب على ظهر المنشـور الذى يوضع على باب كل موضع خاص بالدمغة حتى تسلم على أقساط وفق هذا الترتيب. وليس لأى مخلوق أن يحدث بدعة أو يضيف رسما جديدا، ولا يأخذ الجباة حاليا أكثر من الرسوم المقـررة بحجـة أنهـم أضافوا زيادة جديدة على الدمغة، كما لا يحدث رسما جديدا.

٧ – موعد وكيفية تسلم وتسليم أنواع المحاصيل الخاصة بالمناطق الحارة والمناطق الباردة من صيفية وشتوية، وبعضها خاص بالصحراء التى ليس فيها صيف؛ وشروط ذلك على هذا النسق والمنوال المسـجل والمشروح.

٨ – الاتفاقية الخاصة بالولايات الواقعة فى المناطق الحـارة مـن شتوية وصيفية. وذلك على النحو الآتى:

أ – الشتوية: من القمح والشعير وغيرهما. وكل ما تقرر لكل موضع من المواضع المستثناة. وهذه المحاصيل يجب نقلها على الدواب من أول الشهر إلى مخزن يعين في تلك النواحي، وتسلم للصراف. وأقصى مهلة لتسليمها عشرون يوما.

ب – الصيفية: من الأصناف المستثناة بموجب القانون. ومن المقرر أن تنقل في شهر....[1] على الدواب إلى المخزن المعين في تلك المنطقة؛ حيث تسلم للصراف. وأقصى مدة لتسليمها عشرون يوما.

٩ – الاتفاقية الخاصة بالولايات الواقعة فى المناطق الباردة، ولها محاصيل صيفية، وتلك التى ليس لها محاصيل صيفية، فهى لا شك تدرج ضمن المحاصيل الشتوية فحسب، بموجب ما قرره القانون. وذلك على النحو الآتى:

[ص٤٧٥]

أ – الشتوية: بموجب ما قرره القانون. فعلى المزارعين بعد حصاد محاصيلهم أن ينقلوها فى شهر...[2] بالتمام

---

(١)، (٢)، (٣) هكذا فى المتن.

والكمال بدوابهم إلى المخزن المعين فى تلك المنطقـة، وذلك خلال مهلة أقصاها عشرون يوما.

ب – الصيفية بموجب ما قرره القانون. فعلى المزارعين بعد حصاد محاصيلهم أن ينقلوها فـى شـهر...[3] بالتمـام والكمال بدوابهم إلى المخزن المعين فى تلك المنطقـة، وذلك خلال مهلة أقصاها عشرون يوما. وهكذا يكـون الوضع فى كل ولاية منح فيهـا الخـواتين والأمـراء الأنجال والأمراء أراضى ومزارع أو إقطاعيات أقطعت للجند. وكذلك ما أعطيناه بمقتضى الرسائل والمراسـيم والإعفاءات، وما أعطى على سبيل الإحسان والإنعامات والهبات والصدقات لتكون تحت تصرف كل شـخص. وبمقتضى القانون، عليهم أن يضعوا لوحـا فـى كـل موضع كى لا يستطيع الجباة المذكورون أن يأخـذوا – وفق أهوائهم – زيادة على حقوق الـديوان، وأيضـا لا يتحمل أهالى ذلك الموضع مشقة تذكر ذلـك أن عـدل الملك ينبغى أن يكون كالشمس تسطع فى كـل مكـان، وتعلو رؤوس أهل العالم.

(بيت من الشعر العربى فى الأصل:)

كالشمس فى كبد السماء وضوؤها يغشـــــى البـــــلاد مشارقًـــا ومغاربـــا

وحيث إن الغرض من هذه الجهود فى العهد المبارك للسلطان كان رفاهية الخلق، وضبط شئون الجند، والمحافظة على الثغور، وتـرويج أموال الخزانة وبيت المال، ودفع المفسدين واللصـوص والانتهـازيين أثبتت التجربة أن الرعايا صاروا راضين ومستريحين وداعين بالخير.

وقد نظمت هذه الأمور التى سبق ذكرها على هذا الوجه؛ بحيث إن ما يحصل الآن من الأموال صار أضعاف ما كان يصل سـابقًا إلـى خزائن آبائنا، ولم تعد هناك حاجة إلى المصادرة والتشدد فى المطالبة.

ومن المؤكد أن هذه الإنجازات التى مر ذكرها تكون مناسبة لجميع السلاطين الذين اتصفوا بالعدل، وذوى الرأى السديد والتدبير المحكـم. وكذلك بالنسبة إلى الأمراء والوزراء والنواب الأمناء المشفقين والأكفاء المحنكين فى كل عصر وزمان. كما قال سبحانه وتعالى: ﴿إن فى ذلك لذكرى لأولى الألباب﴾[1]. ﴿ما كان حديثًا يفترى ولكن تصديق الذى

---

(١) الآية بتمامها: ﴿ألم تر أن الله أنزل من السماء ماءً فسلكه ينابيع فى الأرض ثم يخرج به زرعًا مختلفًا ألوانه ثم يهيج فتراه مصفرًا ثم يجعله حطامًا إن فى ذلك لذكرى لأولى الألباب﴾ (سورة الزمر، آية ٢١).

بين يديه وتفصيل كل شىء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾[2]. أما إذا ما تجاوزوا ذلك، فإنه يصير موجبا لسوء سمعتهم، وإنزال العقاب بهـم. وذلك مصداقًا لقوله تعالى:﴿فمـن ابتغـى وراء ذلـك، فأولئـك هـم العادون﴾[3]؛ فلا غرو أن صار الخير العام والترتيب والضبط مبادئ جارية وسائدة. **[ص٤٧٦]** وبسبب ذلك أيضا عاش الرعايـا وكافـة الخلق فى رفاهية وأصبحت الأموال مقررة ومعينة. وإذا استساغ ظالم أيضا أن يغير ويبدل، فإن عليه أن يخشى آلام القلب وتأنيب الضـمير، والتشنيع عليه، وتفجع الخلائق منه؛ إذ إنه لا يتصور أن تكون هنـاك عاقبة أو خم وجحيم، أشد إيلاما من ذلك.﴿وسيعلم الـذين ظلمـوا أى منقلب ينقـ ـ ـلبون﴾[4]. كـ ـذلك لا يرضخ أهـ ـ ـل العـ ـ ـ ـالم لمثل هذا التصرف، ويتلون قوله تعالى: ﴿ولا تلبسوا الحـق بالباطـل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون﴾[1]. فلا جرم أن كل شخص يغير ويبـدل يكون مستحقًا للعنة الخالق، وسخط الخلائق. ﴿فمن بدله بعد ما سـمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه. إن ا سميع عليم﴾[2].

---

(٢) الآية بتمامها: ﴿لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ما كان حديثًا يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شىء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾. (سورة يوسف، آية ١١١).

(٣) سورة المؤمنون، آية ٧. وقد وردت أيضًا فى سورة المعارج، آية ٣١.

(٤) سورة الشعراء، آية ٢٢٧.

(١) سورة البقرة، آية ٤٢.

(٢) سورة البقرة، آية ١٨١.

وعلى هذا المنوال أصدرنا مرسوما إلى الممالك، وأرسلناه إلى ولاية.. [٣] حتى تكتب نسخ من كل قسم من الأقسام المتعلقة بالأموال والمعاملات فى تلك الولاية على النحو المعين، وعلى المسئولين أن يسجلوا مسودة كل منها على ظهر المرسوم. ثم يكتب على اللوح ذلك القسم المناسب لتلك الولاية كما تم شرحه، وينجز ذلك بسرعة. وكل من يقصر فى ذلك يكون آثما.

كتب هذا المنشور فى أواسط شهر ا الأصم "رجب" سنة ثلاث وسبعمائة (٧٠٣هـ/١٣٠٣م) فى مقام اولجايتو "بوينوق" بهولان موران. والحمد رب العالمين. والصلاة والسلام على خير خلقه محمد وآله.

وأما عن تلك الولايات التى تجبى منها حقوق ورسوم الديوان من المحاصيل الزراعية والنقود العينية، فإن أكثرها كان يحصل بالحيازة والتجزئة، وكان هناك مجال واسع فى هذا الباب لأهواء الحكام والعمال والمتصرفين فى الأموال. وكانوا قد أحدثوا رسوما وقواعد فى كل عهد، وعينوا عمالاً كثيرين بأسماء مختلفة. وفى أكثر السنوات كانوا يطالبون بالأموال قبل حلول الميعاد المحدد لتحصيلها. وعند وضع التسعيرة كانوا يشقون ويثقلون على الرعايا والمزارعين إلى أقصى

---

(٣) هكذا فى المتن.

حد؛ بحيث إن أنواع تلك المظالم وأساليبها كانت تفوق حد الحصر. وقد حدث هذا فى بغداد وشيراز تلك المدينتين المعظمتين.

غاص السلطان غازان فى أعماق هذه الأوضاع، وأمـر بتـدارك وتلافى ما فيها من نقص فحدد المسـئولون الرسـوم طبقًـا للقـانون، وأسندت المناصب إلى القضاة والجباة على سبيل التأييد والتخليد وذلك بطريقة تتيح للأموال أن تصل بصفة مستمرة، وبأضعاف ما كانت عليه سابقًا. وبهذه الإجراءات صار المزارعون والملاك والرعايا مستريحين شاكرين **[ص٤٧٧]** وكفُـ ـت أيدى الحكام نهائيا عن المطالب غيـر المشروعة، وقضى على ظلم المستبدين دفعة واحدة. وقد سجلت أنواع الخلل الذى كان مستشريا فى ذلك الوقت. وإن بيان طرق التخلص منها مشروحة ومفصلة فى المراسيم التى كتبت لتلـك الولايـات. وكانـت واضحة ومشهورة لدى الجميع. ولهذا ذكرت باختصار.

فليمتع الحق تعالى هذا السلطان – الراعى والباسط العدل – بطول العمر ودوام الإقبال أبد الدهر، وليمنحه مثوبات هذه الحسنات فى عهده المبارك، تلك الحسنات التى يحسده عليها دارا واردوان ويغبطه عليهـا أردشير وأنوشروان. والسلام.

الحكاية السابعة عشرة

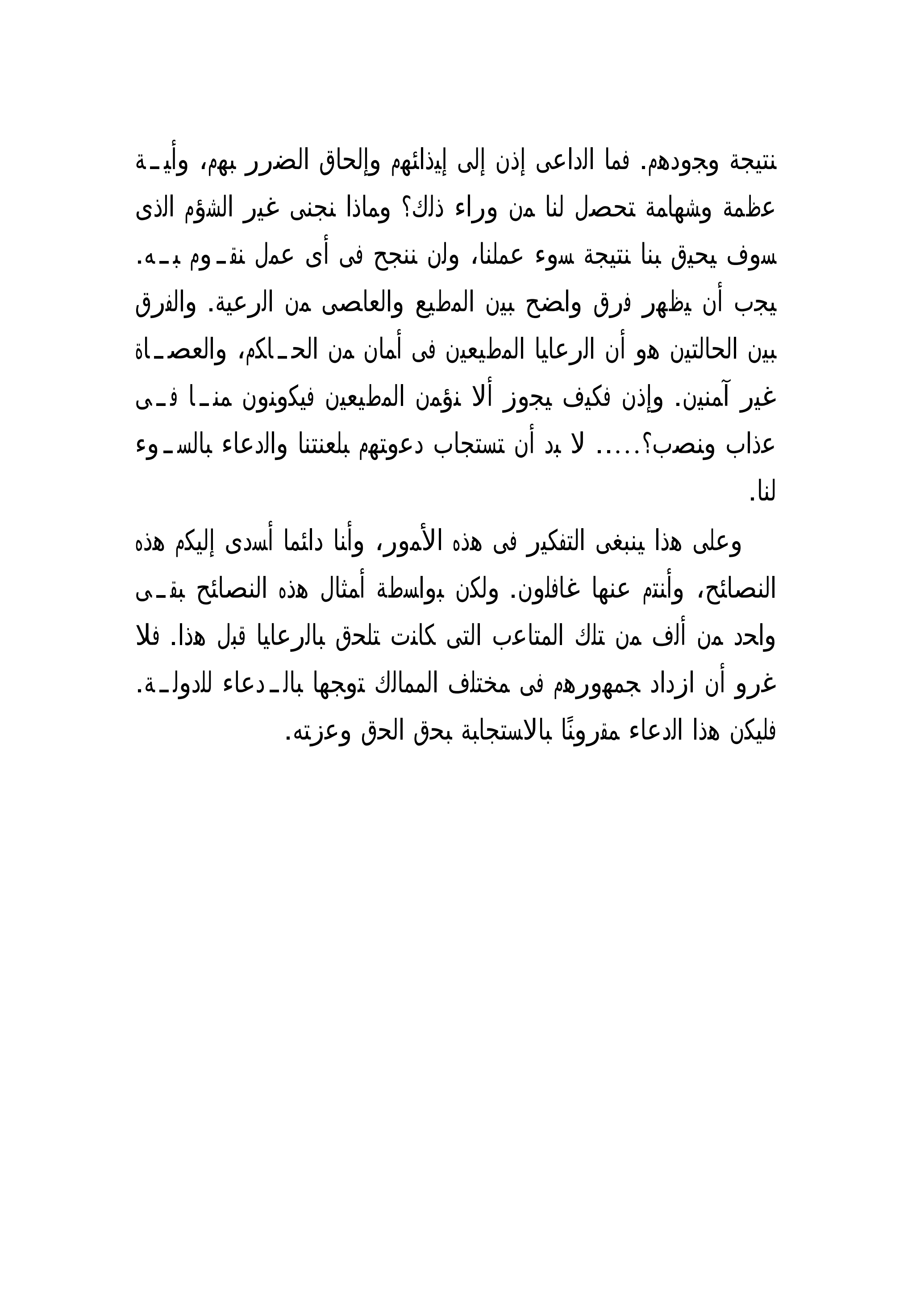
فى المحافظة على الرعايا ورعايتهم ودفع الظلم عنهم

لما كنا قد شرحنا فى الفصول السابقة أنواع الظلم والجور والتطاول؛ تلك المظالم التى كانت تنزل بالرعايا، ووضحنا المتاعب من كل صنف تلك المتاعب التى كانت تحل بهم - نتجنب الآن التكرار. وقياسا على تلك الحكاية تبين أنه كان للتوافه والمهملات أهمية كبيرة فى نظر الحكام وغيرهم. على حين أن هذه الأهمية لم توجه للرعايا. والواقع أن الأشواك الملقاة فى الطرق العامة لم تكن تجد ذلك الإعياء والتعب ما تجده الرعية.

أما سلطان الإسلام غازان خان – خلد سلطانه – فإنه بسبب كمال عدله، سبر غور الأحوال، فنهض لتدارك هذا الخلل. وبفضل يمن معدلته، استراح الجميع على النحو الذى سبق ذكره. وما نخصه بالذكر فى هذا الفصل هو أن السلطان كلما شاهد بنفسه، أو عرض عليه أن أحدا من المقربين أو الجند قد ألحق بالرعية مشقة أو أذى، أو اغتصب شيئًا، أمر فى الحال بأن يستردوه منه بضربه بالعصى والهراوات؛ ليكون عبرة للعاملين. وعندما كان يركب باليمن للصيد، ويصل الركب إلى إحدى القرى، يأمر أتباعه بأن يشتروا بالعملة الذهبية الخراف

والدجاج، وكل ما يحتاجون إليه ممـا يسـتعمله الخاصـة **[ص٤٧٨]** وكذلك ما يلزم من القطعان أو من بيوت المغول، وذلك بـأن يـدفعوا دينارين أو ثلاثة لكل ما يساوى دينارا واحدا.

والمقصود من ذلك أنه عندما يرى الآخرون هذا السلوك يلزمـون حدودهم، ويتجنبون الجور والطغيان، ويقتدون بتلك الطريقة المحمودة. وفى كل وقت يبدو للرأى الأعلى أن أحد الأمراء أو الجند أطلـق يـد البطش فى إحدى الولايات، وبالغ فى استبداده، أمر بمؤاخذة الأمـراء الصغار، وضربهم بالهراوة، وعاتب الكبار ووبخهم. وذات يوم صرح بقوله: أنا لا أحابى الرعية التازيك. وإذا كانت هناك مصلحة لأن أغير على الجميع، فليس هناك من هو أقدر منى على القيام بهـذه المهمـة. ولكن إذا توقعتم منى بعد ذلك زادا أو طعاما، أو التمستم هـذا أو ذاك، فسوف أغلظ لكم فى القول، وآخذكم بالشدة والعنف. وينبغى أن تفكروا جيدا أنكم لو أثقلتم على الرعية، وأكلتم لحوم أبقارهم، واستوليتم علـى بذورهم وغلالهم فما عساكم تفعلون بعد ذلك؟ كما أن عليكم أن تفكروا فى أنكم إذا ضربتم نساءهم وأطفالهم وآذيتموهم فإن عليكم أن تفكـروا كيف أن نساءنا وأبناءنا أعزاء علينا وأن حال فلذات أكبادهم تكون هى نفس حال أطفالنا، وهم أيضا آدميون مثلنا تماما. وقـد فـوض الحـق تعالى أمرهم إلينا، وسوف نسأل عما يصيبهم من خير أو شر. فكيـف نجيب، ونحن عندما نؤذيهم نكون جميعا شبعى، ولن يعود علينا ضرر



نتيجة وجودهم. فما الداعى إذن إلى إيذائهم وإلحاق الضرر بهم، وأيـة عظمة وشهامة تحصل لنا من وراء ذلك؟ وماذا نجنى غير الشؤم الذى سوف يحيق بنا نتيجة سوء عملنا، ولن ننجح فى أى عمل نقـوم بـه. يجب أن يظهر فرق واضح بين المطيع والعاصى من الرعية. والفرق بين الحالتين هو أن الرعايا المطيعين فى أمان من الحـاكم، والعصـاة غير آمنين. وإذن فكيف يجوز ألا نؤمن المطيعين فيكونون منـا فـى عذاب ونصب؟..... لا بد أن تستجاب دعوتهم بلعنتنا والدعاء بالسـوء لنا.

وعلى هذا ينبغى التفكير فى هذه الأمور، وأنا دائما أسدى إليكم هذه النصائح، وأنتم عنها غافلون. ولكن بواسطة أمثال هذه النصائح بقـى واحد من ألف من تلك المتاعب التى كانت تلحق بالرعايا قبل هذا. فلا غرو أن ازداد جمهورهم فى مختلف الممالك توجها بالـدعاء للدولـة. فليكن هذا الدعاء مقرونًا بالاستجابة بحق الحق وعزته.

الحكاية الثامنة عشرة

فى إبطال تسخير دواب البريد، ودفع أذى الرسل
ومنع المتاعب التى ينزلونها بالخلق

ولو أن إيفاد الملوك الرسلَ والسفراء إلى الأطراف والجوانب يكون أمرا ضروريا، ويمكن أن تقوم وتنتظم بهم شئون المملكة، لكن المعتاد أن يوفد الرسل لإبلاغ أخبار الأمن والسلامة، وإيصال التحف والهدايا، ومن أجل مهمات الثغور وشئون الجند وأسرار الملك. ومن البديهى أن الحاجة كانت تدعو إلى إيفاد الرسل عدة مرات كل سنة لإنهـاء تلـك المصالح.

وقبل هذا كان الأمر قد وصل بالتدريج إلى حد أن جميع الخـواتين والأمراء الأنجال وقواد الجيش وأمراء (التومان والهزاره والصـده)[1] وحكام الولايات والمشرفين على السـلاح والبـزاة وسـياس الخيـل والمشرفين على الذخيرة، وذوى المناصب الأخرى الذين نُصبوا للقيام بكل عمل، كانوا يوفدون رسلاً قليلين أو كثيرين إلى الولايات لتصريف كل مهمة. وقد جرت العادة أن أخذ الناس يقدمون أبناءهم إلى الخواتين والأمراء الأنجال والأمراء ليكونوا غلمانًا ومعاونين فى التجارة. وكانوا

---

(١) المقصود الفرق المكونة من عشرة آلاف (التومان) والألف (هزاره) والمائة (صده).

يرضون بأجر ضئيل. وكان كل واحد منهم يوفد رسولاً لإنجاز مهماته بطرق مشروعة وغير مشروعة. هذا على حين أن مديونيهم قد بلغـت روحهم التراقى من شدة المتاعب والتشريد؛ فكانوا يلجأون مضـطرين إلى حماية آخرين، ويرسلون رسولاً، ويجازونهم على سوء أعمـالهم. وهؤلاء بدورهم كانوا يوفدون رسولاً مرة أخرى. وبواسـطة هـؤلاء القوم كان الرسل يترددون على هؤلاء وهؤلاء. وكذلك يرسل حمـاتهم الرسل بجد تام. وهناك أيضا طائفة أخرى، كان إذا مات منهم شخص، واختلف ورثته مع بعضهم البعض، فإن كل واحد منهم طمعا فى زيادة الميراث كان يحتمى بشخص قوى من ذوى النفوذ فيوفد هذا، الرسـل تباعا الواحد تلو الآخر. وهكذا كانوا يشغلون طوال حياتهم بذلك الأمر، ويقتدى بهم أناس آخرون؛ بحيث إن ذلك صار عادة وحرفة للجميع.

[ص٤٨٠] وثمة طائفة أخرى هم رؤساء القرى، كان كـل مـنهم يبحث عن شخص يحتمى به. وبسبب خلافهم وتنازعهم على الرئاسة، كانوا يصحبون الرسل إلى الولايات. وهناك طائفة أخرى كانوا يأخذون الرسل بحجة أنه يمكن الحصول على التحـف النـادرة مـن الولايـة الفلانية. وبهذا كانوا ينفقون أضعاف أضعاف ما كانوا يحضرون. كذلك كان المشرفون على تموين المحاربين، يرسلون بعـض الرسـل إلـى الولايات بحجة إعداد الذخيرة والطعام، وتقديم الخدمات؛ بحيث كانـت الدواوين فى المدن تكتظ بهـم. وكـان هـذا شـأن أمـراء السـلاح

والاصطبلات والدواب وغيرها؛ حتى وصل الأمر إلى حد أن الرسـل فى الطرق كانوا يزيدون على أفراد القوافل وجميع المسـافرين. ولـو كان لهؤلاء الرسل خمسة آلاف حصان فى كل مرحلة لما كفاهم؛ فـلا جرم أنهم كانوا يستولون على كل قطعان المغول التى كانت ترعى فى المصايف والمشاتى ويسوقونها. وكانوا ينزلون جميـع أفـراد القافلـة والمسافرين عن ظهور دوابهم ممن يجيئون من جهات الخطـا والهنـد والنواحى الأخرى القريبة والنائية. كذلك كانوا يفعلون بالأمراء والحكام والملوك والكتاب والقضاة والسادات والأئمة وأرباب الحاجـات الـذين كانوا يترددون على المعسكر السلطانى، فينزلونهم عن ظهور دوابهـم ويستولون على خيولهم، ويتركونهم على قارعة الطريق. كما يتركـون بعضا منهم فى الأماكن الموحشة.

ولكثرة ما كان الرسل يمارسون هذه الأعمال وصل الأمر إلى حـد أن اللصوص كانوا يظهرون على هيئة الرسل، ويقفون علـى قارعـة الطريق قائلين: "إننا رسل". ثم يستولون على خيولهم، وفجأة يقبضون عليهم ويقيدونهم وينهبونهم. وكثيرا ما كان الرسل يستولون على خيول زملائهم بحجة أن طريقهم أطول. وقد أدى الأمر إلى أن كل مـن لـه أتباع كثيرون، ويتمتع بنفوذ زائد، كان يستحوذ على حصان الآخر.

وحيث إن اللصوص قد اطلعوا على هذا الأمر، صـاروا يقولـون للرسل الموفدين الأقل منهم عددا: "إننا رسل". ثم ينتزعون منهم خيولهم

بالقوة وينهبونهم. **[ص٤٨١]** كذلك يستولون على ما معهم من مراسيم وبايزات[(١)]. وقد انتهى الأمر إلى حد أن أكثر اللصوص استطاعوا بما استولوا عليه من البايزات والمراسيم أن يوقفوا الخيول أثنـاء سـيرها وكانوا يذهبون إلى مفترق الطرق للسرقة، وذلك بالحيلة والمكر وبحجة أنهم موفدون لتبليغ الرسالة صاروا يداهمون أفراد القبائـل ويسـلبون دوابهم وملابسهم. وكان الرسل لا يكتفون بالخيل والعاف، بل يتذرعون بأنواع الحيل لابتزاز ما بيد كل شخص مهما كـان تافهـا، وينزلـون بالناس شتى المتاعب، ويسلبون أموالهم. أما سـياس خيـولهم فكـانوا يأخذون ملابس الناس وعمائمهم، وكل ما يرونه فى أيديهم ويتعمـدون الاستيلاء على المزيد من الخيول، ثم يبيعونها، ويغتصبون كـل مـا يجدونه فى القرى. وإذا مروا – ذات يوم – فى الطريق بعشـر مـن القرى أو عشرة اصطبلات فإنهم يطالبون بالمئونة من تلك المواضـع عشرة أضعاف ما يجيزه الشرع والقانون. ولما كان ما يستولون عليـه يزيد على ما يلزم لطعامهم، كانوا يبيعون الفائض. وكان اهتمامهم دائما مصروفًا إلى التعامل ببيع العلف، بحيث إن تجار الخطـا والهنـد لـم يفعلوا مثل هذا فى ذهابهم وإيابهم.

وبالكشف عن هذه الأمور تتضح هذه الحقائق التـى تـدعو إلـى التساؤل: كم ألفًا من الرسل كانوا يروحون ويجيئون كل سنة، وكم من

---

(١) انظر ترجمة الحكاية الثانية والعشرين.

الخيول وأطنان المؤن قد استولوا عليها بغير حق، وكـم مـن الخلـق ضربوهم وعلقوهم وأنزلوا بهم التعب والألم؟ ولما كانت الرعية طـوع أمرهم صاروا يحققون مطالبهم من المؤن، ويلبون رغباتهم الأخـرى، ويقومون ليلاً بحراسة دوابهم وأمتعتهم. وعلى هذا فإن المرء ليعجـب كيف يمكن أن يتصور أن هذا القدر من الزراعة يتوقف عليـه قـوت الناس يكون كافيا وميسرا اللهم إلا بالبركة التى تكرم بها الحق تعـالى على عباده؛ فلم يحرمهم من الرزق.

ومن بين حيل الرسل أيضا أنهم كانوا يسيرون متفرقين على غيـر هدى وعلى غير أساس، وأنهم حيثما حلوا كانوا يقولون: إننا أبنـاء أو إخوة الأمير الفلانى الذى يذهب لأداء مهمة دقيقة خطيرة. وكان موظفو البريد والحكام والرؤساء والرعايا يعرفون أن كل ذلك كذب محض لا طائل وراءه. **[ص٤٨٢]** وإذا تصادف أن رسولاً عظيم الشـأن كـان يذهب لأداء عمل هام، فإنه قياسا على الآخرين، لم يكن له وقع يـذكر فى نظر الناس، كما لم يكن له اعتبار فى قلوبهم. ولهذه الأسباب لم يبق احترام قط للرسل. وكانوا هم أسوأ الخلق فى نظر الرفاق. وحيث إنـه – بسبب هذا اللبس – لم يكن قد بقى قط وقـع فـى النفـوس للرسـل الحقيقيين، ولم يكن أحد يعبأ بهم، ولم تعد لهم خيول للبريـد، أو أنهـم كانت تقدم لهم هزيلة عجفاء. وكان المسافرون وسكان الصـحراء قـد

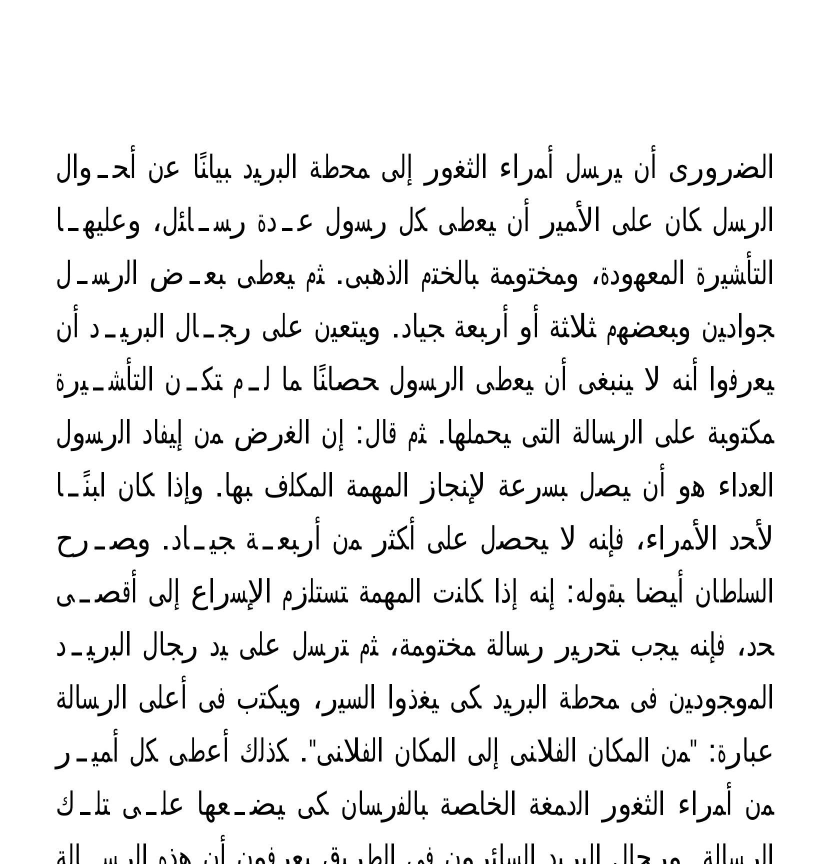
صاروا خائفين فزعين فاجتازوا الطرق على غيـر هـدى، وأقـاموا منازلهم بين الجبال.

ولهذه الأسباب فإنه عندما يقوم رسول بأداء مهمة دقيقـة تخـص مصالح الدولة، لا يستطيع الوصول إلى الجهة المقصودة إلا بعد فوات الوقت بيومين أو ثلاثة. ولا بد أن تنشأ أضرار عن ذلك. ودائمـا مـا يجب مؤاخذة سعاة البريد بسبب ما يصيب الخيول من هزال. ورغـم أنهم كانوا يربطون خمسمائة حصان فى كل محطة للبريد، لـم يكـن يوجد اثنان منها يصلحان لركوب الرسل. وفضلاً عن ذلك فإنهم كـانوا يأخذون العديد من التومانات من كل مدينة لسد نفقات محطات البريـد ومتطلبات الرسل. ولهذا السبب فإن حكام الولايات كانوا يأخذون مـن الرعايا مبالغ أخرى من الأموال، ينفقون بعضها، ويسـلبون بعضـها. كذلك فإن حصيلة الدمغة التى كانت أوفر الأموال فى البلاد، وفى كـل الولايات، كانوا دائما يخصصونها لسد نفقات الرسل، ولم تكـن تكفـى لتنقلاتهم. وكان الحكام يكتبون حوالات بنفقات المـؤن تصـرف مـن أموال الدمغة ثم يهربون. ولما لم تكن حصيلة الدمغة كافية لسداد قيمة الحوالات، كان متعهد الدمغة يختفى أيضا. كذلك كان الخصام يقع بين الرسل فتكون العاقبة أن من كانت له الغلبة يستولى على الأموال. ولما كانت هذه الغلبة تستلزم كثرة الأتباع، كان الرسل يسعون فى أن يجتمع حولهم أتباع كثيرون، يختارونهم من أقاربهم وأصدقائهم. وفى الطريق

كانوا يستولون على كل ما فى أيدى الناس من أصناف. وكان الرعـاع والسفلة يتبعونهم. وقد أدى الأمر إلى أن الرسول الذى يعرفـه الملـك والأمراء الكبار كان يصطحب معه فى أقل مهمة كلف بها مـائتين أو ثلاثمائة فارس، وبعض الرسل الذين كـانوا أكثـر تقربـا وشـهرة، **[ص٤٨٣]** كان يذهب معهم حتى خمسمائة فارس بل ألف فارس. وقد يتصادف أن يضعوا ما يقرب من مائتى كرسى فى الـديوان بإحـدى المدن لجلوس الرسل. وكان الحكام يقولون: "إننا نقدم فى الجلوس هنـا كل من تكون مهمته أكثر ضرورة". ولهذا السبب صار الرسل ينـازع بعضهم بعضا، فمن كانت له الغلبة يجد الحكام - اعتمادا على حمايتـه – الخلاص من أذى الآخرين. وعلى هذا يمهلونه قليلاً؛ وينجزون لـه مهمته. على حين أنهم يهملون سواه. وهكذا صـار الحكـام يمضـون وقتهم. وفى نهاية السنة، كان جميع هؤلاء الرسل يعودون بخفى حنين دون أن ينجزوا أعمالهم. هذا على حين أنهم ينفقون نفقات باهظة. وفى الواقع فإن أنواع الخلل والضرر التى كانت تقع بسبب هؤلاء الرسـل تفوق الحد الذى لا يمكن شرحه.

ولكمال معدلة سلطان الإسلام – خلد سلطانه – أوجب على نفسـه ضرورة تدارك تلك العيوب، فقال فى هذا الشأن: إن أمـرا اسـتفحل ضرره بالتدريج حتى وصل إلى هذا الحد واعتاده النـاس جميعـا، لا يمكن القضاء عليه دفعة واحدة، وإنما علاجه يتيسر عن طريق التأنى.

ثم بدأ بالفعل فى تدارك هذا الخلل. وفى العام الأول قـال: ينبغـى أن نخصص لنا محطة واحدة للبريد، يقصدها الرسل مسرعين لتصـريف عظائم الأمور، والقيام بمهمات الثغور ولا يمتطى أى شـخص آخـر جواد البريد حتى يتميز هؤلاء الرسل على الآخـرين، ويصـلوا إلـى مقصودهم سريعا. ثم أصدر مرسوما يقضى بإنشاء محطة للبريد فـى الطرق الهامة. وعلى بعد ثلاثة فراسخ يربط فيها خمسة عشر حصـانًا سمينًا سليما، ويقل هذا العدد فى بعض المواضع التى لا تدعو الحاجـة إلى ذلك. كذلك أمر بألا يعطى أحد حصانًا ما لم يكن هنـاك تصـريح عليه تأشيرة بالخط المبارك، ومختوم بالختم الذهبى الخاص. ثم عهـد بكل محطة للبريد إلى أمير كبير يشرف عليها وترك للأمراء التصرف فى الإنفاق على مختلف المصالح فى تلك الولايات المعينة، بحيث تزيد هذه النفقات عما تدعو إليه الحاجة؛ وذلك حتى لا تبقى هنـاك حجـة لأحد. وقال فى هذا الصدد. إننى أعطيكم زيادة عـن المطلـوب مـن النفقات؛ حتى لا يقع تقصير. فأنفقوا هذه الزيادة لتصريف مصـالحكم الخاصة، وحتى لا تصدر كل يوم وشاية مؤداها أن النفقات كانت كثيرة عما تدعو إليه الحاجة، وهذا يؤدى إلى اختلال العمل، أو أن يقال: كان ينبغى أن يوكل هذا العمل إلى شخص آخر. **[ص٤٨٤]** فيختل بهـذا نظام البريد. وبما أنكم أمراء كبار، فإنه لا مانع من زيادة النفقات لكم. ويجب عليكم أنتم أيضا أن تنظموا المهام التى تسند إليكم. ولما كان من



الضرورى أن يرسل أمراء الثغور إلى محطة البريد بيانًا عن أحـوال الرسل كان على الأمير أن يعطى كل رسول عـدة رسـائل، وعليهـا التأشيرة المعهودة، ومختومة بالختم الذهبى. ثم يعطى بعـض الرسـل جوادين وبعضهم ثلاثة أو أربعة جياد. ويتعين على رجـال البريـد أن يعرفوا أنه لا ينبغى أن يعطى الرسول حصانًا ما لـم تكـن التأشـيرة مكتوبة على الرسالة التى يحملها. ثم قال: إن الغرض من إيفاد الرسول العداء هو أن يصل بسرعة لإنجاز المهمة المكلف بها. وإذا كان ابنًـا لأحد الأمراء، فإنه لا يحصل على أكثر من أربعـة جيـاد. وصـرح السلطان أيضا بقوله: إنه إذا كانت المهمة تستلزم الإسراع إلى أقصـى حد، فإنه يجب تحرير رسالة مختومة، ثم ترسل على يد رجال البريـد الموجودين فى محطة البريد كى يغذوا السير، ويكتب فى أعلى الرسالة عبارة: "من المكان الفلانى إلى المكان الفلانى". كذلك أعطى كل أميـر من أمراء الثغور الدمغة الخاصة بالفرسان كى يضـعها علـى تلـك الرسالة. ورجال البريد السائرون فى الطريق يعرفون أن هذه الرسـالة قد أرسلت من قبل الحضرة. وحيث إنه توجد محطة البريد على بعـد ثلاثة فراسخ، فإن سعاة البريد العدائين يقطعون عـْدوا فى اليوم بأكمله ليل نهار ستين فرسخًا، فتصل الأخبار سراعا من خراسان إلى تبريـز فى أربعة أيام. أما فى السابق، فكان إذا قدم رسول، فإنـه لا يسـتطيع الوصول قبل ستة أيام. كذلك خصص السلطان شخصين من السعاة فى

كل محطة للبريد حتى إذا طرأت مهمات فى الولايات، فإن عليهمـا أن يضعا طابع دمغة البريد على الرسائل ثم يختم، ويكتبان عبارة تفيد أن الرسالة أرسلت من الموضع الفلانى إلى الموضع الفلانـى. وقـد أثبتت التجربة أن السعاة يعدون فى اليوم بأكمله ليلاً ونهارا من موضع إلـى آخر ثلاثين فرسخًا. وبهذا يبلغ كل خبر فى زمن قصـير. ثـم قـال السلطان بعد مدة: إن حراسنا وملازمى حضرتنا يلازموننا ليلاً ونهارا فى الحر والبرد، أثناء الصيد والحرب، ويسيرون بخيـولهم ومـؤنهم. فلماذا لا يركب الأشخاص الذين يكلفون بـأداء أعمـال للدولـة، ولا يحصلون على المؤن؟! وإذا ما حلوا بالولاية فـإن علـيهم أن يقـدموا الكشوف بالنفقات وحيث إن هذا يكون أمرا معقـولاً، نفـذت أحكـام المرسوم الصادرة فى هذا الشأن، ومضت مدة على تطبيق هذا النظام، وألغيت محطات البريد الأخرى البالغ عددها عشرة آلاف وبذلك عادت إلى الخزانة، **[ص٤٨٥]** الأموال التى كانت تنفق سلفًا، ولما لم تكـن هناك خيول مخصصة للرسل الذين يوفدهم السلطان، فـإن علينـا أن نتصور: كيف يمكن للآخرين أن يأخذوا خيولاً؟! ولقد صـدر فرمـان السلطان أيضا، ويقضى بألا يرسل أى مخلوق رسولاً إلا أن يكون من قبل السلطان. ولهذا السبب صار إيفاد الرسل من قبل الآخـرين أمـرا مرفوضا. كذلك صدر أمر ينص على أنه إذا أوفد شـخص رسـولاً - لمصلحته الخاصة - إلى إحدى الولايات أو الأماكن الأخرى، فإنـه لا

يعطى علفًا. وعلى الحكام أن يعتقلوا ذلك الشخص ويقيدوه ويحبسوه؛ فترك هذا العملَ الأشخاص الذين كانوا يستدعون الرسل لإنجاز مصالحهم.

بعد ذلك صرح السلطان قائلاً: إن الرسل الذين يذهبون إلى الولايات نعطيهم نفقات السفر من الخزانة ذهابا وإيابا، حتى لا يأخذوا شيئًا من أحد فى أى موضع. وعندما يصلون إلى المكان المحدد، يتناولون الطعام فى المبنى المعين. وكل رسول أوفد إلى إحدى الولايات يعطى نفقات السفر نقدا من الخزانة. وقد ذاع هذا الأمر واشتهر فى كل الولايات والأماكن. وإذا كان الرسل الذين يوفدون بأمر السلطان– خلد ملكه – لا يملكون نفقات السفر فكيف كان الناس يعطون غيرهم؟! ولهذا السبب ألغيت خلال هذين العامين نفقات علف الخيل ومئونة الرسل من المدن والقرى والحظائر، بل إنه لم يعد أى مخلوق يرى رسولاً فى البلاد؛ ذلك أن الرسل الذين يغذون السير بسرعة فائقة ليلاً ونهارا يكونون منشغلين بقطع المسافات، وليس لديهم فراغ لتناول القليل من الطعام. وبلا شك يسير من تلك الولايات ثلاثون رسولاً تقريبا. وحيث أنه ليست هناك أوامر بأن يأخذوا زادا فى الطريق لا يميزهم أحد عن المسافرين الآخرين.

بمثل هذا العدل الشامل، يكون كافة الخلق فى راحة. فالمغول والبدو يكونون فارغى البال فى مواطنهم، ويصير التجار مطمئنين،

وتكون البضائع الصادرة والواردة آمنة فى الطـرق، ويـدعو جميـع الرجال مع نسائهم وأطفالهم من أعماق قلوبهم وأرواحهم بدوام إقبـال السلطان. فليستجب ا هذا الدعاء. وأمر السلطان أيضا بأنه فى حالـة الضرورة وإذا لزم الأمر أن تعطى جماعة عددا من الجياد أو الحميـر **[ص٤٨٦]** كى ينتقلوا من ولاية إلى أخرى، فإنه يدفع لهم ثمنها كـى تصير ملكًا لهم. ومن المقطوع به أن اسم خيل البريد لم يكن واردا من قبل. وقبل هذا كان الصيادون ومتعهدو النمور والأسـود يحضـرون الحيوانات والفهود من الولايات بواسطة خيل البريد، فأمر بأن يدفع لهم ثمن هذه الحيوانات، وكذلك نفقات الذهاب والإياب، حتى لا يأخذوا فى الطريق شيئًا مطلقًا، وتصير الدابة التى كانت قد بقيت بعـد الوصـول ملكًا لهم.

بهذه الأنظمة عمرت البلاد ووجدت من جديد الرفاهيـة والنظـام. والأموال التى كانت تنفق على دور البريد، والنفقات المخصصة للرسل كانوا يأخذونها إما بالزيادة وإما تئول إلى الخزانة. وما كان يضيع على الرعايا بتلك الحيل يبقى لدى رؤسائهم.

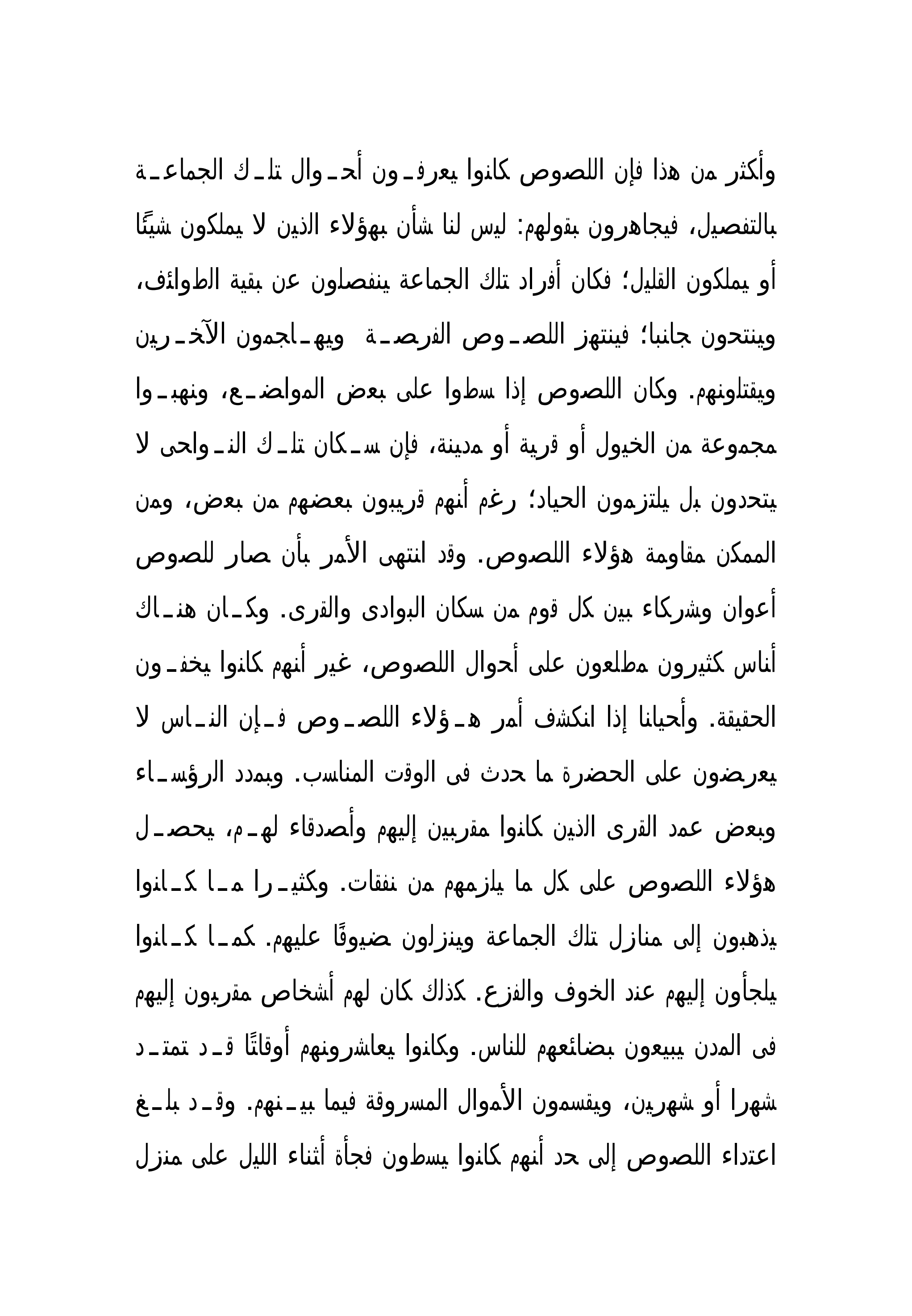
فليوصل ا تعالى بركات هذه المعدلة إلى أيامـه المباركـة بمنـه وجوده وخفّى لطفه وكرمه.

الحكاية التاسعة عشرة

فى القضاء على اللصوص وقُطّاع الطرق

والمحافظة على الطرق منهم

لا يخفى على أهل العالم إلى أى أحد بلغ – قبل هذا – تطاول قطاع الطرق واعتداء اللصوص على الناس. ورغم أن أجناسهم كانت كثيرة لا تحصى من قبيل المغول والتازيك والمرتدين والكرد واللور والشول والسوريين، فإنه كان ينضم إليهم أيضا الغلمان الهاربون من سـادتهم. ويدخل فى زمرتهم كذلك بعض القرويين وسكان الأطـراف. وكـانوا يدعون بأنهم مرشدون. وكان لهم جواسيس ينهون إلـيهم أخبـار كـل طبقات الناس. وإذا ما وقع فى مأزق فى وقت من الأوقات حيث ظلوا يهددون الطرق مدة طويلة ونالوا شهرة فى هذا العمل، فإن طائفة مـن الناس تسرع لحمايتهم قائلين عن كل واحد منهم: كيف يمكن إعدام مثل هذا البطل؟! ينبغى الإبقاء عليه ورعايته. ولهذا السبب صار اللصوص الآخرون يزدادون وقاحة وجرأة ورغم أن القانون السابق كان يقضـى بأن يتحد جميع أفراد القوافل والرسل وعابرى الطرق فـى مواجهـة اللصوص عندما يظهرون ويقاومونهم، فى خلال تلك الحقبة لا تُعـاون تلك الأقوام بعضها البعض عندما يهدد اللصوص الطـرق. **[ص٤٨٧]**



وأكثر من هذا فإن اللصوص كانوا يعرفـون أحـوال تلـك الجماعـة بالتفصيل، فيجاهرون بقولهم: ليس لنا شأن بهؤلاء الذين لا يملكون شيئًا أو يملكون القليل؛ فكان أفراد تلك الجماعة ينفصلون عن بقية الطوائف، وينتحون جانبا؛ فينتهز اللصـوص الفرصـة ويهـاجمون الآخـرين ويقتلونهم. وكان اللصوص إذا سطوا على بعض المواضـع، ونهبـوا مجموعة من الخيول أو قرية أو مدينة، فإن سـكان تلـك النـواحى لا يتحدون بل يلتزمون الحياد؛ رغم أنهم قريبون بعضهم من بعض، ومن الممكن مقاومة هؤلاء اللصوص. وقد انتهى الأمر بأن صار للصوص أعوان وشركاء بين كل قوم من سكان البوادى والقرى. وكـان هنـاك أناس كثيرون مطلعون على أحوال اللصوص، غير أنهم كانوا يخفـون الحقيقة. وأحيانا إذا انكشف أمر هـؤلاء اللصـوص فـإن النـاس لا يعرضون على الحضرة ما حدث فى الوقت المناسب. وبمدد الرؤسـاء وبعض عمد القرى الذين كانوا مقربين إليهم وأصدقاء لهـم، يحصـل هؤلاء اللصوص على كل ما يلزمهم من نفقات. وكثيـرا مـا كـانوا يذهبون إلى منازل تلك الجماعة وينزلون ضيوفًا عليهم. كمـا كـانوا يلجأون إليهم عند الخوف والفزع. كذلك كان لهم أشخاص مقربون إليهم فى المدن يبيعون بضائعهم للناس. وكانوا يعاشرونهم أوقاتًا قـد تمتـد شهرا أو شهرين، ويقسمون الأموال المسروقة فيما بيـنهم. وقـد بلـغ اعتداء اللصوص إلى حد أنهم كانوا يسطون فجأة أثناء الليل على منزل

أحد الأمراء ويغيرون عليه. وكان رجال الأمن وحـراس الطـرق لا يقلون عن اللصوص ظلما؛ إذ كانوا يستولون على كل ما يريدون مـن المسافرين وكانوا يمنعون القوافل من السير بحجـة أن بـين أفرادهـا لصوصا وأوغادا فيعرف اللصوص ذلك، ويسيرون إليهم، ولا يتعقـبهم الحراس مطلقًا. وفى الحقيقة لم يقلق الرائحون والغادون من اللصوص بقدر قلقهم من رجال الأمن وحراس الطرق؛ ذلك أن ضرر اللصوص يقع أحيانا ومصادفة لكن هؤلاء الضحايا كانوا يقعون فريسة فـى يـد القائمين على الأمن والحراسة فى موضعين فى كل مرحلة. **[ص٤٨٨]** وما أكثر القوافل التى كانت تختار السير فى الطرق المجهولة والنائيـة إلى أقصى حد، والمليئة بالأهوال والمشقات كى تتخلص مـن رجـال الأمن وحراس الطرق.

إزاء هذه الأوضاع رأى سلطان الإسلام – خلد سلطانه – أن مـن الواجب عليه تدارك هذه الأمور، فقرر أولاً أن كل مخلوق ينفصل عن رفاقه وقت هجوم اللصوص، ولا يتعاون مع الآخرين فى العمل علـى مقاومتهم يكون مذنبا، وتقع عليه إراقة دماء رفاقه وإزهاق أرواحهم.

وأصدر قرارا ثانيا يتلخص فى أن كل موضع من المرابط والقرى يتعرض لسطو اللصوص تقع مسئولية اقتفاء أثرهم والعثور عليهم على عاتق من يكون أقرب إلى المكان الذى تعرض للسرقة خصوصـا إذا

أُخبروا بهجوم هؤلاء اللصوص؛ فإنه يكون لزاما عليهم أن يتعقبوهم فرسانا ورجالا سواء أكان الوقت ليلاً أم نهارا حتى يعثروا عليهم.

كذلك أصدر قرارا ثالثًا مؤداه أن كل مخلوق من المغول والرعايا المسلمين يكون قد تواطأ مع اللصوص فى المرابط والقرى والمدن، وثبت عليه ذلك يقتل فورا دون محاباة.

وقد عهد السلطان غازان خان بمهمة تنفيذ هذه الإجراءات إلى الأمير أيتقول أحد المقربين إلى الحضرة، والمشهور بصراحته ونزاهته وهو لا يحابى أحدا على الإطلاق، فقبض على كثير من طائفة اللصوص وأعدمهم جميعا، وقد بعضهم نصفين، وجعل الشخص الذى كان يشى بهؤلاء اللصوص "طرخانا"، وأصدر أمرا بأن يكون شغله الشاغل التحرى واستقصاء أخبار هذه الطائفة. ولما كان السلطان قد استحسن إقدام الأمير أيتقول على قتل هؤلاء اللصوص، منحه كل أموالهم ودوابهم، وأمر بإعدام كل مخلوق يسرق ولو بقدر دانق واحد.

بهذه الإجراءات ظهر الخوف والرعب فى البلاد، بحيث إنه لم يجرؤ - بعد ذلك - أى مخلوق على التواطؤ مع اللصوص. ولما عرف هؤلاء أنه لن يتيسر لهم معين، ولن تتهيأ لهم الوسائل والمقام، قللوا سرقاتهم وساد الأمن إلى حد كبير. **[ص٤٨٩]**.

بعد ذلك قرر أن يرابط حراس الطرق فى كل البلاد، وفى كل موضع يكون مخوفًا موحشًا، وأن يؤخذ نصف درهم من القافلة عن كل أربعة من الحمير المحملة، وعن كل جملين نصف درهم أيضا، وذلك باسم الضريبة وقطعا لا يؤخذ أكثر من هذا. أما الدواب غير المحملة، وما ينقل من المأكولات والغلال، لا يطلب عنها شىء قط. وإذا حدث سطو فإنه على كل حارس للطريق يكون أقرب من مكان الواقعة أن يقبض على اللص، وإلا فعليه أن يسدد من ماله الخاص قيمة الشىء المسروق. وبموجب هذا أخذت منهم جميعا إقرارات خطية.

وقد عهد بالإشراف على جميع حراس الطرق إلى الأمير بورالغى وهو ابن الأمير جنقور الذى كان أميرا كبيرا للدرك فى عهد أرغون خان. وأمر السلطان بأن يعهد الأمير بورالغى إلى شخص موثوق به لحراسة كل طريق. والباعث على ذلك هو اتخاذ الحيطة والحذر حتى لا يتوقف الحراس فى المواضع الآمنة، ويرابطوا فى الأماكن السهلة، ويتركوا المواضع المخوفة المحفوفة بالأخطار معطلة، ولا يرابطوا أيضا فى المواضع مدة تزيد على الضرورة.

وأمر كذلك باتخاذ الحيطة والحذر، وذلك بإقامة أعمدة من الحجارة والجص فى المواضع الضرورية. ثم يوضع على كل عمود لوح مثبت تثبيتًا محكما، ويسجل عليه عدد الحراس المكلفين بحراسة ذلك الموضع، وشروط القانون المخصص فى هذا الشأن؛ وذلك حتى لا

يتجاوز الحراس تلك المواضع، والعدد المعين للحراسة، ولا يتقاضوا ما يزيد على الرسوم المقررة. ويطلق على هذا اللوح اسم "لوح العـدل". وأمره واضح وظاهر.

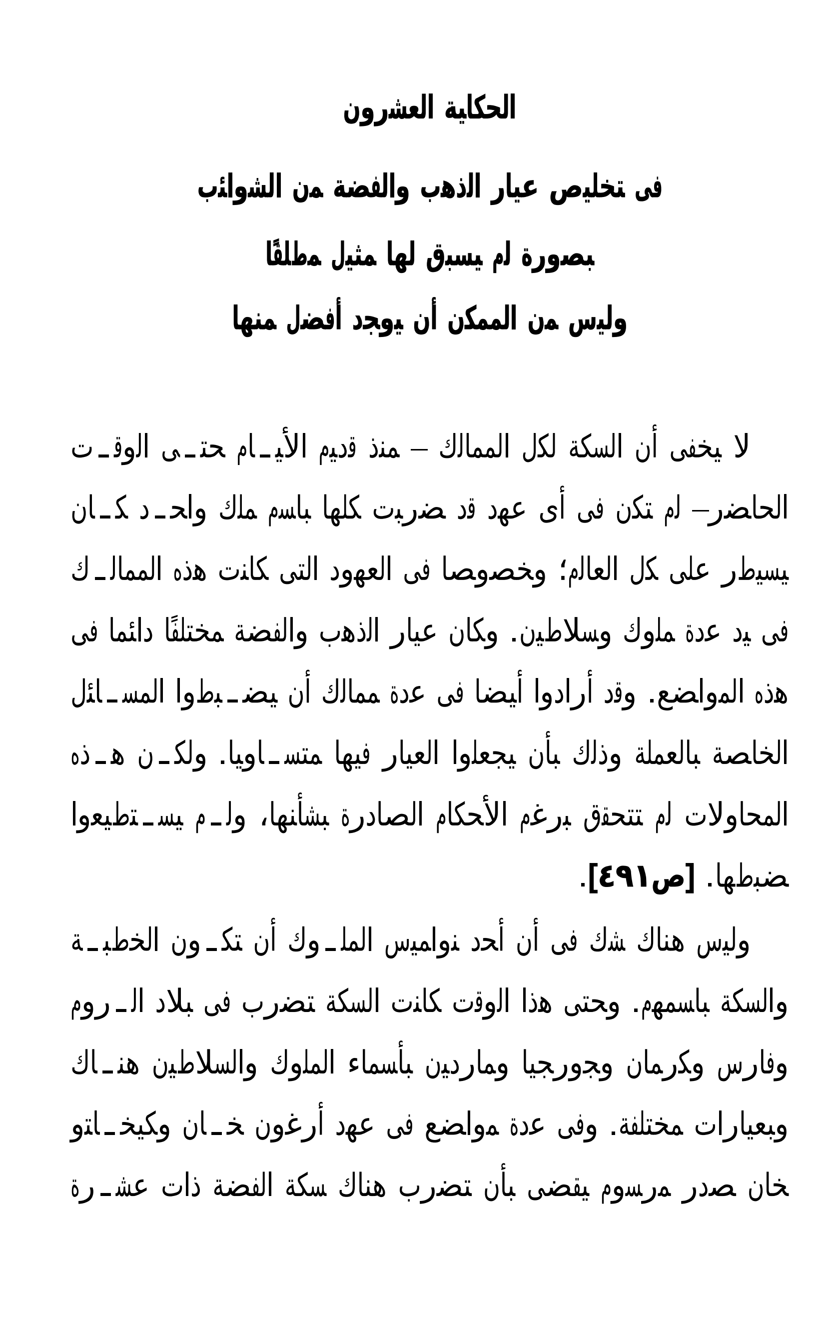
وقبل هذا كان كل مخلوق يدعى أنه من رجال البريد، ويرابط فـى مفترق الطرق. وكان يأخذ الإتاوات بعلة السماح بالمرور. أما الآن فى هذا الزمان، فلأنه قد كتب صراحة على اللوح أن كل مخلوق يـرابط خارج هذه المواضع المحددة يعتبر لصا، لم يستطع أى شـخص مـن المغول والتازيك أن يرابط فى مكان آخر **[ص٤٩٠]** وخـلال هـذين العامين عندما أصدر السلطان هذا القانون، هاجم اللصوص طرقًا قليلة فى البلاد. وإذا اتفق أحيانا وحدث سطو فإن اللصوص يساقون ومعهم الأموال التى اغتصبوها ويقتلون. وعلى هدى هذه الإجراءات، انـتهج جميع أقوام الترك هذا الأسلوب، فعم الأمان، واستتب الأمن فى الطرق.

كذلك أصدر السلطان قرارا آخر يقضى بأن أفراد كل قافلة وكذلك المسافرون الذين ينزلون فى الطرق الكبيرة بالقرب من إحدى القرى أو فى دار البريد عليهم أن يسألوا أكثر أشراف القوم الموجودين فى هـذه المناطق: "هل يوجد لصوص أو لا؟! فإذا أجابوا: نعم يوجد، فإن علـى هؤلاء المسافرين أن ينزلوا فى دار البريد أو فى القرية. ويجب علـى المسئولين ألا يمنعوهم من النزول هنـاك. أمـا إذا قـالوا: لا يوجـد لصوص، وهم ينزلون فى الصحراء وتصـادف أن ظهـر لصـوص

وسلبوا شيئًا، فإن المسئولية تقع على عاتق هؤلاء القوم. لكن هذا الحكم لم ينفذ فى أطراف المدن، لأنه يتعذر تنفيذ ذلك هناك.

وحيث إن الطرق نظمت على هذا النحو، وزود الأميـر بـورالغى بأسماء حراس الطرق ورؤسائهم بالتفصيل، فبلغ عددهم ما يقرب مـن عشرة آلاف شخص؛ بحيث إنهم صاروا يكونون جيشًا معـدا إعـدادا تاما، وجنود هذا الجيش يقومون بهذه المهمة خير قيام. كذلك صدر أمر بألا يشتغلوا بعمل آخر، وعليهم أن يحـافظوا علـى حيـاة جمهـور المسافرين وأموالهم وذلك على نحو يتيح لهم أن يروحوا ويجيئوا فـى أمان واطمئنان. وهم فارغو البال مطمئنو الخاطر، يـدعون لسـلطان الإسلام بإخلاص تام.

فليكن دعؤهم مقرونًا بالاستجابة بمن ا   ولطفه العميم.



الحكاية العشرون

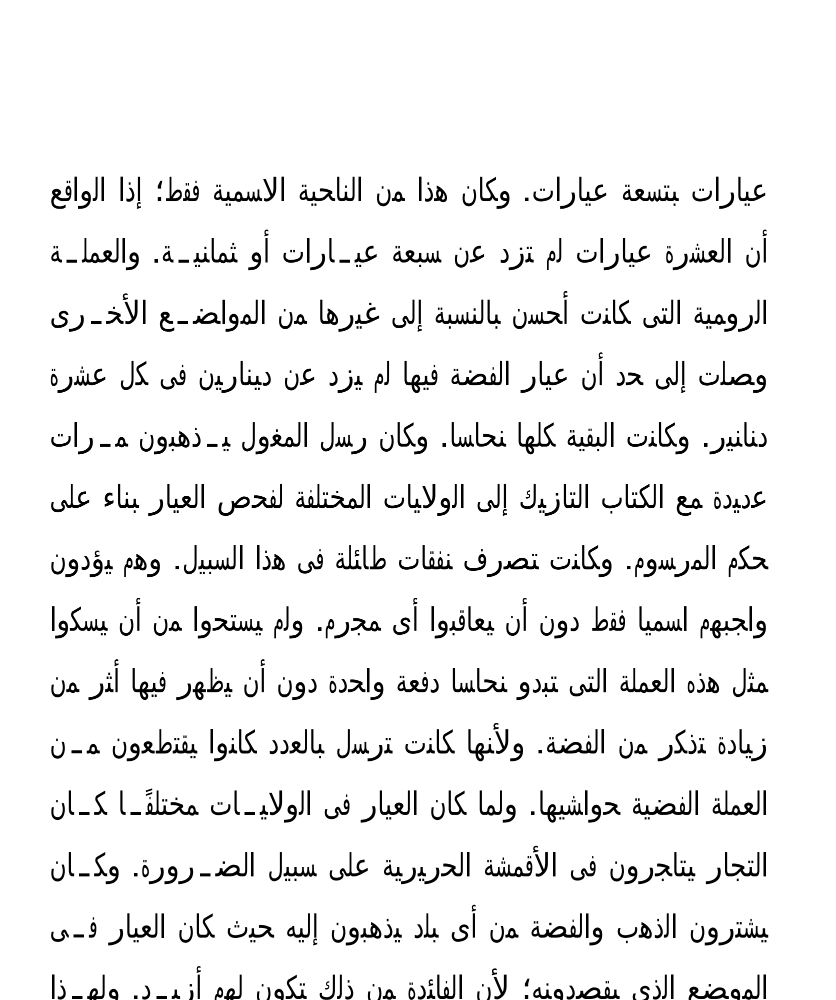
فى تخليص عيار الذهب والفضة من الشوائب

بصورة لم يسبق لها مثيل مطلقًا

وليس من الممكن أن يوجد أفضل منها

لا يخفى أن السكة لكل الممالك – منذ قديم الأيـام حتـى الوقـت الحاضر– لم تكن فى أى عهد قد ضربت كلها باسم ملك واحـد كـان يسيطر على كل العالم؛ وخصوصا فى العهود التى كانت هذه الممالـك فى يد عدة ملوك وسلاطين. وكان عيار الذهب والفضة مختلفًا دائما فى هذه المواضع. وقد أرادوا أيضا فى عدة ممالك أن يضـبطوا المسـائل الخاصة بالعملة وذلك بأن يجعلوا العيار فيها متسـاويا. ولكـن هـذه المحاولات لم تتحقق برغم الأحكام الصادرة بشأنها، ولـم يسـتطيعوا ضبطها. **[ص٤٩١]**.

وليس هناك شك فى أن أحد نواميس الملـوك أن تكـون الخطبـة والسكة باسمهم. وحتى هذا الوقت كانت السكة تضرب فى بلاد الـروم وفارس وكرمان وجورجيا وماردين بأسماء الملوك والسلاطين هنـاك وبعيارات مختلفة. وفى عدة مواضع فى عهد أرغون خـان وكيخـاتو خان صدر مرسوم يقضى بأن تضرب هناك سكة الفضة ذات عشـرة



عيارات بتسعة عيارات. وكان هذا من الناحية الاسمية فقط؛ إذا الواقع أن العشرة عيارات لم تزد عن سبعة عيارات أو ثمانية. والعملة الرومية التى كانت أحسن بالنسبة إلى غيرها من المواضع الأخرى وصلت إلى حد أن عيار الفضة فيها لم يزد عن دينارين فى كل عشرة دنانير. وكانت البقية كلها نحاسا. وكان رسل المغول يذهبون مرات عديدة مع الكتاب التازيك إلى الولايات المختلفة لفحص العيار بناء على حكم المرسوم. وكانت تصرف نفقات طائلة فى هذا السبيل. وهم يؤدون واجبهم اسميا فقط دون أن يعاقبوا أى مجرم. ولم يستحوا من أن يسكوا مثل هذه العملة التى تبدو نحاسا دفعة واحدة دون أن يظهر فيها أثر من زيادة تذكر من الفضة. ولأنها كانت ترسل بالعدد كانوا يقتطعون من العملة الفضية حواشيها. ولما كان العيار فى الولايات مختلفًا كان التجار يتاجرون فى الأقمشة الحريرية على سبيل الضرورة. وكان يشترون الذهب والفضة من أى بلد يذهبون إليه حيث كان العيار فى الموضع الذى يقصدونه؛ لأن الفائدة من ذلك تكون لهم أزيد. ولهذا السبب لم تكن الأقمشة الحريرية موجودة فى أغلب المواضع. وقد أدى الأمر إلى حد أنهم كانوا يشترون النقود بأقل من قيمتها الحقيقة، وإلا ما كانوا يأخذون شيئًا. وكل من أراد أن يأخذ معه مائة دينار لينفقها فى بلد آخر كان يخسر من هذا المبلغ ما يزيد على عشرة دنانير. وكثيرا ما كانت الخسارة تصل إلى عشرين دينارا. وليس هناك غرامة أفدح

من أن يخسر غير التجار من المال - الذى يفى بحاجاتهم الضـرورية - كل شهرين أو ثلاثة أشهر عشرة أو اثنى عشر دينارا. ومـع هـذا كانوا مضطرين إلى تحمل مشقات كثيرة حتى يستوفوا تلك النقود منهم لا سيما فى القرى ومضارب البدو وسكان الصحراء الذين لا يعرفـون العيارات، ويترددون فى أخذها عاجزين عن إدراك ما هو أفضل لهم.

وفائدة وجود الذهب والفضة إنما تتمثل فى أن حاجات الناس تقضى بواسطتهما وسرعان ما يحصلون على الأشياء التى يريدونها. وعنـدما يصير حال الذهب والفضة على هذا النحو **[ص٤٩٢]** تروج الأقاويـل وتظهر المتاعب، ولا يقبل أحد هذه العملة وقت الصرف، فيكون ذلـك خلافًا لوضع العالم وطبعه.

فكر سلطان الإسلام – خلد ا ملكه – فى أن يتدارك هـذا الخلـل وذلك على الوجه الآتى:

أولا – ضرب السكة وفق طبعه، ووضع عليها علامة لا يتيسر لكل شخص تقليدها وأمر بأن تضرب السكة فى كل الـبلاد مـن الـذهب والفضة كى ينقش عليها اسم ا واسم الرسول واسمه هو أيضا. وفـى جورجيا [1]كذلك لم تكن السكة هناك تحمل على الإطلاق اسم ا واسم

---

(١) خضعت إمارة جورجيا للمغول فى إيران، وكانت تدفع لهم الخراج نقدا أو عينا، وتعمل جاهدة لتبنى نفس السياسة التى اتبعها المغول. وكان على الكرج أن يمدوا المغول بعدد من جنودهم فى زمن الحرب. وقد اعتبر المغول الجيش القادم من جورجيا جيشا مثاليا وكفئا كما أن المغول أظهروا ميلا وولعا بالكرج بسبب

الرسول، فسكت غازان على سبيل الضرورة على النحو المقرر عند الكرج (الجرج)، إذ لم يكن يروج عندهم غير تلك العملة. وكان نظام التعامل قبل ذلك يسير وفق ما تعارفوا عليه؛ إلى أن دعت الضرورة إلى أن تضرب هناك أيضا هذه السكة المعمول بها فى إيران؛ وإلا فإن نقدهم ما كان يتداول فى أى موضع آخر. هذا على الرغم من أن السكان هناك كانوا عصاة متمردين. وهكذا تقرر ضرب السكة من الذهب والفضة وتداولها فى كل البلاد على النحو المذكور.

ثانيا – فيما يتعلق بتقرير العيار، قال: إننا لو سمحنا بإنقاص شىء قليل من عيار الذهب الشرعى المتداول كالنقد الخليفى والمصرى والمغربى، لأنقصوا كثيرا من العيار بمجرد الترخيص، وبالحيل والتلبيس يظهرون ذلك العيار بشكل آخر. ولم يكن مفتشونا على علم بذلك، أو أنهم يتقاضون رشاوى فيهملون الأوامر.

وإذن فالمصلحة تقتضي أن تضرب النقود بصورة مطلقة من الذهب الخالص؛ بحيث يمكن سكه بالورق. وإما الفضة الخالصة فيمكن تحليلها بالزئبق، حتى إذا داخلها تخليط ولو بقيد شعرة فإنه يمكن

مهارتهم العسكرية ولكونهم الحراس الطبيعيين للحدود القوقازية. وفى مقابل ذلك سمح لهذه الدويلة بقسط وافر من الاستقلال فى الشئون الداخلية والمالية، وكان باستطاعتهم أيضا البت فى شئونهم العسكرية دون تدخل المغول. (انظر كتاب العالم الاسلامي في العصر المغولي، تاليف برتولد شبولر، نقله الى العربية خالد اسعد عيسى، راجعه وقدم له سهيل زكار، والطبعة الأولى / ص٦٨-٦٩، دمشق ١٤٠٢ه –١٩٨٢م).

إظهاره ومعرفته إما من اللون، وإما من ..[1]، وإما من النعومـة. وإذا صهرت بالنار فإن التخليط يظهر فى الحال، ويسهل على كل شـخص معرفة قيمتها. وحيث إن السلطان أراد أن يكون العيار فى كل الـبلاد على هذا النمط، وكانت مواضع التفاوت كثيرة فى العيارات أمر قائلا: "إذا نفذ هذا القرار فجأة فإن كافة الخلـق سـوف يلحقهـم الضـرر، ويضجون بالشكوى. فالأولى إذن أن يسك كل درهم بأربعة دوانق مـن غير أن تكون هناك مصلحة من وراء ذلك، ولو بنصف أو ربع دانق. **[ص٤٩٣]** ولم يكن هناك سكة يضربونها فى هذا الزمن بنصف مثقال مما كان يساوى نصف الدانق خالصا، ونصفه الآخر مزيفا. أمـا الآن فيساوى نصف مثقال فضة خالصة. وحيث إن قيمة الـذهب والفضـة تكون بمقدار عيارهما فإن كل شخص يملك نصف نصـف دانـق أى (ربع دانق) خالصا والنصف الآخر مزيفا، ثم يصرفه بدرهم واحد، أو يجعله خالصا فى نصف مثقال، يصرفه بذلك الدرهم الواحد. وبالتدقيق تبين أنه قريب من القيمة المحددة، ولا يحدث ضرركبير. ومن هنا أخذ الناس يستبدلون راضين كل ثلاثة مثاقيل فضة خالصة مسكوكة بثلاثـة مثاقيل ونصف مثقال من الفضة التي كانت فى أيديهم. وكان السـلطان يستفسر عن قيمة الذهب المتداول ويأمر بسكه وتثمينـه علـى نحـو

---

(١) هكذا فى المتن.

مرض؛ بحيث لا يحدث تفاوت قط. وأما الذهب الهرمـوزى الـذى لا يستطيع أحد تمييزه عن المزيف المطلي بالذهب، وكذلك أنواع الـذهب الأخرى القليلة العيار، والأقل قيمة، فإنه أمر بأن يسعر بسعر أرخـص ومقصوده من ذلك أن الصيارفة عندما يدركون أن فى صهر الـذهب ربحا لهم يشترونه كله، ويصيرونه ذهبا خالصا. ومتى عرفـوا تلـك الفائدة فإنه خلال عام واحد لم يعد أحد يرى فى البلاد مثقالا واحدا من الذهب القليل العيار.

ولما كان الذهب الأحمر (الإبريز) الخالص يوجد نادرا فى الأسواق فيما مضى فإنه إذا توافر منه قدر محدود فإنـه مائـة مشـتر كـانوا يظهرون لشرائه. وكان المشهور أن الثياب والأقمشة المنسـوجة ومـا شابهها تلك التي كانت توشي بالذهب، وتستهلك كثيـرا مـن الخيـوط الذهبية متوافرة فى عصر المغول. كما أنها من البضائع التي تروج فى الهند وتحمل إلى هناك. ولهذا قل الذهب فى ذلك الوقت. أما الآن فـإن الذهب الأحمر يتداول بكثرة فى الأسواق بيد كل قروى، ولا نهاية لـه، وبه تنجز كل المعاملات. وعلى هذا لم يبق فى الـبلاد مـن الـذهب والفضة غير المضروبين بهذه السكة.

ثالثا: بالإضافة إلى ذلك صدر قرار يقضي بأنه إذا عثر على ذهب وفضة مزيفين فى يد أحد الأشخاص فإنه يعتبر مجرما. وجريا علـى العادة القديمة لا يقولون: دلنا على ذلك الشخص الـذى أعطـاك هـذا

الذهب؛ إذ إنه فى ذلك الزمان كانـت أنـواع **[ص٤٩٤]** الـذهب المزيف موجودة. أما فى هذا الزمان (أى فى عهـد غـازان) فـالأمر يقتضي ألا يتعامل أى مخلوق بغير الذهب والفضة. ومـن لا يعـرف الذهب يعرضه على شخص آخر كي يحتاط لنفسه.وحيـث إن الأمـر يجرى على هذا المنوال لا يقدم أى مزيف على تزييف الـذهب؛ لأنـه يعرف بالتأكيد أنه لن يقبل منه؛ ولأن الجميع يحتاطون. وفى هذه المدة التي نفذ فيها أمر عظيم كهذا فى كل البلاد، لم يكن الأمر محتاجـا لأن يقتل أحد جزاء مخالفته. ولقد ذاع الخبر وانتشر فى كل البلاد، ويقضي بألا يكون هناك سكة أخرى قط ولا عيار آخر غير المذكورين. وأمـر أيضا بالتعامل بالفضة المسكوكة، بحيث يزن الدينار المتـداول ثلاثـة مثاقيل حتى لا يزيفه أى مخلوق.

ولما صار النقد متساويا فى كل البلاد استراح الناس، وأخذ التجـار يستبدلون الأمتعة بالنقود التي كانوا يدخرونها. والآن يحملـون أنـواع البضائع إلى كل بلد. وقد رخصت أسـعارها، وتمتـع جميـع النـاس بفوائدها، وانتشـر اسـم سـلطان الإسـلام- خلـد سـلطانه – وذاع بالاستحسان والثناء. وقد قرئت الخطبة وضربت السكة باسمه المبارك. كذلك أمر السلطان غازان بسك عملة من أجود أنواع الذهب، تزن كل واحدة منها مائة مثقال، ونقش عليها اسمه بخطوط كل الولايات، حتـى يعرف الجميع عندما يقرأونها فى كل المواضيع أنها من ضربه. وقـد

نقش عليها آيات القرآن الكريم وأسماء الأئمة الاثنى عشرية (رضـي ا عنهم). وكانت هذه العملة تمتاز بالجودة واللطف إلى أقصى حـد؛ بحيث إن كل شخص يعثر عليها، لا يميل إلى تركها. وقطعا يريـد أن يحتفظ بها. وعلى سبيل الشهرة وإذاعة الصيت صرح السلطان قـائلا: "عندما ننعم على أحد نعطيه من تلك العملة الممتـازة"[1]. مثـل هـذه الاعمال العظيمة التي لم تتح لأى واحد من الخلفاء والسلاطين السابقين قد تيسرت ومهدت لسلطان الإسلام – خلد سلطانه – وهى لازمة لراحة الخلق. فليبقه ا تعالى أبد الدهر بمنه وكرمه.

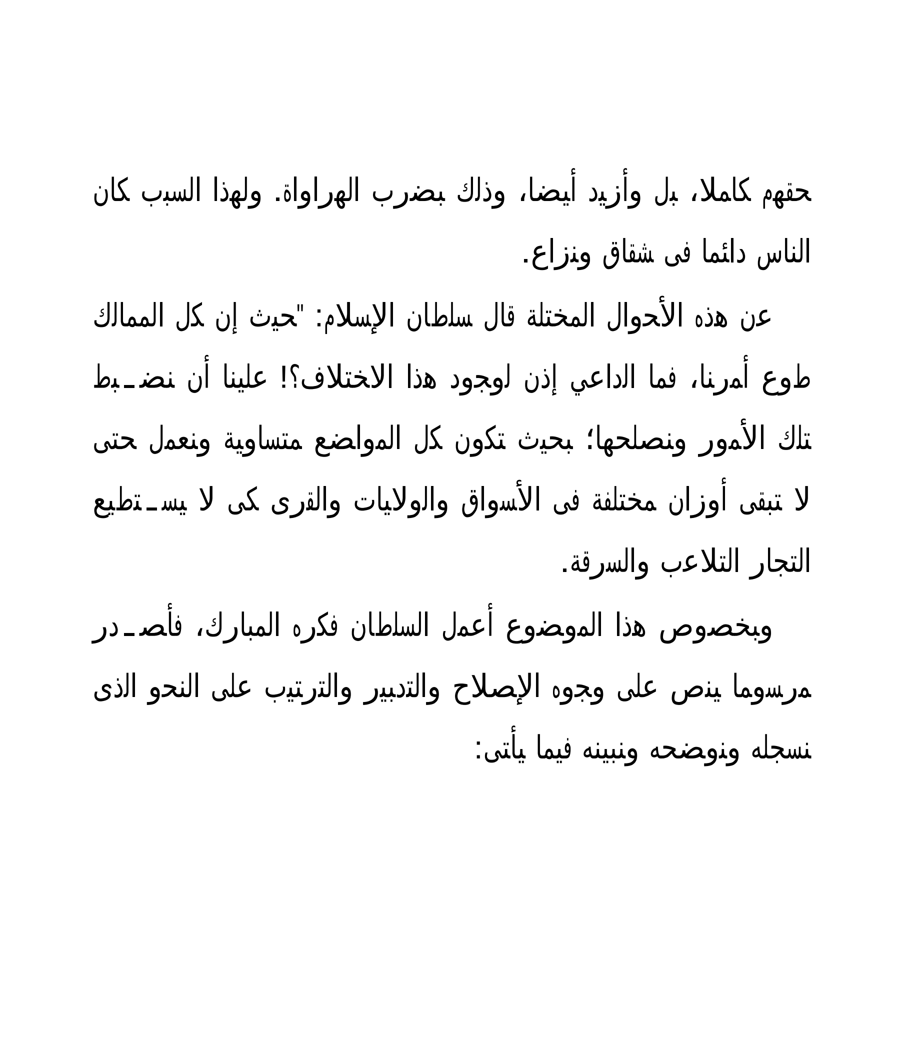
---

(١) يبدو أن هذه العملة كانت للإهداء فقط وليست للتداول. هذا ويذكر شبولر أنه لم يعثر حتى الآن على نموذج من هذه المسكوكات (تـاريخ مغول در ايران، ترجمـة دكتـر محمود مير آفتاب، ص ١٩٤ ـ ١٩٥).

فى تعديل أوزان الذهب والفضة والأحمال والمقاييس

والمكاييل والمساحات والأوزان الأخرى وغير ذلك

قبل هذا كانت أوزان الذهب والأحمـال والمكاييـل والمسـاحات والأوزان الأخرى مختلفة فى البلاد، بل حتى هذا الزمن، كانت تختلف أيضا فى نواحي كل ولاية. ولهذا السبب كان يقع خلل كبير فى محـيط الأسعار. وكان التجار يقللون من شراء البضائع؛ لأنهـم كـانوا كلمـا حملوا نقودا من موضع إلى موضع زادت قيمتها. وبمجرد مـا كـان الوزن يتفاوت كان يتحقق الربح للتجار. وقد ترتب على هذا أن كسدت سوق البضائع فى بعض الولايات وانعدم وجودها فى بعضـها كـذلك. وكانوا يتعاملون بالأصغر منها مع الغرباء، وبالأكبر فيما بيـنهم. وإذا كان الغريب يعرف ذلك أو لا يعرف فإنه للضرورة يرضـى بـالأمر الواقع. وكان القرويون يشهد الواحد منهم للآخر كذبا وزورا علـى أن المكيال عدل وصحيح. أما مكاييل الحبوب التي كانت تعطى للجند، أو تقدم كهدايا، والتي ينبغي أن يزن كل مكيال مائة من فإن ما يظهر منها سبعون أو ستون منا فقط، بل أقل من ذلك أيضا. لكن الأشداء يأخذون



حقهم كاملا، بل وأزيد أيضا، وذلك بضرب الهراواة. ولهذا السبب كان الناس دائما فى شقاق ونزاع.

عن هذه الأحوال المختلة قال سلطان الإسلام: "حيث إن كل الممالك طوع أمرنا، فما الداعي إذن لوجود هذا الاختلاف؟! علينا أن نضـبط تلك الأمور ونصلحها؛ بحيث تكون كل المواضع متساوية ونعمل حتى لا تبقى أوزان مختلفة فى الأسواق والولايات والقرى كى لا يسـتطيع التجار التلاعب والسرقة.

وبخصوص هذا الموضوع أعمل السلطان فكره المبارك، فأصـدر مرسوما ينص على وجوه الإصلاح والتدبير والترتيب على النحو الذى نسجله ونوضحه ونبينه فيما يأتى:

[ص٤٩٦] نص المرسوم الصادر بشأن عيار الذهب والفضة الذى أمر به السلطان على الوجه الذى هو أفضل كل الوجوه

بسم ا الرحمن الرحيم

بقوة ا تعالى وميامن الملة المحمدية

فرمان السلطان محمود غازان

ألا فليعلم الشحن والملوك والكتاب والنـواب والقضـاة والسـادات والأئمة والصدور والأعيـان والوجـوه والمشـاهير وكافـة السـكان والمسافرون وتجار الممالك أن كل أنظارنا وهممنا السـلطانية متجهـة إلى رفاهية أحوال الرعايا وجميع الخلق، ونشر العدل والصـدق فيمـا بينهم وإقامة الأعمال الخيرية ونريد أن نزيل من بين سكان العالم الظلم والجور والبدع والأكاذيب التي انتشرت آمادا مديدة بين الخلق. ذلك أن كافة الناس صاروا فى تعب ومشقة، ومثار اعتراض وجدال ودعـاوى باطلة، وحروب وخصومات؛ فنرغب فى أن نرفع عن كاهلهم أنـواع التزوير والمظالم كي يتخلصوا فى هذه الدنيا من الفتن والمشقات، وفى الآخرة من العقوبة ومن نار جهنم.

فى هذه الآونة عندما كنا نتفحص شئون الملك ومصـالح الخلـق، ونضع قانونا لكل أمر تبين لنا أن كل شخص يعد لمصـلحته ومنفعتـه أوزانا من الحجارة واللِبن والحديد وغير ذلك يسـتعملها فـى أسـواق

المعسكرات والمدن. وفى كل وقت يزيد وينقص فـى الـوزن حسـب هواه. وهكذا يبيع ويشترى بهذه الطريقة، فيصـير الفقـراء مغبـونين ومتضررين. هذا التصرف لم يكن مناسبا لرأينا الذى يزين الدنيا، ولـم نستحسنه، فصدر أمرنا بتعـديل أوزان الـذهب والفضـة والأحمـال والمكاييل والمقاييس، وذلك فى كل البلاد الممتدة مـن ضـفاف نهـر جيحون حتى حدود مصر، وأن تصنع كلها من الحديد. ثم تختم وتضبط بحضور الشخص الذى عيناه لهذه المهمة. وبموجب هذا النظام يباشـر الناس أعمالهم فى كل البلاد، ولا يحيدون عنه. وإن تفصيل وبيان ذلك إنما يكون على هذا النحو الذى نشرحه فيما يأتى:

[٤٩٧] أولا: يجب أن يكون وزن الذهب والفضة فى كـل الـبلاد موازيا ومساويا لوزن تبريز كي لا يستطيع أحد أن يـنقص أو يزيـد فيتحمل مظالم الناس، وأيضا لا ينقل النقود من ولاية إلى ولاية أخرى بسبب تفاوت الوزن. ومثلما يتساوى عيار الذهب والفضة فى المملكـة تتساوى الأوزان أيضا. ولهذا السبب عيّنّا الأستاذين فخر الدين وبهـاء الدين كي يصنعا أوزان الذهب والفضة بالشكل المثمن وأن يعينا مـن قبلهما فى كل ولاية اثنين من الثقات وأمينا من قبل قاضي تلك الولاية كي يعدلوا الأوزان بحضور المحتسب، ويتم ترتيب وضبط ذلك، علـى نحو يراعي فيه أن تكون سنجات الذهب مثمنة الشكل طبقـا للنمـوذج الذى وضعه فخر الدين وبهاء الدين الخراساني. فأى شخص فى كـل

ولاية يحتاج إلى أن يعد لنفسه وزنا، عليه أن يصنعه بالشكل المعـين من الحديد الخام. ثم يذهب إلى الأربعة الثقات المذكورين الذين عينـوا فى كل ولاية كي يعدلوا العيار باحتياط تام، ويضـعوا عليـه السـكة، ويسلموها لأصحابها، ولا يصنع تلك السكة أى شخص آخر كائنا مـن كان، ولا يضعها على حجر الوزن. أما الشخص الذى يصنع تلك السكة وفق هواه، ويضع العلامة على الحجر على سـبيل التمويـه فيعتبـر مجرما ويستحق الإعدام.

ثانيا: يجب على كل شخص يعطى السنجات والسكة أن يسجل اسمه فى السجلات حتى لا يستطيع الآخرون تزييف الوزن حسب هـواهم، وأن يتفحص المسئولون كل شهر - علـى سـبيل الاحتيـاط – كـل السنجات لكافة الناس، ويقارنوها بالأصل، فإذا ما زاد عليها شخص أو نقص منها، أو أخفاها أو وضع السكة خفية أو سرا حسـب هـواه، أو استعمل وزنا آخر ليس عليه ذلك الختم وتلك النقوش ثم تداوله أو أنـه زيف تلك الأوزان - فإنه يقبض على ذلك الشخص ثـم يسـاق إلـى الشحنة كى يعاقب بموجب حكم المرسوم.

ثالثا: أوزان الأحمال لها نفس الحكم والترتيب والطريقـة. ولكـن المقرر هو أنه فى كل موضع يكون الوزن أقل من وزن تبريز يعـدل ليكون مناسبا ومساويا لوزن هذه المدينة. **[ص٤٩٨]** وكل ما كـان – حتى هذا الوقت – زائدا على وزن تبريز يطبق عليه القـرار المتبـع

بالنسبة إلى السنجات ومراعاة الاحتياط حتى يتركوا وزن تلك الولاية. لكن ينبغي أن تصنع كل تلك الأوزان من الحديد بشـكل مـثمن طبقـا للنموذج، وأن يراعي الاحتياط فتوضع عليه السكة، ثم يقر المسـئولون الثقات الإجراءات على هذا النحو من الضبط والترتيب.

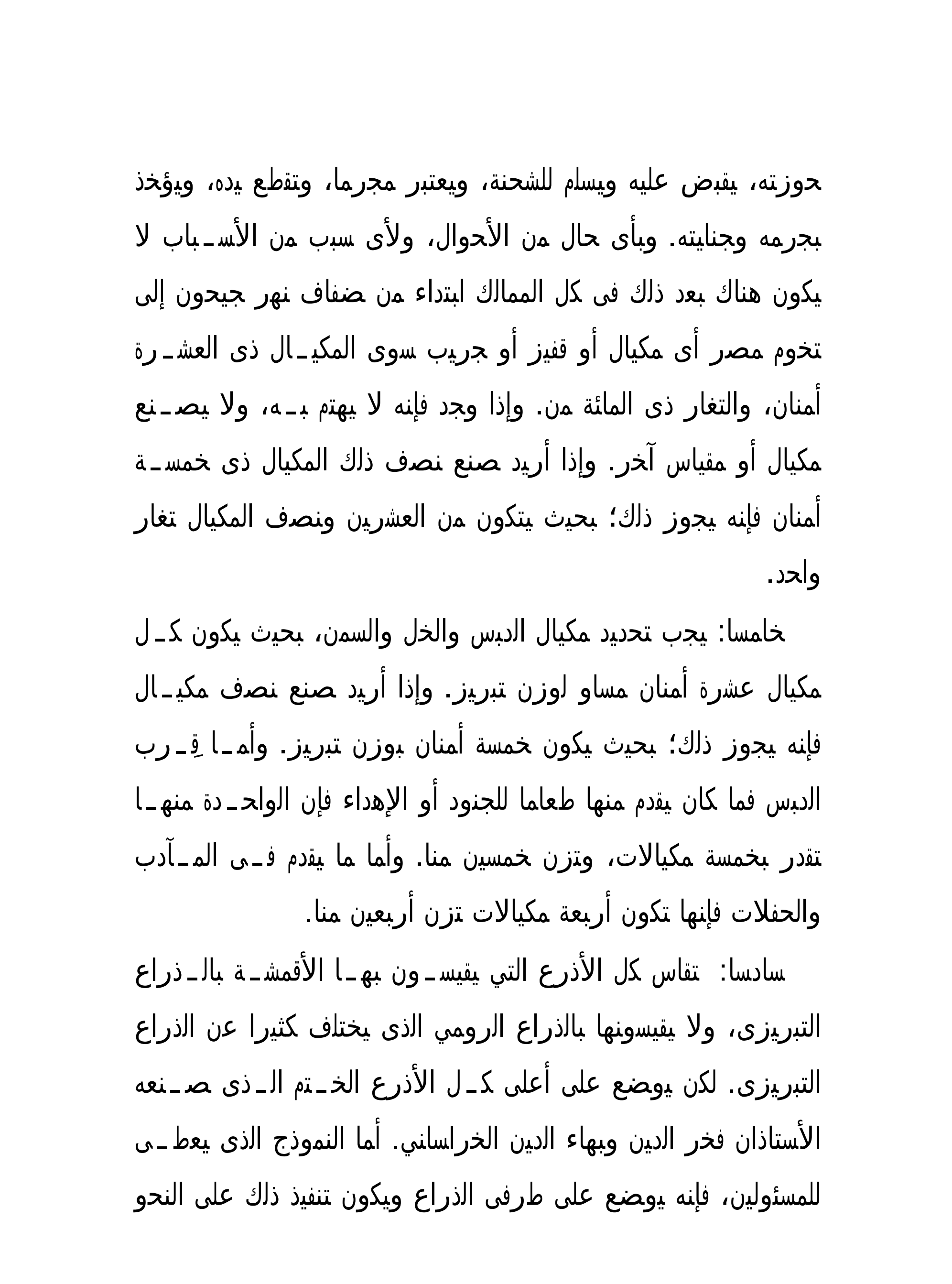
وينبغي أن تصنع أوزان الأحمال ابتداء من عشـرة أمنـان حتـى الدرهم الواحد فى إحدى عشرة قطعة وفق هذا الترتيب: عشرة أمنان – خمسة أمنان – منّان – من واحد – نصف من – ربع من – ثمن من – عشرة دراهم – خمسة دراهم – درهمان – درهم واحد.

وعندما يكون الحمل ثقيلا ومكونا من قطعة واحـدة يجـب علـى موظفى الدمغة فى المدن أن يصنعوا قَبانا معتمدا عليـه، يـوزن بـه الحمل؛ بحيث لا تكون هناك زيادة أو نقصان فى الوزن.

رابعا: بسبب اختلاف المكاييل فى كل بلد من كيل وقفيز وجريـب وتغار قمح أو شعير ونظرا لاصـطلاحاتها الكثيـرة فـإنهم يزيـدون وينقصون فيها، وكل شخص يصنع مكيالا وفـق هـواه. ولا شـك أن ضبط ذلك كله أمر صعب. ثم إن كل شخص لا يدرك ذلك، وبخاصـة أفراد القوات المتطوعين من المغول. وكذلك التجار والغربـاء الـذين يصلون إلى كل ولاية. وقد ينشب الخلاف بينهم وبـين الرعايـا فيمـا يتعلق بشراء مكيال الديوان وتسلمه. على أن كل من له غلبـه ونفـوذ يأخذ بالقوة ما يزيد عن المقرر. أما الأشخاص الضعفاء فيعطون أقـل

من المعهود. وهذا من شأنه أن يسبب النقصان والخسـران والمشـقة والقيل والقال بين الناس أجمعين.

لهذه الأسباب أمرنا بأن يكون الكيل متساويا فى كل الـبلاد. وكـل كيلة تساوى عشرة أمنان بوزن تبريز، ويساوى المـن الواحـد ٢٦٠ درهما، وكل عشر كيلات تساوى تغارا واحدا. وباستثناء الكيلة والتغار المذكورين لا يستعمل أى مكيال أو اصطلاح آخر بين الخلـق حتـى تكون المعاملة والمحاسبة صحيحة، ولا يحتال الواحد منهم على الآخر. وعند تسليم التغار يقدر بالمكيال حتى لا تكون فيه زيـادة أو نقصـان. ولما كانت الحبوب من القمـح والشـعير والأرز والحمـص والفـول والسمسم والجاورس وغير ذلك، وبعضها أخف أو أثقل مـن بعضـها الآخر، ينبغي أن يصنع لكل نوع من تلك الحبوب **[ص٤٩٩]** مكيـال خاص به، بحيث يعادل عشرة أمنان بالضبط. ثم يكتب اسم محتوى كل مكيال على أربع جهات بعنوان "مكيال الحب الفلاني"، على أن تفوض دار القضاء "المعتمد" للقيام بهذا العمل، إذ إنه الشخص الذى عهد إليـه بالإشراف على أوزان الذهب والفضة والأحمال. وعلى المسـئولين أن يحتاطوا لذلك المكيال بالاتفاق مع المحتسب، وأن يضعوا على أطرافه أيضا علامة خاصة به، بحيث لا يمكن حدوث أى تزوير أو محاولـة للنقصان أو الزيادة. وكل شهر تتخذ الحيطة فـى المـدن والولايـات؛ بحيث إن كل شخص يصنع مكيالا بغير العلامة الخاصة به، ويكون فى



حوزته، يقبض عليه ويسلم للشحنة، ويعتبر مجرما، وتقطع يده، ويؤخذ بجرمه وجنايته. وبأى حال من الأحوال، ولأى سبب من الأسباب لا يكون هناك بعد ذلك فى كل الممالك ابتداء من ضفاف نهر جيحون إلى تخوم مصر أى مكيال أو قفيز أو جريب سوى المكيال ذى العشرة أمنان، والتغار ذى المائة من. وإذا وجد فإنه لا يهتم به، ولا يصنع مكيال أو مقياس آخر. وإذا أريد صنع نصف ذلك المكيال ذى خمسة أمنان فإنه يجوز ذلك؛ بحيث يتكون من العشرين ونصف المكيال تغار واحد.

خامسا: يجب تحديد مكيال الدبس والخل والسمن، بحيث يكون كل مكيال عشرة أمنان مساو لوزن تبريز. وإذا أريد صنع نصف مكيال فإنه يجوز ذلك؛ بحيث يكون خمسة أمنان بوزن تبريز. وأما قِرب الدبس فما كان يقدم منها طعاما للجنود أو الإهداء فإن الواحدة منها تقدر بخمسة مكيالات، وتزن خمسين منا. وأما ما يقدم فى المآدب والحفلات فإنها تكون أربعة مكيالات تزن أربعين منا.

سادسا: تقاس كل الأذرع التي يقيسون بها الأقمشة بالذراع التبريزى، ولا يقيسونها بالذراع الرومي الذى يختلف كثيرا عن الذراع التبريزى. لكن يوضع على أعلى كل الأذرع الختم الذى صنعه الأستاذان فخر الدين وبهاء الدين الخراساني. أما النموذج الذى يعطى للمسئولين، فإنه يوضع على طرفى الذراع ويكون تنفيذ ذلك على النحو

الذى سبق شرحه. وفى المدن يشرف على هـذه العمليـة المعتمـدون المذكورون. وكل من يغير ويبدل فى المقاييس يعد مجرمـا ويسـتحق الإعدام.

أوصل ا تعالى ببركات مثل هذا العـدل والإنصـاف إلـى أيـام السلطان المباركة الميمونة.

الحكاية الثانية والعشرون

فى تنظيم شئون المراسيم والبايزات وتسليمها للناس

[ص٥٠٠] بخصوص المراسيم قرر السلطان أن يعرض عليه فـى الوقت المناسب كل كلام فى حالة صحوه و يقظته. ولـو أن سـلطان الإسلام– خلد ملكه - حتى وقت تناوله الشراب أيضا لا يسـتطيع أى مخلوق أن يموه عليه على سبيل الحيلة والتلبيس والمغالطـة. كمـا لا يستطيع الحصول على إذن يسمح له بعرض كلام غيـر مستسـاغ ولا جدوى منه. ولا يمكن أن يعرض عليه موضوع غير منطقي لا فائـدة منه، أو أن يطلب إليه البت فى أمر على سبيل العجلة والتسـرع؛ فلـم يأذن بأن يعرضوا عليه كلاما فى مثل هذه الأحوال.

كذلك أمر السلطان بأن يعد الأمراء صور المراسيم بعد عرضـها عليه، إذ إنهم يعرفون مصالح الملك، ويدركون كل أمر. وإذا كانت هذه المراسيم غير معقولة وبعيدة عن العمل الذى يمارسـونه، فعلـيهم ألا يكتبوها بناء على التماس كل شخص. وهناك أيضا كثير من المهمـات التي ينبغي أن تراجع بشأنها السجلات الديوانية مـع ذكـر المواضـع والمبالغ. ويجب الاحتياط عند كتابة المسودة، فيقرأونهـا لفظـا بلفـظ بحضور كُتّاب المغول، ثم يعرضونها على الحضرة، حتـى إذا لـزم

إصلاح فإنه يصحح بقلم السلطان المبارك أو بلفظه المبـارك. وبعـد تبييض المسودة يعرضونها عليه مرة أخرى، ثم يختمونها، ويقولـون: إن المرسوم الفلاني الخاص بفلان قد عرض فى اليوم الفلاني وقـرئ فى اليوم الفلاني، وذلك حتى يؤذن لهم بوضع الدمغة.

وقبل هذا كان مفتاح صندوق أختام الدمغة الكبيرة فى يد الكتـاب. أما الآن فهو فى عهدة الحضرة المباركة، ويسلم وقت الحاجة كي يختم به الكتاب المراسيم متفقين، ثم يعيدونه إلـى موضـعه. كـذلك عـين السلطان أربعة أمراء من أربع فرق، وأعطى كل واحد منهم على حدة ختما أسود (قرا تمغا)؛ حتى إذا ختموا به المرسوم سجلوا ذلـك علـى ظهره بحيث لا يمكن إنكاره مطلقا، أو أن يقولوا: إن ذلـك لـم يـتم بمعرفتنا. بعد ذلك تعرض هذه المراسيم علـى الـوزراء وأصـحاب الديوان مرة أخرى كي يحتاطوا للأمر ويتأكدوا متسائلين: هـل حـدث تلاعب أو لا؟ وهؤلاء يضعون أيضا دمغة الديوان علـى المرسـوم، ويسلمونه للشخص المعين. ثم عين كاتبا كي يكتب فى السجل صـورة المرسوم لفظا بلفظ ويختمه ويذكر **[ص٥٠١]** اليوم الـذى خـتم فيـه بالدمغة، ومن كتبه، ومن عرضه. وبعد انتهاء العام ينشأ مـن جديـد سجل آخر تسجل فيه المراسيم؛ بحيث يخصص سجل جديد لكل سـنة. والمقصود هو ألا يتيسر حدوث تزوير أو تخليط، ولا يستطيع أحد قط أن ينكر عرض المرسوم أو كتابته وختمه. وكـذلك إذا أعطـى أحـد مرسوما، ووجده شخص آخر، وأراد أن يحصل على حكم يخالف مـا

نص عليه المرسوم فإنه يرجع إلى السجل كي تُعلم الحقيقة، ولا يحدث خلاف ما عرض. وإذا ما اتهم صاحب المرسوم فإنه من ذلك السجل، يمكن معرفة ما إذا كان قد أدخلت زيادة على ما هو مقـرر لـه أم لا. وبناء على هذا يؤاخذ هو أو من اتهمه؛ وذلك حتى تنتظم أمور الأحكام بصورة دائمة، وتغلق أبواب الاعتراضات المغرضة. وأمر السـلطان كذلك بألا يأخذ الرسل من أحد شيئا فى مقابل ختم المرسـوم بـالختم الأحمر.

والحق أنهم بهذه الإجراءات قللوا كثيرا من أولئـك الـذين كـانوا يطمعون بالنسبة إلى ما كان عليه الحال قبل ذلك.

كذلك عين لكل أمر هام دمغة خاصة؛ فالدمغة الكبيرة المصـنوعة من اليشم[1] خصصت لحكومات السلاطين والأمراء والملوك العظـام ومعظمات الأمور. وخصصت للقضاة والأئمة والمشايخ دمغة أخـرى من اليشم أيضا، وهى أصغر قليلا. أما للأمور المتوسطة فقد خصصت دمغة كبيرة من الذهب وهى أقل قيمة من اليشم. ومن أجل ركوب الجند ونزولهم تستعمل دمغة خاصة من الذهب بنفس ذلـك الخـط والـنقش المعهودين، على أن ينقش على أطرافها صورة قوس وهراوة وسـيف. ويقضي الفرمان بألا يركب الجنود أو ينزلوا بناء على كلام الأمراء أو أى مخلوق ما لم يروا تلك الدمغة، وذلك باستثناء جنود الطليعة الـذين

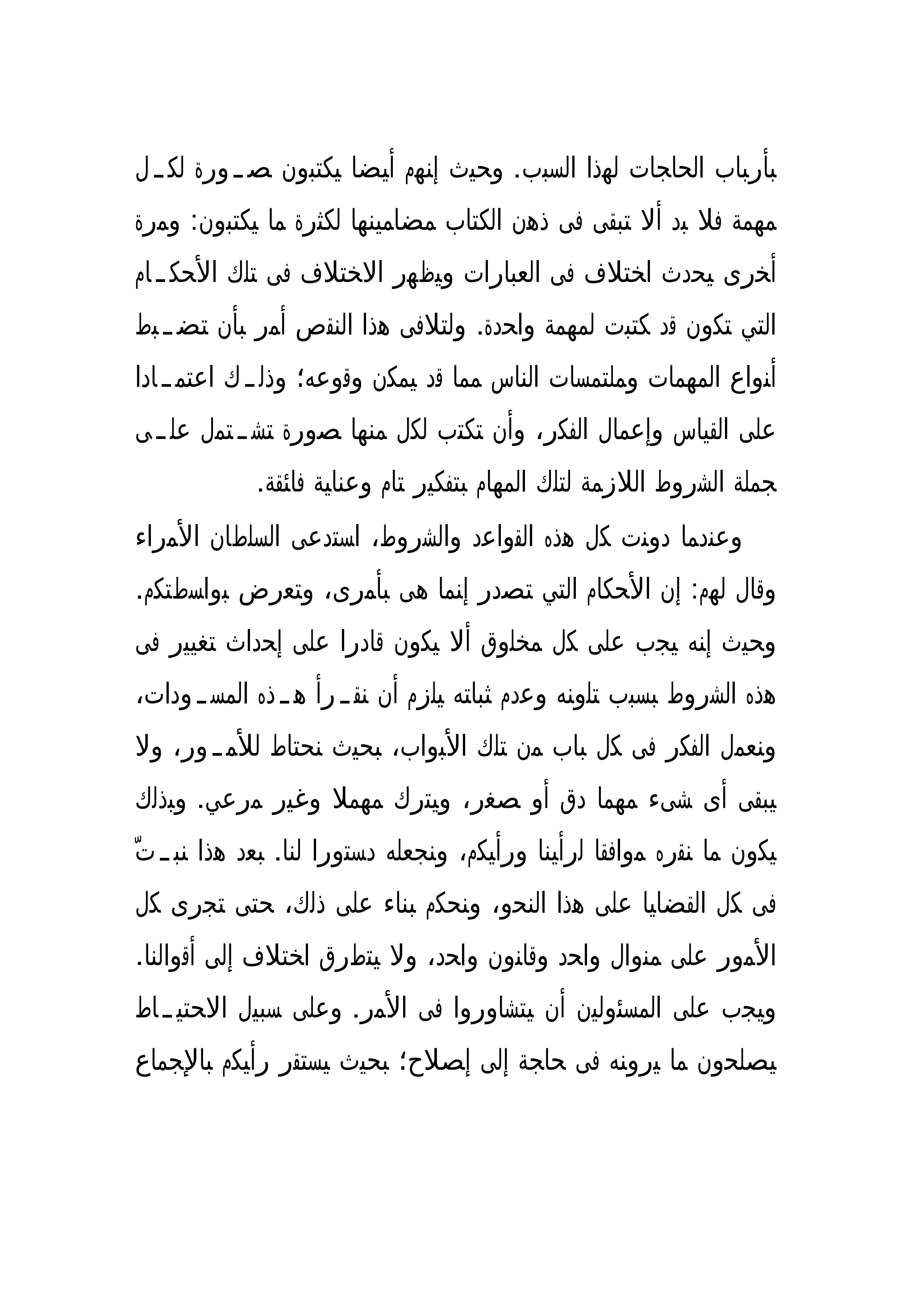
---

(١) اليشم: مصطلح عام يشمل مجموعة من المعادن الصلدة التى تتدرج ألوانها من الأبيض تقريبا إلى الأخضر الأدكن وتتكون من سليكات الكلسيوم والمغنسيوم غير المتبلورة. (انظر المعجم الوسيط، ج ٢ ص ١٠٦٥).

يقومون بمباشرة مهمات الثغور وحراستها. كذلك هناك فئة قليلة مـن الجند لمراقبة الطرق على سبيل الاحتياط، فعلـى هـؤلاء أن يركبـوا وينزلوا بناء على أوامر أمرائهم. واتخذوا أيضا ختما ذهبيـا صـغيرا تختم به حوالات الخزانة والولايات وملحقاتها والمفاوضات والرسـائل الديوانية التي تكتب بخصوص المعاملات والرى والفلاحة؛ وذلك بعـد أن يكون كتاب الديوان قد كتبوها بموجب التأشيرة، وكتبوا على ظهرها عبارة مختصرة بالخط المغولى حسب التعليمات حتى يختموهـا بتلـك الدمغة.

والآن عندما تتجمع الحوالات والرسائل الكثيرة **[ص٥٠٢]** تعرض على الحضرة فيأخذ المسئولون مفتاح الصـندوق ليختمهـا الـوزراء ونواب الديوان بمعرفة "صاحب الدمغة" (تمغاجي). هذا على حـين أن الآخرين يثبتونها فى السجل المحفوظ أيضا فى ذلك الصـندوق حتـى تتضح معرفة أى شخص ختمها بالدمغة، وفى أى وقت تم ذلك. ومـع توافر مثل هذا الضبط والترتيب كيف يبقى مجال يمكـن معـه كتابـة حوالة بدانق من الذهب دون الإذن المبارك ؟!

وعندما قررت هذه الضوابط ونفذت خطر للفكر المبارك أنـه لمـا كانت مهمات الملك ومصالحه وملتمسات الناس أكثـر مـن أن تتـيح الفرصة الكافية لقراءة كل مسوداتها؛ ينبغي أن يفكر فى اتخـاذ قـرار آخر فى هذا الشأن حتى لا تتعطل مصالح النـاس، ولا تلحـق مشـقة



بأرباب الحاجات لهذا السبب. وحيث إنهم أيضا يكتبون صـورة لكـل مهمة فلا بد ألا تبقى فى ذهن الكتاب مضامينها لكثرة ما يكتبون: ومرة أخرى يحدث اختلاف فى العبارات ويظهر الاختلاف فى تلك الأحكـام التي تكون قد كتبت لمهمة واحدة. ولتلافى هذا النقص أمر بأن تضـبط أنواع المهمات وملتمسات الناس مما قد يمكن وقوعه؛ وذلـك اعتمـادا على القياس وإعمال الفكر، وأن تكتب لكل منها صورة تشـتمل علـى جملة الشروط اللازمة لتلك المهام بتفكير تام وعناية فائقة.

وعندما دونت كل هذه القواعد والشروط، استدعى السلطان الأمراء وقال لهم: إن الأحكام التي تصدر إنما هى بأمرى، وتعرض بواسطتكم. وحيث إنه يجب على كل مخلوق ألا يكون قادرا على إحداث تغيير فى هذه الشروط بسبب تلونه وعدم ثباته يلزم أن نقـرأ هـذه المسـودات، ونعمل الفكر فى كل باب من تلك الأبواب، بحيث نحتاط للأمـور، ولا يبقى أى شىء مهما دق أو صغر، ويترك مهملا وغير مرعي. وبذلك يكون ما نقره موافقا لرأينا ورأيكم، ونجعله دستورا لنا. بعد هذا نبـتّ فى كل القضايا على هذا النحو، ونحكم بناء على ذلك، حتى تجرى كل الأمور على منوال واحد وقانون واحد، ولا يتطرق اختلاف إلى أقوالنا. ويجب على المسئولين أن يتشاوروا فى الأمر. وعلى سبيل الاحتيـاط يصلحون ما يرونه فى حاجة إلى إصلاح؛ بحيث يستقر رأيكم بالإجماع

على قرار واحد. وبعد ذلك يقرأ ما كتب مرة أخرى بحضوركم؛ فإذا ما بدا لكم شىء من خلل فعليكم أن تتشاوروا وتصلحوه.**[ص٥٠٣]**

وبعد إتمام هذه الخطوات الإصلاحية استقر الرأى حسب الأوامـر الصادرة على أن تكتب كل تلك المسودات فى سجل، سـماها "قـانون الأمور" ، وأمر بأن تنسخ الأحكام فيما بعد من تلـك المسـودات دون زيادة أو نقصان. وإذا اتفق - وهذا نادر - أن وجدت صورة لم تـذكر فى السجل فإنه تعد لها مسودة ثم تعرض. وأحيانا إذا لزمـت إضـافة جديدة تتناول الشخص والموضع واقتضاء الحال والوقت فـإن علـى المسئولين أن يكتبوا - على حدة– تلك الألفاظ القليلة، ثم يعرضونها.

وحيث إن مثل هذا الضبط والترتيب لم يكن لهما مثيل فى أى عهد سدت أبواب المجادلات والمنازعات التي كانت تحـدث فـى الأحكـام نتيجة اختلاف العبارات. وبذلك انتهـت حيـرة أصـحاب الحاجـات، وتهيأت لهم الفرص المناسبة، واستراح الخلق، وتحقق للجميع وثوق تام فى شئون الأحكام، ورسخت حرمة المراسيم وعظمتها فى القلوب. وقد زال سعي وأراجيف المفسدين والفضوليين الـذين كـانوا يسـتنبطون الأحكام وفق أهوائهم ووضحت مراتب الخـواص والعـوام والحكـام والمحكومين والظالمين والمظلومين. ولا شك أن منافع هذه الضـوابط أكثر من أن توصف.

أما بخصوص ترتيب وتدبير منح البايزات[1]، فقد أمـر السـلطان بصنع بايزات كبيرة خاصة بالسـلاطين والملـوك والشـحن، وهـى مستديرة على هيئة رأس الأسد، ومكتوب عليها اسم ذلك الشخص الذى يمنح البايزة. ثم يسجل ذلك فى السجل، وتظل فى يده طوال مدة عمله. ثم تسترد بعد عزله؛ إذ إن البايزة تظل سنوات عديدة مخصصة لتلـك الولاية. ومن المقطوع به أنها تمنح لملك بعينه، ولا تعطى شخصا آخر غيره. وكان المعتاد قبل ذلك أنهم إذا كانوا يرسلون – خلال عشـرين سنة – عشرين حاكما إلى إحدى الولايات، فإنهم يمنحون كـل واحـد منهم بايزة. وكان كل حاكم يعتقد– حتـى بعـد عزلـه – أن البـايزة أصبحت ملكا له، فكان يرسلها فى الخفاء – إلى أحد الأماكن لإنجـاز مهماته الخاصة.

وأما بخصوص الملوك والشحن ذوى الرتبة المتوسطة، فقد خصص لهم بايزات أصغر من السابقة. وهى ذات نقش مخصـوص ومكتـوب عليها اسم الشخص الذى تمنح له البايزة وفقا للضوابط المذكورة، ومنع ما كانوا يعطونه قبل هذا من وسائل كي يصنعوا البايزات فى الولايات

---

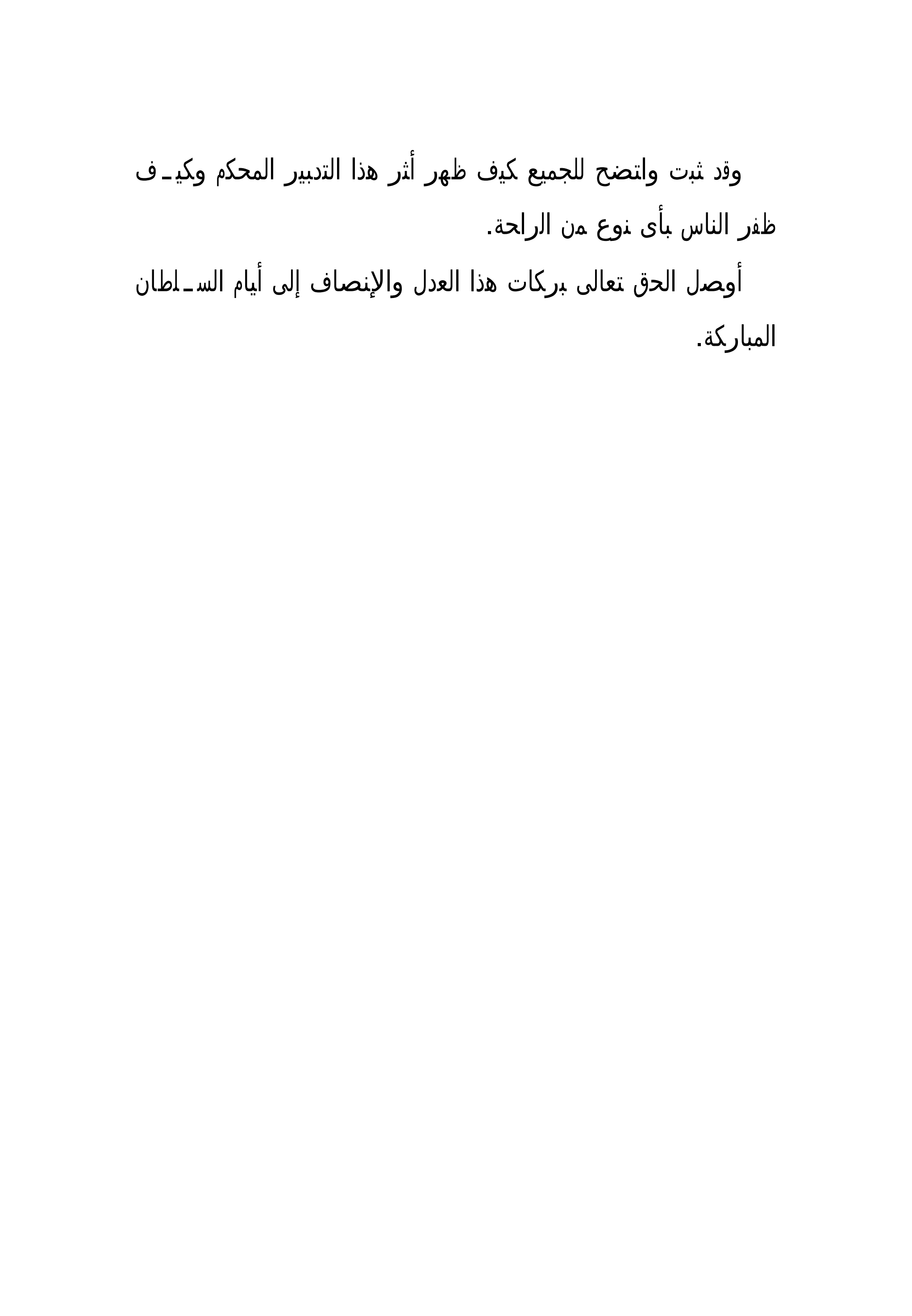
(١) البايزة لوحة من الذهب أو الفضة أو الخشب حسب رتبة المهداة إليه. وهى تشبه الميدالية فى العصر الحديث. وينقش على وجهها اسم الله واسم صاحب الخان المانح وعلامة خاصة. وقد أمر غازان بأن يكتب عليها أيضا اسم الشخص الذى يُمنح البايزة. أسمى أنواعها ما كانت تزينه صورة الأسد. وهذه خاصة بالملوك. وتهدى البايزة إلى من يثق بهم المغول من كبار الشخصيات ورجال الدولة، ويتمتع حاملها بامتيازات خاصة فله الطاعة على كل من فى دولة المغول.

وعين السلطان صائغا يلازم البلاط، وهو الذى يصنع البايزات. وعنـد تسليم البايزة المصنوعة من الفولاذ ينقش عليها نقش معين؛ بحيـث لا يستطيع شخص أن يقلده بسهولة. ويشترط أن يتم ذلـك فـى حضـرة السلطان، ثم يطرق بالمطرقة حتى يثبت عليها **[ص٥٠٤]** والمقصـود هو أن تظهر البايزة المزورة بواسطة تلك العلامة.

وبخصوص الرسل الذين يركبون خيول البريد فقد خصصت لهـم نفس البايزات المستديرة، ويكتب عليها بايزة الخزانة ثم يسـجل اسـم الرسول فى السجل. وعند عودته تسترد منه.

وأما بخصوص الرسل الذين يذهبون بالبريد الرسمي للدولـة، فقـد أمر لهم السلطان ببايزة مستطيلة على رأسها صورة القمر، وتمنح هذه البايزة أيضا وتسترد وفقا لهذه القاعدة. وعندما تقرر إيفاد أمراء الثغور دعت الضرورة إلى استخدام البريد الرسمي، كما تقرر أن يمنح كبارهم خمس بايزات مصنوعة من النحـاس. أمـا ذوو الرتبـة المتوسـطة، فيمنحون ثلاث بايزات يسلمونها للرسل السريعى العدو.

وقبل هذا كان أمام كل واحد مـن الأمـراء الأنجـال والخـواتين والأمراء أنواع من البايزات. وكان هؤلاء يسيرون الرسل تباعا إلـى الولايات لإنجاز كل عمل يريدونه.



وقد ثبت واتضح للجميع كيف ظهر أثر هذا التدبير المحكم وكيـف ظفر الناس بأى نوع من الراحة.

أوصل الحق تعالى ببركات هذا العدل والإنصاف إلى أيام السـلطان المباركة.

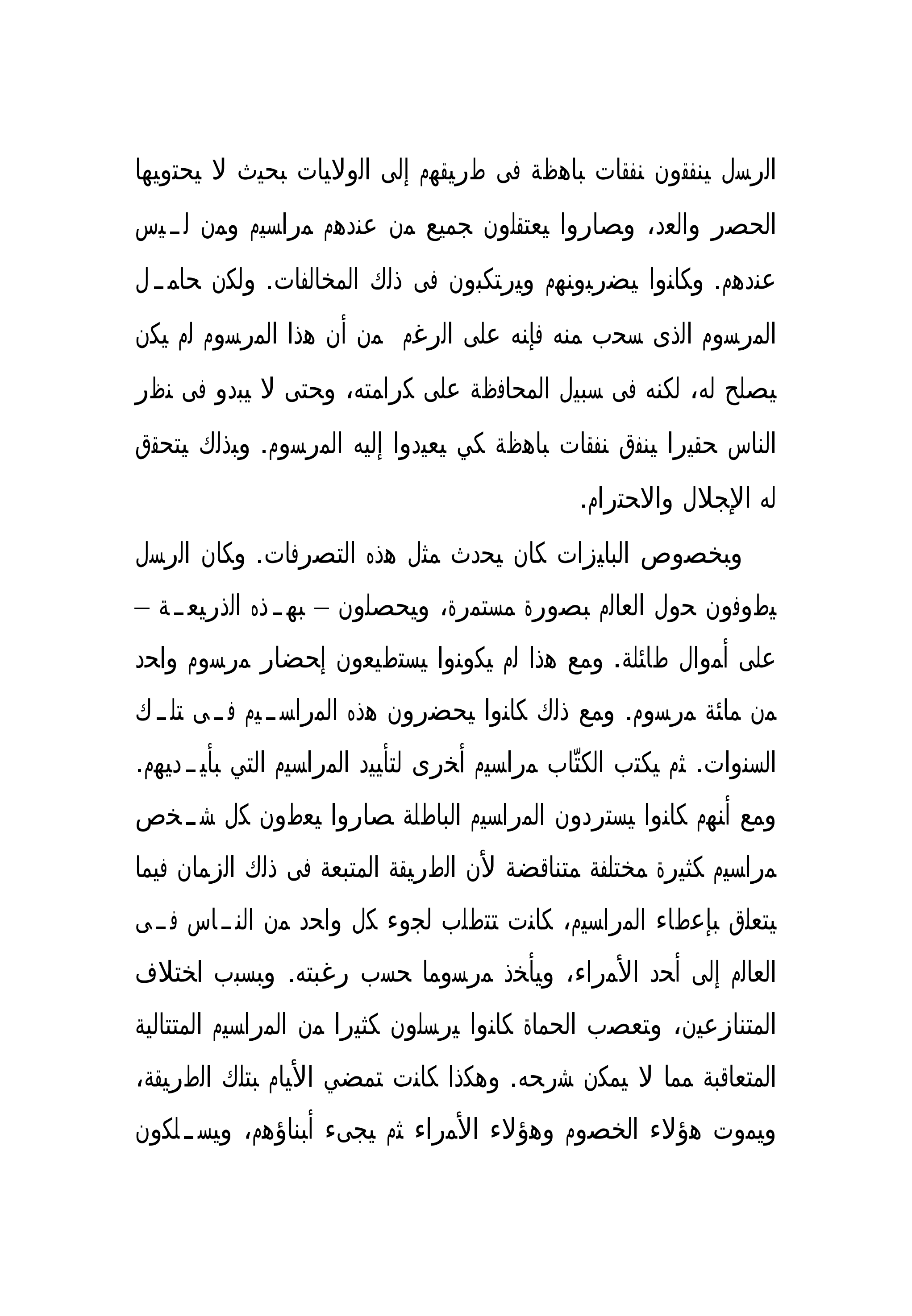
الحكاية الثالثة والعشرون

فى تدابير استعادة المراسيم والبايزات المكررة

التى كانت فى أيدى الناس

تقتضي طبيعة العالم أنه فى عهد كل ملك توجد طائفة مـن النـاس تناسب أساليب حكمه، وتتفق مع عاداته وميوله. وهؤلاء القوم صـاروا مقدمين على غيرهم، وإليهم تفوض شئون الملك والولاية، وهم ينفذون الأحكام على طريقة ذلك الملك إن عدلا وإن جورا ويسـلمون للنـاس المراسيم والفرمانات. وعندما ينتقل الحكم إلى ملك آخر فلا مفر من أنه يرغب فى إحالة تلك المهمات إلى أشخاص يسـيرون وفقـا لعاداتـه ورسومه، ويصدرون أحكاما بصورة تتناسب مع طبيعة عهده؛ ذلك أن كل عهد يقتضى نوعا خاصا من الحكم.

والمشاهد قبل هذا أنه فى عهد آباء وأجداد سلطان الإسلام - خلـد ملكه - أن كل ملك إذا ما أراد أن يجمع المراسيم والبـايزات السـابقة التي كانت فى أيدى الناس بالحق أو بالباطل فإنـه يسـير **[ص٥٠٥]** رسلا مشهورين يحملون الأوامر المحكمة العظيمة والمصـوغة فـى أسلوب من المبالغة والتهويل. ومجمل الفرمانات هـو أن مـن يخفـى مرسوما من المراسيم أو بايزة من البايزات يعتبر مجرما. وكان هؤلاء



الرسل ينفقون نفقات باهظة فى طريقهم إلى الولايات بحيث لا يحتويها الحصر والعد، وصاروا يعتقلون جميع من عندهم مراسيم ومن لـيس عندهم. وكانوا يضربونهم ويرتكبون فى ذلك المخالفات. ولكن حامـل المرسوم الذى سحب منه فإنه على الرغم من أن هذا المرسوم لم يكن يصلح له، لكنه فى سبيل المحافظة على كرامته، وحتى لا يبدو فى نظر الناس حقيرا ينفق نفقات باهظة كي يعيدوا إليه المرسوم. وبذلك يتحقق له الإجلال والاحترام.

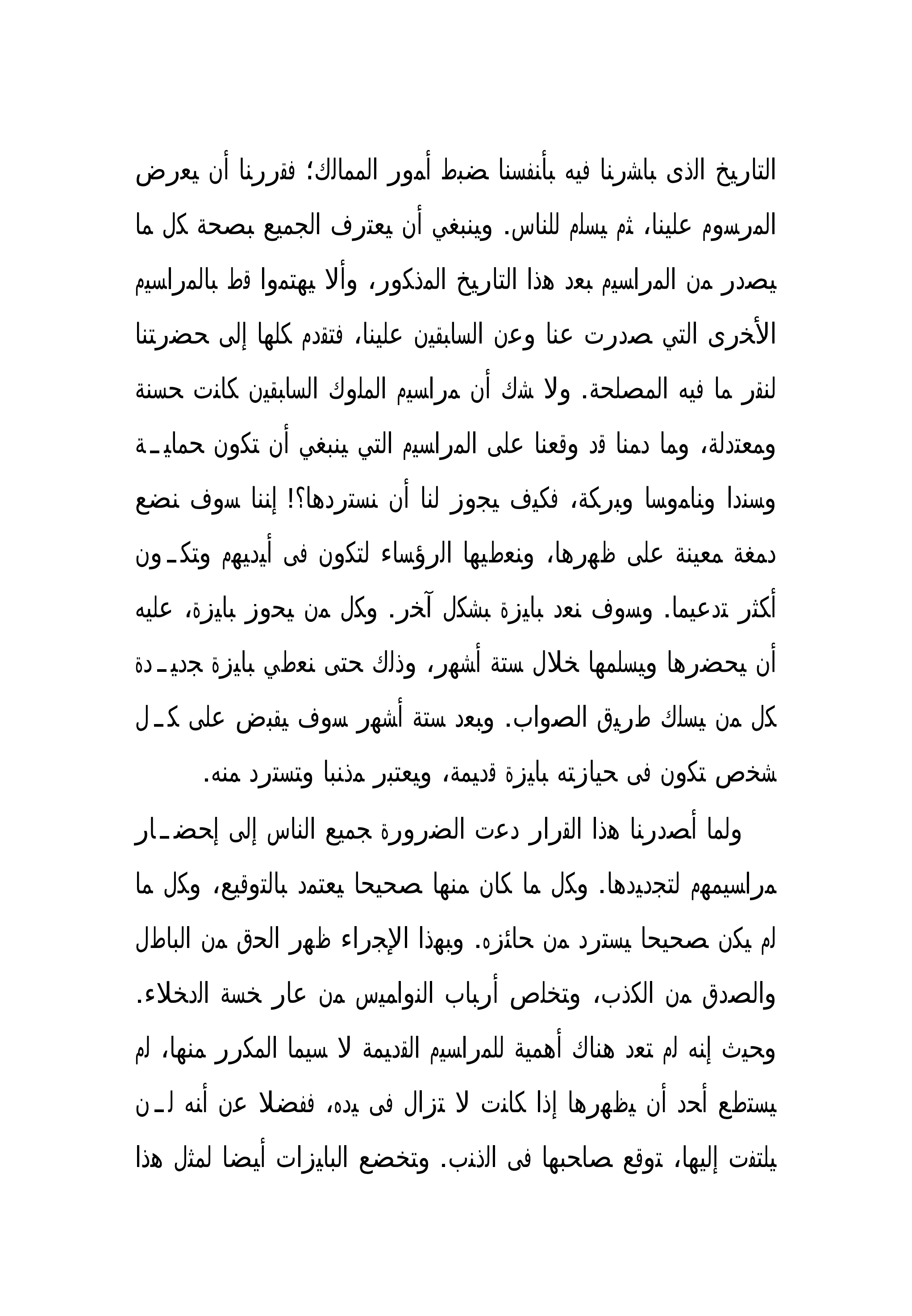
وبخصوص البايزات كان يحدث مثل هذه التصرفات. وكان الرسل يطوفون حول العالم بصورة مستمرة، ويحصلون – بهـذه الذريعـة – على أموال طائلة. ومع هذا لم يكونوا يستطيعون إحضار مرسوم واحد من مائة مرسوم. ومع ذلك كانوا يحضرون هذه المراسـيم فـى تلـك السنوات. ثم يكتب الكتّاب مراسيم أخرى لتأييد المراسيم التي بأيـديهم. ومع أنهم كانوا يستردون المراسيم الباطلة صاروا يعطون كل شـخص مراسيم كثيرة مختلفة متناقضة لأن الطريقة المتبعة فى ذلك الزمان فيما يتعلق بإعطاء المراسيم، كانت تتطلب لجوء كل واحد من النـاس فـى العالم إلى أحد الأمراء، ويأخذ مرسوما حسب رغبته. وبسبب اختلاف المتنازعين، وتعصب الحماة كانوا يرسلون كثيرا من المراسيم المتتالية المتعاقبة مما لا يمكن شرحه. وهكذا كانت تمضي الأيام بتلك الطريقة، ويموت هؤلاء الخصوم وهؤلاء الأمراء ثم يجىء أبناؤهم، ويسـلكون

نفس السلوك، وبيد كل واحد منهم خمسون مرسوما، بحيـث إنهـم إذا حضروا للتحقيق معهم فإنه - خلال عشرة أيام – لا تتضـح صـورة أحوالهم، ولا كيفية حصولهم على المراسيم. وسـنة بعـد أخـرى لا يفهمونها، وإذا ما فهموها اتضح أنها كلها على غير أساس وباطلة. وقد كتبوها بدافع التعصب، أو أنها عرضت عن طريق الرشـوة، أو أنهـا صدرت بغير إذن السلطان، ودون إشارته. وكثيرا ما كان يحدث أيضا أن يتفق الأمراء الكبار، ويعرضوا مرسـوما معينـا لمصـلحة أحـد الأشخاص، فكانوا يعطونه التأشيرة، وتكتب صورة المرسوم على وجه التحقيق. ولكن ذلك الشخص يضيف عدة ألفاظ مختصرة يدخلها علـى المرسوم، فيتغير ذلك القرار الذى اتفق عليـه الأمـراء تغيـرا كليـا **[ص٥٠٦]** يوافق مصلحته. وكان يحتال كي يضيف هذه الزيادة إلـى الصورة، أو يعطي الكاتب هدية قيمة حتى يكتبها ثم يتمسك بها. وكثيرا ما انتهز الكتاب الصغار الفرصة وأعطوا كل شخص مرسـوما وفـق رغبته دون مشورة الأمراء الكبار. كذلك الحال عنـدما يعطـي أحـد مرسوما بأمر السلطان، ووجد شخص آخر يماثله فى منزلته وصنعته، فإن الكتاب يتشبثون بذلك، ويعطون أيضا ذلك الشخص مرسوما علـى غرار زميله؛ فكان يترتب على تلك القضايا الألف المتناقضة مائة ألف إشاعة وفتنة بين الناس. ولما كان الخصوم جميعهم أصحاب مراسـيم فإن المحققين والحكام والقضاة مهما أرادوا أن يبتوا فى قضة واحـدة،

ويحكموا فيها حكما قاطعا، اختلط عليهم الأمر وغمض، وذلك لكثرة ما بيد كل واحد منهم من المراسيم والبايزات. وقد أدت المنازعات إلى حد أنه فى كل سنة كان يقتل كثيرون من الأشـخاص بعضـهم بعضـا. بالإضافة إلى ذلك صار تجميع تلك المراسـيم والبـايزات المكـررة واستردادها أمرا عسيرا. ومع هذا كانوا يعطون الناس عددا كثيرا منها بنفس الطريقة المذكورة

أما الآن فقد أعمل السلطان غازان – خلد ملكه – فكره المبارك فى تدارك هذا الخلل وأمر بإصدار المراسيم إلى كافـة الممالـك، وكلهـا مصوغة فى عبارة واحدة مضمونها أنه على الشحن والملوك وحكـام الولايات أيضا ألا يقبلوا على الإطلاق ما يقدم إلـيهم مـن البـايزات القديمة والحديثة التي فى أيدى الناس، وألا يهتموا بها؛ إذ إننا أصـدرنا أمرنا بإلغائها كلها. وكذلك المراسيم التي منحناها، وصـدرت خـلال الأعوام الثلاثة الأول من حكمنا عندما كنا لا زلنا منهمكين فى تـدبير وترتيب شئون الجند، وإزالة المفاسد، والقضـاء علـى الاضـطرابات والفتن التي حدثت، ولم نشغل بجزئيات الأمـور. ولا شـك أن تنفيـذ الأحكام السابقة كان أمرا ضروريا لتطييب خواطر الخلق كى تسـتقيم الأمور.

وبناء على هذا فإن المراسيم التي منحها الناس نوروز وصدر الدين والنواب الآخرون وفق مرادهم وهواهم **[ص٥٠٧]** كلها باطلة حتى هذا

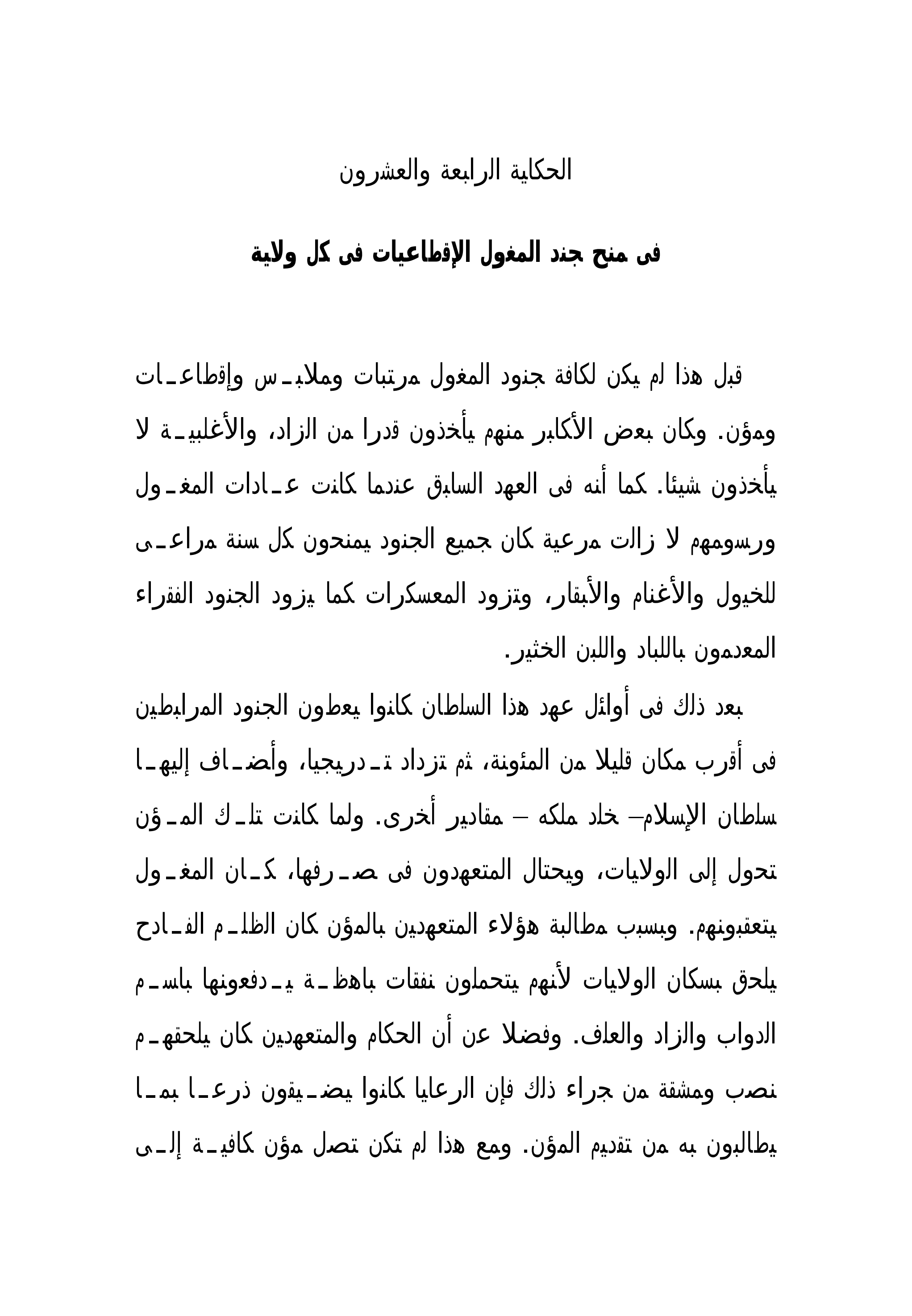


التاريخ الذى باشرنا فيه بأنفسنا ضبط أمور الممالك؛ فقررنا أن يعرض المرسوم علينا، ثم يسلم للناس. وينبغي أن يعترف الجميع بصحة كل ما يصدر من المراسيم بعد هذا التاريخ المذكور، وألا يهتموا قط بالمراسيم الأخرى التي صدرت عنا وعن السابقين علينا، فتقدم كلها إلى حضرتنا لنقر ما فيه المصلحة. ولا شك أن مراسيم الملوك السابقين كانت حسنة ومعتدلة، وما دمنا قد وقعنا على المراسيم التي ينبغي أن تكون حمايـة وسندا وناموسا وبركة، فكيف يجوز لنا أن نستردها؟! إننا سوف نضع دمغة معينة على ظهرها، ونعطيها الرؤساء لتكون فى أيديهم وتكـون أكثر تدعيما. وسوف نعد بايزة بشكل آخر. وكل من يحوز بايزة، عليه أن يحضرها ويسلمها خلال ستة أشهر، وذلك حتى نعطي بايزة جديـدة كل من يسلك طريق الصواب. وبعد ستة أشهر سوف يقبض على كـل شخص تكون فى حيازته بايزة قديمة، ويعتبر مذنبا وتسترد منه.

ولما أصدرنا هذا القرار دعت الضرورة جميع الناس إلى إحضـار مراسيمهم لتجديدها. وكل ما كان منها صحيحا يعتمد بالتوقيع، وكل ما لم يكن صحيحا يسترد من حائزه. وبهذا الإجراء ظهر الحق من الباطل والصدق من الكذب، وتخاص أرباب النواميس من عار خسة الدخلاء. وحيث إنه لم تعد هناك أهمية للمراسيم القديمة لا سيما المكرر منها، لم يستطع أحد أن يظهرها إذا كانت لا تزال فى يده، ففضلا عن أنه لـن يلتفت إليها، توقع صاحبها فى الذنب. وتخضع البايزات أيضا لمثل هذا

النظام. وما أن نفذ هذا القرار حتى اختفت مجموعـة تلـك المراسـيم والبايزات؛ لأن أصحابها أخذوا بعضها مجددا، ولم يجرؤوا على إبراز بعضها الآخر. ولقد ذاع القرار وانتشر، وينص صراحة علـى عـدم الالتفات إلى المراسيم والبايزات القديمة فى أى عهد من العهود؛ إذ إن الناس يعلمون على وجه التحقيق أنه لو كان هذا الإجراء صحيحا لاتبع على الفور فى عهد مثل هذا السلطان العادل. ولاشك أن هذه الطريقـة الصحيحة هى دستور جميع الملوك والأمراء والحكام فى كل عصـر. وإذا كانت قد بقيت بايزة ذهبية أو فضية فى حوزة أحد الأشخاص فإنه ما لم يسلمها فلن يعطي أخرى عوضا عنها. وإذا كان متبصرا بعواقب الأمور فإن عليه أن يبادر بتسـليمها **[ص٥٠٨]**، وإلا فـإن عليـه أن يصهرها وينفق ما صهره.

ومن المؤكد أنه سوف يصل الأمر عن قريب إلى حد أنه لن تبقـى واحدة من البايزات التي أخذت خلال مدة سبعين سنة بعلـل وأسـباب مضللة. وهكذا نفذ سلطان الإسلام مثل هذا العمل العظيم بتدبير يسـير قرره بفطنته وكياسته. أدام ا ظل معدلته. والسلام.



الحكاية الرابعة والعشرون

فى منح جند المغول الإقطاعيات فى كل ولاية

قبل هذا لم يكن لكافة جنود المغول مرتبات وملابـس وإقطاعـات ومؤن. وكان بعض الأكابر منهم يأخذون قدرا من الزاد، والأغلبيـة لا يأخذون شيئا. كما أنه فى العهد السابق عندما كانت عـادات المغـول ورسومهم لا زالت مرعية كان جميع الجنود يمنحون كل سنة مراعـى للخيول والأغنام والأبقار، وتزود المعسكرات كما يزود الجنود الفقراء المعدمون باللباد واللبن الخثير.

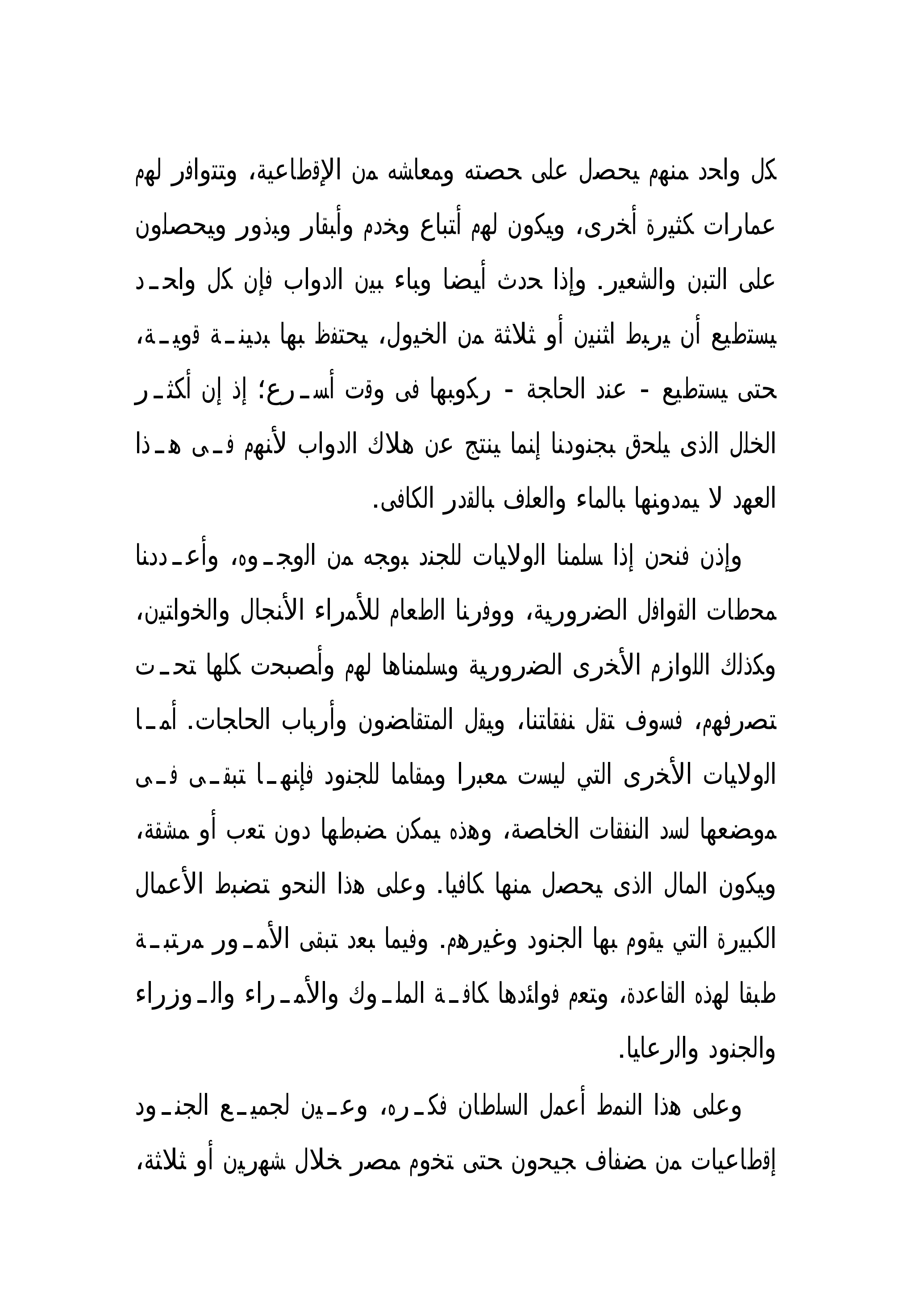
بعد ذلك فى أوائل عهد هذا السلطان كانوا يعطون الجنود المرابطين فى أقرب مكان قليلا من المئونة، ثم تزداد تـدريجيا، وأضـاف إليهـا سلطان الإسلام– خلد ملكه – مقادير أخرى. ولما كانت تلـك المـؤن تحول إلى الولايات، ويحتال المتعهدون فى صـرفها، كـان المغـول يتعقبونهم. وبسبب مطالبة هؤلاء المتعهدين بالمؤن كان الظلـم الفـادح يلحق بسكان الولايات لأنهم يتحملون نفقات باهظـة يـدفعونها باسـم الدواب والزاد والعلف. وفضلا عن أن الحكام والمتعهدين كان يلحقهـم نصب ومشقة من جراء ذلك فإن الرعايا كانوا يضـيقون ذرعـا بمـا يطالبون به من تقديم المؤن. ومع هذا لم تكن تصل مؤن كافيـة إلـى

الجنود. وكان بعضهم فى نصب بسبب مماطلة المتعهـدين، وبعضـهم بسبب المشرفين على تموين الجيش، إذ إنهم كانوا يأخذون هدايا ثمينـة ويهملون أداء واجبهم، وبعضهم بسبب أن الكتاب العسكريين لم يعـدوا الحوالات فى وقتها المناسب، فيعجز الجنود عن التحصيل. **[ص٥٠٩]** وأخيرا كان المتعهدون يشترون المؤن لأنفسهم بنصف الثمن. وكانـت الحوالات دائما بيد الجنود، وهم فى نزاع وجدال مع المتعهدين. وكانوا دائما يعرضون تلك الأحوال على السلطان فتنـزعج لـذلك مسـامعه المباركة، وتكون عاقبة الأمر أن أكثرها يسقط من الحساب ويضـاف إلى القضايا القديمة. هذا على حين أنهم كانوا يحوزون حوالات كثيـرة مستحقة للصرف.

شاهد السلطان هذه الأوضاع مدة أربع سنوات أو خمس، فأمر بأن يجمعوا المؤن فى كل ولاية أثنـاء الشـتاء والصـيف، وقـت جنـي المحاصيل ويقوموا بتخزينها فى المخازن وتودع فـى عهـدة شـحنة الولاية، ثم تسلم من المخازن إلى المسئولين بعد سداد قيمة الحوالة نقدا، ولا يأخذ المشرفون على تموين الجيش هدايا فى مقابل أداء واجـبهم، ولا يطلبون زادا ولا علفا. فكانت تسير الحوالات على هـذا المنـوال. وكان السلطان يعطي نقدا ذهبيا من الخزانة، بحيث إنه خـلال ثـلاث سنوات أو أربع لم يستطع أحد أن يقول: لقد بقى لى على الديوان مـن واحد من المئونة. وبعد ذلك فى أوائل شهور سـنة ثـلاث وسـبعمائة

هجرية (٧٠٣هـ / ١٣٠٣م) هداه تفكيره المبارك إلى أن يصرح قائلا: إن كمية المؤن التي عينت للجنود لا تكفى شخصين من كـل عشـرة أشخاص. وإني أريد أن يكون إنعامنا عاما للجميع. كما أن الجند عنـد مسير الاحتياطيين منهم إلى الولايات يسببون المتاعب لسكان الولايات. وأيضا يقول كل واحد منهم سواء بالحق أو بالباطل: إني لا أملك شيئا؛ فيحدث الإخفاق والعجز. ويقول أيضا: لقد نفقت دوابنا بسـبب البـرد وانتشار طاعون الماشية والآفات الأخرى. وهنا تدعو الضرورة إلـى جمع المال فى كل وقت وإعطائه المتضررين؛ لأن العالم لا يخلو مـن الأحداث. وقد يجىء وقت لا يتيسر فيه تحصيل المال بسرعة. وهذا ما يحتم العمل دائما على تدبير وترتيب نفقات الجنـد ومـؤنهم. وهنـاك ولايات فى الممالك تقع على طريق عبور الجنـد، وفيهـا مصـايفهم ومشاتيهم، ودائما ما يسلكون سلوكا معيبا فى تلك الولايات ويسـتولون على القرى قوة واقتدارا، ويستبدون بالرعايا.وإذن فمن المصـلحة أن نقطعها بأكملها للجند، ونعين نصيبا لأفراد كل كتيبـة، ليكونـوا هـم المتصرفين فى هذه الأراضي ويعتبرونها ملكا لهم. وبذلك تشبع عيونهم وقلوبهم.

ولما كان أكثر الجنود فى هذا العهد يميلون إلـى اقتنـاء الأمـلاك والزراعة فلا شك أنهم يحققون رغبتهم عندما يملكون إقطاعا. وبذلك لا تكون هناك حاجة إلى الخزانة **[ص٥١٠]** للإنفاق على مصالحهم؛ لأن



كل واحد منهم يحصل على حصته ومعاشه من الإقطاعية، وتتوافر لهم عمارات كثيرة أخرى، ويكون لهم أتباع وخدم وأبقار وبذور ويحصلون على التبن والشعير. وإذا حدث أيضا وباء بين الدواب فإن كل واحـد يستطيع أن يربط اثنين أو ثلاثة من الخيول، يحتفظ بها بدينـة قويـة، حتى يستطيع - عند الحاجة - ركوبها فى وقت أسـرع؛ إذ إن أكثـر الخلل الذى يلحق بجنودنا إنما ينتج عن هلاك الدواب لأنهم فـى هـذا العهد لا يمدونها بالماء والعلف بالقدر الكافى.

وإذن فنحن إذا سلمنا الولايات للجند بوجه من الوجـوه، وأعـددنا محطات القوافل الضرورية، ووفرنا الطعام للأمراء الأنجال والخواتين، وكذلك اللوازم الأخرى الضرورية وسلمناها لهم وأصبحت كلها تحـت تصرفهم، فسوف تقل نفقاتنا، ويقل المتقاضون وأرباب الحاجات. أمـا الولايات الأخرى التي ليست معبرا ومقاما للجنود فإنهـا تبقـى فـى موضعها لسد النفقات الخاصة، وهذه يمكن ضبطها دون تعب أو مشقة، ويكون المال الذى يحصل منها كافيا. وعلى هذا النحو تضبط الأعمال الكبيرة التي يقوم بها الجنود وغيرهم. وفيما بعد تبقى الأمـور مرتبـة طبقا لهذه القاعدة، وتعم فوائدها كافـة الملـوك والأمـراء والـوزراء والجنود والرعايا.

وعلى هذا النمط أعمل السلطان فكـره، وعـين لجميـع الجنـود إقطاعيات من ضفاف جيحون حتى تخوم مصر خلال شهرين أو ثلاثة،

وفصلها تفصيلا. وفى هذا الصدد ننفذ حكم المرسـوم. ونحـن نثبـت صورته فى هذا الفصل حتى إذا قرأه الناس، فإنهم يطلعون على الدقائق التى روعيت فى هذا الباب إن شاء ا العزيز.

نص المرسوم بخصوص منح جنود المغول الإقطاعيات

بسم ا الرحمن الرحيم

[ص٥١١] بقوة ا تعالى وميامن الملة المحمدية

فرمان السلطان محمود غازان

فلتعلم الأمهات، وليعلم الأحفاد والحفيـدات والخـواتين والبنـون والبنات والأصهار وقواد العشرة آلاف (تومـان) والألـف (هـزاره) والمائة (صده) والعشرة (دهه) والسلاطين والملوك والكتـاب وعمـوم أهالى كل الولايات من ضفاف جيحون حتى تخـوم مصـر أن جـدنا الأكبر جنكيز خان اختص فى بدء الفطرة بالتأييـد الإلهـي والإلهـام الرباني. وكان يراعي دستوره بعناية تامة أدق من الشعرة، ولم يتـرك المجال لأى مخلوق من بني آدم حتى ينحرف برأسه عن ربقة أمره أو أن يخرج قدمه عن جادة الاستقامة، فلا جرم أنـه اسـتطاع - بهـذه

الوسائل - أن يسخر ساحة الدنيا مشارقها ومغاربها، وأن ينقش علـى صحائف الدهر اسمه الطيب وصيته الخالد. وقد تحمـل كـل أنـواع المشقات والشدائد فى سبيل زيادة رقعة المملكة وفسحتها، وأورث أبناءه وذريته جميع الطوائف والرعايا والممالك، وصيرها لهم ممهدة مرتبـة وذكرى حسنة منه.

بعد ذلك سلم آباؤنا الخيرون تلك الممالك لأبنائهم على نفس النسـق والترتيب؛ فاستطاع كل واحد أن يضبط قوانين الملك ونظمها، ويضمن التكفل بإدارة شئون حكم العالم. بهذا خلد هؤلاء الأبناء لهم ذكرا جميلا على صفحات الدهر. أما أولئك الذين لم يحـافظوا علـى رعايـاهم، ومارسوا الظلم والتعدى فإنهم – بلا شك – قد خلفوا لهم سمعة سيئة.

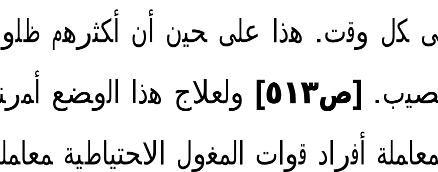
"إن آثارهم تدل عليهم فانظروا بعدهم إلى الآثار"، ولما كان صـدق هذه المعاني ثابتا ومقررا ومعينا لنا، وعلمنا أن البقاء الأبـدى وخلـود الحياة فى هذه الدنيا أمر غير ممكن للجميع، وأنه لا يتصور أن تكـون هناك فائدة من هذه الدنيا سوى ادخار الاسم الحسن. لما كان ذلك كذلك فكرنا نحن أيضا فى هذه الأيام القليلة المعدودة عندما وصـلت نوبـة الملك إلينا فى ادخار السمعة الطيبة، فنشمل بمزيد من الراحة والرفاهية مجموع الرعايا الذين سلموا قيادهم لنا، حتى نكون **[ص٥١٢]** قد سجلنا على صفحات الدهر الذكر الجميل والثواب الذى هو عبارة عن الحيـاة الباقية والعيش الخالد، ويبقى صيت معدلتنا على الأيام دائمـا ومؤبـدا

وباقيا ومخلدا. وا   يوفقنا بلطفه ويؤيدنا بنصره. والآن لا يخفى علـى الجميع أنه قبل هذا فى عهد آبائنا الصالحين كان رعايا المغول مطالبين بكل أنواع المطالب والالتزامات والمشقات من قبيـل سـداد ضـريبة المواشي والإيفاء بحاجات دور البريد الكبرى وتحمـل أعبـاء الياسـا القاسية، ودفع النفقات اللازمة للمحافظة على سـلامة الجنـود، تلـك الأعباء ألغيناها كلها دفعة واحدة فى زماننا هذا.

فى ذلك الوقت كان الرعايا محرومين مما احتوت عليه المخـازن من الذخائر والمؤن. ورغم وجود تلك الأعباء كانوا يرحلون برضـاء الخاطر، ويقومون بواجب الطاعة ويتحملون مشقات الأسفار البعيـدة. ومع هذا كانوا قانعين. والأمر الذى لا شك فيه أنه حتى هذه اللحظة لم يتوافر لجند المغول زيادة ملموسة فى الجاه والمال.

والآن وقد أنعم الحق تعالى علينا بالرعايا والممالك التـي حكمهـا آباؤنا، ومنحنا سرير ملك العالم وعاصمته الكبرى، بذلنا كـل الهمـة، وصرفنا كل حرصنا السلطاني فى سبيل الإصلاح حتى ننظم ونرتـب مصالح الرعايا الكثيرين على نحو نطمئن إليه؛ بحيث إنه بعد ذلـك لا ينسى أبدا جميع أفراد القوات الاحتياطية فى جيـوش المغـول - مـا توالدوا وتناسلوا - هذه الجهود، ويقضون أيامهم فى رفاهية ورغد من العيش. وبعد أن يحل دور غيرنا نكون قد سلمنا له المملكة والجـيش؛ بحيث لا يقف فى سبيله أى عائق، ويحل وضع يؤدى إلى الاسـتقرار

واستقامة أمور المملكة والرعية، ويؤدى إلى الخلود والـذكر الجميـل ودوام حسن السمعة، وازدياد دعوات الخير. ولا يخفى على الجميع أنه قبل عهدنا كان المسئولون يعطون جميع المتطوعين من جنود المغـول ممن يقيمون فى المناطق الممتدة من ضفاف نهر جيحون إلـى تخـوم مصر قدرا محددا من المؤن، ونادرا ما كانوا ينعمون على بعض منهم



فى كل وقت. هذا على حين أن أكثرهم ظلوا محرومين وبقـوا بغيـر نصيب. **[ص٥١٣]** ولعلاج هذا الوضع أمرنا فـى الوقـت الحاضـر بمعاملة أفراد قوات المغول الاحتياطية معاملة واحدة فتشملهم عاطفتنـا وتعمهم عطايانا؛ حتى لا يبقى أى واحد منهم محروما مـن إنعامنـا. وعند رحيل الجنود وزحف الجيش تتوافر لهم القدرة والحركة والطاقة للمحافظة على الممالك ذلك أن استقامة شئون الملك وانتظامها منوطـة بهم

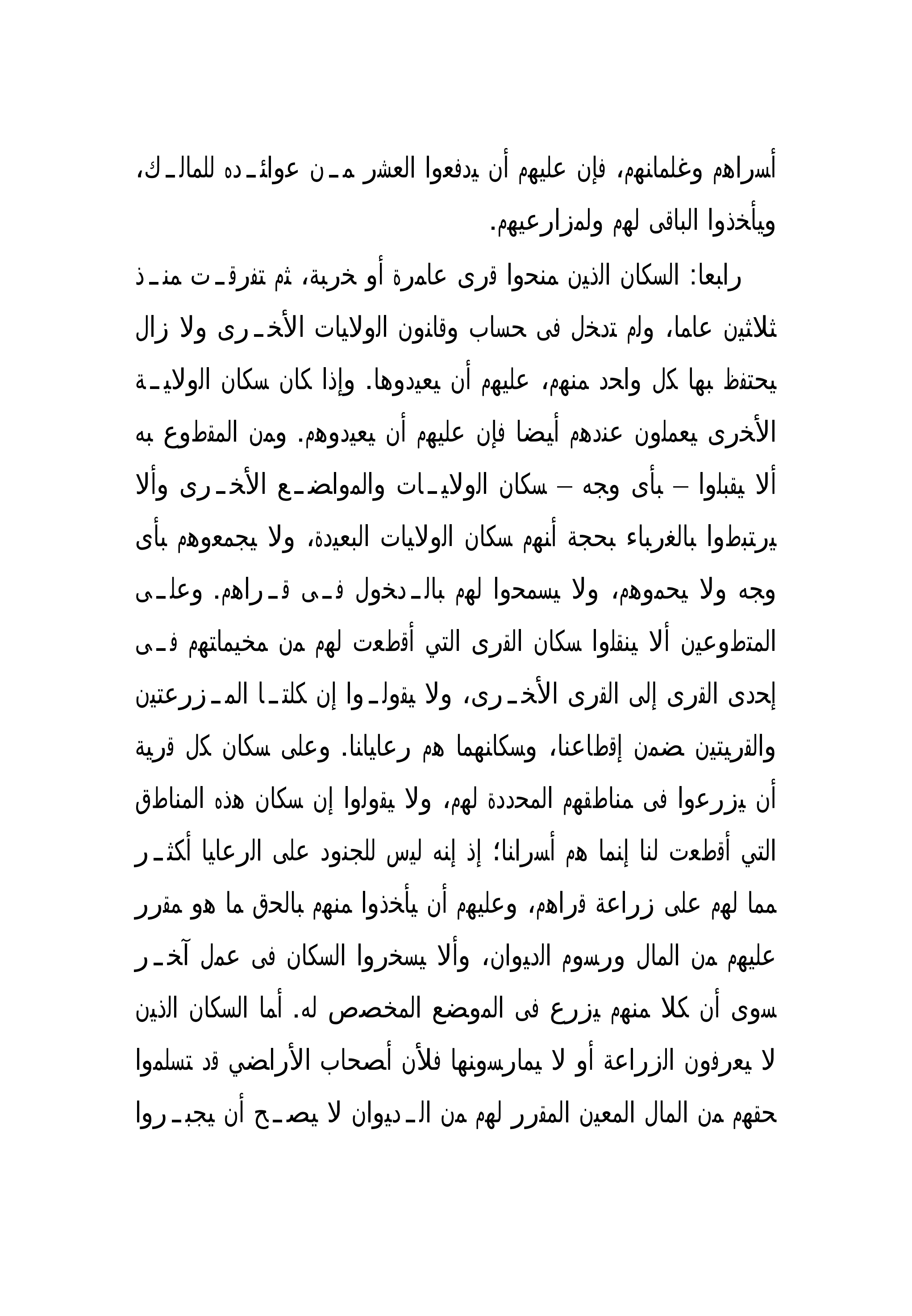
وبناء على هذه المقدمات أمرنا بأن يقطعوا لهـم الأراضـي فـى الولايات والقرى، ويوفروا لهم المياه مما يكون قريبا ومناسبا لهم مـن أملاك الخاصة وأملاك الديوان والمزارع العامرة والخربة حسب ما هو مثبت فى السجلات والقوانين، ويعينوها باسم الإقطاع فى كـل كتيبـة مكونة من ألف جندى، ثم يسلمونها لهم كي يتصرفوا فيها؛ وذلك علـى النحو المفصل فى الكتيبة الفلانية.

وأما عن الأحكام الخاصة بهذه الإقطاعية وشروطها وكيفية كل قسم من أقسامها فإنها تكون على النحو الذى نشرحه فيما يأتى:

أولا: ما يتعلق بأملاك الخاصة وأملاك الديوان من المواضع: تقرر أن تبقى فيها تلك الجماعة من الرعايا الذين كانوا يقطنونها من قديم الزمان، وكانوا يزرعونها. فهؤلاء يستمرون فى زراعتها جريا على تلك القاعدة بشرط أن يعطوا الجنود المتطوعين نصيبهم بصدق وأمانة، وأن يسددوا – دون زيادة أو نقصان الضرائب والرسوم الديوانية، وذلك حسب التعهدات والتفصيل الذى مر ذكره.

ثانيا: يجب ألا يتدخل جنود الاحتياط فى شئون أملاك الملاك ومياههم وأراضيهم وأصحاب الأوقاف، ولا يتصرفون فيما تنتجه، وأن يدفعوا بصدق وأمانة الأموال والضرائب والرسوم الديوانية بموجب سجلات القانون وطبقا للتفصيل المذكور.

ثالثا: القرى والمزارع والمواضع التابعة للديوان التي تخرب، وتدخل فى حيز مواطن هؤلاء الجنود، عليهم أن يحرثوا منها ما صار مزارع صالحة للزراعة، ويتركوا الأراضي الباقية لأسراهم وغلمانهم يزرعونها ويحصدون محاصيلها، ومعهم أبقارهم وثيرانهم وبذورهم. وإذا ظهر مالك لذلك الموضع الخرب، وأقام دعوى بملكيته أو بتوليته وقفيته **[ص٥١٤]**، وظل مدة طويلة تحت تصرفه، وثبت استحقاقه له بموجب الشرع المطهر. وكان هؤلاء المتطوعون قد زرعوه بواسطة



أسراهم وغلمانهم، فإن عليهم أن يدفعوا العشر مـن عوائـده للمالـك، ويأخذوا الباقى لهم ولمزارعيهم.

رابعا: السكان الذين منحوا قرى عامرة أو خربة، ثم تفرقـت منـذ ثلاثين عاما، ولم تدخل فى حساب وقانون الولايات الأخـرى ولا زال يحتفظ بها كل واحد منهم، عليهم أن يعيدوها. وإذا كان سكان الولايـة الأخرى يعملون عندهم أيضا فإن عليهم أن يعيدوهم. ومن المقطوع به ألا يقبلوا – بأى وجه – سكان الولايـات والمواضـع الأخـرى وألا يرتبطوا بالغرباء بحجة أنهم سكان الولايات البعيدة، ولا يجمعوهم بأى وجه ولا يحموهم، ولا يسمحوا لهم بالـدخول فـى قـراهم. وعلـى المتطوعين ألا ينقلوا سكان القرى التي أقطعت لهم من مخيماتهم فـى إحدى القرى إلى القرى الأخـرى، ولا يقولـوا إن كلتـا المـزرعتين والقريتين ضمن إقطاعنا، وسكانهما هم رعايانا. وعلى سكان كل قرية أن يزرعوا فى مناطقهم المحددة لهم، ولا يقولوا إن سكان هذه المناطق التي أقطعت لنا إنما هم أسرانا؛ إذ إنه ليس للجنود على الرعايا أكثـر مما لهم على زراعة قراهم، وعليهم أن يأخذوا منهم بالحق ما هو مقرر عليهم من المال ورسوم الديوان، وألا يسخروا السكان فى عمل آخـر سوى أن كلا منهم يزرع فى الموضع المخصص له. أما السكان الذين لا يعرفون الزراعة أو لا يمارسونها فلأن أصحاب الأراضي قد تسلموا حقهم من المال المعين المقرر لهم من الـديوان لا يصـح أن يجبـروا

هؤلاء السكان على الزراعة بالقسر والعنف ولا يظلموهم، بل يعاملوهم بالحسنى.

خامسا: على المتطوعين من الجنود ألا يتدخلوا فى شـئون القـرى الواقعة على حدود قراهم والمجاورة لهم، فلا يزرعوها، ولا يسـتولوا على الماء والأرض بحجة أنها واقعة فـى مـوطنهم، **[ص٥١٥]** وألا يمنعوا ذلك المقدار من الأعشاب التي هى مرعى لأبقارهم وأغنـامهم وحميرهم.

سادسا: حيث إننا منحنا المتطوعين الأنعام والعطاء، وعينا لهم هذه المواضع باسم الإقطاع، وأنعمنا عليهم بها، يكون غرضنا هـو راحـة كافة الخلائق، وابتغاء الذكر الجميل والقانون والعـدل. وهـم جميعـا مؤيدون ومغتبطون بهذه الهبة وتلك الرعاية. وقد قـدم قـواد الفـرق المكونة من عشرة آلاف وألف ومائة وعشرة، والمتطوعون الكثيـرون وثيقة خطية يتعهدون فيها بأنهم بقدر ما فى وسعهم وقـدرتهم سـوف يبذلون جهدهم فى نفاذ العدل ونشر الصدق، ولا ينحرفون – من بعد – عن جادة الصواب ولا يعتدون ولا يضطهدون الناس، ولا يقدمون على أنواع الظلم والجور وتلك الأفعال التي كانوا يمارسونها من قبل. هـذا وينبغي أن يكونوا عند كلمتهم، ولا يطلبون من الرعية شيئا باسم الهدايا والمؤن والضرائب على السلع وغير ذلك

سابعا: تقرر كذلك ألا يكتبوا – لأى سبب من الأسباب – حـوالات من الديوان على الإقطاعيات، وألا يحولوا إليه شيئا أبدا. وبموجب مـا تقرر يسلم لكل شخص من الجنود المتطوعين خمسين منـا – بـوزن تبريز – من المستودعات الخاصة، ولا يطلبون من الرعايا شيئا آخـر غير ذلك .

ثامنا: أمرنا كذلك بأن توزع الإقطاعيات وما يلزمها من ماء ومـا تشتمل عليه من أراض خربة وعامرة – على أفراد الكتيبة المكونة من ألف جندى، وذلك على النحو الذى سبق تفصيله. ثم يحضر جماعة من تلك الولاية ممن هم أهل الخبرة مع هذا الكاتب فلان الذى عيناه، وتقسم هذه الإقطاعيات إلى عشرة أقسام. ثم تجرى قرعة بالسوط. وبعد ذلـك تقسم بين الفرق المكونة من مائة، وتجرى القرعة أيضا بالسوط.

وهذا الكاتب الذى فوضناه باسم "العارض" يسجل فى السجل نصيب كل واحد من المائة والعشرة خرابا كان أم عامرا، وذلك على انفـراد وبالاسم، ويحفظ بالسجل، ويسلم نسخة منه للديوان الأعظم، وأخـرى لأمير الفرقة. ثم تسلم سجلات الفرق المكونة من مائة لأمرائها.

بعد ذلك يتفحص ذلك الكاتب العارض هذه السـجلات كـل سـنة ويعرض علينا اسم ذلك الشخص الذى جد واجتهد فى الزراعة، أو اسم ذلك الذى قصر. كما يعرض علينا ما سجله عن خراب وعمران كـل

جزء محدد؛ حتى يختص برعايتنا ذلك الشخص الذى أبـدى اجتهـادا ونشاطا. أما ذاك الذى قصر وخرب، فإنه يؤخذ بذنبه.

[ص٥١٦] ولا يبيعون هذا الإقطاع الذى منحناه إياهم، ولا يعطونه هذا أو ذاك، ولا العبيد والكبار والصغار والأقارب والأصهار وغيرهم. وكل من يقدم على هذا العمل يعتبر مجرما ويقتل.

وإن صداق المرأة بمقتضى الحديث النبوى الشـريف كمـا نفـذناه بصورة مستقلة بمقتضى المرسوم الصادر فى هذا الباب، وهو ما تقرر أن يكون تسعة عشر دينارا ونصف[١].

تاسعا: ليكن معلوما أيضا أن هذا الإقطاع قـد خصـص للجنـود المتطوعين الذى صاروا حراسا ثم رحلوا. وإذا توفى شخص من تلـك الجماعة، فإنه يقوم مقامه أحد أبنائه أو أسرته فيقطع إقطاع المتوفى ثم يسجل. وإذا لم تكن له ذرية فإنه يسلم لأقدم غلمانه. وإذا لم يكـن لـه غلام أيضا فإنه يعطى من يكون أجدر من بين الفرقة المكونة من مائة جندى. وإذا كان من بين المائة أو العشرة من يغير القانون، فإنه أمراء الألف والمائة يعتبرونه مذنبا، فيعطون الإقطاع شخصا آخر يسـتطيع

---

(١) الحديث هنا عن صداق المرأة فيه استطراد وبعد عن الموضوع الرئيسى الذي يعالجه رشيد الدين، وهو الذى يتناول منح غازان خان جنود المغول الإقطاعيات، هذا من جهة ومن جهة أخرى لم يرد نص صريح عن النبى صلى الله عليه وسلم يحدد فيه صداق المرأة، وإنما نهى عن المغالاة فى الصداق، وحث على المياسرة (انظر قضية تحديد الصداق، تأليف الشيخ عبد الله بن زيد آل محمود، ص ٦، الدوحة ١٣٩٦هـ).

التنقل ويسجل باسمه. ثم يعرض السجل علينا كل عام. كذلك أمرنا بأنه إذا طالب المتطوعون بشىء يزيد عمـا هـو مفصـل مـن الأمـوال والضرائب وغير ذلك، وعما هـو مـدون فـى سـجلات القـوانين والتعهدات، فإن العارض يمنعهم من ذلك. وإذا مـا أخـذوا الإقطـاع بالعنف والقوة، فإن على العارض ألا يخفى الحقيقة، بل يسجل اسـمه ويعرضه علينا.

عاشرا: عندما يسير هؤلاء المتطوعون بعد عرضهم بموجب حكـم المرسوم يطلع الكاتب الفلاني أولا أمير المائة، وبعد ذلك أمير الألـف، ثم أمير التومان - على السجل المخصص الـذى كتبـه، ويـواجههم ويعرضه عليهم. ثم يطلع عليه قائد المتطوعين. وتقرر أيضا أنه عندما يعين إقطاع أمير الألف ويخصص له، لا يتصرف فى إقطاع المتطوع. وحيث إننا أقطعنا العارض كذلك من ولاية أخرى، لا يكتب حوالة على إقطاع المتطوع، ولا يحول إليه شيئا.

لقد قررنا كل هذا، وأنعمنا على المتطـوع بإقطـاع علـى النحـو المذكور. وإذا ما أخذ المتطوعون أيضا شيئا من المزارعين يزيد عمـا هو مذكور ومدون بالتفصيل فى سجل القوانين، **[ص٥١٧]** أو تعرضوا للمزارعين الذين لم نَدعهم تحت رحمة المتطـوعين، أو أنهـم حمـوا المزارعين فى الولايات الأخرى وآووهم، أو أنهم اعتدوا على مواضع الماء والأراضي الواقعة على حدود قـراهم أو اغتصـبوا الأراضـى الزراعية ومراعى الأبقار والأغنام والحمير ولا يعلنون كل سنة عـدد

الحيوانات وإنتاجها ويتلكأون وينتحلون الأعذار، ويرسـلون أشخاصـا آخرين بدلا منهم تحت اسم المتطوعين. وإذا حدث شىء من هذا فـإن هؤلاء أيضا يصيرون مجرمين.

وعلى الشخص الفلاني الذى عيناه للقيام بأعمال الكتابة فى الكتيبـة المكونة من ألف جندى أن يضبط جيدا كل الأقسام التي ذكرت فى هذا المرسوم، ويبين كذلك المواضع التي لم تدخل فيها، وكل من قام بتعمير وإصلاح فى محال الإقامة، ويكتب أيضا بالتفصيل كل ما صار بـوار تماما من الأراضي، وذلك على حدة وبالتحديد والتفصيل، ثم يحضـر هذه المعلومات إلى الديوان كي يثبت فى السجلات، وتجمع فـى قسـم الإضافات.

ولقد سلمنا هذا المرسوم للكتيبة الفلانية حتى يعتبر الجميـع- مـن الآن فصاعدا – نفاذه مؤبدا ومخلدا، ولا يدخلون عليه تغييرا ولا تبديلا ﴿فمن بدله بعد ما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونـه إن ا سـميع عليم﴾ [1].

حرر هذا المرسوم فى الشهر الفلانى والسنة الفلانية وفى المكـان الفلانى.

---

(١) سورة البقرة، آية ١٨١.

الحكاية الخامسة والعشرون

فى كيفية إعداد جيش خاص مستقل للسلطان غازان خان

قبل هذا كان جيش المغول أقل منه الآن نسبيا، فزاد سلطان الإسلام - خلد ملكه - بتدبيره وكفايته جنود المغـول والتازيـك، وقـال: إن حدودنا وثغور ممالكنا هى: خراسان وفارس وبغداد وديار بكر وبـلاد الروم ودربند[1]، وهى متباعدة جدا الواحدة عن الأخرى. ورغم أنه قد أقيم فى كل موضع من تلك المواضع جيش مستقل للدفاع عنه، فإنه إذا ما دعت الحاجة إلى انتقال جند من ناحية لمدد ناحية أخـرى يتـآخر وصول **[ص ٥١٨]** القوات بسبب بعد المسافة. وفضلا عن أن الجنود كانوا يتعرضون للجوع والعرى، وتهزل دوابهم وتنفَق، لا يؤدى هـذا بالقطع إلى نتيجة حاسمة. ولهذا السبب أمر السلطان بتعيـين شـخص واحد أو اثنين إضافيين من كل منزل فيه ولدان وأخ وسـائس خيـل، وكون من مجموعهم جيشا مستقلا، وعينهم مددا للأطراف ليرابطوا مع الآخرين. كما عين جند التازيك للمرابطة علـى المضـايق والأمـاكن الوعرة على الحدود التي يمكن أن يحافظ عليها المشاة، ومنح الجميـع المرتبات والإقطاعيات. ولم يكن هؤلاء الجنود يخضعون من قبل لأى

---

(١) "دربند" يسميها العرب باب الأبواب، وتقع فى أقصى شمالى بلاد شروان. وهى أعظم موانئ بحر قزوين. (انظر بلدان الخلافة الشرقية، ص ٢١٤ – ٢١٥).

نظام مع أن قوادهم كانوا يتقاضون عدة مرتبات وذلك بانتحال الأعذار المختلفة. هذا على الرغم من أنه لم يكن هناك جنود قط.

وفى هذا الوقت أيضا أمر بتعيين الكتائب والفرق منهم، وكتابة أسماء الجنود ورتبهم فى السجل، وهم مطالبون بالعرض فى كل شهر لتفقد عتادهم وعددهم من فرسان ومشاة بموجب الضبط والقانون الساريين، وبحكم المرسوم الصادر فى هذا الشأن. كذلك أمر بإعداد جيش المغول على هذا النمط الذى بيناه فى الفصل السابق. وفى المرسوم الذى سجلناه بخصوص إقطاعيات الجنود. فما الحاجة إذن إلى التكرار؟

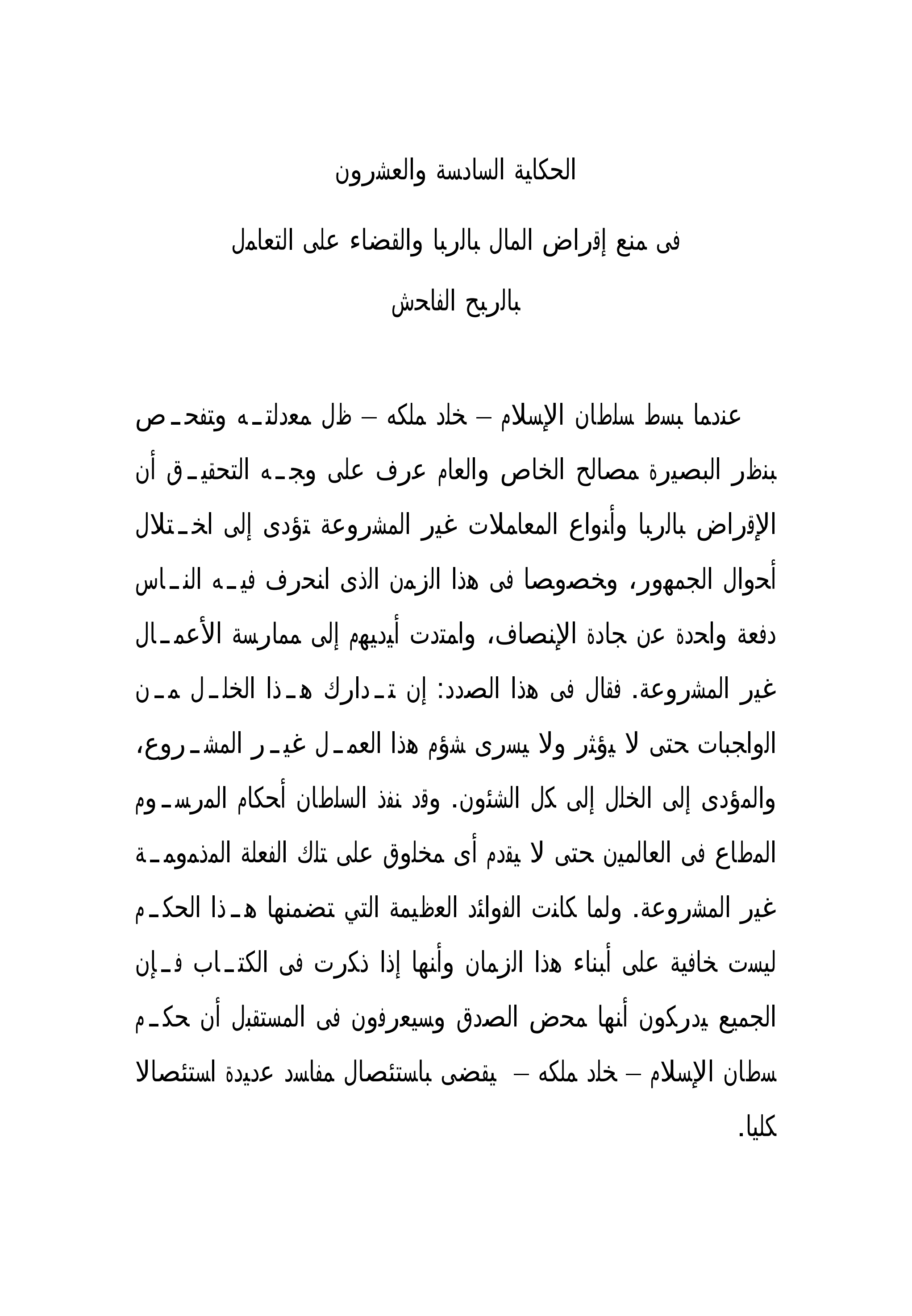
كذلك عين لكل ثغر عددا من الجند يكفى لحمايته. أما الجنود الذين لهم موطن ومحل إقامة فى الولايات فقد عين منهم من يكون أقرب إلى الثغور، ليكونوا عونا للجنود الذين يدافعون عنها وقت الحاجة. وهكذا نظم الأمور بحيث إنه فى أى وقت لا يسرع طرف لنجدة طرف آخر بغير ضرورة ملحة. وزيادة عن المعهود أعد جنودا آخرين ليكونوا مرابطين وعلى أهبة الاستعداد.

بهذه الإجراءات استمال السلطان الحراس والقواد وحثهم على أن يختار كل منهم واحدا أو اثنين من إخوته وأولاده الذين ليسوا ضمن تعداد الجيش الرسمي، فزاد بذلك كل ألف جندى مائة أو مائتين، وأحضروهم جميعا خلال عام واحد. وقد أمر لهم سلطان الإسلام –

خلد ملكه – بالإنعامات و المرتبات والإقطاعيات **[ص٥١٩]** ومنذ عدة سنوات نشب نزاع وخلاف بين أعقاب جوجي و جغتاى واوكتاى الذين هم بنو أعمام السلطان خلد ملكه، فكان جنودهم يغير بعضهم على مواطن البعض، ويأسرون أبناءهم ويبيعونهم للتجار، بل إنه بسبب الفقر كان كثير منهم يبيعون أولادهم أيضا. فأخذت سلطان الإسلام الغيرة من تلك التصرفات، وقال: كيف يجوز لأقوام المغول، وأغلبهم من نسل الأمراء العظام الذين رحلوا فى عهد جنكيز خان، وأعقابهم فى هذا الزمان ولا زالوا يبيعون أنفسهم عبيدا للتازيك، أو أن أغلبهم يضطرون إلى التسول؟ ولإزالة هذه الأمور السيئة يلزم رعاية حقوق تلك الجماعة، والمحافظة على شرفهم؛ إذ إنه بدون هذا تتحطم الصلات وتضيع هيبة جنود المغول التي كانت قد وصلت إلى نجم العيوق (أى إلى عنان السماء) ويصبحون محتقرين فى نظر التازيك، ويحمل أكثرهم أيضا إلى الولايات الثائرة.

لهذا كله أمر بأن يشتروا لحساب الحضرة كل من يحضرونه من أبناء المغول، وأن يدفعوا أثمانهم بالنقد الذهبي حتى يحصل الذكر الطيب، ويتحقق الثواب، ويتكون منهم الحرس للجيش الخاص الملازم للحضرة. وقد اشترى السلطان خلال هذين العامين كثيرا من أبناء المغول، وعين لهم المرتبات والمؤن، وأنزلهم فى ولاية "مراغة" وعهد بإمارة كتيبتهم المكونة من عشرة آلاف جندى إلى بولاد جينكسانك.

كما عين قواد الفرق المكونة من الألف والمائة مـن المقـربين إلـى الحضرة. وبذلك اجتمع ما يقرب من عشرة آلاف جندى وهم يشـترون وفقا لهذه القاعدة كل من يجلبونه منهم حتى كونوا منهم كتيبة كاملة، بل ما يزيد على ذلك، وصار جميعهم حرسا خاصا وملازمين السـلطان. وفى أى عهد من العهود لم يكن هناك جيش بمثل هذا الإعداد والترتيب على النحو المتبع الآن فى هذا الزمان. وقد عين السلطان لهم جميعـا الإقطاعيات. والآن صارت كل الثغور محفوظـة ومضـبوطة وآمنـة وصار لكل منها جيش مستقل ليس محتاجا إلى مساعدة غيره. كـذلك صارت أمور البلاد منتظمة، والناس يعيشون فـى رفاهيـة وراحـة. **[ص٥٢٠]** فليبق ا تعالى ظل معدلة سلطان الإسلام أبد الدهر بمنـه وخفى لطفه.



الحكاية السادسة والعشرون

في منع إقراض المال بالربا والقضاء على التعامل

بالربح الفاحش

عندما بسط سلطان الإسلام – خلد ملكه – ظل معدلتـه وتفحـص بنظر البصيرة مصالح الخاص والعام عرف على وجـه التحقيـق أن الإقراض بالربا وأنواع المعاملات غير المشروعة تؤدى إلى اخـتلال أحوال الجمهور، وخصوصا في هذا الزمن الذى انحرف فيـه النـاس دفعة واحدة عن جادة الإنصاف، وامتدت أيديهم إلى ممارسة الأعمـال غير المشروعة. فقال فى هذا الصدد: إن تـدارك هـذا الخلـل مـن الواجبات حتى لا يؤثر ولا يسرى شؤم هذا العمـل غيـر المشـروع، والمؤدى إلى الخلل إلى كل الشئون. وقد نفذ السلطان أحكام المرسـوم المطاع فى العالمين حتى لا يقدم أى مخلوق على تلك الفعلة المذمومـة غير المشروعة. ولما كانت الفوائد العظيمة التي تضمنها هـذا الحكـم ليست خافية على أبناء هذا الزمان وأنها إذا ذكرت فى الكتـاب فـإن الجميع يدركون أنها محض الصدق وسيعرفون فى المستقبل أن حكـم سلطان الإسلام – خلد ملكه – يقضى باستئصال مفاسد عديدة استئصالا كليا.

لهذا السبب نسجل هنا عدة أنواع من المفاسد، حتى يعرف أهل العلم أن ارتكاب عمل واحد منها أمر غير مشروع، ويتولد عنه كثيـر مـن الخلل والفساد والانحراف. وتوضيح ذلك على النحو الآتى:

أولا: فى عهد آبا قاخان الذى اشتهر بين الجمهور بأنه كـان ملكـا عادلا. وفى أيامه كان الناس آمنين مستريحين، لأنه أبقى علـى نظـم والده هولاكو خان الذى كان فى الحقيقة "صاحب قران"[1] العهد، وذلك من حيث مراعاة القوانين وتوخي العدل، وانتهـاج سياسـته. وكـان الأمراء وأركان الدولة ووزراء أبيه، وبعض ممن دخل الخدمة فى أيام حكمه يزاولون أعمالهم. وفى ذلك الوقت أعد بعض التجار على نفقتهم الخاصة عدة مجموعات من الأسلحة تضم الجواشن والخيول المدرعـة وآلات الحرب **[ص٥٢١]** وبعضا من الخيول الفارهة، وقدموها إلـى حضرة آباقاخان. وبواسطة أمراء السلاح والمشرفين على الاصطبلات أخذوا أثمانها بطريقة كان فيها ربح لهم. وعندما شاهد الآخرون تحقق ذلك الكسب اقتدوا بهم. وقد وصل الأمر إلى حد أن هؤلاء الذين لم تكن لديهم ثروة، كانوا يقترضون الأموال بالربا، وأخذوا ينفقونها فى هـذا الغرض ظانين أنهم سوف يسددون الدين من الربح ويحققون من رأس

---

(١) لقب يوصف به من تنعقد نطفته أو يولد عند اقتران كوكبى المشترى وزحل على حسب الأصول الفلكية القديمة وتأثيرها فى الموجودات؛ فكانوا يعتقدون أن مثل هذا المولود سيكون له شأن عظيم (القاموس الفريد فى العصر الجديد، تأليف الشيخ أحمد النجفى، جلد دوم (د،ظ) ص ٨٨٣، تهران ١٣٥٤هـ،ش).

المال منافع لهم. وقد جرت العادة أن كل ما يودعونه يحملـه أمـراء السلاح والمشرفون على الاصطبلات إلـى الـديوان، ويأخـذون بـه الحوالات ويطالبون بتحصيل قيمتها نقدا. وبهذه الوسيلة أتيح لكثير من الرعاع وكذلك الأشخاص الذين لم يكونوا يملكون شيئا قط فى عالم ا أن يحصلوا على أرباح طائلة سددوا منها ديونهم، وصاروا من جملـة الأثرياء، وفجأة ركبوا الخيول العربيـة والبغـال المريحـة السـريعة وارتدوا الملابس الفاخرة وجمعوا حـولهم الغلمـان المـلاح والخـدم الكثيرين. وكانوا يسيرون بالبغال والإبل المحملة ويطوفـون بـالطرق والمدن والأسواق، فكان الناس يتعجبون من أحوالهم ويسألون: مـن أين وكيف توافر لهؤلاء– بهذه السرعة – مثل هذه السلطة؟! وعنـدما يقفون على حقيقة الأمر تتحرك فى نفوس الشحاذين والمفلسـين ولـع ممارسة ذلك العمل، ويسيطر على رؤوسهم ذلك الهيام والولع. وهناك عدة آلاف من المسلمين واليهود من الخصافين والبائعين الجائلين الذين كانوا يعلقون فى أعناقهم الغرارات المحتوية على الكمـون والكزبـرة والأشياء البالية ويبيعونها. وكذلك صغار النساجين الذين لم يكونوا قـد رأوا مطلقا بأعينهم دانقا واحدا من النقود، ولم تكن بطونهم قد شـبعت من الخبز. هؤلاء أيضا قد شغلوا باقتراض المال بالربا ولم ينفقوا مـا اقترضوه فى تهيئة السلاح وإعداد الخيل، بل صاروا يصـرفون كـل أموالهم فى شراء ملابسهم والاهتمام بمظهرهم، أو يقدمونها رشوة إلى

الأمراء المذكورين، ويأخذون صكا ينص– مـثلا – علـى أن ألـف مجموعة كاملة من السلاح وعددا كبيرا من الخيل قد تم تسـليمه. ثـم يحملون ذلك الصك إلى الكُتاب. **[ص٥٢٢]** ورغم أن هـؤلاء كـانوا واقفين على حقيقة الأمر فإنهم التزموا الصمت، لأنهـم أخـذوا ثمـن صمتهم، فكانوا يكتبون المراسيم والحوالات بالأموال النقدية للولايات. ونظرا لأن الأمور قد تيسرت لتلك الجماعة، وصاروا فى نعمة وثراء، شرعوا يقرضون الآخرين بالربا. ولهذا السبب اتخذوا أغلب الناس هذا العمل حرفة لهم وسلموا كل ما كان لـديهم مـن الـدراهم والـدنانير والمشغولات الذهبية والآلات والملابس، وأنواع الأموال من "صـامت وناطق"[١] للناس الذين كانوا يطمعون فى تحقيق الفائـدة. ومـا كـان يرضى الشحاذون ببيعه بعشرة تومانات أى مائة ألف دينار، وصـل إلى درجة أنهم لم يرضوا ببيعه بمائة تومان. وأولئك النصابون الـذين أطلقوا على أنفسهم اسم تجار ورجال أعمال أخذوا يجلسون فى الـدار كل مخلوق كان له إلمام بمعرفة الخط المغولى كي يكتب لهم الصكوك كما يريدونها، وليضع تأشيرة كل أمير كانوا يطلبونها، ثم يحملونها إلى الكتاب الذين كانوا على علم بمقدار ما يدفعه هؤلاء الناس عـن كـل

---

(١) الصامت: الذهب والفضة، والناطق: الإبل والغنم. (انظر الصحاح للجوهرى، ج ١، إعداد وتصنيف نديم مرعشلى، وأسامة مرعشلى، ص ٧٣٢، الطبعة الأولى، بيروت ١٩٧٤م).

تومان حتى يكتبوا لهم المراسيم والحـوالات. وقـد تضاءلـت قيمـة التومان؛ بحيث إنهم اعتبروه لا شىء.

بعد ذلك كانوا يقدمون تلك الدعاوى إلى الديوان، ويعرضونها على حضرة آباقاخان. وكانت الحوالات والصكوك من الكثرة؛ بحيث إنهم لو جمعوا كل ما فى ممالك العالم من الذهب والفضة، وضموا إليه كل ما هو فى باطن المناجم لما وفّى بهذا المقدار. والعجيب فى الأمر أننا إذا فرضنا أن ألف رجل يجمعون فى إحدى الصـحارى مجموعـة مـن الأسلحة تبلغ ارتفاع جبل فإنه لا يستوعبها مائة مستودع، أو أن عشرة آلاف حصان تكاد تستوعبها إحدى الصحارى والمـزارع، فكيـف أن مائتين أو ثلاثمائة ألف رجل مسلح، ومائة ألف أو مائتي ألـف رأس من الخيول، وهم كانوا يدعون أضعاف ذلك مائة مرة وزيادة، وكانـت بيدهم المراسيم والحوالات؟!

ولما كانت علو الهمة والعظمة من شيم الملوك، لم يفكر آباقاخـان فى أن يسأل: أين عرضوا كل هذه الخيول والأسلحة التي لا حصـر لها؟! **[ص٥٢٣]** وعلى أى الجيوش وزعوهـا؟ و فـى أى خزانـة؟ أودعوها؟ وفى أى مرعى يرعونها؟ أما الأمراء وأركان الدولة الـذين كانوا واقفين على حقيقة الأمر؛ فقد رضوا بحق السـكوت المختصـر، ولم يكن لهم مجال لتدارك الأمر بسبب تلوثهم. وكان كل واحـــد من أولئك الأفاقين قد تشبث بأحد الأمراء أو بإحدى الخواتين، وصار يؤدى

لهما أحقر الخدمات كي ينال رضاهما بما يقدمه لهما مـن خـروف أو قنينة شراب. ولما تجاوز الأمر حده، أراد الصاحب السـعيد الخواجـة شمس الدين صاحب الديوان – رحمة ا عليه – أن يتدارك هذا الخلل، فجمع هؤلاء الأفاقين، وقال لهم: إن هذه الأموال التي تطالبون بها، لا توجد فى العالم كله. وأنا أعرف أنكم لم تنفقوا شيئا أكثـر مـن تقـديم الهدايا. والآن أصير شريكا لكم ، وسوف آخذ من الملـك (المقصـود آباقاخان) مائتي دينار فى مقابل كل ألف دينار نتقاسمها فيمـا بيننـا. وحيث إنهم لم يكونوا قد صرفوا نصف دينار فى مقابل كل ألف دينار، رضي الجميع بذلك. واسترضى هو نفسه الأمراء، وعـرض علـيهم قائلا: سوف أوفر ثمانية تومانات، وأكتب حوالة على الولاية بتومانين، بحيث تسلم للتجار، فوقع هذا الحل موقع الاستحسان. وكـان صـاحب الديوان يتسلم مراسيم ويكتب فى الحوالة تومانين فى مقابل كل عشـرة تومانات بالنسبة إلى المبالغ التي يأمل تحصيلها. ولما كان نصفها عائدا إليه كان يعطيهم حصتهم من البضائع التي لم تكن تساوى ربع ثمنهـا، ويتسلم هو نصيبه نقدا. أما الجماعة الذين كانوا يقرضـون النصـابين بالربا فقد ظلوا يطالبون مدة بقروض أخرى، حتى إذا استوفوا مطالبهم من المال، سددوا ما عليهم دفعة واحدة، لكن الدائنين كانوا يائسين مـن الحصول على الربح ورأس المال، فلم يدفعوا لهم شيئا.

فى هذا الوقت الذى حدث فيه هذا السلوك مـع صـاحب الـديوان وراجت هذه الإشاعة التي تقول: إن الأموال تصل تباعا، فسر جميـع المتعاملين، وأعطوهم كل ما معهم من البضائع بالمشاركة. فكان هؤلاء المحتالون لشدة حرصهم وجرأتهم يمكثون فـى بيـوتهم، ويحـررون الصكوك ويحملونها إلى كتاب المغول، ويأخذون المراسيم والحوالات. فأدرك صاحب الديوان هذا الأمر. ولكنه ظل عاجزا. ومن بـين تلـك الجماعة، كان هناك رجل يهـودى يعمـل خصـافا[1]، التجـأ إلـى المعسكرات فى عهد هولاكوخان **[ص٥٢٤]** وأحضر معه جمعا مـن المغول إلى صاحب الديوان يطالبون بأموال المشاركة فسأله الصاحب: كم مستحقاتك؟! أجاب خمسمائة تومـان. وأطلعـه علـى المرسـوم والحوالة، فتعجب صاحب الديوان، وسأله: أتملك منزلا فى تبريز؟ قال: بلى. فعاد وسأله: أكبير هو أم صغير؟! أجاب: صغير. فقال الصـاحب لو حمل مبلغ خمسائة تومان من الذهب إلى سطح منزلك لتنثرها عليه فهل يستوعبها أو لا؟! فاعترف اليهودى بأنه لا يستوعبها، وهكذا كـان تعسف هؤلاء القوم على هذا النمط. وقد أخفق صاحب الديوان أيضـا فى معالجة أمثال تلك القضايا، ولم يستطع تداركها. ولما انتشرت هـذه الإشاعة كان الناس ينفقون يوما بعد يوم كل ما فى أيـديهم فـى هـذا

---

(١) الخصاف من يخصف النعال. (المعجم الوسيط، ج ١، ص٢٣٨).

الشأن. وإذا لم يكن لديهم مال كانوا يقترضون؛ إلى أن صار أكثـرهم فقراء معدمين. وعلى أمل الحصول على تلك التومانات المثبتـة فـى الحوالات، صاروا يضيعون وقتهم عبثًا. وبعد مـدة نظـرا لأن تلـك الأموال لم تكن تصل إلى التجار يئس المتعاملون معهم، وكفـوا عـن مساعدتهم لسد حاجاتهم، وذلك بالحصول على قرض أو نقد. وأخيـرا انتهز النصابون هذه الفرصة وقالوا لعملائهم: إننا لا نخفى عليكم شيئًا، ولأن لكم أنواعا من الحقوق علينا لن نسبب لكم ضـائقة ماليـة. لقـد أعطونا بموجب المرسوم حوالات مختومة بالدمغة لصرف مبالغ كبيرة من الأموال العينية محولة على حساب الممالك، فنشارككم فيها. وسوف نأخذ رسولاً من الخاتون الفلانية أو من الأمير الفلانى حتـى نحصـل على أموالنا، ونعطيكم نصيبكم. ولكن الحرص كان يسيطر عليهم عندما يرون المراسيم والحوالات التى كانت تتضمن أضعاف المبـالغ التـى اقترضوها، والتى اتفقوا على مشاركتهم فيها فصاروا يدبرون ما يحتاج إليه هؤلاء القوم. ولما كان يتحتم عليهم أن يقترضوا بالزيـادة بـاعوا أملاكهم، وذهب معهم أكثر عملائهم إلى الولايات. وهكذا اتبعوا هـذه الطريقة، فكانت عاقبة الأمر أنهم لم يصلوا إلى شىء قـط وخسـروا ديارهم ومقومات حياتهم، وظلوا مفلسين مدينين.

وبعد عهد السلطان آباقاخان أى فى عهد أحمد (تكودار) وأرغـون وكيخاتو استمرت تلك الجماعة تجد وتسعى فى طلب الأموال. وكـان

كل من الخواتين والأمراء الأنجال والأمراء يتخذ رسلاً يقبلون عروضا جوفاء، ويذهبون إلى الولايات، فكانت الأموال النقدية اللازمة للارتحال إلى الممالك تستهلك فى توفير العلف لدوابهم وسداد نفقـاتهم. كمـا أن حكام الولايات راحوا بدافع الطمع يعطون الصنف الذى يساوى عشرة دنانير بثلاثين دينارا أو أربعين. وينبغى أن تسدد الأموال نقدا للخزانة. **[ص٥٢٥]** ومن مظاهر طمعهم أيضا أنهم كـانوا يعطـون العمـلاء الأحزمة المرصعة واللؤلؤ والأصناف الأخرى بأثمان مرتفعة وهـؤلاء كانوا أيضا يرضون بذلك لأنهم إذا كـانوا يأخـذون حتـى الحجـارة والخزف لسداد تلك النفقات، فإنهم يعتبرون ذلك بلا مقابل. ولهذا السبب كانوا هم أيضا يبيعون تلك المرصعات بثمن بخس، وكانوا يرهنونهـا فى مقابل شىء حقير. وقد ترتب على شؤم تلك التصـرفات انحطـاط قيمة الجواهر وكساد سوقها كسادا تاما، ومع هذا لم يستطيعوا الحصول على دخل أكثر من هذا؛ بحيث يفى بسداد نفقات الرسل وتعهداتهم.

وعاقبة الأمر أن التجار المنحرفين وعملاءهم ظلوا جياعا عـراة. ولهذا السبب كانوا يعجزون عن القيام بأى عمل يحصلون بـه علـى الكفاف لمعيشتهم. وكانت أموال الخزانة تتعرض للتلاف والتبديد، ولـم يستطع شخص قط أن يتدارك هذا الخلل.

وعندما وصلت نوبة الحكم إلى سلطان الإسلام غازان خان – خلـد ملكه – أمر:

أولاً: بعدم إقراض المال بالربا، فكفت تلك الجماعات أيـديها عـن التعامل به، ولم تكن لديهم أية حيلة أخرى يلجأون إليهـا. وفـى هـذه السنوات القليلة اختفى المرابون العديدون مع كل المراسيم والحوالات، وتركوا تلك المعاملات التى لم يكن لها سند ولا أساس على الإطـلاق، ولم يذكرها أحد. وهكذا انصرفت تلك الجماعة التى كانت تزاول هـذه الأعمال وعاد كل منهم إلى حرفته الأولى، وظهر الفرق بـين الكـريم والشحاذ، والشريف والوضيع. وقد اتخذت تلك الطوائف القناعة شعارا لها، وهم يتوجهون بالدعاء لدولة سلطان الإسلام – خلد ملكه -.

وبعد، فهذه كانت إحدى مساوئ التعامل بالربا على النحـو الـذى شرحناه.

ثانيا: الأشخاص الذين كانوا يتعاملون بالربا خـلال هـذه الفتـرة الطويلة أكثرهم من المغول والأويغور. والحقيقة أن الناس إذا اقترضوا المال بالربا، فكيف يستطيعون أن يكونوا سعداء؟! عاقبة الأمـر أنهـم كانوا يعجزون عن أداء ديونهم، فيظلون فى ذل أسر مدينيهم مع نسائهم وأولادهم. ولكن بيمن معدلة سلطان الإسلام – خلد ملكه – زالت تلـك المذلة عن أهل الإسلام.

ثالثًا: مسألة أخرى تتعلق بخلل خطير كان يحدث خلال هذه الفتـرة الطويلة حينما لم يستطع الملوك وحكام الولايات ممـن كـانوا أناسـا

يتصفون بالأصالة والشرف - أن يتعهدوا بتحصيل أمـوال الولايـات حسب المقرر. **[ص٥٢٦]** وكانوا يتجنبون تلـك الأعمـال. وإذا كـان الشحاذون والأشرار يستطيعون أن يعيشوا عشرة أيام فى نعيم الملـوك بدلاً من عشر سنوات يقضونها مفلسين فإنهم كـانوا يأخـذون المـال بالربا، ويقدمون الهدايا الثمينة ويتسلمون الحكم فى الولايات، ويصلون إلى مناصب الملوك والسلاطين المشهورين ويجمعون لأنفسهم ضرائب باهظة من الولاية. ولما كان عليهم أن يدفعوا نفقات المعسـكر وثمـن الغلمان والدواب والملابس الفاخرة والكماليـات الأخـرى كـان مـن الضرورى أن يقترضوا المال بالربا. وحيث إن ذلك الشخص الذى كان يقرض المال يعرف أنه يعرض ماله للتلاف فإنه لا يعطى هذا المال إذا لم يتصور أنه يحقق له ربحا كثيرا إلى أقصى حد. فلا شك أنهم كانوا يستطيعون أن يأخذوا ثلاثة دنانير أو أربعة نظير كل دينار يقرضونه. وعندما كانوا يذهبون إلى الولايات كان مجموع إيرادات الديوان لا يفى بسداد قروضهم. ولهذا كان من الضرورى أن يأخـذوا مـن الرعايـا أضعاف المقرر عليهم؛ فتقع آلاف عديدة من النـاس مـن عبـاد ا وممولى الضرائب فى تعب ومشقة، ويبقون معذبين. ولما كان أصحاب الديوان مطلعين على عدم استقامة تلك الجماعة. ولأنه كان ينبغـى أن تكون الأموال موجودة، فبددها كلها هذا الحاكم، ولوث سمعتهم. وما دام ذلك كذلك فإنهم ما كانوا يستطيعون منعه. وقد كان هو أيضا شخصـا

مفلسا. وبالإضافة إلى ذلك سمح مضطرا للرعايا العديدين بأن يأخـذوا مالاً أزيد مما يستحقون. وقد أبدى فى ذلك إهمالاً وتغافلاً. كذلك كـان يلزم أن يقدم هدايا ثمينة للشحنة وكتاب الولايات حتى لا يمنعـوه. وإذا لم يأخذوا لما تيسر الدفع. ومع هذا لم يكن يصل مطلقًا أى مبلـغ مـن النقد إلى الخزانة. وإذا أحضروا أحيانا بعض البضائع فإنه لم يكن ثمنها يساوى ربع قيمتها. ولهذا السبب كانت شئون الجيش مضطربة بسـبب ندرة المئونة. وسنة بعد أخرى كانوا يتسـلمون مـنهم الولايـة بهـذه الطريقة. وكان الكبار المحترمون مطلعين على أفعال أولئك المفسـدين الأخساء، ومع هذا لا يسند إليهم عمل مطلقًا. وقد قال كبار الحكماء: إن الملك يختل ويزول عندما ينحى الأشخاص الأكْفاء عن مزاولة الأعمال المناسبة لهم، وتسند إلى غير الأكْفاء. **[ص٥٢٧]** وقـد ظلـت هـذه الطريقة متبعة فترة من الزمن. وعندما صار صدر الجـاوى وزيـرا، وصل أمر الإقراض بالربا إلى حد يصعب تصديقه إذا حاولنا الشـرح والإفاضة، بيد أننا نرى أن ذكر نبذة عن الموضوع أمر ضرورى، إذا ما أردنا الإحاطة به. وحيث إن جميع أهل الزمن الحالى قد شاهدوا هذه الأحداث لا يمكن أن نقول جزافًا. أما بالنسبة إلى القراء فى الأزمـان المقبلة، فسوف يبدو لهم ذلك أمرا مستبعدا وتوضيح ذلك أنه فى عهـد الوزير صدر الدين كان المتعهدون فى الولايات أخس أبناء عصـرهم. وحيث إنهم كانوا يعرفون عادته، وهى أنه يبيع بقرة بعجـل صـغير.

وكان المتعهد يقترض المال بالربا، ويقدم الهدايا على سبيل الرشـوة؛ فما كان يساوى عشرة دنانير يأخذه صدر الدين بعشرين دينـارا. ثـم يعطيه له بثلاثين، فكان يرضى بذلك. ثم يقول له: ينبغى أن يدفع قسط من المال للديوان، فينطلق المتعهد قائلاً: هنا يقرض المال بالربـا. وإن ذلك المقدار الذى أعطيته على سبيل الهدايا قد تيسر بصـعوبة بالغـة (بألف حيلة)، فكان الوزير يقول له: لن يصيبك ضرر. وإذا أخذت مالاً فسلمه لنا. وبمجرد أن كان ذلك الشخص يسلم القبالة ويحسب الأصـل والربح من المال يأخذ بسهولة كل ما يساوى عشرة دنـانير بثلاثـين دينارا. ثم يعطيه إياه بأربعين. وفى الحال يصرف تلك الدنانير العشرة المتوافرة. ولما كان صدر الدين يريد الحصول على المال بسرعة قال نوابه: إن هذا الشىء يساوى عشرة دنانير، لكنهم لن يشتروه بأزيد من ستة دنانير ويحصلون لأنفسهم على الدنانير الأربعة الباقية.

والخلاصة أنه لم يكن يصل إلى صدر الدين أزيد من ستة دنـانير من أربعين دينارا هو أصل المال. وذلك أيضا هو مال الديوان الـذى كان يبدده. وكان من بين عملائه شخص اشترى من أحد التجار عـدة آلاف من الغنم لخاصة صدر الدين، ثمن كل رأس منها خمسة دنانير. وقد أعطى التاجر مهلة شهرين لسداد الثمن. ولما حل ميعاد الدفع لـم يكن النقد موجودا. وكان أكثر ما تبقى من تلك الأغنام قد صار هـزيلاً نحيفًا فأمر ببيعها كلها بثمن بخس، وإعطـاء التـاجر ربـح شـهرين

بالإضافة إلى ثمنها. ثم أحالوا القبالة الأصلية وفق هـذا القـرار إلـى شهرين آخرين. فلا جرم أنه بشؤم تداول مثل هـذه الأربـاح تبـددت أموال الممالك، ولم يسلموا للخزانة شيئًا منها قط. وكل حوالة أصدرها كيخاتو باسم المروءة والسخاء لم يكن يصل منها مطلقًا دانـق واحـد **[ص٥٢٨]** لشخص من الأشخاص. وكذلك الحال بالنسبة إلـى المـؤن والمرتبات والنفقات المقررة. ولهذا السبب نفر الجند من كيخاتو. ورغم كل هذا ظل صدر الدين مفلسا دائما. ولما قتل كان فـى عنقـه الآلاف المؤلفة من مظالم الخلق. وما أكثر الديار المليئة بالأموال والنعم التـى صيرها خاوية على عروشها. أما ولاة الأقاليم من السلاطين والملـوك الذين كانوا يقصدون البلاط فقد صاروا بهذه الطريقة مدينين يقترضون من مائة ألف مسلم ومغولى. وعلى هذا النحو تبددت أموالهم جميعـا. ولقد توفى بعض هؤلاء القوم والمظالم فى أعناقهم. وعلى هذا المنوال خسر بعضهم أهلهم وأملاكهم وأثـاثهم مثلمـا رأى الجميـع بـأعينهم وسمعوا بآذانهم. وقد أدرك الجميع أنه لم تكن هناك مبالغة بل إن هـذا القول إنما هو مثال وقليل من كثير بالنسبة إلى الواقع.

وعلى هذا النحو صار من الصعب تدارك مثل هذه الأمور العظـام التى رسخت فى أدمغة الخواص والعوام. وبسبب الأغراض والأهـواء المذكورة، فإن جميع الأمراء الأنجال والخواتين والأمـراء والـوزراء والكتاب والأكابر والأتباع كانوا يرعون هؤلاء المفسدين وكان لبعضهم

ديون عليهم، وكان بعضهم يقبل الهدايا منهم. وليس هذا فقط، بـل إن بعضهم صاروا شركاء لهم. ومهما يكن السلطان عـادلاً وذا سياسـة وصاحب شوكة فإنه يكون من الصعب أن يستطيع التغلب علـى هـذه الصعاب إلا إذا كان مزودا بالحكمة والكفاءة والعقل الكامل.

أما سلطان الإسلام – خلد ملكه – فقد فكر فى فكـرة مباركـة؛ إذ عرف أن أس كل هذه المفاسد هو التعامل بالربا. فإذا منع ذلـك فإنـه يكون قد قوى الشرع الإسلامى من جهة، وأخرج الخلق مـن ورطـة الضلال إلى جادة الهداية من جهة أخرى. وببركة منع الربـا قضـى السلطان على كثير من الأضرار الجسيمة.

وعلى أثر اهتدائه إلى تلك الفكرة أصدر مرسوما فى شعبان سـنة ثمان وتسعين وستمائة (٦٩٨هـ/١٢٩٨م) يقضـى بـألا يتعامـل أى شخص بالربا فاستنكر ذلك أكثر الناس الذين كانوا قد اعتادوه، وصـار بعض الأكابر من ذوى النفوذ يقولون: إنه بصدور هذا المرسوم سوف يغلق طريق المعاملات نهائيا. فرد عليهم سلطان الإسلام - خلد ملكه – إننا قررنا إغلاق طريق المعاملات المذمومة. كذلك قال بعض الجهال من أصحاب الغرض والهوى **[ص٥٢٩]** إنه يلزم للخزانة أموال نقدية فى كل وقت، وإذا لم يقرضوا حكام الولايات فسوف يعجزون عن أداء المال، فقال سلطان الإسلام ووزراؤه: إننا لن ندع أى شخص يتعامـل بالربا فى مصالح الديوان، أو أن يأخذ أى شىء من أصـل المـال أو

ربحه. وقد نبه السلطان مرارا علـى الخـواتين والأمـراء الأنجـال والأمراء بألا يقرضوا على الإطلاق تلك الجماعة.

وعلى هذا أمر المسئولين بأن ينادوا صراحة بأننا لن ندع أحدا قـط يقرض هذه الفئة مالاً، أو أن يطلب شيئًا منهم أثنـاء حيـاتهم أو مـن تركاتهم بعد مماتهم؛ لأننا لا نريد منهم مالاً نأخذه كسلفة. وإذا ما بددوا أموال الديوان، فسوف نصادر أمتعتهم وأموالهم فى مقابل ذلك.

رابعا: مسألة أخرى هـى أن المعارضـين قـالوا: إن القـروض ضرورية لأرباب الحاجات لإنجاز مهماتهم. وقد رد علـيهم السـلطان بقوله: لماذا يجىء الشخص الذى لا يملك نفقات الطريق وما يحتاج إليه السفر؟ وأية فائدة تعود علينا منه، أو تعود عليه منا؟! يجب أن يجلـس مستريحا فى منزله لا يبرحه. وحيث إنهم كـانوا يسـوقون تبريـرات أخرى من كل نوع، كان يرد عليهم بقوله: إن ا تعالى والرسول عليه السلام يعلمان مصالح العالم أفضل منا. أو كان ينبغى أن نـرد علـيهم نحن بالضرورة بهذا المعنى فنقول: هذا ما أمر به ا [1] ورسوله، ولن أسمع قط كلاما يخالف ذلك. ومنذ ذلك التاريخ لـم يعطـوا مـالاً أى

---

(١) نهى الله خلقه عن التعامل بالربا؛ فقال فى محكم كتابه: ﴿الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرم الربا فمن جاءه موعظه من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ (سورة البقرة، آية ٢٧٥).

مخلوق أراد الاقتراض بالربا. وإذا ما استبد شخص ذو نفـوذ فـإنهم يمنعونه بحكم المرسوم.

ولأن الناس جميعا فى زماننا هذا لا يتعاملون بالربا بحمد ا ومنه زالت كل الأضرار التى كانت تحدث، واستقامت المعـاملات، وعـم الإنصاف الناس، وصار أكثر الأموال النقدية يصل إلى الخزانة ذهبـا أحمر؛ لأن القانون لا يبيح تسليم الأموال العينية بدلاً من النقدية. كذلك ثبتت قيمة الجواهر والمرصعات. وكل من يملك مالاً لا يسلمه ليد مفسد من المفسدين فيبتزه بالحيلة. وبذلك صار أكثر أرزاق الخلـق حـلالاً، وعمت البركة، واشتغل **[ص٥٣٠]** أكثر الناس بالزراعـة والتجـارة والحرف النافعة. وبهذه الوسيلة انتظمت أمور العالم من جديد، ووجدت رونقًا وبهاء. ولا شك أن أهل هذا الزمان يدركون قيمة هذه الأمور؛ إذ إنهم شاهدوا هذه المفاسد. أما الذين يعيشون بعد هذا، ولم يروا حقيقة ما حدث فأنى لهم أن يدركوا فائدة هذا القانون؟! وخلال هذه المدة التى نفذ فيها هذا الحكم كان بعض الناس ممن سيطرت عليهم لذة التعامل بالربا يبيعون بالقروض كثيرا من البضائع بأثمان باهظة، بحجة أن ذلك مـن قبيل التعامل والبيع المشروع، ولأنه لم يتخذ شكل الربا. وعاقبة الأمر أن هؤلاء الغرماء كانوا يأتون إلى الديوان ويقولون: لقـد بـاعوا لنـا بضائع بهذه الطريقة، وأنهم يطلبون ثمنها، فغضب السلطان– خلد ملكه – وقال: إنهم إذا لم يتركوا هذه الحيل والتزويرات فإننا سوف نأمر بأن

كل شخص يأخذ قرضا بهذه الطريقة لا يعيد على الإطلاق رأس المال ولا ربحه. فإذا وجـد المـال متـوافرا إمـام النـاس فمـا الـداعى لإقراضه؟!... ينبغى أن يشتروا به أملاكًا، ويستثمروه فـى التعميـر والزراعة والتجارة فصار الناس خائفين من ذلك، وقل التعامل بالربـا، كما قلّت المعاملات المجحفة. ومن المؤكد أنه سوف يقضى نهائيا على هذه الطريقة وفى أسرع وقت.

فليوفق الحق تعالى هذا السلطان كى يقضى دائماً على هذه الرسوم المذمومة، وحتى يجعل قواعد الشرع الشريف ممهدة وراسخة.

الحكاية السابعة والعشرون

فى منع المغالاة فى صداق الزواج

قال سلطان الإسلام: إن الحكمة الإلهية فى تشريع الزواج هـو أن يكون هناك تناسل وتوالد بين الآدميين. ولهذا السبب فإن حكم الشريعة يقضى بأنه إذا تفوه شخص بكلمة الطلاق سواء أكان جادا أم هـازلاً، وسواء أكان راغبا أم غاضبا فإنه يقع الطلاق فى الحال لأنه إذا لم يكن هناك وفاق بين الزوجة وزوجها **[ص٥٣١]** فالأولى أن ينفصـلا، وإلا فسوف يؤدى عدم الوفاق إلى الحدة والغضب. وإن استمرار الحياة مع الغضب لهى عادة الوحوش، ولا محالة أن ذلك يؤدى إلى النفـور، ولا يتحقق التوالد والتناسل مع وجود النفور. ولهذا السبب أصـبح طريـق الطلاق مفتوحا دون مانع قط.

أما إذا عقد النكاح على امرأة بصداق باهظ فلن يستطيع أى مخلوق أن يبادر بطلاق زوجته، وذلك خشية أن يدفع المال الكثير. وإذا كانت علاقة الزوج بزوجته ليست على ما يرام وغير محتملة فـإن الـزوج يضطر إلى التحمل. وهذا الأمر خلاف المشروع والمعقول ذلـك أنـه بموجب ما تقرر، تقتضى حكمة الشارع أنه إذا ما تردد شـخص فـى إظهار المحبة لزوجته، ولم يحرص على اتفاق وجهات النظر بينهمـا فإنه يستطيع أن ينفصل عن زوجته دون جدال أو تفكير أو مانع.

كذلك تقتضى حكمة الشارع أن تكون رعاية الناس لأبنائهم وتوفير مؤنهم ولوازمهم أمرا واجبا على الآباء. وهؤلاء الآباء معرضون في كل وقت لمنع الإعانات عنهم، أو أن بعضهم يرحل كجنود احتياطيين بعيدا عن أولاده. فإذا ما استهلك صداق الزوجة فمن أين يتوافر المال لتربية الأبناء، وسد حاجات الباقين ورعاية شئونهم؟!

وبناء على هذه المقدمات، ولأن الرسول عليه الصلاة والسلام قد استحسن المهر القليل فى الزواج ينبغى أن يخفض الناس الصداق إلى أقصى حد؛ بحيث لا تجب عليه الزكاة. وبناء على هذا تقرر ألا يزيد كل الصداق على تسعة عشر دينارا ونصف؛ ذلك أنه ليس هناك إثم قط فى الصداق القليل. ولا شك أن الشخص الذى يحب زوجته لا يمكن التفريق بينهما مهما بلغ التحايل والإجبار. أما الزوجان اللذان لا يوجد بينهما وفاق فمن الأولى أن ينفصلا بأسرع وقت ممكن كى يتخلصا من المتاعب، ويستفيد كل منهما؛ لأنه ثبت بالتجربة أن بعض الزوجات لا يحببن أزواجهن، فإذا ما طلّقن فإن الآخرين يتزوجون منهن ويحبوهن، فتكون هناك فائدة للطرفين.

لهذا السبب أصدر السلطان مرسوما بخصوص هذا الموضوع.

والسلام.

الحكاية الثامنة والعشرون

فى إقامة المساجد والحمامات فى القرى بكل البلاد

لا يخفى أن احتياج الناس إلى الحمامات والمساجد من الأمور الضرورية. وفى بعضٍ من ولايات الممالك لم يبن فى القرى شىء من كلا النوعين، ولم يدبر ملوك الإسلام ذلك من قبل. ومن المؤكد أن الأهالى فى تلك الأماكن لا يقيمون صلاة الجماعة، ولا يتيسر لهم غسل الجنابة والتنظيف، كما هو مشروط شرعا، مما يسبب خللاً فى دينهم.

ولعلاج هذا النقص أمر السلطان وأصدر مرسوما يقضى بإقامة مسجد وحمام فى كل قرية من قرى كل الممالك. ويعتبر مجرما وآثما من لا ينفذ هذا الأمر. وخلال ما يقرب من عامين أقيمت فى كل البلاد المساجد والحمامات فى الأماكن التى لم يكن فيها مساجد ولا حمامات. وفى هذا الزمان تحصل أجور مرتفعة من تلك الحمامات، فأمر السلطان بأن ينفق منها على ما يلزم تلك المؤسسات، وعلى شئون المساجد من تعمير وفرش وإنارة وصرف أجور للخدم.

وبمجرد أن تم هذا النموذج الدال على حسن التدبير الذى أمر به السلطان جرى مثل هذا العمل الخيرى فى عدة بقاع من بقاع الممالك، وظهر شعار الإسلام، ونعم الناس بالهدوء والراحة.

أوصل الحق تعالى بركات ومثوبات ذلك إلى أيام السلطان المباركة.

الحكاية التاسعة والعشرون

فى منع الناس من احتساء الشراب

حيث إن أكثر الخلق فى الممالك يقدمون على شرب الخمر وتناول المسكرات وكانوا ينهمكون فى العربدة والعبث بسبب سكرهم فى الأسواق والمجتمعات؛ فيؤذى بعضهم البعض، أو يجَرح بعضهم أو يحل بهم الإعياء والإرهاق مما يوجب محاكمتهم. والمسكرات حرام ومنهى عنها فى كل المذاهب والملل[1]. وبسبب ما تقرر عنها، وما ورد من ذمها بحصر المفاسد التى تنتج عنها، نرى أنه لا داعى إلى الإطناب فى ذلك. يكفى أن أطلق عليها "أم الخبائث".

وبخصوص تدارك هذا الخلل، قال سلطان الإسلام – خلد ملكه – بما أن المشرع عليه السلام وسائر الأنبياء قالوا بتحريم الخمر **[ص٥٣٣]** وأن النصوص قاطعة فى ذلك الشأن هذا على حين أن الخلائق لا ينزجرون ولا يتركون الشراب، وإذا نحن أيضا منعنا الشراب مطلقًا، فمن المؤكد أنه لن ينفذ ذلك. بناء على هذا قررنا أن

---

1) ورد فى الحديث الشريف قول الرسول صلى الله عليه وسلم: "اجتنبوا الخمر فإنها مفتاح كل شر". رواه الحاكم والبيهقى عن ابن عباس ورواه الطبرانى عن النعمان بن بشير بلفظ: "اجتنبوا كل مسكر". (انظر كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس للعجلونى، الجزء الأول، ص٤٩، حلب بدون تاريخ).

نكتفى حاليا بأن يقبض على كل شخص يجدونـه ثمـلاً فـى المـدن والأسواق، وأن يعرى، ثم يربط إلى شجرة[٢] وسط السوق حتى يمـر عليه الناس، ويوبخوه فيتنبه وينزجر.

وبخصوص هذا الموضوع أصدر مرسوما وأرسله إلـى أطـراف الممالك. وفى هذا الزمان لا يجرؤ أى مخلوق علـى أن يخـرج إلـى الطرق ثملاً. وإذن فكيف يصل به الحال إلى حد المجون والعربـدة؟! وبهذا قضى السلطان على الفساد الناجم عن احتساء الشـراب وعلـى مشاجرات السكارى وخصوماتهم فى الأسواق والمجتمعات.

كذلك أمر السلطان بألا يدخل أى مخلوق منازل الناس للبحث عـن السكارى حتى لا يسلك العسس سلوكًا يتجاوز حد الاعتدال، وحتـى لا تحل المتاعب والمشقات بالخلق.

ليوفق الله تعالى هذا السلطان الحامى الدين حتى يصدر دائما هـذه الأحكام.

والسلام

---

(٢) يذكر الوصاف أنه فى عهد غازان إذا رتكب شخص شرب الخمر، فإنه يعذب فـى السـوق، ويقـام عليـه الحـد الشـرعى، ويعلـق فـى شـجرة يطلـق عليهـا أهـل شـيراز "عـروس السـكارى" (عـروس مسـتان) (انظـر تـاريخ الوصـاف ص٣٧٨، طبـع بمباى).

الحكاية الثلاثون

فى إعداد نفقات الطعام الخاص والشراب

لجيش السلطان المعظم

ليكن معلوما للجميع أنه قبل هذا كان يسود الجدل والنـزاع دائمـا بخصوص إعداد نفقات الطعام. وكان الكتاب والمتعهدون يوقع بعضهم ببعض، ويتهمون بعضهم بعضا. وكانوا يغالون فى ذلك الأمر، فكـان على الأمراء أن يشغلوا باستجوابهم ومحاكمتهم. وكانت نفقات الشراب والطعام فى أيدى جماعة ينفقون مبالغ تزيد كثيرا عما صرفوه بالفعل. كذلك كانوا يضيفون بعض النفقات التى لم تكن لها صلة بتوفير الطعام وذلك من قبيل الصدقات ومعاشات الناس وغذاء الحيوانـات والفهـود وكذلك العلف ومشروب الرسل ورواتـب بعـض الأمـراء الأنجـال والخواتين ولوازم البيوت وأدوات المطابخ وأمثال ذلك. ولهذه الأسباب تضخمت ثروات طائفة من هؤلاء المستغلين. يضاف إلى ذلك ما كـان ينفق على شئون المآدب وإقامة الحفلات. وأكثر هذه الأموال لم تكن فى الحقيقة تنفق فى هذا الغرض. كذلك حددوا للأصناف المختلفة أسـعارا مرتفعة. **[ص٥٣٤]** وكانوا يحيلون كل تلك النفقـات علـى الولايـات لتتولى تدبيرها. وفى نفس الوقت كانت الشئون المتعلقة بأموال الديوان

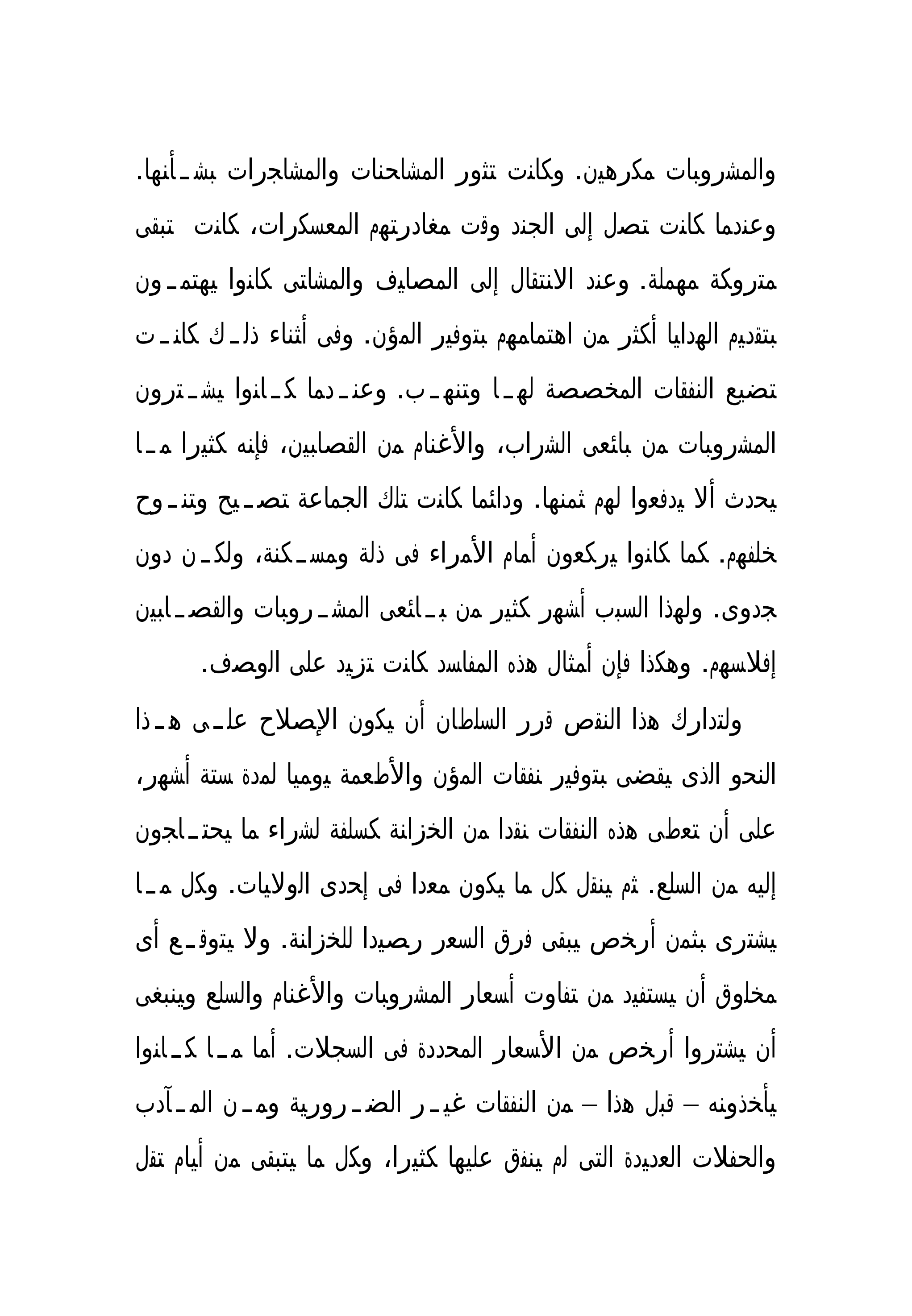
غير مضبوطة ومضطربة. وفى نية الحكـام والمتعهـدين ألا يعطـوا الديوان شيئًا قط وذلك على النحو الذى وضحنا فيه أسباب تلك المفاسد.

لكل هذا اختلت شئون الولايات اختلالاً كبيرا. ولم تكـن النفقـات اللازمة لتوفير الطعام تصل فى وقتها. وكان الرسل الـذين يـذهبون لتحصيل تلك النفقات يهملون أداء واجباتهم مقابل ما كانوا يأخذونه من هدايا على سبيل الرشوة. كذلك كانوا يعطون المتعاملين معهم فرصـا كثيرة لسداد ما عليهم، وأيضا كانت الحوالات تصدر مرة ثانيـة إلـى ولايات أخرى. وهكذا سار الرسل على نفس الطريقة. وفى كـل عـام كان يذهب العديد من الرسل لتحصيل نفقات الطعـام، وكانـت تزيـد نفقاتهم وعلاف دوابهم على أصل المال المخصص للغذاء. ومع هذا لـم يكن المال يصل أيضا رغم أن نفقات توفير الطعام قد حددت؛ بحيـث تكفى كل من يعمل لتحصيلها، بل كانت تكفى أشخاصا كثيرين آخرين. ولكن حيث إنها لم تكن تصل فى وقتها، وكان المتعهـدون يقترضـون المال بربح فاحش. وقد قوموا مائة منّ من الشراب بعشرة دنانير. وإذا كانوا يعملون بتدبير، فإن المتحصل يصير خمسة دنانير. وأحيانًا كانوا يشترون مائة منّ بعشرين أو أربعين دينارا.

ونتيجة لذلك فإن المال الكثير الذى كان يصل إليهم، والمبالغ التـى كانت تزيد على نفقات توفير الطعام، أصبحت غير كافية. إذن فكيـف تكون قيمة الحوالات التى كانت فى أيديهم، وتأخر سـدادها عـامين؟!

ومن جملة ذلك ما كان لا يزال باقيا على الأماكن المختلفة. وأما الخلل الأكبر حقًا، فإنه يتمثل عندما كان الكتاب يسألون عن النفقات الخاصـة بتوفير الطعام. عندئذ كان حكام الولايات يتدخلون بحجة أن أمر تدبير الطعام مسألة خطيرة، ويقولون: إننا نبـادر بحصـر تلـك الأمـوال، ويكلفون الرسل بمهمة أخرى. وهذه العملية أيضا لا تخرج إلى حيـز التنفيذ. وهكذا كانت تضيع النفقات الأخرى، فتعم الخسـارة. وبسـبب تعطيل الرسل وتأخيرهم كانت تضـيع سـدى المبـالغ المخصصـة للمصروفات. وإذا عزل الحاكم فى نهاية العام فإنه كان ينتحل عـذرا قائلاً: إن المال فى عهدة الولاية، أو أنه ضاع. وإذا لـم يعـزل فإنـه يتحجج بالحساب والتحقيق ومراقبة رؤساء الديوان بحجـة مشـاركتهم الرسل، وأخذهم الهدايا على سبيل الرشوة. وهكذا يمضى الوقت عبثًا.

ولا شك أن أثر تلك القضايا وسوء التدبير إنما كـان يرجـع إلـى تصرف المتعهدين الذين كانوا فى نزاع دائم مع موظفى الديوان. وكان كلاً الطرفين يتبادل التهم، **[ص٥٣٥]** ويلقى بالتبعة والذنب على عاتق الطرف الآخر، وظلت الوشايات والسعايات قائمة فيما بينهم. ولم يتفق مطلقًا أن تعد المؤن لمدة عشرة أيام متتالية ولو أنهـم رجعـوا إلـى السجلات واحتاطوا للأمر، لوجدوا أن الأموال الكثيرة قد ضاعت بهذه الطريقة بحيث إنه لا يمكن شرح ذلك. وكيف يمكن أيضا إدراك حـال المؤن التى تعد بهذه الطريقة؟! كذلك كانوا دائمـا ينقلـون الأطعمـة

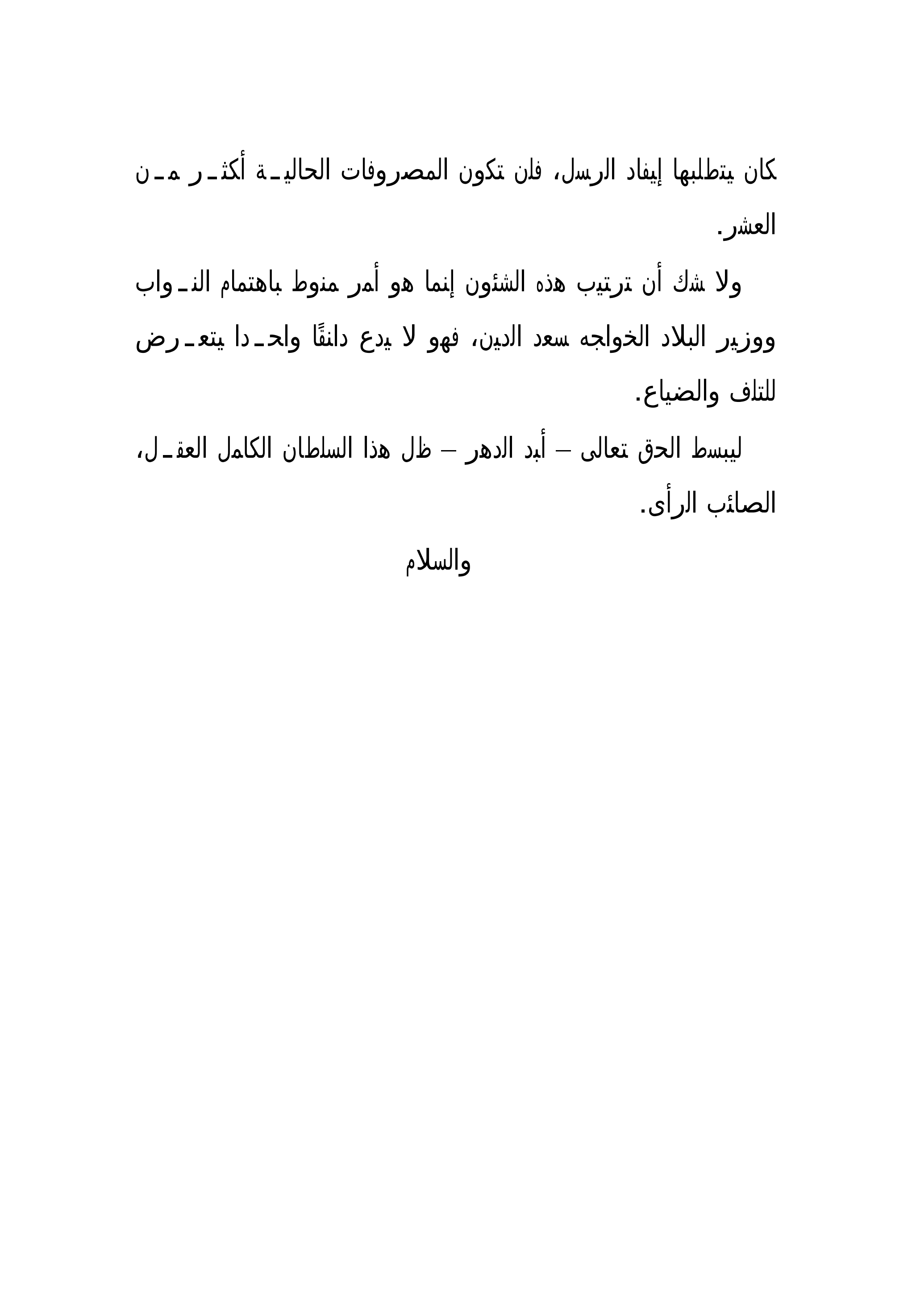


والمشروبات مكرهين. وكانت تثور المشاحنات والمشاجرات بشأنها. وعندما كانت تصل إلى الجند وقت مغادرتهم المعسكرات، كانت تبقى متروكة مهملة. وعند الانتقال إلى المصايف والمشاتى كانوا يهتمون بتقديم الهدايا أكثر من اهتمامهم بتوفير المؤن. وفى أثناء ذلك كانت تضيع النفقات المخصصة لها وتنهب. وعندما كانوا يشترون المشروبات من بائعى الشراب، والأغنام من القصابين، فإنه كثيرا ما يحدث ألا يدفعوا لهم ثمنها. ودائما كانت تلك الجماعة تصيح وتنوح خلفهم. كما كانوا يركعون أمام الأمراء فى ذلة ومسكنة، ولكن دون جدوى. ولهذا السبب أشهر كثير من بائعى المشروبات والقصابين إفلاسهم. وهكذا فإن أمثال هذه المفاسد كانت تزيد على الوصف.

ولتدارك هذا النقص قرر السلطان أن يكون الإصلاح على هذا النحو الذى يقضى بتوفير نفقات المؤن والأطعمة يوميا لمدة ستة أشهر، على أن تعطى هذه النفقات نقدا من الخزانة كسلفة لشراء ما يحتاجون إليه من السلع. ثم ينقل كل ما يكون معدا فى إحدى الولايات. وكل ما يشترى بثمن أرخص يبقى فرق السعر رصيدا للخزانة. ولا يتوقع أى مخلوق أن يستفيد من تفاوت أسعار المشروبات والأغنام والسلع وينبغى أن يشتروا أرخص من الأسعار المحددة فى السجلات. أما ما كانوا يأخذونه – قبل هذا – من النفقات غير الضرورية ومن المآدب والحفلات العديدة التى لم ينفق عليها كثيرا، وكل ما يتبقى من أيام تقل

فيها النفقات، فإن هذا كله يكون رصيدا للخزانة. ومن وفـورات ذلـك كله، تجمعت فى مدة عامين أموال كثيرة اشتروا منها خمسـمائة ناقـة وخمسمائة بغل، وأودعوها لدى الحمالين والسياس الرحماء حتى تكون دائما معدة لتلبية متطلبات المشروبات والأطعمة. وكل ما كانوا يدفعونه كل سنة لتأجير الدواب، ينفقون بعضا منه فى شراء العليـق ورعايـة الدواب، **[ص٥٣٦]** ويشترون بأقل من خمسة دنانير الشراب الذى يقدر بمائة من وكانوا يبتاعونه قبل ذلك بثلاثين أو أربعين دينارا.

والآن صارت المشروبات المؤن والأغنـام والحـوائج واللـوازم الأخرى معدة ومتوافرة. وإذا أرادوا الحصول على أضـعاف المقـرر فإنهم يجدونه بسهولة ودون صراع أو نزال. وقبل هـذا كـان سـعر الشراب الذى يشتريه المتعهدون من بائعى المشروبات مرتفعا جدّا. هذا على حين أنه الآن متوافر فى الأسواق وفى حالة كساد. كذلك لا يذهب أى رسول أو محصل إلى الولايات للمطالبة بنفقات المؤن. ولهذا السبب لا تلزم مصروفات ولا تتبدد أموال، بل يأتى النقد إلى الخزانة. كـذلك أصبحت الشئون المتعلقة بتوافر المؤن وتهيئة أسبابها وترتيبها ونقلهـا تتم بصورة منسقة ومضبوطة لم يسبق لها مثيل – دون شك – فى عهد أى سلطان من السلاطين. ومن المقطوع به أنه لا يصرف أكثـر مـن ربع ما كان يتبدد قبل هذا. ولو وضع فى الحسبان أيضا النفقات التـى



كان يتطلبها إيفاد الرسل، فلن تكون المصروفات الحالية أكثر من العشر.

ولا شك أن ترتيب هذه الشئون إنما هو أمر منوط باهتمام النواب ووزير البلاد الخواجه سعد الدين، فهو لا يدع دانقًا واحدا يتعرض للتلف والضياع.

ليبسط الحق تعالى – أبد الدهر – ظل هذا السلطان الكامل العقل، الصائب الرأى.

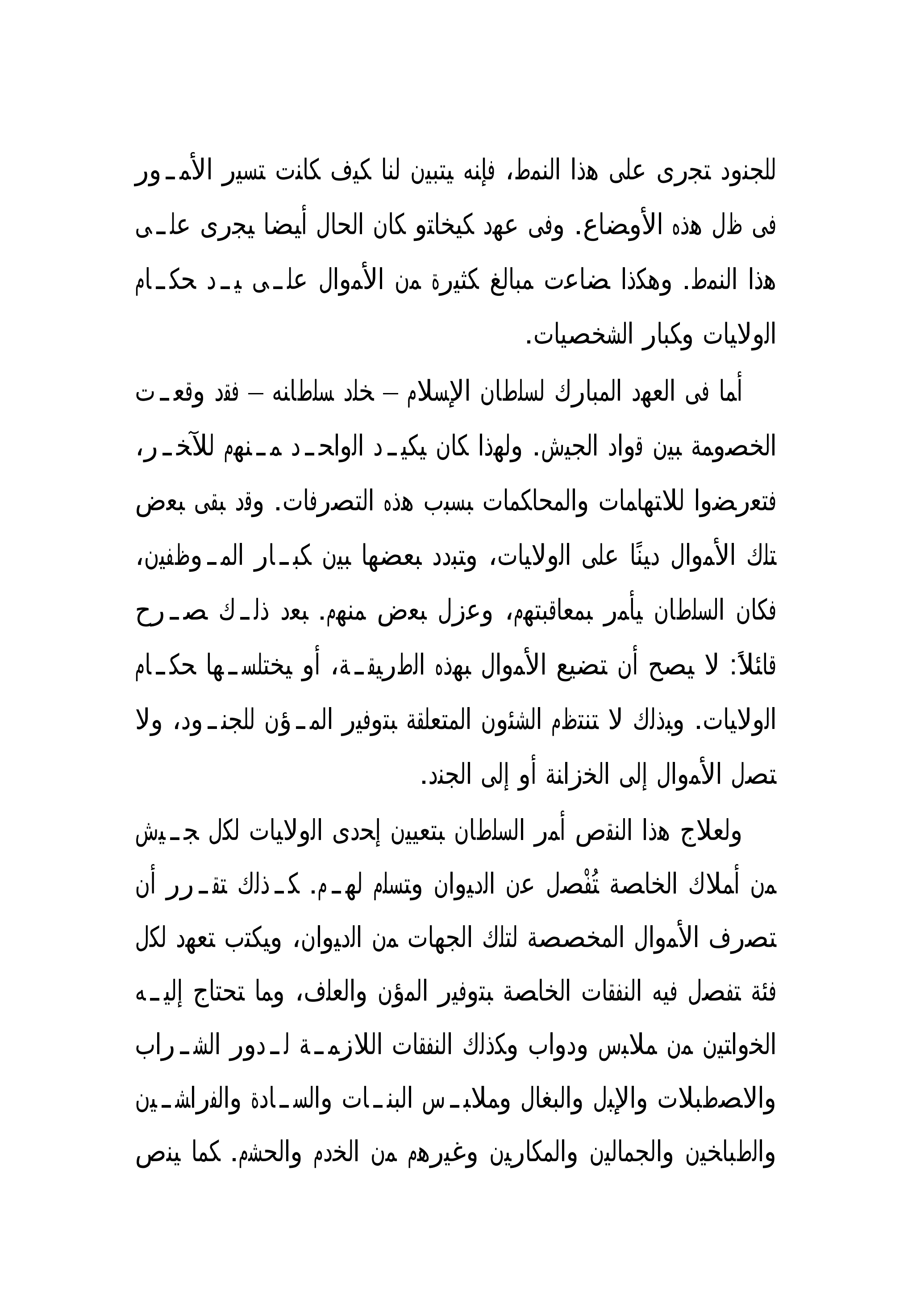
والسلام

الحكاية الحادية والثلاثون

فى إعداد نفقات المؤن للخواتين والجنود

فى عهد هولاكو خان كانت نفقات توفير المؤن للجنود والخـواتين تجرى على سنن المغول وعاداتهم، ولا يمكن زيادة هذه النفقات وتلـك المقررات. وعندما كانت تجلب الغنائم من حروبهم فى ولايات الأعداء يعطى الجنود شيئًا منها. وكان لكل واحدة من الخواتين عدد من التجار يقدمون لها شيئًا من المال كربح أو أن شخصا يهديها هديـة. وكانـت تمتلك عدة قطعان ولـها أيضا نتاجها ومنافعها. ومن هذه الأشياء كانت تتوافر للخواتين النفقات اللازمة لتوفير المؤن وما يحتجن إليه. وكـن قانعات بذلك.

وفى أواخر أيام آباقاخان ظهرت زيادة طفيفة فى المؤن. وبعد ذلك فى عهد أرغون خصص لكل معسكر مبلغ من المـال. وكانـت هـذه النفقات تحول على الولايات لتحصيلها. **[ص٥٣٧]** وعندما كان الرسل ورؤساؤهم يذهبون لتحصيل هذه المبالغ، لا يدفعها الحكام، متـذرعين ببعض الأعذار التى شرحناها فى عدة مواضع. وكانوا يشغلون أوقاتهم بأخذ العلف والالتزام بتنفيذ الوعود وتقديم الهدايا. وإذا حصـلوا علـى مبلغ ضئيل، كانوا يبددونه فيما بينهم. وحيث إن نفقات توفير الطعـام



للجنود تجرى على هذا النمط، فإنه يتبين لنا كيف كانت تسير الأمـور فى ظل هذه الأوضاع. وفى عهد كيخاتو كان الحال أيضا يجرى علـى هذا النمط. وهكذا ضاعت مبالغ كثيرة من الأموال علـى يـد حكـام الولايات وكبار الشخصيات.

أما فى العهد المبارك لسلطان الإسلام – خلد سلطانه – فقد وقعـت الخصومة بين قواد الجيش. ولهذا كان يكيـد الواحـد مـنهم للآخـر، فتعرضوا للاتهامات والمحاكمات بسبب هذه التصرفات. وقد بقى بعض تلك الأموال دينًا على الولايات، وتبدد بعضها بين كبـار المـوظفين، فكان السلطان يأمر بمعاقبتهم، وعزل بعض منهم. بعد ذلـك صـرح قائلاً: لا يصح أن تضيع الأموال بهذه الطريقـة، أو يختلسـها حكـام الولايات. وبذلك لا تنتظم الشئون المتعلقة بتوفير المـؤن للجنـود، ولا تصل الأموال إلى الخزانة أو إلى الجند.

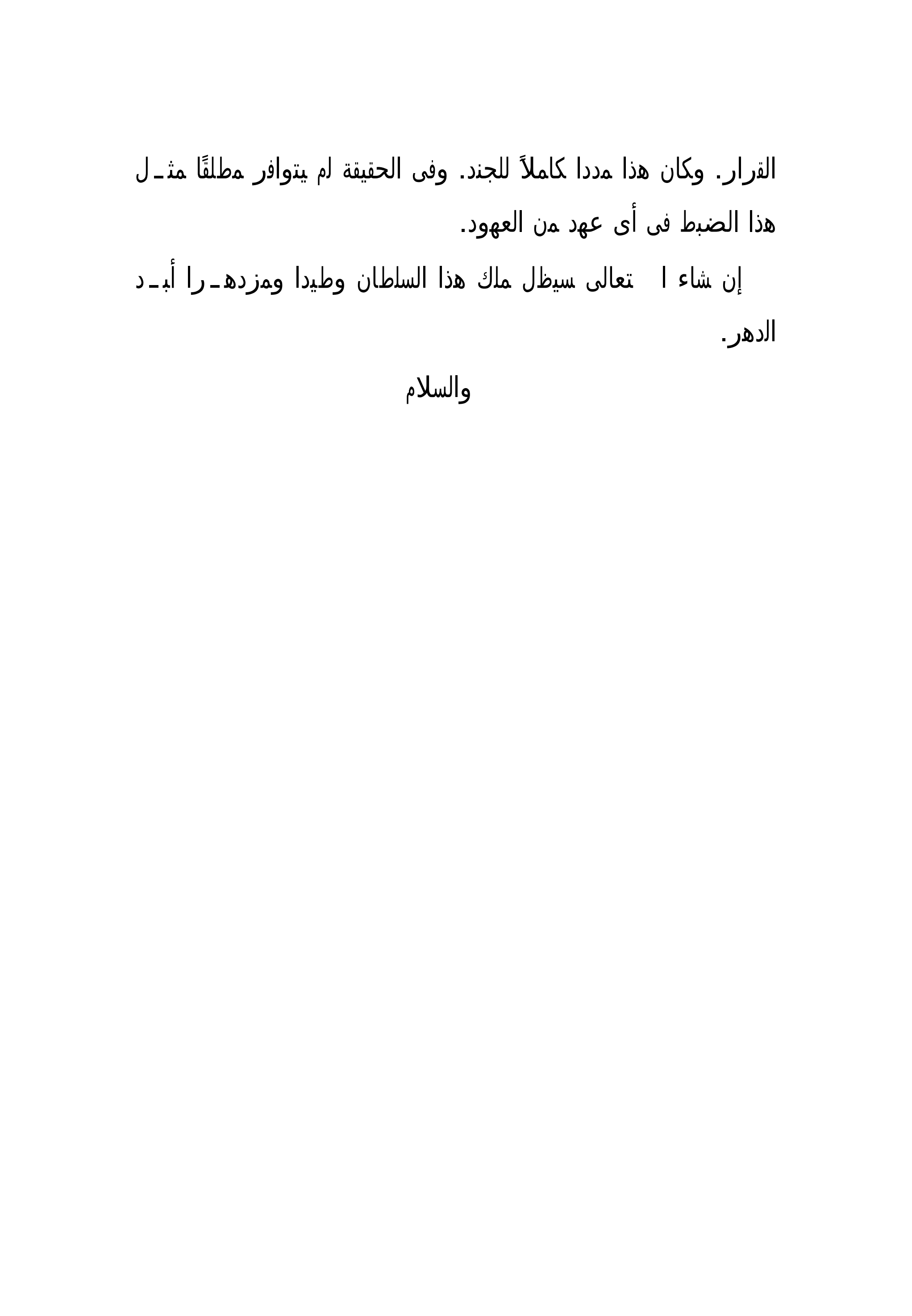
ولعلاج هذا النقص أمر السلطان بتعيين إحدى الولايات لكل جـيش من أملاك الخاصة تُفْصل عن الديوان وتسلم لهـم. كـذلك تقـرر أن تصرف الأموال المخصصة لتلك الجهات من الديوان، ويكتب تعهد لكل فئة تفصل فيه النفقات الخاصة بتوفير المؤن والعلف، وما تحتاج إليـه الخواتين من ملابس ودواب وكذلك النفقات اللازمـة لـدور الشـراب والاصطبلات والإبل والبغال وملابـس البنـات والسـادة والفراشـين والطباخين والجمالين والمكارين وغيرهم من الخدم والحشم. كما ينص

أيضا على ما ينبغى الحصول عليه من اللوازم الأخرى، وأن يحسبوها كلها ضمن مجموع النفقات حسب هذا الترتيب. ثم أمر بإيداع ما تبقى فى خزانة كل خاتون، وأن تضبط الحسابات تماما ثم تختم بختمى الأميرين المعينين على رأس كل جيش. وعلى الجميع ألا يخرجوا عن حكم مرسوم السلطان حتى يكون هناك دائما رصيد فى خزانة الخواتين يستفاد منه عند الضرورة. ثم أضاف السلطان قائلاً: إن أملاكى الخاصة تصير من بعدى ملكًا خاصا لأبناء الخواتين على أن توقف على أولادهن الذكور دون الإناث[1]. وإذا لم يكن لتلك الخاتون أولاد ذكور **[ص٥٣٨]** فإنها تكون من نصيب أبناء الخواتين الأخريات. والآن فإن كل تلك الولايات والأملاك فى يد نواب الخواتين وذلك بموجب تعهدات الديوان. وقد صارت كلها عامرة، وتدر أموالاً تزيد عما سبق.

أما النفقات الخاصة بتوفير المؤن للجنود وما تحتاج إليه المصالح فإنها صارت كلها معدة ومرتبة، وتصل فى وقتها. كذلك وضحت وتعينت الأموال المودعة بخزائن الخواتين. وفى هذا الوقت الذى كانت تدعو فيه الحاجة إلى زيادة النفقات لتصريف مصالح الجند، أمر السلطان بإعطائهم مبلغ ألف ألف دينار، وحوله إليهم بموجب هذا

---

(١) هذا الإجراء مخالف للشريعة الإسلامية التى لا تحرم الإناث من أن يرثن أيضًا آباءهن، قال تعالى: ﴿يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين﴾. (سورة النساء، آية ١١).



القرار. وكان هذا مددا كاملاً للجند. وفى الحقيقة لم يتوافر مطلقًا مثـل هذا الضبط فى أى عهد من العهود.

إن شاء ا تعالى سيظل ملك هذا السلطان وطيدا ومزدهـرا أبـد الدهر.

والسلام

الحكاية الثانية والثلاثون

فى ضبط شئون الخزانة وترتيب مهماتها ومصالحها

قبل هذا لم يكن معتادا تدوين حسابات الخزائن الخاصة بسـلاطين المغول، أو يكون لها دخل وخرج ثابتان. ولقد نصبوا عددا من الخزنة كى يأخذوا منهم كل ما يحصلون عليه مـن أمـوال، ثـم يودعونهـا متضامنين، ويدفعون كل ما يلزم من نفقات بمعرفتهم جميعا. وعنـدما ينفد الرصيد يقولون: إنه نفد. وكان الفراشون يحرسون تلك الخـزائن، ويحملونها ثم يلقونها بعنف. وقد بلغت الأمور من عدم الدقـة وسـوء النظام درجة كبيرة إلى حد أنه لم تكن هناك خيمة توضع فيهـا هـذه الخزائن، بل كانت تكدس فى الصحراء، ويكتفى بتغطيتها بلباد. وهكذا يمكن القياس على سائر الأحوال. ومن جملة العادات المتبعة عندهم أنه عندما كان يذهب جماعة الأمراء ومعهم أصدقاء الخزنة ويطلبون منهم الهدايا، كانوا يعطون كل واحد منهم شيئًا على قدر مرتبتـه. كمـا أن الطهاة والسقاة والخدم وسياس الخيل، كان كل منهم يحمل إلى الخزنـة كمية من المأكول والمشروب وغير ذلك **[ص٥٣٩]**، ثم يطلبون شيئًا، فكان الخزنة يتشاورون فيما بينهم، ويلبون طلبـاتهم. ولأن الفراشـين كانوا حراسا للخزنة صار المسئولون يقبلون ملتمساتهم، ويعطون كـل

واحد منهم نقودا. كذلك كان الخزنة يتبادلون الهدايا، ثم يتشاورون فيما بينهم، وأخيرا يتفقون على أن يحمل كل منهم شيئًا إلى منزله. وبهـذه الطريقة كان يضيع من تلك الخزائن كل سنة ثمانية أعشار ما تحتويه، ويصل فقط العشران الباقيان من النقود إلى الجهـة المطلوبـة، فكـان السلطان يأمر بإنفاقها. ولأن حكام الولايات قد فهموا هذه الأمور جيدا، كانوا إذا سلموا أموالاً لإيداعها فى الخزانة، فإنهم يأخذون بدل الشـىء الواحد شيئين. وعندما يحضرون مالاً أقـل إلـى الخزانـة فـإن مـا يحضرونه يجرى ضبطه على هذا النمط. ومن هنا يتضـح الموقـف فنتساءل كيف يستطيع السلطان أن ينفق عندما تـدعو الحاجـة إلـى الإنفاق؟! وهكذا كان الحال يجرى على هذا المنوال دائما.

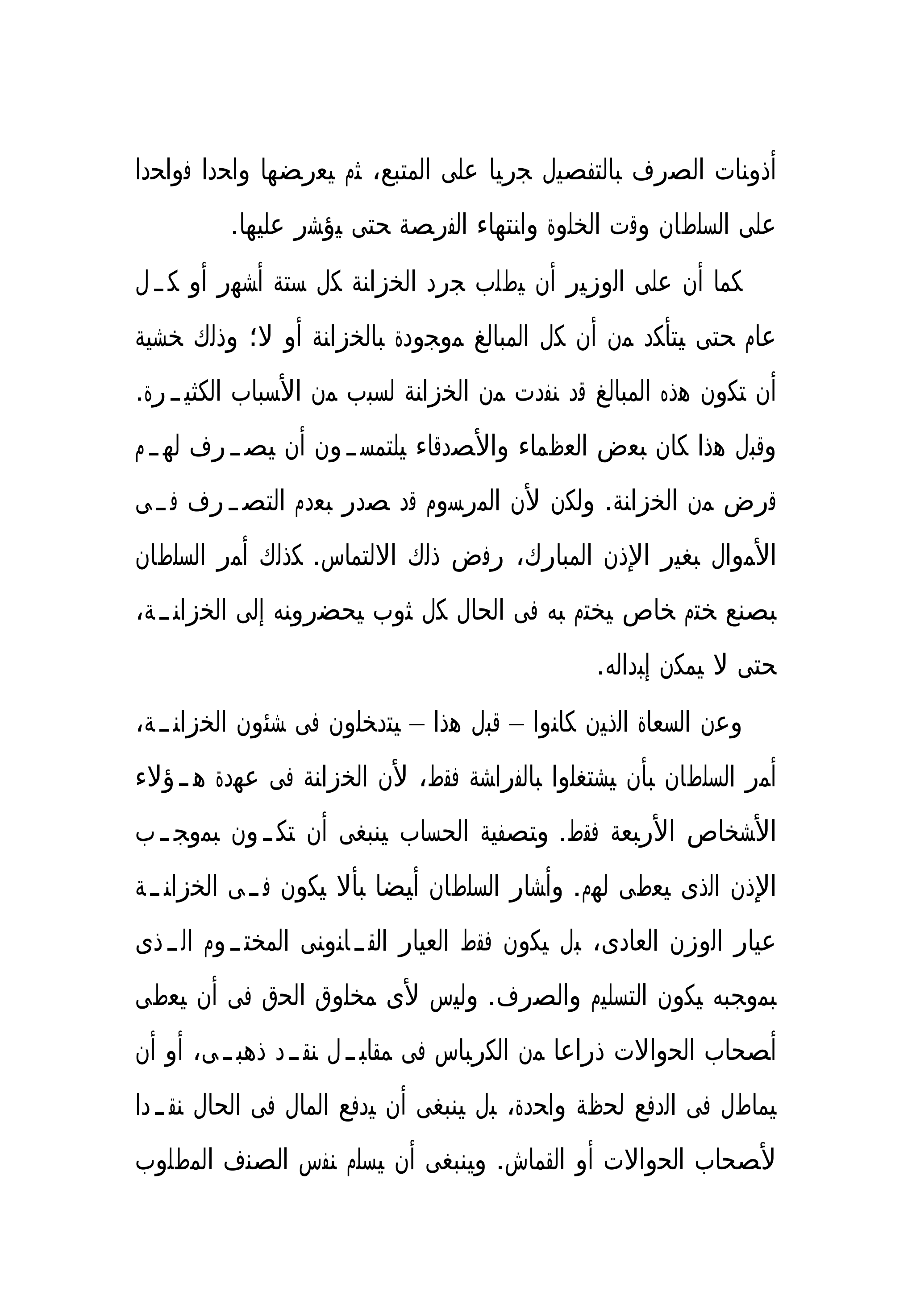
وحيث إن حراس الطرق أمروا بالاحتياط، وباعتقـال أى شـخص يخرج ثوبا أو شيئًا آخر من الخزانة، صاروا يعتقلون واحدا كل بضـع سنين، وذلك أيضا لغرض خاص فى أنفسهم فكانوا ينتهزون الفرصـة كى يوقعوه فى الذنب، ويقدموه إلى المحكمة. وهذا لم يحدث فـى كـل العهود أكثر من مرتين أو ثلاث مرات. ولهذا السبب يسـتولون علـى المرصعات والذهب الأحمر. وإن شرح تلك الأحوال يتجاوز حد البيان.

أما الآن فلضبط هذه الأوضاع وتصحيحها، قرر السلطان أن تكون الخزائن مستقلة فى إدارتها، وأن يضع بيده المباركة كل ما يوجد مـن

المرصعات فى صندوق، بحيث إنه لو يحدث أى تصرف فيها، يعلمـه فى الحال. كما قرر أن يثبت فى السجل كل صغيرة وكبيرة بقلم الوزير بالنقير والقطمير. ثم أغلق هذا الصندوق بالقفل وختمه بختمه، وعـين شخصا من الخزنة ومعه أحد الخدم مـن الخصـيان ليحافظـا علـى الصندوق، ويكون فى عهدتهما. وباستثناء هذين الاثنين لا علاقـة لأى مخلوق آخر بهذا الصندوق.

أما كل ما يكون من الذهب الأحمر والثياب الخاصة التى تصنع فى المصانع، أو الأشياء التى يحضرونها من الولايات البعيـدة كـالتحف والهدايا فإن الوزير يسجلها بالتفصيل جريا على القاعدة المتبعة، وتبقى كذلك فى عهدة هذين الشخصين المذكورين، وقطعا لا يتصرفان فى أى منها قط ما لم يصرح بذلك سلطان الإسلام تصريحا مطلقًا.**[ص٥٤٠]**.

وأما كل ما يكون نقدا فضيا، وكذلك أنواع الثياب التى توزع دائمـا فقد نصب السلطان خازنًا وخادما خصيا آخرين لتكون هذه الأشياء فى عهدتهما، على أن يتولى الوزير إحصاءها ثم يثبتها فى السجل. كـذلك أمر السلطان بأن يكتب الوزير إذنًا بما يتقرر صرفه، ويعرضه حتـى يؤشر عليه بقلمه المبارك. ثم يثبت ذلك نائب الوزير فى السجل. ومـا لم تكن التأشيرة مثبتة على أذونات الصرف، لا يصرف شىء قط لأى مخلوق. وتسمى الخزانة الأولى "نارين" والثانية "بيدون". وحتى لا يلزم التأشير على الأذونات فى كل لحظة تقرر أن يكتب الوزير كل شـهر



أذونات الصرف بالتفصيل جريا على المتبع، ثم يعرضها واحدا فواحدا على السلطان وقت الخلوة وانتهاء الفرصة حتى يؤشر عليها.

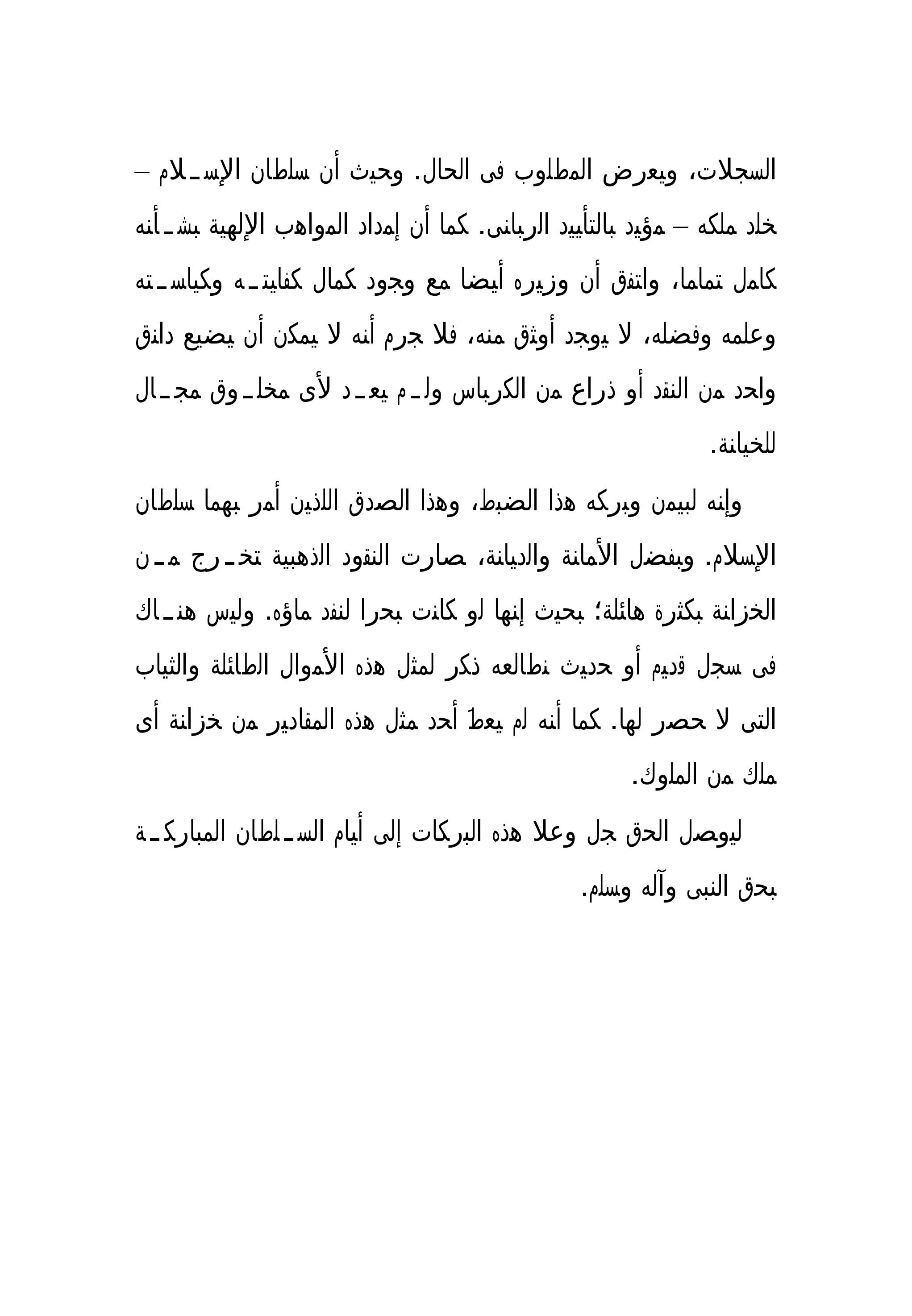
كما أن على الوزير أن يطلب جرد الخزانة كل ستة أشهر أو كـل عام حتى يتأكد من أن كل المبالغ موجودة بالخزانة أو لا؛ وذلك خشية أن تكون هذه المبالغ قد نفدت من الخزانة لسبب من الأسباب الكثيـرة. وقبل هذا كان بعض العظماء والأصدقاء يلتمسـون أن يصـرف لهـم قرض من الخزانة. ولكن لأن المرسوم قد صدر بعدم التصـرف فـى الأموال بغير الإذن المبارك، رفض ذلك الالتماس. كذلك أمر السلطان بصنع ختم خاص يختم به فى الحال كل ثوب يحضرونه إلى الخزانـة، حتى لا يمكن إبداله.

وعن السعاة الذين كانوا – قبل هذا – يتدخلون فى شئون الخزانـة، أمر السلطان بأن يشتغلوا بالفراشة فقط، لأن الخزانة فى عهدة هـؤلاء الأشخاص الأربعة فقط. وتصفية الحساب ينبغى أن تكـون بموجـب الإذن الذى يعطى لهم. وأشار السلطان أيضا بألا يكون فـى الخزانـة عيار الوزن العادى، بل يكون فقط العيار القـانونى المختـوم الـذى بموجبه يكون التسليم والصرف. وليس لأى مخلوق الحق فى أن يعطى أصحاب الحوالات ذراعا من الكرباس فى مقابـل نقـد ذهبـى، أو أن يماطل فى الدفع لحظة واحدة، بل ينبغى أن يدفع المال فى الحال نقـدا لأصحاب الحوالات أو القماش. وينبغى أن يسلم نفس الصنف المطلوب

المدموغ بدمغة الخزانة، ولا يتوقع القائمون عليها أن ينالوا شـيئًا مـن أحد فى سبيل تسهيل مهمته.**[ص٥٤١]** وقد تقرر تحصـيل دينـارين كرسم للخزانة عن كل مائة دينار من النقود التـى يحضـرونها مـن الولايات ولا يأخذون زيادة قط عن المطلوب.

كذلك أمر بتخصيص خزانة أخرى، نصب عليها أحـد الخصـيان، وعليه أن يأخذ دينارا عن عشرة دنانير من النقود التى يحضرونها إلى الخزانة وأن يسلموه ثوبا واحدا على حدة عن كل عشرة أثواب ليضعه فى الخزانة أيضا. كذلك أمر السلطان بإحضار أموال الصدقات المحولة إلى الخزانة كى يسلمها بيده المباركة للمستحقين. وقد تم ضـبط ذلـك بنفس الترتيب الذى سبق شرحه. وهذا النظام يطبق أيضا وبنفس النسق المذكور على الخزانة المخصصة لمستودع الأسـلحة. ولا يمكـن أن تحفظ بهذه الصورة وتلك الدقة أموال أى حاكم أو صـراف أو تـاجر كبير ممن هم مشهورون بالمحافظة على المال، فكيف بخزائن الملوك؟! وقطعا لا يمكن أن نتصور الخيانة ولو بدانق واحد من النقد.

وعندما يتوجه السلطان إلى المصيف أو إلى المشتى يراجع الخزانة بنفسه عدة أيام قبل تحركه، ويستثنى كل ما يريد نقله منها. ثم تسـجل بالتفصيل الأثقال والأحمال بخط الوزير ويتركها فى تبريز فى صناديق مغلقة ومختومة. وعندما يريد السلطان أن يعرف أحوال الخزانة مـن حيث الكم والكيف والدخل والخرج، يسأل الوزير، فيرجع بدوره إلـى



السجلات، ويعرض المطلوب فى الحال. وحيث أن سلطان الإسـلام – خلد ملكه – مؤيد بالتأييد الربانى. كما أن إمداد المواهب الإلهية بشـأنه كامل تماما، واتفق أن وزيره أيضا مع وجود كمال كفايتـه وكياسـته وعلمه وفضله، لا يوجد أوثق منه، فلا جرم أنه لا يمكن أن يضيع دانق واحد من النقد أو ذراع من الكرباس ولـم يعـد لأى مخلـوق مجـال للخيانة.

وإنه لبيمن وبركه هذا الضبط، وهذا الصدق اللذين أمر بهما سلطان الإسلام. وبفضل الأمانة والديانة، صارت النقود الذهبية تخـرج مـن الخزانة بكثرة هائلة؛ بحيث إنها لو كانت بحرا لنفد ماؤه. وليس هنـاك فى سجل قديم أو حديث نطالعه ذكر لمثل هذه الأموال الطائلة والثياب التى لا حصر لها. كما أنه لم يعطَ أحد مثل هذه المقادير من خزانة أى ملك من الملوك.

ليوصل الحق جل وعلا هذه البركات إلى أيام السـلطان المباركـة بحق النبى وآله وسلم.

[ص ٥٤٢]

الحكاية الثالثة والثلاثون

فى ترتيب شئون المؤسسات ودور السلاح

قبل هذا كان يعين فى كل مدينة وولاية صناع كثيرون مـن قبيـل القواسين وشاحذى السهام وصناع الجعبات والسيوف وغيرهم. كما كان للمغول مثل هؤلاء الصناع. وكان كل واحد منهم يصنع آلة أو آلتـين. وكانوا يتقاضون أجورهم ومرتباتهم. كما كانوا يتعهدون بتقديم كميـة كبيرة من الأسلحة. وكانوا يأخذون ثمنها من الحوالات المكتوبة علـى الولايات. وفى بعض المدن، كانت هناك مصانع يعمل فيهـا صـناع مهرة. وقد خصصت مبالغ من الأموال لهذا الغرض. وكان على رأس هؤلاء نواب أمراء حاملى السلاح. ومن كل الأموال التى تنفـق، لـم يستطيعوا أن يحصلوا منها على واحد من عشرين وذلـك بسـبب أن بعض هذه الأموال يتم صرفها بواسطة الحوالات. ومع أن مائـة مـن أتباع الرسل يذهبون إلى الولايات لتحصيلها، كان يضـيع أيضـا مـا يساويها أو ما يزيد عليها ثمنًا للعلاف وسد نفقات هؤلاء الأتباع ونفقات دوابهم. وبواسطة الحيل التى ذكرناها كان يبقى بعض تلـك الأمـوال يتصرف فيها حكام الولايات، وبعضها يتبدد نتيجة أطماع وتصـرفات النواب وكتاب المؤسسات، وبعضها يضيع هدرا بسبب كثرة الأمـراء

المشرفين على هؤلاء وهؤلاء. وبناء على هذا كان كل واحد يتصرف حسب هواه.

ولما كان الصناع يرون الأمور تجرى على هذا المنوال، تقاعسـوا وصاروا لا يؤدون أعمالهم أداء كاملاً على نحو ما يمليه عليهم الحـق والواجب، وصارت أوقاتهم مستغرقة فى النزاع والخصومة فيما بينهم. وكان ينبغى أن تصرف فى السـعى والعمـل. كـذلك دبـت بيـنهم المشاحنات، وكثرت الوشايات. وقد وصلت منازعـاتهم إلـى حـد أن الأمراء - بشؤم هذه التصرفات – اختلفوا فيما بينهم، وانقسموا علـى أنفسهم وتخاصموا. وكانت التحقيقات تجرى دائما مع الصناع، ويحتدم الصراع والجدل؛ فترتب على ذلك ظهور العيوب والمفاسد فى شـئون الملك. وعندما كانوا يذهبون لمراجعة الحسابات، لم يكن هناك شـىء قط. فلا مفر إذن من أن يبقى عجز فى السجلات يقـدر بثلاثمائـة أو أربعمائة ألف دينار كل سنة، ولا يظهر ما يدل على إنفاق دانق واحـد منها.

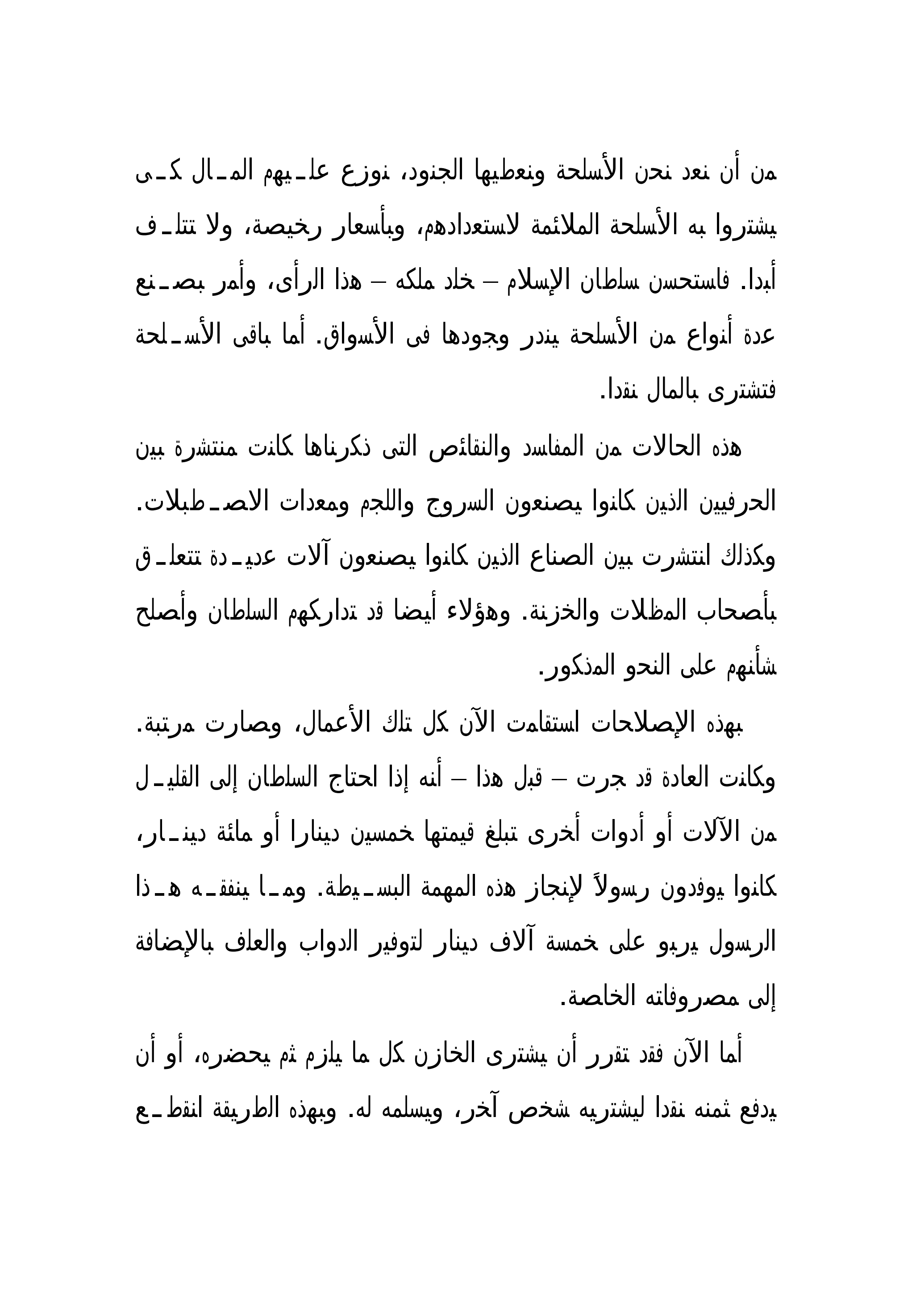
وعاقبة الأمر أن النواب وكتاب المؤسسات كانوا يقتلون. وعلى أثر ذلك خربت ديارهم. ثم أعقب ذلك القضاء على أسرهم. **[ص٥٤٣]** وقد آل أمر المباشرين تلك الأعمال إلـى أن صـاروا مفلسـين وأشـرارا وساءت سمعتهم؛ فتدارك ذلك كله سلطان الإسلام – خلد ملكه – وقرر على هذا الأساس أن ينضم أهل كل حرفة من الحرف فى كل مدينة إلى

بعضهم البعض، وأمر بألا يعطوا شيئًا من العلف والملابـس. وقـرر كذلك إعداد كميات خاصة من كل نوع من الأسـلحة وتقـدير ثمنهـا، وقال: رغم أنهم عمالنا وأسرى لنا ويبيعون ما يصنعونه فى الأسـواق بأثمان يتقاضونها مثلما يبيع الآخرون إنتاجهم فإنهم يحاسبون على مـا يصنعون، وذلك على نفقة الديوان. وكذلك نصب على رأس كل طائفة شخصا أمينًا وموثوقًا به ليشرف علـيهم ويكـون ضـامنًا إخلاصـهم وأمانتهم. وهؤلاء يأخذون أجورهم سنة بسنة، ويسلمون الأسلحة حسب المقرر المفصل، ويتسلمون بها إيصالاً. وقد حـدد السـلطان إحـدى الولايات لتتولى سداد نفقات كل تلك الأسلحة حتى لا تدعو الحاجة إلى إيفاد الرسل إلى كل الولايات لتحصيل هذه الأموال.

بهذه الطريقة تقرر أن تعد الأسلحة الكاملة لعشرة آلاف رجل كـل سنة. هذا على حين أنه قبل هذا لم يكن يرى أحد مطلقًا حتى ألفين من الرجال المسلحين. كذلك عين السلطان لحرسه الخاص خمسين رجـلاً اختارهم من خواص خواصه. وبالإضافة إلى ذلك أعد عدة آلاف قطعة من الأقواس والأسهم والدروع على نفقة الخزانة لتستعمل عند الحاجة. وعندما عقدت مقارنة بين الماضى والحاضر، تبين أن ما كان ينفق قبل هذا على بند العلف وأجور الحرفيين لا يزيد على نصف ما يـدفع الآن ثمنًا للسلاح. كما أنه لهذا السبب قد استغنى نهائيا عن النفقـات التـى كانت تتحملها الولايات. ولكن قبل هذا وفى أوقات أخرى، لم يكن يوجد

سلاح قط من هذه الأسلحة التى يتوافر وجودها. وبحسن التـدبير هـذا تجهز المعدات كل سنة وفق النظام المذكور، وتسلم بموجب إيصـال. وبهذا انتهى الصراع وزالت الخصومات، وقضـى علـى محاكمـات الحرفيين والكتاب الذين كانوا يعدمون لهذا السبب. وهم الآن محترمون وموقرون، ويعيشون فى راحة وطمأنينة. أما الأمراء الـذين كـانوا - بشؤم هؤلاء – ينازع بعضهم بعضا؛ فإنهم الآن جميعـا متضـامنون متآلفون وأحباب أصفياء.

وحيث إنه خلال هذه السنوات جرت الأمور على هذا النحو المقرر فكانت مرتبة جيدة، عرض أمراء السـلاح علـى السـلطان قـائلين: **[ص٥٤٤]** "إن أكثر الآلات التى يصنعها الحرفيـون موجـودة فـى الأسواق، ويمكن أن نشترى منها بصورة أنسب وأفضل. وقبل هذا لـم يكن الصناع يعرفون رسم وترتيب الآلات المغوليـة. أمـا الآن فقـد عرفوها فى الأسواق. بعد أن كانوا مشغولين بالمفاسـد والصـراعات والخصومات طوال اليوم، وكانوا يستولون على الأموال والمـؤن، ولا يؤدون عملاً يذكر. وأخيرا رأوا من الضرورى أن يشـتغلوا بحـرفهم عندما وجدوا أنفسهم معزولين. وهم الآن فى الأسواق يصنعون الآلات والأسلحة على نفقتهم، ثم يبيعونها. ولهذا السبب فإن أنواع هذه الأسلحة موجودة فى الأسواق على نحو أحسن وأفضل مما نصنعه نحـن الآن. وما أحسن من أن تدفع أموال التعامل نقدا. وبناء على هذا نرى أنه بدلاً



من أن نعد نحن الأسلحة ونعطيها الجنود، نوزع عليهم المال كى يشتروا به الأسلحة الملائمة لاستعدادهم، وبأسعار رخيصة، ولا تتلف أبدا. فاستحسن سلطان الإسلام – خلد ملكه – هذا الرأى، وأمر بصنع عدة أنواع من الأسلحة يندر وجودها فى الأسواق. أما باقى الأسلحة فتشترى بالمال نقدا.

هذه الحالات من المفاسد والنقائص التى ذكرناها كانت منتشرة بين الحرفيين الذين كانوا يصنعون السروج واللجم ومعدات الاصطبلات. وكذلك انتشرت بين الصناع الذين كانوا يصنعون آلات عديدة تتعلق بأصحاب المظلات والخزنة. وهؤلاء أيضا قد تداركهم السلطان وأصلح شأنهم على النحو المذكور.

بهذه الإصلاحات استقامت الآن كل تلك الأعمال، وصارت مرتبة. وكانت العادة قد جرت – قبل هذا – أنه إذا احتاج السلطان إلى القليل من الآلات أو أدوات أخرى تبلغ قيمتها خمسين دينارا أو مائة دينار، كانوا يوفدون رسولاً لإنجاز هذه المهمة البسيطة. وما ينفقه هذا الرسول يربو على خمسة آلاف دينار لتوفير الدواب والعلف بالإضافة إلى مصروفاته الخاصة.

أما الآن فقد تقرر أن يشترى الخازن كل ما يلزم ثم يحضره، أو أن يدفع ثمنه نقدا ليشتريه شخص آخر، ويسلمه له. وبهذه الطريقة انقطع

مجيء خمسمائة من أتباع الرسل والمحصلين كل سنة من الولايـات، وبدلاً من خمسمائة ألف دينار **[ص٥٤٥]** كانت تنفق مع مائة ألف من المشقات والاضطرابات والتخريب. والأمر الذى لا شك فيه أن ما يلزم لا يتكلف ما يزيد على خمسة آلاف دينار لإنجاز تلك المصالح.

بذلك زالت نهائيا تلك العـادات والرسـوم، واسـتمرت القـوانين المستحسنة. وإن فوائد هذه الإصلاحات لتبدو فى أن هذه الطريقة سوف تنتهج من بعد، وتستمر سنوات عديدة. إن شاء ا العزيز.

الحكاية الرابعة والثلاثون

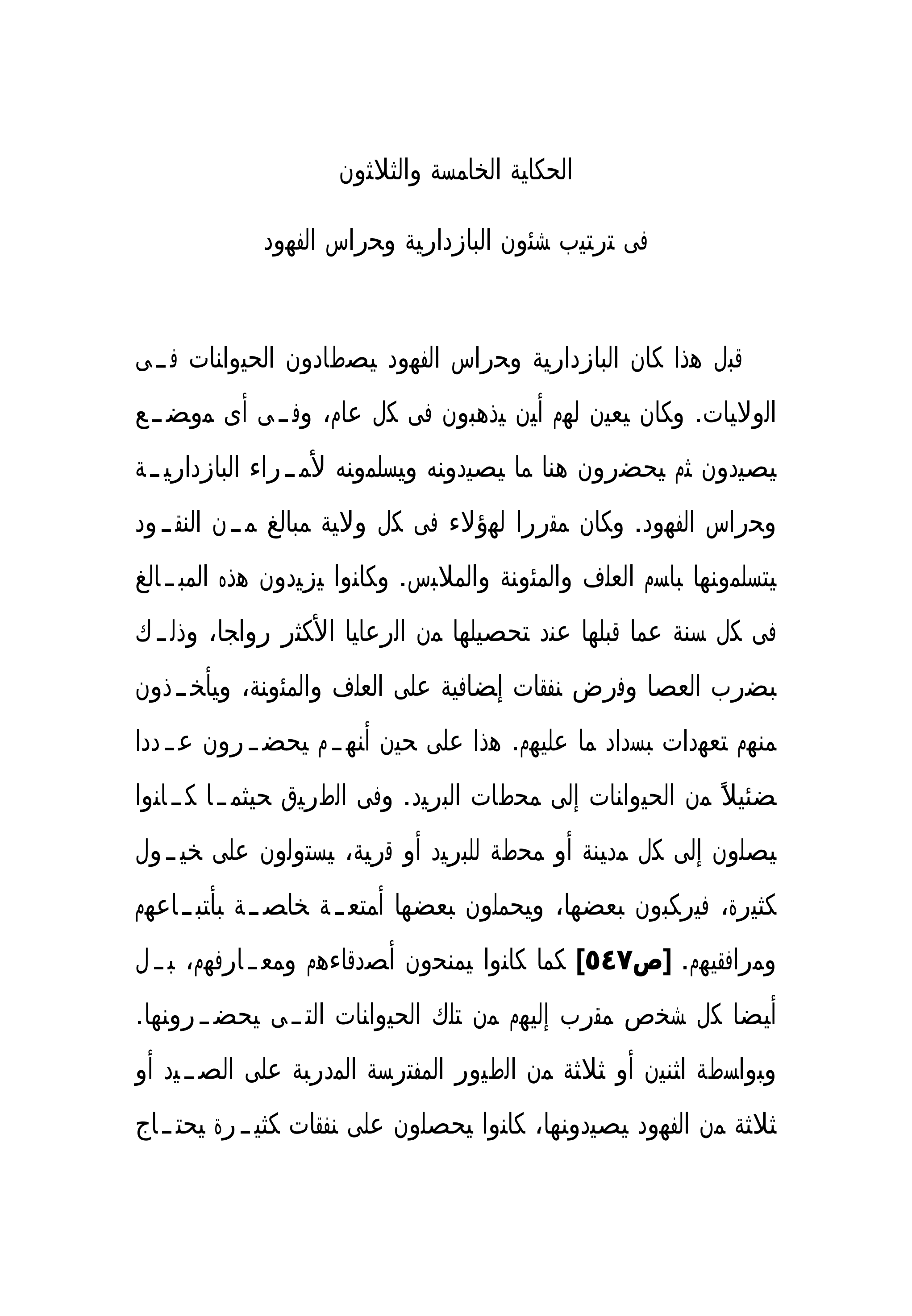
فى ترتيب شئون دواب الخاقان

قبل هذا كانت إبل الخاقان وأغنامه فى البلاد تحت إشراف العمـال ولم يكن لها حساب وضبط. وكان ينبغى أن يحافظوا على كل ما سـلم لهم بفضل ما توافر من أماكن جيدة وكثرة الحراس والرعاة المتفرغين لهذه المهمة. فكان من المتوقع أن تتكاثر، فيصبح كل منها أكثـر مـن مائة. ولكن عندما تفحصوا الأمر وتحروا الحقيقة لم يجدوا واحدا مـن بينها، فانتحل المسئولون الأعذار مدعين أنها نفقت وهلكت بسبب البرد. فأمر سلطان الإسلام – خلد ملكه – بأن ينظروا فيما إذا كـان يوجـد لديهم عدد من إبل وأغنام الخاصة أم لا؟! فلما تفحصوا الأمـر أفـادوا بأن لديهم الكثير منها. فرد عليهم السلطان قـائلاً: إن دواب الخاقـان كانت أضعاف دوابهم، فكيف هلكت كلها. هذا على حين أن دوابهم لـم تهلك بفعل البرد وطاعون الماشية؟! وبهذا تحقق أنهم يكذبون، وأنهـم سرقوها كلها ثم باعوها.

وبناء على هذا صدر المرسوم بإحصاء الدواب، ولكن لم يتيسر ذلك وترك العمال عملهم. ثم إنه بعد تلك التجربة أمر بـأن تسـلم الإبـل والأغنام لأشخاص ثقات يعتمد عليهم. وحيث إنه تتوافر أمـاكن جيـدة وعمال هم عبيد لنا ومتفرغون لهذه المهمة، أى عذر يمكن أن ينتحلوه

بعد ذلك؟! وعلى هؤلاء المشرفين أن يتعهدوا مع العمال بتنفيذ الأصول لهذه المهمة، وإعطاء نتاج تلك الحيوانات عدة مرات كل سـنة وذلـك على النحو الذى يحقق المنفعة بعد أن كانت ضـائعة.**[ص٥٤٦]** والآن يكون للعمال الفائدة والوفر فى الأموال. كما أن الأشخاص الذين لـيس لهم مواطن خاصة، ولم يكونوا فى زمرة العبيد يفضلون على الآخرين، وتلبى طلباتهم بشروط أخف من غيرهم حتـى لا يسـتطيعوا انتحـال الأعذار. وعلى هذا النحو يتقرر إقناعهم. وسنة بعد سنة يزداد نتاج هذه الدواب ويكثر توالدها. هذا وقد عين السـلطان الإبـل التـى يمكـن استخدامها – على حدة – لنقل الأحمال. كما خصص مجموعات أخرى لنقل الخزائن والملابس وما تحتاج إليه المعسكرات، وعهد بالإشـراف على ذلك إلى أشخاص ثقات. وكذلك الأمر فيما يتعلق بنقل محتويـات أماكن الشراب ولوازم المنازل. وقد بلغ ضبط هذه الأعمال وترتيبهـا بحمد ا تعالى ومنه درجة لم يسبق لها مثيل فى عهد أى سلطان مـن سلاطين المغول والمسلمين من حيث التنظيم والتنسيق. ولم يتوافر هذا المقدار من الإبل لنقل البضائع وتفريغها. وكثير من الإبل ترعى فـى مراعيها دون الحاجة إليها فى حمل الأحمال. وهى دائما فـى ازديـاد يوما بعد يوم. كما أن تزويدها بالمعدات والآلات أصبح أمرا فى غايـة الحسن والجودة.

إن شاء ا يكون تقديم العون إلى هذه الدولة دائما متواصلاً.



الحكاية الخامسة والثلاثون

فى ترتيب شئون البازدارية وحراس الفهود

قبل هذا كان البازدارية وحراس الفهود يصطادون الحيوانات فـى الولايات. وكان يعين لهم أين يذهبون فى كل عام، وفـى أى موضـع يصيدون ثم يحضرون هنا ما يصيدونه ويسلمونه لأمـراء البازداريـة وحراس الفهود. وكان مقررا لهؤلاء فى كل ولاية مبالغ مـن النقـود يتسلمونها باسم العلف والمئونة والملابس. وكانوا يزيدون هذه المبـالغ فى كل سنة عما قبلها عند تحصيلها من الرعايا الأكثر رواجا، وذلـك بضرب العصا وفرض نفقات إضافية على العلف والمئونة، ويأخـذون منهم تعهدات بسداد ما عليهم. هذا على حين أنهـم يحضـرون عـددا ضئيلاً من الحيوانات إلى محطات البريد. وفى الطريق حيثمـا كـانوا يصلون إلى كل مدينة أو محطة للبريد أو قرية، يستولون على خيـول كثيرة، فيركبون بعضها، ويحملون بعضها أمتعـة خاصـة بأتبـاعهم ومرافقيهم. **[ص٥٤٧]** كما كانوا يمنحون أصدقاءهم ومعـارفهم، بـل أيضا كل شخص مقرب إليهم من تلك الحيوانات التـى يحضـرونها. وبواسطة اثنين أو ثلاثة من الطيور المفترسة المدربة على الصـيد أو ثلاثة من الفهود يصيدونها، كانوا يحصلون على نفقات كثيـرة يحتـاج

الناس إليها فى الولاية. ثم يبددونها فى الطريق متذرعين بحجة الإنفاق على غذاء خيول البريد وتلك الحيوانات، ولا نهاية لما كانوا يستولون عليه لأنفسهم زورا وبهتانًا من القرى وطرق عبور المارة والمسافرين. وكانوا يأخذون الأموال حسب إحصائهم هم للحيوانات. ولم يكن يحدد نوعها وعددها وما تقرر صيده منها. وعلى هذا لم يكونوا يحضرون كثيرا من الحيوانات والفهود. كذلك لم يحصوا عدد ما يملكون من حيوانات. وإذا ما اصطاد شخص ضال حيوانًا فى صحراء بإحدى الولايات أو أنه اشتراه، وأراد بهذه الذريعة أن يحصل على مرسوم يثبت أنه يمتلك حيوانًا، أو يدعى أنه شخصية متميزة فإنه بهذه الطريقة يجور على الناس، ويزيد فى اضطهادهم، ويحصل على مرتب وعلف ومئونة. وفى كل عام كان يجىء عدة أشخاص يحضرون اثنين أو ثلاثة من الحيوانات، ويأخذون مرسوما يثبت أنهم يمتلكون حيوانات، فتعين لهم المرتبات والمؤن والعلف ثم يعودون. فأى إنسان يوجد، ولا يختار هذه المهنة؟!

وهكذا كان هذا النظام يزداد سوءا سنة بعد أخرى. وكان كل واحد من هذه الجماعة يحمى مائة من الناس ويغضب ألفًا. أما البازدارية وحراس الفهود وأمراؤهم الذين كانوا يلازمون المعسكر، ويمتلكون طيورا مفترسة مدربة على الصيد، فإن بعضهم كان يزود الحضرة السلطانية بالحيوانات دون حاجة إليها. وكان هؤلاء يكونون عدة من

الأمراء ومجموعة من الرجال والأتباع ينضم إليهم بعض الطوائف من سياس الخيل والمكارين والحمالين والقرويين سكان القرى. وقد شد كل منهم عدة ريشات حول وسطه، وهم يضعون فى أحزمتهم دبوسا حديديا يضربون به رأس كل من يصادفهم عدة ضربات، ثم يتحـدثون إليـه ويخطفون عمامته أو قلنسوته. وكان بعضهم يقول: ليس هناك قـانون (ياسا) يسمح بأن يخيط كل شخص ريش البوم على قلنسوته، ويتـذرع بهذه الحجة، ويخطف القلنسوة. وكان بعضهم يفعل كل ما يريـد دون انتحال أى عذر. **[ص٥٤٨]** وإذا مر أحـد بجـوار خيـام أو منـازل أصحاب حيوانات الصيد، فإنه يرى بعينيه ما يرى. أما إذا مر شخص من أفراد القافلة أو غيرهم بمأوى البزاة والبازدارية فى إحدى القـرى، فإنه يتعرض لحالة لا تقل عن السلب والنهب. وفى كل قريـة كـانوا ينزلون بها، يستولون على الأغنام والطيور لطعامهم وطعام حيواناتهم كل على حدة. ناهيك عما كانوا يأخذونه من التبن والشعير لدوابهم.

وعند سيرهم إلى المصايف والمشاتى، كـانوا لا يرضـون بتلـك الكمية، بل كانوا يكلفون رؤساء القرى الواقعة على معـابر الطريـق بتقديم الأغنام والدقيق والشعير، وما يحتاجون إليه فضلاً عن المؤونـة والعلاف. وكانوا ينقلونها على دواب الناس إلى مناطق إقامـة هـؤلاء السادة. وكانوا يحصلون على مبالغ من الأموال عن طريق اغتصـابهم الدواب الكثيرة ثم بيعها. كذلك كانوا يطمعون فى الحمير من الفصـائل

الجيدة، ولا يعيدونها إلى أصحابها. وكانوا ينهبون أيضا كل مـن رأوه فى الطريق. وحتى يشتهر اسمهم ويرهبهم الناس كانوا يحلقون لـدى بعض الرؤساء والعظماء فى الولاية لأى سبب تافه. وحيثمـا يوجـد شخص فتّان يتمتع بحمايتهم، كان له أن ينفذ كل عمل يريده سواء أكان سليما أم معوجا حتى ضرب الناس بالعصـا بمـؤازرة الحكـام وذوى النفوذ من الرعايا. وإذا اتفق أن طالب بعض الشحن والحكام أتبـاعهم بشىء كانوا يكسرون ليلاً جناح أحد طيور الصيد، ويدعون أن الرعاع هم الذين جرحوا هذا الطائر. ويشهد الواحد منهم مع الآخر. ولا بد أن الملوك إذا ما سمعوا أن شخصا شاغب وكسر جناح طائر الصيد، فإنهم يغضبون، فيكون ذلك حجة وذريعة للشـحن والنـواب والحكـام لأن يقولوا: لقد أقمنا خيمة قاصدين الصيد فى الموضع الفلانى. لكن الرعاع شرعوا فى الصيد فى ذلك المكان أو أنهم مروا من هنـاك؛ ففزعـت الطيور. وهكذا انتهزوا هذه الفرصة فكان إذا مر شخص علـى تلـك الخيمة، وكان بعيدا أو قريبا منها، يأخذون منـه علـى الفـور، ودون مناقشة – حصانة وملابسه، أو يستولون على مبلغ من المال على سبيل الهدية؛ فكان المسكين يخلص نفسه من تلك الورطة بعد صراع طويـل ومشقة بالغة. وتوجد حكايات كثيرة من هذا القبيل يطول شرحها.

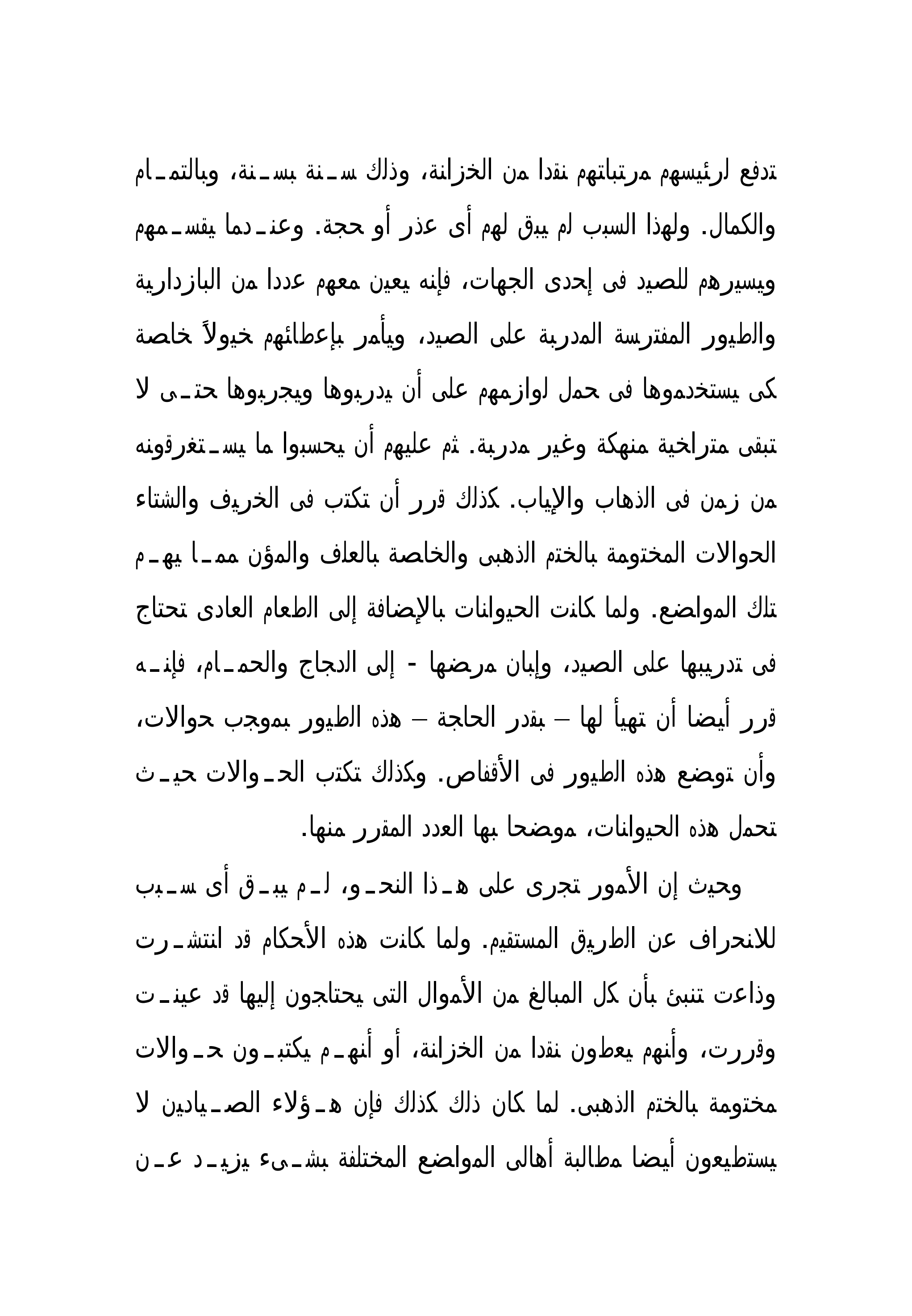
فكر سلطان الإسلام – خلد ملكه – فى تدارك هذه الأمور، فقـرر أولاً **[ص٥٤٩]** أنه يكفى ألف حيوان من حيوانات الصيد وثلاثمائة من

الفهود مما يحضرونه من الولايات. ثم أمر البازدارية وحراس الفهـود بأن يعينوا الأشخاص الذين يرونهم لائقين للقيـام بهـذه المهمـة فـى الولايات وأن يكتبوا ذلك بالتفصـيل، ولا يـؤذن لأى بـازدار آخـر بممارسة الصيد فى الولايات. ثم حدد مبلغًا من المال لما يأتون به مـن الحيوانات المدربة وغير المدربة؛ بحيث يكفى حاجتهم، ويدخل ضـمن ذلك نفقات طعامهم أثناء إقامتهم ورحيلهم وما يلزم دوابهم.

شرح السلطان هذا كله بالتفصيل بطريقة لم يبق معهـا أى عـذر. وقرر بعد ذلك مرتبا لكل من بعهدته ألف من حيوانات الصـيد هـذه، وثلاثمائة من الفهود. ثم أصدر مرسوما مختوما بالختم الذهبى، وأعطاه تعهدا نص فيه على ألا يؤخذ من أحد فى الطريق مئونة أو علف أو أى شىء آخر. ثم أرسل هذه الأحكام إلى كل الممالك حتى ينادوا بضرورة تنفيذها. وعندما حسبوا التكاليف، وجدوا أن هذا القدر - الذى قرر لهذه المجموعة من الحيوانات والفهود والمؤن والعلف، وكذلك طعام الدواب ويدخل فى ذلك أيضا ما يحتاجون إليه - قد بلغ كل هذا نصف ما كان يجرى عليه الحال من قبل، رغم أنهم لم يكونوا يحضرون ثلـث هـذه الحيوانات. وكان ما ينفق على الطعام يبلغ ما يزيد علـى ضـعفين أو أكثر مما عليه الآن. وإذن فكيف يمكن حصر المخالفات وزيادة الأعباء التى كانت تقع على الرعية نتيجة هذا السلوك؟!

أما الآن فإنهم يحضرون كل سنة – دون مشقة – ألفًا من حيوانات الصيد، وثلاثمائة من الفهود ويسلمونها. ولما ذاع فى البلاد أنه لا يحق لهؤلاء أن يطالبوا بشىء من الدواب والعلف والطعام سواء أكان هـذا سرا أم علنًا. وعلى الرعية ألا يعطوهم شيئًا، ولا يستطيع أحد المطالبة بشىء من أمثال هذا، فالذى لا يباح له أخذ الزيادات أنى يمكنه أن يسد الطريق، ويمنع السير فيه لو أراد؟! وإذا طالب بشـىء مـن النـاس، فالأمر الذى لا شك فيه أنهم لن يعطوه. ومن الضرورى تسـليم هـذا المقدار المعين كل سنة، وإلا فسوف يضيفونه إلى مـا تبقـى علـيهم ويسترد منهم. ونتيجة لهذا تعطل كثير من البازدارية والصيادين، ولـم يعودوا يمارسون هذه المهنة. ومن تاريخ صدور هذا القرار لم ينـتظم أحد مطلقًا فى سلك البازدارية والصيادين، ولم يستطع هؤلاء أن يقدموا ملتمسا فى هذا الشأن؛ لأن هذا القرار قد شملهم جميعا. أما الذين كانوا فى حمايتهم، فقد دخلوا فى زمرة الأتباع. والأمر الـذى لا شـك فيـه **[ص٥٥٠]** أنه إذا أراد شخص أن يبقى موقفه ثابتًا، فإن عليه أن يفـى بما عليه من التزامات مالية. وقطعا ليس هناك أى استبداد أو مشـقة. وقد نسيت تلك الطائفة هذه الأساليب المعوجة، وصـاروا مـن جملـة العقلاء المنصفين من البشر.

أما عن تدارك حال البازدارية الملتزمين فقـد أمـر بـأن يـنص بالتفصيل على مرتباتهم وطعام الحيوانات التى فى عهدة كل منهم، وأن



تدفع لرئيسهم مرتباتهم نقدا من الخزانة، وذلك سنة بسنة، وبالتمام والكمال. ولهذا السبب لم يبق لهم أى عذر أو حجة. وعندما يقسمهم ويسيرهم للصيد فى إحدى الجهات، فإنه يعين معهم عددا من البازدارية والطيور المفترسة المدربة على الصيد، ويأمر بإعطائهم خيولاً خاصة كى يستخدموها فى حمل لوازمهم على أن يدربوها ويجربوها حتى لا تبقى متراخية منهكة وغير مدربة. ثم عليهم أن يحسبوا ما يستغرقونه من زمن فى الذهاب والإياب. كذلك قرر أن تكتب فى الخريف والشتاء الحوالات المختومة بالختم الذهبى والخاصة بالعلف والمؤن مما يهم تلك المواضع. ولما كانت الحيوانات بالإضافة إلى الطعام العادى تحتاج فى تدريبها على الصيد، وإبان مرضها - إلى الدجاج والحمام، فإنه قرر أيضا أن تهيأ لها – بقدر الحاجة – هذه الطيور بموجب حوالات، وأن توضع هذه الطيور فى الأقفاص. وكذلك تكتب الحوالات حيث تحمل هذه الحيوانات، موضحا بها العدد المقرر منها.

وحيث إن الأمور تجرى على هذا النحو، لم يبق أى سبب للانحراف عن الطريق المستقيم. ولما كانت هذه الأحكام قد انتشرت وذاعت تنبئ بأن كل المبالغ من الأموال التى يحتاجون إليها قد عينت وقررت، وأنهم يعطون نقدا من الخزانة، أو أنهم يكتبون حوالات مختومة بالختم الذهبى. لما كان ذلك كذلك فإن هؤلاء الصيادين لا يستطيعون أيضا مطالبة أهالى المواضع المختلفة بشىء يزيد عن

المقرر وإذا طالبوا بذلك فإن الناس لوقوفهم على الحقيقة، لا يعطـونهم شيئًا. وفى أول الأمر حدث مرة أو مرتين أن بعـض أمـراء الصـيد طالبوا بالزيادة أثناء سيرهم فى إحدى الولايات على الرغم من أنه قـد عينت لهم المؤن والعلاف والشعير لإطعام الخيل. وكانت الحوالات قد كتبت لهم وختمت بالختم الذهبى، وأخذ عليهم تعهد بألا يتقاضوا شـيئًا. ومع هذا وصل خبر يفيد بأنهم تقاضوا ما يزيد عما هو مقـرر لهـم، فسير إليهم السلطان رسولاً موثوقًا به، ذهب إلى تلـك الولايـة التـى وقعت بها المخالفة، وحقق معهم، وأثبت إدانتهم، وضرب كـلا مـنهم بالعصا سبعا وسبعين مرة، فاعتبر الجميع، **[ص155]** وتركـوا ذلـك السلوك. والآن نادرا ما يحدث أن يسلك بازدار أو حارس للفهود سلوكًا معوجا. ومع أنه لا يمكن أن يتحول الذئب إلى حمـل، إلا أن ظلمهـم الفادح قل كثيرا عن ذى قبل.

ولا شك أنه بفضل هذا العدل والوثوق التام سوف ينسـى سـكان العالم وفى أسرع وقت – الظلم والتعدى إن شاء ا وحده.

الحكاية السادسة والثلاثون

فى ترتيب شئون كل الممالك

(الإصلاح الزراعى)

قبل هذا كان ولاة الأقاليم يصرحون دائما: إن أكثر الولايـات قـد صار خربا، والرعايا أصبحوا فقراء مستضعفين؛ بحيث لا يستطيعون أن يعتمدوا اعتمادا كليا فى زراعتهم على ثيرانهم وبذورهم. وقد بقيت كميات كبيره من المياه، ومساحات شاسعة من الأراضى مهملـة، ولا يهتم أحد بمطالب الزراع، ولا يتـدارك أمـورهم. كمـا أن المقـادير المحدودة من البذور التى حصلوا عليها من الديوان فى العهود السـابقة قد استهلكوها كلها أيام الغلاء فكان هذا سببا فى الإضـرار بالـديوان والرعية.

فتدارك سلطان الإسلام – خلد ملكه – الأمر على هذا الوجه الـذى يتلخص فى أن يؤخذ من كل حاكم وصاحب إقطاع مقدار معـين مـن المحصول ثمنًا للمعدات والبذور، وما تحتاج إليه الزراعة، وذلك مـن مجموع ما يجب عليه تقديمه للديوان، ويأخذ إيصالاً بذلك حتى يباشـر المسئولون العمل فى الولايات بموجب تلك العوامل، وحتى تزيد الرقعة الزراعية. وقرر أيضا أن يكون للمزارع – بلا منازع – النصـف أو الثلث من الريع والإنتاج إذ إن الحاكم أو الوالى كليهما يمكنه أن يزرع

الأماكن الأكثر صلاحية للزراعة. كما تتاح له فرصة أكبر للحصـول على لوازم الزراعة والعمارة. ثم صرح السلطان قائلاً: لكننـا تلبيـة لرغبة الناس، ولكى يكون للحاكم موارد إضافية قررنـا أن يسـلم لـه المزارع ثلث أو ربع المحصول. وكل ما يزيد على ذلك، يصبح ملكًـا له. وقد دفعهم الحرص والطمع من أجل الحصول على كسب وفير إلى بذل الكثير من الجد والاجتهاد فى باب التعمير والتشييد. وعندما تتيسر الزراعة سنتين أو ثلاث سنوات، وتستقيم أمورهم عندئذ يعـود ريـع المحصول إلى الخزانة، **[ص٥٥٢]** وذلك على النحـو المثبـت فـى تعهداتهم. كذلك راجت العملة النقدية.

ومن جملة الذين استغلوا النفوذ، كان هناك بعـض الحكـام ممـن يسيرون على نهج الأقوام السابقين، ويتبعون بعض الأساليب الملتويـة التى ورد ذكرها فى عدة مواضع. وقد اعتـادوا ذلـك، ولـم يكونـوا يفكرون مطلقًا فى وجوب تسديد أموال الديوان. وكانوا يعتبرونها ملكًا خاصا لهم لا ينازعهم فيها أحد مطلقًا. وفـى أول سـنة بـددوا تلـك الأموال. وفى النهاية عندما طولبوا بالسداد لم يبق هناك شىء قـط لا من الريع ولا من الأصل. وقد انصرف تفكيرهم فى أنه إذا كان لزامـا عليهم أن يسددوا شيئًا – ولو اسميا – مما عليهم، فإنهم يعتبرونه مـن نفقات الثيران والبذور[١] **[ص٥٥٥]**[٢].

(١) حاشية مطولة تستغرق صفحات ٥٥٢، ٥٥٣، ٥٥٤.

والخلاصة أنهم كانوا ينتحلون الأعذار عن النقصـان والخسـران بسبب حدوث الآفات السماوية والأرضية. ولكن أكثر هذه الأعذار لـم تكن تقبل منهم، وصودر كل ما كان يملك هؤلاء من أمـلاك ومتـاع وبقيت طائفة منهم تحت الحراسة. وكان للبعض الآخر أدوات وبـذور. وقد حققوا لأنفسهم ريعا وفائدة. وهذه الفئات لا زالت باقية وقائمة. وقد استراح بذلك كثير من الناس من الرعايا وغيرهم، وشـغلوا بالعمـارة والزراعة. وكانت تلك المواضع هى التـى جـرت العـادة بإمـدادها بالبذور. ولكن ذوى النفوذ كانوا قد أتلفوها بالحيل أو بسوء التدبير ثـم باعوها.

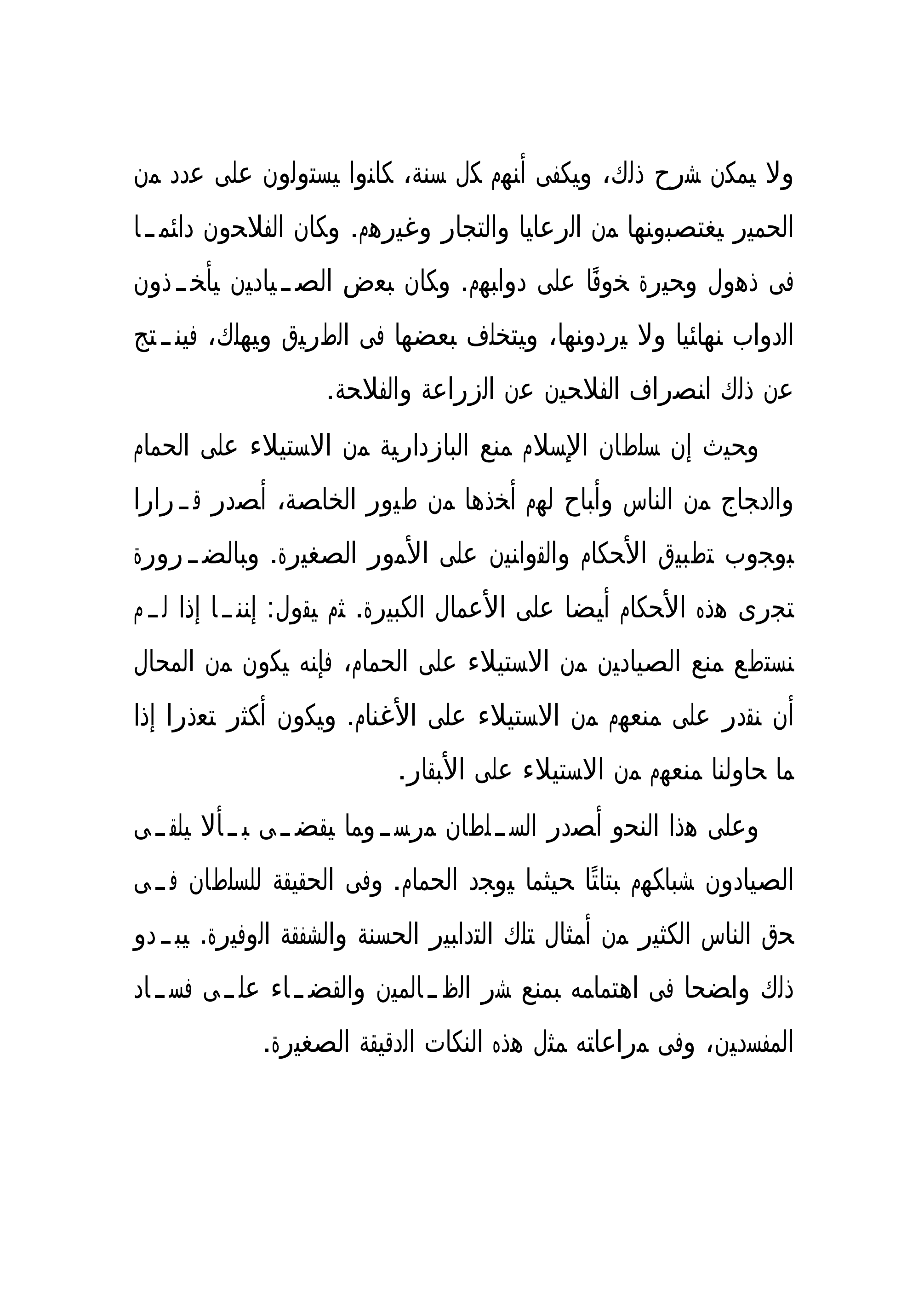
وقبل هذا لم يحاول أحد تدارك هذا الخلل. لذلك أمر السلطان بـأن تسلم البذور من جديد للزراع جميعا. ولهذا السبب زاد الدخل فى بغداد وشيراز عن خمسمائة ألف دينار على الأموال المقننة. ولقد أثمرت تلك البذور مرة أخرى. كما تحقق للرعايا أضعاف مضـاعفة مـن تلـك الفوائد، وقوى شأنهم، وظهر العمران فى كل مكان وعم الرخص. ولما كان السلطان يمنح الجند الإقطاعيات عمر كثير من المواضـع بهـذه الوسائل. وقد وقر فى ذهنهم أنه إذا لم تكن هذه الإقطاعيات موجـودة،

---

(٢) الانتقال هنا من صفحة ٥٥٢ إلى صفحة ٥٥٥ بسبب الحاشية المطولة التى احتلت بقية صفحة ٥٥٢ وصفحتى ٥٥٣، ٥٥٤. وهذه الحاشية ترجمت ووضعت عقب ترجمة نص تاريخ غازان بأكمله.

فإنه كان ينبغى منح ولايات عديدة وأملاك كثيرة وقد ظل باقيـا كثيـر منها حتى الآن تحت تصرف الديوان، ويصل إلـيهم ريعهـا. (يقـول المؤرخ رشيد الدين): إننى لم أر ولم أسمع مطلقًا أن أحدا فى أى عهد، قام بمثل هذا التدبير الحسن، ولم تكن لديه الرغبة والتفكير فـى إقامـة مثل هذه العمارات، وفعل هذه الخيرات.

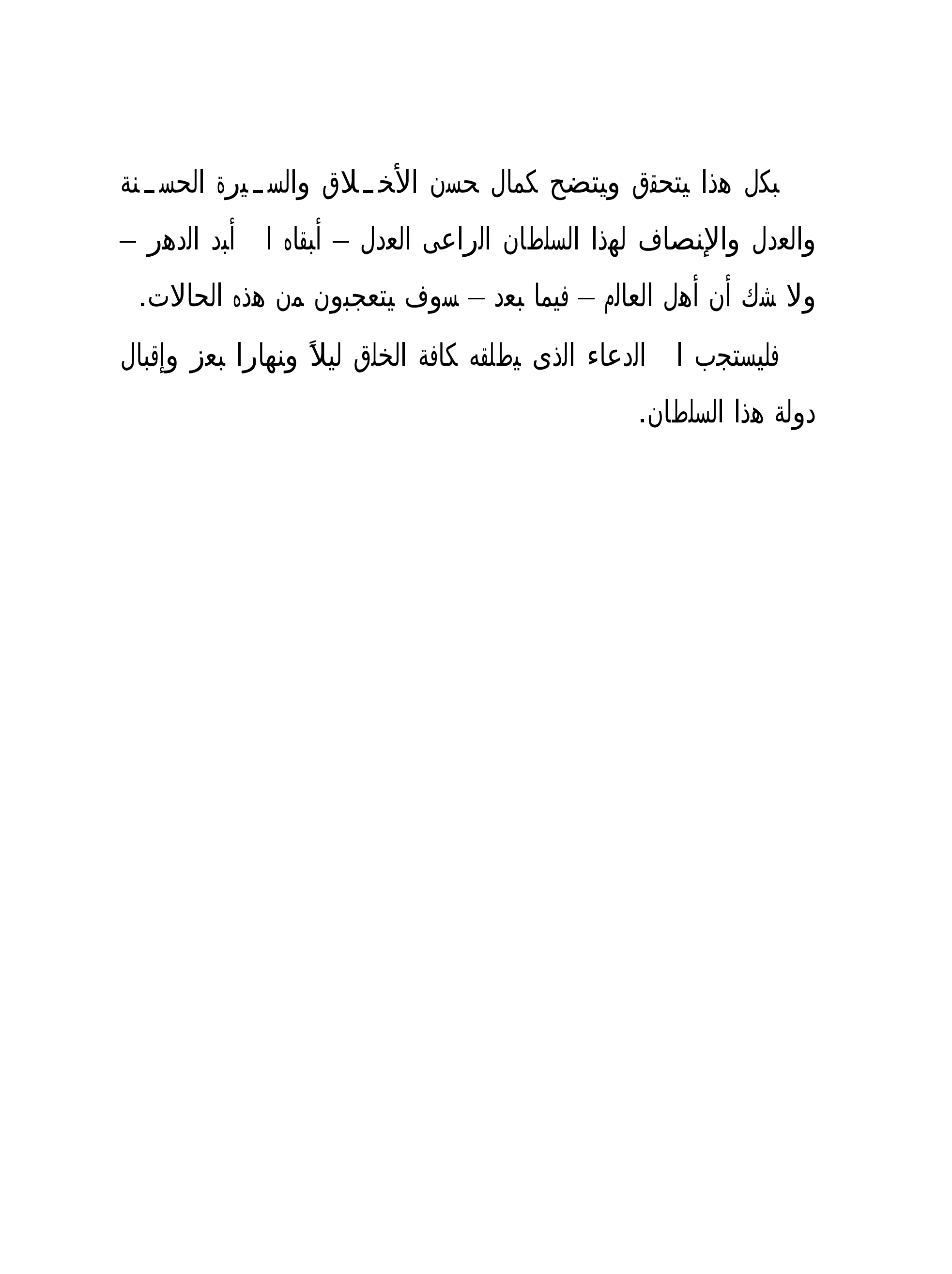
وبخصوص الدواب والطيور التى أمر بتسليمها لكل شخص قرر أن تجرى أيضا على هذه القاعدة، أى أنها تعادل ثلث الإنتاج، لتحقق لهـم فائدة من ذلك وليوفروا لهم ثروة، وتكون الدواب والطيور ولكافة الناس فى حماية تلك الدواب والطيور الخاصة بالسلطان. وبذلك لا يستطيعون أن يمدوا أيديهم إليها مطلقًا، ولا يمكن لأحد أن يمنعهم مـن ممارسـة حقوقهم فى المواطن والبقاع. ومع هذا كان للديوان أيضا فائدة من هذا الوضع. وعندما تصل الرايات السلطانية إلى إحدى الولايـات، ويلـزم توفير بعض الدواب للبازدارية وغيرهم. قرر أيضا أنـه لا ينبغـى أن تؤخذ الحمير والخيول من الرعايا. وكذلك الحال إذا ما دعا الأمر إلـى توفير الطيور والحمام لإطعام الحيوانات أو لاستعمالها فى المطبخ فإنها تعد لازمة لخاصة الديوان. وكان حال هذه القضية مثل حـال قضـية الوسطاء، فرفضت بذلك عادة الاستيلاء **[ص٥٥٦]** على الحمير. وقبل هذا كان كل من أراد شيئًا، يستولى عليه دون حياء. وإذا كانت هنـاك ضرورة فإنهم يتداركون الأمر من الديوان عن طريق هؤلاء الوسطاء،



ولا يمكن شرح ذلك، ويكفى أنهم كل سنة، كانوا يستولون على عدد من الحمير يغتصبونها من الرعايا والتجار وغيرهم. وكان الفلاحون دائمـا فى ذهول وحيرة خوفًا على دوابهم. وكان بعض الصـيادين يأخـذون الدواب نهائيا ولا يردونها، ويتخلف بعضها فى الطريق ويهلك، فينـتج عن ذلك انصراف الفلاحين عن الزراعة والفلاحة.

وحيث إن سلطان الإسلام منع البازدارية من الاستيلاء على الحمام والدجاج من الناس وأباح لهم أخذها من طيور الخاصة، أصدر قـرارا بوجوب تطبيق الأحكام والقوانين على الأمور الصغيرة. وبالضـرورة تجرى هذه الأحكام أيضا على الأعمال الكبيرة. ثم يقول: إننـا إذا لـم نستطع منع الصيادين من الاستيلاء على الحمام، فإنه يكون من المحال أن نقدر على منعهم من الاستيلاء على الأغنام. ويكون أكثر تعذرا إذا ما حاولنا منعهم من الاستيلاء على الأبقار.

وعلى هذا النحو أصدر السـلطان مرسـوما يقضـى بـألا يلقـى الصيادون شباكهم بتاتًا حيثما يوجد الحمام. وفى الحقيقة للسلطان فـى حق الناس الكثير من أمثال تلك التدابير الحسنة والشفقة الوفيرة. يبـدو ذلك واضحا فى اهتمامه بمنع شر الظـالمين والقضـاء علـى فسـاد المفسدين، وفى مراعاته مثل هذه النكات الدقيقة الصغيرة.



بكل هذا يتحقق ويتضح كمال حسن الأخـلاق والسـيرة الحسـنة والعدل والإنصاف لهذا السلطان الراعى العدل – أبقاه ا أبد الدهر – ولا شك أن أهل العالم – فيما بعد – سوف يتعجبون من هذه الحالات.

فليستجب ا الدعاء الذى يطلقه كافة الخلق ليلاً ونهارا بعز وإقبال دولة هذا السلطان.

الحكاية السابعة والثلاثون

فى ترتيب الشئون المتعلقة بتعمير الأراضى البور

لا يخفى على من تتبع التواريخ الصحيحة، وسلك الطريق المعقول، أنه لم تكن البلاد مطلقًا أكثر خرابا مما كانت عليه خلال هذه السنوات خصوصا فى المواضع التى وصلت إليها جيوش المغول؛ **[ص٥٥٧]** إذ إنه منذ ابتداء ظهور آدم حتى قيام جنكيز خان وذريته لم يتيسـر لأى ملك مثل هذه المملكة الفسيحة التى سخروها، وجعلوها تحت تصرفهم، ولم يقتل أحد فى العالم من الخلق مثلما قتل هؤلاء.

وإن ما قيل عن الإسكندر إنه قد استولى على بلاد كثيرة، فهو خبر غير صحيح؛ فقد كان يفتح البلاد، ثم يرحل عنها ولا يقيم فيها. وعندما يبلغ الناس ذيوع صيته، كانوا يسارعون إلى الخضوع له والدخول فى طاعته، وذلك لهيبته وصلابته. وكانت مدة عمره ستًا وثلاثـين سـنة. وفى السنة الرابعة والعشرين من عمره استولى على ملك إيران، وقتل دارا[1]. بعد ذلك أخضع العالم مدة اثنتى عشرة سنة. وعند عودته توفى

---

(١) هذه الرواية تتفق مع ما ذكره المسعودى إذ يقول: لما قتل الإسكندر بن فليبس "دارا بن دارا"، تغلب كل رئيس ناحية على ناحيته، وكاتبهم الإسكندر فمنهم فرس ونبيط وعرب. وكان مراد الإسكندر من ذلك تشتيت كلمتهم وتخريبهم، وغلبة كل رئيس منهم على الصقع الذى هو به فينعدم نظام الملك والانقياد إلى ملك واحد يجمع كلمتهم ليرجع إليه الأمر (مروج الذهب، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، ج١، ص٢٣٤، الطبعة الثالثة، القاهرة ١٣٧٧هـ – ١٩٥٨م).
وأما الطبرى فيذكر أن الإسكندر حارب دارا وهزمه. فلما رأى ذلك رجلان من حرسه قتلاه لينالا الحظوة عند الإسكندر إلا أنه أمر بضرب رقابهما وصلبهما، وأن

بالقرب من بابل. وقد استولى على بلاد كثيرة خلال فترة الاثنتى عشرة سنة، لكن لأنه كان دءوبا على السير دائما، ولا يتوقف، كـان النـاس يثورون عليه مرة أخرى بعد رحيله. وحيث إنه لم يكن له ابن وذريـة لم يبق الملك فى أسرته، وآل الأمر من بعده إلى ملوك الطوائف كمـا سوف يأتى شرح تلك الحكايات فى تاريخه.

أما وضع جنكيز خان فقد كان على نقيضه؛ إذ إنـه فـتح الـبلاد، وسخر العباد بتأن وحذر، فبقى جميعهم مطيعين ومنقادين له. ثم حافظ على هذا الملك أبناؤه وذريته وأخضعوه لمشيئتهم. وكما هو معـروف استولوا على ثلاثين مملكة أخرى بالإضافة إلى ما كان قد استولى عليه جنكيز خان. وعندما استولوا على الولايات والمدن العظيمة ذات الطول والعرض، قتلوا كثيرا من الخلق، بحيث إنه لم يبق منهم أحد إلا نادرا. وهذه المدن من قبيل بلخ وشبورغان وطالقان ومرو وسرخس وهـراة وتركستان والرى وهمذان وقم وأصفهان ومراغـه وأردبيـل وبـردع وكنجه وبغداد والموصل وإربيل، وأكثر الولايات التى تـرتبط بهـذه المواضع. أما بعض الولايات التى كانت تعتبر ثغورا، وصارت طريقًا لعبور الجنود الكثيرين فقد قضى على أهلها قضـاء مبرمـا، أو أنهـم هربوا. وقد بقيت هذه الأماكن خرابا مثل ولايات ايغورستان والولايات

ينادى عليهما: هذا جزاء من اجترأ على مَلِكه، وغش أهل بلده .(تاريخ الرسل والملوك، الجزء الأول، تحقيق "محمد أبو الفضل إبراهيم"، الطبعة الرابعة، دار المعارف ص٥٧٤ ٥٧٧، القاهرة ١٩٧٩م).

الأخرى التى صارت حدا فاصلاً بين الخاقان وقايدو. وكـذلك بعـض الولايات الواقعة بين دربند وشروان وبعض أقاليم أبلستان وديار بكـر **[ص٥٥٨]** مثل حران وروحه وسروج والرقة، ومـدن كثيـرة علـى جانبى الفرات كلها صارت خربة وغير صالحة. وكذلك ما دمـر مـن بلاد تقع بين الولايات الأخرى، ونتيجة للقتل والسفك مثل خرائب بغداد وآذربيجان وغيرهما فى تركستان وبلاد إيران والـروم مـن المـدن والقرى المخربة مما هو ماثل أمام الناس. وكل هذا يزيد عمـا يمكـن حصره.

وصفوة القول أنهم إذا أرادوا القياس عن طريق النسبة فإنـه لـن يكون العمران فى الممالك واحدا من عشرة، والباقى كله خراب. ولـم يكن أحد فى هذه العهود يفكر فى بند التعمير وهو أمر نادر إن شـرع البعض فى تعمير أحد المواضع إرضاء لأهوائهم مثل هولاكـو خـان وآباقاخان وأرغون خان وكيخاتو خان، فإنهم عندما أرادوا تشييد عـدة قصور فى ألاتاغ وأرمية وسقورلوق وسـجاس وخوجـان وزنجـان وسراى المنصورية فى أران، وتعمير تلك الأماكن، أو أنهـم ينشـئون سوقًا أو مدينة ويعمرونهما، أو يجرون فيها نهرا من الماء، فإنه نتيجة لهذا صارت ولايات كثيرة أكثر خرابا مما كانت عليه رغم مـا أنفـق عليها من أموال بغير حساب. كما نزح عن الولايات الأخرى رعايـا كثيرون دفعة واحدة. وقد خرجوا منها مجبرين، ولم يعمروا واحد مـن

تلك الأماكن. ولم يقف الأمر عند هذا الحد كما نشاهد. بل إنه إذا تمت تلك العمارة فإنه يظهر إلى جانبها ارتفاع نسبة الـدمار الـذى يلحـق بالولايات.

ثم أراد الحق تعالى أن يكون إحياء الملك وتقويـة ديـن الإسـلام بواسطة الوجود المبارك لسلطان الإسلام غازان خان – خلد ا ملكه – وفى الأزل جعل الحق تعالى على يديه تحقيق الخير العمـيم وإنجـاز العمل العظيم. وقد أعلى – بحمد ا ومنه – شئون الإسلام على النحو الذى أوردنا شرحه. وأما ما يتعلق بشئون العمارات والخيرات بصـفة خاصة، فقد سجلناها على حدة على النحو الذى مر ذكره. وكذلك أخبار ضبط أمور المملكة ورعاية الرعية ونشر العدل والإنصاف حسب مـا بيناه. ولا بد أن السبب الأكبر لعمران الولايات يمكن أن يكون نتيجـة لتلك الأمور، كما أننا نعاين ونشاهد فى المدن التى صارت خربة أنه لم يكن فى كل عشرة منازل خمسة منها مسكونة. **[ص٥٥٩]** وهذه أيضا خربت رغم أنها كانت عامرة.

والآن بيمن عدل السلطان الشامل يشيد فى كل سنة، وفى كل مدينة ما يزيد على الألف منزل. فالدار التى كانت تقوم بمائة دينار، تسـاوى الآن ألف دينار وزيادة. ولقد شرحنا هذه الأمور فى الفصول السابقة.

وأما حال الأماكن الخربة فلم يكن أحد يميـل إلـى تعميرهـا، ولا تتوافر لشخص قط القدرة على التعمير من ماله الخاص بنسبة واحد من

ألف من تلك الخرائب. فتدارك السلطان تلك الأوضاع برأيه الصـائب وحسن تدبيره، فكان أن أحضر الأمراء والوزراء وأركان الدولة، وقال لهم: إن هذه الولايات الخربة والقرى القاحلة، والتى كانت ملكًا لآبائنـا هى الآن ملك لنا، ولها سمة أملاك الدولة والخاصة، وبعضـها ملـك للناس. ومنذ عهد هولاكو خان إلى الآن لم ينل أحد منها منا من الثمار أو دانقًا من المال. ولو أراد أحد أن يعمرها بدون إذن، فإنها تنتزع منه بعد تحمل المشقات الكثيرة والنفقات الباهظة. وعلى هذا لا يقدم النـاس على تعمير تلك الأماكن. وإذن فلم لا نعد خطة لتعمير هذه الخرائـب؛ بحيث تصل حصة معينة إلى الـديوان ممـا يخـص أمـلاك الدولـة والخاصة، وتخصص حصة للمالك مما يعتبر ملكية خاصـة. وكـذلك نعطى حصة للديوان وللأشخاص الذين يقومون بالتعمير بحيث تكـون لهم عونًا بصفة دائمة ومدخرا صالحا لأولادهم وأحفادهم، ويكون لهـم فى ذلك كسب موفور، ويقبلون على عملهم بصورة أتم وأفضل.

وهم إذا ما وجدوا فى الزراعة فوائد كثيرة، فإنهم يتجنبون متاعـب التجارة وتحمل مشقات السفر والمعاملات الأخـرى، ويميلـون دفعـة واحدة إلى التعمير والزراعة، ذلك أن جمهور الناس يجرون وراء مـا فيه نفعهم وكسبهم. فلو نفذت الخطة على هذا النحو فسوف تعمر أكثر الخرائب فى زمن قصير. وإنما يتيسر تعمير مثل هذه الخرائب بقـوة جميع أهل العالم وتضافرهم. ومحال أن تعمر بغيـر هـذا الطريـق.

وعندما تعمر تلك الأراضى البور ترخص الغلال، ويتيسر الحصـول على المؤن الكثيرة عند مسـير الجيـوش للقيـام بمهـام ضـرورية **[ص٥٦٠]** فى المناطق المتاخمة للثغور، وتتدفق الأموال أيضا علـى الخزانة، ويعود من جديد التقدم والازدهار على أصـحاب الأراضـى والملاك، وينعم الرعايا بالاستقرار والرخاء ويحصل لنا الأجر والثواب كاملين، ويبقى ذكرنا الحسن مؤبدا ومخلدا. فتعجب جميع الحاضـرين وظلوا متحيرين من هذه الأفكار الصائبة والكلام اللطيـف. وبعـد أن أجمعوا على الثناء والمدح، قالوا: إنه لم يفكر شخص آخر فى العالم فى طريقة خير من هذه الطريقة وفى تدبير أفيد من هذا التـدبير. فأنـت تُعمر ما خربه آباؤك. وإن الفرق بين هذه المرتبة وتلك لمعلوم ومحقق عقلاً وعرفًا وشرعا. فأنت تحيى ما أماته الآخرون بصـورة مطلقـة. وإن هذا القدر من الكلام فيه الكفاية. فماذا نقول أزيد من هذا؟!

بعد ذلك أمر السلطان بكتابة الشروط والمراسيم. وبناء علـى هـذا قرر أن ما كان قديم البوار من أملاك الدولة، وما لم يكن مزروعا من القرى والمزارع وقت جلوسه المبارك، تعتبر جملتها مـن الأراضـى البور، وأمر بأن تكتب الشروط وتختم بختم الدولة الذهبى، وتنص على أن كل شخص يرغب فى امتلاك تلك الأراضى وتعميرهـا عليـه أن يراعى الأقسام الثلاثة الآتية:

القسم الأول:

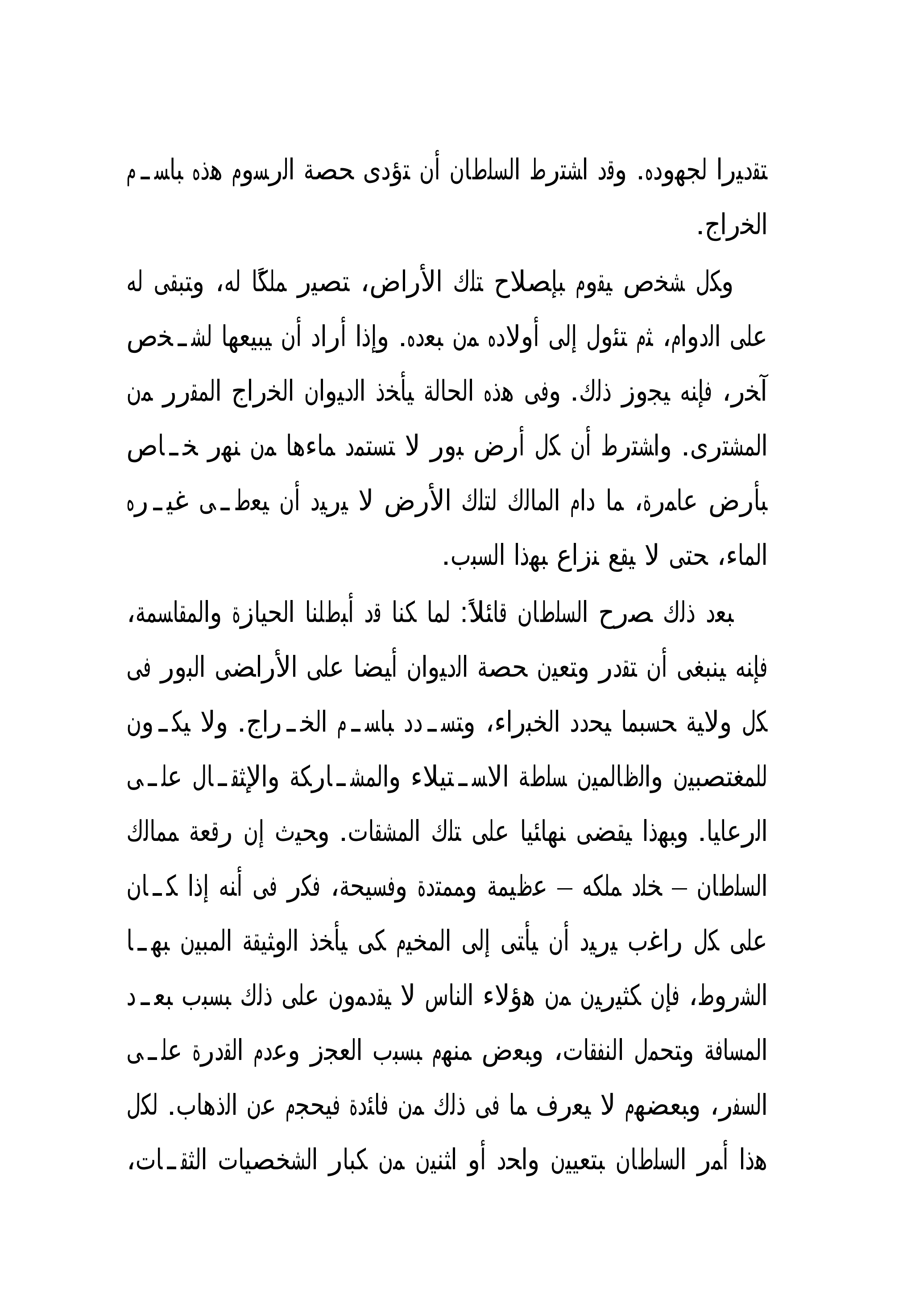
ما كان موجودا به الماء والنهر، ولا يستلزم زيادة فـى النفقـات والجهد، أو أنه يزرع بواسطة مياه الأمطار، وليس فـى حاجـة إلـى القنوات والأنهار والسدود. هذه الأراضى عندما يشرعون فى تعميرها لا يعطون الديوان شيئًا قط فى السنة الأولى من زراعتها. أمـا فـى السنة الثانية فيدفعون دانقين مما هو مقرر من الحقوق الديوانية على أن تحسب لهم أربعة دوانق جزاء سعيهم وكدهم. وأما فى السـنة الثالثـة فيدفعون أربعة دوانق ونصف من حقوق الديوان كالمعتـاد فـى كـل ولاية، وما يزيد ذلك فهو حق المزارع. وكذلك ما فيه من ربح يكـون كله ملكًا له. **[ص٥٦١]**.

القسم الثانى:

ما يكون إعماره من النوع المتوسط، وإصلاح الأنهار، واسـتخراج الماء منها قليل التكاليف، وشروطه على نحو ما ذكر، إلا أن الـزارع يسلم الديوان أربعة دوانق من الرسوم المقررة.

القسم الثالث:

ما يكون إعماره صعبا وعسيرا. وينبغى أن يقام سد على نهره وما تكون قناته خربة. وينبغى إعادة تعميرها. وذلك القسم أيضا تطبق عليه الشروط المذكورة. ولكن على الشخص الذى يصلح أرضا مـن ذلـك النوع أن يسدد نصفًا من حقوق الديوان، ويكون لـه النصـف البـاقى



تقديرا لجهوده. وقد اشترط السلطان أن تؤدى حصة الرسوم هذه باسـم الخراج.

وكل شخص يقوم بإصلاح تلك الأراض، تصير ملكًا له، وتبقى له على الدوام، ثم تئول إلى أولاده من بعده. وإذا أراد أن يبيعها لشـخص آخر، فإنه يجوز ذلك. وفى هذه الحالة يأخذ الديوان الخراج المقرر من المشترى. واشترط أن كل أرض بور لا تستمد ماءها من نهر خـاص بأرض عامرة، ما دام المالك لتلك الأرض لا يريد أن يعطـى غيـره الماء، حتى لا يقع نزاع بهذا السبب.

بعد ذلك صرح السلطان قائلاً: لما كنا قد أبطلنا الحيازة والمقاسمة، فإنه ينبغى أن تقدر وتعين حصة الديوان أيضا على الأراضى البور فى كل ولاية حسبما يحدد الخبراء، وتسـدد باسـم الخـراج. ولا يكـون للمغتصبين والظالمين سلطة الاسـتيلاء والمشـاركة والإثقـال علـى الرعايا. وبهذا يقضى نهائيا على تلك المشقات. وحيث إن رقعة ممالك السلطان – خلد ملكه – عظيمة وممتدة وفسيحة، فكر فى أنه إذا كـان على كل راغب يريد أن يأتى إلى المخيم كى يأخذ الوثيقة المبين بهـا الشروط، فإن كثيرين من هؤلاء الناس لا يقدمون على ذلك بسبب بعـد المسافة وتحمل النفقات، وبعض منهم بسبب العجز وعدم القدرة علـى السفر، وبعضهم لا يعرف ما فى ذلك من فائدة فيحجم عن الذهاب. لكل هذا أمر السلطان بتعيين واحد أو اثنين من كبار الشخصيات الثقـات،

وسلموهما وثائق الشروط وعين لهما السلطان نموذجا وقاعدة يسـيران عليهما، وأذن لهما فى أن يعطيا كل راغب نسخة من تلك الشروط على أن تكتب على ظهرها صورة مرسوم الوثيقة. وبذلك يكون ذلك الحكـم مؤيدا ومخلدا ولا يكون لأى مخلوق اعتراض على ذلك حتى ينفذ ذلك العمل بسهولة فى كل ولاية.

وحيث إنهم باشروا الأعمال بموجب هذه التعليمات، توطدت هـذه القاعدة، وسار هذا الأمر نحو الغاية المرسومة، **[ص٥٦٢]** وكانت لـه صفة الدوام والاستمرار. وقد سموا ذلك الديوان (ديـوان التخلـيص). وحتى هذا الوقت أعطى نواب ذلك الديوان الناس كثيرا مـن سـجلات الشروط، فتوافر العمران، وصار فى ازدياد يوما بعد يوم.

أما ما يخص أملاك الناس، فكل ما كان قريبا من العمـران، قـرر السلطان أن كل شخص يريد تعميره، عليه أن يتشاور مع صاحبه. وأما ما كان قديم البوار من الأراضى، فإنه يقدم على تعميره دون استشارة. وإذا ما ظهر مالك الأرض، وتحددت ملكيته لها تمامـا عـن طريـق الشرع والشهرة، فإنه يبت فى أمرها كما لو كانت عامرة. لكن مقـدار ما يسدده من الرسوم، هو ما نص عليه فى القسم المختص بالـديوان، وعليه أن يدفع للمالك نصف المبلغ المقرر، والنصف الآخر للـديوان. وتلك الضوابط إنما تطبق على الولاية التى كانت قبل هذا وحتـى الآن حكرا، وكان يدفع للديوان عشر ثمنها. أما الولاية التـى كانـت فـى

الأصل خالية من القيود، ولم يكن عليها رسوم وغير خاضـعة لنظـام الحكر، فإنها تسلم للمالك بأكملها. وليس للمالك أن يعترض لأنها تكون فى حكم من عمر الأراضى الديوانية، فهى باقية ومخلدة.

أما المواضع الخربة التى تقع فى مناطق المغول، وقاموا بتعميرها بأنفسهم، فإنه ينطبق عليها ما شرحناه فى القسمين: الخاص والديوان.

لكن السلطان أضاف قائلاً: حيث إن المغول هم الغالبون لن يـؤدوا قطعا حقوق الفلاحين فى الولايات، ولن يقوموا بتعمير هذه المواضـع سواء جاءت فى عداد الأماكن الأخرى أم لم تأت، ولن يسـمحوا لأى شخص من الفلاحين يطالبهم بأى حق من الحقوق بـل إنهـم سـوف يعهدون بتعميرها إلى أسراهم وعبيـدهم. وكـذلك التازيـك فـإنهم لا يعمرونها بواسطة الفلاحين الذين ورد ذكرهم فى موضع آخر. وإذا لم يأت الفلاحون المدونة أسماؤهم فى القائمة إلى موضع من المواضـع، فإنه يجوز جمعهم. وطبقًا لهذا القرار أصدر سجلات الشروط الموثقة. ونحن لم نذكر أكثرها مراعاة للاختصار، وهى مذكورة بأكملهـا فـى قوائم الشروط **[ص٥٦٣]** والجميع مشغولون فى كل البلاد – فى وقتنا هذا – بتعمير الأراضى، والعمران فى ازدياد يوما بعد يـوم. وبهـذه الإصلاحات يشتد أزر كثير من الناس ويزدهر بـذلك شـأن (ديـوان التخليص) ازدهارا كبيرا وتزداد محاصيل الأراضى كل عام. وعلـى هذا سوف تقل الخرائب فى أسرع وقت.

كذلك أمر السلطان بأن تسجل فى السجلات كل الأراضى البور فى كل ولاية، ثم يؤتى بها إلى الديوان؛ حتى إذا سـلمت للنـاس، يمكـن عرضها كل عامين للتأكد من أنها قد عمرت بأكملها، أو أن بعضها قد بقى دون تعمير. وإذا ما موه أحد النواب، وحاول إفساد الأمور، وأخفى بعض الأراضى البور، واغتصبها لنفسه أو أنه شارك أحداً، ولم ينص فى السجلات على نصيب الديوان، فإنه يكتشف أمره نتيجة المراجعـة وإعادة العرض.

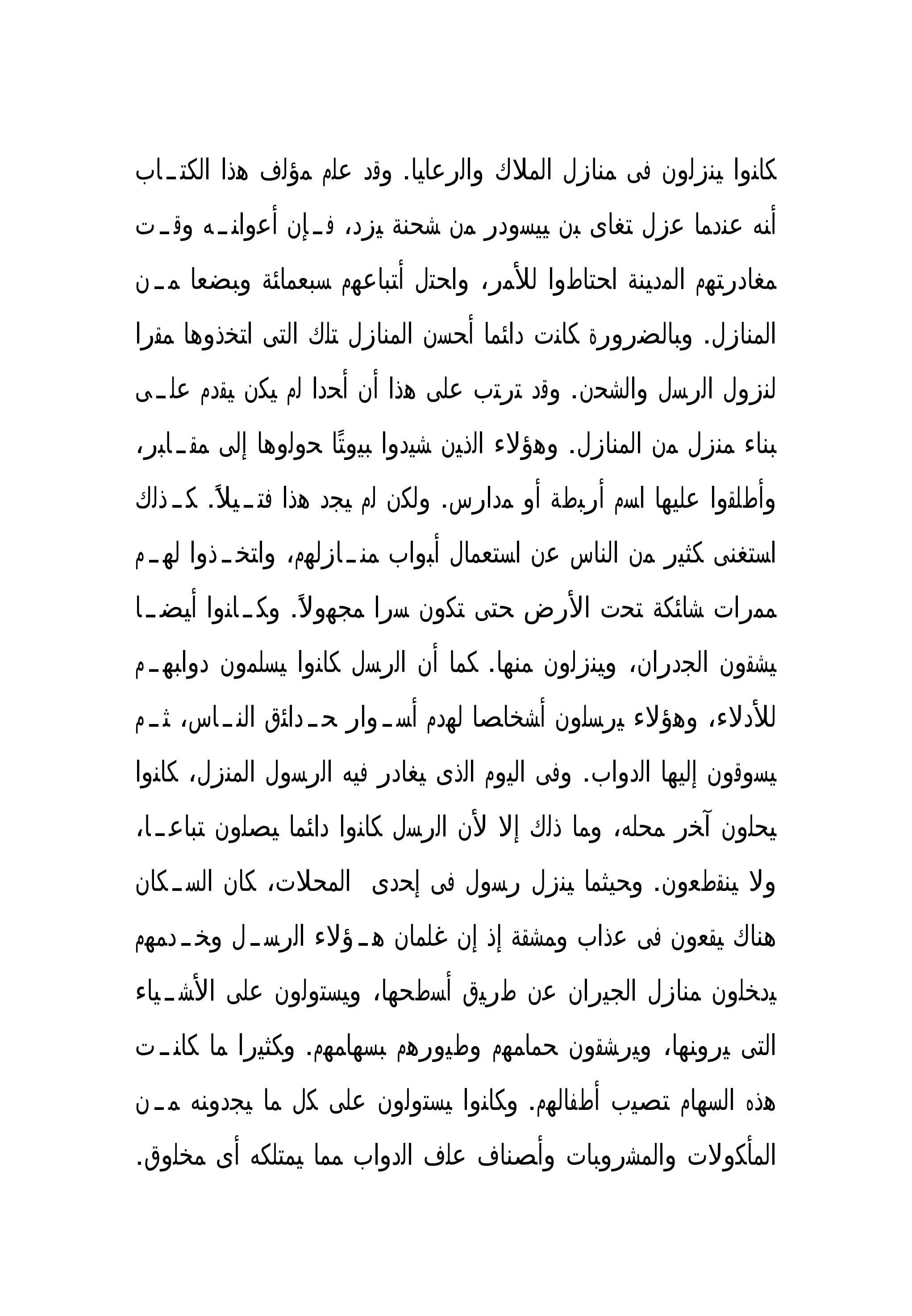
ليوصل الحق تعالى ثواب هذه الخيرات إلى عهد السلطان المبـارك بمنه وكرمه.

الحكاية الثامنة والثلاثون

صدور الفرمان بإقامة دور خاصة للرسل فى البلاد

ومنع الشحن والحكام من النزول فى منازل الناس

قبل هذا كان ينزل دائما فى كل مدينة فى منازل الرعايا والملاك ما يزيد على مائة أو مائتين من الرسل. وكذلك الحال عندما كـان يصـل الوافدون من غير الرسل إلى إحدى المـدن، فـإن الشـحن والحكـام ينزلونهم فى بيوت الناس بدافع الصداقة والمعرفـة. وإذا مـا وصـل الرسل، فإن مهمة الأدلاء أن يصحبوهم إلـى بيـوت النـاس قـائلين لأصحابها: إن هؤلاء الرسل ينزلون ضيوفًا عندكم. وفى مقابـل ذلـك كانوا يأخذون شيئًا. وفى ذلك اليوم يستعرضون ما لا يقل عن مـائتى منزل. وعاقبة الأمر ينزلونهم فى منازل الأشخاص المتضايقين مـنهم كى يخشاهم الآخرون. وكانوا يأخذون للرسـل مـن بيـوت النـاس السجاجيد وملابس النوم وأدوات المطبخ. وأكثـر هـذه الأدوات كـان يستولى عليها إما الرسل وأتباعهم وإما الأدلاء بحجة أن الرسـل قـد استولوا عليها ولم يردوها. وإذا أعيد بعضها **[ص٥٦٤]** فأية قيمة لهـا بعد أن ظل الرسل يستعملونها مدة طويلة. وكان كل حاكم يذهب إلـى إحدى الولايات يسلب ما لا يقل عن مائة منزل. وكل هـؤلاء الرسـل



كانوا ينزلون فى منازل الملاك والرعايا. وقد علم مؤلف هذا الكتاب أنه عندما عزل تغاى بن ييسودر من شحنة يزد، فإن أعوانه وقت مغادرتهم المدينة احتاطوا للأمر، واحتل أتباعهم سبعمائة وبضعا من المنازل. وبالضرورة كانت دائما أحسن المنازل تلك التى اتخذوها مقرا لنزول الرسل والشحن. وقد ترتب على هذا أن أحدا لم يكن يقدم على بناء منزل من المنازل. وهؤلاء الذين شيدوا بيوتًا حولوها إلى مقابر، وأطلقوا عليها اسم أربطة أو مدارس. ولكن لم يجد هذا فتيلاً. كذلك استغنى كثير من الناس عن استعمال أبواب منازلهم، واتخذوا لهم ممرات شائكة تحت الأرض حتى تكون سرا مجهولاً. وكانوا أيضا يشقون الجدران، وينزلون منها. كما أن الرسل كانوا يسلمون دوابهم للأدلاء، وهؤلاء يرسلون أشخاصا لهدم أسوار حدائق الناس، ثم يسوقون إليها الدواب. وفى اليوم الذى يغادر فيه الرسول المنزل، كانوا يحلون آخر محله، وما ذلك إلا لأن الرسل كانوا دائما يصلون تباعا، ولا ينقطعون. وحيثما ينزل رسول فى إحدى المحلات، كان السكان هناك يقعون فى عذاب ومشقة إذ إن غلمان هؤلاء الرسل وخدمهم يدخلون منازل الجيران عن طريق أسطحها، ويستولون على الأشياء التى يرونها، ويرشقون حمامهم وطيورهم بسهامهم. وكثيرا ما كانت هذه السهام تصيب أطفالهم. وكانوا يستولون على كل ما يجدونه من المأكولات والمشروبات وأصناف علف الدواب مما يمتلكه أى مخلوق.

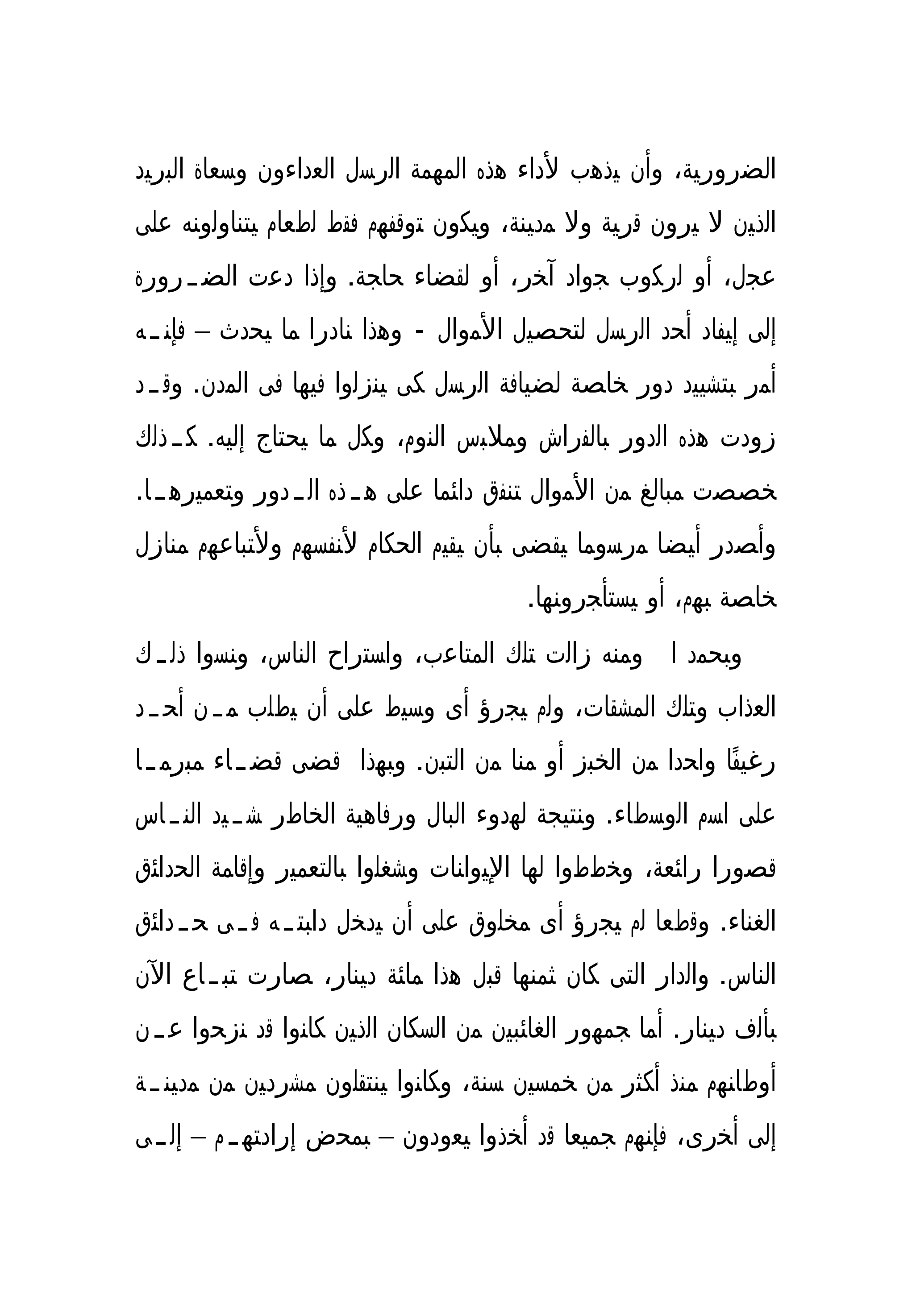
وبسبب ذلك يتعرض الناس للمتاعب والمشقات. ومهما كانوا يصرخون وينوحون، لم يصل صياحهم إلى أى من الأمراء والوزراء والحكام.

وذات يوم قدم إلى الديوان رجل هرم من الأعيان من ذوى الشرف والهمة، وشرع يقول: أيها الأمراء والوزراء والحكام: "هل تسيغون أن أكون رجلاً هرما، ولى زوجة شابة وأولادى مسافرون. وقد ترك كـل منهم زوجة شابة حسناء. كما أن لى بنات. وها هم الرسل قد نزلوا فى منزلى، وجميعهم شباب قوى نشيط **[ص٥٦٥]** يتصفون بجمال الوجه. وقد مضى عليهم زمن يقيمون عندى فيشاهدنهم أولئك النسـوة، ولـن يستطعن أن يقنعن بى وبأولادى المسافرين. وحيث إننا فى دار واحـدة مع هؤلاء الرسل، لا أستطيع مراقبتهم ليلاً ونهارا. وكمـا أرى فـإن أغلب الناس معرضون لهذا الوضع. وحيث إن الأمور تجرى على هذا النمط، فإنه لعدة سنوات أخرى لن يوجد طفل شرعى فى هذه المدينـة، وسيكونون جميعا أبناء أتراك مخاطين.

ولقد ذكرت عدة حكايات فى هذا الصدد على سبيل التمثيـل، ففـى عهد أحد سلاطين السلاجقة، كان السلطان مقيما على تخـوم نيسـابور وكان الأمراء والأتراك ينزلون فى دور الناس، ليس على هذه الشـاكلة التى تحدث فى هذه الأيام. وذات يوم نزل تركى فى أحـد المنـازل، وكانت زوجة رب الأسرة عروسا جميلة وعفيفة، وفـى أول عهـدها بالزواج، فطمع فيها التركى، وأراد أن يتذرع بحجة لإخراج الزوج من

الدار حتى يخلو له الجو، فعرف الرجل قصد التركـى، ولـم يغـادر منزله. فأخذ التركى يضرب الرجل قائلاً: "سر بجوادى وارو ظمـأه. ولم يكن الزوج يستطيع أن يخاص زوجته، ولم تعد هناك حيلـة يلجـأ إليها. وأخيرا قال لزوجته: "أنا سوف أبقى فى المنزل. اذهبـى أنـت بالجواد إلى شاطئ النهر لتسقيه. وجريا على عادة العروس فى الأيـام الأولى من حياتها الزوجية، كانت ترتدى ثيابا أنيقة، وازدانت أحسـن زينة. وتصادف أن السلطان كان يمر، فوقع نظره على تلـك المـرأة، فاستدعاها وسألها قائلاً: كيف أنك أمرأة حديثة العرس، وتقودين الجواد كى تسقيه؟! أجابت المرأة: بسبب جورك وظلمك أنت أيها السـلطان، فتعجب من قولها وسألها عن السبب، فأعادت عليه شرح قصتها. فأثر ذلك الكلام، وثارت غيرته بسبب تلك الحالة، وأمر على الفـور بـألا ينزل أى مخلوق منهم منزلاً على الحـدود هنـاك **[ص٥٦٦]**. ولهـذا السبب أقاموا شاذياخ التابعة لنيسابور التى أصبحت مدينـة فـى هـذا الزمان. كان ذلك الشيخ يتحدث عن تلك المحن وهـو يبكـى دون أن يؤثر ذلك فى الأمراء والوزراء قط.

وقصارى القول أنه عندما كان سلطان الإسلام يدبر شئون الممالك كان أول قرار له فيما يتعلق بموضوع الرسل هو أنه أمر بألا يرسـل رسول واحد من كل مائة أو مائتين من الرسل والأتباع الذين كانوا من قبل يذهبون عبثًا إلى الولايات إلا إذا كان إيفاده لتصريف مصالح الملك


الضرورية، وأن يذهب لأداء هذه المهمة الرسل العداءون وسعاة البريد الذين لا يرون قرية ولا مدينة، ويكون توقفهم فقط لطعام يتناولونه على عجل، أو لركوب جواد آخر، أو لقضاء حاجة. وإذا دعت الضـرورة إلى إيفاد أحد الرسل لتحصيل الأموال - وهذا نادرا ما يحدث – فإنـه أمر بتشييد دور خاصة لضيافة الرسل كى ينزلوا فيها فى المدن. وقـد زودت هذه الدور بالفراش وملابس النوم، وكل ما يحتاج إليه. كـذلك خصصت مبالغ من الأموال تنفق دائما على هـذه الـدور وتعميرهـا. وأصدر أيضا مرسوما يقضى بأن يقيم الحكام لأنفسهم ولأتباعهم منازل خاصة بهم، أو يستأجرونها.

وبحمد ا ومنه زالت تلك المتاعب، واستراح الناس، ونسوا ذلـك العذاب وتلك المشقات، ولم يجرؤ أى وسيط على أن يطلب مـن أحـد رغيفًا واحدا من الخبز أو منا من التبن. وبهذا قضى قضـاء مبرمـا على اسم الوسطاء. ونتيجة لهدوء البال ورفاهية الخاطر شـيد النـاس قصورا رائعة، وخططوا لها الإيوانات وشغلوا بالتعمير وإقامة الحدائق الغناء. وقطعا لم يجرؤ أى مخلوق على أن يدخل دابتـه فـى حـدائق الناس. والدار التى كان ثمنها قبل هذا مائة دينار، صارت تبـاع الآن بألف دينار. أما جمهور الغائبين من السكان الذين كانوا قد نزحوا عـن أوطانهم منذ أكثر من خمسين سنة، وكانوا ينتقلون مشردين من مدينـة إلى أخرى، فإنهم جميعا قد أخذوا يعودون – بمحض إرادتهـم – إلـى

مدنهم وديارهم القديمة، **[ص٥٦٧]** وألسنتهم تلهج بالدعاء لدولة سلطان الإسلام بإخلاص تام من صميم قلوبهم.

فليستجب ا دعاءهم.

الحكاية التاسعة والثلاثون

فى منع المكارين والجمالين والسعاة من إيذاء الناس

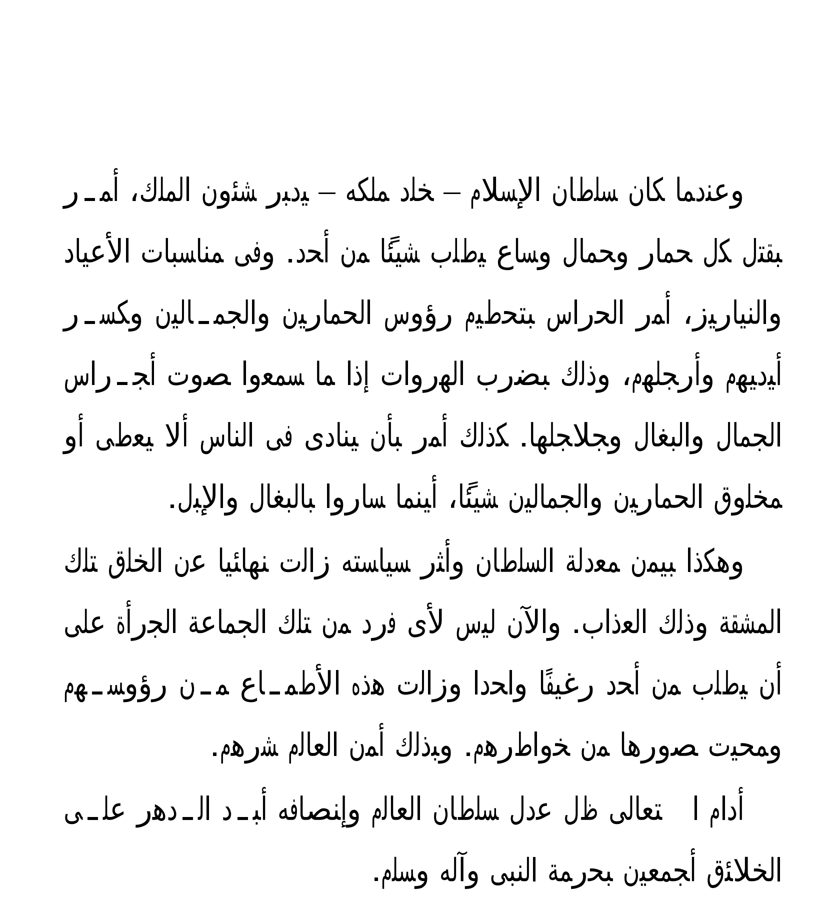
قبل هذا كان كل رجل شريف أو سيد يريد الـذهاب إلـى السـوق لتبادل المنافع أو للاستحمام، يلتف حوله عدد من المكارين قائلين لـه: "ينبغى أن تعطينا مالاً كثيرا ننفقه اليوم على عشيقاتنا وسقاتنا ومطربينا وخبزنا ولحمنا وحوائجنا ولوازمنا الأخرى. فأنـت عليـك أن تـدفع الثمن". فإذا لم يعطهم أو اعتذر لهم، بادروه بالسفاهة والوقاحة. وتكون عاقبة الأمر إما أن يأخذوا منه مالاً، وإما أن يضربوه ضربا مبرحـا. وكثيرا ما كان هذا الرجل المسكين لا يملـك مـالاً، فيضـطر إلـى الاقتراض. وبذلك يخسر ماله وعرضه وكرامته، ولا يستطيع مغـادرة السوق.

وكان هؤلاء الصعاليك يقفون على مفترق الطرق أفواجا أفواجـا. ومن استطاع من الضحايا الخلاص من فوج، وقع فى يد فـوج آخـر. وكان الحال يجرى على هذا المنوال. فإذا مـا وصـل إلـى طائفـة الجمالين، وجد نفس السلوك، وكذلك الحال إذا ما وصـل إلـى فريـق الرسل والسعاة، فإنه يجد منهم أسوأ مما وجده من الآخرين. وكثيرا ما تصادف أن شخصا واحدا يقع فى يوم ما فريسة لجميع هذه الطوائف؛

لأنهم احترفوا هذا العمل **[ص٥٦٨]** وكان هؤلاء يقفـون مترصـدين صيدهم. كما كانوا جميعا على صلة بـالخواتين والأمـراء الأنجـال والأمراء. وإذا كان لأحد القدرة على مقاومتهم والتغلب عليهم فإنه لـم يكن يرى من المصلحة منازعتهم ومجابهتهم؛ لأن هؤلاء الكبار كـانوا يتضايقون ويفكرون فى إيجاد مناصب تتيح لهؤلاء المكارين والجمالين والسعاة ممارسة هذه الأساليب وهم قادرون على ذلك. وكانوا يزينـون الدواب فى أيام الأعياد ومناسبات النوروز والحفلات وأمثال ذلك. ثـم يذهبون فوجا فوجا إلى منازل العظماء. فإذا ظهر لهم رب البيت، فإنهم كانوا يأخذون منه بإلحاح كل ما يطلبون. وكانوا يتلفظون بألفاظ غايـة فى الوقاحة والهذيان، ويكيلون له الشتائم والسباب حتى يحصلوا منـه على مطالب أكثر. وبالضرورة كانوا يسـلبون كرامـة النـاس كمـا يستولون على الأشياء التى تخصهم. وإذا لم يكن رب البيت حاضـرا، أو أنه اختفى خوفًا منهم، فإنهم يرهنون كل ما يجدونه بمبالغ كبيرة لدى السكارى المدمنين وبائعى الشراب. وإذا ذهب صاحب البيت لاسترداد هذه الأشياء، كان يسمع المزيد من السباب، ويتحمل مـا يلحقـه مـن إهانات، ويدفع من الأموال ضعفين أو ثلاثة أضعاف مـا كـان فـى حسبانه أن يدفعه كى يسترد متاعه. وكثيرا ما كانوا يسـتولون علـى الثياب الصالحة للبس، ويرتدونها هم أنفسـهم أو يلبسـونها نسـاءهم. وقطعا لم ولن يعيدوها إلى أصحابها. وفى كل سنة لم يكن أى مخلـوق

يستطيع السير فى الطرق مدة خمسة أيام أو ستة أيام قبل تلك المواسم والأعياد المعهودة. وكذلك الحال خلال خمسة أيام أو ستة بعدها؛ لأن من يصادفهم كانوا يلتفون حوله ويعاملونه بكل ما يتصفون به من وقاحه وسفاهة. وبمثل هذه الأساليب كانوا يطوفون على أبواب الحوانيت **[ص٥٦٩]** فتتعطل الأسواق بسبب سلوكهم المعيب، وتبور البضائع. ومع هذا لم يتدارك أى مخلوق هذه الأوضاع المتردية. وكان الأكابر وذوو الجاه يميلون إلى أن يزين بغالهم وإبلهم من يعملون لديهم من المكارين والجمالين، ويضعون عليها عدة أثواب حتى يستطيعوا أن ينالوا شيئًا من الناس. وكان هؤلاء الأكابر يسألون أتباعهم قائلين: من أعطاكم، ومن لم يعطكم؟! ولهذا السبب كان هؤلاء يتشجعون ويستبدون. وكان أكثر متاعب الناس وما يتكبدونه من ديون ناتجا عن هذا الأمر.

ولما كان الناس يرون أنه بتلك الطريقة يمكن دائما اغتصاب أموال الخلق وثيابهم بمثل هذا العبث، وباستعمال القوة والإلحاح والإصرار مما هو أشق من القوة، سلك أكثر الناس سلوك المكارين والجمالين والسعاة، واتفقوا معهم، فصار يجتمع حول مكارى واحد عشرة من العاطلين المحتالين. وقد وصل الأمر إلى حد أن أصبحت مقاومة هذا الوضع وتداركه من جملة المشكلات.



وعندما كان سلطان الإسلام – خلد ملكه – يدبر شئون الملك، أمـر بقتل كل حمار وحمال وساع يطلب شيئًا من أحد. وفى مناسبات الأعياد والنياريز، أمر الحراس بتحطيم رؤوس الحمارين والجمـالين وكسـر أيديهم وأرجلهم، وذلك بضرب الهروات إذا ما سمعوا صوت أجـراس الجمال والبغال وجلاجلها. كذلك أمر بأن ينادى فى الناس ألا يعطى أو مخلوق الحمارين والجمالين شيئًا، أينما ساروا بالبغال والإبل.

وهكذا بيمن معدلة السلطان وأثر سياسته زالت نهائيا عن الخلق تلك المشقة وذلك العذاب. والآن ليس لأى فرد من تلك الجماعة الجرأة على أن يطلب من أحد رغيفًا واحدا وزالت هذه الأطمـاع مـن رؤوسـهم ومحيت صورها من خواطرهم. وبذلك أمن العالم شرهم.

أدام ا تعالى ظل عدل سلطان العالم وإنصافه أبـد الـدهر علـى الخلائق أجمعين بحرمة النبى وآله وسلم.

الحكاية الأربعون

فى حظر إقامة الجوارى بالقوة فى دور البغاء

فى المدن الكبرى كان هناك من يكرهون العاهرات علـى الإقامـة بجوار المساجد والخوانق ومساكن الناس. وكذلك الحال بالنسـبة إلـى الجوارى اللائى كن يجلبن من الأطراف؛ فقد كان أكثر التجار يميلـون إلى بيعهن إلى أصحاب بيوت الدعارة؛ لأن أكثر هذه الجماعـة كـانوا يشترونهم بأثمان تفوق ما يعرضه الآخرون. وكان لبعض مـن تلـك الجوارى حمية وإرادة، فلم يكن يرغبن فى قرارة أنفسهن أن يبعن إلى أصحاب بيوت الدعارة. ولكن التجار كانوا يبيعوهن قهرا وقسرا، ثـم يجبرن على ممارسة الرذيلة.

عن هذه الأوضاع السيئة صرح سلطان الإسلام قائلاً: "إن وضـع المواخير وإقامة العاهرات فيها أمر محظور ومذموم ومسلم بـه. وإن القضاء على هذه الظاهرة، وإزالة آثارهـا لمـن أوجـب الواجبـات ولوازمها.

ولكن حيث إنه من قديم الأيام قد أهمل تنفيذ ذلك لاعتبارات أملتهـا المصالح، استمرت تلك العادة قائمة. وعلى هذا يكون القضاء على هذه الظاهرة دفعة واحدة أمرا غير مستساغ. وإذن فإنـه ينبغـى السـعى بالتدريج حتى يقضى عليها بالتأنى والحذر.

والآن فإن النساء اللائى ليس لهن ميل إلى ذلك العمل الذى أكرهن عليه، ينبغى تخليصهن من تلك الورطة؛ إذ أنه يجب أن تبـذل جهـود كثيرة حتى يصير الناقص كاملاً. وإن المرأة التى ليس لها ميل إلى ذلك العمل المذموم يكون إكراهها عليه ظلمـا فادحـا وخطيئـة كبيـرة لا تليق[١].

ولهذا السبب **[ص٥٧١]** صدر مرسوم يقضى بأن كـل جاريـة لا ترغب فى ممارسة الرذيلة فى بيوت الدعارة، لا تبـاع إلـى جماعـة المشرفين عليها. وأما من يقمن فى تلك البيوت، فإن كل من تريـد أن تخرج منها، لا تمنع من ذلك وتحدد لها رتبتها، ويعين لها ثمن تشترى به. ثم تخرج من هذه البيوت، وتزوج من زوج تختاره[٢].

---

(١) نهى الله عن تلك الرذيلة، فقال فى محكم كتابه: ﴿ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصنًا لتبتغوا عرض الحياة الدنيا. ومن يكرههن فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم﴾ (سورة النور، آية ٣٣).

(٢) هنا كتبت حاشية مطولة فى نسخة الأصل نورد ترجمتها فيما يلى:
=

= مخدوم العالمين، آصف العهد، مصنف هذا الكتاب الموسوم بالتاريخ الغازانى. ألفه باسم السلطان السعيد المغفور له المرحوم غازان خان – أنار الله برهانه – كما أنه ألف مجلدًا آخر اسمه "تاريخ العالم". وهو مجمل منذ عهد آدم حتى الآن. وسوف يكون ذيل هذا الكتاب مشتملاً على تاريخ وحكايات سلطان الوقت هذا ليظل ثابتًا ودائمًا حتى قيام الساعة. وذلك ابتداء من ولادته إلى المنتهى الذى سوف يكون خالدًا.

ولكن حيث إنه لا يكون فى متناول كل شخص أن يكتب هذين المجلدين بدقة ومهارة، وإذا حاول ذلك، فإن المصنف نفسه – عز نصره – قد دخل هذا الميدان. وأما إذا كتب شخص هذا المؤلف، وصمم على أن يقتحم هذا المجال، فإنه يمكن أن يُسدل عليه ذيل العفو والإغماض.

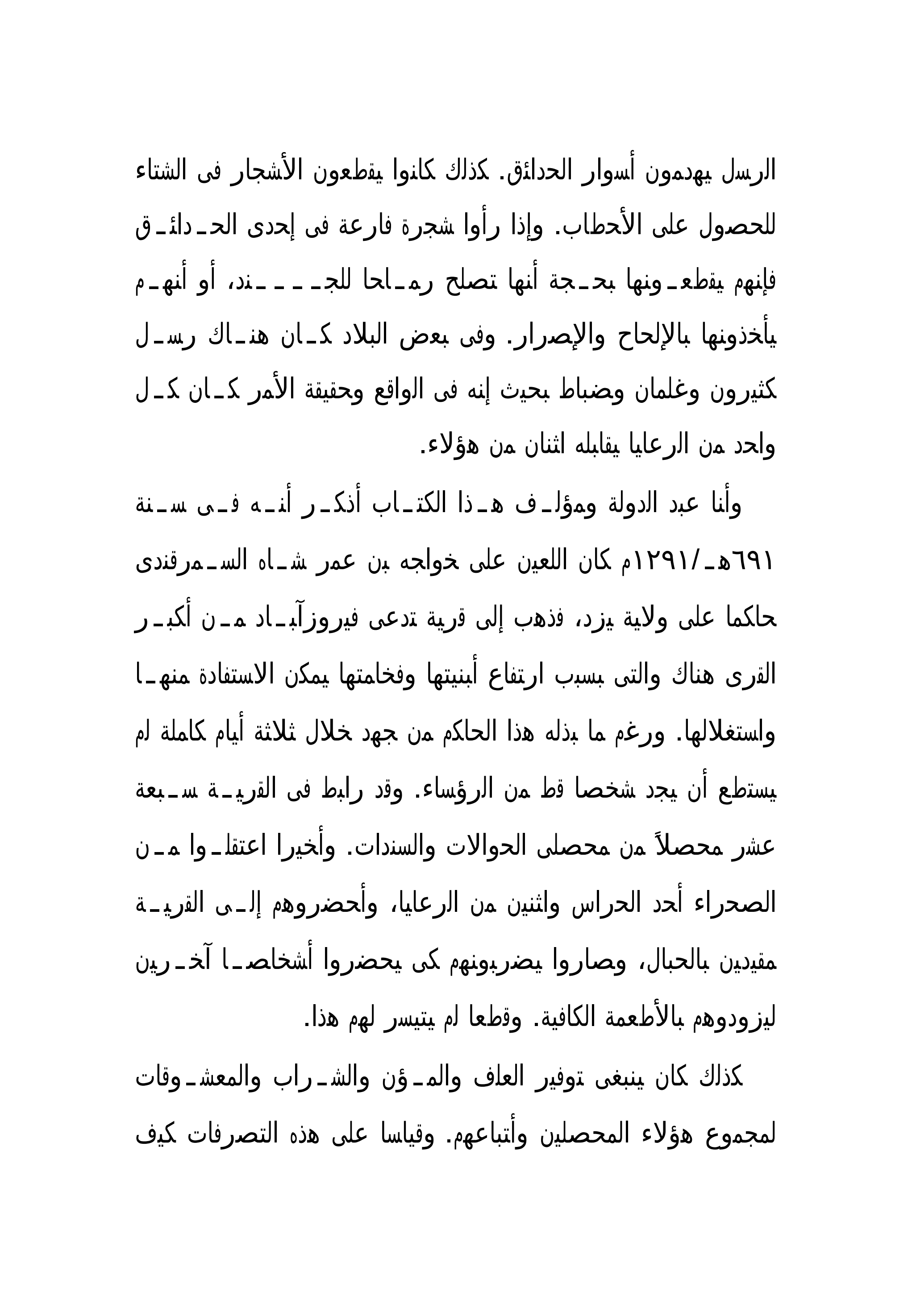
تم هذا الكتاب المبارك فى نهاية شهر شعبان سنة سبع عشر وسبعماية هلالية بمقام بغداد. والسلام والحمد لله رب العالمين. وصلى الله على خير خلقه محمد وآله أجمعين. والسلام.

ترجمة الحاشية المطولة التى كتبت للحكاية السادسة والثلاثين بعنوان: "فى ترتيب شئون كل الممالك"، والتى تحتل الصفحات [٥٥٢ إلى ٥٥٤] من نسخة الأصل. هذا وقد لوحظ أن بعض العبارات الواردة فى هذه الحاشية سبق أن ذكرها المؤلف فى صفحات سابقة من المتن.

حاشية ١٤ **[ص٥٥٢]** على هذا المنوال قاس غازان خان الأهالى وأفراد الرعايا بمقياس دقيق، وبين على أى نحو يكون ذلك. ولم تكن هناك قضية أصعب ولا أعقد من هذا بالنسبة إلى أكابر الرعايا. وبحجة أن هناك رسولاً واحدا كانوا يبيعون فى يوم واحد مائة منزل. وعاقبة الأمر أنهم كانوا ينزلون فى هذه المنازل ويستولون على عدة آلاف من السجاجيد وملابس النوم وأدوات المطبخ والأوانى والآلات. وكانوا يطلقون الدواب فى حدائق الناس ويخربون فى يوم واحد الحدائق التى عمرها أصحابها خلال ما يزيد على عشرة أعوام، وذلك بمشقة بالغة. وإذا تصادف وفقدت هذه الدواب، كانوا يقبضون على صاحب الحديقة، ويأخذون منه ثمنها أضعافًا مضاعفة. وكذلك يفعلون إذا كانت هناك ثغرة فى السور تسربت منها هذه الدواب. وكان الولاة والضباط وأتباع

خدم بكتابة هذا الكتاب: الفقير الحقير أحوج خلق الله مسعود بن عبد الله وفرغ فى رابع شهر الله الأصم رجب المرجب سنة أربع وثمانين وتسعمائة. اللهم اغفر له، ولمن نظر فيه آمين رب العالمين.

تم.



الرسل يهدمون أسوار الحدائق. كذلك كانوا يقطعون الأشجار فى الشتاء للحصول على الأحطاب. وإذا رأوا شجرة فارعة فى إحدى الحدائق فإنهم يقطعونها بحجة أنها تصلح رماحا للجند، أو أنهم يأخذونها بالإلحاح والإصرار. وفى بعض البلاد كان هناك رسل كثيرون وغلمان وضباط بحيث إنه فى الواقع وحقيقة الأمر كان كل واحد من الرعايا يقابله اثنان من هؤلاء.

وأنا عبد الدولة ومؤلف هذا الكتاب أذكر أنه فى سنة ٦٩١هـ/١٢٩١م كان اللعين على خواجه بن عمر شاه السمرقندى حاكما على ولاية يزد، فذهب إلى قرية تدعى فيروزآباد من أكبر القرى هناك والتى بسبب ارتفاع أبنيتها وفخامتها يمكن الاستفادة منها واستغلالها. ورغم ما بذله هذا الحاكم من جهد خلال ثلاثة أيام كاملة لم يستطع أن يجد شخصا قط من الرؤساء. وقد رابط فى القرية سبعة عشر محصلاً من محصلى الحوالات والسندات. وأخيرا اعتقلوا من الصحراء أحد الحراس واثنين من الرعايا، وأحضروهم إلى القرية مقيدين بالحبال، وصاروا يضربونهم كى يحضروا أشخاصا آخرين ليزودوهم بالأطعمة الكافية. وقطعا لم يتيسر لهم هذا.

كذلك كان ينبغى توفير العلف والمؤن والشراب والمعشوقات لمجموع هؤلاء المحصلين وأتباعهم. وقياسا على هذه التصرفات كيف

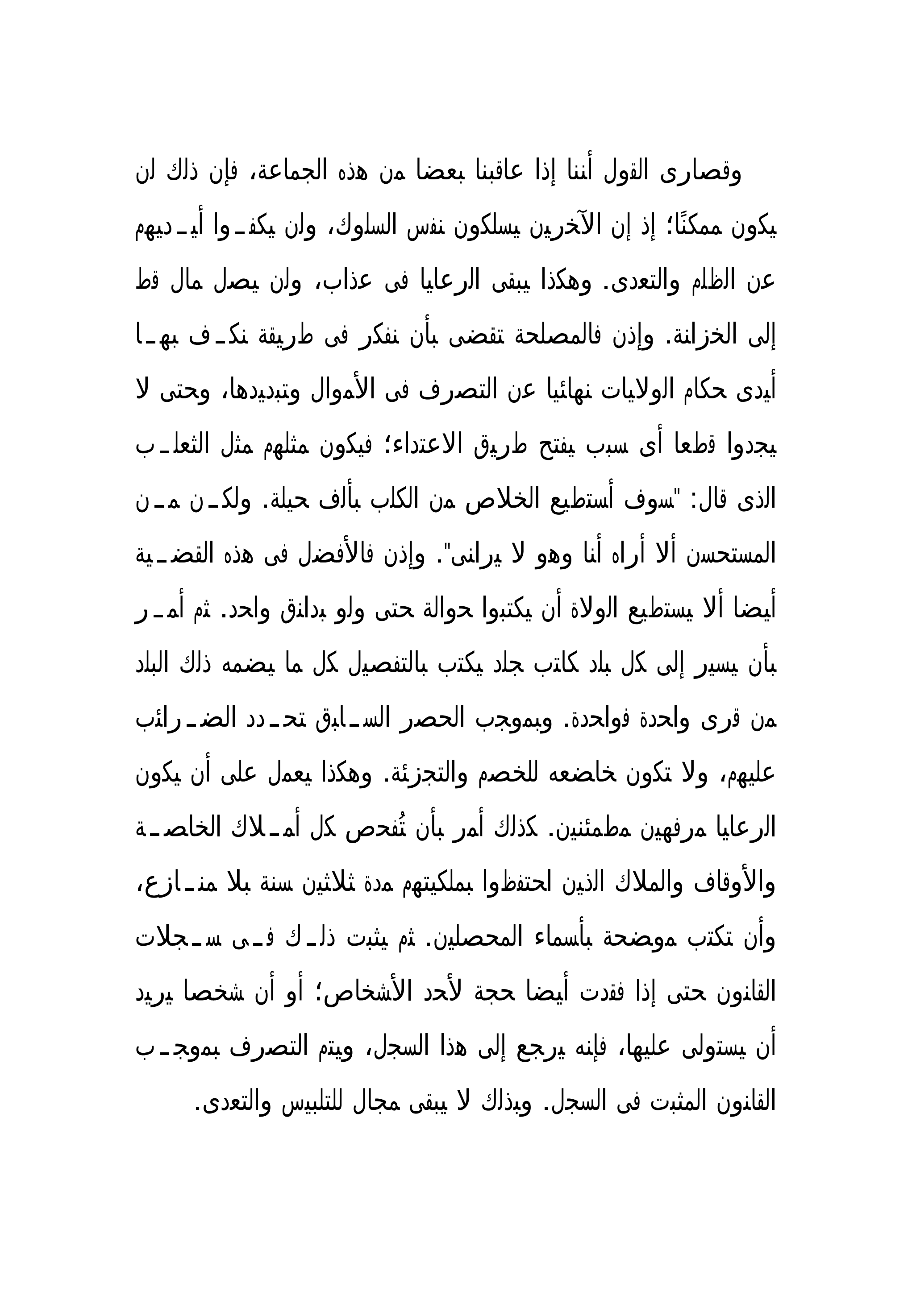
يمكن الوقوف على الأنواع الأخرى من المظالم التى كانت تقـع علـى كاهل الرعايا؟!

كذلك ينبغى التفكير فى أن البدع العديدة والرسوم السيئة إذا تعـود عليها الناس الأشرار على مر الأيام، فكيف يمكن تداركها فـى زمـن قصير؟! خصوصا أن المراسيم قد أرسلت إلى كل الأطراف فـى كـل مكان لاستمالة الرعايا ومنع بعض هذه المظالم عنهم. ولكن لم ينفذ هذا بأى وجه من الوجوه، ويئس الخلق جميعا من تنفيذ ذلك.

[ص٥٥٣] أما فى هذا الوقت الذى حل فيه العهد المبارك لسـلطان الإسلام– خلد ا سلطانه، وأدام عدله وإحسانه - فإنه يكـون تفكيـره المبارك منصبا على ما هو محض خير ومستهدفًا العدل. فبـذل كـل همته كى يتدارك الخلل الذى تطرق إلى شئون المملكة، وعمل على أن يقضى قضاء مبرما على البدع والمفاسد، وسعى فى أن يكون النـاس دائما فى راحة وطمأنينة. وفى هذا الصدد صـرح قـائلاً: "إن فوائـد محصول العمر الإنسانى فى الدنيا هى تحقيق هذه الأمور".

ولقد تعهد السلطان غازان خان بأن يبدى فى هذا الشأن سعيا جـديا واجتهادا تاما فعمل على تدارك هذه العيوب فـى البلـد الـذى يـدفع الضرائب وقال فى هذا الشأن: إنه فى الوقت الذى عدل فيه عن اتبـاع نصوص الياسا وتطرق الخلل التام إليها، ينبغى المبادرة بإصلاح تلـك

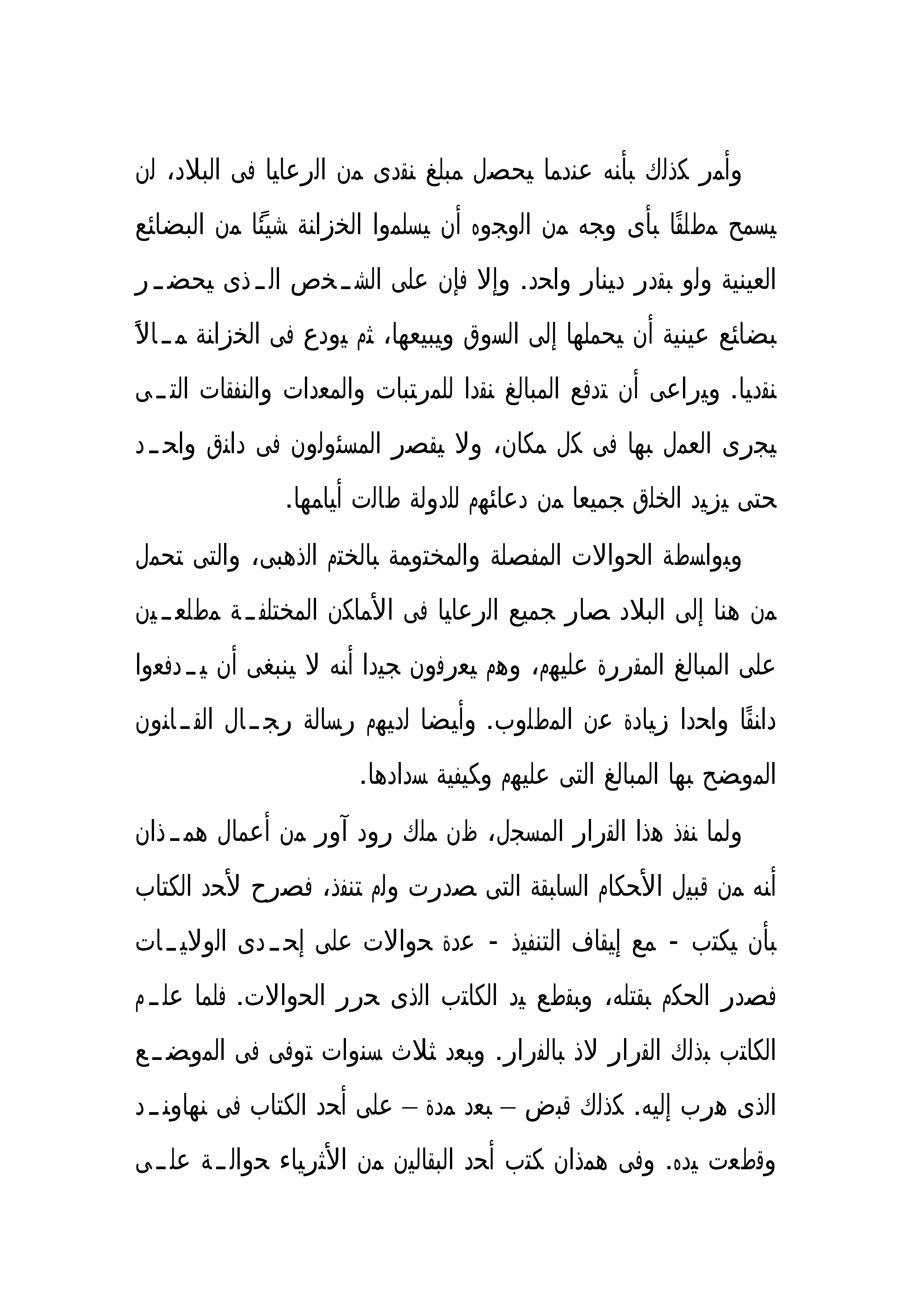
الأوضاع، والبدء بمعالجة الأمور الصغيرة، حتى يعلم الخلق أنـه مـا دامت المؤاخذة والمساءلة تجرى على الأمور الصغيرة وتوقع العقوبـة على المقصرين، تكون هذه العقوبة بالضرورة أضعاف ذلك فى الأمور الكبيرة، فيكفون أيديهم عن ذلك مرغمين. وكان يقول أيضا: "حيث إن الإحاطة بكل عمل تقتضى الوقوف على أصله ومكوناته، تصـير كـل جزئياته داخلة فيه. ولو يشغل الناس بإصلاح جزئياته واحدة فواحـدة، فيصلحون واحدة ثم يصلحون الأخرى، فإنه يختل مـرة أخـرى، ولا يمكن ضبطه. كذلك صرح قائلاً: إن القوم الذين تعودوا هذا الأسـلوب مدة طويلة، وصار مألوفًا عندهم لن يستطاع منعهم من ذلك الأمر مرة واحدة، ويكون إقلاعهم عنه أمرا صعبا للغاية. كذلك الولاة والحكام قد أصموا آذانهم فى هذه السنوات، ولم يحاولوا الإصلاح، بل شقوا علـى الرعايا، فراحوا يزيدون عليهم الأعباء ويأخذون منهم الضـرائب، ولا يعطون الديوان شيئًا. ثم يحاكمون هؤلاء الرعايا المساكين كـل سـنة، فيضطر هؤلاء إلى تقديم الرشاوى للخلاص مـنهم، ويسـردون عـدة حكايات عن كل ما يحدث لهم. وإذا قتل منهم أيضا عدة أشخاص، فإن الآخرين يتصورون أن المسألة حدثت بمحض الصدفة، وأن الشـخص الفلانى لم يهتم بهم. وإلا إذا كان هناك حرص على المال والمحافظـة عليه، فإنه كان ينبغى أن تطبق هذه القاعدة على الطوائف الأخرى.



وقصارى القول أننا إذا عاقبنا بعضا من هذه الجماعة، فإن ذلك لن يكون ممكنًا؛ إذ إن الآخرين يسلكون نفس السلوك، ولن يكفوا أيديهم عن الظلم والتعدى. وهكذا يبقى الرعايا فى عذاب، ولن يصل مال قط إلى الخزانة. وإذن فالمصلحة تقضى بأن نفكر فى طريقة نكف بها أيدى حكام الولايات نهائيا عن التصرف فى الأموال وتبديدها، وحتى لا يجدوا قطعا أى سبب يفتح طريق الاعتداء؛ فيكون مثلهم مثل الثعلب الذى قال: "سوف أستطيع الخلاص من الكلاب بألف حيلة. ولكن من المستحسن ألا أراه أنا وهو لا يرانى". وإذن فالأفضل فى هذه القضية أيضا ألا يستطيع الولاة أن يكتبوا حوالة حتى ولو بدانق واحد. ثم أمر بأن يسير إلى كل بلد كاتب جاد يكتب بالتفصيل كل ما يضمه ذلك البلد من قرى واحدة فواحدة. وبموجب الحصر السابق تحدد الضرائب عليهم، ولا تكون خاضعه للخصم والتجزئة. وهكذا يعمل على أن يكون الرعايا مرفهين مطمئنين. كذلك أمر بأن تُفحص كل أملاك الخاصة والأوقاف والملاك الذين احتفظوا بملكيتهم مدة ثلاثين سنة بلا منازع، وأن تكتب موضحة بأسماء المحصلين. ثم يثبت ذلك فى سجلات القانون حتى إذا فقدت أيضا حجة لأحد الأشخاص؛ أو أن شخصا يريد أن يستولى عليها، فإنه يرجع إلى هذا السجل، ويتم التصرف بموجب القانون المثبت فى السجل. وبذلك لا يبقى مجال للتلبيس والتعدى.

وعلى هذا سار الكُتّاب إلى البلاد حسب تلك الأوامر. وعلى الرغم من أن الناس الثقات المستقيمين قليلو الوجود، فإنهم سعوا بقدر الإمكان فى تسجيل قوانين البلاد فى سجلات خاصة ثم إحضارها إلينا.

بعد ذلك أمر بألا يكتب على الإطلاق – أى ملك أو وال أو كاتـب حوالة أو سندا على ورقة من الأوراق. **[ص٥٥٤]**. وإذا حررت حوالة فإنه يعدم الحاكم الذى أعطى التصريح. كما تقطع يد الكاتب الذى كتبها حتى يراه الكتاب الآخرون فيتعظون ويعتبرون. ثم عين لكل بلد كاتبـا يلازم الديوان الكبير، وعليه أن يكتب فى أوائل كل عام المبـالغ التـى دخلت ذلك البلد، وذلك بمقتضى القانون، ويكتب ذلك بالتحديد والتفصيل فى كل قرية، ويؤشر على هذا السجل نواب الديوان الكبير، ثم يوثـق بختم الدولة الذهبى ويرسل إلى البلد حتى يسلم الرعايا ما عليهم علـى قسطين مع نصف العشر ورسم الخزانة وذلك عن طريـق المحصـل الذى يعين فى كل بلد. وهذا المحصل يعطى أصحاب الولايات بعضـا من المال نقدا بمقتضى الحوالة المختومة بالختم الـذهبى، ثـم يرسـل الباقى إلى الخزانة العامرة، ويسلم الخزنة هذه المبالغ بالإضـافة إلـى الرسم المقرر. وإذا حصل - أحيانًا - أحد المحصلين أو الرؤساء مبلغًا أكبر فإن عليه أن يسلم الخزنة نصف دينار كرسم للخزانة عن كل مائة دينار وعشرة دوانق، وإلا فإن على المحصلين أن يحضـروا المبـالغ التى حصلوها ويودعوها مع رسم الخزانة لدى الخزنة.



وأمر كذلك بأنه عندما يحصل مبلغ نقدى من الرعايا فى البلاد، لن يسمح مطلقًا بأى وجه من الوجوه أن يسلموا الخزانة شيئًا من البضائع العينية ولو بقدر دينار واحد. وإلا فإن على الشخص الذى يحضر بضائع عينية أن يحملها إلى السوق ويبيعها، ثم يودع فى الخزانة مالاً نقديا. ويراعى أن تدفع المبالغ نقدا للمرتبات والمعدات والنفقات التى يجرى العمل بها فى كل مكان، ولا يقصر المسئولون فى دانق واحد حتى يزيد الخلق جميعا من دعائهم للدولة طالت أيامها.

وبواسطة الحوالات المفصلة والمختومة بالختم الذهبى، والتى تحمل من هنا إلى البلاد صار جميع الرعايا فى الأماكن المختلفة مطلعين على المبالغ المقررة عليهم، وهم يعرفون جيدا أنه لا ينبغى أن يدفعوا دانقًا واحدا زيادة عن المطلوب. وأيضا لديهم رسالة رجال القانون الموضح بها المبالغ التى عليهم وكيفية سدادها.

ولما نفذ هذا القرار المسجل، ظن ملك رود آور من أعمال همذان أنه من قبيل الأحكام السابقة التى صدرت ولم تنفذ، فصرح لأحد الكتاب بأن يكتب - مع إيقاف التنفيذ - عدة حوالات على إحدى الولايات فصدر الحكم بقتله، وبقطع يد الكاتب الذى حرر الحوالات. فلما علم الكاتب بذلك القرار لاذ بالفرار. وبعد ثلاث سنوات توفى فى الموضع الذى هرب إليه. كذلك قبض – بعد مدة – على أحد الكتاب فى نهاوند وقطعت يده. وفى همذان كتب أحد البقالين من الأثرياء حوالة على

شريكه بمنين من السماق[1]، فقبض عليه، وصـدر الفرمـان بقتلـه. وبمزيد من الشفاعة، خففت عنه عقوبة الإعدام، وضرب مائة وعشرين عصا، ودفع ألف دينار غرامة جزاء جرمه.

وقريبا من هذا الوقت، كانوا يجلبون للحضرة فيلة من الهند. فلمـا وصلوا إلى همذان حل الشتاء، ولم يكن يوجد علف، فقال الحكام هناك: ينبغى أن نحصل على العلف من الحدائق. فلما بلغ هذا الكلام السـمع الأشرف للسلطان، قال: إننا دائما نحتاط للأمر، ونعد فى حسـابنا مـا يلزم من العلف والمؤن للفيلة، فكيف تؤخذ من حدائق الناس؟! ولكننـا نتجاوز هذه المرة. أما إذا أقدم المسئولون بعد ذلك علـى مثـل هـذا التصرف فسوف نعاقبهم.

وصفوة القول أنه خلال هذه السنوات لم يكن هناك مجال ولن يكون لأى مخلوق أن يكتب فى حوالة ثمن من واحد من التبن. وبهـذا سـد نهائيا طريق تحرير الحوالات. وقد علم فى العام الماضى أنه لمـا لـم يكن فى مقدور الحكام أن يزيدوا شيئًا على المبلـغ المقـرر، صـار الرؤساء وعمد القرى يلتزمون بسداد الزيادة، ويقسمونها فيما بينهم.

---

(١) حب يوضع فى بعض الأطعمة ليكسبها حموضة.

وهكذا عندما يعلم كل واحد من الرعايا المبلـغ المقـرر عليـه، لا يعطى شيئًا زيادة عن المطلوب. كذلك لا يستطيعون مطالبـة الغربـاء والأشخاص الآخرين الذين لم ترد أسماؤهم فى الكشوف.

النصوص الإضافية

(النص الأول)

حكاية مسير الأمير نوروز إلى تركستان لدى قيدوخان

[ص٥٧٧] عبر نوروز مع نفر ضئيل من المطرودين نهر جيحون عن طريق بدخشان وصمم على المسير إلى الأمير قايدو[1] بن قاشـين بن اوكتاى قاآن وقال لنفسه: "إن الراجل لا يصير خبيرا ومجربا ما لم يسافر ويرحل". وعندما وصل نوروز إلى حضرة الأمير قايدو أظهـر له الصدق والطاعة والإخلاص. ولما سأله قايدو عن سبب جلائه عـن وطنه المألوف وترك مسكنه المعروف وعن الباعـث علـى قدومـه ووصوله إلى هنا، أجاب قائلاً: "إن أمنيتى ورغبتى ودعائى إلى ا أنا العبد المخلص والمحب دون إكراه هى أن أتشرف وأسـعد بمشـاهدة صاحب البلاط الملكى وطلعة غرته الميمونة. وحمدا ومنه فإن آثار

---

(١) يكتب أيضًا قيدوخان، وهو ابن قاشى بن اوكتاى قاآن. ربى فى معسكر جنكيز خان، وبعد وفاة جده اوكتاى لازم منكو قاآن وبعده كان يلازم أريق بوكا، وسعى فى إجلاسه على عرش الخانية. فلما خضع أريق بوكا لأخيه قوبيلاى قاآن وأطاع أمره، استشعر قايدو خوفًا من قوبيلاى، فثار عليه، وطغى وبغى، وارتكب عدة مخالـفات. وقد عمر دهرًا طويلاً إلى أن توفى متأثرًا بجراحه فى إحدى المعارك التى خاضها ضد تيمور قاآن حفيد قوبيلاى قاآن (انظر جامع التواريخ: تاريخ خلفاء جنكيز خان من اوكتاى قاآن إلى تيمور قاآن، الترجمة العربية، ص٣٢١ – ٣٢٢؛ رحلات ماركوبولو، ترجمها إلى الإنجليزية ونشرها وليم مارسدن، وترجمها إلى العربية عبد العزيز توفيق جاويد، ص ٣٥١، ٣٥٢، الناشر الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٧م).

الرفعة وعلو الشأن وأخبار رعاية الرعية وآيات السياسـة والكياسـة وذكر العظمة وصيت الملك لهذا البلاط العالى القدر قد طبق الآفـاق". ثم شرح أحواله دون تردد ودهشة وخشية، وختم كلامه قائلاً: "إن علاّم الغيوب مطلع وعليم بأننى برئ من الذنب والخيانة– اللذين اتهمت بهما – أكثر من براءة الذئب من دم يوسف. كما أننى أطهـر مـن صـفاء السماء.

(بيت من الشعر الفارسى ترجمته:)

لم يجر على لسانى ولم يمر بخاطرى

ولم تكن قـــط هـــذه نيتـى أنا العبد

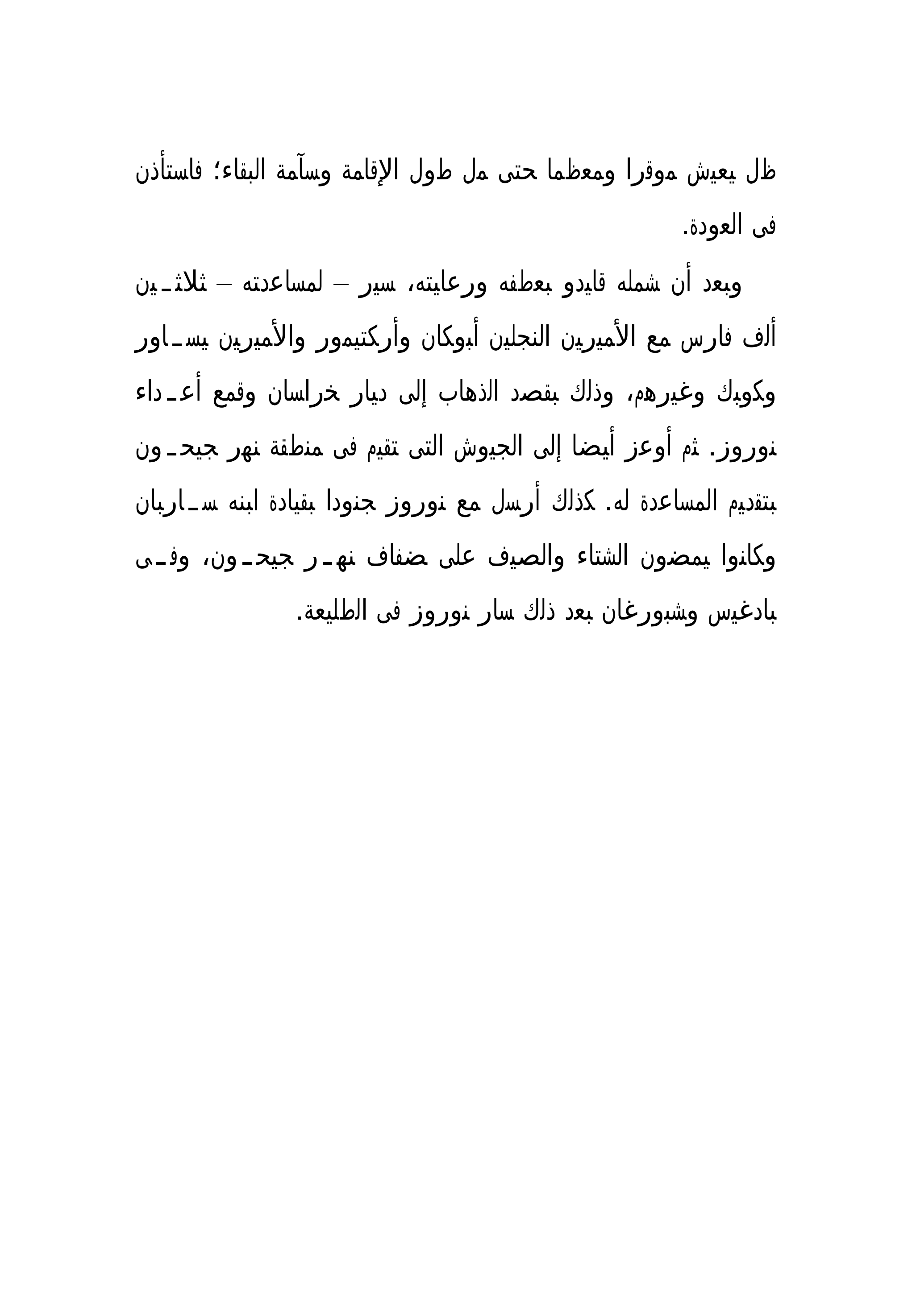
عندئذ قال قايدو: "إذن ما سبب الانهزام والفرار والاضـطراب؟! " أجاب نوروز: حقًا! إنها مثل أسطورة الثعلب الذى كـان يفـر هاربـا مسرعا. فسأله ابن آوى عن سبب انهزامه. فأجاب الثعلب: إن الملك قد يكون غبيا ساذجا كالحمار. فقال ابن آوى: حيث إنك لست حمارا فلماذا تهرب؟ قال: يا صاحبى إلى أن يثبت أننى لسـت حمـارا، لا بـد أن يصيبنى كثير من الجراح المؤلمة القاسية. **[ص٥٧٨]** فأعجـب قايـدو بهذه القصة إعجابا شديدا، وشمله برعايته التامة وأجلسه إلـى جانبـه، وقدم له كل ما يلزم للإقامة والتكريم.

وهكذا ظل نوروز حائرا مدة ثلاثة أعوام متتالية فى إقليم تركستان كالحمار فى الوحل والحرباء فى الماء. وكان يرجئ أيامه التى لا نهاية

لها. ولما كان مجبولاً على العناد والكبرياء، لم يكن ينسـجم – فـى غربته ووحشته وكربته – مع أمراء قايدو وخواصه جريا على قاعـدة الغرباء والضيوف. والسبب فى ذلك أن نوروز عاش ثلاثين سنة كاملة وسط ممالك إيران، وقلْب ديار خراسان فى هناء ونعيم وحرمة وتعظيم فى دولة خانات المغول. وكان الطى والنشر والقبض والبسط والحـل والعقد فى الإقليمين الثالث والرابع فى قبضة والده أرغون آقا[1]. وكان قد ترك له الشىء الكثير مـن المتـاع والأمـلاك والعقـود والنقـود والحواشى والمواشى التى لا حصر لها.

لكل هذا رغم زوال الحرمة والحشمة وضياع الأملاك والأسـباب والجلاء عن الأهل والديار، لم يعـد يحتمـل صـولة أمـراء قايـدو وسطوتهم. وهم أيضا لم يكونوا يسلكون معه طريق العزة والحرمـة، وجادة الوفاق والرفاق. ورغم وجود كل هذا لم يحط أحد من قدره، بل

(١) هو من قبيلة أويرات وأبوه تايجو الذى كان أميرًا لألف جندى وتعد قبيلة أويرات من أشهر قبائل المغول. تولى أرغون حكم إيران من قبل خاقانات المغول قبل مجىء هولاكو خان، فقام بمهمته خير قيام، وألحق بخدمته موظفين أكفاء كان منهم المؤرخ عطا ملك الجوينى. قام أرغون بعدة إصلاحات، وخفف الضرائب عن كاهل الرعايا وشعروا فى عهده بالأمن والأمان. وأثناء قيامه بمهام عمله تعرض لحملات مغرضة من قبل الحاقدين الحاسدين الطامعين فى منصبه، ولكنه كان يلزمهم الحجة وينتصر عليهم. وهكذا استمر يؤدى واجبه إلى أن قدم هولاكو بحملته على إيران فاستقبله أروع استقبال، وأقام له سرادقًا فخمًا منسوجًا بخيوط الذهب وصار واحدًا من أخلص أتباعه. تحدث عن أرغون آقا المؤرخ عطا ملك الجوينى فى صفحات عديدة ومتفرقة من كتابه تاريخ جهانكشاى (انظر ترجمة الدكتور محمد التونجى لهذا الكتاب، المجلد الثانى، حلب ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م).



ظل يعيش موقرا ومعظما حتى مل طول الإقامة وسآمة البقاء؛ فاستأذن في العودة.

وبعد أن شمله قايدو بعطفه ورعايته، سير – لمساعدته – ثلاثين ألف فارس مع الأميرين النجلين أبوكان وأركتيمور والأميرين يساور وكوبك وغيرهم، وذلك بقصد الذهاب إلى ديار خراسان وقمع أعداء نوروز. ثم أوعز أيضا إلى الجيوش التي تقيم في منطقة نهر جيحون بتقديم المساعدة له. كذلك أرسل مع نوروز جنودا بقيادة ابنه ساربان وكانوا يمضون الشتاء والصيف على ضفاف نهر جيحون، وفي بادغيس وشبورغان بعد ذلك سار نوروز في الطليعة.

إسلام غازان وكيف تم ذلك

[ص٦٠٤] كان غازان المبارك النظر، الميمون المقدم يتشاور مـع الأمراء فى تدبير القضاء على الأعداء وقهرهم وقمعهم، وبأية وسـيلة يمكن ذلك حتى يصير الخصم قرينًا للبوار ومقضيا عليه بالفناء. وكان كل أمير يدلى بدلوه فى هذا الشأن بقدر وسعه وطاعتـه. وبحكـم أن الأمير نوروز سبق أن قدم هدية لغازان - إجلالاً وتعظيما - عـرض على رأى السلطان ملجأ العالم قائلاً:

(شعر فارسى، ترجمته)

هكـذا قـال: أيهـا الملـك السـعيد المقـدم
بعدلك يصير الجو ربيعـا فـى شـهر "ردى"[(١)]
فلتبـق دائمـا موفقًـا فـى العـالم
وليكـن هـذا العـالم مثلـى عـبدا مطـيعا لـك

لقد أثر عن علماء الإسلام والمنجمين وأرباب التقويم أنـه سـوف يظهر خلال سنة ستمائة وتسعين هجرية (١٢٩١م) سلطان عظيم يكون

---

(١) دِىْ: الشهر العاشر فى السنة الإيرانية. فيه يشتد البرد، وهو يقابل شهر ديسمبر وأيامًا من شهر يناير فى السنة الميلادية.

ظهيرا للدين الإسلامى، فيصير الإسلام - بفضل رعايتـه وعنايتـه - ناضرا مزدهرا بعد أن كان مندرسا. وبسبب عدل هذا السـلطان فـى ملكه تصير الشاه آمنة ومستريحة من بطش الذئب، ويتخاص الغـزال من جور الفهد. ولشمول إنصافه تسلم الصعوة[٢] الضعيفة من صـلابة الصقر، وينجو (القبج)[٣] من شوكته ومهابته ويظل التاج وعرش الملك لسنوات عديدة فى مكانهما اللائق بهما. وأحيانًا كان يجول بخاطر العبد أن يكون ذلك العاهل هو غازان خان إذ أن أمـارات هـذه العلامـات ومخائل هذه الشمائل تبدو فى صورة الحال وصفحة آثار الجبين المبين للأمير النجل المانح الدر.

وإنه لظاهر وواضح أنه لو تقلد الأمير النجل قلادة الإسلام، والتزم عقائد الإيمان وطرائقه، فلا بد وأن يكون ممثلاً لأولى الأمر فى عهـده فيمنح رعاياه المسلمين - الذين ظلوا قابعين فى حضيض المذلة وهبوط الوبال - نشو الإيمان ونماء الرعاية؛ حتى يتيسر لهم بعد ذلك نصـر الموالى وقهر الأعداء عن طريق نشر الدين وبسط العـدل بعـد بـذل الطاعة التى لا مفر منها، والتى تكون فى الأعماق فرض عـين، بـل عين فرض. ويصير جميع المسلمين مريدين ومحبين. وبسبب صـدقه

---

(٢) الصحوة والصعوة واحد، وهو طائر صغير أحمر الرأس.
(٣) (القبج) الحجل، معرب كبك (انظر كتاب الألفاظ الفارسية المعربة، تأليف السّيد ادّى شير، ص١٢٣، بيروت ١٩٠٨).

وإخلاص همته وتوجه القلوب إليه **[ص٦٠٥]** ينصره الحـق سـبحانه وتعالى. وإن الدين الإسلامى الذى اندرس وانطوى بسبب تغلب كفـار التتار واستيلاء الظالمين والفاسقين ليحيا بيمن تقوية الأمير النجل.

وحيث إن الحق سبحانه وتعالى كان قد زين وأنار فى الأزل قلـب الأمير النجل بنور التوحيد، وصارت ذاته الشريفة مخزن أسرار القدس وحاملة المعرفة، وطلع عليه صبح السعادة الأبدية، ورفع عن بصيرته غشاوة العيوب والريب - أثر فى قلبه المبارك كلام نوروز المعقـول، وتفتحت زهرة قلبه لحديثه، وظهرت "يد موسى البيضـاء مـن جيـب الغيب"، وأزال عن عينه وأذنه حجاب الظلمة وغطاء الغفلة، واختـار النور بدلاً من الظلمة، فقال: إن حديث هذا الداعية وشعشة هذا الباحث كانا نصب عينى وضميرى إذ كيف يقتضى العقل أن يسجد رجل عاقل لجماد مصنوع موضوع على الأرض ولا يتوسل إليـه مباشـرة، بـل يستمد الهمة من شخص آخر يرمز إليه بهذا الصنم. وإن الخضوع أمام جماد وشروط لثمه ومراسم تقبيله لأمر مستنكف.

وإذن فعبادة الأصنام والسجود للأوثان كلاهمـا أمـر فـى غايـة الضلالة والجهالة ومادة للاحتقار والاستهزاء. وإن الدين الإسلامى هو زبدة جملة الأديان وخلاصة النواميس الإلهية؛ لكن العلائق والعوائـق المتواترة والمتوالية كانت حائلة دون هداية نور الإيمان. وحيثما يوجـد الماء قريبا لا تدعو الحاجة إلى حبل طويل.

وهكذا صار اقتراح نوروز مسموعا ومقبولاً. ثم طلـب إحضـار قطعة اللعل التى كان قد أودعها خزائنه. وفى اليوم الرابع من شـعبان سنة أربع وتسعين وستمائة (١٢٩٤م)، فى جوسق كان يوجد فيه عرش أرغون "بمرغزار لار دوماند" أعدوا حفلاً كبيرا. ثم اغتسـل الأميـر النجل وفق الشريعة الإسلامية، ولبس ملابس نظيفة. بعد ذلـك صـعد فوق قصر مرتفع ووقف على درجة العرش، مظهرا الخضوع لحضرة المربى. ثم لقنه كلمة الشهادة الشيخ "صدر الدين إبراهيم" خلف صـدق الشيخ صدر الدين حمويه - رحمه ا -.

وهكذا أخذ غازان بعزم صادق ينظم من صميم قلبه الصادق كلمـة الإخلاص. وقد ردد عدة مرات كلمة التوحيد بلفظ التكبير.

(بيت من الشعر الفارسى ترجمته)

رفع ذلـك الأميـر النجـل إصـبعه

فـــــذكـــــــــــــــره

بـــــوحـــــــــدانية ا

وقد أسلم معه جميع الأمراء والجنود، وعددهم يقرب مـن "مائـة ألف"[1] مشرك متمرد. ورغم أن اللامات (بخشيان) قـد علمـوه أيـام الصبا وزمان الطفولة عبادة الأصنام وتقديس الأوثـان، وكـان ثابتـا

---

(١) يـذكر المـؤرخ عبـد الله الشـيرازى الملقـب بوصـاف الحضـرة فـى كتابـه "تـاريخ وصـاف" ص٣١٧ طبع بمباى أن من أسلم من المغول يزيد على مائتى ألف مشرك.

وراسخًا فى هذه العقيدة فإنه عندما دخل فى الدين الإسلامى، أصـغى بأذن العقل وسمع الرضا إلى أمة الإسلام والدين الحنيف، فاستقر فـى سكينة صدره. وكان فى الإخلاص **[ص٦٠٦]** أصـدق مـن أويـس وسلمان، وصار الجمع مشغولين بهذه الأفراح والمسرات الكثيرة وإقامة الحفلات والمآدب. وكان كل الأمم من الترك والعجـم ينثـرون علـى عرشه المبارك الدراهم والدنانير ونفائس الجواهر ورغائب النفـائس. وكانو ينشدون.

(شعر فارسى ترجمته)

ليظل باقيـا باقيـا فـى ملكـك علـى الاسـتقرار والـدوام....

المال والحال والزمن والفأل والأصل والنسل والحـظ والعـرش

وليبق المال الوافر والحال الحسن والفأل السعيد والسنة المباركـة

وليـ ـ ـ ـدم للأصل - ثلاثـين نسلاً - الحظ الباسـم والعـرش المطاع

ثم وقف الأمراء والقواد (نوينان) والأئمة والمشايخ. واقتداء بسلطان الإسلام، وباعتقاد صادق مبرءا من شوائب الكدر ومصفى من الرياء، دخلت - فى دين الإسلام أفواجا - طوائـف التتـار مـن الأطـراف والنواحى والبوادى والضواحى؛ من الكافر والكافرة ابتداء مـن سـن السابعة إلى سن السبعين، وذلك بـدافع الرغبـة ومحـض الاختيـار، وشرفوا بتشريف هداية نور الإيمان، ليظل توالدهم وتناسلهم مـؤمنين

ومؤمنات حتى نَفْخ الصور. وصار اعتقاد الموحدين بإعجاز أمة أحمد وإظهار دين محمد عليه الصلاة والسلام أكثر تمهيدا. كما صار صدق إخلاص المؤمنين أكثر تأكيدا.

وفى ذلك اليوم أمر لجماعة الأئمة والمشايخ والسادات بـالإدرارات والإنعامات والمرتبات والمناصب. كذلك بذل النذور والصدقات فى حق الفقراء والمساكين. ثم توجه إلى قبور الأولياء ومزارات "الأبـدال"[(1)]. وكان يطلب بتضرع وابتهال من - حضرة ذى الجلال - القوة للانتقام من الأعداء ودفع الحساد. كذلك أنشأ الخوانق والقبور.

بعد ذلك سير - بهذه البشرى - العدائين وسعاة البريد إلى أطراف البلاد وأرجائها وأنحائها. وإن حلاوة هذه السعادة التى هى أصل الحياة وثمرة شجرة التوفيق لخالدة باقية. وهكذا أوصل هذا النبأ إلـى سـكان الآفاق. فتوجه إلى حضرة غازان مـن أطـراف العـراق وخراسـان المشايخ والأئمة فى خضوع تام. ثم استقبل شهر رمضان ركن الصيام

(١) الأبدال جمع بدل. وعند المتصوفة أن الحق تعالى جعل الأرض سبعة أقاليم واختار لكل إقليم من عباده الصالحين وليًا فيه يسمى "بدلاً" ليحفظه. ويقال إنهم صور روحانية محضة يبدون فيها. وهم أولياء إذا مات أحدهم خلفه غيره فكان بدلاً منه. كما أن حجاب ظلمة الحواس مرفوع عنهم. ولذلك يبدون فى شكول مختلفة متباينة، وهم معروفون باستقصاء الورع وتصحيح الإرادة وسلامة الصدر للخلق والنصيحة لهم. (انظر دكتور حسين مجيب المصرى: المعجم الفارسى العربى الجامع، ص٢٧، القاهرة ١٩٨٣؛ دكتر سيد جعفر سجادى: فرهنك لغات واصطلاحات وتعبيرات عرفانى، جاب دوم، ص٩، تهران ١٣٥٤ هـ.ش).

بدلاً من الأصنام، وكل ليلة كان الخلق الكثيرون من التازيك والتـرك والأمصار يتناولون طعام الإفطار على بساط سماطه.

وهكذا فإن عروة حبل الدين المتين التى كانت قد وجدت الانفصـام والانصرام عادت إلى التنظيم والقوة، وصارت همة غازان مقصـورة على تأسيس قواعد الدين وتمهيد مبانى اليقين، وتقوية أسـاس الشـرع ورعاية قوانين الأصل والفرع. وكانت همته باعثة على التزام طريـق الورع ونهمته متجهة إلى العفة والتقوى.

جعل ا سبحانه وتعالى الوجود المبارك لسلطان الإسلام غـازان خان - فى طوفان الطوارق والحدثان - **[ص٦٠٧]** كفـيلاً لمصـالح العباد ونجاحهم وسببا لأمن الخلق وأمانهم حتى تصان آلاف النفـوس الطاهرة من أذى العذاب والخوف من مخالب التتار الكفار؛ فلا جرم أن صار صيت أيام معدلته وسمعة سوق مكرمته طنين آذان العالم.

وصفوة القول أنه بعد ذلك صارت طاعته واجبة ولازمه على ملوك الإسلام وسلاطينهم بموجب قوله تعالى: ﴿ ... وأولى الأمر منكم﴾[1].

(تمت الترجمة بحمد ا وفضله)

---

(١) إشارة إلى الآية الكريمة: ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم، فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر، ذلك خير وأحسن تأويلا ﴾ (سورة النساء الآية ٥٩).

قائمة المراجع

أولاً: المراجع العربية

ابن الأثير الجزرى (على بن أحمد أبى الكرم):

- الكامل فى التاريخ، تحقيق الشيخ عبد الوهاب النجـار، القـاهرة ١٣٤٨ – ١٣٥٨هـ = ١٩٢٩ – ١٩٣٩م.

ابن إياس الحنفى (محمد بن أحمد):

- بدائع الزهور فى وقائع الدهور، الجـزء الأول – القسـم الأول، تحقيق الدكتور محمد مصطفى، الطبعة الثانية، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ١٤٠٢هـ – ١٩٨٢م.

ابن حبيب (الحسن بن عمر بن الحسن بن عمر):

- تذكرة النبيه فى أيام المنصور وبنيه: حوادث وتـراجم (٦٧٨–٧٠٨هـ/ ١٢٧٩ – ١٣٠٨م)، حققه دكتور محمد محمد أمين وراجعه دكتور سعيد عبد الفتاح عاشور، مطبعة دار الكتـب، القاهرة ١٩٧٦م.

ابن حجر العسقلانى (الحافظ شهاب الدين أحمد بن على بن محمد بن على بن أحمد):

- الدرر الكامنة، نشر دار الجيل، نسخة مصورة من طبعة دائرة المعارف بحيدر الدكن، بيروت ١٣٥٠هـ – ١٩٣١م.

ابن زيد آل محمود (عبد ا) الشيخ:

- قضية تحديد الصداق، قطر – الدوحة – ١٩٧٦م.

ابن شاكر الكتبى (فخر الدين محمد بن أحمد):

- فوات الوفيات، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميـد، القـاهرة ١٩٥١م.

ابن العبرى (غريغوريوس أبو الفرج بن أهرون الطبيب الملطى):

- تاريخ مختصر الدول، بيروت ١٩٥٨م.

ابن فضل ا العمرى (شهاب الدين أبو العباس أحمد بن يحيـى):

- مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار. دولـة المماليـك الأولـى (٧٠٠ – ٧٤٩ هـ / ١٣٠١ – ١٣٤٩م): دراسـة وتحقيـق دوروتيا كرافولسكى ترجم التمهيد المطول عن الألمانية الدكتور رضوان السيد، الطبعة الأولى، الناشر المركز الثقافى للبحوث، بيروت ١٤٠٧هـ – ١٩٨٦م.

ابن الفوطى (كمال الدين أبو الفضل عبد الرزاق بن تـاج الـدين أحمد):

- الحوادث الجامعة والتجارب النافعة فى المائة السـابعة (٦٤٢–٧٢٣هـ / ١٢٤٤ – ١٣٢٣م)، وقف على تصحيحه والتعليـق عليه مصطفى جواد، بغداد ١٣٥١هـ – ١٩٣٢م.

أبو الفداء (الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل):

- المختصر فى أخبار البشر (تاريخ أبى الفداء) نشر مكتبة المثنى، القاهرة بدون تاريخ.

- تقويم البلدان، تصحيح رينود مدرس العربيـة والبـارون مـاك كوكين ديسلان، باريس ١٨٤٠ مسيحية.

إدريس (محمد محمود):

- رسوم السلاجقة ونظمهم الاجتماعية، الطبعة الأولـى، القـاهرة ١٩٨٣م أرنولد (سير توماس):
- الدعوة إلى الإسلام، ترجمه إلى العربية الدكتور حسن إبـراهيم وآخرون الطبعة الثانية، القاهرة ١٩٥٧م.

الإصطخرى (ابن إسحق إبراهيم بن محمـد الفارسـى المعـروف بالكرخى):

- المسالك والممالك، تحقيق الدكتور محمد جابر عبد العال الحينى، مراجعة محمد شفيق غربال، القاهرة ١٣٨١هـ – ١٩٦١م.

بارتولد (فاسيلى فلاديميروفتش):

- تاريخ الترك فى آسيا الوسطى، ترجمة الدكتور أحمـد السـعيد سليمان راجعه إبراهيم صبرى، الناشر مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٥٨م.
- تاريخ الحضارة الإسلامية، ترجمة حمزة طاهر، الطبعة الثالثـة، الناشر دار المعارف بمصر، القاهرة ١٩٥٨م.
- تركستان من الفتح العربى إلى الغزو المغولى، نقله عن الروسية صلاح الدين عثمان هاشم، الناشر قسم التراث العربى بالمجلس

الوطنى للثقافـة والفنـون والآداب، الكويـت ١٤٠١هـ ـ – ١٩٨١م.

بدر (مصطفى طه) دكتور:

- مغول إيران بين المسيحية والإسلام، القاهرة بدون تاريخ.

البدليسى (شرف خان):

- شرفنامه. ألفه بالفارسية شرف خان البدليسـى، ترجمـه إلـى العربية، محمد على عونى، راجعه وقدم له يحيـى الخشـاب، القاهرة ١٩٦٢م.

براون (إدوارد جرانفيل):

- تاريخ الأدب فى إيران من الفردوسى إلى السعدى، نقلـه إلـى العربية الدكتور إبراهيم أمين الشواربى، القاهرة ١٣٧٣هـ ـ – ١٩٥٤م.

بروكلمان (كارل):

- تاريخ الشعوب الإسلامية، نقله إلى العربية الدكتور نبيـه أمـين فارس ومنير البعلبكى، الطبعة الأولى، بيروت ١٩٤٩م.

الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر):

- الحيوان، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، الجزء الأول، الطبعة الثالثة، بيروت ١٣٨٨هـ – ١٩٦٩م.

الجراحى (إسماعيل بن محمد العجلونى) الشيخ المفسر:

- كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة

الناس، الجزء الثانى، دار إحيـاء التـراث العربـى، بيـروت ١٣٥٢هـ.ش.

جرجى زيدان:

- تاريخ آداب اللغة العربية، الجزء الثالث، القاهرة ١٩٣١م.

جمال الدين (محمد السعيد) دكتور:

- علاء الدين عطا ملك الجوينى حاكم العراق بعد انقضاء الخلافة العباسية الطبعة الأولى، القاهرة ١٤٠٢هـ – ١٩٨٢م.

جنيد شيرازى (معين الدين أبو القاسم):

- شد الإزار فى حط الأوزار عن زوار المزار، بتصحيح وتحشية محمد قزوينى وعباس إقبال، طهران ١٣٢٨هـ.ش.

حِتى (فيليب): دكتر

- تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ترجمه الدكتور جمال اليـازجى أشرف على مراجعته وتحريره الدكتور جبرائيل جبور، الطبعـة الثانية، بيروت ١٩٧٢م.

الحميرى (محمد عبد المنعم):

- الروض المعطار فى خبر الأقطار، حققه إحسان عباس، الطبعة الثانية بيروت ١٩٨٠م.

خصباك (جعفر حسين) دكتور:

- العراق فى عهـد الإيلخـانيين ٦٥٦ – ٧٣٦هـ ـ / ١٢٥٨ – ١٣٣٥م: الفتح – الإدارة – الأحـوال الاقتصـادية – الأحـوال الاجتماعية، بغداد ١٩٦٨م.

خليل أدهم:

- تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة، نقله عن التركيـة الدكتور أحمد السعيد سليمان، الناشـر دار المعـارف، القـاهرة ١٩٧٢م.

الدوادار (بيبرس):

- التحفة المملوكية فى الدولة التركية: تاريخ دولة المماليك البحرية فى الفترة من ٦٤٨ – ٧١١هجرية، تحقيق دكتور عبد الحميـد صالح حمدان، الطبعة الأولى، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م.
- زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة، الجزء التاسع، تحقيق الـدكتورة زبيدة محمد عطا، المملكة العربية السعودية، بدون تاريخ.
- مختار الأخبار: تاريخ الدولة الأيوبية ودولة المماليـك البحريـة حتى سنة ٧٠٢هـ، تحقيق دكتور عبد الحميد صالح حمـدان، الطبعة الأولى، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة ١٤١٣هـ – ١٩٩٣م.

الدواداري (أبو بكر عبد ا بن أيبك):

- كنز الدرر وجامع الغرر، وهو الدر الفاخر فـى سـيرة الملـك الناصر تحقيق هانس روبرت رويمـر، القـاهرة ١٣٧٩هـ – ١٩٦٠م.

ديماند (م.س):

- الفنون الإسلامية، ترجمة أحمد محمد عيسى، مراجعة وتقديم الدكتور أحمد فكرى، الطبعة الثالثة، القاهرة ١٩٨٢م.

رشيد الدين (فضل ا بن عماد الدولة أبى الخير بن موفق الدولة):

- جامع التواريخ، تاريخ المغول – المجلد الثانى – الجزء الأول: تاريخ هولاكو مع مقدمة كاترمير، نقله عن الفارسية إلى العربية الأستاذ محمد صادق نشأت والدكتور محمد موسى هنداوى والدكتور فؤاد عبد المعطى الصياد، وترجم مقدمة كاترمير عن الفرنسية الدكتور محمد محمد القصاص، القاهرة ١٩٦٠م.
- جامع التواريخ، تاريخ المغول، المجلد الثانى، الجزء الثانى: تاريخ أبناء هولاكو خان من آباقاخان إلى كيخاتوخان، نقله عن الفارسية إلى العربية الأستاذ محمد صادق نشأت والدكتور فؤاد عبد المعطى الصياد القاهرة ١٩٦٠م.
- جامع التواريخ، تاريخ خلفاء جنكيز خان من أوكتاى قاآن إلى تيمور قاآن، نقله عن الفارسية إلى العربية الدكتور فؤاد عبد المعطى الصياد الناشر دار النهضة العربية، بيروت ١٩٨٣م.

زكى محمد حسن (دكتور):

- التصوير فى الإسلام عند الفرس، الناشر دار الرائد العربى، بيروت ١٤٠١هـ – ١٩٨١م.
- فنون الإسلام، الناشر دار الرائد العربى، بيروت ١٤٠١هـ –

١٩٨١م.
- الفنون الإيرانية فى العصر الإسلامى، الناشر دار الرائد العربى، بيروت ١٤٠١هـ – ١٩٨١م
- التصوير وأعلام المصورين فى الإسلام، مقالة نشرت فى هدية المقتطف السنوية بعنوان "نواح مجيدة من الثقافة الإسلامية، القاهرة ١٩٤٨م.

السباعى محمد السباعى (دكتور):

- عطا ملك الجوينى وكتابه جهانكشا، القاهرة ١٤١٢هـ – ١٩٩١م.

ستيفن رنسيمان:

- تاريخ الحروب الصليبية، الجزء الثالث، ترجمة الدكتور السيد الباز العرينى، الجزء الثالث، بيروت ١٩٦٩م.

شبولر (برتولد):

- العالم الإسلامى فى العصر المغولى، نقله إلى العربية خالد أسعد عيسى راجعه وقدم له سهيل زكار، الطبعة الأولى، دمشق ١٤٠٢هـ – ١٩٨٢م.

الصياد (فؤاد عبد المعطى) دكتور:

- مؤرخ المغول الكبير رشيد الدين فضل ا الهمذانى، الطبعة الأولى القاهرة ١٣٨٦هـ – ١٩٦٧م.
- المغول فى التاريخ (من جنكيز خان إلى هولاكو خان)، القاهرة ١٩٧٥م.

- الشرق الإسلامى فى عهد الإيلخـانيين (أسـرة هولاكوخـان)، منشورات مركز الوثائق والدراسات الإنسـانية بجامعـة قطـر، الدوحة ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م.
- النوروز وأثره فى الأدب العربى من منشورات جامعة بيـروت العربية بيروت ١٩٧٢م.

الطبرى (أبو جعفر محمد بن جرير):

- تاريخ الرسل والملوك: الجزء الأول، تحقيق "محمد أبو الفضـل إبراهيم" الطبعة الرابعة، دار المعارف، القاهرة ١٩٧٩م.

العبود (نافع توفيق) دكتور:

- الدولة الخوارزمية: نشأتها – علاقاتها مع الـدول الإسـلامية – نظمها العسكرية والإدارية ٤٩٠ – ٦٢٨هـ/١٠٩٧ – ١٢٣١م، بغداد ١٩٧٨م.

العزاوى (عباس):

- تاريخ العراق بين احتلالين، الجزء الأول، حكومة المغول، بغداد ١٣٥٢هـ – ١٩٣٥م.
- التعريف بالمؤرخين فى عهد المغول والتركمـان (٦٠١هـ ـ / ١٢٣٤م إلى ٩٤١هـ / ١٣٥٤م)، بغداد ١٣٧٦هـ – ١٩٥٧م.

عطا ملك الجوينى:

- تاريخ فاتح العالم (جانكشاى)، نقله عن الفارسية وقارنه بالنسخة الإنكليزية الدكتور محمد التـونجى، المجلـدان الأول والثـانى،

الطبعة الأولى، حلب ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م.

على إبراهيم حسن (دكتور):

- دراسات فى تاريخ المماليك البحرية، وفى عصر الناصر محمـد بوجه خاص، الطبعة الثانية، القاهرة ١٩٤٨م.

القزاز (محمد صالح) دكتور:

- الحياة السياسية فى عهد السيطرة المغولية، النجف ١٣٩٠هـ – ١٩٧٠م.

القزوينى (زكريا بن محمد بن محمود):

- آثار البلاد وأخبار العباد، نشر دار صادر، بيروت ١٣٠٨هـ – ١٩٦٠م.

القلقشندى (أبو العباس أحمد):

- صبح الأعشى فى صناعة الإنشا، القاهرة ١٣٣٣هـ – ١٩١٤م.

كراتشكوفسكى (اغناطيوس يوليانوفتش):

- تاريخ الأدب الجغرافى العربى: القسم الأول، نقلـه إلـى اللغـة العربية صلاح الدين عثمان هاشـم، القـاهرة ١٩٦٣م، والقسـم الثانى نقله نفس المترجم، القاهرة ١٩٦٥م.

كرافولسكى (دوروتيا):

- العرب وإيران: دراسات فـى التـاريخ والأدب مـن المنظـور الأيديولوجى ترجمة الدكتور رضوان السيد، الطبعة الأولى، دار المنتخب العربى للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت ١٤١٣هـ – ١٩٩٣م.

لسترانج (كى):

- بلدان الخلافة الشرقية، نقله إلى العربية، وأضاف إليه تعليقـات بلدانية وتاريخية وأثرية، ووضـع فهارسـه: بشـير فرنسـيس وكوركيس عواد، بغداد ١٣٧٣هـ – ١٩٥٤م.

ماركو بولو:

- رحلات ماركو بولو، ترجمها إلى الإنجليزيـة ونشـرها "ولـيم مارسدن" ترجمها إلى العربية عبد العزيز توفيق جاويد، الناشـر الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٧م.

الماوردى (أبو الحسن بن محمد بن حبيب البصرى):

- الأحكام السلطانية والولايات الدينيـة، بيـروت ١٣٩٨هـ ـ – ١٩٧٨م.

- المجتمع العربى، تأليف مجموعة من أساتذة كلية الآداب بجامعة عين شمس، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٦٦م.

محمود نجيب حسنى (دكتور):

- الموجز فى قانون العقوبات: القسم الخاص، القاهرة ١٩٩٣م.

المسعودى (أبو الحسن على بن الحسين بن على):

- مروج الذهب ومعادن الجوهر، بتحقيق محمد محيى الدين عبـد الحميد الطبعة الثالثة، القاهرة ١٣٧٧هـ – ١٩٥٨م.

المقريزى (تقى الدين أحمد على):

- الخطط المقريزية المسماة المواعظ والاعتبـار، طبـع بمطبعـة

الساحل الجنوبى، الشياح، بيروت ١٩٥٩م.
- السلوك لمعرفة دول الملوك، نشـر وتحقيـق الـدكتور محمـد مصـطفى زيـادة القـاهرة ١٣٥٣ – ١٣٥٨هـ ـ / ١٩٣٤ – ١٩٣٩م.

المؤرخ الإيرانى الكبير غياث الدين خواندمير كما يبدو فى كتابـه دستور الوزراء، تأليف وترجمة وتعليق الدكتور حربـى أمـين سليمان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٠م.

النسوى (نور الدين محمد بن أحمد بن على بن محمد المنشى):
- سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى، نشر وتحقيق حافظ أحمـد حمدى القاهرة ١٩٥٣م.

نظام الملك الطوسى (خواجه):
- سياستنامه أو سير الملوك، ترجمة الدكتور يوسف حسين بكـار، الطبعة الثانية – دولة قطر، ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م.

نيندهام (جوزيف):
- موجز تاريخ العلم والحضارة فى الصين، ترجمة محمد غريـب جوده الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة ١٩٩٥م.

هارولد لام:
- جنكيز خان وجحافل المغول، ترجمة مترى أمين، مراجعة وتقديم الدكتور زكى نجيب محمود، القاهرة ١٩٦٢م.

هنتس فالتر:
- المكاييل والأوزان الإسلامية، وما يعادلها فى النظـام المتـرى،

ترجمه عن الألمانية الدكتور كامل العسيلى، منشورات الجامعـة الأردنية، عمان ١٩٧٠م.

ياقوت الحموى:

- معجم البلدان، نشر دار صادر، بيروت ١٣٧٦هـ – ١٩٧٦م.

ثانيا: المراجع الفارسية

إقبال (عباس):

- تاريخ مفصل إيران استيلاى مغول تا اعلان مشروطيت، جلـد اول: از حملة جنكيـز تاتشـكيل دولـت تيمـورى، طهـران ١٣١٢هـ.ش.
- مقالة بعنوان: "جاو – جاب – اسكناس" نشرت ضمن مجموعـة مقالات عباس اقبال آشتيانى: شامل يكصد ويك مقالـه بامقدمـه وتصحيح دكتر محمد دبير سياقى، تهران ١٣٥٠هـ.ش.

اقبال يغمائى:

- بسطام وبايزيد بسطامى، تهران ١٣١٧هـ.ش.

بارتولد:

- تذكرة جغرافياى تاريخى إيران، ترجمة حمزه سردادور (طالب زاده) طهران ١٣٠٨هـ.ش.

براون (ادوارد):

- از سعدى تاجامى: تاريخ ادبى إيران از نيمة قرن هفتم تـاآخر قرن نهم هجرى: عصر استيلاى مغول وتاتار، ترجمه وحواشى بقلم على أصـغر حكمـت، تهـران ١٣٢٧ شمسـى = ١٩٤٨ ميلادى.

بيانى (شيرين: اسلامى ندوشن):

- دين ودولت در إيران عهد مغول، جلد دوم: حكومت ايلخـانى:

نبرد ميان دوفرهنك، جاب أول، تهران ١٣٧١هـ.ش.

بطروشفسكى:

- كشاورزى ومناسبات أرضى در إيران عهد مغول، ترجمة كريم كشاورز، تهران ٢٥٣٥ شاهنشاهى.

بيكولوسكايا (ن.و) وآخرون:

- تاريخ إيران ازدوران باستان تاپايان سـدة هيجـدهم مـيلادى، ترجمة كريم كشاورز، تهران ١٣٥٤ هـ.ش.

جروسيه:

- امبراطورى صحرانوردان، ترجمة عبد الحسين ميكـده، جـاب سوم تهران ١٣٦٨هـ.ش.

جوزجانى (أبو عمرو منهاج الدين عثمـان بـن سـراج الـدين، معروف به منهاج سراج):

- طبقات ناصرى (ألف فى الفترة ما بين ٦٥٧ – ٦٥٨هـ) تحقيق عبد الحى حبيبى قندهارى، كابل ١٣٤٣هـ.ش.

الجوينى (علاء الدين عطا ملك بن بهاء الدين محمد):

- تاريخ جهانكشاى (ألف ما بين سـنة ٦٥٠ – ٦٥٨هـ ـ) نشـر وتصحيح محمد بن عبد الوهـاب القزوينـى، ليـدن ١٣٢٩ – ١٣٥٥هـ / ١٩١١ – ١٩٣٧م.

حافظ آبرو:

- ذيل جامع التواريخ رشيدى (ألف سنة ٨٣٣هـ/١٤٢٩م شـامل

وقايع (٧٠٣ – ٧٨١ هجرى قمرى)، باهتمام دكتر خانبابا بيانى، تهران ١٣٥٠هـ.ش.

خواندمير (غياث الدين محمد بن همام):

- حبيب السير فى أخبار أفراد البشر (ألف سنة ٩٣٠هـ / ١٤٢٣م جاب أول، تهران ١٣٣٣هـ.ش – جاب دوم عكسى، تهران ١٣٥٣هـ.ش.
- رجال حبيب السير: از حملة مغول تامرك شاه إسماعيل أول، كرد آوردة عبد الحسين نوائى، بامقدمه وسه فهرست، طهران ١٣٢٤هـ.ش.

رشيد الدين فضل ا بن عماد الدوله أبى الخير بن موفق الدولة همدانى:

- تأريخ مبارك غازانى (داستان غازان خان) بسعى واهتمام أقل العباد "كارل يان"، هرتفورد ازبلاد انكلستان سنة ١٣٥٨ هجرى مطابق سنة ١٩٤٠ مسيحى.
- جامع التواريخ، جلد دوم در تاريخ بادشاهان مغول از اوكتاى قاآن تاتيمور قاآن، نشر وتحقيق ادكار بلوشيه، ليدن ١٣٢٩هـ/١٩١١م.
- جامع التواريخ: مغول إيران، جلد سوم، متن علمى وانتقادى فارسى بسعى واهتمام عبد الكريم على أوغلى على زاده، نشر معهد الدراسات الشرقية بآذربيجان السوفييتية، باكو ١٩٥٧م.
- جامع التواريخ، جلد أول از آغار بيدايش قبايل مغول تاباي‍ان

دورة تيمور قاآن، نشـر وتحقيـق بهمـن كريمـى، طهـران ١٣٢٨هـ.ش.

- جامع التواريخ رشيد الدين فضـل ا همـدانى، بـه تصـحيح وتحشية محمد روشن – مصطفى موسوى، جلـد اول، تهـران ١٣٧٣هـ.ش.

- جامع التواريخ: قسمت اسماعيليان وفاطميان ونزاريان وداعيان ورفيقان، بكوشش محمد تقى دانـش بـزوه ومحمـد مدرسـى (زنجانى) بنكاه ترجمة ونشر كتاب، جاب دوم، تهـران ٢٥٣٦ شاهنشاهى.

- تاريخ افرنج يافصلى از جامع التواريخ، با مقدمـه وحواشـى وفهارس بكوشش محمد دبير سياقى، مدخل كارل يان، تهـران ١٣٣٩هـ.ش = ١٩٦٠م.

- جامع التواريخ، جلد ٢، جزء ٥: ذكر تاريخ آل سلجوق، بسعى واهتمام أحمد آتش، أنقره ١٩٦٠م.

- مكاتبات رشيدى، بسعى واهتمام وتصحيح أقـل العبـاد محمـد شفيع، بإضافة حواشى وفهارس، لاهور ١٣٦٤هـ – ١٩٤٥م.

- وقفنامه ربع رشيدى: الوقفية الرشيدية بخط الواقف فـى بيـان شرائط أمور الوقف والمصارف. أثر رشيد الدين فضل ا بـن أبى الخير بن عالى الهمدانى مشتهر برشيد الطبيب، جاب عكسى از روى نسخة أصل، زير نظر مجتبى مينوى – ايرج افشـار،

سلسلة انتشارات انجمـن آثـار ملـى، شـمارة ۸۷، تهـران ۱۳۵۰هـ.ش.

زاده (هاشم رجب) دكتر:

- آئين كشور دارى در عهـد وزارت رشـيد الـدين فضـل ا همدانى، تهران ۲۵۳۵ شاهنشاهى:

ستوده (منوجهر):

- قلاع اسماعيلية در رشتة كوههاى البرز، تهران ۱۳٤٥هـ.ش.

شبانكارى (محمد بن على بن محمد):

- مجمع الأنساب بـه تصـحيح ميـر هاشـم محـدث، تهـران ۱۳٦۳هـ.ش.

شبولر (برتولد):

-- تاريخ مغول در إيران: سياست، حكومت وفرهنك ايلخانـان، ترجمة دكتر محمود آفتاب، تهران ۱۳٥۱هـ.ش.

صفا (ذبيح ا) دكتر:

- خلاصة تاريخ سياسى واجتماعى وفرهنكى إيران تابايان عهـد صفوى تهران ۲۵۳٦ شاهنشاهى.

القاشانى (أبو القاسم عبد ا بن محمد)

- تاريخ اولجايتو (بادشاه سعيد غياث الدنيا والدين اولجايتو سلطان محمد - طيب ا مرقده - به اهتمام مهين همبلى، بنكاه ترجمه ونشر كتاب، تهران ۱۳٤۸ هـ.ش.

لوى (حبيب)

- تاريخ يهود إيران، نشر كتابفروشى بـروخيم، تهـران ١٣٣٩ شمسى = ١٩٦٠ ميلادى.
- مجموعة خطابه هاى تحقيقى دربارة رشـيد الـدين فضـل ا همدانى كه در مجلس علمى مربوط به او از ١١ تـا ١٦ آبـان ١٣٤٨هـ.ش در دانشكاه هاى تهران وتبريز خوانده شده است، طهران ١٣٥٠ هـ.ش.

نخجوانى (محمد بن هندوشاه):

- دستور الكاتب فى تعيين المراتب، جزء اول از جلد يكم، نشـر وتحقيق عبد الكريم على اوغلى زاده، مسكو ١٩٦٤م.

نصير الدين طوسى (خواجه):

- تنسوخ نامة ايلخانى، بامقدمه وتعليقات مدرس رضوى، تهـران ١٣٤٨هـ.ش.

وصاف (أديب شرف الدين عبد ا بن فضل ا شيرازى الملقـب بوصاف الحضرة):

- تاريخ وصاف، طبع بمباى، ١٢٦٩هـ.
- تحرير تاريخ وصاف، به قلم عبد المحمد آيتى، انتشارات بنيـاد فرهنكـ إيران، تهران ١٣٤٦هـ.ش.

ثالثًا: المراجع الأوربية

Arberry:

- Classical Persian Literature on Rashid Al Din, London 1958.

Barthold.W.

- Mir Islama, St Petersbourg, 1912.

Berthold Spuler:

- Die Mongolen in Iran, Leipzig, 1939.

- The Cambridge History of Iran. Vol 5, The Saljug and Mongol Periods, edited by J.Boyle, Cambridge 1968.

D’ohsson M. Le Baron:

- Histoire Des Mongols depuis Tchinguiz-khan Jusqu’ a Timour Bey ou Tamerlan, Paris, 1824.

- Encylopaedia Judaica, Vol 13, Second Printing, Jerusalem, 1973.

Grousset René:

- L'Empire des Steppes. Paris, 1948.

Howorth H.H:

- History of the Mongols. London, 1875.

- Proceedings of the Colloquim On Rashid Al Din Fadlallah: Tehran, Tabriz, II - 16 Aban 1348 (2 – 7 November 1969), Tehran 1971.

- Rashid al Din,s Knowledge of Europe, by Karl Jpan.

- Rashid al Din Fazl Allah and India, by k. A Nizami.

Walter J. Fischel:

- Jews in Economic and political Life of Mediaeval Islam, Royal Asiatic Socity Monographs, Vol. XXII, London, 1937.